

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة المؤلف

إلى روح والدي ...

كان أعظم أمانيك في أمري .. رحمة الله عليك وعلى والدتي التي لم تكن تساهمك فقط ، بل تسابقك فيما يرحى فيه رضى الله تعالى ، حتى انى كنت أفنعتها قبلك - وأنا في ملتقى الشباب والصبأ - بأن تأذن لى وتستأذنك في السفر لأول مرة إلى قيصرية المشتهرة بهلمائها بين مدن الأناضول ... كان أعظم أمانيك أن أجتهد في طلب العلم وأصبح عالما من علماء الدين . وكنت في رغبتك هذه أشد شرها من النهومين^(١) حتى انك لما أتيت الاستانبول من بلدنا توقاد ورأيتني مدرسا في جامع السلطان محمد الفاتح - الذى كان في عهد الدولة العثمانية كالأزهر الشريف بالقاهرة وأفضل من الأزهر الحاضر - وأنا يومئذ في الثانية والعشرين من عمري ، قلت لبعض أصدقائك عني : « استأذنى لطلب العلم في الآستانة بعد القيصرية^(٢) » فالبث أن حصل على شهادة العالمية وتربع على كرسى التدريس . وكان الواجب عندي أن يستمر في التعلم حتى يبلغ الثلاثين على الأقل » .

[١] منهومان لايشعان طالب علم وطالب دنيا (الحديث) .

[٢] أخذت العلم في القيصرية عن الشيخ محمد أمين الدورى الشهير بداماد الحاج طرون أفندى ، وقبلها في بلدنا توقاد عن تلميذ أستاذى في القيصرية الشيخ أحمد أفندى زولية زاده الى آخر التصورات من شرح الشمسية للقطب الرازى ، وأخذت في الآستانة عن محمد عاطف بك الأستانبول وعن أحمد عاصم أفندى السكولجنوى الذى كان وكيل الدرس في المشيخة الإسلامية والذى زوجني بنته بعد أن توليت التدريس . فأولئك أساتذتى وشيوخى تغمدهم الله برحمته .

وقد كنت رحمك الله على حق في استقلال مكتسباتي العلمية ، لكن استعجال القدر في أمري ظهرت حكمته بعد أن عاينت ما كان ينتظرني من وقائع الحياة الهامة . ثم كان ثاني ما لم يسرك من موقفي يومئذ أني توليت وظيفة التدريس بمرتبة من الحكومة ، وكان هذا على الرغم من أنك لست بذى ثروة تكفلني وأسرتي المستقبل . وبالقياس على هذا لأرتاب في أنك لو كنت حياً يوم توليت منصب المشيخة الإسلامية في الدولة العثمانية ما ازدادت مكانة عندك وحصولاً على مرضاتك .

ولكنك لو رأيتني وأنا أكافح سياسة الظلم والهدم والفسوق والمروق ، في مجلس النواب وفي الصحف والمجلات قبل عهد المشيخة والنيابة وبعدها ، وأدافع عن دين الأمة وأخلاقها وآدابها وسائر مشخصاتها ، وأقضي ثلث قرن في حياة الكفاح ، ممانياً في خلاله ألوان الشدائد والمصائب ومغادراً السال والوطن مرتين في سبيل عدم مغادرة المبادئ ، مع اعتقال فيما وقع بين المهجرتين ، غير محس يوما بالندامة على ماضيت به في هذه السبيل من حظوظ الدنيا ومرافقها - لأوليتني إعجابك ورضاك . وهذا الكتاب الذي وضعته في سنوات الأخيرة سنوات التوقف في المهجر عن الجهاد السياسي متفرغاً للجهاد العلمى الدينى ، والذي كتبت فيه ما يحتاج المتعلم المسلم إلى معرفته من المسائل العلمية والفلسفية لتسلم عقيدته الدينية وتصمد أمام تيارات الزيف المصرى وناضلت أشتاتاً من أهل العلم والأدب في الشرق والغرب أحياء وأمواتاً^(١) وقد توغلت في طريق الجهاد حتى جاهدت مع الذين ناضلتهم ، عجمة قلبي عند الكتابة ... هذا الكتاب أرجو أن يكون مما يرضيك ويتفق مع ما كنت تتوقع مني بمد طلب العلم ، وأنا أحسب في رضاك هذا رضى ربى سبحانه وتعالى^(٢) .

[١] وبعضهم كانوا أحياء في أثناء تأليف الكتاب ثم ماتوا قبل نشره .

[٢] رضى الرب فى رضاك الوالد (الحديث) .

أما رضى الله مباشرة فذاك أجل وأسمى من أن يكون مبتنى مثل من أقل عباد الله بواسطة كتاب مثل كتابي من أقل الكتب .

ثم إلى الفئة القليلة الذين يرغبون في قراءة كتابي هذا رغم ما تضمنت قراءته من إتمام الفكر وشغل غير قليل من الوقت ... إلى الذين يرغبون في قراءته مهتمين به ، لا قائلين بمد إجابة نظرات عابرة فيما انفق لأعينهم من صفحاته ، مامعناه :

« مالنا وللتثبت في العقيدة الدينية الضائعة بين العقلية القديمة والحديثة المتأثرة من تيار الشكوك التي أصدرها الغرب المسيحي من ناحية واللا ديني من ناحية إلى شرقنا الإسلامى ، كما يُصدر سائر بضائمه ، وكان في طليعة هذا النوع من الصادرات المتعلمون على النظام الحديث ... مالنا وللتثبت الذى يصل بنا هذا الكتاب إليه ويستأصل جذور تلك الشكوك في ادعاء مؤلفه ؟ فهل فيه للفقر ما بقوته أو يكسوه في دنيا المجاعة والعري ، وللعامل المجهود ما يخفف عنه ثقل العمل ، وللمهموم ما يعلله ويسليه ؟ وبالاختصار : هل فيه ما ينفع الإنسان في هذه الدنيا الدنية المرتدية برداء المدنية ؟ » أقول :

إن بين الدين والدنيا مسألة العلم لا يمكن أن يتخلى عنها متعلمو البلاد كما لا يمكن أن تتخلى البلاد عن المتعلمين . فهذه المسألة هي التي تكون رابطة بين الدين والدنيا وتمنع الدينويين أن يتخلوا عن الدين ، لأن مرجعه إلى فلسفة ما بعد الطبيعة التي هي الفلسفة العالية رغم المستخفين بها من فلاسفة الغرب والمحاولين إخراجها من العلم وحصر العلم فيما يستند إلى التجارب الحسية ، وتبهمهم معالي هيكل باشا في مقدمة كتابه « حياة محمد » والأستاذ فريد وجدي بك على طول مجلة الأزهر . ونحن سنثبت في غير موضع من كتابنا هذا بعون الله وتوفيقه أن العلم الذى يستند إليه الدين أفضل من علم الماديين . وهنا نكتفى بأن نقول سلفا أن النفس الناطقة التي هي مناط العلم ليس

إلا أمراً ميتافيزيقياً كالعلم نفسه يعجز الطبيعيون عن إدراك ماهيته ، ولذا قال (شاتوبريان) : «إن الإنسان حيوان ميتافيزيقي» وفيه امتياز على سائر الحيوانات .. وناهيك في اتصال الدين الوثيق بالعلم قول الله عز وجل «إنما يخشى الله من عباده العلماء» .

قلنا إن مسألة العلم تتوسط بين الدين والدنيا وتربط أحدهما بالآخر فيحتاج إليها طالب كل من الطرفين ، وإن كان كتابي هذا يعنى العلم من ناحية اتصاله بالدين كما أنه أى كتابي يعنى بناحية كون الدين حقيقة من الحقائق مقطوع النظر عن نفقه في الدنيا والآخرة .. وهذا كما قد يكون العلم مطلوباً لنفسه من غير ملاحظة نفقه للدين أو الدنيا فهو يستغنى بما فيه من لذة الروح عن غاية أخرى ، ويكون مدعو هذا القصد من العلم كثيراً وأصحابه أقل من القليل .. وإني قوى الأمل في أن كتابي يخدم مع أهل الدين هذه الطائفة القليلة الوجود من الراغبين في العلم .

فبقيت الطائفة المتعلمة التي يكون مقصودها من طلب العلم الحصول على شهادة العلم لا العلم نفسه ، فإذا استفادوا بتلك الشهادة شيئاً من الدنيا كالمال والجاه والشهرة كان ذلك شهادة على شهادتهم التي تحتاج إلى شهادة ... بقيت هذه الطائفة لا يعينهم الدين ولا صلته بالعلم ولا مبلغ هذا العلم من القوة والأهمية ، ثم الذين يكونون على كثرتهم وتجارهم الراجحة ، رمزاً لفقر البلاد وإفلاسها المعنويين .

ولقائل أن يقول لي وأنا مشغول البال بالمتعلمين المتوقع منهم أن يكونوا قراء كتابي: إن للبلاد في هذه الآونة شغلا شاغلا عن قراءة الكتب مهما كان مبلغ أهميتها في الدين والعلم وفي فصل النزاع بينهما قدماً في الغرب وحديثاً في الشرق الإسلامي منذ تفاني في تقليد الغرب .. وهو شغلها بالسمى في الاستقلال والتخلص من تحكم الدول الكبيرة الغالبة في الحرب الأولى والثانية العالميتين ، فهي تسمى قبل كل شيء وترجيحاً على كل شيء أن تتخذ لها مكاناً بين الدول سويًا تمشي في الدنيا كما يمشي

غيرها في مأمن من التدخل والعدوان ... وجوابي على هذا القول يحتاج إلى تبسط في البيان على الوجه الآتي :

يا إخواني المسلمين في المشرق والمغرب ويا أئم الدول الصغيرة قدما أو بعد أن كانت دولة شامخة : إنا أضعنا الدنيا ، وبقينا العوبة في أيدي ثلاث دول كبيرة من الكبار ، أولاها ثلاثة الأتافي وثالثها شر من أولها ؛ وقد سنحت لنا بأجمعنا أثناء الحرب العالمية الثانية المنتهية انتهاء لفظيا ، فرصة أقل ما كان في انتهازها أن لانقع في ندامة من جرب المحرب وأن لاتتطفل على الغالب تطفنا اليوم ، فرصة فطن لها من فطن فتقدم مثالا لغيره بدعوم إلى الواجب ، وكان كزيادة فرصة على فرصة ، ولكنهم خذلوه وضيعوه مع الفرصة : وهذه كلمة حق أقولها ولو كره المبطلون ، لعلمها تنفعني يوم ينفع الصادقين صدقهم .

أضعنا الدنيا وأضعنا الفرصة فأصبحنا العوبة في أيدي الدول الكبرى اللأئي فعلن ما فعلن في الحرب وقتلن من قتلن فيها من ملايين البشر .. والآن وقد مضت على انتهاء الحرب ثلاث سنوات لا يزال الموت الذي فتحت الحرب أبوابه على مصراعها ، يأكل من سكان الأرض الباقين بعد الحرب الصارخة صراخ النفخة الأولى الميته من صور إسرائيل .. يا كلهم بأنبيائها الصامته من الجوع والعري والتشريد .. مع أن هذا النوع من الموت أعم وأشمل لغير المحاربين .. فاذنبهم يشتركون في تبعات الحرب التي لم يشتركوا فيها غالبين ولا مغلوبين ؟

ولم تقنع الدول المحاربة بإثارة هذا النوع من الموت على العالم في السلم بعد الحرب بل ابتدعوا نوعا آخر أدهى وأمر ، وهو أنهم أسسوا مجمعا مسمى بهيئة الأمم دعوا إليها مندوبين من كل دولة صغيرة وكبيرة ليحكموا فيها على من يشاءون من الأمم بما يشاءون ظلما وعدوانا ويقسموا وبال الظلم والعدوان بين مجموع الهياة ، حتى جعلوا من حق هذه الهياة وفي وسمها أن تنزع بلادا من أهلها وتمنحها قوما غيرهم من غير

حرب ، ولكن كزكاة الظفر للحرب العالمية الثانية المنتهية ، وإن لم تكن صلة هذه الحرب بتلك البلاد ولا بأهلها .. كما ترى هذه الحالة في فلسطين التي تمنحها هيئة الأمم مشردى اليهود الافقيين لينشئوا فيها دولة .. حتى إن أمريكا وروسيا الحليفين ضد الألمان في الحرب وضد العرب بعد الحرب والجارتين من ورأئهما في هيئة الأمم كثيراً من الدول الصغيرة ، لو اتفقنا على إنشاء دولة يهودية في ألمانيا أو اليابان كان له شيء من المناسبة والمقولية .. لكنى أرى تلك الدول الصغيرة التي انحازت إلى جانب الكبيرتين الظالمتين في مسألة فلسطين أحق إلى التعمير والتشهير من أمريكا وروسيا وأحق من هبقة في موقفها المؤيد لخصوم الدول العربية الظالمين^(١) .

[١] كلنا يعلم فتنه اليهود السلطة على المسلمين منذ عهد الصحابة رضوان الله عليهم بل من عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا الذي يحاربون فيه العرب لاغتصاب فلسطين من أيدي أهلها بقوة المهاجرين إليها من أبناء دينهم المشردين في مختلف بلاد العالم لاسيما أوروبا المسيحية .. يحاربون اليوم ليمسكوا فلسطين ويختلفوا لهم فيها دولة ، بعد أن كانوا بين سكان تلك البلاد قلة ضئيلة ، في استطاعة الحاكمين فيها فرونا طويلة قبل الحروب الصليبية وبعدها من العرب والترك أن يطردهم أو يذنبوهم في أمتهم . أما فتنه اليهود على النصارى فهي أعظم من فتنهم على المسلمين وأعظم لإنها فتنه متعلقة بدينهم لا من حيث أنهم حاربوا النصرانية وحاربوا سيدنا المسيح نفسه أشد وأصرح من محاربة سيدنا محمد ، حتى أنهم قتلوه فيما يعتقدون .. بل من حيث أن ضررهم على الديانة المسيحية بعيد الأثر جدا . فلما قتل المسيح في عقيدة النصارى ثم قام حيا ورفع إلى السماء سبب ذلك عندهم التباسا بين ألوهية الله وبوة المسيح ، التباسا يفسد عقيدة النبوة والألوهية معا ، فأخذوا يعدون المسيح ابن الله أو الله نفسه يعدون الواحد ثلاثة والثلاثة واحدا ، ومعناه أنهم جعلوا العقيدة النصرانية مجمع النقائص والسخافات .

ينجلي من هذا البيان مبلغ تأثير اليهود في إفساد ديانة المسيحية بسبب تصديقهم بقتل المسيح عليه السلام .

وزاد في الفساد فساداً والسخافة سخافة تضحية الله بنفسه في قتل المسيح توصلا به إلى الدفوع عن ذنوب البشر . والله متعال عن أن يكون له مثل ضلال المعتقدين له هذه التضحية — كما أن عقيدة الدين الأصلي المنزل من عند الله على سيدنا المسيح براء من هذه السخافات الطارئة على المسيحية بعد رفعه إلى السماء ، بأيدي الحرفين المسرفين في التحريف اسرافاً ليس وراءه اسراف — فيجعل الله من نفسه كبش الفداء لمصلحة المذنبين من عباده كأنه هو المذنب والمذنبون هم العافون =

وقد كان أجدر وأجدى للدول الصغيرة المضيعة للفرصة التي أشرنا إليها من قبل أن يجمعن شملهن بعد الحرب على الأقل فيعقدن فيما بين مجموعتهن حلفا رائعا ويصبحن بفضل عدهن الكثير رغم ما في آحادهن من الصغر ، قوة رابعة في خارج الدول الثلاث الكبرى الغالبة في الحرب .

أضعنا الدنيا وخسرناها فلا نخادع أنفسنا بالاعتماد على قوة المستند العقلى وسلاح المنطق ، فهذا السلاح الذى كثيراً ما أدافع عنه في هذا الكتاب ، إن كان يجدى كل أحد في إثبات الحق أمام الحاكم المدل فلا يجدى أمام الحاكم بالقوة . فلو سمعنا لأن نتقوى نحن أيضاً - ولا بد أن نسمى ونجتهد في تعلم أسبابها - فلا نتقوى بقدر ما تقوت الألمان وتعلمت واجتهدت . ولو بلغنا مبلغها في العلم والاجتهاد والاستعداد لما يكفينا ذلك في بلوغ الغلبة النهائية كما لم يكف الألمان ، ولو سبقناهم واكتشفنا سلاحاً أمضى من القنبلة الذرية فلا يمهلنا حكام الدنيا المتغلبون لاستكمال تجاربه كما لم يمهلوا الألمان وكانت مزية الحلفاء الناجحين في الحربين العظيمتين ، مزيتهم التي لا تبارى : أن كانوا سابقين غيرهم في التحكم على أهم الأرض والاستيلاء على القواعد سبقاً زمانياً .

أضعنا الدنيا مع قوتنا البعيدة التدارك اليوم ، فلا نتوقع من بعد خيراً فيها ولا نأمل من سباع الإنس الضواري إلا ولا ذمة .

== عن ذنبه بدلا من ذنوبهم والله الذي يملك العفو عن الذنوب مات في عقيدة التضحية فليس هناك من يتولى العفو عن المذنبين غير المذنبين أنفسهم ، وليس هناك من يحيى الله الذى مات ، فلو قلنا ان احياء الله بعد موته كان بيده لم تكن التضحية تضحية .

ولانى كنت قلت عن مسيحي أمريكا ورئيسهم ترومان الذين انحازوا في مسألة فلسطين إلى جانب اليهود وجانبوا العرب والحق .. كنت قلت عنهم إنهم أبعد الناس عن الفيرة الدينية كبعدهم عن الفيرة على الحق والعدل .. لولا أنى وجدت لفعالهم هذا الذى لا يوجد له مثل في السخافة ، اللهم الا ما في عقيدة المسيحيين من تضحية الله بنفسه للعفو عن المذنبين والمجرمين من البشر الذين يدخل فيهم اليهود قتلة المسيح المودود ابن الله أو الله نفسه ، دخولا أوليا .

ومما يؤسف له أن الدول الكبرى الغالبة التي وقعت البشرية بعد انتهاء الحرب بغيرها تحت رحمتها، أرادت إشراك الصغريات في جنائهم الحرية المفسدة للحياة المهلكة للحرث والنسل الجاعلة للعالميا تضيق على أهلها بما رحبت .. فخصتها أى الصغريات على إعلان الحرب على الألمان وهم فى حالة سكرات الموت من الانهزام وفى غيرسمة الوقت لأن تصل إليهم ضربة من المحاربين الجدد ولو على آخر رمق من حياتهم. فكان معنى إعلان هذه الحرب اشتراك الآنام الغالبين إن لم يكن اشتراكا فعليا فى الحرب ، وبالاختصار حركة غير شريفة طلبا لمرضاة الغالب على تصديق على الدخيل من زكاة الظفر . وقد نال هذا الرجاء المبني على خدمة القوى ضد الضعيف ما يستحقه من الخيبة .

وكانت مصر طالبت الإنجليز فى غداة الحرب الكبيرة الأولى أيضا باستقلالها، مستندة فى تلك المطالبة إلى مساعدتها فى الحرب ضد الدولة العثمانية التى كانت مصر تابعة لها وموقف الإنجليز منها موقف الغاصب .. كما استندت فى مطالبها الثانية إلى مساعدتها ضد الألمان فى الحرب الثانية التى لاناقة لها فيها ولا جمل^(١) سوى التهميد للاشتراك فى الغنيمة بعد غلبة الإنجليز على الألمان بفضل مساعدة مصر .

أما موقف مصر فى مساعدتها الأولى للإنجليز فكان عبارة عن مطالبة الغاصب بضمن المساعدة . وأعجب منه أنها رمتنى لما هاجرت إليها رفضا لحكومة مصطفى كمال الذى كان يُعد فى ذلك الزمان عدو الإنجليز ومكرها على الجلاء من الآستانة . فكانهم عابونى بمشايمة المغلوب فى معارضة الغالب فى حين أنهم لاعيب عليهم فى مشايمة الإنجليز الغالبة وخذلان تركيا المغلوبة وإن كانوا جد غالطين فى توهم

(١) كما خرج هذا التعبير أثناء الحرب من لسان شيخ الأزهر المراغى وسبب اشتماز الإنجليز .

الخصومة بين مصطفى كمال والإنجليز ثم في افتراضه غالباً عليها في تلك الخصومة ،
وجد ظالمين في رمي بدائهم ودائه .

عود على بدء ... ضيعنا الدنيا حين ضيعنا اللب في الصيف . فهمتنا اليوم أن
نتمسك بديننا ونكسب الآخرة . وهذا الكسب هو الذي لا يمكن الأفوااء الدينيين
من أعداء الدين أن يبارونا فيه والذي لأدعو نفسي وأخواني المسلمين إليه بدافع
القنوط من الفوز الديوى ، فلو فرنا بالدنيا كان ما أَدْعُو إليه أهم منها أيضاً .. لما تولى
عمر بن عبد العزيز الخلافة قال ما معناه : « بلغت المنتهى في اكتساب الدنيا فهمتى
اليوم كسب الآخرة ! » فهذا الكسب هو الصفقة الراجحة التى لاصفقة تعدلها والتى
تموز الملوك . وإذا كان كسب الآخرة هو مهمة الناجح في كسب الدنيا فلأن يكون
مهمة الذين خسروها أولى .

ربما يوجد بين القراء المسلمين لاسيما مسلمى هذا العصر من يشق عليهم التسليم
بضياع الدنيا بل قد يوجد فيهم من لا ترضيهم الآخرة المجردة من الدنيا مهما جل نعم
الآخرة وضوّل بجانبه نعم الدنيا الفانية . . ولى كلام معهم أيضاً وطريقة توصلهم إلى
الجمع بين سعادة الدارين الذى لا بجانبه الإسلام القائل بلسان نبيه : « ليس بخيركم
من ترك دنياه لآخريته ولا من ترك آخريته لدنيائه حتى يصيب منهما جميعاً فإن الدنيا
بلاغ الآخرة » ولسنا نحن بفاقدى الأمل في حالتنا الحاضرة كل فقد إن كنا رجالا
مستكملى العزم في تدارك ما فاتنا من كلا الأمرين . وإنى أعلنت إلى هنا كيف أضعنا
الدنيا بتقصيرنا فيما كان يجب أن نعمل به على حسب ما حدث للدنيا من الأوضاع
الجديدة ، ولم أذكر شيئاً عن تقصيرنا في الأزمنة الطويلة المتقدمة على الأوضاع
الأخيرة . . ذلك التقصير الذى استمر إلى الزمان الحاضر وهى لنا خسارة الدنيا
والآخرة . وقد لفت الأنظار هنا إلى الخسارة الأولى فقط لما تجلت هى أمام كل عين

بصيرة فأهبت بالمسلمين إلى الاحتفاظ ببقية مافي أيديهم من قوة الإسلام صوتاً لهم من خسارة الدارين .

أما إذا أرادوا أن يكونوا أقوياء في الدين والدنيا معاً ويُبعثوا إلى الحياة مرة ثانية قبل ممات الآخرة ، فطريق الوصول إلى هذه الغاية في موقفنا هذا الذي لا أمل لنا ولا قدرة على سباق الأمم الغالبة في الحريين المذكورتين ، بالسلاح هو التمسك بديننا وأخذ القوة من قوته حتى القوة الدنيوية إلى حد أن تغلب الغالبين ؛ لأن الإسلام أقوى الأديان وأوفقها للعقل الذي يغلب بفضلُه غُلبُ الدنيا . والقارى يتبين هذه النقطة الأساسية من هذا الكتاب ، ويتبين منه أيضاً أن غلاب الدنيا في الحروب الأخيرة يحاربون الأمم بسلاح العقل ، حتى إذا قام العقل يحارب دينهم الذي لا يتفق مع العقل كسروا هذا السلاح واستسلموا للدين ولكن لا بد أن يكون هذا الدين الذي سبب قتل العقل وكسره ، مكسوراً أيضاً وعلى الأقل متهماً بقتل العقل .

ومع هذا فالقوم أصحاب هذا الدين المكسور والعقل المكسور يقومون بمجانب الأعمال . ونحن السليعى العقل والدين من اصطدام بعضهما ببعض بل المتقوى ديننا بعقلنا وعقلنا بديننا عاجزون أمامهم . فإن كان الدين قوة والعقل قوة فلماذا لانستفيد قوتين منهما سليمتين في حين أنهم يستفيدون من قوتها مصطدمتين ؟ وماذا ينقصنا بالنسبة إليهم حتى وقمنا في هذا المعجز المقيم ؟

وقد يقال إنهم لا دين لهم أو بالأصح لا دين لرجال الدولة والسياسة والعلم الذين يهودونهم ويسوقونهم .. لا دين لهذه العناصر العقلية فيهم حتى يقع الاصطدام بين دينهم وعقلهم فيكون العقل في واد والدين في واد وتكون السلطة في غير جانب الدين . وهذا هو الشكل المعبر عنه بفصل الدين عن السياسة والدولة . وسيجىء بحثه منا في هذا الكتاب مع نتيجة البحث القائلة بعدم جوازه في الإسلام . فهل هذا سبب قوتهم وتقدم بلادهم كما يدعى المدعون أيضاً .

وجوابه أن فصل الدين وإقصاءه عن السياسة أخذ يُعمَل به من زمان قنما في مصر
وتاماً في تركيا الجديدة ولم يُر من تأثيره في تقدم المملكتين ما يستحق الذكر .
وإنما يُرى أعظم تأثير الفصل في إفساد الأخلاق حيث لا يمكن ادعاء بقاء الأخلاق
على نزاهتها في البلاد المقطوعة صلة حكومتها بالدين كما لا يمكن ادعاء وجود واسطة
لصيانة الأخلاق من السقوط، أفضل من الدين . ولهذا أصبح التقدم المشهود في بلاد
الحضارة الجديدة مليئاً بالفسق والفجور، حتى أن اتساع الميدان للفسق والفجور في تلك
البلاد يعدّ من لوازم تقدمها . فإن كانت حاجة أمة في أخذ حصتها من التقدم
والنهوض في الحضارة الجديدة ، مسلّمة لحد لزوم الإغماض عما تستتبعه تلك الحضارة
من فوضى الأخلاق ، فنحن المتأخرين نلام بالتقصير في مهمتنا ونكون حرياً أن
يتمبرنا المتقدمون دونهم في مرتبة الإنسانية ، وإلا فالأمر بالعكس ونحن أسعد منهم
وفوقهم .

ولا يقتصر حال هؤلاء الأمم المتقدمة المتحضرة في القبح ، على شيوع الفسق
والفجور في بلادهم بل ينضم إلى مثالهم الداخلية اعتيادهم الظلم والغدر على أهل البلاد
التي تطاولت أبديهم إليها بنغصون عليهم المعيشة والحياة في بلادهم ويشاركونهم في
اجتناء منافعها محرمين على أهل البلاد ما يملكونه لأنفسهم من حقوق الإنسان
ومتوسلين في كل ذلك بكل وسائل من الخبر والسكر والخديعة . ونحن نسمع الفينة
بعد الفينة عن بعض الواقفين على أخلاق الإنجليز شعباً وأمة لا حكومة، أنهم مخلصون
في صداقة من يتصادقون معهم من غير بنى جلدتهم على الرغم من كون حكومتهم مع
الأجانب أخدع من الضب وأخبث من الثعلب وأعيث من الذئب . لكن رأيت أن
لا يكون أصدق تمثيلاً وتمبيراً عن الأمة من حكومتها ، لاسيما إذا كانت حكومة برلمانية
مبنية على الانتخاب الحر لأن الحكومة الإنجليزية إن لم تعلم السكر من أمتها فن أي
حكومة تعلمته ولا حكومة أمكر منها ؟ اللهم إلا أن تكون تعلمته من الشيطان .

ونحن لانعترف بكون الأمم المتحضرة الحاضرة المتغلبة على الدنيا بنيًا وعدوانًا بعد الحصول على أسباب تلك الغلبة من الاكتشافات العلمية والأساليب الدبيرة .. لانعترف بكونهم أعقل الأمم .. أما متدينوهم فلاصطدام عقولهم بدينهم ، واستسلامهم لذلك الدين ، وأما ملاحظتهم فلقصور عقولهم عن فهم الدين الذى هو فى طبيعة الحقائق العالية العقلية كما يتبين من هذا الكتاب ولأن العقول من صاحب العقل الراجح أن لا يكون ظالما ضارا لأى واحد من بنى آدم . قال أحد ذوى العقول الكبيرة :

نهانى عقلى فلا أظلم وعز مكافى فلا أظلم

وعلى رواية (حلى) فى البيت بدلا من (عقلى) فالحلم أيضا بمعنى العقل كما فى قوله تعالى « أم تأمرهم أحلامهم بهذا » ويلزم أن تكون زيادة العقل فى الإنسان تنافى مع الفسق والفجور أيضا . ولذا قال الله تعالى حكاية عن أهل جهنم : « لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير » فلا نسلم بكون أصحاب الحضارة الجديدة الفاجرة القابضين على زمام الدنيا أعقل الأمم .

نعم لعقولهم تقدم فى الماديات لا فى المعنويات . فلهم النصيب الأوفر من عقل ينفع صاحبه فى الدنيا ويستفيد منه شرار الناس أكثر من خيارهم ، وعقولهم من جنس عقل الشيطان الذى لما أمره الله تعالى مع الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا وأبى ، زعم أنه أعقل من الملائكة يدل على إياه قائلا : « أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » مع أن العقل السليم لايتصور لأحد أن يجادل الله خالقه وخالق عقله ، فكان ما اكتسبه الشيطان من عقله هذا الخاطئ الذى حفظ شيئا وغابت عنه أشياء ، أن أصبح رجيا ثم أذن له أن يكون من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم ليفى من بنى آدم من كان لهم عقل مثل عقله وغاية مكتسبة مثل غايته ، كما أن غاية عقلاء الحضارة الجديدة أن يعيشوا ويموت غيرهم .

هذا حال أهل الديانة في الغرب المتحكم على الشرق المسلم ومرجعه التوغل في الضلالات . وعقلاؤنا المثقفون من المسلمين الجدد يقتدون بالغرب ويعتبرون هذا الاقتداء عماد النهضة والثقافة لهم .

نخطي في هذا الكتاب الذي يشرح كل هذه الضلالات ويعالجها ويحل كل عقدة ارتباك في عقولنا بمقل الغرب المسيحي والغرب اللاديني : خطة الانصراف عن تقليد الغربيين الذي دب ديبه وهبت عاصفته ثم رست ورسخت في أدمغة كتابنا المصريين وبعض علماء الدين . نخطي وهي خطة النجاة للمسلم الجديد - ترك التقليد الذي كان قبل نشر هذا الكتاب خطة المسلم الجديد ، وخطي هذه ضد الخطة التي أوصى بها الدون كيشوت الجديد - كما سماه الأستاذ سيد قطب - في كتاب « هذه هي الأغلال » فهو لم ير التقليد الموجود كافيا ، فأوصانا بالتفاني في تقليد أوروبا الموجهة كل سعيها للحياة في هذه الأرض كالساعة السمينية القوية الخالية عن فكرة التطلع إلى سماء الدين والأخلاق ، فإن كان قد يرفعهم من الأرض ما يركبونه من الطائرات ويقربهم إلى السماء فليس ذلك إلى الله تعالى بأجنحة من الدين وفضيلة الأخلاق ، والتطلع إلى الله على قول صاحب الكتاب كفيل بإفساد الحياة !!

ترك التقليد في العقلية الدينية وتقدير صلتها بالعلم في معناه الصحيح ، فنملك استقلالنا في العقيدة التي هي أساس الأعمال الصالحة والتي استقلالها يتقدم على الاستقلال السياسي للأمم الإسلامية ، والمسلم المتعلم إنما يكون مسلماً متعلماً بالاستقلال في العقيدة الدينية ولا يجوز للمسلم المتعلم تقليد غيره من المسلمين في العقيدة فما ظنك بتقليد غير المسلمين . وهذا الكتاب يكفل لهذا المسلم المتعلم إن شاء الله بهذا الاستقلال . وليس ذلك من صعاب الأمور عليه ، لا يكلفه شيئا سوى استعمال عقله بحرية غير مقيدة بغير الدقة والاهتمام في فهم مباحثها .

فالمسلم قوتان : قوة من دينه وقوة من عقله ولا قوة لمن لا دين له من دينه ،

والمسيحي في حرب مستمرة بين دينه وعقله المتعارضين ، فينقص كل منهما من قوة الآخر ولا يدخل في قلب صاحبه إلا مفتوت المضد ، في حين أن قوتى الدين والعقل سليمتان في قلب المسلم متحالفتان . أما الذين يقلدون الغربيين في الشرق متدينينهم وملاحدينهم معا فلهم قوة التقليد فقط .

وبعد اقتناع المسلمين المتعلمين بمقيدة الإسلام اقتناعا يتفق مع العقل والعلم الصحيحين يكونون مسلمين حقيقيين ويسهل لهم الحصول على ما يحتاجون إليه أيضا من العمل بأحكام الشريعة الإسلامية ، إذ العمل مبنى على العقيدة التي لا يتعب بها الإنسان أصلا بعد استيقانها بعقله وفهمه ، بل تكون له منها قوة يشرح بها صدره ويستعين على القيام بالناحية العملية التي ليست بسهولة في حد ذاتها سهولة الناحية الاعتقادية ، لانطوائها على تكاليف وتضحيات .

وبانضمام العمل إلى العقيدة يحصل الكمال في الإسلام وينتفع المسلم العامل بدينه في الدنيا قبل أن ينتفع به في الآخرة . أما العقيدة المجردة من العمل فهي لا تجدى المسلم في دنياه غير إعانتها على العمل لو عمل ، وتكون جدواها في آخرته إنقاذه من عذاب الأبد ، إن أمكنه الاحتفاظ بها طول عمره سليمة من غير أن يعمل بمقتضاها ، كما أن العمل من غير عقيدة مستبعد غاية الاستبعاد وعديم الفائدة بالرة في آخرته . والمسلمون في زماننا يتلاومون فيما بينهم بالتقصير في العمل عازين إليه تأخيرهم المشهود ، مع أن تقصيرهم في العقيدة التي لا تقبل التقصير أصلا أشد من تقصيرهم في العمل ، وهو داؤم الذي أصيب به الكثرة الساحقة من مثقفهم فمافهم عن الصلاة والصيام ، وعاق حكومتهم عن العمل بقانون الإسلام في بلاد معدودة من البلاد الإسلامية استبدالا به قانون فرنسا أو غيرها^(١) أو تمديلا في قانون الاسلام يتضمن الخروج

[١] دار الإسلام في عرف الفقهاء تطلق على البلاد التي يحكم فيها بقوانين الإسلام ويسمى خلافها دار الحرب .

عليه باسم التسهيل على الأمة أو التوفيق بمصلحتها ، حتى ان الكثيرين يعجبهم فصل الدين عن الدولة ، وحتى كان الشيخ الأكبر المراغى لا يمد الفقه من الدين ولا التغيير في أحكامه تغييراً في الدين^(١) وكان كل هذه المحاولات يتظاهر أصحابها بالخروج على الجود في الإسلام طلباً للسهولة والمصلحة والتجديد في ناحية العمل ، لكن الحقيقة أنهم خارجون على الإسلام نفسه من ناحية العقيدة أي ناحية الإيمان به الذي هو أساس العمل بأحكامه ، ولهذا سهل عليهم التغيير في أحكامه العملية ، ولهذا أيضاً عُني في هذا الكتاب بالناحية الاعتقادية وصرفت كل جهدي في تثبيتها ، وإنما قلت ان محاولي التجديد في أحكام علم الفقه طلباً للسهولة والمصلحة العامة غير عادياً من الدين ، يريدون الخروج على الدين نفسه لأننا نراهم قد يجترئون أيضاً على تغيير وتجديد في عقائد الإسلام الثابتة بالكتاب والسنة ، ومثاله إنكارهم المعجزات الكونية للأنبياء ، فهل في ذلك أيضاً تسهيل على المسلمين وخدمة لمصلحتهم ، أو في الاحتفاظ بالمقائد سالمة عن التغيير تشديد عليهم كأثمهم أنفسهم يأتون بتلك المعجزات؟ وكأن في إنكارها أو تأويلها بما يخرجها عن الإعجاز تخفيفاً وتسهيلاً على الله الذي هو مظهرها على أيدي أنبيائه ! وكان الشيخ المنكر لرفع عيسى عليه السلام إلى السماء المنصوص عليه في كتاب الله ونزوله في آخر الزمان المنصوص عليه في الأحاديث النبوية يصعد بنفسه في السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق لو اعترف بالرفع والنزول ؛ فيضطر إلى تأويل القرآن برفع روحه ورفض ستين حديثاً في نزوله رواها ثلاثون صحابياً ! وهل المحاولون رد النبوات إلى المبقرية - لكون النبوة وما يلزمها من المعجزات خوارق والتباس خوارق العادة عليهم بخوارق العقل المستحيلة - لا يدركون مبلغ خطورة الضلال في الاعتقادات معرضين عن درسمها وتمحيصها إلى أن يتجلى لهم

[١] لهذا البحث تفصيل وتمحيص يأتي في الباب الرابع من الكتاب .

الحق ويمتاز من الباطل^(١) وهل الكسل في درس العقيدة الدينية للطائفة القادرين على الدرس والتنقيب أو على الأخذ من القادرين ، يقاس بالكسل المتعلق بتأدية العمل المؤدى إلى التقصير في القيام بحقها ، أم له مغزاه النبوي عن عدم الإيمان بالدين أو عدم التحرج من أن يكون إيمانهم خليطاً بالشك ؟

أما إذا عاد المسلمون إلى سيرتهم الأولى وصاروا مسلمين حقيقيين ، يتقدمهم خاصتهم المتعلمون في متانة الناحيتين ، فيكونون خير مثال لعامةهم في اعمار المساجد بالعبادات والمصارعة إلى الخيرات واجتناب المفكرات ، ويكون الكل المجموع من خاصتهم وعامةهم خير نموذج للأمم العالم - في فضائلهم الخلقية ومبادئهم الإنسانية فتقصر المسافة بين أغنيائهم وفقرائهم كما تذوب الفروق القومية في وحدتهم الإسلامية. وقد أثبتنا في الباب الرابع من الكتاب أن الإسلام جنسية مستجمة للوازم الجنسية لايدانيه في هذه الميزة أى دين فتحصل بين كل مسلم ومسلم من مجموعهم الذى يناهز ثلاثمائة مليون نسمة شركة تضامن وتبادل لايفضل عربهم على أعجمهم ولا أبيضهم على أسودهم إلا بالتقى ولا يحب مسلم لأخيه المسلم إلا ما يحب لنفسه . . تضامن أصدق وأئز وأسمى مما فى شركة الشيوعية العالمية الحديثة والماسونية القديمة ، لتكون الغاية من هذا التضامن كسب الآخرة قبل كسب الدنيا ، يتمسك به على أنه واجب ديني ، وكون الديمقراطية التى فيه أصبح من الديمقراطية القائمة على الدعايات والمخادعات .

[١] مما يدل على عظم خطورة الناحية الاعتقادية في الإسلام التى هى الناحية العلمية ، بالنسبة إلى الناحية العقلية ، مع كون الثانية أصعب من الأولى . . أن شارب الحجر بالفعل أو الزانى بالفعل مثلاً لا يكفر مادام يمد نفسه آثمًا فيما فعله ، ويكفر من لم يزن ولم يشرب الحجر فعلاً ولكنه أباحهما .

فالديمقراطية الإسلامية التي هي وضع إلهي تشعر بالمسئولية عند الله قبل الناس ويتسع صدرها لصالح البشر جميعا كما كان الله للجميع في المثل الفرنسي ولا تعمل لحساب قومها على حساب أقوام أخرى ... لا بد أن تفوق الديمقراطيات الموضوعة بأيدي رجال سياسيين وأن تخدم أكثر منها الخير البشر ، والفائدة التي تضمنت لحساب الفقراء تصل إليهم مباشرة وطوعا من الأغنياء الذين جعل الله في أموالهم حقا للسائل والمحروم .. تصل إليهم ولا يبقى معظمها في أيدي السماسرة السياسيين الذين ابتدعوا ما ابتدعوه من الديمقراطية الشيوعية والبلشفية لإنقاذ الفقراء من أسر الأغنياء ، فأصبحت النتيجة وقوع الفقراء والأغنياء جميعا في أسر أولئك السماسرة .

وأصدق ناحية القول عن البلشفة التي ينساق إليها الفقراء وأصحاب القلوب المتألمة بآلامهم من كل أمة ويقلق هذا الانسحاق بال كل دولة ، على الرغم من أن حال الفقراء في بلاد البلاشفة أو بالأصح حال عامة الناس غير المديرين لتلك البلاد ، لا تزال في ظلام دامس ، لاسيما من ناحية الحرية التي هي أعز ما يملكه الإنسان ، فربما يتمكن غير البلشفي من الدخول في البلشفة ولا يتمكن من الخروج عنها في ديارها ...

أصدق ناحية القول عن البلشفة التي ينساقون إليها رغم خطرهما ، أنها دلت على إفلاس الديمقراطية القومية المقيمة من حيث أنها لا تقبل الانضمام إليها من خارج القوم ، لكونها مؤسسة على الفوارق العنصرية لا على المبادئ الفكرية الباحة لكل من يعتنقها . ولهذا ترى الديمقراطيين القوميين إذا أرادوا أن يتوسعوا ويعملوا لهم قوة مكتسبة فوق قوتهم الطبيعية ، احتاجوا إلى اعتناق أحد المبادئ الفكرية والمذاهب الاجتماعية منقسمين إلى أحزاب ، حتى أن الروابط الحزبية تغلب على الرابطة القومية فتحدث الجدال والخصام بين أفراد قوم واحد . وكل هذا يدل على أن الإنسان

من حيث أنه إنسان ينحاز إلى زملاء الفكر والروح ، وبه يتحقق معنى المدنية الخاصة بالإنسان . فهذا الإنسان قد يقع في طريق البحث عن المبادئ الفكرية والمذاهب الاجتماعية قضاء لحاجته الروحية وتقويًا بالزملاء المكتسبين الذين لا يجد لهم حدوداً ، في الشيوعية .

فانسياق الناس إلى البلشفة التي لها جاذبية المساواة وإلغاء الطبقات ، مع ما فيها من خطر الحد الشديد من الحرية والطفان على الفضيلة والأخلاق .. عبارة عن الغلط في الاختيار من الديمقراطيات المبنية على مبادئ الفكر ، ولو اختاروا الديمقراطية الإسلامية لوجدوا فيها ما يبحثون عنه من غير تورط في أى خطر .

فالمسلمون إن كانوا مقدرين حق التقدير أن دينهم أقوى الأديان في تأسيس رابطة بين العقل وعقيدته ورابطة متينة أخرى بين طبقات المتدينين به .. إن كانوا مقدرين قوة الروابط التي تجعلهم أقوى أمة الدنيا بغير سلاح ، رأوا أن دينهم مستعد لأن يعلنوه بأقوالهم وأفعالهم أفضل مبدأ وأصلحه لدعوة البشرية إلى تحت رايته ليكونوا أخوة متعاونين على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان ، لا يدانيه مبدأ القومية الضيق ولا مبدأ الشيوعية المنافق ، فكيف يكون الروس بفضل تمسكهم بمبدأ البلشفية التي تأخذ قوتها الممتازة من فقراء العالم في كل أمة المنجذبين إليها ومن يرحبونهم من أصحاب القلوب .. أقوى الأمم الحاضرة ، ولا نكون نحن المسلمين أقوى منهم بفضل التمسك بالإسلام ؟ فهل ميزة السوفييت في كون باطنها مخالفًا لظاهرها^(١) ؟ أم في

[١] فقد نقل الأستاذ التابعي في (أخبار اليوم) عن أمريكي سماه (ر . ا . ت) قضى سنوات في موسكو قبل الحرب وأثناء الحرب لا يذكر أنه رأى في أحد شوارعها واحداً يتسم وأن الجميع يسرون وكأن حملاً ثقيلاً من الهنوم يركب رؤوسهم وأكتافهم .

ومن أدلة كون الروس السوفييت لا يتفق باطنها مع ظاهرها .. من أدلته الواضحة المفضحة وقوف هذه الدولة في مسألة فلسطين التي يتنازع فيها اليهود العرب ، بجانب اليهود ومساقتها =

كونها تقضى حاجة الجسم فقط إن صح أنها تقضيها؟ في حين أن الديمقراطية الإسلامية تقضى حاجة الروح أيضاً ، أم في كونها - أى الديمقراطية السوفيتية - إباحية مستهترة في مناسبات الرجال مع النساء؟ كما كانت المدنية الأوروبية قريبة منها في هذا الاستهتار ، يحتضن الرجل من اشتهاها من النساء الموافقات فيراقصهن في المحافل والأندية بين ظهرائى أزواجهن أو اخوانهن ، وهل عيب الإسلام في كونه غيوراً على أعراض النساء يصونهن عن مظان الزلاقي؟

وإني أخاف أن يكون الأمر كذلك في عصر العقول الخفيفة والوجوه الصفيقة . كان الإنسان في الماضي يحذر من أن يكون خليع العذار ، فأصبحنا في زمان تمشى الفتيات في الشوارع خليعات الإزار أو أشباه الخليعات ؛ وكان يقال «العينان تزنيان» ثم رأينا توسع الزنا إلى الأيدي والأعضاء والصدور والخصور ، وكان يقال :

وكنّت إذا أرسلت طرفك رائداً لقلبك يوماً أتبعك المناظر

رأيت الذي لا كله أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابر

فأوشك من كثرة انضمام البعض إلى البعض أن يكون الكل مقدوراً عليه . ومما يؤسف له بل يبكي أن هذه الحالات الخليعة أخذت تسرى إلى المسلمين ، بدلا من سراية ما في الإسلام من الإباء والاحتشام إلى غير المسلمين .

فإن كان مايعوق المسلمين في عصرنا عن تدارك ما فاتهم من مجد الإسلام القديم بالطريقة التي شرحناها .. الاستسلام لتيار الشهوة الخليعة والاستهتار في الاختلاط الجنسي في المجتمعات والخلوات . ذلك التيار الآتي إلى بلادنا مخترقا لسد الحياء الإسلامي وناقلا للغلبة الموعودة لسلاحتنا في ميادين المجد إلى سلاح الشيطان الذي ما أيس من بنى آدم إلا أنهم من قبل النساء كما في الحديث النبوي ...

= الدولة الأمريكية في الاعتراف بدولتهم الزعومة التي لوتأسست - لا قدر الله - كانت أحق بوصف الرأسمالية من أى دولة أخرى .. فأين يبقى إذن ما هو المعروف من أن أول مبادئ البلاشفة الشيوعيين عداوة الدول الرأسمالية ؟

إذا كان الأمر كذلك فخلال لنا التأخر في قوافل الحياة أبد الآبدين، والله لا يهدى القوم الفاسقين . على أن التمسك بالإسلام وتأييد التمسكين به المحافظين على آدابه وشعائره واجب الأمم الإسلامية ، لا لاكتساب الغلبة في مضمار الحياة المادية .. بل للدفاع أيضاً عما بقي لهم في حالتهم الحاضرة من الوجود واستقلال الوجود ولو في قافلة المتأخرين . وهذه البقية تدوم ماثوم ، بفضل وجود التمسكين بالإسلام حيال ضغط الطبقات المادية الظالمة المؤدى إلى انفجار مظلومياتها ثم وقوع الظالم والمظلوم في هاوية الشيوعية والبلشفة . فالإسلام لاسيما إسلام الطبقات الفقيرة هو الحاجز الحصين اليوم دون خطر الوقوع فيها . فلو كانت الطبقات الغنية أيضاً مسلمين حقيقيين لزال الخطر تماماً وحصل الظفر . أما الثقافة المجردة عن الدين واتخاذها سلاحاً لدرء الأخطار فحاملوها إذا استغنوا يخوضون في الفسق والفجور ، وإذا افتقروا أصبحوا دعاة الخطر بعينه .

وإني أدعو علماء الدين إلى أن يكونوا رسل هذه الديمقراطية الإسلامية فيقوموا بالسمي البليغ لترغيب المسلمين في تعديل ما بينهم من الفروق الشاسعة الاجتماعية التي تجعل لأصحاب الطبقات السفلى حياة كحياة الاحتضار المقيم وتكون خطراً على أصحاب الطبقات العليا مستعداً للانفجار في كل يوم وليلة .. والتي تنتصب منظرًا فظيماً وسدًا منيعاً لاستقرار الأخوة المطلوبة بين المسلمين لاسيما في هذا العصر الأخير المليء بالفتن والتسويات .

فإن قام علماء الدين بهذا الإصلاح الاجتماعي الذي نرى البلاد الإسلامية في حاجة إليه لاسيما مصر .. أسدوا أعظم خدمة للفقراء والأغنياء بل الدين نفسه أيضاً الذي واجبه المخلص حراسته وإعلاء شأنه ، لأن معظم أهل الطبقات الدنيا الذين هم السكينة في الأمم والذين تزوهم الشيوعية الزمنية ، يزعمون مالا طاقة باحتماله في هذا الزمن من دوام سلطة القادرين على العاجزين ودوام طاعة الآخرين للأوليين ، قائماً على الدين

لكونه أمراً بطاعة أولى الأمر والمحافظة على الأمن والأسرة والمساكنة وناهياً عن الفتنة والثورة .. حتى يقال ان الدين هو أعظم ضمان للبلاد يصونها من الشيوعية والبلشفة . ونحن نقول إن هذا من عظيم فضل الدين على البلاد ، لكن معناه من ناحية أخرى يتم على كون الدين يحمي الطبقات العليا من ثورة الكثرة المظلومة فيعمل على إدامة سلطة القلة عليهم ويظلمهم مع الظالمين المتغافلين عن حقوق الفقراء على الأغنياء .

فيجب على علماء الإسلام رفع التهمة عن الدين تهمة كون الأغنياء يحافظون على طبقتهم الممتازة في ظل حماية الدين مع حرمان الفقراء عن هذه الحماية محكومين على الصبر والسكوت ومنوعين عن التوصل بالقوة إلى حقوقهم المضاعة .. وهذا التفريق بالنفع والضرر على الرغم من أن الدين إن كان باقياً في هذا الزمان فعمد غير الطبقات العليا .

يجب على علمائنا رفع التهمة عن الدين تهمة الظلم على الفقراء وعلى نفسه في خذلان أنصاره ونصر غير الناصرين لأنصاره ... بأن يسدوا النصح المتواصل إلى المترفين ويقولوا : الإسلام الذي يصونكم من الثورة جعل في أموالكم حقاً للفقراء إن لم تؤدوه عن طيب نفس وتدعوهم في بأسائهم فلا يحتملها الزمان إن احتملوها ، وإن كانت نتيجة عدم الاحتمال خسارة الثائرين مع الثور عليهم وانتفاع غيرهما من تجار المبادىء المصرية الهدامة الماهرين .. ثم يرفعوا العقيرة لإيقاظ المترفين عن نومهم المقيم على شفا جرف خطر يدهمهم في الدنيا قبل الآخرة ، من قبيل مواطنهم الذين يبيتون في ظلامين من الجهل والليل ويظلمون على جرتين من حرارة الشمس وحمى الأمراض ، يلبسون الاسمال ويشربون الأوحال التي لا يسوغ شربها لذة أو طباً .

وفي آخر كلمتي إلى القراء الكرام أخلص ما بعثني على تأليف هذا الكتاب مما رأيته في مصر التي آوتني بعد مغادرة بلادي فأصبحت بدلا منها يعينني ما يعينها من خير أو شر ويتحتم عليّ أن أخدمها بما يتوقع من مثلي شيخاً من مشايخ الإسلام حنكه الزمان ولم يفت في عضده ما لقيه من الشدائد في سبيل المصارحة بكلمات الحق والصدق - التي تكون على الأكثر مرة - مع التنقيب في درس مسائل العلوم المتعلقة بحياة الإسلام العلمية النافعة في صيانتها من تيار الإلحاد الحديث ، فأقول :

إن دولة الترك المسلمة التي دافعها بسيفها عن حياض الإسلام ضد أعدائه يستغرق الثلثين من تاريخه وتندرج في ذلك - عند التحقيق - أدوار الحروب الصليبية الموجهة إلى البلاد الإسلامية والنتيجة بالنسبة إلى تلك الأدوار في ردها على أعقابها ... هذه الدولة كان آخر سلاح حاربها به الدول الوارثة لصفائ تلك الحروب ، نشر الإلحاد القائم على العلوم والمبادئ المادية بين أبنائها المثقفين ونشر المبادئ القومية بين العناصر المندرجة تحت لوائها .

وقد وجد أول هذين السلاحين عوناً للأعداء في قلب تركيا ، فكان استعماله كفتح الحصن من داخله ، كما وجد السلاح الثاني رواجاً عظيماً في أطراف تركيا . وكفى السلاحان في القضاء على دولة الترك المسلمة المجاهدة^(١) .

[١] وهذا السلطان عبد الحميد آخر من تولى السلطنة العثمانية بمعنى الكلمة وحكم مدة ثلث قرن على البلاد الواسعة التي من ضمنها الأقطار العربية ، إلى أن خلع في ثورة دبرها حزب الاتحاد والترقي ، وتفرقت تلك البلاد بعده أيدي سباً في حروب متعاقبة . . .

هذا السلطان كان سداً منيعاً لنزول المهاجرين اليهود إلى فلسطين ، وكان من المصادفات التي لها مغزى أن بلغ السلطان قرار البرلمان على خلع ، قره صو اليهودي نائب سلايك الذي اختارته لهذه المهمة الهيئة المتأخرة لها من طرف البرلمان المؤلفة من خمسة رجال من الشيوخ والنواب المختلfi الدين والنصر . . . والذي سبق له الحصول قبل إعلان الدستور في تركيا على مقابلة السلطان مندوباً من اليهود الصهيونيين ، فاتحه فيها رجاء المتعلق بمسألة الهجرة إلى فلسطين مع تقديم هدية موعودة =

وكنت لما كنت في بلادى كالت هذين السلاحين على طول فترة انتقال الحكم فيها إلى أيدي الملاحدة وكان ظنى عند مغادرة تركيا مهاجراً إلى بلاد العرب التي جاء نور الإسلام إلينا منهم ، أنى أستريح من مجاهدة الملاحدة . لكنى وجدت الجوالتقاف بمصر أيضاً مسموماً من تيار الغرب ، فشق هذا على نفسى أكثر مما شق على موقف تركيا الجديدة من ذلك التيار ، كما شق وقوفى على أن اخوانى العرب يفضلون تركيا هذه على تركيا القديمة المسلمة ، فرأيتهم توغلوا فى تقليد الغرب وسابقوا الترك فى الافتتان به . والانتقال الثائر فى تركيا حصل عندهم فى شكل هادى ومن طريق التأثير والتجديد فى الأزهر ، فترى مجده الشيخ محمد عبده الذى ناظره الأستاذ فرح أنطون منشئ مجلة « الجامعة » وقال فى مناظرته : « إن الدين بخالف العقل والعلم لأنه الإيمان بخالق غير منظور وآخرة غير منظورة ووحى ونبوءة ومعجزة وبعث وحشر وحساب وثواب وعقاب وكلها غير محسوسة ولا معقولة ، وأن المدو الحقيقى للأديان فى هذا الزمان لم يعد منها بل صار خارجاً عنها ، فهو عدو جديد أخرجه التمدن الجديد ... »

هذا الشيخ الذى ناقش ذلك الأستاذ فى الماضى البعيد رآه فى الماضى القريب يؤلف الأستاذ محمد صبيح كتاباً مسمى باسمه ويضع فى غلاف الكتاب لوحة تصور إيفل الباريسية مع مآذن الجامع الأزهر تقتبس رؤوس الثانية ضياء من رأس الأولى ؛ ويحكى المؤلف فى كتابه بكل إعجاب كيف قضى الشيخ على علماء الأزهر القداماء وعلومهم وكتبهم كما سيحىء تفصيله فى كتابنا هذا .

وكما ترى الأستاذ فريد وجدى بك الذى ناقش الشيخ التفتازانى المرحوم دفاعاً

== قدرها خمسون مليوناً من الجنيهات الذهب لحزبة الدولة وخمسة ملايين منها لحزبة السلطان الخاصة على تقدير قبول المشول ، فلقى رجاؤه رداً عنيفاً من السلطان مقروناً بإخراجه من حضوره فى سخط واحتقار . . . فهل يعرف إخواننا هذه المواقف السابقة لفلسطين فى الماضى القريب ويقارنونها بالحالات الحاضرة ؟

عن الانقلاب الكمالى اللادبنى فى تركيا ، وقال : « فنحن الذين شهدنا هذه الآفة الاجتماعية يحرم علينا أن نصغر من شأنها أو نمر بها غير مكترئين ، فإننا سنمر فى كل الأدوار التى مر بها الأتراك متى جاء دورنا فى نهوض حقيقى صحيح . فإن لم نتعلم مما دخل فيه الأتراك درساً فلا أقل من أن نعجب به مع المعجبين . »

وناقشنى هذا الأستاذ بعد سنتين منكرأ لمجزات الأنبياء ومضيفاً إليه عند النقاش إنكار البعث بعد الموت ، وقال : « ... ولد العلم الحديث وما زال يجاهد القوى التى كانت تساوره فتغلب عليها ودالت الدولة إليه فى الأرض فنظر نظرة فى الأديان ومضى عليها أسلوبه فقفز بها جملة إلى عالم الميتولوجيا (الأساطير) ثم أخذ يبحث فى اشتقاق بعضها عن بعض واتصال أساطيرها بعضها ببعض ، فجعل من ذلك مجموعة تقرأ لا لتقدس تقديساً ، ولكن ليعرف الباحثون منها الصور الذهنية التى كان يستعبد لها الإنسان نفسه ويقف على صيانتها جهوده غير مدخر فى سبيلها روحه وماله .

» وقد اتصل الشرق الإسلامى بالغرب منذ أكثر من مئة سنة فأخذ يرتشف من مناهله العلمية ، ويقتبس من مدنيته المادية ، فوقف فيما وقف على هذه الميتولوجيا ووجد دينه ماثلاً فيها ، فلم يندس بكلمة لأنه يرى الأمر أكبر من أن يحاوله ولكنه استبطن الإلحاد متيقناً أنه مصير أخوانه كافة متى وصلوا إلى درجته العلمية .

» وقد نبغ فى البلاد الإسلامية كتاب وشعراء وقفوا على هذه البحوث العلمية فسحروهم فأخذوا يهينون الأذهان لقبولها دساً فى مقالاتهم وقصائدهم غير مصارحين بها غير أمثالهم تقادياً من أن يقاطعوا أو ينفوا من الأرض . »

فيفهم من هذا ومما يأتى أن الدين فى مصر مع ما فيها من الجامع الأزهر وغيره من المعالم والمعاهد القديمة فى حالتها الراهنة ، ومع كون دستورها الجديد لا يزال ناطقاً بدين الدولة .. لى حالة عجيبة ، لا من ناحية العمل بأحكام الشريعة الإسلامية

وقوانينها فحسب ، بل ومن ناحية الاعتقاد والاعتراف بأصول الدين الملخصة في الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر .

فمعجزات الأنبياء المعدودة من الخوارق التي تستند إليها نبواتهم غير معترف بها عند المبرزين من العلماء الذين اتخذتهم مصر الحديثة أئمة في الدين مثل الشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا والشيخ الأكبر المراغي واقتدى بهم الكتاب من كبار المؤلفين مثل الدكتور هيكل باشا والأستاذ فريد وجدي بك الذي يعدُّ آيات المعجزات ، بل آيات البعث بعد الموت أيضاً من التشابهات غير المحكمات .. إلى صفارهم مثل الدكتور توفيق الطويل القائل في كتابه « التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام » ص ٢٧ :

« رأى ابن خلدون يخالف الاتجاه الحديث الذى يشكر الكرامات وخوارق العادات وبؤول المعجزات بحيث تبدو متفقة مع منطق العقل متمشية مع سنة الكون مسيرة لطبيعة الأشياء » مع أن المعجزة المؤولة بما يتمشى مع سنة الكون لا تعود معجزة فتأويلها به واعتبارها بدون تأويل غير متفقة مع منطق العقل يرجع إلى إنكارها .

ثم إن نبوات الأنبياء تنهار بانهميار المعجزات لاشتراكهما في علة المخالفة لسنة الكون . ولذا جاء تعريف الشيخ محمد عبده بالنبي - كما يأتي نصه في الباب الثالث من هذا الكتاب - خالياً من خصائص النبوة المعروفة مثل الوحي والملك المرسل والكتاب المنزل والمعجزة . والنبوة النهار تتحول في لسان الاتجاه الحديث إلى « العبقريّة » فيعتبر أنها ماخسرت من ميزتها !.. فهذه حالة مصر الحاضرة - المستورة المكشوفة - في عدم الاعتراف بوجود الأنبياء .

أما عدم الاعتراف بوجود الله فله علامات أبرزها تصريح الأستاذ فريد وجدي بك - كما سبق نصه وسيذكر ذكره في هذا الكتاب عند مناسبات كثيرة - بأن في

الشرق الإسلامى نوابغ من الكتاب والشعراء اتصلوا بالغرب وعلومه فأروا دينهم مقذوفاً به مع سائر الأديان إلى عالم الأساطير ، فلم ينبسوا بكلمة لأن الأمر أكبر من أن يحاولوه ولكنهم استبطنوا الإلحاد متيقنين أنه مصير اخوانهم كافة متى وصلوا إلى درجتهم العلمية ، وهم اليوم مشتغلون بتهيئة الأذهان إلى قبول ما استبطنوه دسا في مقالاتهم وقصائدهم ، غير مصارحين به غير أمثالهم . والأستاذ نفسه منهم وفي طبيعتهم وإن كان لا ينسى تفرقه منهم بطريقة يتسع لها قانون الدس ، حسبك ما ينادى به دستوراً علمياً يردده دائماً في مجلة الأزهر التى يديرها ويرأس تحريرها منذ بضع عشرة سنة : من أن العلم لا يعتمد بمقول لا يؤيده محسوس كخالق غير منظور وآخرة غير منظورة ونبوءة غير منظورة ووحى ومعجزة وبعث وحشر وحساب وثواب فى الجنة وعذاب فى النار ، وكلها - مما عده الأستاذ فرح أنطون منشىء مجلة « الجامعة » عند مناظرة الشيخ محمد عبده وانطبق عليه دستور الأستاذ فريد وجدى بك العلمى - غير منظورة ولا معقولة .

وحسبك أيضاً تحليل الأستاذ رئيس تحرير مجلة الأزهر قارئيه بما ينتظره من الغربيين المشتغلين بالبحوث النفسية أنهم سيكتشفون وجود الله فيما يكتشفون . والجمهور من القراء يسرون بهذه المواعيد ولا يفطنون لما دس فيها الكاتب النابغة من أن وجود الله لم يثبت إلى الآن بالطريقة التى تقنع العلم توفيقاً لدستوره المذكور آنفاً .

ونرى دعاية الأستاذ ، دعاية وباللأسف ضد الديانة ، تتخطى من فوق منبر الأزهر إلى ساحة الأدب ، فيكتب مقالة فى مجلة « الرسالة » بعنوان « الدين فى معترك الشكوك » والمجلة تضعها فى صدرها ، يعلن فيها الكاتب أن الدين قضى عليه قضاء لا يرجى له البعث إلا من طريق استحضار الأرواح . وهو أن الدين إن كان يعيش الآن فإنما يعيش فى قلوب السذج من العامة ... فلا يحرك هذا الإعلان الذى ينهى الدين ويتضمن أشنع دعاية ضده ، ساكناً فى مصر بين أوساط المتعلمين ، وكيف

يحرك والناعى مندوب الأزهر ومثله فى عالم الصحافة ؟ فيا خسارة البلاد التى تسمى للتخلص من استعمار الإنجليز ، وأقطع الاستعمار الغربى الذى أفسد الدين والأخلاق - ولا شك فى مجيء هذا الفساد مع الإنجليز - نجيم فى عقول مثقفها ..!

وهل كان يخطر بالبال أن يكون هؤلاء المثقفون - ومعهم سادة الأزهر - ينكرون معجزات الأنبياء إلا معجزة القرآن لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، على أن يكون إعجازه أيضاً غير مفهوم منذ أزمنة طويلة خلت ؟ كما صرح به الأستاذ الأكبر المراعى فى مقالة نشرها فى الفترة المتخللة بين مشيخته الأولى والثانية على صفحات « السياسة الأسبوعية » و « الأهرام » وقال فيها : « وقد انقضى عهد الذين أدركوا الإعجاز من طريق الذوق وآمنوا بالقرآن بسبب هذا الإدراك ، ونحن الآن نقيم على الإعجاز أدلة عقلية ونقول انه تحدى العرب وأنهم عجزوا ، وهذا يدل على أنه من عند الله . » فيرد عليه أولاً : لماذا لا يعترف هذا الشيخ بإعجاز القرآن حالا وبنفوذه فى نفسه وهو شيخ أكبر المعاول الدينية والعربية الذى يستوجب أن يكون فهمه للمرية وللقرآن أكثر من غيره ؟ لماذا لا يعترف بإعجازه حالا فيحيله على الماضى ؟ فهل هو الذى أعجز العرب القدماء لا يعجز العرب الحاضرين ؟

ويرد عليه ثانياً : أن مسألة إعجاز القرآن على هذا لا نقوم على أدلة عقلية أيضاً ، وإنما تنقلب مسألة تاريخية وتقدر قوة ثبوتها بقدر قوة ثبوت المسائل التاريخية ، ومثلها مسألة معجزات الأنبياء مطلقاً ، فلماذا إذن يعترف بمعجزة القرآن ولا يعترف بغيرها من المعجزات ؟ ولا محل لاستضعاف التاريخ فى تلك المعجزات لتأييدها بتصديق القرآن المنقول إلينا تواتراً والمسلم إعجازه متحدياً للعرب الماضين .

ومعنى إعجاز القرآن على قول معالى هيكل باشا وزير المعارف سابقاً ورئيس مجلس الشيوخ حالا أنه معجزة عقلية إنسانية بلغت أسمى ما يستطيع الإنسان أن

يبلغه . قال في « حياة محمد » ص ٤٤ من الطبعة الثانية :

« حياة محمد حياة إنسانية بلغت أسمى ما يستطيع الإنسان أن يبلغ ، وقد كان حريصاً على أن يقدر المسلمون أنه بشر مثلهم يوحى إليه ، حتى كان لا يرضى أن ينسب إليه معجزة غير القرآن ويصارع أصحابه بذلك . وقلنا عند الكلام عن قصة شق الصدر إنما يدعو المستشرقين والفكرين من المسلمين إلى هذا الموقف من هذا الحادث ان حياة محمد كلها حياة إنسانية سامية وأنه لم يلجأ في إثبات رسالته إلى مالجأ إليه من سبقه من أصحاب الخوارق . وهم في هذا يجدون من المؤرخين العرب والمسلمين سنداً حين ينكرون من حياة النبي العربي كلها ما لا يدخل في معروف العقل . »

وهذا القول من معاليه يستهدف انتقادات كثيرة نحصيلها إن شاء الله في الباب الثالث من هذا الكتاب ونقتصر هنا على القول بأن خلاصته تنزيل إعجاز القرآن ، الذي أتى به وكان أكبر وقائع حياته المقيدة بأنها حياة إنسانية لم يدخلها خارقة من الخوارق - إلى استطاعة إنسانية ، وإن كانت أسمى ما يستطيعه الإنسان ، في حين أن القرآن نفسه يصرح بأنه فوق استطاعة البشر وأنه كلام الله . وهل يظن معالي الباشا أن القرآن الذي لا يستطيع الإنس والجن أن يأتوا بمثله مجتمعين ، في استطاعة محمد صلى الله عليه وسلم أن يأتي به من عنده ؟ أما إتيانه به من عند الله على أنه كلام الله فهذا ما لا يدخل عند الباشا في معروف العقل وأنه يكون القرآن على هذا التقدير من الخوارق التي ينكرها معاليه ولا يراها جديرة بأن يلجأ إليها محمد صلى الله عليه وسلم . أما قوله حكاية عنه ، بعد التنبيه على أنه بشر مثلهم : « يوحى إليه » فقد كنت قلت أنه جار على قلم معاليه استرسالاً يسائر فيه نظم الآية القرآنية ويحتمى به عند اللزوم في ضمن قانون الدس ، إذ لو لم نقل هكذا كان ذلك القول من الحاكي خروجاً عن حدود معروف العقل ، ومن المحكى عنه لجوءاً إلى مالجأ إليه من سبقه من أصحاب الخوارق ،

وكلاهما مالا يرضاه الباشا . فلا محل لاحتمال كونه جادا في الاعتراف بالوحي ، لأنه متناقض مع سميّه لتزيهه صلى الله عليه وسلم من الخوارق ... كنت قلت هكذا وكان لي الحق في ذلك تأليفاً لأقوال معاليه عن حياة محمد صلى الله عليه وسلم المنقولة آنفاً ، بعضها مع بعض ... لو لم يكن مفهومهما من آخر مقدمة كتابه أنه يتشجع أمام العلم فيعترف له صلى الله عليه وسلم بالوحي ... فإذن يبقى قوله « يوحى إليه » مناقضاً لما أضاف إليه من الجمل .

وكان الأستاذ فريد وجدى بك وهو من غلاة منكرى المعجزات بدعوى أنها مخالفة للعقل وسنة الكون كما ادعى هيكل باشا ، حتى ان الأستاذ فريد ينكر البعث بعد الموت للسبب نفسه ... كان هذا الأستاذ أنكر إعجاز القرآن بألفاظه ومبانيه في مقالاته التي كتبها دفاعاً عن فتنة ترجمة القرآن الثارة في تركيا النقلية ، قائلاً : « إنه لم يتحدد أحداً ببلاغته وإنما تحدى الإنس والجن أن يأتوا بمثله في حكمته وشريعته » مع أن الأستاذ يعرف أن أمماً إسلامية لم تعجبهم شريعة القرآن فاستبدلوا بها شرائع الغرب قبل استبدالهم ألفاظاً أعجمية بألفاظه ومبانيه ، والأستاذ الذي ناصرهم في تبديل ألفاظه لم يؤاخذهم يومئذ على تبديل شريعته ... فنكرو المعجزات ، كما يفرقون بين الكتاب والسنة فيعوتلون على الكتاب ولا يعوتلون على السنة توسلاً إلى إنكار أحاديث المعجزات لتبيننا محمد صلى الله عليه وسلم ... يفرقون أيضاً بين لفظ الكتاب ومعناه ، فيتمسكون بمعناه ويخذلون لفظه ، ويتمسكون بلفظه ويخذلون بمعناه على حسب ما يقضى به هوى التجديد المصرى المتسكع .

وعلى كل تقدير في موقف الكثرة من كتاب مصر وعلمائها الجدد إزاء معجزة القرآن خصوصاً ومعجزات الأنبياء عموماً ، فالنبوة لا تزيد على مرتبة المبقرية وهي ليست بمرتبة النبوة المعروفة في الإسلام وفي سائر الأديان ، كما أن النبي الذي عرفه الشيخ محمد عبده بإنسان فطر على الحق علماً وعملاً بحيث لا يعلم إلا حقاً ولا يعمل

إلا حقاً على مقتضى الحكمة... الخ » ليس بالنبي المعروف . فالنبوة مقضى عليها عند أصحاب القول السائد في مصر الحديثة من الكتاب والعلماء ، منحلة في بوتقة التأويل . وقد عرفت موقف مسألة الألوهية المخدولة عند أصحاب « مجلة الأزهر » و « الرسالة » في معترك الشكوك ، قبل موقف النبوة .

فالدين بكلا ركنيه الأساسيين مقدوف به في نظر الأوساط المثقفة المصرية بيد العلم الحديث الذي لا يؤمن بغير ماثبت بالتجربة الحسية ، إلى عالم الأساطير .. لا فرق بين مصر وتركيا الحديثتين في غلبة الإلحاد على الديانة إلا من حيث أن الانقلاب اللاديني تأسس في تركيا جبراً من الحكومة مفاجأة من عهد مصطفى كمال ، وفي مصر بالنشر والدعاية المدسوسة من حملة الأقلام والمحابة من الحكومة المرتبطة هي الأخرى بمحابة من الغرب الذي هو رأس هذه الفتنة المدبرة في الملكتين ، فأنجلترا انتهزت فرصة كون تركيا في عداد الدول المغلوبة في الحرب العالمية الأولى ، فساومتها بواسطة مصطفى كمال الذي وجدته أنصع أهل لهذه المساومة على الاحتفاظ باستقلالها في مقابل التنازل عن الخلافة والتجرد عن الدين والمشى في السياسة الدولية من وراء الإنجليز ، كأنها مولى العتاقة لها ، وتسنى انتشار الإلحاد في مصر تحت حماية الإنجليز من غير ثمن مقابل يذكر .

نعم ، إن تركيا الجديدة أخسر صفقة وأسوء عاقبة من مصر التي أدركت ماتزمر الإنجليز من البغض العميق نحو المسلمين فأخذت تقابل البغضاء بالبغضاء وتكرهها بكل قوتها على أن تكف يدها عن مصر في حين أن تركيا دخلت في حماية الإنجليز ووصايتها وكفرت بنعمة الله التي كانت لها في بعد عنها حين كانت دولة إسلامية .

ولقائل أن يقول: تجلوا الإنجليز بعد الحرب العظمى الثانية عن مصر ، لأنها بلغت رشدتها في الاعتماد على الدين ولم تعد تحتاج إلى شيطان الوصاية^(١) فالإنجليز عدو الإسلام وعدو الدولة العثمانية وصديقة تركيا الجديدة .

[١] بعد أن أدخل - هذا الشيطان - النزاع الغربي بين الدين والعقل في عقول المثقفين =

تسافر بعثة أزهرية إلى أوروبا لطلب العلم فيقول الأستاذ الأكبر المراغى فيما يقول عند توديعهم في محطة القاهرة : « إن العقول تنظر إلى الأديان نظرها إلى شيء تاريخي خال عن الحياة » ويتكرر ذكر العقل والعلم في كلامه مناوئا للدين . وتسكتب « السياسة الأسبوعية » عن أعضاء البعثة المؤلفة من الشبان المدرسين في الأزهر : « أنهم سيواجهون نهجاً في البحث جديداً وهو أن يطالب الإنسان ليكون بمحثة صحيحاً بأن ينكر كل ما يعرفه وأن لا يثبت شيئاً إلا إذا قام عليه دليل من التجربة والملاحظة والاستنباط » ثم تقول : « إن أساس المنهج العلمى الصحيح الشك فى كل شيء » ويقول الأستاذ الكبير أحمد أمين بك فى كتابه « قصة الفلسفة الحديثة » : « إن قانون التناقض الذى يقول به المنطق الشكلى القديم والذى يقرر أن الشيء يستحيل أن يكون وأن لا يكون فى آن واحد ، يجب عليه الآن أن يزول من أجل حقيقة « هيغل » العليا التى تنسجم فيها التناقضات التى ذهب إلى أن كل شيء يكون موجوداً وغير موجود » وهذا الأستاذ يكتب فى مجلة « الثقافة » التى هى مجلة لجنة التأليف والنشر « إن علماء التوحيد لم ينجحوا فى مهمتهم ^(١) ، كما أن الأستاذ فريد وجدى بك رئيس تحرير مجلة الأزهر ينادى بالطمأن فى علم هؤلاء العلماء المسمى بعلم الكلام .

== من أهل البلاد التى استعمرها فلبنس الامر عليهم أيضاً ، وألبس جنودها برانيط الفريين . فسكان الجالين أنابوها نائبة عنهم ناطقة بأن من تشبه بقوم فهو منهم ، ويكاد من يرى هؤلاء الجنود والضباط فى الشوارع والمراكب لا يقتنع بجلاء الانجليز عن مصر

[١] يقول ان علم التوحيد برهان لمن يعتقد لا لمن لا يعتقد ، وبذكر حكاية نابليون مع جلسائه من العلماء الملحدين على سفينة فى ليلة بدية فقال لهم انظروا أيها الرفاق ما أبدع هذه النجوم وما أجلها فمن أبدعها ؟ قال ملحد : نحن لانسأل هذا السؤال وما يدور فى ذهنك لا يدور فى أذهاننا انما نسأل نحن كيف تطور هذا العالم وكيف وصل إلى ما نرى أن برهانك أيها الامبراطور دليل جميل لك . وكان هذا الجواب الذى لنا كلام عليه فى محل آخر من هذا الكتاب ، أفهم نابليون فى زعم مجلة الثقافة .

ويقول الأستاذ الأكبر المراغى : « ليس علم الفقه علم الدين ». وتنقل « الأهرام » عن الأستاذ الكبير عبد المجيد سليم مفتى الديار المصرية سابقاً ووكيل لجنة الفضولين المسمين أنفسهم « بلجنة التقريب بين المذاهب الإسلامية » أنه قال تصديقاً لقول رئيس اللجنة على علوبة باشا وزير المعارف السابق ^(١) « إن مذاهب الأئمة المجتهدين مبنية في الواقع على السياسة » وفي هذا القول إساءة الظن بأئمة الشريعة الإسلامية مثل أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل رضوان الله عليهم ، أى إساءة . وفي أهرام ٢٨ فبراير سنة ١٩٣٦ قول الأستاذ الأكبر المراغى لوفد الشبان العراقيين : « إن من ينظر في كتب الشريعة الأصلية بعين البصيرة والحذق يجد أنه من غير المعقول أن تضع قانوناً أو كتاباً أو مبدأ في القرن الثانى من الهجرة ثم يجيء بعد ذلك فتطبق هذا القانون في ١٣٥٤ هجرية . »

أقول إن القوانين التى وضعتها أئمة الشريعة الإسلامية في القرن الثانى الهجرى وأخذوها من الكتاب أو السنة . . إذا كان عيبها عند شيخ آخر الزمان قدمها إلى هذا الحد فاذا يكون عيب مأخذها وهو أقدم منها ؟

وترى الأستاذ فريد وجدى بك يفسر الإيمان بالغيب المثنى عليه في كتاب الله ، بالإيمان بخلاف الواقع . ويكتب أستاذ مصرى من باريس إلى لجنة المباراة الصحفية

[١] والفارغى يرى في محل من هذا الكتاب أن الجامعة قررت في عهد وزارة على علوبة باشا ، أن تكون شارات حراسها من صور آلهة المصريين القدماء فتكون شارة كلية الزراعة لآله الزراعة وشارة كلية الطب صورة لآله الحكمة وهلم جرا . . فكتب صديقى الشيخ المفور له عبد المجيد اللبان شيخ كلية أصول الدين مقالة في الجرائد يستنكر هذا القرار وبلغت نظر الجامعة والوزارة إلى واجبهما نحو دين الدولة الذى هو الاسلام البعيد كل البعد عن الوثنية ورموزها ، فلم تسعاه وتسكت مشيخة الأزهر عن تأييد شيخ الكلية فاستقرت شارات الآلهة وشكر الله وحده سعى الشيخ اللبان . . . فلعل الباشا رئيس لجنة التقريب بين المذاهب مستعد لتوسيع هذا التقريب إلى ما بين مصر الإسلامية والفرعونية .

بالتقاهرة مقالة يستحق بها الجائزة الأولى يوجب فيها على رجل القرن العشرين أن ينبذ العقلية الغيبية ويطاردها في كل مكان حتى تستوى له عقلية علمية ، ويريد بالعقلية الغيبية العقلية الدينية ، ثم ينحى بالألعة على علماء أصول الدين القائلين بأن العالم يسير على نظام وضعه الله تعالى له وهو قادر على تغيير ذلك النظام الذى فطره وأبدعه ، مع أن نظام العالم (فى ادعاء الكاتب) من طبيعة الأشياء ليس مفروضاً عليها من خارجها ، وهؤلاء العلماء لم يفهموا أن النظام المطرد فى العالم وتسلسل العلل ومعلولاتها أدل على القدرة اللامتناهية من ذلك التصور الركيك الذى يجعل من قدرته تعالى وسيلة لتغيير النظام . وصاحب المقالة الذى يعجبه تسلسل العلل والمعلولات إلى مالا نهاية له ، لا يدرك أن التسلسل فى جانب العلل المترجمة إلى الماضى باطل عند العقلاء القائلين بوجود الله ليقطع هذا التسلسل الذى اهدت عقولهم إلى بطلانه ويكون مبدأ له تنتهى فيه السلسلة ، فى حين أنه لا توجد علة أولى فى مذهب التسلسل إلا وقبلها علة .. أو أنه يدركه ولا يعترف ببطلان التسلسل مقتضياً فى ذلك أثر الشيخ محمد عبده الذى حكم بأن كل ما قيل أو يقال فى إبطاله فهو من قبيل الأوهام الكاذبة ، وكان خطأ الشيخ فى حكمه هذا عظيماً ، كما أن مسألة إبطال التسلسل فى العلل أصبحت من رؤوس مسائل هذا الكتاب . والشاهد هنا أن الآراء المؤدية إلى نقي النبوة والألوهية تنفق سوقها فى مصر الحديثة وتعهد لأصحابها مراکز عظيمة بقدر عظمة الأخطاء التى تضمنتها .

ومن المظاهر المؤيدة لفكرة الإلحاد المستورة المكشوفة بمصر ، شغل الفلسفة الوضعية التى هى أحدث فلسفة الإلحاد فى الغرب ، وأشدها فى الخبث وإخفاء المكيدة للدين ، لا يتحفظ عن سوائه السواء نقد الأستاذ المقاد الخفيف فى كتاب « الله » عن هذه الفلسفة - مكاناً هاماً فى قلوب كبار الكتاب ، مع فكرة فصل الدين عن السياسة الذى يستلزم إلغاء المادة من الدستور الناطقة بأن دين الدولة الإسلام ، اكتفاء بدين

الأمة، إن كان يبقى دين في الأمة الراضية لتجرد حكومتها من الدين .
وكل هذه الحركات المختلفة الساعية لتهيئة الأذهان إلى قبول فكرة الإلحاد ،
منشؤها عدم إيمان العلم الحديث بوجود ما ليس منظوراً بالعيون مما عدده الأستاذ فرح
أنطون عند مناظرة الشيخ محمد عبده في سالف الزمان ، وإيمان المثقفين المصريين عن
صميم قلوبهم بهذا العلم الذي هو العدو للدود الراهن للأديان ، كما قال الأستاذ فرح ،
ولم يزل قوله نافذاً إلى الآن ، حتى أن أستاذ مجلة الأزهر لم يمدّ - فيما نقل عنه عند
تعداد أسباب التأليف رقم ٥ - ردود الشيخ محمد عبده عليه، كلمة منبوسة .

ومن فروع الإيمان بالعلم الحديث المنكر لغير المحسوسات إنكار فضيلة الشيخ
شلتوت عضو جماعة كبار العلماء ومجمع فؤاد الأول للغة العربية ولجنة التقريب بين
المذاهب الإسلامية ، وجود الشيطان الرجيم الذي نستعيز منه كل يوم في الصلوات
الخمسة ، وإنكاره لرفع سيدنا عيسى ونزوله في آخر الزمان ، بل إنكار الأستاذ
الأكبر المراغى أيضاً .

وزاد في الإشكال الديني الناشئ عن قصر التعويل على ما ثبت وجوده بالتجربة
الحسية وعدم الثقة بالدلائل العقلية الذي كان علماء الإسلام يعتمدون عليه في إثبات
وجود الله ، فزاد في الطين بلة أن نقل الدكتور غلاب أستاذ الفلسفة في كلية
أصول الدين ، عن أحد علماء الغرب ، نقداً يرمي على عدم صحة ذلك الدليل من
الناحية العقلية أيضاً ... وإن كان الدكتور غلاب نقله في سياق النقد على برهان
« ديكرت » ، ولم ينبس بكلمة في الرد عليه ، تصديقاً لقول الأستاذ فريد وجدي بك
المرار الذكر ، الذي يرى الرد على ما فعله العلم الحديث بالأديان من قذفها جميعاً إلى عالم
الأساطير ، أكبر من أن يحاوله محاول ، مع أن ذلك البرهان برهان علمائنا بعينه
وسيجيء تفصيله وتمحيصه في محله .

وهذا الكتاب يبدد هذه الشبهة ويذيبها إن شاء الله بمونه وتوفيقه ويجدد كل ما طرأ عليه الخراب في الشرق الإسلامي من نواحي الإيمان الديني المبني على أساساته العملية القديمة ، مهما كان الخراب عظيماً متولداً من استيلاء الإيمان بالعلم الحديث على مكان العلم القديم في القلوب ... يجدد كل آثار الخراب ويسترد مركز الإيمان القديم إليه ، في كفاح وحرب مشنونة ، إن لم تكن على العلم الحديث فعلى متعلميه وعلماؤه الضالين في تقدير قيمة ذلك العلم ومعرفة حدوده . ولم يهمل الكتاب بين مساعيه في مكافحة الضلالات وإزالة الشبهات الحديثة معالجة ما قدم منها وانتقل من الماضي إلى الزمان الحاضر محتفظاً برواجه في سوق الضلالات الاعتقادية لكونه جديداً في بطلانه لم يف عليه الدهر رغم قدمه ، فكان بطلانه أعاشه وأفاض عليه الجدة في نظر المصريين المزمين بالأضاليل ... ونعني بهذا مسألة وحدة الوجود التي لم نأل جهداً في درسها واكتشاف منشأها واستئصالها بعون الله تعالى وقولنا هذا الذي هو عبارة هنا عن الدعوى المجردة ، يتجلى في الباب الثاني من هذا الكتاب إن شاء الله على القارىء المجد الصابر لا صاحب النظر العابر .

هذا ما يتعلق بتميم الدين وتعزيزه في نواحيه الأساسية الاعتقادية المحتاجة إلى التعمير بعد الخراب والتعزيز بعد الاستهانة . أما ما طرأ على الناحية العملية والاجتماعية فحسبك في تقدير مبلغه من الفساد أن تعرف مبلغ الضلال في عقليات القائمين بتنظيمها وعلى الأقل التكلمين في أمرها فتقرأ ميمى في الجرائد أو تسمع من الراديو في الذكري الثلاثين مثلاً من ذكريات قاسم أمين صاحب الحملة على حجاب النساء ومؤلف كتاب « تحرير المرأة » ، مهزلة تأميل الثواب له من سفورهن .. نعم مهزلة تأميل الثواب له على الرغم من آيات الحجاب الموجودة في كتاب الله . وسنتكلم على هذه المسألة أيضاً في محله من الكتاب بما تستحقه من التفصيل . ومما يقضى العجب من تلك الذكريات أنها تحتوى الكشف عن كون حركة قاسم أمين مقرونة بتأييد الشيخ محمد عبده ،

فيقول الشاعر الكبير على الجارم بك خطاباً لقاسم صاحب الذكرى :

كنت في الحق للإمام نصيراً والوفى الصفي من أصحابه
نم هنيئاً فصر نالت ذرى المجد وفازت بمحضه ولبابه
منك عزم الداعي وفضل المجلى وعلى الله ما ترى من ثوابه

لا شك للإسلام في كفر مستحل الحرام القطعي الذي منه رفع الحجاب عن النساء وجعلهن كالرجال في الظهور أمام الأعين ، بل أكثر منهم إلى أن يصبحن كاسيات عاريات كما في حالة النساء الحاضرة بمد العمل برأي قاسم أمين مفتي الديار المصرية في النساء ، في حين أن كتاب الله يحرم عليهن إبداء زينتهن إلا لبعوثهن أو آبائهن أو آبائهن أو أخوانهن أو بنى أخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن إلى آخر الآية الواردة في سورة النور بكل صراحة وتفصيل .

وإذا كان استحلال الحرام كفراً في الإسلام فإذا يكون دعوى استحقاق الثواب على استحلال الحرام ؟ ولذا سميناهم مهزلة .

التعريف بمهرج الكتاب في نقد الأقوال :

لم أسلك في الذين انتقدت آراءهم في هذا الكتاب - وهم كثيرون - السبيل المعتاد في زماننا للتأليف ، لاسيما تأليف كتاب مثل كتابي في خطورة الموضوع وجلالته ، وهو أن لا يشتغل المؤلف في صلب كتابه بمناقشة كل من خالفه في رأيه بأقوالهم المذكورة في الكتب والنشورة في الصحف والمجلات ، بل يتمرض لما يستحق منها التمرض في إشارة قصيرة على الهامش مع رقم صفحة الكتاب الذي يتضمن تلك الأقوال ، أو على الأكثر مع النقل من نصوصها في اقتضاب وغير كفاية ، حتى يحتاج من يريد من القراء أن يطلع على تمام النص أو ما يقوم مقامه ، إلى مراجعة ذلك الكتاب ليكون حكماً عادلاً في المقارنة بين المؤلف والمخالف . وفيه شغل للقارئ ربما يعمد شاغلاً فينصرف عن مراجعته ويكتفى بما نقل عنه نقلاً منقوصاً ويتقبله بغير حق كالمفقوض ، أو ينصرف في سبيل المراجعة عن الاستمرار في مطالعة الكتاب الذي بيديه ، أو على الأقل يتأخر في قضاء حاجته الذهنية عن أوانه ، وربما تتمذر عليه المراجعة بالمرّة .

وفضلاً عن هذا فقد رأيت في اختيار هذا الأسلوب في نقد الأقوال شيئاً مما ينافي الأمانة والصراحة ويشبه الخلس والدلس في عرض المسائل على الأنظار . أذكر مثلاً لهذا من كتاب « التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام » المنشور حديثاً للدكتور توفيق الطويل مدرس الفلسفة بجامعة فاروق ص ٩ .

فبعد أن عرّف الغيب نقلاً عن « كشف اصطلاحات الفنون » بالأمر الخفى الذى لا يدركه الحس ولا تقتضيه بدهاة العقل ، قال في الهامش :

« وقد رأى الأستاذ محمد فريد وجدى أن الغيب يقابل الواقع (مجلة الأزهر في الجزء الخامس من المجلد الثامن) ولكن هذا التعريف أحق فضيلة الأستاذ مصطفى صبرى شيخ الإسلام في الدولة العثمانية سابقاً فدد به في (القول الفصل بين الذين

يؤمنون بالغييب والذين لا يؤمنون) وقرر ص ١٤٩ ، بأن الغيب ماغاب عن الحاسة .
والذى يبدو لنا أن التعريفين ليس بينهما تناقض ، وإن كان كلاهما غير واف بالحاجة .
فنقول ماذا يفهم القارى من هذا القول ؟ يفهم أن كلاً منا ، أنا والأستاذ فريد
وجدى بك مخطئ في الإتيان بتعريف للغييب غير واف ، وزيادة على هذا الخطأ المشترك
فإنى مخطئ أيضاً في الحنق على الأستاذ فريد وجدى الذى جعل الغيب مقابلاً للواقع ،
لكون تعريفه لا يتناقض مع تعريفى . ونحن ننقل هنا نص الأستاذ فريد في الجزء
المذكور من مجلة الأزهر :

قال في مقالته التى كتبها على وفاة جميل صدق الفيلسوف (على تمبير الأستاذ)
المراقى :

« أسلوب الفلاسفة الأولين الاعتداد بالمسلّمات العقلية والقضايا المنطقية والتدرج
منها إلى إدراك الملل الأولية (يعنى الإدراك المنتهى إلى الاعتراف بوجود الله) وهو
أسلوب أصبح لا يقنع أكثر المتعلمين على الطريقة الحديثة (وكأن الأستاذ يعذر بقوله
هذا المتوفى المعروف بالحاده) .

ومن أقوال الأستاذ عن المتوفى في نفس المقالة : « افتتن بمقررات العلم الطبيعى
وشغف حباً بالفلسفة المادية فخلعته عن العقائد الدينية ، ولم يستطع أن يتغلب على
عقائده الوراثية فيعلم أنه أصبح مادياً ، فوقف حائراً لا يدري بأى فريق يلتحق : بفريق
الذين يؤمنون بالغييب أم بفريق الذين يؤمنون بالواقع ؟ »

هذا قول الأستاذ فريد الذى أحقنى لكونه جعل فريق المؤمنين بالغييب الذين
أثنى عليهم الله في رأس كتابه والذين نحن المسلمين منهم ، مقابلاً لفريق المؤمنين بالواقع ،
ومعناه انه اعتبر الفريق الأول أعنى المؤمنين بالغييب ، مؤمنين بنير الواقع ! على الرغم
من أن الإيمان بالله داخل في الإيمان بالغييب دخولا أولياً ثم يأتى الإيمان بملأئكته

وكتبه ورساله واليوم الآخر . فهل كل هذا إيمان بخلاف الواقع ؟ فالأستاذ فريد كاتب مجلة الأزهر يعيب على الفريق الثنى عليهم في كتاب الله ، مادحاً ضد هذا الفريق بأنهم المؤمنون بالواقع ، مع أن الفيلسوف الذي تظاهر الأستاذ بانتقاد عقيدته كان يتردد - على رأي الأستاذ - حائراً بين الفريقين ، غير جازم بتفضيل فريق الذين لا يؤمنون بالغييب على الذين يؤمنون به ، كما فضل الأستاذ فهو أشد في ارتباك العقيدة من الفيلسوف الزهاوي . ولا أدري لماذا لم يُبحث الدكتور الطويل ما أحق الشيخ مصطفى صبري مؤلف « القول الفصل » من حالة الأستاذ فريد وجدى في جمل المؤمنين بالغييب وغير المؤمنين عليهم سافلهم ومناورته القاذحة في الفيلسوف الملحد بما يشعر المدح ؟

وبعد هذا البيان يظهر خطأ الدكتور فيما لا يرى تناقضاً بين تفسيرى للغييب وتفسير الأستاذ كاتب مجلة الأزهر الذى يتناقض مع رؤوس عقيدة الإسلام ، فضلاً عن تناقضه مع تفسيرى .

أما كون الدكتور المؤلف يمد كلا من التعريفين غير واف بالحاجة لخطأ فيه ظاهر أيضاً بالنظر إلى اكتفائه في التعبير عن تعريف الأستاذ بأنه غير واف بالحاجة ، بل تعبير الدكتور نفسه غير واف بما يستحقه تعريف الأستاذ من التشدد في الرفض . وأما خطأ ذلك التعبير بالنسبة إلى تعريفى فإنى لم أقصد بما ذكرته في « القول الفصل » عن الغيب بما غاب عن الحاسة تعريف الغيب إلا بقدر ما يتبين به تحبط الأستاذ كاتب مجلة الأزهر في تفسير الغيب ، ولا أقول في تعريفه ، ولعله أيضاً لم يرد التعريف . لكنه فسره ولو عرضاً وإجمالاً وأخطأ فيه خطأ فاحشاً ، كما ذكرته واكتفيت في تصحيح ذلك الخطأ بحمل الغيب على ما غاب عن الحاسة لا عن الوجود كما يوحى تفسير الخطأ فيكون الغيب على تفسيرى مقابلاً للشهادة كما ورد في قوله تعالى « عالم الغيب والشهادة » ويكون مغزى التفسير هو الرد على جملة مقابلاً للواقع المفهوم منه كون الإيمان بالغييب إيماناً بغير الواقع . وقد كفانى هذا التفسير في الرد على ذلك

الخطأ الفاحش ، كما فسره الفخر الرازى صاحب التفسير الكبير بما فسرت به أهى الغائب عن الحاسة وقال إنه رأى جمهور المفسرين .

هذا ، ولكون مقصودى مما ذكرته فى « القول الفصل » متعلقاً بتفسير الغيب ، بل من « القول الفصل » كله وغيره مما نشرته وأنشره إن شاء الله من الآثار ... تصحيح ما صادفته فى نشرات الماصرين المغترفين من مناهل الغرب غير المصفاة ، من الأخطاء الضارية لعقائد الإسلام فى صميمها ، لا الاشتغال بتفسير الألفاظ وتفصيل المعانى والتكاثر بكليات العلوم والمعارف - اكتفيت فى تعريف الغيب بما يبقى بحاجتى التى ذكرتها ، غير مبال بأنه قد لا يكون وافياً بحاجة غيرى ، كمن أراد التأليف فى موضوع الغيب فأتى بتعريف من « كشاف اصطلاحات الفنون » للتهانوى أضيف فيه إلى ما غاب عن الحاسة « مالا تقتضيه بدهاة العقل » ولا مانع من أن يكون هذا التعريف أفضل من تعريفى لمن أراد أن يأتى بتعريف للغيب يحدده تحديداً فنياً ويخرج منه ما غاب عن الحاسة فقط .

على أن لى أن أقول : لاشك فى أن المعنى المتبادر من الغيب فى كلام العرب وفى كتاب الله الذى نزل على لفتهم وعلى ما تنساق إليه أفهامهم فى استعمال الألفاظ ، هو مقابل الشهادة ... أما ما تقتضيه بدهاة العقل من غير المحسوسات فإن لزم إخراجها من الغيب - رغم كونه غائباً عن الحاسة - وإدخاله فى الشهادة ، فالمقول أن يكون ذلك من طريق إلحاقه بالشهادة تشبيهاً ، لا لكونه مشهوداً حقيقة .

ولى أن أقول أيضاً إن الله تعالى داخل فى الغيب الذى أثنى فى كتابه على المؤمنين به كما صرح به علماء الإسلام . ومع هذا فلا مغالاة فى القول بأن إدراك وجود الله مما تقتضيه بدهاة العقل على ماذهب إليه الفيلسوف العظيم ديكارت من أن الإنسان يدرك وجود الله بعد إدراك وجود نفسه وقبل إدراك وجود العالم ، وسيجىء بحثه فى هذا الكتاب . فالأولى بالجمع بين هاتين الدقيقتين أن يقتصر فى تفسير الغيب على

ما غاب عن الحاسة ، لئلا يكون الله خارجاً عن الغيب الذي يؤمن به المؤمنون ، على مذهب ديكرت أيضاً .

فهذا نموذج أسلوب النقاش الذي التزمته في كتابي ترجيحاً على الأسلوب المعتاد عند المعاصرين من أصحاب التأليف الذين يستأثرون لأقوالهم بمنع من صلب الكتاب يخاطبون منه خصومهم من غير أن يؤذن لهم بالدفاع عن آرائهم إلا بكلمات مقتضبة يهيمسونها من دهايز الصفحات (الهوامش) وقد رأيت نموذجاً المنقول من كتاب الدكتور الطويل ، فليقارن القراء بين الأسلوبين .

نعود إلى استعراض مناهج المؤلفين في كتبهم إزاء مخالفهم : وكما لا يعجبني عند النقل من الأقوال التي يراد نقدها أن لا يعطى حق النقل ، كذلك لا يعجبني الإعراض عن أقوال طائفة من المخالفين بالمرّة مهما كانت صلتها بموضوع الكتاب ، بل ومهما كانت قيمتها في نفس الأمر ، لعدم كون أصحاب تلك الأقوال من أكفاء المناظرة للمؤلف ، سواء كانوا من غير أكفائه حقيقة أو في زعم المؤلف . ففي هذا النهج الذي يُهْتَم فيه بالقتال أكثر من القول تقصير ظاهر في مراعاة حق البحث العلمي ، ترجيحاً لمراعاة حظ النفس المتكبرة . ومن الناس من يتخذ من طبقات الناصب الحكومية طبقات في العلم يوشك أن لا يصعد إليه صوت ناقد ، وإن رأيت مصر في طليعة بلاد لا تدم أناساً من هذا الطراز أقاموا حولهم سياجاً من سمك الناصب الرسمية إذا استووا عليها سقط عنهم التكليف مثل غلاة الصوفيين المختلفين في مراتب الطريقة مرتبة تسقط التكليف الشرعية عمن بلغها .

وقد سبق حين حدثت في تركيا الكمالية فتنة ترجمة القرآن أن كتب الأستاذ الأكبر المراغى مقالة طويلة في « السياسة الأسبوعية » وفي « الأهرام » يرتأى فيها ، لأجواز القراءة في الصلاة للأعاجم بتراجم القرآن على لغاتهم مع القدرة على قراءة الأصل

العربي ، بل ترجيح قراءة التراجم على قراءة الأصل ، فضلا عن جوازها^(١) وكنت انتقدت تلك المقالة في كتابي « مسألة ترجمة القرآن » المنشور سنة ١٣٥١ هـ انتقاداً مفصلاً ، وكان الأستاذ لم يجب على انتقاداتي ؛ ثم تجدد النقاش على موضوع ترجمة القرآن بعد سنين بين بعض الفضلاء الذائدين عن حمى القرآن كالشيخ محمد سليمان والأستاذ محمد المهياوي^(٢) رحمهما الله وبين الذائدين عن حمى مشيخة الأزهر المروجة للموضوع ، مثل الأستاذ فريد وحدي ، فإذا بمقالة الأستاذ الأكرم المراغي القديمة قد نشرت في مجلة الأزهر مرة ثانية بعينها إصراراً على ما فيه من الأخطاء التي من جملتها عدم إصابة صاحب المقالة في فهم أقوال الفقهاء الأحناف التي كان يستند إليها . وقد نهت عليها في كتابي المذكور ، فنجوهل للتنبيه والذنب ، فلعله لم يرنى كفواً لمناظرته ! أما مسألة التصريح بأسماء الذين ناقشهم على آرائهم أو الكف عن ذكر الأسماء في المعاصرين والاكتفاء بنقد الأقوال والآراء كما أشار به إلى بعض الأصدقاء وأصر بعضهم على ترجيح هذا الرأي قائلاً ان خلافه يخرج الكتاب عن وقاره فيجمله كتاب جدال وقيل وقال ويحلب عليه الخصومات - فهذه المسألة تحتاج إلى شيء من الإيضاح والتمهيد ، فأقول :

أيها القارئ الكريم ، ما أعظم المهمة التي أخذها هذا الكتاب على عاتقه ، وما أغمض المشكلة التي وعدك حلها وتحليلها قبل حلها ، أعني مشكلة إنقاذ الدين عن الشكوك المستولية على قلوب المتعلمين المصريين . لأن عملية التحليل الذي يتوقف عليه الحل تؤدي إلى نصب كلمات بنصها كتبها أصحاب تلك الشكوك في مقالة كذبي

[١] وما يلفت النظر أن هذه الفتنة على الرغم مما وجدت مظاهرين متطوعين في مصر مثل الأستاذ فريد وحدي والشيخ الراعي ، ما نجحت حتى في تركها التي هي محل حدوثها

[٢] سمعت في تأييد هذا الأستاذ قصيدة لمحمد الحناوي لم يرقني روحها في صدق القول شيء . مما سمعته بمصر من الراعي .

أو كتاب كذا أمام الأعين ، ثم إن الشكوك لا تُلقَى في الأكثر صريحة على أنها شكوك في الدين ولُقبها يريد التشكيك والتوهين في عقائد المؤمنين، بل تُلقى على طريقة الدس وتهيئة الأذهان التي يشتغل بها نوابغ الشرق من زمان كما سبق نقله من كلام الأستاذ فريد وجدى بك .

وبالنظر إلى كون أصحاب الشكوك راضين عن شكوكهم من ناحي القلوب إليها في عصر سيادة العقلية الربيبية في الغرب الذي هو قدوة الشرق الحديث في الثقافة ، فهم ليسوا في حاجة إلى أن أنبههم على أخطائهم وأذكروهم بأسمائهم في الكتاب مع أقوالهم التي أخطأوا فيها جنباً لجنب ، ليكون ضماناً لوصول التنبيه إليهم لمعلم يستفيدون منه . على أنى ضعيف الأمل جداً فيما إذا كان يفهمهم التنبيه ، مادامت الشكوك راسخة في رؤوسهم لاتساورهم ولا تقض مضاجعهم ، لكونها شكوكا في الدين الذي لا يههمهم كما يههم المؤمن القديم ، وكونها في زعمهم شكوكا مبنية على أسباب علمية غير مرجوة الدفع ، لاسيما إذا كان من تولى الدفع واحداً من علماء الدين الذين أصبحوا منذ أزمته طويلة غير مسموعى الكلام وامتاز من امتاز بينهم برواج القول، تابماً لتيارات الضلال الحديثة لامتبعوا في ممارضتها. وعلى كل حال فذكر الأسماء عند نقد الأقوال، أعترف بأنه لا ينفع القائلين ولا يؤثر فيهم غير إثارة الضغائن على الكتاب ربما تحول دون ذبوعه أو دون إذاعة من أراد الإعلان عنه .

أما القراء فهم لا يلفتهم كل كلمة تنير الشك في الدين على أنها تنيره أو على أن المثار شك ذو خطر على عقيدة الإسلام ، إلا بالقياس على خطورة مركز التكلم ، فلا ينجم ما بذلته في الكتاب من الجهود ليكون كفيلاً بتصحيح ما فسد من العقائد إزاء التشكيكات المصرية، مع دوام مراکز المشككين محفوظة في قلوب الناس ولو بالنسبة إلى كلماتهم التي تضمنت الزيف والإذاعة في العقيدة . حقيقة الواجب الذي توليت القيام به ليست عبارة عن تأليف كتاب في علم أصول الدين يشرح مسائله أو يشرح طائفة

مهمة منها تشتت الحاجة في هذا الزمان إلى معرفتها على وجه الصحة ، وليس كتابي ككل كتاب علمي يحتذى خطته المعتادة ، وإنما الغاية التي أهدف إليها مكافحة الشبهات المصرية المسطرة على مسائل تقوم عليها دعائم عقيدة الإسلام وغيره من الأديان، مع مكافحة أشخاص الثيرين لتلك الشبهات من الغربيين ومطبقها على عقائدنا من الشرقيين .. مكافحة الشبهات ومكافحة مثيرها معاً ، بل ومكافحة المكامن أيضاً التي ربما يستتر الثيرون وراءها، إلى أن يترزع مكان الشبهات مع مكان مثيرها في قلوب الناس كائنين من كانوا ... فتتهار الشبهات ومروجوها وتسلم عقيدة المؤمنين من شرورهم وتسويلاهم التي قد لا يحسونها بأنفسهم أو لا يقدرّون قدر مضارها ، وموقفي منهم موقف المحارب ولا تكون الحرب خفية ، فإن كانت فأنا لا أعرف مزاولتها كما يعرفون . ثم لأنهم مشككون ويكفيهم العمل في الخفاء كالصيد في الماء العكر ..

فلا بد إذن من التصريح بأسماء الذين أناقشهم ... وقد قلت في مقدمة الكتاب التي أحصيت فيها أسباب تأليفه مبسوبة كل البسط : « ولما هاجرت بعد انقلاب تركيا إلى مصر وجدت فيها العلم الحديث الغربي الناظر إلى الأديان نظره إلى الأساطير، أنطق لساناً من علم أصول الدين الإسلامي وأعلى صوتاً .. » فكان من واجبي إثبات صدق هذا القول .. وقد كان معلوماً أن مهمة هذا الكتاب الرئيسية مكافحة اللادينيّين ومحاربتها بطريقة علمية متجلية في القضاء على كل شك يرمي إلى الإلحاد . ومن المعقول أن تتقدم هذه المرحلة التي هي مرحلة الغاية مرحلة أخرى يُشرح فيها وقوع الشرق الإسلامي في خطر من انسياب العقليات الغربية المناوئة للدين إلى أذهان المثقفين ، وإثبات هذا الخطر يتوقف على سرد شواهد من كلمات رجال يستدل بأهمية مراكمهم الرسمية أو الأدبية على أهمية الخطر .

وليس من حق القارئ المنصف أن يتوقع مني في هذا الكتاب عند نقد الأقوال التي لا يجوز الإغضاء عليها من رجال الدين أن أضع توطئة لعملية النقد في كلمات مقدمة

تتضمن مدح أصحاب تلك الأقوال وإكبارهم كما هو المعتاد في زماننا ... وفي ظني أن الأقوال التي تستوجب التعقيب والاستنكار فلاشتغال قبلها بمدح وإكبار القائلين أصبح عادة متبعة بين نقاد الشرق الإسلامى بعد أن تمودوا تقليد الغربيين وهى من زيوف مدنيّتهم فيهتمون بالمصانعة أكثر من المصارحة ، مع أن في الشرق اليوم شخصيات وأسماء أكبر واتخذت قدوة في الزيف عن محجة الإسلام .. فالحق أو بالأولى من واجب رد الحق إلى نصابه ، الخط من مراكزم في القلوب بقدر ما حازوه منها بغير حق .

هذا واجب الكتاب ليطمئن على كونه نافعا للقراء المحايدين .. ثم إنى غير مسىء للذين أسارحهم ساعيا لإقامة ما في عقيدتهم أو فهمهم لعقيدة الإسلام من عوج ، ومصارحتى إليهم بالحق أنفع لهم من أن يغضبوا على بسبب هذه المصارحة ، ومن كلمات الحكمة : « صديقك من صدقك لا من صدقك » . والمقصود الأسمى هو خدمة الدين والعلم بمغناه الصحيح وخلاصتها خدمة الحقيقة من غير مسايرة العادات والتيارات أو مراقبة المراكز . ولو كنت سايرت في خدمة الدين والعلم الاعتبارات الخارجية عنها لقلت مع القائلين المصريين أن العلم والدين ضدان لا يجتمعان وانصرفت عن تأليف هذا الكتاب أو جعلته كتابين مفترقين تفريقا لخدمة أحدهما عن خدمة الآخر ، كما فرق الشيخ الأكبر المراغى في خطابه للبعثة الأزهرية إلى أوروبا عند توديعهم في محطة القاهرة ، وسيجيء نقله في هذا الكتاب بنفسه .

ثم إن في عدم التصريح بأسماء الذين أناقشهم ، بعض التنكب عن مسلك الصراحة وأهم من ذلك أن القول الذى أريد نقده من غير تعيين صاحب القول قد يُظن أنى زدت على أصله أو نقصت أو غيرته وصوّرتة في صورة يسهل الرد عليه ، ولو ذكر نصه بين القوسين وأراد القارى أن يتبين صحة النقل وتام مطابقته للأصل صعب عليه تعيين

عمل القول من غير تعيين القائل . فالأولى بمصلحة العلم وأمانة البحث ما اخترته من طريق الصراحة .

وأمر ثان : وهو أن البعض الآخر ممن قرأت عليهم من أصدقائي بعض أبحاث الكتاب وجد في أسلوب مناقشاته شيئاً من الشدة والقسوة ورأى أن التأثير على القارئ عند الملاينة يكون أكثر .. وجوابي عليه :

أن ردى على المخالفين صفتة في درجات مختلفة من الشدة والطف وأنه ليس تعنيفي وتشديدي موجهاً إلى القراء ، بل إلى الذين أناقشتهم ، وهم لا أمل لى في تحويلهم عن آرائهم الضالة المضلة بما جربتهم وجربهم غيرى . وإنما أنا أهزمهم وأقضى عليهم بوابل من النقد العلمى ولا غرو إذا كان الوايل قد تصحبه الرعد والبرق . وبذلك أكون مؤثراً في عقول القراء الذين يجرى النقاش في مرأى ومسمع منهم والذين عنيت بتأليف هذا الكتاب لأجلهم ، ولست بشاتم للذين صوبت نحوهم سهام النقد الحاسم . ثم إنى ما قسوت في القول إلا على الذين قست أقوالهم على أساس من أسس الدين أو علم من علومه أو طائفة من علمائه . وما فرطت في جنوب من ناقشتهم وفيهم المفرطون في جنب الله والمستهيون بالعقل والمنطق .

وقولى في الذين ناقشتهم « وهم لا أمل لى في تحويلهم عن آرائهم الضالة المضلة بما جربتهم ... » ، أذكر لهم مثالا من الأستاذ فريد وجدى الذى يرى اسمه كثيراً في هذا الكتاب فقد ناقشته على إنكاره لمعجزات الأنبياء في بضع مقالات من الطرفين منشورة في « الأهرام » قبل سنوات ، فلم يقلع عن رأيه بل أضاف إليه في ردوده على إنكار البعث بعد الموت . ومثالا آخر من فضيلة الشيخ شلتوت عضو كبار العلماء : انتقدت في « القول الفصل » قوله المنشور في « الرسالة » المنكر لرفع عيسى عليه السلام إلى السماء ونزوله منها في آخر الزمان ؛ فردّ على بجمس مقالات أخرى مصرّاً على إنكاره . وسيرى القراء جوابى على هذه المقالات إن شاء الله .

وأحدث مثال لعدم تأثير بيان الحق في قلوب المثقفين المصايين بالضلال المصرى
مهما كان الحق ظاهراً وبيانه مفجعاً ، أن الدكتور توفيق الطويل مؤلف « التنبؤ
بالغيب عند مفكرى الإسلام » يقول في هامش الصفحة (٢٧) :

« رأى ابن خلدون يخالف الاتجاه الحديث الذى ينكر الكرامات وخوارق العادات
ويؤول المعجزات بحيث تبدو متفقة مع منطق العقل ، متمشية مع سنن الكون ، مسيرة
لطبائع الأشياء ، وبهذا يمتنع وصفها بالخوارق . ويقال ان القرآن وحده هو الحجة
القطعية على نبوة الرسول وما عداه شبهة لا حجة . وقد تصدى لدفع هذا الاتجاه
الشيخ مصطفى صبرى وهاجم من أجله بعض أعلام المحدثين . »

وأنا أقول : ليس ابن خلدون وحده يخالف ماسماه الدكتور الاتجاه الحديث الذى
ينكر الكرامات وخوارق العادات ويؤول المعجزات بما يخرجها عن كونها معجزات
تتمشى مع سنن الكون وتسائر طبائع الأشياء ، بل جميع علماء الإسلام على خلافه
إلى أن جاء الشيخ محمد عبده ومن أخذوا منه ، لأن تأويل المعجزات بما يخرجها عن
خوارق العادة ، يخرجها أيضاً عن كونها معجزات ويؤدى إلى إنكار نبوات الأنبياء
مع المعجزات لما فى إنزال الوحي والكتب عليهم وإرسال الملك إليهم خرقاً لسنن
الكون ، ولا تكون المعجزات معجزات بدون خرقها ، حتى ان القرآن الذى
يتظاهر الدكتور الطويل باستثنائه بين المعجزات والاعتراف بكونه وحده حجة قطعية
مع من قلدتم من المعترفين ، لا يكون حجة إن لم يكن كغيره من المعجزات خارقة
من الخوارق ، وهو متوقف على كونه كلام الله إذ لو كان كلام سيدنا محمد لا يكون معجزة
كما لا يكون خارقة . فعنى الاتجاه الحديث المنكر للكرامات وخوارق العادات والمؤول
للمعجزات بما يخرجها عن إعجازها ويرجع إلى إنكارها أيضاً اتجاه إلى رفض أساس
من أسس الدين . فكيف يتأسس هذا الفكر المترجم عن الكفر البائح والجهل الفاضح

في جامعة مصر الإسلامية وينشر بقلم مؤلف من مدرسيها من غير أن يلتقي نكيرا
من داخل الجامعة وخارجها ؟

أما ان المعجزات بدون تأويل، لا تتفق مع منطق العقل فتخرق العقل والمادة معاً،
فهو غلط ناشئ من عدم التمييز بين خارق المادة الممكن وخارق العقل المستحيل .
وإني خصصت لتحقيق هذه المسألة وتوضيحها ١٥ صفحة « من القول الفصل » (من
٢٥ إلى ٣٩) ونهت فيها إلى أن المتعلمين المصريين لا يدرون أن دائرة الإمكان أوسع
بكثير مما يظنون . والدكتور الطويل الذي يرى أنه قرأ كتابي ، لا أقول لم يفهم تلك
الصفحات بل تعمد أن لا يفهمها عناداً وإصراراً على عقليته الراسخة فيه تقليداً للملاحدة
الغرب أو تقليداً للقلدين من أساتذته المصريين، وهم يستهينون بالعقل والمنطق مستضعفين
الأدلة المبنية عليهما ، ثم يقولون عن المعجزات الخارقة للمادة وبمباراة أخرى لسنة
الكون والتي لا مانع من اتفاقها مع العقل والمنطق : « لا تتفق مع منطق العقل »
وليتهم قلدوا من علماء الغرب المتكاملين بمنطق العقل ، وهم موجودون ومذكورون
في « القول الفصل » .

« قال (ويليام استانلي جون) من كبار المنطقيين الإنجليز : « القدرة التي خلقت
للعالم لا تعجز عن حذف شيء منه أو إضافة شيء إليه ، ومن السهل أن يقال عنه انه
غير متصور عند العقل (لكونه مخالفاً لسنة الكون) لكن الذي يقال عنه انه غير
متصور عند العقل ، ليس غير متصور إلى درجة وجود العالم .

« يعني لو لم يكن شيء من هذا العالم موجودا غير رجلين أحدهما ينكر المعجزات
الخارقة ولا بتصور وجودها ، والآخر يؤمن بها فقال المؤمن للمنكر سيوجد عالم كذا
كان جوابه أنه غير متصور وكان نفي تصوره أشد من نفي تصور المعجزات .

« وأصل هذه الإنكارات يرجع إلى عدم الإيمان بوجود الله ، قال (استوارت ميل)

عند انتقاده لإنكار « هيوم » المعجزات : « إن من لا يؤمن بوجود فوق الطبيعة ولا يتدخله في شئون العالم لا يقبل فعل إنسان خارق للعادة على أنه معجزة ويؤوله مطلقاً بما يخرج به عن كونه معجزة » .

ومن كلامنا في « القول الفصل » : « نقول لمكرى المعجزات الخارقة لنظام العالم وهم يدعون أنهم يؤمنون بالله : ليس واضح هذا النظام المسمى بسنة الكون هو الله ، فكيف تقيدون الله بالنظام الذي هو واضعه بقدرته وإرادته واختياره ، فهل يكون القادر المختار عاجزاً عن تغيير ما وضعه متى شاء ذلك ؟ أما انه لم يغيره فيما رأيناه وهو سنته التي لن تجد عنه تحويلاً ، فذلك بالنسبة إلينا . ومعناه أنا لا نقدر على تبديل سنة الكون ، فلا تكون النار إلا حارة محرقة لكل ما من شأنه الاحتراق بموجب نظام العالم ، ومصالحتنا في استمرار نظامه أنا نعتمد عليه مطلقاً في أمورنا وحاجتنا وتحصل لنا منه قواعد مضبوطة . ولكن نظام النار هذا مثلاً الذي نحن مقيدون به لا خالق النار وواضع نظامها ، ليس بمنع أن يجعلها الله برداً وسلاماً على نبيه وخليه إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه ، تأييداً لرسالته من عنده » .

قلنا هذا وأكثر من هذا في صفحات « القول الفصل » التي أشرنا إليها وقراءها الدكتور الطويل ، ثم قال القول المذكور سابقاً كأنه لم يقرأها وافترض أن القراء لم يقرأوها أيضاً .

وقرأ الدكتور في ص ١٢١ رداً على الشيخ رشيد رضا القائل بأن المعجزات الكونية شبهة لا حجة ، قولي : « إعتبر قول علماء المصريين حجة ، حين لا يعتبر معجزات الأنبياء حجة ، ولا تعبير القرآن عن تلك المعجزات ، تارة بالحق وتارة بالبينات وتارة بالآيات الكبرى وتارة بالسلطان وتارة بالبرهان وتارة بالفرقان - حجة في أنها

حجة». وقرأ بعمد الآيات التي تنطوي على هذه التعميرات ، ثم قال قوله المذكور سابقاً :
« إن القرآن وحده هو الحجة القطعية على نبوة الرسول وما عداه شبهة لا حجة » .
ونحن نقول هنا إذا كان القرآن حجة قطعية على نبوة رسولنا لزم أن يكون
حجة أيضاً على أن معجزات الأنبياء غير القرآن حجة على نبوتهم ، بشهادة القرآن
في آياته التي أشرنا إليها وأحصيناها في « القول الفصل » . أفؤمنون ببعض الكتاب
وتكفرون ببعض ؟ أم تقولون أن القرآن شهد على نبوتهم فلا حاجة إلى شهادة
معجزاتهم التي هي شبهة لا حجة ، رغم تعبير القرآن عنها بأسماء عالية ؟ فإذاً يلزم أن
تكون نبوتهم قبل نزول القرآن قائمة على شبهة ، وإيمان من آمن بهم في عهدهم مبنياً على
شبهة ، ومعجزاتهم بعد أن نزل القرآن وأشاد بذكرها وتفنن في الإشادة أي تفنن ، لا تزال
شبهات . أمثل هذه اللوازم المتصلة بإنكار حجية المعجزات والتي ينقض بعضها
بعضاً تتفق مع منطق العقل حين لا تتفق المعجزات نفسها معه من غير تأويل يخرجها
عن كونها معجزات ؟!

ولو كان الدكتور الطويل وغيره ممن يصرون على تأويل المعجزات واعتبارها
شبهة لا حجة مثل الشيخ رشيد ، مصارحين بأنهم لا يأبهون بنصوص القرآن التي
أحصيتها في « القول الفصل » لكونهم غير مخلصين أيضاً في الإيمان بحجية القرآن -
لهان الأمر وانتهى الكلام .

وهذا هو الاتجاه الحديث الذي قيل عن أعلامه بمصر إن الشيخ مصطفى صبري
هاجمهم ، أما ما قيل في نفس الهامش عن مهاجمته بقسوة على تعريف الشيخ محمد عبده
للنبي ورد الدكتور الطويل عليه بالتخفيف ، فقد أرجأت التكلم عليه إلى محله ، وقد
طال الكلام هنا قبل الدخول في الكتاب ، وسبق الجواب على ما يرى في أسلوب
نقدى من القسوة . ولي جواب آخر عليه :

وهو أن ان موقفي في الكتاب ليس موقف الواعظ ، ولو كان كذلك لكان

الرفق واللين أوفق وأنجح ، وكان للوعظ أهل غيرى من أهل اللسان العربى . لكن موضوع الكتاب علمى بحث تنفق فى سوقه الحقائق المجردة من كل تمويه وتظلية وتُقرع فيه الحججة بالحجة ، ولا بدع إذا كان صوت القراع والصدام شديداً ، لاسيما مع أصحاب الأقلام الذين ظالما تلاعبوا بمقول قرائهم وباعوا الضلالة بيع الهدى ، حتى أنهم إذا عرضوا على الناس الإيمان بالله عرضوه غير مستيقنين ، إن لم يكونوا مستبطنى الإلحاد . أو إذا عرضوا عليهم الإيمان بالرسول لانكون بضاعتهم فى ذلك غير سمسة للمستشرقين أعداء الإسلام . ولا شك أن إنقاذ القراء واجتذابهم من أيديهم يتطلب عملاً عنيفاً وصراعاً قاسياً .

فأما عند النقاش محاربون لعقيدة الإسلام محاربة مباشرة أو من وراء الحواجز ، واللين مع المحارب من شيمة الأحمق أو العاجز .

هذا ، وقد يخطر ببال بعض قراء الكتاب أن بعض المناقشات التى عانيت به كان المحل الأولى به الصحف والمجلات ، لاسيما وفى ذلك عدم التأخر فى الرد على ما يستحق الرد من الأقوال والأفكار التى انتقدتها فى الكتاب ، عن أوانه . والجواب عليه أن تلك الأقوال المنتقدة نُشرت متفرقة فى أزمنة مختلفة ولقت نظرى فأثرت فى نفسى تدريجاً ، حتى حصل عندى من مجموعها خبرة وقناعة بموقف مصر من الإسلام وحاجتها إلى ماقت به فى هذا الكتاب من تدقيق مسائل هامة متعلقة بأصول الدين وفلسفتها وإزالة شبه الزائفين فيها ، وقد عرضتها فى الكتاب شواهد فعلية لأنواع ذلك الزيغ المطلوب إزالته ، وكان الأولى والأوقع فى النفوس عرضها جملة والرد عليها جملة وتخليدها جملة فى كتاب ، لا تفرقها فى مقالات مفرقة على الأزمنة المختلفة والصحف والمجلات المختلفة والقراء المختلفين .

ولقد رأيت كثيراً من كبريات الصحف والمجلات الواسعة الانتشار واقعة تحت سيطرة كتاب متأثرين فى السى لإضعاف نفوذ الدين فى المجتمع متلاعبين بأحكامه

وقواعده ، فلهذا لا تتسع صدور تلك الصحف والمجلات لمقالات الذود عن الدين برغبة صحيحة^(١) . وقد ضاق نطاق استطاعة مصر المالية إلى الآن عن تأسيس جريدة يومية إسلامية في حين أنها تملك عدة جرائد حزبية . أما المجلات الإسلامية بمصر فهي إما ضعيفة الانتشار أو ضعيفة التمسك بالمبدأ ، فقد رأينا مجلة (الإسلام) لم تحجم عن رثاء مصطفى كمال جاعل دولة الترك المسلمة لادينية ومأخى آثار الدين فيها حتى الحلف الرسمي باسم الله ، لما مات فيكت عليه مع الباكيات وكما ذا بمصر من المضحكات . وعلى الرغم من أن كلمة التعريف بمنهج الكتاب في البحث والنقد تزداد طولاً على طولها بانتقال الكلام من مسألة إلى مسألة وتؤخر الدخول في الكتاب على قدر طولها - لا بد من إيراد مثال لعدم اتساع صدور المجلات المعروفة بين المصريين بمصر لمقالات الذود عن حى الدين وكرامة أهله، حتى بعد أن كان الاستفزاز إلى الذود وقع من جانب تلك المجلات بمقالات منشورة فيها ، فقد كتب الأستاذ فريد وجدى بك مقالة افتتاحية لمجلة « الرسالة » عدد ٦٠٢ عنوانها (الدين في معترك الشكوك) وكانت مقالة يُظن من خطورتها الناعية للدين أنها تثير عواطف شديدة في قلوب أهل الدين الذين لا بد أن يكونوا موجودين في هذه البلاد وعائشين ، مهما نعى الدين نفسه من زمان وانقضى عهده كما نصت عليه مقالة الأستاذ . وكانت هذه المقالة كالذكري عن ميت قديم ربما لم يبق منه عظم بدون أن يدركه البلى ، وكانت كذكرى شماعة لا ذكرى حسرة أو رحمة ، والعلاج الذى ذكره صاحب المقالة لإحياء هذا الميت أشبه بالهزم

[١] فقد كانت جريدة « الأهرام » تنشر مقالتي وتشيد بها أيام كانت تصدر تحت إشراف الأستاذ داوود بركات، ثم تغير وجه الجريدة في استقبال ما أكتبه إلى حد أنها أبت في عهد أطول الجليل باشا الإعلان عن كتابي المسمى (القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون) المنشور في السنين الأخيرة مع استلام نسخة من الكتاب مهداة إليها اتباعاً لعادة الإهداء إلى الجرائد من مؤلفي الكتب ، فأعلن عنه كل جريدة أهديت إليها واطلعت هي على محتوياته وشذت (الأهرام) في الإباء عن الإعلان .

والسخرية أو السموذة منه بالعلاج ، ومع كل هذه التي تضمنتها مقالة الأستاذ فلم تحرك ساكنًا والحركة التي أردت أنا إبداءها قد قوبلت بمحاولة الإطفاء والإخفاء من بعض شركاء الناعى الشامت الذين يظاهرونه من وراء الستار . وهذا هو المعنى الظاهر من كتابتى الرد على الأستاذ فريد وجدى وإرساله إلى « الرسالة » لنشره كما نشرت مقالة الأستاذ ، ثم إيا « الرسالة » عن نشره وانفهام إثباتها بعد انتظار النشر بأسابيع . ولم يكن نشر مقالة الأستاذ فى « الرسالة » دون مجلة الأزهر التى هى مجلته نفسه ، صونًا للأزهر عن مثل تلك المقالة الماسة للدين ، بعد أن لم تصنُ المجلة والأزهر عن كاتب المقالة طيلة سنوات تستغرق تمام عهد المشيخة الثانية للشيخ المراغى والشيخ مصطفى عبدالرازق وقسما من عهد مشيخة الطواهرى قبلهما ... بل اختير نشرها فى « الرسالة » ليقراها المثقفون المصريون الذين لا يقرأون (مجلة الأزهر) وإن كانت تصدر تحت رئاسة واحد منهم .

وإنى أريد أن أكتب هنا مقالتي التى لم تحظ عند « الرسالة » ، توفية للمثال حقه ، وقبل الشروع فى المقالة أريد البحث عن سبب هذا الحرمان ماذا يمكن أن يكون :

لا تأبى (الرسالة) نشر مقالة الدكتور زكى مبارك التى يعبر فيها عن علماء الدين بالجهلة كما يأتى نصه ، وتنشر مقالة الأستاذ فريد وجدى الذى يردد فيها ذكر أهل الدين الصادقين فى إيمانهم بالله ورسله ، بامم (الاعتقاديين) ويصفهم بالسذاجة العامة ويرى الدين نفسه تحت شبهات لم تدع محلا للعقيدة بعد أن أخذ العلم ينتشر بخطوات واسعة وضعفت حجة الاعتقاديين أمام هذا التحدى ^(١) .

[١] لا يقال إن مقالة الأستاذ فريد لم تجد محلها فى صدر « الرسالة » لكونها مقالة اعتداء على الدين وأهله ، بل باعتبارها مقالة المبالغة التى تنجى فى إزالة الشبهات العصرية المتوجهة إليه ، بعد ماتين عدم فائدة المبالغات القدسية ، لأنى أقول إن كان هذا زعم « الرسالة » فى مقالة الأستاذ

تنشر « الرسالة » وسائر المجلات بمصر الراقية في أسلوبها الأدبي - كأن بين الأدب الراقى وبين ضعف الدين نسباً - هذه الطعنات في الدين وأهل الدين على حين غفلة أو مسامحة من الشعب المتدين ، سواء كانوا مسلمين أو هوداً أو نصارى .. وعلى حين أكثر من مسامحة من حكومة البلاد التي لها دين رسمي - وليس الرسمي هنا بمعنى ضد الحقيق - تنشر تلك المجلات مقالات الطعن في الدين ويتسع لها صدرها اتساعاً لا يخلو من الترحيب ؛ وتنشر « الرسالة » مقالات لمؤلف كتاب « لماذا أنا ملحد » أو تمتدح إليه في غاية من اللطف والمجاملة ، ولا تنشر مقالة الدفاع عن الدين رداً على الممتدين . وإني أقرأ في الصحف شيئاً كثيراً عن حرية الصحافة في البلاد الديمقراطية وعن الاهتمام العظيم بشأنها ، فهل المقصود منها حرية خاصة بأصحاب الصحف التي هي صاحبة الجلالة كما يقولون ، من غير أن يستفيد منها غيرهم من أفراد الأمة إلا بشرط أن يدخلوا تحت حماية أصحاب الصحف ، فتكون حصّة الأمة من هذه الحرية الخاصة بالصحف مقصورة على قراءة ما ينشر فيها ، حتى إذا أنكرت صحيفةً فيما تكتبه حقاً أو روجت باطلاً أو مستكرامة وأراد أى واحد من القراء الرد على ذلك فالصحيفة حرة في نشر الرد أو وقفه بعيداً عن وقوف الجمهور عليه . فعلى الحكومات أن تعترف بحرية الصحف وليس على أصحاب الصحف أن يعترفوا بحرية النشر للناس ، فمن أراد الحصول على ذلك فليؤسس صحيفة لنفسه إلى أن ينقلب القراء كلهم صحفيين أو يسايروا أهواء الصحفيين !

فأنت إذا قنشت عن دخيلة الصحف والمجلات بمصر وجدت في أصحابها المدعين

= فريد كان الواجب عليها تصحيح خطئها الفاحش في ذلك الزعم بعدم مطالعة مقالتي التي أحييت فيها مآثباته الأستاذ من المعالجة وأمت ما أحياه . فإن لم يكن تقدير « الرسالة » لمقالتي بهذا الحد الذي أقدره أنا لها ، فلا أقل من أن يعرضها على الرأي العام بدلاً من إخفائها ، وإلا كان هذا اشتراكاً للرسالة مع الأستاذ في الجناية على الدين المصورة في صورة الخدمة له .

لحرية النشر كثيراً من أعداء هذه الحرية . نعم ، أنا معترف بمذرة الصحف والمجلات إن لم تنشر كل ما ورد إليها من القراء ، ففيه ما يجدر بالنشر وفيه مالا يجدر . والثاني ينقسم إلى مالا يجدر لتفاهته أو مضرته أو لعدم توافقه مع مبدأ الصحافة . وأنا أسلم بحرية الصحف أيضاً في امتناعها عن نشر مالا يتفق مع مبدئها ، بشرط أن تكون مصارحة لذلك المبدأ . أما المتسترون في المبادئ ففيهم الطامة الكبرى ، وعليهم ينطبق قول أبي العلاء المعري : « نطق اللسان لا ينبئ عن اعتقاد الإنسان » وهم الذين ينشرون كل دعاية ضد الدين ، لاسيما إذا كان تحت ستار التعبير « بالغيب » ويكفون عن نشر كل دفاع عن الدين ، لاسيما إذا كان الدفاع قويا .

ولا محل لاحتمال أن يكون ردى على مقالة الأستاذ فريد وجدى بك لم يجب « الرسالة » لشدة لهجته ، إذ لا يكفي كون الرد شديد اللهجة مانعاً عن نشره إذا كان الردود كبيرة من الكبار . وأى ذنب أكبر من التشكيك في الدين ؟ وعند ذلك يكون التشدد في الرد عملاً بمقتضى الحال الذى يُهتَم به في قانون البلاغة ، وإن لم أكن أنا من البلاغ^(١) ولا بلام على الرد الشديد اللهجة إلا إذا كان مع ذلك ضعيف الحجّة . أما شدة اللهجة مع قوة الحجّة فلا يرغب عن نشر مقالة تجمع بينهما إلا ناشر يضمّر الخافاة لمبدأ المقالة ويتظاهر بعدم الموافقة على لهجتها . وفي ظنى الذى يوشك أن يكون يقيناً كان السبب في استنكاف « الرسالة » عن نشر ردى ما ذكرته في هذه الصورة الأخيرة وكان الذى لم يجب المستنكفين عن نشر الرد قوة حجته التى لا تدع استطاعة الجواب للأستاذ الردود عليه المتفق مع « الرسالة » في المبدأ ، لاشدة لهجته

[١] فان كنت لم أحسن في ردى الشديد اللهجة على مقالة تصور ديني مهزوما في معترك الشكوك شر هزيمة ، بل ميتا مدفونا في قلوب السذج من العامة . . فهل أحسنت بمجلة « الرسالة » في دفن مقالتي في سلة الإهمال مانعة لها عن أن تجد محلا ولو في قلوب العامة بجانب الدين المدفون ، حين كانت المجلة فتحت صدرها للمقالة الردود عليها وحين كانت مقالتي وحيدة في الرد ؟

التي يمكن أن يتملوا بها ، وهي في الحقيقة شدة الوطأة . والمقصود من عدم النشر محابة الأستاذ فريد وجدي من « الرسالة » وهي السلاح السري لشركة احتكار النشر في هذه البلاد التي يتعارف أصحابها فيما بينهم بتوافق المبادئ « غير مصارحين بها غير أمثالهم » كما يقول الأستاذ فريد وجدي - في مقالة أشرنا إليها وسنضعها موضع البحث - عن نوابغ الكتاب والشعراء في الشرق الإسلامي المستبطين للإلحاد المهيئين أذهان الناس لقبوله دساً في مقالاتهم وقصائدهم غير مصارحين بها غير أمثالهم ^(١) .

والآن نشرع في عرض مقالة الرد على الأستاذ فريد وجدي التي لم يجد محلاً للقبول في صفحات « الرسالة » ^(٢) ، على نظر القارئ وبها تنتهي الكلمة الطويلة المتقدمة على الكتاب :

[١] أما احتمال كون مقالتي تستهل بصب اللام على الشيخ محمد عبده إمام مصر الحديثة ، لم يعجب « الرسالة » وسبب الإعراض عنها ، فجوابي عليه أن مقالة الأستاذ فريد التي يتسع لها صدر « الرسالة » تحارب الأدلة القديمة التي كان يقوم عليها إثبات وجود الله إلى الآن وتكسرها على زعم كاتبها من غير إقامة دليل جديد مقامها فتفضي على عقيدة وجود الله ولو إلى حين الحصول على ذلك الدليل الجديد . فكيف يصبر أصحاب « الرسالة » على هذا ولا يصبرون على ما في مقالة الرد على مقالة الأستاذ من كسر بعض الأسماء الجديدة المصرية . وإني أوردت في هذا الكتاب انتقادات هامة علمية على آراء هذا الإمام وتلامذته الأخذيين منه ، فالواجب على كل من يريد الانتصار له أن يجيبوا على تلك الانتقادات لأن يسدوا آذانهم لئلا يسمعوا الكلام ضده . فإن كان الدفاع عن كرامة الإمام محمد عبده وتلامذته عند هؤلاء الأنصار أهم وألزم من الدفاع عن حياة الإسلام وكرامة أصول الدين فلا كلام لي معهم .

[٢] وكانت مقالة الأستاذ فريد أولى من مقالتي بكف « الرسالة » عن نعرها فائلة :
ألا تسكني الأستاذ مجلته الأزهرية ؟

آخر وحى الغرب إلى الأزهر الحديث

عفا الله عن الشيخ محمد عبده لما أراد النهوض بالأزهر حارب علماءه القدماء وفض المسلمين وخصيصاً الشباب المتعلمين من حولهم ... حاربهم حتى أماتهم أو على الأقل أنساهم نسيان الموتى ، فأصبح بفضل النهضة التي نادى بها الشيخ محمد عبده يقول رجل مثل الدكتور زكي مبارك « الرسالة » عدد ٥٧٢ : « نزعنا راية الإسلام من أيدي الجبهة (يريد بهم علماء الدين) وصار إلى أقدامنا الرجوع في شرح أصول الدين » .

ولم تقف الحالة التي أدى إليها مشروع محمد عبده فيما ذكرنا من مرحلة الهدم ، بل ظهر الأستاذ فريد وجدي بك منذ سنوات على منبر الأزهر الناهض فحارب علوم العلماء الذين حاربهم الشيخ محمد عبده فقتلهم ، وقتل الأستاذ فريد علوم هؤلاء العلماء المقتولين وعلى رأسها علم أصول الدين ، حتى أنه قال في الجزء التاسع من المجلد الثاني عشر من « مجلة الأزهر » التي يديرها ويرأس تحريرها : « فإذا كان في الأرض دين تأبى طبيعته أن ينشأ فيه علم الكلام فهو الإسلام » .

وقد كانت النتيجة الطبيعية لإماتة علماء الدين وعلومهم التي يعتمد عليها الدين موت الدين نفسه ، فقد وقع ذلك أيضاً بفضل هذا الأستاذ ! وكما لعب في مقالاته دور النمي له وهو الذي كتب في مقالة قديمة له عنوانها « سطوة الإلحاد على الأديان » : « تقدم الزمان وأفلتت الحكومات من سلطان رجال الدين ، فاقصر سلاح الدين على ما كان لديه من قوة الإقناع ، وفي هذه الأثناء كان العلم يؤتي ثمرات من استكشاف الجبهولات وتخفيف الويلات وترقية الصناعات وابتكارات الأدوات والآلات ويعمل على تجديد الحياة البشرية تجديداً رفعها عن المستوى ، فشمع الناس بفارق جسيم بين ما انتهوا إليه في عهد الحياة الحرة وتحت سلطان العلوم المادية ، وبينما كانوا عليه أيام

خضوعهم لحفظلة العقائد ، فانهز الإلحاد فرصة هذا الشعور الجديد ، وازداد كلباً على مهاجمة الدين واستهتر في فظائمه فرمى إلى القضاء عليه القضاء الأخير .

وكتب قبل أسبوعين مقالة افتتاحية لمجلة « الرسالة » عدد (٢٠٢) بعنوان (الدين في معترك الشكوك) ردد فيها ذلك الذمي قائلا :

« حفظ الدين وجوده في العصور الأولى للإنسانية بالفريزة الطبيعية ، فلم يجد العلماء في تاريخها كله جماعة مجردة عن الدين حتى فيما تقبوا عليه من عهودها الأولى قبل التاريخ . « ولما أجال الإنسان فكره في الوجود المحيط به ونشأت فيه خاصة النظر والاستدلال أيد الإنسان دينه بالعقل .

« ولما استبحر علم الكون ، وافتتن العقل بالبحوث المادية تحت تأثير المكشفات الطبيعية في عالم القوى والنواميس ووضع الدستور العلمي^(١) وظهرت آثاره في ترقى المعارف وتجنب الأخطاء التي كان دليلها مجرد النظر العقلي ، لم يعد للمنطق سلطان على الإنسان ، وأصبح الدين لا يستطيع البقاء إلا إذا كان له دليل من الوجود المحسوس . وصرح علماء القرن الثامن عشر والتاسع عشر بأن عهد الدين قد انقضى وأن بقاءه على الأرض مرتبط ببقاء السذاجة العامة ؛ فإذا نشر العلم على العامة رواقه زال الدين كما يزول كل ما ليس له أصل ثابت يقوم عليه .

« على هذا كان الإجماع منعقداً في العالم العلمي إلى زمان ليس ببعيد . فهل العقل يكفي لإيجاد الإيمان في العهد الذي نحن فيه ؟

« يكفي إذا كان يستمد مسلماته من العلم الكوني المحسوس ، أما والعقل الذي يعتمد عليه الاعتقاديون يقوم على مسلمات لازال في نظر العلم مسائل تموزها الحلول

[١] مراد الأستاذ من الدستور العلمي الذي يردده في مقالاته ان كل مقول لا يؤيده محسوس فلا يعتد به .

كنشوء الكون والمادة .. الخ فما يقرره الاعتقاديون اعتماداً على أمثال هذه المسلمات لا يراه العلم جديراً بالاعتبار^(١) .

» ومعنى هذا أن الاعتقاديين في هذا العصر قد أصبحوا عزلاً من الأسلحة التي تصلح للكفاح في هذا الممترك . فإذا لم يستكمل هذا النقص فلا يرجى للموضوع الذي هم بسبيله بقاء .

ونحن نقول بمد التنبيه على أن مراد الأستاذ من الذين يسميهم الاعتقاديين هم المؤمنون بالدين : إنا نرى في هذا الكلام الذي نقلناه عن « الرسالة » بنصها ، نفي الدين بتمام معنى الكلمة من الأستاذ ترجمان لسان الأزهر واعترافاً منه بأن الدين ليس له في العصر الحاضر أصل ثابت يقوم عليه .

ثم أيد الأستاذ كلامه بقول (و . ميرس) مدرس علم النفس بجامعة كمبردج : « كنت مقتنعاً بأنه لو أمكنت معرفة شيء عن العالم الروحي على أسلوب يستطيع العلم أن يقبله ، ولن يكون ذلك بالتنقيب في الأساطير القديمة (يريد المعجزات المنقولة إلينا من عبصور الأنبياء) ولا بالتأمل في علم ما بعد الطبيعة (كاستدلال علماء الكلام على وجود الله بالأدلة العقلية) ولكن بواسطة التجربة والملاحظة ، وبتطبيقنا على الظواهر التي تشاهد أساليب المباحث المضبوطة ، تلك الأساليب التي نحن مدينون لها بعمارنا على العالم المرئي المحسوس ، هذه المباحث لا يجوز أن تبنى على التأكيدات التي صدرت عن هذا الوحي أو ذاك ، بل يجب أن تؤسس ككل بحث علمي بمعناه الصحيح على

[١] يتمسك الأستاذ رئيس تحرير « مجلة الأزهر » في معترك الشكوك الذي أثاره ضد الدين ، بما يتمسك به منكرو الأديان القائلة بأن الله كان ولم يكن معه شيء وأنه خلق العالم من عدم ، فيدعي المنكرون أن العالم قديم عبادته غير قابل للخلق والإيجاد ، والأستاذ رئيس التحرير يقيم لتلك الدعوى وزناً ، حتى بعد أن كشف العلم الذي يعتمد عليه الأستاذ في إثارة الشكوك ضد الدين ، عدم وجود المادة فضلاً عن قدمها الذي ينتج عنه عدمها ، والذي كان يقول به أدمعاء العلم إلى يومنا هذا . . وسيجيء منا في هذا الكتاب فصل خاص بحدوث العالم .

تجارب يمكننا تكرارها اليوم ، مؤملين أن نزيد عليها غداً ، ويكون الدافع إليها هذه القضية : إذا كان يوجد عالم روحاني ظهر للناس في أي عهد كان ، فيجب أن يكون كذلك قابلاً للظهور في أيامنا هذه . »

يشترط مدرس كبرديج للاقتناع بصحة الأديان المنقولة إلينا من عهود الأنبياء والتي تستند إلى نزول الوحي عليهم بتلك الأديان من عالم غير عالمنا يعني من طرف الله فكان لهم على ما يقولون اتصال بذلك العالم يشاهدون منه أموراً مثل ما نشاهد نحن من عالمنا الحاضر . فيشترط هذا المدرس الإنجليزى للتصديق بصحة وقوع تلك الحالات المروية عن الأنبياء ، أن يظهر لنا في هذا الزمان أيضاً مثل ما ظهر لهم فينزل علينا مثلاً الوحي من الله كما نزل عليهم ويظهر على أيدينا ما كان يظهر على أيديهم من المعجزات فكان الرجل يقول : لن نؤمن حتى نوثق مثل ما أوتى رسل الله ، ويقول الأستاذ فريد وجدي بك في مقالته بعد أن نقل قول المدرس الإنجليزى :

« ونحن نقول هذا شرط العلم في قبول الأصول الاعتقادية (يعنى في الاعتراف بصحة الأديان السماوية كاليهودية والمسيحية والإسلام) وهو شرط لا يجوز الاستخفاف به ولا إغفاله ، لأن العلم آخذ في الانتشار بخطوات واسعة وأساليبه المحررة (أى المحررة للإنسان من التقيد بالقيود الدينية) وآثاره الفاتنة أثرت في العقول أبلغ تأثير . وانتشرت معها شبهات لم تدع محلاً للعقيدة وضمفت حجة الاعتقاديين (يعنى المؤمنين بالأديان) أمام هذا التجدى ضمناً ظهرت آثاره في الجماعات وخاصة في البلاد الشرقية » .

ونحن نرى الأستاذ فريد يحكى في هذه الجمل ما وقع في الشرق لاسيما الشرق الإسلامى ولا سيما بين متعلميه المصريين من انتشار التجرد عن الدين ، يحكى ما وقع من غير تحميل تبعه الواقع على عاتق أحد غير الدين نفسه ، فكل ما منى

به الدين عند الأستاذ من الاندراش ناشئ من ضعف حجته أمام انتشار حجة العلم المشهود
آثاره كل يوم بالتجربة ، في حين أنه لانصيب للدين من تأييد التجارب. فالعلم الحديث
أصبح في زماننا ألد أعداء الدين الذي زاحمه إلى أن قضى عليه القضاء الأخير ، وهذا
القضاء أمر طبيعي على ما قاله الأستاذ من أن آثار العلم الفاتنة أثرت في العقول أبلغ
تأثير . لكن هذه العقول لقيمة لها عندنا ، بل عند أصحابها أيضاً ، لكونها عقول
الذين يقولون ليس للمنطق سلطان على الإنسان ويقولون ان مجرد النظر العقلي يكون
دليل الأخطاء ، فهي عقول الذين خرجوا على سلطان العقل والمنطق . وهل يعرف
أصحاب تلك العقول أن عدم كون الدين مؤيداً بالتجربة ليس لعيب في الدين بل في
التجربة نفسها لكونها ميزاناً قاصراً على الماديات ، والدين أرفع شأنًا من أن يدخل
في متناول هذا الميزان ، وإذا لزمتم التجربة للدين فلا يجربها إلا العقل الذي هو أيضاً
منحة للإنسان من العالم العلوي كالدين ، والذي يسمونه العلم ويقوم على التجربة فإنما
يكون نفه في الماديات لا في المعنويات ، وكل مخترعات الغرب أمور مادية يستخدمونها
في تطمين شهواتهم ومطامعهم ، فهم وإن كانت لهم عقول فلا يهتمون بها إلا للاستفادة
منها في المنافع الدنيوية ، ولا ينقادون لأحكام العقل في غير ذلك ، ولهذا نرى مقلديهم
منا كالأستاذ صاحب المقالة المنتشرة في «الرسالة» تتناقض آراؤهم في أمر العقل يحولونه
تارة ويحتقرونه أخرى كما سبق مثاله آنفاً ، واحتقارهم العقل ازاء التجربة حجة قاصرة
ينطبق حكمها على عقول المحققين فقط . وعلى كل حال في عقول الغربيين المهتمين
في المادة وعقول مقلديهم منا خلل يستمعى على مداويه ، وهم رغم تبجحهم بفهم أسرار
الكون لاسيما ما يكون كثير الاتصال بنا منها ، بعيدون عن فهم ماهية العقل كما أنهم
بعيدون عن النجاح في معالجة الأمراض العقلية رغم ترقيتهم في الطب فلا يتصور منهم
يوماً من الأيام أن يعملوا فيما عملوا ويعملون من الأعضاء الصناعية للإنسان ، غداً
صناعياً مع أن صنع المح ليس صنماً للعقل .

نعود إلى ما كنا فيه : فاستاذ (مجلة الأزهر) يتفق مع استاذ جامعة كبردج - كما تبين مما نقلنا عنهما - على أن ثبوت الدين في نظر العلم يتوقف على كون أصوله الاعتقادية ككل بحث علمي بمعناه الصحيح مؤسسة على تجارب حسية يمكن تكرارها لكل من أراد ، فيجب أن لا تؤمن بوجود الله من دون أن نرى شخصه أو نسمع صوته يكلمنا كما يكلم واحد في التليفون أو الراديو على الأقل ، وأن لا تؤمن بالأنبياء الماضين إلا بشرط أن يأتينا ما أتاهم من الوحي أو الملك المبلغ عن الله أو الكتاب المنزل من السماء ، وإلا بشرط أن يظهر على أيدينا مظاهر على أيديهم من المعجزات المعبرة بالأساطير مادام هذا الشرط لم يتحقق إلى الآن ، ويجب أن تكون التجربة لصحة الدين وثبوته كتجربة كون النار محرقة أو كتجربة كون التيار الكهربائي قاتلاً إذا مس الإنسان أو الحيوان ، ويجب أن يتبين خطأ النكر للدين عند التجربة الحالية كما يتبين خطأ النكر لاحتراق النار أو خطر التيار الكهربائي .

ونحن نقول: لكن طبيعة الدين تأتي الشرط الذي اتفق على قبوله عقل الأستاذين وذوقهما ، فهو لا يكون إلا غيباً كما جاء في نص القرآن فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، وما أحسن قول الشاعر التركي القديم :

غيبه إيمان كثيراً ملحد في دين كه سكا آخرتدن خط تعلیق ابله حجت كلز
ومعناه : « آمن بالغيب أيها الملحد إن كنت تريد أن تكون مؤمناً ، وإلا فإن تأنيك براءة من الآخرة بالخط الفارسي أو الديواني كما تخطبه البراءات ! » والأستاذان المتفقان يحاولان في الشرط الذي وضعا للإيمان أن لا يبق امتياز المؤمن على الكافر ، فإما أن يتحقق شرطهما فلا يبق على الأرض كافر ، كما لا يوجد أحد ينكر كون النار تحرق يده عند مماسستها .. وإما أن لا يتحقق شرط الأستاذين فلا يبق على الأرض مؤمن بالدين . لكنهما لا يدریان أن الإيمان يتجلى في الإنسان بهداية الله وتوفيقه ، فلا يزال

الناس منقسمين بين من شرح الله صدره للإيمان فيؤمن مستغنياً بأدلة العقلية عن غيرها ، وبين من جعل صدره ضيقاً حرجاً ليشترط على إيمانه بما يجعل الدين من الأمور العادية التي لا يختلف فيه الناس ولا يمتاز من ينتفع بعقله على من لا ينتفع . ولا يدري هذا القسم الغافل أنهم لا يؤمنون حتى ولو تحقق شرطهم الذي لا يتحقق ، كما قال الله تعالى في الذين حُرِّموا هداية ربهم وحقت عليهم الضلالة : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون وتقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون » .

وأنا لا أعجب من أستاذ كبرج ، وإنما أعجب من الأستاذ فريد وجدى بك الذى يقال إنه كتب فيما مضى تفسيراً للقرآن أو كتب القرآن مفسراً ، كيف لم ير هذه الآيات ! لكن المسألة إذا كانت في هداية الله أو الحرمان عن هدايته فلا عجب مطلقاً ، إذ ليس موقف من اشترط على الإيمان شرطاً بعد أن رأى هذه الآيات في كتاب الله ، بأعجب من موقف الذين نزلت الآيات المذكورة لبيان مبلغهم في عدم الاستعداد للإيمان . ولم يفكر الأستاذ الأول ولا الثانى الذى يصدق الأول فى اشتراطه للاقتناع بالدين اقتناعه بوجود عالم روحانى وراء هذا العالم الجسمانى ، أن رأس الدين هو الاقتناع بوجود الله ، وأكبر شبهة الشاكين فى الدين يكون فى وجود هذا الرأس . وبعد الاقتناع بوجود الله فكل مشكلة سهلة الحل . فإذا لم ينفع الأستاذين مثل هذا العالم الجسمانى أمام أعينهما بكل عظمته وبداعة أنظمتة ، فى الدلالة على وجود الله مالك هذا العالم وموجده ، فأولى بأن لا ينفعهما ظهور عالم آخر لأعينهما أخفى من عالمنا لكونه غير جسمانى ، وأولى بمن لا يعترف بحاجة العالم الجسمانى الذى

يكون وجوده في غاية الظهور ، إلى موجد ذلك العالم ومالكه : أن لا يعترف بالحاجة إلى الموجد المالك للعالم الثاني الذي ليس في الظهور للعيون بدرجة العالم الأول ، فيرتاب في وجود هذا العالم نفسه ، قبل أن يرتاب في وجود موجده ، ويعتبر ظهوره لعينه من قبيل الخيال الخادع .

ثم إن الأستاذ الثاني أعنى أستاذ مجلة الأزهر وكاتب المقالة في « الرسالة » بمسند اعترافه بوجوب تحويل الإيمان بالغيب لإثبات صحة الدين في نظر العلم ، إلى الإيمان بالمعينة ... أشار إلى طريق الحصول عليه من اكتشاف العالم الروحاني الذي يسمى له طائفة من العلماء في الغرب منذ مائة عام ويزداد الأمل - أمل الأستاذ - يوماً عن يوم لفوزهم في مساعيهم !

كان الأستاذ قبل تعيينه مديراً ورئيس تحرير لمجلة الأزهر يهاجم الدين ويهدمه بمول العلم الحديث الغربي . والنزاع بين العلم والدين معروف في الغرب ، ولم يكن الدين الذي ينازعه العلم دين الأستاذ ، ومع هذا كان ينقل ذلك النزاع إلى ما بين العلم وديننا ، كأنه الآخر ليس دين الأستاذ أيضاً . فلما جرى به قبل بضع عشرة سنة إلى رأس « مجلة الأزهر » ليبنى الدين الذي هدمه لم يدرك ماذا يعمل . وليس بواقع منه طول حياته الكتابية أن يتنازل عن رأيه معترفاً بخطائه ، فلاح له أن يهاجم العلم الذي كان سلاحه عند مهاجمته للدين ، فاشتغل بذلك حيناً ، ولم يكن العلم علمه كما لم يكن الدين دينه ، وإنما الذي للأستاذ من هذه الأمور خالصاً صحيح النسبة إليه أن يكون واسطة الغرب إلى الأزهر في أحدث آرائه وأفكاره إن لم يكن آراء جميع العلماء هناك فليكن رأى بعض منهم . ثم ما وسع الأستاذ أن يفكر عدم إمكان القضاء على العلم الذي يقضي على الدين ، فأخذ يتزلف إليه من جديد بدعوى كون الاستمرار في تحارب البحوث النفسية واستحضار الأرواح الذي ينتظر منه التأييد للدين ، معبوداً

من الاستمرار في الطريق العلمي ، والتأييد المنتظر من تلك التجارب تأييداً علمياً . فاهتم بهذه المسألة وذلك الانتظار حتى جمل « مجلة الأزهر » مجلة دعاية لاستحضار الأرواح وأداة لنشر وترويج أعمال المشتغلين به من الغربيين ، في الشرق . وأنا الذي ^(١) كنت أتعقب مقالات الأستاذ في « مجلة الأزهر » وغيرها منذ ناقشته على إنكار معجزات الأنبياء . - وكان تعيينه لرئاسة المجلة قبل أن يحف مداد ذلك النقاش في صفحات الأهرام ، من عجائب مصر الحديثة التي تبرز عجائبها القديمة - حتى رأيت انتهاء نزاع العلم والدين في ذهن الأستاذ وهو القائد الصحفي الأزهرى الأعلى لفض هذا النزاع وحسمه ، إلى حالة النزاع للدين ، بل الحكم بموته ودفنه في قلوب من بقى على الأرض من العامة السذج ، الحكم بموته وعدم إمكان إعادة الحياة إليه إلا بشرط نجاح الغربيين المشتغلين باستحضار الأرواح في مهمتهم ، علمهم يجدون بين الأرواح التي يكتشفونها أو يستحضرونها روح الدين أيضاً المفترقة من بدنه فيعيدونها إليه ويتقذون البشرية من وباء الإلحاد ، إلحاد الخاصة العام إن لم يكن إلحاد العامة !..

أنا الذي أتعقب مقالات الأستاذ وأمثاله ممن يتلقون الوحي من الغرب حتى في الدين ، تاركين وحي الشرق الإسلامى وراءهم ظهرياً ، وأرى الصعوبات في مقابلة المقالات بالمقالات للدفاع عن تراثنا العلمى ، حجة من كون أولئك المستوحين المستعجلين في الشرق طلوع الشمس من مغربها ، تغلبوا في حلبة الصحافة واحتكروها فضاقت على أقلام غيرهم بما رحبت - قد كتبت كتاباً (هذا الكتاب) حللت فيه مشكلات

[١] صفة (لأنا) المتبدأ لاخير عنه ، والخير (قد كتبه) الجائى بعد بضعة عقر سطرًا . والكتاب يحتاج إلى وصف الضمير عند اقتضاء الحال وإن منعه ابن الحاجب رحمه الله في « كافيته » فاقلا: « والضمير لا يوصف ولا يوصف به » ،

الأستاذ الاعتقادية، وذلك بمون الله وتوفيقه كل صعب في علاج مرضه العقلي العميق الذي هو مرض مصر الحديث والذي قد يكون سبب هلاكها في الدنيا والآخرة ، إن بقى على حاله الحاضرة ، وهو الكتاب الذي نشرت الباب الثالث منه قبل بضعة أعوام على شكل كتاب مستقل مسمى « القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون » وأرجأت نشر الكل المسمى « موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين » إلى مابعد أزمة الورق . وهذا الكتاب الذي كرس فيه حياة مشيبي حتى كان لي أزدل العمر بروح مستمدة منه ، أعزّه والذي أرجو أن يكون كتاباً أعمالى يوم عرض الأعمال نسخة منه .. هذا الكتاب سأقدمه إلى مصر التي آوتني بعد مغادرة بلادى .. أقدمه إليها لتقرأ وتثبت عقيدتها الدينية المتزلزلة من تشكيكات سماسرة الغرب الشرقيين ، وليس ببعيد أن يسألها الله عن هذا الكتاب فيما يسألها عند يوم الحساب .

لا أشتغل بتقريظ كتابى إلى القراء المصريين فسيرونه ، وإنما أنقل هنا صفحة منه لتكون جواباً على مقالة الأستاذ المنشورة في « الرسالة » الذى نرى فيها الأدلة العقلية ونرى الدين المبني في الإسلام قدماً على تلك الأدلة . والجواب بهذه الصفحة من الكتاب المكتوبة من زمان المتقدمة على مقالة الأستاذ الجديدة ، معجزة الدليل العقلي الذى استهان به الأستاذ في مقالته . فقد كان حضرته منذ مدة مديدة يروج مسألة البحوث النفسية ويعرضها على الأنظار كلجأً للشاككين في الدين مؤملاً منها إثبات الدين على الطريقة الحديثة العلمية المبنية على التجربة الحسية ، بعد ادعاء عدم كفاية إثباته بالطريقة العقلية لكونها طريقة قديمة ميتة ، فأحييت في الكتاب طريقة الإثبات التى أماتها الأستاذ وأمت الطريقة التى اعتمد على حياتها ، أمثها فيما يتعلق بمسألتنا ، وفى غيرها فضلت ما جملة الأستاذ مفضولاً على ما جملة فاضلاً . ودعواى هذه التى لا بد أن يستبعمها الأستاذ كل الاستبعاد تنجلي فى أعين الناقلين عن عظمة

الإسلام ومثانة الأساس الذى وضع علماؤنا عليه إيمان المسلمين ، تنجلي في أعينهم بعد التغلغل في أعماق الكتاب ، ولا يمكننى أن أدرج كتابي المؤلف من أربع مجلدات كبيرة في هذه المقالة ، مع أن في نموذج الإخام الذى تضمنته الصفحة المنقولة عنه ، كفاية وهى :

« إن المؤمنين بالله القدماء إيماناً بالغيب أى من غير مشاهدته بإحدى الحواس الظاهرة ، ولكن مستيقنين بوجوده كأنهم شاهدوه ، لاسيما علماء المؤمنين ، أسندوا إيمانهم - على قول الأستاذ وغيره من المصريين - إلى غير مسند ، وهو الدليل العقلي ، إلا أنهم كانوا يزعمونه دليلاً يُقنع به فافتنعوا وآمنوا . ولنقل : وقد تحقق بذلك ما ذكره الأستاذ في بعض مقالاته من أن الله تعالى يأتي العقول في كل زمان بما أحست الحاجة إليه من وسائل النجاح ... وبانقلاب الزمان تبين للأستاذ وزملائه المتصلين بالعلم الحديث الغربي أن دليل الأولين ليس بدليل علمي جدير بالاعتبار والاقتناع - كما نص عليه في مقالته المنشورة في « الرسالة » - لكن الأستاذ وجد أخيراً ما يعضده عما فات : وهو ما اكتشفه بعض العلماء الغربيين في بحوثهم النفسية ، فافتنع به واعتبره دليلاً قاطعاً علمياً ، وإن لم يوافقه على ذلك كثير من العلماء الآخرين وقالوا إنها أوهام قوم مخدوعين .

« وعلى فرض كونه دليلاً قاطعاً يلزم التنبيه إلى أن ما واجده الباحثون الغربيون واكتشفوه بالطريقة العلمية التجريبية ليس ذات الله أو وجوده بل وجود الروح ، إلا أن هذا الاكتشاف قد أطمع الأستاذ في أنهم يجدون الله أيضاً في الزمن القريب أو البعيد ، سواء تحقق في المستقبل ما كان يطمع فيه أو لم يتحقق وصار طمعاً مقضياً عليه بالخيبة ، وعلى كلا التقديرين فليس لدينا ، لا بل ليس لدى الأستاذ وأمثاله المصريين غير المقتنعين بغير الأدلة التجريبية ، ليس لديهم فيما بين الزمان الماضي الذى كان يعتمد فيه على الدليل العقلي المنطقي وبين الزمان الذى يجد الباحثون الغربيون فيه

ذات الله بالطريقة العلمية التجريبية - إن وجدوها - كما وجدوا الروح ... ففيا بين هذين الزمانين من المدة - مدة انتظار نتيجة البحوث النفسية - التي يمكن أن تطول أعصارا ، وفيها زماننا الحاضر الذي وُجد الأستاذ فيه على رأس مجلة الأزهر وهو يدافع عن الدين - ليس لديهم دليل على وجود الله . ولا يجرى بالنسبة إلى هذا الزمان المتوسط ما قاله الأستاذ من أن الله يأتي العقول في كل زمان بما أحست الحاجة إليه من وسائل البحث ، لأنه لم يأت العقول الحاضرة أعنى عقول المصريين ، وفيها عقل الأستاذ ، بما أحست الحاجة إليه من الدليل على وجود الله ، وإنما أنهاها بأن الدليل القديم على وجوده لا يكفي لإثباته علميا ، ولا أحست تلك العقول بالحاجة إلى دليل جديد يكفيه ، إذ لو أحست لأتى به ، وإنما أحست الانتظار إلى أن يكتشفه الباحثون . فليس لدى الأستاذ وأمثاله المنتظرين في العصر الحاضر دليل على وجود الله ولا حاجة إليه محسوسة !! وما لا دليل على وجوده فلا مانع من أن يقال عنه إنه غير موجود عندهم في الزمان الحاضر !!!

« بل أقول ان الله تعالى لم يكن موجوداً عندهم في الأزمنة الماضية أيضاً التي كان الناس فيها يظنونونه موجوداً ، لعدم كون دليلهم على وجوده دليلاً علمياً يصح الاعتماد عليه ... بل أقول لا دليل عندهم أيضاً على أن الله تعالى سيكون موجوداً ، بأن يكتشف وجوده في المستقبل بالدليل العلمي ، إذ لا معنى لانتظار الاكتشاف في المستقبل عن وجود ما لم يوجد إلى الآن ولم يرق على وجوده دليل يعتمد عليه^(١) فالله تعالى على رأى الأستاذ المنجلي من أقواله - ويا للأسف انحلاء منطقياً - ليس بموجود في أى زمان من أنواع الأزمنة الثلاثة ، نعم كان الله تعالى موجوداً عند أصحاب السذاجة العامة

[١] فلو كان وجود الله معلوماً بالدليل وكان المنتظر هو اكتشاف ذاته وحقيقته وكنا سلمنا بإمكان هذا الاكتشاف ، كان الانتظار وجه معقول .

والذين يلتحقون بهم من العلماء المتمدنين على الدليل العقلي ، غير أن العلم الحديث قضى على هؤلاء العلماء ودليالهم المبني على العقل والمنطق ، والأستاذ بلغنا نبأ هذا القضاء من منبر الأزهر الحديث !..

« فهذه خلاصة أعمال الأستاذ في رئاسة تحرير مجلة الأزهر منذ بضع عشرة سنة أعنى إعدام الله الموجود عند الناس الذين يسميهم الأستاذ « الاعتقاديون » وتعليق الحكم بوجوده من جديد إلى أجل غير مسمى بل غير مرجو المجيء ... هذه خلاصة أعمال الأستاذ وخدمته للأزهر خاصة والإسلام عامة ، فليقدر أجرها في الدنيا والآخرة القادرون !! »

وهذه صفحة من كتابي تتضمن نموذجاً من الدليل العقلي المنطقي في الرد على مقالات الأستاذ ضد هذا النوع من الأدلة . فإن لم تسكفه مفحمة ومفهمة لخطأه الفاحش في تقدير قيمة الدليل العقلي المنطقي قدرها فسيقول ردّاً على : هذا كلام معقول منطقي ولكن لم يعد للمنطق سلطان على الإنسان (١) .

[١] المنطق الذي يستهين به من يستهين من المصريين مثل الأستاذ فريد وجدي بك رئيس تحرير مجلة الأزهر معلنين استهانتهم بأن يسموه المنطق القديم أو المنطق الصوري أو التجريدي كما فعل معالي الدكتور حسين هيكل باشا في مقدمة كتاب « حياة محمد » — هو المنطق العظيم الذي يجد القارئ أمثلة ونماذج هامة من عظمته وبراعته ، في أماكن مختلفة من كتابنا هذا . . . ومن طريف غفلة المستهينين به في وصفه صورياً أو تجريدياً . أن منشأ عظمة هذا المنطق وقوته ، في صورته كما سيطلع عليه القارئ أيضاً . ، وقد استعان كتابنا هذا الفريد في تحليل خرافة وحدة الوجود العالمية الذي يحى دوره في الجزء الثالث من الكتاب ، استعان في أدق مراجله كثيراً من فيض وفضل ذلك المنطق .

ومن تلك النماذج الدالة على براعة هذا المنطق أن في أدلة الفيلسوف ديكارت على وجود الله دليلاً مسمى بالدليل الأنطولوجي ذكره وأطراه صديقنا الدكتور عثمان أمين في كتابه (ديكارت) وأيده الأستاذ الكبير العقاد في كتابه (الله) على الرغم من أن ذلك الدليل قد عدل كاشفه قدماً . . . فلم يجد نفعاً نقد الناقدين في الحيلولة دون اتفاق الدكتور عثمان والأستاذ العقاد على الإعجاب بالدليل المذكور والاعتراف بمئاته . ==

وهنا انتهيت من إيضاح منهج الكتاب في نقد الأقوال بمد كلتي إلى القراء .
والآن أشرع في سنخ الكتاب مستعيناً بالله ومستمدّاً من توفيقه .

مصطفى صبري

= وأنا قوئ الظن بأن الأستاذين لن يسعهما بعد استماع بحثي أنا الآخر بلسان المنطق، إلا أن يسعبا اعتمادهما على ذلك الدليل ويقتنعا بالخطأ المخني في محل الاعتماد منه، وسيأتى بيانه في الجزء الثاني من الكتاب .

لكن من الصعوبة بمكان فهم القواعد المنطقية ثم تطبيق المسائل المضلة عليها ، الأمرين اللذين بينهما وبين الأستاذ رئيس تحرير مجلة الأزهر المستمين بالمنطق بون بعيد ، إلى حد أنه ينتظر كل الانتظار من الأستاذ العقاد والدكتور عثمان الاعتراف بفضل هذا المنطق بعد اطلاعهما في هذا الكتاب على مسائل استعنت به في حل مشكلاتها ، ولا ينتظر من الأستاذ رئيس التحرير إلا ما هو دأبه من الإصرار على مقال، سواء أصاب فيه أو أخطأ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم . إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم .

سبحان الله عدد خلقه سبحان الله رضى نفسه سبحان الله زنة عرشه سبحان الله مداد كلماته سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم .

سبحان من كان لا يحصى ثناء عليه من لا أحصى ثناء عليه فيقول أنت كما أثنيت على نفسك ، وهو كما أثنى عليه من هو كما أثنى على نفسه صلى الله عليه وسلم وعلى إخوانه المرسلين وآله وصحبه أجمعين .

وبعد فيقول العبد الفقير في الدنيا إلى هداية ربه لسبيله وصيانتة بعد الهداية من زبغ القلب وسوء القلب ، وفي الآخرة إلى عفوه ومغفرته وواسع رحمته الشيخ مصطفى صبرى التوقادى ابن احمد بن محمد القازابادى :

إن لهذا الكتاب المروض على نظر القارى قصة تستحق الذكر هنا^(١) وهى أنى كنت قرأت مقالة نشرتها مجلة «الرسالة» قبل أكثر من عشر سنوات للأستاذ

[١] وهى أول وآخر قصة مع كلمة تاريخية أعترض إلى القارى عن وجودهما فى كتابى الذى لا يمينه فيما يتناوله إلا التمهيس والتعمق العلمى فى مسائل هامة دينية وفلسفية ، وهذا على عكس مالا يجده القارى فى أكثر الكتب الفلسفية المؤلفة بمصر غير الحكايات التاريخية والتراجم .

محمد عبد الله عنان عنوانها « حرب منظمة يشهدها الكماليون على الإسلام » وكان من جملة ما كتبه الأستاذ في مقالته هذه الأسطر :

« ومهما يكن من أمر البواعث التي تحفز الكمالين إلى هذه الخصومة المضطربة نحو الإسلام فإن الإسلام أقوى وأرسخ من أن يتأثر بمثل هذه الثورات المصيبة الطارئة ، وقد صمد الإسلام وما زال يصمد لخصومة الغرب كله مع ما يحشده الغرب لغزوه من العوامل والوسائل الخطرة . ذلك أن الإسلام أقوى بمبادئه ومبادئه ...

« وإن يضير الإسلام أن يسقط من عداوه تركيا الكالاية ، وإذا كان الإسلام لم يعتر قط بتركيا يوم كانت دولة قوية شاحخة ، فكيف يحاول اليوم أن يعتر بهذه البقية الضئيلة من تركيا القديمة ؟ »

فأذنتي الجملة الأخيرة من هذا القول التي خرج فيها الكاتب خروجاً ظاهراً عن حدود الحق والإنصاف^(١) فقد تعجبت أولاً كيف يجمع الكاتب في نفسه التي بين جنبيه البغضاء نحو تركيا الجديدة والقديمة معاً ، وهو يعرف ما يحشده الغرب من الوسائل الخطرة لخصومة الإسلام ، ولا يعرف أنه أي الغرب كان يحفظ في خصومته للإسلام خصومة تركيا القديمة وأن إنشاء تركيا الجديدة وإبادة تركيا القديمة من أهم تلك الوسائل الخطرة التي حشدها لخصومة الإسلام . والأستاذ عنان ينضم بعداوته لتركيا القديمة الإسلامية العثمانية ، إلى تلك الوسائل المحشودة لخصومة الإسلام ويؤيد

[١] ولو كان طعن الكاتب في تركيا قديمها وجديدها بدافع من الفيرة الصادقة على الإسلام والخبرة الصحيحة لعبادته لعذرته بعض المذرة وعاملته بالتسامح ، لكن الأمر ليس كذلك بشهادة أنه كان لا يرى في الخطوات الأولى للثورة الكالاية مثل إلغاء الخلافة وحل الجماعات الدينية والصوفية وفرض الثياب المدنية والقبعة ، ما يثير الأذهان المستنيرة (على تعبير الأستاذ الكاتب) بل يقول : كانت هذه الأذهان تتبع جهود تركيا الجديدة في سبيل التجديد القوي والاجتماعي (على أن يكون في تلك الجهود تجريد الدولة من صبغتها الدينية) بمنتهى الإعجاب والمطف .

جديدها الذى تظاهر بمعاداته مع قديمها ، كما يؤيده الغرب الحاشد . وليس الأستاذ صميمياً في هذه المعاداة ، وإنما هو جاد في خصومة تركيا القديمة الإسلامية الشائخة التى لابد أن يكون من خصمها من خصوم الإسلام ، والأمور التى أعجبت الأستاذ مما فعلته تركيا الجديدة وأحصيناها في الهامش الآنف ، تدل على ماقلنا دلالة باهرة . ثم إنك قد رأيت هذا الأستاذ يعترف بشموخ دولة الترك في الماضي . أما كون تلك الدولة من الدول الإسلامية المعمرة فلا شك فيه لأحد ، ولا يمكن أن يشك فيه الأستاذ أيضاً ، وقد كان عمر العثمانيين مع السلاجقة وأبناء طولون والمماليك الترك وغيرهم لا يقل عن ألف سنة . فهل يمكن إذن أن تكون دولة إسلامية من الدول الشائخة ومعمرة غاية التعمير ثم لا يعترف بها الإسلام ؟ فهذا يخالف بداهة العقل ، وقد كانت صلة الدولة العثمانية التى هى أطولها عمراً وآخر دولة الترك الإسلامية ، بالإسلام بدرجة أن هذه الصلة عدها الترك الجدد من أسباب انقراضها ، وصدق ذلك المسلمون القاصون حيث أصبحوا يعتبرون تركيا الحاضرة التى خلفت الدولة العثمانية وشهرت حرباً منظمه على الإسلام بشهادة الأستاذ عنان ، أقوى من الدولة العثمانية في أواخر عهدها .

وإني لما قرأت مقالة الأستاذ عند انتشارها وقت الرد عليها والانتصاف للدولة الترك القديمة المسلمة المنتهية في الدولة العثمانية وأخذت أكتب مقالة في هذا الصدد ، لم أملك إرادتى في تحديد مقدارها حتى صارت من طولها كتاباً ، وانتقل الكلام في الكتاب إلى مبحث ديني طال القول فيه أيضاً حتى لاح لي إخراجة من الكتاب الأول وجعله كتاباً بمفرده ، وكان الدافع إلى وضع الكتاب الأول الدفاع عن الدولة التركية الماضية المسلمة ، فإذا بي أدافع في الكتاب الثانى عن الإسلام نفسه ، وإذا بدافع الثانى قد غلب في نظرى وأنسى الكتاب الأول موجهاً كل عزمي إلى تحقيق الغرض الثانى الأسمى ، حتى حصل هذا الكتاب بإذن الله وحده وتوفيقه وليد الكتاب

الأول . فإن لم يتيسر لي بعد هذا المؤد إلى الكتاب الوالد فإني أناسي بأن وليده قد يقوم مقامه ويسد فراغه من حيث ان هذا الكتاب تأليف رجل من الترك المسلمين العثمانيين ، فإن أدى فيه خدمة للإسلام يعتز بها خادمه إن شاء الله ، على الرغم من أنه قد سبق أن طعن بخيانة الدين والوطن إبان مجيئه إلى مصر مهاجراً ، بسبب معارضته لمصطفى كمال^(١) كما طعن الأستاذ عنان الدولة العثمانية بل الدول التركية الإسلامية بأجمعها - كان كتابه هذا جواباً على مقالة الأستاذ يغنيه عن الجواب .

على أنه قد رد على هذا الكاتب قبل ردى بل قبل صدور مقالته عن قريحته الحاقدة على « الرسالة » كاتب مصرى أكبر منه بكثير وهو المغفور له محمد فريد زعيم الحزب الوطنى وخليفة مصطفى كامل باشا حيث قال فى أول كتابه عن تاريخ الدولة العثمانية : « وبعد فقد مضى على الشرق أجيال طوال رأى أهله من أهوال الأحوال ماتشيب له الأطفال وتندك من وقعه عزائم الرجال بل شوامخ الجبال . وما كان ذلك إلا بعد أن انفرط عقد بنيه وتناثر نظام أهليه وتشاغل كل بنفسه عن أخيه وذويه ، فأغار الدهر بخيله ورجله على الشرق ودوله وقلب لأبنائه ظهر المحن وقلوبهم بين الإحن والمحن ، فتناسوا ما كان لهم من نخامة الاقتدار وجلالة الحضارة وضخامة العمران واصالة الإرادة وانغمسوا فى بحار الكسل والنجول ذاهلين واستكانوا إلى المذلة والهوان صاغرين حتى صاروا وهم على شفا جرف هار وقد أوشكوا أن يقضى عليهم الدمار والاندثار ويكونوا عبرة لأولى البصائر والابصار .

[١] حتى كان بين الطاعنين من قال انك است شيخ الإسلام والمسلمين بل شيخ الأيالة والشياطين . ومن أراد معرفة أسماء الذين أمطروا على الطاعن فليراجع الصحف المنتشرة بعد قليل من انتشار قصيدة الشاعر شوق بك التى أولها : ارفعى الست وحي بالجين * وأرنا فلق الصبح المين فى مفتتح جريدة الأهرام والتى أطرى فيها مصطفى كمال واعتدى على السلطان وحيد الدين . فرددت الاعتداء على الشاعر بخطاب مفتوح ، فهاجم على أتباعه الفاوون .

« لكن العناية الصمدانية تداركتهم بلم الشعث ورم الرث ورتق الفتق ورقع الخرق فأضاءت الأفق الإسلامي بظهور النور العثماني وأمدته بالنصر اللدني والعون الرباني فقامت الدولة العلية بحياطة هذا الدين وحماية الشرقيين ، ودعت إلى الخير وأمرت بالمعروف ونهت عن المنكر فكانت من المفلحين . ثم وقفت في طريق أوروبا حاجزاً منيعاً وسوراً حصيناً وحالت دون أطباعها وألزمها بكف غاراتها بأنواعها ، ثم اهتمت بالإصلاح وسعت في تأييد النظام فصار لها بين الدول المقام الأول والرأى الراجح والقول النافذ فكانت لا يضاهاها دولة من الدول بما أحرزته من الأملاك الواسعة في قارة أوروبا وآسيا وأفريقية ، ونالت من العزة والتوفيق ما يجدر بكل شرق أن يتذكره الآن لتستفزه عوامل الغيرة ودواعي النشاط في بذل نفسه ونفيسه في سبيل تقويتها وتعزيز رايها وتأييد كلمتها ما كان ولا يزال من الحسنات الحسان على كافة بني الإنسان من غير نظر إلى الأجناس والمذاهب والأديان مما لا يراه الباحث في أي دولة غيرها قديماً وحديثاً بل يرى عكس ذلك في الدول ذات الدعاوى الطويلة العريضة التي تقول بأنها عماد المدنية والإنسانية ، وهي مع ذلك تصدر أوامرها الرسمية بارتكاب الفظائع والبشائع التي لا يكاد يصدقها السامع مما تمسك البراع عن تعداده في هذا المقام لعدم دخوله في موضوع الكتاب ، لاسيما وأن التلغرافات والجرائد تتوارد علينا كل يوم ببيان هذه الأنباء الشنيعة ، وذلك بخلاف الدولة العلية ، فإن جميع الناس تعيش فيها بغاية الحرية والسلام وكل المطرودين من الدول الأوروبية يفدون إلى أراضيها فيرتعون في بمجوحة الراحة والهناء آمنين على أنفسهم وأعراضهم وعروضهم ، وقد أصبحت الآن ملجأً وحيداً لكل من تلفظه الدول الأخرى من أبناء الإنسان ، فإذا يكون حظ هؤلاء المذكورين إذا جارتهم في هذا المضمار وناظرتهم في هذا الفعال . وهذه حسنة من أقل حسناتها يحق للعثماني مهما كان جنسه ودينه أن

يفأخر بها وبذكرها في كل فرصة وفي كل حين ، وفي ذلك أكبر داع وأعظم باعث إلى الوقوف على تفاصيل تاريخها » .

فانظر قول المرحوم محمد فريد هذا الذي يضع الدولة العثمانية المرحومة في أرفع مكان تبلغه دولة إسلامية في الاحتفاظ بعزة الإسلام والمسلمين على وجه الأرض في أحوج أدوار التاريخ إلى هذا الاحتفاظ ، ثم انظر قول الأستاذ عنان إن الإسلام لم يعزق قط بتركيا يوم كانت دولة قوية شامخة : فهل ترى أن محمد فريد الذي لا يزال المصريون يكبرون منزلته في وطنيته وتضحيته ومجاهدته لمصر ، ارتكب الكذب الصريح في قوله النقول آنفا المكي للدولة العثمانية تركية إسلامية وإنسانية عظيمتين ، أم الكاذب هو الأستاذ عنان الذي أنكر كل خدمة وكل سابقة لدول الترك في إعلاء كلمة الله وتمجيد الإسلام والمسلمين ، حتى إنه لا يحق له حكم الفرنسيين والإنجليز في مصر ولا الصليبيين في بلاد العرب ، حقه على حكم العثمانيين فيها ، كما سيأتي .

وإذا اعتمدنا على قول زعيم مصر الوطني أكثر من قول الأستاذ عنان كاتب المقالة المنشورة في « الرسالة » فالدولة العثمانية المرحومة ، فضلا عن أنه لو لم تكن حامية للإسلام ووقوفها طول حياتها في وجه أعدائه لعاد الإسلام غربيا قبل ستة قرون من غربته الحاضرة الظاهرة للعيون - عم نفع هذه الدولة لغرباء آخرين من بني الإنسان المختلفي الأجناس والأديان .

ومع قطع النظر عن هذا الرد المفعم فإن انتهاء الحروب الصليبية وانقطاع دابرها من الشرق الإسلامي بمسند ظهور الدولة العثمانية وانتقال الحرب إلى بلاد الصليبيين أنفسهم واعتزاز الإسلام بهذا التحول العظيم طيلة أعصار ، مما لا يمكن الجدال فيه . وقال الأستاذ فرح أنطون مؤلف كتاب « فلسفة ابن رشد » وصاحب مجلة « الجامعة » الذي ناقشه الشيخ محمد عبده وتحامل في نقاشه على المسلمين من غير العرب ، بأنهم أفسدوا الإسلام (ص ١٧٤ فلسفة ابن رشد باب الردود) : « إن

الفرس لم ينفعوا الإسلام الحاضر إلا من حيث العلم ، وأما الأتراك فقد حفظوا حياته بقوة السيف ، وقد جاء في أمثال الافرنج : « أريد أن أحيى قبل أن أخلد » ففضل الدولة التركية على الإسلام لا يشكره أحد .

وقال هذا المؤلف في رده على الشيخ ص نفسها : « إن دولة سلاطيننا آل عثمان ورثت الميراث العربى بانتخاب طبيعى فكفت بقوتها ذلك الميراث ما كان يحق به من المصائب والأخطار » ثم قال : « إن ميراث العرب لولا الدولة العثمانية لم يبلغ هذا المقام ، بل ربما لم يثبت بعد أصحابه بضعة أعوام » أقول وشهادة هذا الشاهد البالغة ، وربما المبالغة في فقرتها الأخيرة ، عن قيام الدولة العثمانية بحراسة كيان الإسلام في عهدها الطويل ، لا تنفرد في المعنى عن شهادة محمد فريد بك الوطنى الكبير . ومهما اجتهد الأستاذ عنان في غمط الترك القدماء المسلمين ماسبق لهم في خدمة الإسلام وإعلاء كلمته ، فالحق لا يعدم أنصارا .. فقد كتب الأستاذ حسن حبشى مقالة في « الرسالة » عدد ٦٦٣ بعنوان « السلاجقة عنصر قوة في الإسلام » قال فيها بعد كلام : « ... إن الحالة التى وصلت إليها الدولة العباسية من الضعف كادت تودى بها لولا أن قيض الله لها السلاجقة فأثقفوا الإسلام » ثم قال نقلا عن تاريخ كبرج : « كما أن شخصوهم شطر الغرب وأضاف عنصراً جديداً إلى الإسلام مكن المسلمين من الوقوف ضد الغزاة الأوربيين ووجدوا الإقليم الممتد من ساحل البحر الأبيض المتوسط إلى حدود الهند تحت زعامة واحدة وإن كان لفترة محدودة، وردوا الصليبيين البرنطيين » ثم قال نقلا عن نفس المرجع : « ويعزى إليهم قيام الدولة الأيوبية بمصر » .

وكتب هذا الأستاذ في الهامش : يقول لين بول في Mohamed Dynastis 150 ولقد أحيوا عصبية المسلمين بعد ركودها وأوجدوا جيلا من المحاربين المسلمين المتعصبين الذين يرجع إليهم - أكثر من شئ آخر - ما منى به الصليبيون من إخفاق مرار عديدة . وهذا ما يجعل للسلاجقة المكانة الهامة في تاريخ الإسلام .

فلو سئل الأستاذ عنان الذي ينكر اعتزاز الإسلام بالترك حتى ولا يوم كانت دولة شامخة : من أكبر رجل في تاريخ مصر الطويل بعد فتحها في عهد سيدنا عمر بيد الصحابي العبقري عمرو بن العاص ، تولى ملك مصر وخدم الإسلام وجاهد في سبيله حق الجهاد ؟ . فكان جوابه صلاح الدين الأيوبي ، فهل لا ينجبل هذا الأستاذ إذا قيل له : إن قيام الدولة الأيوبية بمصر يرجع إلى السلاجقة الترك ؟

وإذا فكرنا في أن السلطان صلاح الدين الأيوبي الشهير بمجاهداته الإسلامية كان متخرجاً من مدرسة الجهاد ضد الصليبيين التي أسسها السلطان محمد نور الدين ابن زنكي التركي السلجوقي ، تبين كون النصيب الأسمى في الحروب المنتصرة على سيول الاعتداء الصليبي نحو الشرق الإسلامي قبل ظهور الدولة العثمانية ، لطوائف الملوك السلجوقيين .

قال مؤلف « الفتوحات الإسلامية » أحمد بن زيني دحلان مفتي السادة الشافعية بمكة المكرمة نقلاً عن ابن الأثير : « قد طالت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى زمننا هذا فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين » . وقال صاحب الفتوحات في صلاح الدين الأيوبي : « وهو مع ما جمع الله فيه من الصفات حسنة من حسنات السلطان محمد نور الدين بن زنكي فإنه هو الذي أقامه حتى صار من الكاملين ومن عباد الله المقربين » . وقال أيضاً : « كان السلطان صلاح الدين بن أيوب من أتباع السلطان نور الدين فجهزه إلى مصر » ونقل عن صلاح الدين نفسه قوله : « كل ماترى فينا من عدل فنه تعلمناه ! » وكان نور الدين قد عمل منبر البيت المقدس رجاء أن يفتحه الله على يديه وأمر الصناع بتحسينه وإتقانه إلى حد أنه لم يعمل مثله في الإسلام . ولما فتحه صلاح الدين أمر بإحضار ذلك المنبر فحمل من حلب ونصب ببيت المقدس وكان بين عمله وحمله ما يزيد

على عشرين سنة وعدّ ذلك من كرامات نور الدين كما في « الفتوحات الإسلامية » ص ١٥ من الجزء الثاني .

فلولا أولئك المجاهدون من السلاجقة الأتراك وفروع السلاجقة من الأيوبيين والمماليك الترك ومماليكهم الشراكسة ... ولولا ظهور العثمانيين في الأناضول آخذين التوسع إلى أوروبا الصليبية ودام زحف جيوش الصليبيين إلى مصر وسوريا وفلسطين ما كان من المستبعد أن يتقلص ظل الإسلام من تلك البلاد باستقرار الصليبيين فيها ، وأن لا يحتفظ الأستاذ محمد عبد الله عنان اليوم بهذا الاسم . وليس ببعيد أن يكون الذين يبعضون الدولة العثمانية المستولية على الشرق العربي من الكتاب المصريين - وقد رأينا منهم من حمد الحملة الفرنسية - يبعضونها لكونها السبب في عدم وقوع ما ذكرنا من الاحتمال .

فقد انبسطت عزة الإسلام وسلطانه على القارات الثلاث كما ذكر المرحوم محمد فريد الوطني ودامت مدة دوام المز والغلبة للعثمانيين ، حتى أنهم قد وضعوا الحصار على فينا في قلب أوروبا مرتين ، وهم ما كانوا يفعلون ما فعلوا من الفتوحات باسم الترك بل باسم الإسلام^(١) ولم يكن الحاكم في البلاد التي يحكمونها قانون الترك

[١] وقد ظل لفظ الترك يستعمل أجيالا طويلة على لسان الغربيين كرادف المسلمين كما صرح به المرحوم الدكتور علي زيني عميد كلية التجارة بجامعة فؤاد في كتابه « أسول القانون التجاري » ص ٤١ وكما كتب ابني وصديقي العزيز الأستاذ علي حسين يعقوب الألباني الوجود سلافي الموظف بمكتبة جامعة فؤاد والذي تطوع بتبيض هذا الكتاب ، لما وصل إلى هذا المحل ، كلمة من عنده فائتة : « ولا يزال لفظ الترك يستعمل في السنة عامة الشعوب البلقانية كرادف المسلمين » فأثبتها هنا كما رآه . وفي هاتين الشهادتين ما يقصم ظهر الأستاذ عنان المحاول لقطع صلة الترك بالإسلام في أدوار اعترازه وانتصاره . أما أنا فقد كتبت في الباب الرابع من هذا الكتاب على هامش قول الدكتور زيني النقول هناك أيضا بعد كلام من كتابه انتهى إليه :

أعظم مفخرة امتاز بها قوى الترك إلى أن جاء دور الانقلاب الكمالى في تركيا وأعظم مخزاة للترك بعد ذلك الانقلاب اللادبى ، فليس بكثير إذن أن ألفت في أوروبا المعادية للإسلام منذ الحروب =

بل قانون الإسلام الذى أعرضت عنه تركيا الجديدة السكالية فأخذت قانون سويسرة
كما أعرضت مصر فأخذت قانون فرنسا .

وإن كنت فى ريب من أن الدولة العثمانية كان الحاكم فيها هو الإسلام فانظر
ما قاله (اد . انسكهارد) من سفراء فرنسا بتركيا ، فى مقدمة كتابه « تركيا
والتنظيمات فى تاريخ إصلاحات الدولة العثمانية » :

« كان الغرض من التنظيمات تقرب الهيئة الاجتماعية الإسلامية إلى الهيئات
الاجتماعية المسيحية التى عاشت منذ قرون بعيدة عنها معنى وسياسة ، ولا شبهة فى
خطورة المشكلات التى يتضمنها هذا المشروع ، فقد كان العامل فى وقف الأمبراطورية
العثمانية فى موقفها بالقرون الوسطى الذى غمسها يوماً عن يوم فى ظلام تلك القرون
الكثيف ، والذى سينتج يوماً من الأيام اندراسها التام - بقاء الحكومة العثمانية

= الصليبية ما ينفى على ستمائة كتاب اشادة باسم زعيم الانقلاب الفاضل على إسلام البرك الذين
كانت أوروبا تستعمل أسمهم كمرادف للمسلمين .

ولعل ذلك لانهاء الحروب الصليبية المتتالية منذ عهد السلاجقة الأتراك ، فى أيدي الترك
العثمانيين وتحول تلك الحروب فى عهدهم من شكل الدفاع إلى شكل الهجوم كما أشار إليه زعيم
الوطنيين المصريين محمد فريد . فلذلك اعتبرت أوروبا انهاء الدولة العثمانية وانتهاء الخلافة بفضل
مصطفى كمال ، انهاء دولة الإسلام .

فليس بكثير إذن تلك الكتب المؤلفة فى أوروبا بشأنه . وليس بكثير أيضاً كتاب الأستاذ عزيز
خانكى بك عنه بمصر المسمى « كمال آتاتورك » ولا معيب عليه لكونه فى دين الصليبيين
الحمارين القدماء إن لم يكن فى عروقه شئ من دماهم .

وما نقله أعداء الإسلام من أمم أوروبا فى الإشادة بالنقطة النظير بظهور مصطفى كمال فى تركيا ،
قد وقع مذكراً لما سبق أن أقامت الدول المسيحية من أعياد المسرة والفرح على وفاة السلطان محمد
فاتح العثمانى ، ما لم يقم مثله فى الدنيا على وفاة أحد . ومن عجائب المصادفات أن الأستاذ خانكى بك
أنكر كون السلطان المذكور فاتح قسطنطينية فى نقاش جرى بينى وبينه على صفحات جريدة
الأهرام . فهو يعترف بمصطفى كمال فاتح تركيا المسلمة ولا يعترف بالسلطان محمد الثانى العثمانى فاتح قسطنطينية
المسيحية !! فهل كانت إذن تلك الأعياد على وفاته عبثاً ؟

منفردة في خارج الهيئة الدولية الأوروبية ، وكان السبب الحقيقي في هذا الانفراد هو الدين .

« وفي الحقيقة أن الإسلام الذي قد كان مؤسس الحكومة العثمانية بقي حاكماً مطلقاً فوق الحكومة ناظماً ، فقد كان القانون المدني متحدداً مع القرآن .. ولكون تشكيلات الأمة اشتبكت بالمقائد الدينية بحيث لا يمكن تفريق بعضها عن بعض ، كانت تشكيلات الأمة لا تقبل التغيير كالمقائد الدينية .

« فوجب لتحصيل الائتلاف الذي لا تستطيع تركيا الاستمرار على الاستغناء عنه ، إما إزالة الحائل في البين بالمرة أو تخفيف وطأته . ومعناه إما أن تحول الحكومة من الروحانية إلى الدنيوية بتخليصها عن تأثير القوانين الدينية كما وقع في العالم المسيحي ، وإما أن تخلص بالتدريج من الحدود والقيود الدينية من طريق تفسير المقائد الأساسية تفسيراً موسعاً .

« وللاحتراز من الحالات الموجبة لاشتزاز شعب جاهل متعصب لا يلبث أن ينفعل ويتأثر من كل شيء ، كانت الحكومة العثمانية اختارت الشق الثاني . »

فهذه الكلمة المنقولة من كتاب (اد . انكلهارد) الذي ألفه في سنة ١٨٨٢ للبحث في تاريخ تطورات الدولة العثمانية منذ عهد السلطان محمود الثاني وطبعت ترجمته إلى التركية بقلم علي رشاد بك في سنة ١٩١٢ ، تعلن ما كان يضمه الترك المتفرنجون أن يفعلوه بدين الأمة - ثم ظهر مع الانقلاب الكمالي - وما يضمه المتفرنجون العرب في مصر وغيرها ، ولم يظهر تمامه بعد .

وفي قول هذا المؤلف الفرنسي عن صلة الدولة العثمانية بالإسلام لحد كون الإسلام في تلك الدولة مؤسس الحكومة وبقائه بعد ذلك حاكماً مطلقاً فوق الحكومة أكثر

من خمسمائة سنة إلى زمان التنظيمات الجديدة .. وعن كون المقاومة لإسلام هذه الحكومة على طول عهدها ، شغلا شاغلا لدول أوروبا المسيحية ، حتى ان تلك الدول لجأت إلى طريق الحيلة بعد أن رأت عدم نفع الشدة في المقاومة ... في هذا فخر عظيم للدولة العثمانية الرحومة وإرغام للأستاذ محمد عبد الله عنان الذي أنكر اعتزاز الإسلام بالترك حتى يوم كانت منهم دولة شاذة ، وكيف لا يعترز الإسلام بدولة يصفها المنكر نفسه بالشموخ وتشهد الدنيا باتصالها بالإسلام اتصال الجسم بالروح ؟

نعم إن المؤلف الفرنسي أتى بهذه الشهادة عائياً على الدولة العثمانية صلتها القوية بالإسلام وعاداً لها في رأس الأسباب الموجبة لضغائن الدول الأوروبية المسيحية عليها ، تلك الضغائن المتبادية التي انتهت إلى انقراض الدولة كما يقول بذلك الترك الجدد اللادينون أيضاً الذين ورثوا دولة الترك القدماء المسلمين . لكنى أنا لا أبالي بذلك التعيب المتولد من عدم اتباع العثمانيين لأهواء الدول المسيحية المتغلبة على الأرض ظلماً ، فن حق كل حكومة أن تختار لنفسها من القوانين ما يتفق مع طبيعتها ودينها ، وإنما المطلوب مراعاة العدل في معاملة الحكومة مع الناس ، ولا شبهة في كون الدولة العثمانية المتسكة بقانون الشريعة الإسلامية لا تظلم أحداً من سكان بلادها مهما كان جنسه ودينه .

لا أبالي بذلك التعيب وأباهي بتلك الشهادة المثبتة لدعواي ضد الأستاذ عنان الدعي خلافها ، بل أباهي بطول عمر الدولة العثمانية المسلمة رغم تألب الدول أعداء الإسلام عليها من الخارج ومشايهم المنافقين في الداخل ، حتى كان انقراضها بأيدي أعدائها الداخليين ، ولكل أمة أجل ^(١) .

[١] وقد كان تجريد الدولة من دينها وخلاتها ومحاكمها الشرعية ومعايها الدينية ، استجابة لمرضاة الدول الكبيرة الغالبة في الحرب العالمية الأولى ، ثم أضافوا إلى ذلك تغيير كل شيء من مشخصات الأمة كزيها وحروفها التي تشترك فيها مع الأمم الإسلامية . فكفى هذا التغيير الأخير =

هذا ، وقد كنت منذ قرأت مقالة الأستاذ عنان في « الرسالة » وكتبت في الرد عليها إلى أن أصبح ردى من طوله كتابا ، ثم تولد منه كتاب ثان انصرفت بكل عنايتي إليه ونسيت كتاب الرد .. كنت طيلة هذا الزمان وما حصل لنفسيتي فيه من التطورات ، لا أعرف طعنا للأستاذ في دولة الترك الماضية غير ما نقلته من مقالة « الرسالة » فإذا بي عند التأهب لنشر هذا الكتاب المولود ، أطلع على طعنات له في تأليفاته يكاد نقلها يجملتها والاشتغال بالرد عليها يعوقني من نشر الكتاب الذى هو قرة عيني وذخر آخرتى في آخر عمري ، ويرجعني إلى الكتاب الأول الوالد بعد الانصراف عنه ، لكنى أغالب نفسي الثائرة من جديد وأكف عن سرد تلك الطعنات ، مكتفياً بنقل ما كتبه في كتابه « مصر الإسلامية » ص ١٤٩ وهذا نصه :

« إن مصر الإسلامية لم تعرف رغم ما توالى عليها في عصور الاضطراب والفتنة من الخطوب والحن نكبة أعظم من الفتح العثماني ولم تعرف حكماً أقسى وأمر من حكم الدولة العثمانية الزاهية . وإذا كانت فتوح الوندال والبربر والهون تبقى على مر الأقباب ، مضرب الأمثال في الشناعة والهول ، وإذا كانت آثارها المعنوية تقدر دائماً بمقياس ما حطمت من صروح المدنية الرومانية وما قتلت من مجتمعات أوروبا نصف المتحضرة فإن غزاة الترك كانوا أشد وندالية وفضاعة إذا ذكرنا فروق الأعصار

== وحده في قطع صلة تركيا بماضيهام ومؤلفاتها العلمية والأدبية . واليوم لا يؤذن لكتاب من مؤلفات الترك أنفسهم أن يدخل من حدود تركيا بسبب كونه مطبوعاً أو مخطوطاً بالحروف العربية . وقد حصلوا في أقل من ربع قرن بعد الانقلاب السكالي على انشاء الماضي . حتى إذا أرادت الحكومة معرفة مسألة تتعلق بتاريخ الترك القريب احتاجت إلى ترجمان من بقية الساف القادرين على قراءة الحروف العربية .

وفي السنوات الأخيرة أخذوا يعدون تغييرات في اللغة نفسها تثقل على اللسان والفهم والنطق ولا تفيد فائدة غير إيجاد حاجز ثان بين حاضر الترك وماضيهام الغريب والبعيد ، فمن أراد أن يرى أمة مسخت نفسها لتجعلها أمة جديدة مبتعدة عن قديمها في كل ناحية من نواحي القومية غير اسم الترك ، فليتركها الحاضرة !!

والدنيات وإذا قدرنا مدى الضربة التي أصابت الإسلام والأم الإسلامية من جراء
الفتح المماني . »

ثم قال : « والحقيقة أن فتح الترك للأهم العربية الإسلامية لم يكن إلا تنمة
لأعمال السفك والتخريب الهائلة التي بدأها هولاء كوك وبراير التتار بسحق الدولة
المباسية والمدنية الإسلامية واستأنفها تيمورلنك في أواخر القرن الرابع عشر، بيد أن
الفتح المماني كان باستقراره أعمق أثراً من الوجهة المعنوية وأشد تقويضاً للمدنية الإسلامية
من الفتوح التتارية المؤقتة . »

وقال في ص ١٦١ : « لبث سليم الأول في القاهرة ثمانية أشهر يذيق وجنده
المصريين أشنع ألوان السفك والظلم والمصادرة وجمع من تراث مصر وثروتها الفنية
كل ما وصلت إليه يده ويخرب المساجد والآثار الخالدة لينتزع منها نفائسها الفنية
ويبعث بها إلى القسطنطينية ويقبض على أكابر مصر وزعمائها وعلمائها ورجال الفنون
ومهرة الصنائع والعمال ويحشدهم أكادسا في السفن ويبعث بهم إلى القسطنطينية . »
والأستاذ يسمى هذا البعث في محل آخر من كتابه « الفن » . ولعل معظم الآثار
التي ادعى نقلها إلى الآستانة هي الكتب المخطوطة كما سمعته من غير الأستاذ عنان ،
لكن كيف يمد عمل السلطان بالكتب الدينية والعلمية التي وجدها في خزائن مصر
ونقلها إعجاباً بها واعتناء بشأنها إلى عاصمة ملكه بعد أن أصبحت مصر جزءاً من
بلاد الدولة لا فرق بينها وبين الآستانة في ذلك - من أعمال التخريب ويعتبره تقية
لتخريبات هولاء كوك في بغداد الذي قذف بما في خزائنها من الكتب إلى الدجلة والفرات ؟
وكيف يمد الذين أخذهم من علماء مصر وزعمائها ومهرة الصنائع فيها وذهب بهم في
معيته إلى عاصمة ملكه - منفين ؟ فهل في نقل أولئك إلى بلد يقيم فيه السلطان نفسه
وإبائهم به ليكونوا من المقربين إليه ويكون نفهمهم عاما لجميع البلاد التي يحكمها والتي

من جعلها مصر وأهلها اخوان المصريين في الدين والوطن - معنى النفي المتضمن للإيماء والإيذاء؟؟

لكن الأستاذ الذي في قلبه مرض التفريق بين المسلمين العرب والترك وعلى بصره غشاوة من معاداة آل عثمان لا يتحرج من تصوير عمل التقريب والتحبيب من السلطان سليم في صورة النفي والتعذيب . فالذى يُفضيه من عمله بمصر فتحها أكثر مما جرى بعد الفتح من الأعمال التي ذكرها . ولم يكن مقصود سليم من الفتح إلا توحيد مصر الإسلامية بتركيا الإسلامية، فإن رضيه الأستاذ كان هذا معنى الفتح . وإن أبى وعدّه انتزاع مصر من حكم الممالك الشراكسة فقد كانوا هم الآخرون انتزعوها من حكم الممالك البحرية الترك وهم ممالك هؤلاء الممالك ، ولم تكن مصر يومئذ تحت حكم فاتحيها العرب ، ولا المقصود من الفتح التحكم على الشراكسة والمصريين العرب . ويؤيد ما قلنا أمير الشعراء المصري بقوله في قصيدته الطويلة التي عنوانها « في وادي النيل » :

واذكر الترك أنهم لم يطاعوا فيرى الناس أحسنوا أم أساءوا
حكمت دولة الشراكس عنهم وهى في الدهر دولة عسراء

هذا جوابي على الفقرة الأخيرة من مطاعن الأستاذ في آل عثمان بمناسبة فتح مصر وما فعل فيها سليم الأول^(١) . أما تسمية أولئك الفاتحين عامة بأشنع أسماء البرابرة

[١] ان السلطان سليم فتح مصر بعد محاربة إيران وهزم جيوشها إلى أن اغتتم عرش الشاه إسماعيل الصفوى المحفوظ الآن في خزينة المتحف التركي ، ويقال إن حرب إيران دعت إلى محاربة مصر التي أحس سليم في أثناء الحرب مع الإيرانيين بانحيازها إلى جانبهم والتي يحاول الأستاذ عبد الله عنان أن يأخذ ثأرها بحملاته ضد السلام الأول عن الدولة العثمانية كما أخذ مصطفى كمال ثأر الدول الأفرنجية بهدم هذه الدولة التي عانت منها تلك الدول ما عانت ، وساعده في هدمها غلاة الروافض الموجودون في تركيا المسمون (فيزيليباش) ولهم قرى خاصة في أنحاء الأناضول وهم الآخرون أخذوا بواسطة الانقلاب القوي تم على يد مصطفى كمال، ثأر هزيمة الإيرانيين بيد السلام العثماني =

الطفلة الهمج فاني أكتفى في الرد عليها بنقل أسطر من مقالة في « الأهرام » (٢٢ / ١٠ / ١٩٤٤) بعنوان : « آخر الخلفاء » وقلم كاتب مصري أكبر بكثير أيضاً من الأستاذ عنان وأكثر معرفة بالترك وهو سعادة عبد الرحمن عزام بك (باشا) أمين الجامعة العربية، وهذا نصها :

« لما وصل العثمانيون إلى شرق أوروبا وكلها سجون أبدية يتوالد فيها الفلاحون للعبودية، فكسروا أغلال السجون وأقاموا مكانها صرح الحرية الفردية . فهم الذين قضوا على نظام الاقطاع والاستقرائية ليحل محله نظام المواطن الحر والرعية المتساوية الحقوق، فوصل في دولتهم الرقيق الشركسي والصقلي وغيره إلى أكبر مقام في الدولة كما وصل النابه من عامة الناس حتى المجهول الأصل إلى مقام الصدارة العظمى والقيادة العليا، وتعلمت أوروبا الشرقية على يد محرريها سيادة القانون على الأحساب والأنساب والطوائف والملل والنحل .

« فترتب على ذلك تطور هائل في اتجاه الحرية والديمقراطية الغربية الحديثة . وكانت القرون الأولى لسيطرة آل عثمان عصوراً ذهبية شمل فيها الناس الأمن والرخاء والسلام الروحي ، ولم تكن فوز آل عثمان كما يظن بعض الناس مستمدة من سيف وشجاعة بل مما هو أعظم من السيف والشجاعة ، احترام الحق والوفاء بالمهد والخضوع لسلطان القانون والشرع .

« ولو كان الأمر كما يتصوره الذين ينخدعون بآثار دور الانحطاط من استخدام الطوائف والغيرة بين العناصر والبطش لثغطية الضعف لاستحال أن يدوم ملك آل عثمان ستمائة سنة منها مائتان لا يسندهم فيها إلا سيف مبتور .

= والباحث يجد في بعض معاهدات الدولة العثمانية مع الإيرانيين نصوصاً تفرض عليهم أن يكفوا عن شتم سيدنا أبي بكر وعمر وسيدتنا عائشة، فانظر المجتمعين ضد الدولة العثمانية لأخذ النار !! .

« لقد رويت لى فى رحلاتى بالبلقان وملدافيا أمثلة باقية فى لغة العامة من عدل آل عثمان بين بيوت الملك الذى طال أمده وتنوعت رعاياه وقد نقلت كفته بالخير والرحمة والمروءة والشرف . »

أقول من الغريب المفهوم من شهادة سعادة هذا الوزير المصرى سابقاً وأمين الجامعة العربية حالياً، أن آل عثمان الذين وصفهم الأستاذ عنان بأفطع الوندالية وأوحش الممجية التغلب على همجية التتار ، نشروا الحرية والديمقراطية والمدل والمروءة والمساواة فى شرق أوروبا وتعلم غربها منهم الحرية والديمقراطية الحديثة .

هذا ، وما وسعنى مهما سمعت فى إيجاز القول على موضوع الدولة العثمانية^(١) إلا أن أنقل بعض كلمات قصيرة مما قرأته فى تعليقات صديق المرحوم أمير البيان شكيب أرسلان^(٢) على « حاضر العالم الإسلامى » (الجزء ٣ ص ٣٢٦) نقلاً عن كتاب « مائة مشروع تقسيم لتركيا » تأليف « دجوفارا » عقب الحرب العالمية الأولى

[١] وأنا أرجو من قراء كتابى أن يعذرونى فيما شغلتم بهذه النبذة التاريخية الخارجة عن موضوع الكتاب وينظروا لى أنها غير خارجة عن موضوع الكتاب الأول الذى له حق فى ذمة هذا الكتاب الثانى المولود منه والذى اشتغالى به عن مولوده لا يبلغ عشر معشار اشتغالى بالمولود عن الوالد [٢] الذى قال فى ديوانه ص : ١٢٩ يخاطب الأتراك العثمانيين مرغماً لأنف الأستاذ عبد الله عنان القائم بدعوى عدم اعتزاز الإسلام بالترك قط يوم كانت لهم دولة شاحخة ودعوى أنهم همج لم تر الإنسانية خيراً منهم كما لم ير الإسلام :

أحبكم حب من يسى لطينه	فى طاعة العقل لافى طاعة القضب
أحبكم حب من يدرى موافكم	فى خدمة الدين والإسلام من حقب
ومذ تقلدتموا أمر الخلافة قد	آويتوا بينها من كل مقرب
وكل غر يمارى فى فضائلكم	لا يعرف الحشف البالى من الرطب
مهما يكن من هنات بيننا فلنا	معكم على الدهر عهد غير منقضب
كنى الصهادة فيما بيننا نسبا	إن لم تكن جعتنا وحدة النسب
مجدى بشمات حامى ملقى وأنا	لم أنس تحطان أسلى فى الورى وأبى

والمؤلف - على تعبير الأمير - من أفاضل وزراء رومانيا . قال بعد كلام طويل :
« ثم إن احترام المعاهدات والعمل بموجب الكلمة المعطاة من مزايا العثمانيين يدور عليهما التاريخ كله » ثم قال : « فإن كان الشعب التركي قد غلب (يعنى فى تلك الحرب) فإنه قد فقد كل شىء إلا الشرف » وأنا أقول - القائل الأمير شكيب - احترام المعاهدات والعمل بموجب الكلمة المعطاة الذى يدور تاريخ العثمانيين كله عليه ناشئ من كونهم مسلمين حقيقيين . »

وقال الوزير الرومانى أيضاً بعد أن أحصى مائة مشروع تقسيم لتركيا ونقلها الأمير شكيب مفصلة : « هذه كانت فى مدة ستة قرون مساعى المسيحيين فى سلطنة العثمانيين التى كانت من أعظم الممالك التى عرفها تاريخ البشرية » وقال : « كانت السلطنة العثمانية سلطنة عسكرية محضا مستندة على شرع سماوى » وقال : « العداوة الحقيقية كانت عداوة النصارى للمسلمين برغم تسامح المسلمين فى الحرية الدينية التى يتمتع بها المسيحيون فى السلطنة العثمانية » وقال : « مدة ستة قرون متتابعة كانت الشعوب المسيحية تهاجم الدولة العثمانية » . أقول : ولعل عداوة الأستاذ عنان لهذه الدولة من تأثيرات العداوة المسيحية المعدية إلى بعض المسلمين فى الأزمنة الأخيرة الذين لا يعرف بعضهم بعضاً ومن الإسلام إلا اسمه . (انظر الهامش السابق فى أول هذا البحث ص ٧٢)

وقال الأمير شكيب : « بقى علينا أن نترجم خلاصة هذا الكتاب تأليف دجوفارا الرومانى مؤثرين منقولة على مقولنا لأنها شهادة رجل أجنبى عنا ، رجل سياسى مسيحي كانت الأمة التى ينتمى إليها من جملة الأمم التى تحررت من حكم تركيا » . أقول فهل الدولة العثمانية التى لم تظلم المسيحيين من أتباعها بشهادة شاهد من كبار السياسيين المسيحيين ، كانت تظلم العناصر الإسلامية حتى استجلبت شكاية الأستاذ عنان المارة الذكر وهى فى غاية المראה ، أم كان الظالم هو الأستاذ نفسه ؟؟

وقال الأمير أيضاً عن المؤلف الرومانى : « ثم ذكر فى خلاصة كتابه أن أعظم أسباب انحلال الدولة العثمانية هو مشربها فى إعطاء الحرية المذهبية والمدرسية التامتين للأئمة المسيحية التى كانت خاضعة لها ، لأن هذه الأئمة بواسطة هاتين الحريتين كانت تبث دعايتها القومية وتتمسك وتمهض وتبالأ وتسير سيراً قاصداً فى طريق الانفصال عن السلطنة العثمانية . وسواء كان هذا المؤلف قد أعلن هذه الحقيقة أم لم يعلنها فإنها الحقيقة التى لا شائبة فيها . ولذلك تجدد ملاحظة أنقرة يحملون من جملة حججهم فى النقص عن الشريعة الإسلامية قولهم أنه لولا مراعاة هذه الشريعة لكانت السلطنة التركية بقيت على عظمتها الأولى ولم يطرأ عليها هذه المصائب التى لزمها مدة قرون بسبب كون الثلث من سكانها وربما أكثر من الثلث ، مسيحيين وبأن الشريعة كانت تمنع السلاطين من إجبارهم على الدخول فى الإسلام أو الجلاء . »

وأنا أقول ولئن كان حقاً ما يقول ملاحظة أنقرة من كون تمسك الدولة العثمانية بالإسلام وجهادها فى سبيله جرّ عليها عداوة نصارى الدنيا وجرت هذه العداوة التى لم يخففها ما ناله أهل الذمة تحت حكم آل عثمان من الحرية والتسامح ، مصائب جمّة لم تنته إلا بعد انتهاء الدولة - فإن رقى هذه الدولة إلى أوج عظمتها ثم بقاءها هذه المدة الطويلة فى جهاد متوال لأعداء الإسلام منقطعة النظير بين الدول الإسلامية فى طول بقاءها وكثرة أعدائها بل واتساع بلادها ... كان نعمة عليها من نعم الإسلام ومعجزة من معجزات الجهاد فى سبيله لا يقدر على إنساء تلك النعمة وتلك المعجزة من تمادى فى معاداة العثمانيين ومعاداة الإسلام معهم والدعاية ضده وضدهم حتى بعد انقضاء عهدهم ، من ملاحظة أنقرة وغيرهم .

وآخر رد على الأستاذ عنان جدير بالذكر تولاه كتاب « تاريخ أوروبا الحديثة » تأليف رتشارد لوج وتعريب محمد عبد الله عنان ، حيث قال (جزء ١ ص ٤٧) : « وسر نجاح الترك يرجع إلى استبسالهم فى تضحية نفوسهم وهى عاطفة الجهاد التى

غرسها الإسلام في قلوبهم وكذا يرجع بالأخص إلى حسن إدارتهم المدنية والحربية «
وهنا أنهينا الكلام في مناقشة الأستاذ عنان ، دفاعاً عن الدولة العثمانية المرحومة
التي لا نحصى شهادات الرجال من مختلفي الأجناس والأديان بأن الإسلام وما يستتبعه
من الإنسانية والرجولة والروءة أيضاً ، عاش قروناً طويلة في وجه الأرض عزيزاً
مرفوع الرأس ، مع قوة تلك الدولة وعزتها . وأنا لا أقول إن آل عثمان حتى الأعظم
المشهورين منهم في تاريخ العالم براء من كل ما ينتقدونهم به ، وإنما أرد على من أنكر
اعتزاز الإسلام بهم .

دامت عزة الإسلام إلى أن أخذ يطرأ الضعف على صمصام الدولة العثمانية . فعند
ذلك بدأ الإسلام أيضاً يضعف يوماً بعد يوم ويسير جنباً لجنب مع ضعف شوكتها ،
فكان بين قوة الحجة وقوة السيف رابطة طبيعية إن كان الإسلام الذي يسمو بمقائده
ورجحان مبادئه في غنى عن هذه الرابطة كما قال الأستاذ عنان ، فطبيعة الإنسان
الراكنة إلى الغالب ، في حاجة إلى الاحتفاظ بهذا الارتباط . ولا يرتاب مسلم ساهر
على دينه أن الإسلام فقد حتى بين مسلمي الأزمنة الأخيرة كثيراً من كرامته وأهميته .
فهل زالت في هذه الأزمنة قوة حججه وبراهينه التي كان يعتمد عليها ؟

فالحق أن تجريد الإسلام من قوة السيف - كما يسمى إليه كثير من حملة العلم
والقلم بمصر - يكون كتجريد الإسلام من غزوة بدر الكبرى .

ومن غريب المصادفات الهامة المؤثرة في التحول الطارئ على مركز الإسلام ، أن
اكتشاف الآلات الجديدة الحربية الذي كان مبدأ قوة الدول الغربية وضعف دولة
الإسلام . لا يختلف زمانهما عن زمان ظهور العلم الحديث في الغرب ، ذلك العلم
الذي يدور مع الحس والتجربة ولا يعتمد بحجة العقل ، على الرغم من أنها كانت

مستند أساس الدين منذ قرون الإسلام التي راج علم الكلام فيها عند علماء المسلمين واحتفظ برواجه مدة احتفاظ الأمم الإسلامية برواج الدين فيما بينهم . فلولا تدهور دولة تلك الأمم أمام سلاح الدول المادية للإسلام لما تسنت مزاحمة العلم الحديث المادى وفلسفته الوضعية الإلحادية لعلم الكلام الإسلامى وفلسفته وتدهور سلاح هذا العلم أمام سلاح ذاك ، المنتهى إلى احتلال العلم الثانى مكان الأول فى قلوب المتعلمين ، كما احتلت تلك الدول بلاد المسلمين . ومعنى هذا القول مع عدم الرابطة الحقيقية بين قوة السلاح وقوة الحججة ، أنه لولا قوة السلاح المادى وغلبته التى أضاعها المسلمون وتملكها غيرهم ، لما أضاع أبناؤهم المتعلمون الذين هم الآخرون المعتلون بعملة الميل إلى الغالب ، قوة التفكير الصحيح فى تقدير الحجج قدرها .

وزادت فى إضعاف المسلمين وإضعاف الرابطة الدينية بينهم بل وفى إضعاف الإسلام نفسه فى قلوبهم بقدر ما أضعف السلاح الحديث والعلم الحديث من كل ذلك .. فتنة النزعات القومية الداخلة فيما بين الأمم الإسلامية تقليداً منهم لأهم الغرب ، وإغراء من تلك الأمم بينهم بواسطة الدعاة إلى تلك النزعات ، فقد قرأت كتاب « حاضر العالم الإسلامى » من ترجمته العربية فأحسست منه أن مؤلفه الأمريكى كتبه لتنفير المسلمين العرب من المسلمين الترك ؛ وقد أدخل الإنجليز الدعاية ضد عهد الدولة العثمانية بمصر فى برامج المدارس المصرية .

فمن كل هذا ضعف مراكز الإسلام عند المسلمين أنفسهم فضلاً عن سواهم ، وهزل حتى بدا من هزاله كلاله ، فالمسلمون اليوم أقوام متفرقة أكثر من أنهم مسلمون ، فلا يمنع إسلام قوم أن يناوئهم ويتجراً عليهم مسلمون من قوم آخر .. بل لا مانع لمن شاء من المسلمين أو بالأصح لمن تسمى بأسمائهم عن التجرد على الإسلام نفسه .

فهذا محمد عبد الله عنان العربى الذى ينكر إفاضة الإسلام من تركيا يوم كانت دولة شاذة ويرمىها بأشد أنواع الحمجية والتخريب ... ويقوم شيخ عربى نجدى

قصيمي فينكر إفادة الدنيا من المسلمين أجمين في جميع القرون ويرميهم بما رمى عبدالله عنان به الترك ، حتى قال الأستاذ سيد قطب كاتب مقالة الرد على الشيخ في جريدة « شباب محمد » - النذير - : « وليس المسلمين هم الأتراك مثلاً فأجد عذراً ، ولكنهم أصحاب محمد بن عبد الله وعمر بن الخطاب بل القرآن الذي أباح التخريب والتفتيل : (ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين .) » ويقوم شاعر عربي فيقول :

أليس قريشكم قتلت حسيناً وقام على خلافتكم يزيد

وقد كذب الأستاذ عدو الترك ، وكذب الشيخ عدو الإسلام ألف مرة ، وصدق الشاعر ، وقال أصدق القائلين : « فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون . »

وأنا أقول إذا تكلمنا في المفاضلة بين الأقوام فإني فضلت العرب على قومي الترك وأعلنته قبل موقفي الحاضر بمصر مهاجراً من تركيا - أعلنته في البرلمان العثماني يوم كنت عضواً فيه وسمعه أعضاؤه العرب السوريون والحجازيون والعراقيون والليمانون . وأنا اليوم أيضاً ثابت على رأيي القديم في تفضيل العرب ، لأن القرآن نزل على لغتهم وبقي محفوظاً كما نزل فأصبحت هذه اللغة بفضل القرآن وباهتمام علماء الإسلام بها من كل أمة ، بذلك الفضل - وقد وضعوا علم النحو العربي الذي ليس له مثيل في أي لغة الدنيا ^(١) - أصبحت لغة العرب أفصح جميع اللغات وأفضلها . . . ولأن فيهم أي

[١] وفي الأيام الأخيرة أخذت نفمة جنونية تسمع في مصر من الكتاب المتصعين لعلم النحو العربي داعية إلى إلغاء هذا العلم أو تعديله على وفق أهواء الجاهلين به ، مع أن له صلة قوية بعلم الفقه الإسلامي الذي هو من معجزات هذا الدين . كما أن في إلغاء النحو جنائية كبيرة على لغة العرب ومساساً بإعجاز القرآن المنزل من عند الله . . . في حين أن علم النحو العربي ليس ملك أولئك المجانين ولا ملك العرب خاصة بل ملك جميع علماء الإسلام الذين لم تسكن خدمتهم للقرآن وعلم النحو أقل من خدمة العرب وهي أعظم مفاخرهم القومية ، فهل تجد في الدنيا لغة من اللغات =

العرب فضلا عن محمد بن عبد الله العربي المبعوث إلى الناس خاتم النبيين ورحمة للعالمين - رجالا ممتازين مثل أبي بكر وعمر لا يوجد ولا يمكن أن يوجد نظيرهم في الإسلام والإنسانية في غير العرب . . . وإن كان في العرب أيضا مثل الأستاذ عبد الله عنان المصري والشيخ عبد الله القصيمي^(١) اللذين أولهما أسمى التعصب القومى الجاهل عينه وقلبه فلم يتحرج عن محاربة دولة مرحومة حاربت طيلة عهدها في سبيل الإسلام . وثانيهما ملأ الكفر والتفاق إهابه فتولى دعاية الأوروبيين في غاية من التذلل والتطفل

= الحية بقيت على مر العصور غير مختلف قديمها عن حديثها في الالتذاذ والاستئناس بها اليوم ولو حال دون القديم والحديث ألف ومئات من السنين . ومن عجائب مصر المضحكات المبكيات أن واحدا من أكبر أعضاء مجمع اللغة العربية اقترح قبل سنين استبدال الحروف اللاتينية العاجزة عن كتابة كثير من الحروف الموجودة في لغة العرب ، بالحروف العربية ، وفي اقتراحه التأم على مناوأة النحو العربي الناشئة من استصعابه ، مناوأة اللغة العربية نفسها من طريق هدم الفصحى التي بها تتحد لغة العرب بلغة القرآن ، ومع كل هذا لا يخرج الرجل من عضوية المجمع رغم خروجه على المجمع وما وضع له ، وقد حاول سد الفراغ الحاصل من وجود حروف في لغة العرب لامتثال لها في الحروف اللاتينية ، بوضع حروف جديدة تضحك التكلّى نصفها لاتينى ونصفها عربى ، وتفسد الحروف اللاتينية والعربية معا .

والى قد كتبت كثيرا في رجحان الحروف العربية التي كانت حروفنا نحن الترك أيضا قبل الانقلاب الكمالى اللادىنى - على الحروف اللاتينية ، لما كنت في بلاد اليونان أحارب فتنة تغيير الحروف في تركيا ونصدر مع ابنى إبراهيم جريدة تركية . ومما قلته في هذا الموضوع أن الغربيين إن كان لهم عقل يميز الراجح من المرجوح فليقلدونا في حروفنا العربية بدلا من أن نقلدنا في حروفهم اللاتينية .

[١] اطلعت عليهما بعد بيانى المذكور في البرلمان العثمانى على مسمع من نواب الولايات العربية . وقبل اطلاعى عليهما كنت أعرف قتلة حسين من العرب وفيهم عمرو بن سعد بن أبى وقاص أحد العمرة المبشرين بالجنة ، عينه عبيد الله بن زياد ابن أبيه قائدا أعلى للجيش المأمور بقتال حسين ووضع جسده بعد قتله وفصل رأسه عنه ، تحت أقدام الخيل لتطأه على صدره ثم على ظهره ، واتفق مع الرجل على هذه الأعمال الشنيعة في مقابل إمارة رقة التي سألها من عبيد الله والى كوفه ، فقام بكل ما أمر به لا بغضا لحسين ولكن حبا في المنصب الموعود .

حيث يهجم المسلمون ويهجم معهم الإيمان والأديان والأخلاق ويجمع في نفسه الدعاية للمستعمرين أعداء الإسلام مع الدعاية لدولة الحجاز خازنة بيت الله وروضة الرسول ، مستظلاً برعاية هذه الدولة ومدعياً بين كفرياته وتحاملاته على المسلمين في جميع القرون أنه يحمل جميع أوزار التأخر والانحطاط عليهم أنفسهم وينفي عن الدين ذاته هذه الأوزار . . . وهنا ينسى المجنون حملته على القرآن الذي لا يمكن تفريقه عن الدين إن أمكن على زعمه تفريق جميع المسلمين عنه .

وجوابه أن الآية التي أوردها بهذا الصدد وهي « ما قطعتم من لينة أو تركتموها قاعة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين » نزلت في بني النضير ، وهم رهط من اليهود نقضوا العهد وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم صالحهم على أن لا يكونوا عليه ولاله . . فلما ظهر يوم بدر قالوا هذا النبي النعموت في الثوراة بالنصر ، ولما هُزم المسلمون بأحد ارتابوا ونكثوا ، فخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكباً إلى المدينة وحالفوا أبا سفيان عند الكعبة ، فأمر رسول الله محمد بن مسلمة الأنصاري فقتل كعباً غيلة وكان أخاه من الرضاعة ، ثم صبّحهم رسول الله بالكتائب وهو على حمار مخطوم بليف ، فقال لهم اخرجوا من المدينة فقالوا الموت أحب إلينا من ذلك فنادوا بالحرب . . وقيل استمهلوا رسول الله عشرة أيام ليتجهزوا للخروج ، فبعث إليهم عبد الله بن أبي وقيل لا تخرجوا من الحصن فإن قاتلوكم فنحن معكم لا نخذلكم ولئن خرجتم لنخرجن معكم . . فحصدوا الأرزقة ، فحاصروهم رسول الله إحدى وعشرين ليلة . . فلما قذف الله الرعب في قلوبهم وأيسوا من مدد المنافقين طلبوا الصلح ، فأبى إلا الجلاء على أن يحمل كل ثلاثة آيات على بعير ماشاءوا من متاعهم ، فجلوا إلى الشام إلى أريحا واذرعات إلا أهل بيت منهم آل أبي الحقيق وآل يحيى بن أخطب فإنهم لحقوا بخيبر ولحقت طائفة بالحيرة .

فالنبي صلى الله عليه وسلم شدّد في معاملة بني النضير لكونهم نقضوا العهد مع

المسلمين وسلكوا سبيل الغدر والخيانة فاستحقوا التشديد في الجزاء وجاء القرآن مؤيداً له .

وقد سبق قبل غلبة الفتنة السكالية في تركيا وأنا لم أغادر البلاد ، أن كتب الدكتور عبد الله جودت صاحب جريدة « الاجتهاد » المعروف بزمته اللادينية مقالة عاب فيها على النبي صلى الله عليه وسلم مافعله بيهود بنى قريظة حيث أمر بقتلهم بعد استسلامهم للمسلمين وعده ظلماً ! . وكتبت أنا في مقالة الرد عليه أنهم نقضوا العهد في أخرج وقت على المسلمين وانضموا إلى أعدائهم في حرب الأحزاب التي زحفت إلى المدينة من فوقها ومن تحتها وحاصرت عاصمة الإسلام ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً^(١) .

[١] كانت أحزاب المشركين الذين اجتمعوا وزحفوا إلى المدينة لقتال المسلمين زهاء ١٢ ألفاً ، وعلى قول (فتح الباري شرح البخارى ٢٤ ألفاً) إذ جاءهم من فوقهم — كما حكاه القرآن — وهم بنو غطفان ومن تابعهم من أهل نجد وضامنهم اليهود من بنى قريظة والنضير . ومن أسفل منهم وهم قريش ومن شابعهم من الأحابيش وبنى كنانة وأهل تهامة . فاضطر المسلمون وكان عددهم ثلاثة آلاف ، إلى حفر الخنادق حول المدينة بأمر رسول الله بعد استشارة سلمان ، واشترك الرسول في عملية الحفر . ومضى على الطرفين ما يقرب من الشهر للاحرب بينهما غير حرب الأعصاب . . حتى زاعجت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وظن بالله الظنون المختلفة باختلاف أصحاب الظن ونجم النفاق بين المنافقين حتى قال معتب بن قشير : « كان محمد يعدنا كنوز كسرى وقبصر ولا تقدر أن نذهب إلى العائط » . . وغير حرب جرت بين فوارس من قريش يتقدمهم عمرو بن عبدود افتحموا من الخندق مكاناً ضيقاً ، فخرج على بن أبي طالب في نفر من المسلمين وقتل عمرأ فانهزمت خيله بقتله ، وقتل مع عمرو رجلان . وقبل لم يكن بينهم إلا التراب بالنبل والحجارة حتى أنزل الله النصر إذ أرسل على أعداء المسلمين الذين طوقهم ريحاً وجنوداً لم يروها ورد الله الذين كفروا بفيضهم لم ينالوا خبراً وكفى الله المؤمنين القتال . وفي صبيحة الليلة التي هزم جنود الله جنود الأحزاب فولوا هارين ورجع المسلمون إلى المدينة ووضعوا السلاح — أتى جبريل رسول الله ، فقال : أنزل لأمتك والملائكة ما وضعوا السلاح ، إن الله يأمرك أن تسير إلى بنى قريظة وأنا عامد إليهم ، فأذن الناس أن لا يصلوا العصر إلا ببني قريظة ، فحاصروهم لأحدى وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار =

فهل يظن الرجل الذي يعد ظملاً مائتاً ناكثو العهد من الجزاء الشديد بعد إنقاذ الله المؤمنين من المأزق الذي زادت خيائنة الناكثين خطراً على خطره ... أن سياسة الإسلام ينبغي أن تكون سياسة الحقى المغفلين بعيدة من الحزم والحسم يُتَقَرَّرَ مالا يُتَقَرَّرَ ويضع الندى في موضع السيف؟؟

== فقال تنزلون على حكمي؟ فأبوا ، فقال على حكم سعد بن معاذ سيد أوس؟ (الذي كان بنو قريظة من حلفائهم) فرضوا به ، وقد لبوا ما قالوا له لما جاءهم مع سعد بن عبادة سيد الخزرج يحذران مغبة الالتحاق بالأحزاب .. ولما ذكرهم ما بينهم وبين رسول الله من العهد قالوا : من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبينه ولا عقد ... فحكم سعد بقتل مقاتليهم وسبى ذراريهم ونسائهم ، فكبر النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال : لقد حكمت بحكم الله - يريد حكم التوراة - فقتل منهم ٦٠٠ أو ٤٠٠ مقاتل وفيهم امرأة طرحت الرجا على خلاد بن سويد تحت الحصن .. حكم به على الرغم من أنه حليفهم وأوصاه كثير من الأنصار بالرحمة عليهم في الحكم ، وكان سعد بن معاذ لما دعى للحكم يداوى من الجرح الذي أصابه في حرب الأحزاب بسهم واحد من قريش لا من اليهود حتى يتأثر به حياده في الحكم .

كان موقف بني قريظة النضمين إلى أعداء المسلمين في حرب الخندق لا يقاس في شدة الخطر وجسامة احتمال الضرر على المسلمين بموقف بني النضير المار ذكرهم وإن كانت كلتا الطائفتين خانت ونكثت عهدهما .. لتكون خيانة بني قريظة في أخرج وقت على المسلمين ، حتى إن النبي صلى الله عليه وسلم لما سمع نبأ هذه الخيانة وأرسل زعيمى الأوس والخزرج وأنصارين آخرين ليقفوا على جلبة الأمر لفتهم إلى أن يتكلموا في العودة بما لا يفهم غيره صلى الله عليه وسلم إن كان حقاً ، كيلا يفتنوا في أعضاء الناس ، ليكون خيانتهم مؤدية إلى انقطاع المدد والبركة على المسلمين وفتح الطريق لدخول المدينة من ناحيتهم .. فألقاهم الرسل على أخبث ما بلغ عنهم ... وحتى أنه صلى الله عليه وسلم فكر في البعث إلى غطفان بعدها ثلث ثمار المدينة إن هي انسحبت ، ثم رجع عنه لما استشار السعديين في الأمر فقالوا إن كانت هذه الفكرة وجيا من الله ، وإلا فنحن لم نؤد هذه الجزية في الجاهلية فكيف نؤديها في الإسلام الذي أتانا بحياة جديدة وسر هذا الجواب رسول الله غاية المسرة ... أما ما كتب معالى هيكىل باشا في كتابه « حياة محمد » (صحيفة ٣٢٦ الطبعة الثانية) من تنفيذ فكرة البعث إلى غطفان بالوعد المذكور وإيهام تأثيره في انسحاب غطفان فلا أصل له .. وإنما هو مسابرة من المؤلف المقتل بعله إنكار المعجزات ، على مبدأ بناء انهزام الأحزاب على أسباب مدبرة دون بنائه على المدد السماوى المذكور في كتاب الله ، وكانت دعواه في مقدمة كتابه أنه لا يثق بما جاء في كتب الحديث من تلك المعجزات فإذا عذره فيها جاء به القرآن .

وكتبت في آخر هذه المقالة التي أشرت هنا إلى خلاصتها والتي نال شكرًا من السلطان المغفور له محمد وحيد الدين ... قول أبي تمام :

وما خير حلم لم تشبه شراسة وما خير لحم لا يكون على عظم
وهل غير أخلاق كرام تكافأت فن خلق طلق ومن خلق جهم
نجوم فهذا للضياء إذا بدا تبجل الدجى عنه وآخر للرجم

نعود إلى ما كنا بصدده :

استمر تقهقر الدولة التي تولت الجهاد في سبيل الإسلام من استمرار تألب أعدائه عليها واستمر معه تقهقر مكان العلم القديم - الذي تولى قرونًا طويلة الحاجة لانتصار عقائد الإسلام - أمام العلم الحديث المبني على الحس والتجربة . ولم يكن هذا التقهقر ناشئًا من نفس العلم القديم ، كما سينجلي ذلك على قراء هذا الكتاب ، بل من نظر أناس أحداث متزلفين إلى العلم الحديث تزلفًا إلى الأمم الغالبة بأسلحتها المستفاد من ذلك العلم ، فالتبست عليهم الغلبة بالسلاح بالغلبة بالحجة ... استمر التقهقر للمسلمين من الناحيتين ، حتى أنه لما ختمت الدولة العثمانية أنفاسها وانسلخت الدولة المحتلة مكانها

== على أن المؤلف كتب في الصفحة التالية ما يناقض قوله الأول عن بعث رسول الله إلى غطفان بعدها ثلث ثمار المدينة ، من أن ذلك الوعد لم يتم أن اعترض سعد بن معاذ وسادة المدينة من الأوس والخزرج ومن أصحاب مشورة رسول الله ، وماذا يكون معنى عدم تمام الوعد بعد أن بلغ غطفان كما يدل عليه ما قاله من تردد غطفان في الإقدام على قتال محمد ، متأثرة بما كان قد بدأ به من وعدهما ثلث ثمار المدينة . إلا إخلافه صلى الله عليه وسلم ما وعده باعتراض أصحابه؟ وفيه ما لا ينبغي له ولا لأصحابه . كما أنه لا معنى لاستشارته إياهم بعد الوعد .

من صبغتها الإسلامية ، استتبع هذا الانقلاب الخاص بتركيا انقلابات كثيرة في البلاد الإسلامية الأخرى أيضاً ، فلم يقتصر تعرى النساء من جلابيبهن وخرهن على نساء تركيا المقلدة للغرب في الظاهر والباطن . ولما هاجرت بعد انقلاب تركيا إلى مصر وجدت العلم الحديث الغربى فيها الناظر إلى الأديان نظرها إلى الأساطير ، أنطق لساناً من علم أصول الدين الإسلامى وأعلى صوتاً حتى عند الأزهريين ، أو على الأقل عند ذوى القول السائد منهم .. حسبك دليلاً على هذا أن الأستاذ الأكبر المراغى شيخ الجامع الأزهر قال في كلمة ألقاها قبل سنوات عند توديعه للبعثة الأزهرية المؤلفة من بعض شبان المدرسين إلى مدارس أوروبا لطلب العلم : « ولو أن حملة الدين سايروا حملة العلم .. » فذكر حملة الدين في مقابلة حملة العلم واعتبر علماء الدين خالين عن العلم بالمرّة ، لعدم كون ماعندهم من العلم جديراً عنده باسم العلم . وتام الكلام منا على كلمة الأستاذ الأكبر يأتى في مكان آخر من هذا الكتاب مع نقل تمام الكلمة بنصها .

ومن الدليل الواضح على كون علوم الدين القديمة غير محتفظة بقيمتها وكرامتها عند سادة الأزهر الحاضر ، صدور « مجلة الأزهر » تحت إشراف الأستاذ فريد وجدى بك مدير المجلة ورئيس تحريرها ، على الرغم من حملاته الشنيعة على علم الكلام في الجزء التاسع من المجلد الثانى عشر للمجلة . وسيجئ رداً أيضاً على تلك الحملات . ودليل آخر أهم منه كون تلك الحملات لم تحرك ساكناً من الاحتجاج والانتقاد . وقد قرأت قبل ذلك فى جريدة « الأهرام » لشاعر مسلم قوله بعد أبيات :

آمنوا بالعلم ديناً وهدى ليس بعد العلم للافهام دين

ومما زاد فى الطين بلة أن المعروف عند حملة الأقلام بمصر كون المراد من العلم ذلك العلم الحديث الذى يتهد على الدين فيقذف به فى الأساطير كما سننقله عن الأستاذ فريد وجدى بك ، أو على الأقل كما يقول عنه هيكىل باشا : « لا يثبت ولا ينفى » وهم لا يرضون بغيره من العلوم المعروفة عندنا أن يسمى علماً ، فليس علم أصول الدين

مثلاً - وهو اسم آخر لعلم الكلام الذى كان علماءنا يبنون إيماننا بالله ورسله عليه - بمستحق عندهم لاسم العلم . وعلى هذا يكون الإسلام خارجاً عن ساحة العلم مثل النصرانية ، كما ادعاه الأستاذ فرح أنطون منشئ مجلة « الجامعة » فى مناظرته الشيخ محمد عبده ، وسيجى تمام قول الأستاذ فرح . وهنا مسألة أخرى وهى أن هذا الشيخ الذائع الصيت فى البلاد العربية وفى عالم الإسلام بواسطتها ، يكافح الأستاذ الذى قد ضرب أساس الأديان فى مناظرته بمعول التشكيك ، ثم نراه أى الشيخ ومن تلمذوا عليه مثل الشيخ الأكبر المرافى والشيخ رشيد رضا ينكرون معجزات الأنبياء ويسعون لتأويلها بأمور عادية ، كما ستطلع عليه فى الباب الثالث من هذا الكتاب^(١) وتطلع أيضاً على أن إنكار المعجزات ليس إلا رمزاً لإنكار النبوات وأن أساس الدافع إلى هذه الإنكارات هو العلم الحديث الذى لا يقبل الخوارق .

فدهشت من كل ذلك وقلت فى نفسى ما هذه الحالة التى وقفت عليها بمصر؟ فكان شيطان العلم الحديث الغربى قد أضل مبرزى كتابها وعلمائها السبيل فتسابقوا بوسوسته فى الخروج على الإسلام ، إن لم يكن علانية فى السر ، وكان ماقاله الأستاذ فريد وجدى بك فى مقالة منشورة على « الأهرام » وسنقله عنه بنصه من أن نوابغ الكتاب والشعراء فى البلاد الإسلامية يستبطنون الإلحاد ويهيمون الأذهان لقبوله دسا فى مقالاتهم وقصائدهم ، قد كان .. وكان فى مصر مثل ما فى تركيا من الانقلاب غير أن ذلك حصل هناك واستتب أمره جبراً من الحكومة ، وفى مصر اختياراً من كتابها وعلمائها بعد البحث والتفكير فيما بينهم .. وإنا نحن المهاجرين من تركيا المنقلبة لو وجدنا حرية القول فيها من غير خطر على حياة القائل لما فاقتنا الغلبة بالحجة على دعاة الانقلاب ولما احتجنا إلى مغادرة البلاد ، أليس فى مصر من العلماء والعقلاء من يضطلع

[١] قد وقفنا بمحمد الله لنشر هذا الباب من قبل ، فى شكل كتاب مستقل مسمى « القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون » .

الوقوف في وجه انقلابها المنع أو بالأولى من يسمى لكشف قناعه ثم مواجهته بضربات الحجج؟ مع أن أصحاب القلم من العلماء وخُلص المسلمين في مصر أكثر منهم في تركيا ، ولا خطر يخاف منه بمصر في سبيل الجهاد للدين إلا على مناصب المجاهدين؛ وهذا إذا فرضنا كفة نفوذ الملاحدة أثقل في ميزان الحكومة . فلعل البقية الصالحة من العلماء والكتاب الذين لم يغفلوا عن مكابدة الملاحدة للإسلام ولم يشايعوه في الإيمان بالعلم الحديث ، أكثر من الإيمان بالله ورسوله - تهيّبوا معارضة ذلك المسلم ولم يثقوا بالنجاح في معارضته ، فالتمزوا السكوت وخلوا الجو للملاحدة ومشايعهم .. مع أن حقيقة الموقف الذي يقفه المجاهد المدقق ليست معارضة العلم المذكور ، بل معارضة طائفة من علمائه الغربيين الذين يستخرجون منه مضادة الدين ومناوئته ، ومعارضة مقلديهم من ملاحدة الشرق . إذ لا يمكن أن يكون أى علم من العلوم الناصبة نفسها لاكتشاف الحقائق ، مناوئاً للدين الصحيح الذي هو أيضاً حقيقة من الحقائق التي لا يتصور أن يزاحم بعضها بعضاً .. وإن أمكن دائماً أن يكون علم من العلوم غير مطلع على بعض الحقائق لكونه خارجاً عن موضوعه ، أو لكون العلم المذكور لم يبلغ في مرحلة رقيه الحاضرة مبلغ الاطلاع عليه .

وعلى كل حال فصر في حاجة إلى أن لا نخذل دينها الذي يوشك أن يتغلب عليه الإلحاد ، لقوة دعائه وانقسام العلماء المكلفين بحراسة الدين على أنفسهم .. فهل لي أن أكون القائم بهذه المهمة على الرغم من شتات بالي بعد شتات شملي في حياة المهجرة وضف صحي بعد مفارقة شبابي مفارقة بعيدة ؟ . فهل لي أن أجد بين مفارقة الشباب ومفارقة البلاد والأحباب ما يعوضني عن كل ذلك بما هو أعز من الكل ألا وهو خدمة الإسلام ؟ ولقد أحسن من قال :

في الله من كل ماضيته خلف وليس لله أن ضيعت من خاف

إن دولة الترك الماضية الشامخة الوارثة لحكومة الإسلام قد حفظت تراثها مدة

حياتها الطويلة بقوة سيفها ثم شابت ثم ماتت ، ولكل أمة أجل .
ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب
وبعد انتهاء الدولة العثمانية لم تظهر دولة أخرى تقوم مقامها في الدود عن حياض
الإسلام بسلاحها ، فانتهدت قوة السيف في الإسلام^(١) وإنى أتيت مصر في هذه الفترة
فوجدت ما فيها من قوة الإسلام العلمية أيضاً في حالة النزاع بعد نزاع دام مدة بين
أنصاره وأعدائه ، وكان من آثار حالة النزاع أنى رأيها لا تميز بين أنصار الإسلام
وأعدائه ، فرماني بمض أهلها في الجرائد بخيانة الدين والوطن وسكت الباقون سكوتاً
ينبئ عن موافقتهم على رمى الرامين .. ولكنى مضيت في سبيل واثقاً أن الحق يمرض
ولا يموت .. وكما أن الدولة العثمانية ودعت الحياة مسلولة السيف بعد الدفاع عن الإسلام
سنة قرون ، فقد عزمت أنا الآخر على أن أدافع في آخر عمرى عن قوة هذا الدين
العلمية التي تعيد الشيوخ المجتهدين تحت رايها إلى الشباب .. وأنا عارف بما يحيطنى
من عوامل الضعف التي ذكرتها ، على أن بى ضعفاً آخر كدت أنساه مع جدارته
بالذكر قبل كل شئ ، وهو ضعف اللغة ، مع ما كان في طبيعتى من شدة الحرص على
التعمق في المسائل التي أضعها موضع البحث ، فكيف يكون لى الجمع والتأليف بين
ضعف اللغة والتعمق في بحث المسائل ؟ أضف إلى ذلك أن القارئ المصرى ينجذب
فى الغالب إلى قوة اللغة وجمال الأسلوب ، ويسأم من التعمق فى البحث مهما كان
الموضوع هاماً حيويًا ، ولا يبالى بأن يكون مثله فى هذه الحالة كمثل مريض يسأم من

[١] وإنى أقرأ على المسلمين النعميين وأكل لحوم الدولة العثمانية الزائلة كالأستاذ عبد الله عنان وغيره ، قول حطيئة الذى كان الأستاذ على عبد الرازق بك (باشا) قرأه فى غير محله على المسلمين الذين لا يعجبهم أفعال مصطفى كمال فى تركيا الجديدة وذلك فى مقالة له منشورة فى الزمان الماضى :
أقولوا عليهم لا أبأ لأبيكم من اليوم أو سدوا الفراغ الذى سدوا
فلو كانت الدولة العثمانية ورابطة مصر بها موجودة لما اجترأ فيها الكاتب عبد الله عنان على
ما اجترأ ، وخصيصاً ما اجترأ الشيخ القصبى أن يعتدى فى مصر على المسلمين وكتاب المسلمين .

فخص أسباب المرض وأماراته ولا يهتم بتنفيذ ما في تذكرة العيادة الطبية .. بل ربما يلقونها بعد تمزيقها في سلة الإهمال ، بحجة أنها لم تكتب على أسلوب عال من الأدب الفني .. وإنى أرجو الله تعالى أن يجعل ضعفى فى اللغة وما يؤدى إليه من معاناة الصعوبة عند الكتابة ، ثقله للكتاب فى ميزانى يوم عرض الأعمال لا ثقله على قارئه فى الدنيا .. والله تعالى قادر على أن لا يخيب سائله مهما كان السائل عاجزاً عن القيام بمهمته ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه .

عذرى من لسان أعجمى أراوده على تعريب كتيبى
وقد أنطقته ما استطاع حتى إذا لم يُرونى أنطق قلبى

انتهينا من قصة الكتاب وقد فهم من القصة سبب تأليفه إجمالاً .. لكننا لا نستفى بذلك ، بل نضم إلى هذا الإجمال تفصيلاً طويلاً قد يزيد فى طول مقدمة الكتاب لنورد فى غضونهما شواهد تثبت ما قلنا فى الإجمال عن حالة مصر بالنظر إلى عقلية كتابها العصريين وعلمائها التابعين لهم بغير إحسان من التابع والمتبوع المتفقين على هدم العقليات القديمة الإسلامية فنقول :

إن مما لا يخفى على المسلمين الذين يهمهم بسبب إخلاصهم لدينهم أولاً وتأييده فى حالاتهم الاجتماعية ثانياً ، ما سر ولا يزال على الإسلام فى الأزمنة الأخيرة التى اتصل فيها الشرق بالغرب ، من أدوار أعقبت عقليات مختلفة فى خواص الناس المحدثين ، مع الاتصال المذكور ، إن لم يكن فى عامتهم وفى خاصتهم القدامى .. فكان أول مرحلة أن أنيرت الشكوى من جود المسلمين وعلماء الإسلام فى دينهم ، وشاطر تلك الشكوى وناصرها بعض العلماء أنفسهم .. ولعدم كون الشاكين ومناصرهم على جانب كبير من العلم الناضج والعقل السليم التمس الأمر عليهم فهُجِم على الدين نفسه عند الهجوم

على الجود في الدين^(١) .

واستمرت الشكوى ولا زال شيء من جماها باقيا في بعض الأقلام حتى أذيب
الجامد فنجم الجاحد وتطاول الناقص بفضل ججوده على الزائد ، ثم حل تقليد الغرب
محل الجود في الإسلام .. وجاء دور ساد فيه القول بين صراحة ودلالة بأن العلم
لا يعترف بوجود ما لا يثبت وجوده بالتجربة الحسية وربما ألحق العقل بالعلم في عدم
الاعتراف بغير المحسوسات ، ولم يفحص أى علم ذاك العلم وأى عقل ذاك العقل فقبل
كل منهما على إطلاقه عدواً للدين لعدم استناده إلى دليل محسوس ، واعتبر الإلحاد
مذهب العلم والعقل .. واستقر الأمر على هذا حتى استولى اليأس على قلوب الغيورين
على دينهم ، وأصبح لا يجترأ على الدفاع عن دينه علمياً إلا متهور أو متفاض عن
معارضة العلم والعقل .. وربما خالج بعض الأذهان أن العقل عُرف في سالف الزمان
باستدلالة على وجود الله ، ثم لم تثبت هذه الفكرة كبصيص الأمل للمدافعين عن الدين
أن أطفئت بنفس واحد يعيد اليأس إلى قلوبهم قائلاً : إنه حلم العقل المحض والمنطق
التجريدي اللذين لا يقام لهما وزن في أعصر العلم المثبت .

ثم تبين لتحمسى المراحل الأولى بعد أن قضى الناس شهواتهم من الأمانى اللادينية
في المراحل الثانية والثالثة ، ما ترك الإلحاد في أرواحهم من الخلاء الوحش وأخذوا
ينزعجون منه ويحسون بحاجتهم إلى ملء ذلك الفراغ ، وكادوا يندمون ويتحسرون
على فراق ذلك الأنيس الروحي الذي هو الدين ، لولا أن العلم والعقل اللذان باعدا
بينهم وبينه ، بالمرصاد يقطعان عليهم طريق العود إلى حضائته المؤنسة المطمئنة .

[١] وهانت تهمة الجود موجهة إلى الإسلام نفسه - مع أنها غير هينة - لو اقتضت على
أحكامه العملية واعتمدت على دفع الحرج ولم تنعد إلى العقيدة التي لا يتصور فيها الحرج ..
ومن هذا يتبين أن أصحاب الشكاية عن الجود في الدين غير مخلصين في مرامهم ونواياهم
يبتغون الهدم لا التيسير . إذ لا يسوغ ولا يعقل أن يكون معنى الموهولة في العقيدة إلا سهولة
الضلالة بالنسبة إلى الهدى .

فلنبداً من تحليل ما حدا هيكل باشا إلى تأليف « حياة محمد »

١

قال معالي هيكل باشا فيما يقرب من آخر مقدمة كتابه « حياة محمد » :
« فالتفكير الإسلامى - على أنه تفكير علمى الأساس على الطريقة الحديثة فى صلة الإنسان بالحياة المحيطة به وهو من هذه الناحية واقفى بحث - ينقلب تفكيراً ذاتياً حين يتصل الأمر بعلاقة الإنسان بالكون وخالق الكون ، ويبدع له ذلك فى النواحي النفسية والنواحي الروحية آثاراً قد يقف العلم بوسائله حائراً أمامها لا يستطيع أن يثبتها ولا أن ينفيها وهو لذلك لا يعتبرها حقائق علمية .

« ثم هى تظل مع ذلك قوام سعادة الإنسان فى الحياة مقومة سلوكه فيها . فما الحياة؟ وما صلة مكان الإنسان من الوجود ووحدته ؟!

« هذه مسائل خضعت للمنطق التجريدى ووجدت أدباً مترامياً الأطراف الكمك
تجد حلها فى حياة محمد وتعاليمه أدنى لتبليغ الناس سعادتهم من هذا - المنطق التجريدى الذى أفنى فيه المسلمون قروناً منذ القرن العباسى^(١) وأفنى فيه الغربيون ثلاثة قرون منذ القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر مما انتهى بالغرب إلى العلم الحديث على نحو ما انتهى بالمسلمين فيما مضى . ثم وقف العلم فى الماضى كما أنه مهدد اليوم بالوقوف دون إسعاد الإنسانية ، ولا سبيل إلى درك هذه السعادة إلا العود إلى حسن إدراك هذه الصلة الذاتية بالوجود وخالق الوجود فى وحدته التى لا تتغير سنتها ولا يعتبر الزمان أو المكان فيها إلا وجود نسبي لحياتنا القصيرة . وحياة محمد هى لأرب خير مثال لدراسة هذه الصلة الذاتية دراسة علمية لمن أراد ودراسة عملية لمن تؤهله مواهبه أن يحاول هذا الاتصال فى مراتب أولية لبعده ما بينه وبين الصلة الإلهية التى أفاء الله على رسوله . وأكبر ظنى أن هاتين الدراستين خليقتان يوم يتاح لهما التوفيق أن تنقذا عالمنا الحاضر

[١] يشير إلى زمان تدوين علم الكلام الإسلامى ممزوجاً بالفلسفة المشتقة من الفلسفة اليونانية ومستنداً إلى منطق أرسطو اللذين اطلع عليهما علماء الإسلام فى عهد الخليفة العباسى ، مأمون .

من وثنية تورط فيها على اختلاف عقائده الدينية أو العلمية ، وثنية جعلت المال وحده معبودا ، وسخرت كل ما فى الوجود من علم وفن ومواهب لعبادته والتسبيح بحمده » .

وخلاصته أن معاليه من المستنسين من إحياء الفكرة الدينية فى قلوب الناس ، مبتدئاً من إثبات وجود الله على طريقة علمية ، وبانيا لأساس الأخلاق التى هى مدار سعادة الجمعية البشرية على هذا الدين المثبت .. وهو يعتبر ما اعتمد عليه علماء الإسلام المتكلمون قروناً طويلة من إثبات عقائد الدين بأدلتها المبسوسة فى كتبهم والتى يدرس شئ منها فى كلية أصول الدين الأزهرية ، غير جدير بأن يسمى إثباتاً بالطريقة العلمية ولأدلة ذلك الإثبات أدلة علمية ، بناء على أن العلم الحديث الغربى لا يعتد بتلك الأدلة ولا يعد العلوم المشتملة عليها علماً .

وقوله فى ص ١٥ أصرح فى هذا الصدد : « انصرف هؤلاء الشبان عن التفكير فى الأديان وفى الرسالة الإسلامية وصاحبها ، وزادهم انصرافاً ما رأوا العلم الواقى والفلسفة الواقعية « الوضعية » يقررانه ، من أن المسائل الدينية لا تخضع للمنطق ولا تدخل فى حيز التفكير العلمى ، وأن ما يتصل بها من صور التفكير التجريدى (الميتافيزيقى) ليس هو أيضاً من الطريقة العلمية فى شئ » .

وترى معاليه قائل هذين القولين يناقض نفسه فيقول فى مقدمة الطبعة الثانية لكتابه ص ٥٥ : « فالإيمان بالله وحده لا شريك له لا يحتاج إلى أكثر من النظر فى هذا الكون الذى خلقه الله »^(١) مع أن النظر فى الكون لا يكفى المستدل على

[١] لا يجوز وصف الكون عند النظر فيه للوصول إلى معرفة وجود الله ، بأنه خالق الله كما فعل المؤلف . وإلا كان فى هذا الاستدلال مصادرة على المطلوب نفسه ، لأن من يعرف أن خالق الكون هو الله لا يحتاج فى الإيمان بالله إلى النظر فى الكون ، ومن يحتاج للإيمان به إلى النظر فى الكون لا يعرف أنه خالق الله .

وجود الله في نظر العلم الحديث كما ذكرنا فيما نقلنا عن معاليه آنفا . لكن قوله هذا وقع بصدد نفى الحاجة في الدين إلى الإيمان بالمعجزة ، فلم يتخرج أن يعترف في سبيل هذا النفي بما لا يعترف به العلم من وجود الله .

وإنكار المعجزة اعتماداً على الإيمان بالله، واستغناء الإيمان به عنها ثم إنكار الدليل على وجود الله اعتماداً على العلم الحديث من عجائب العقليات الحديثة ، مع أن الإيمان بالله يذهب بالإنسان إلى الإيمان بالمعجزة لا إلى إنكارها .

وعلى كل حال فمؤلف « حياة محمد » لا يعجبه عدم وجود الله وإن كان يعجبه عدم وجود المعجزات، مع أن المانع من وجود الأمور الغيبية كلها يرجع إلى أصل واحد هو العلم الحديث والعقل المقيّد به . ولا ينتظر من معالي المؤلف شنّ الحرب على هذا العلم وهذا العقل اللذين شنا الحرب على وجود أى شيء ثابت فيما وراء الطبيعة .

فبالضرورة النجاء المؤلف إلى حياة محمد صلى الله عليه وسلم ودل الناس على الانجاء إليها لعلهم يجدون فيها ما لا يجدون في العلم والعقل من طريق الوصول إلى الدين وواضحه جل شأنه .

ونحن نأمل من الاطلاع على سيرة نبينا صلى الله عليه وسلم كل خير وبركة وهداية لاسيما سيرته المكتوبة على وجه أمثل مما كتبه معاليه . إلا أن هذه السيرة المباركة التي لم يأل معالي المؤلف جهداً في تصويرها على صورة لا تتنافى مع سنن الكون ليألف مع العلم والعقل ، لا مناص من أن تتعارض نتيجة التي تنتهي إليها - وكان الانتهاء إليها مقصود المؤلف أيضاً من كتابه وهي صلة الإنسان على تعبير المؤلف بالوجود وخالق الوجود - لا مناص من أن تتعارض هذه النتيجة مع العلم والعقل المقيّد بالعلم . فكيف يتصل الإنسان بخالق الوجود الذي لا يقر العلم والعقل بوجوده إن كان هذا الإنسان مقراً بالعلم والعقل ؟ وكيف يتصور رسول الله مجرداً عن الله إن أمكن

تجريدته عن المعجزات ؟ مع أن العلم والعقل اللذين لا يمتزجان بالمعجزات لكونها من الأمور الغيبية الميتافيزيقية ، لا يمتزجان بالله أيضاً للسبب نفسه .

وصفة القول هنا أن الدين يقوم على ركنين رئيسيين : الإيمان بالله والإيمان برسوله من البشر . لكن العلم الحديث التجريبي الذي هو أساس ما يؤمن به المتعلمون المصريون بعصر المقلدة للغرب ، لا يعترف بالله ولا برسوله على أنهما من الحقائق الثابتة المستندة إلى التجربة الحسية . أما العلم القديم المبني على العقل المحض والمنطق التجريدي والذي آمن بالله أولاً وآمن برسوله بعد الإيمان بالله وآمن بهما علماء الإسلام المتكلمون من قديم الزمان بواسطة هذا العلم - فغير معتمد به عند المتعلمين المعاصرين .. فالعلم قديمه وحديثه لا يضمن الإيمان بالله ورسوله ، ولهذا اتخذ معالي هيكل باشا تتبع حياة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم خير وسيلة للإيمان بالله ، عكس ترتيب العلم القديم وعلمائه المتكلمين ، وإن لم يصرح بترتيبه هذا .

وقد يلاحظ في أسلوب معالي الباشا للإيمان بعض الشبه بإيمان المسلمين في عصر النبي صلى الله عليه وسلم ويمكن أن يكون هذا الشبه هو الذي جذبته كما قال في مقدمة الطبعة الثانية لكتابه (ص ٥٥) :

« ولو أن أمة غير مسلمة آمنت اليوم بهذا الدين من غير حاجة إلى التصديق بمعجزة غير القرآن لكان الذين آمنوا من أبنائها أحد رجلين : رجل لم يتلجلج قلبه ولم يتعثر فؤاده بل هداه الله إلى الإيمان أول ما دعى إليه كما هدى أبا بكر فأمن وصدق من غير تردد ، وآخر لم يلتمس فيما وراء سنة الكون من خوارق ، بل التمس في خلق الله هذا الكون الفسيح الأرجاء الذي يقصر تصورنا دون ادراك حدوده في الزمان أو في المكان ، وتجري أموره مع ذلك على سنن لا تحوّل لها ولا تبدل ، فاهتدى من سنة الله في الكون إلى باريه ومصوره ، سواء عند هذين أكانت الخوارق أم لم تكن . »

وخلاصته أن من يهتدى إلى الإسلام في هذا الزمان من الأمم غير المسلمة يهتدى إليه بأحد طريقين : إما بأن يدخل الإيمان في قلبه أول مادمي إلى الإيمان وأول ما سمع القرآن فيؤمن من غير أن يتلجلج قلبه كما آمن أبو بكر من غير تردد . فهذا الرجل لا يحتاج طبعا إلى غير معجزة القرآن . وإما بأن ينظر إلى سنة الله في هذا الكون الفسيح الأرجاء فيهتدى منها إلى باريه . وهذا الرجل أيضاً لا يحتاج في إيمانه بالله إلى المعجزات والخوارق . أما إيمان هذا الرجل بالرسول فكأنه تكفل به معجزة القرآن .

وأنا أقول مؤلف كتاب « حياة محمد » معلول العقلية بداء إنكار المعجزات غير معجزة القرآن^(١) ولذا ينساق إلى تأييد هذه العقلية المريضة في مناسبة وغير مناسبة . ونحن نوفي حق الكلام على مسألة المعجزات في الباب الثالث من كتابنا هذا . والمقصود هنا التنبيه على أن مذكوره من الطريقين لإيصال أى أمة غير مسلمة إلى الإيمان بدين الإسلام في هذا الزمان فكلاهما غير ضامن للوصول إليه . فالرجل الأول الذى يؤمن أول مادمي إلى الإيمان من غير تردد وحاجة إلى التصديق بمعجزة غير القرآن كما آمن أبو بكر ، لا وجود له في هذا الزمان الذى لا يوجد فيه داع إلى الإيمان كالنبي صلى الله عليه وسلم ولا مدعو كأبى بكر . والرجل الثانى الذى ينظر إلى الكون الفسيح الأرجاء وسنته المنظمة للاهتمام إلى باريه غير مضمون له الإيمان أيضاً على مذهب المؤلف ، لأن طريقة هذا الرجل إلى الإيمان بالله تعالى هى طريقة الاستدلال من الآثار إلى مؤثرها ، أعنى بها طريقة العلم القديم المبني على العقل المحض والمنطق التجريدى اللذين لا يعتمد بهما العلم الحديث ولا متعلموه المصرون أشباه المؤلف ، ولا يعتبرون ما يبنى عليهما من المسائل حقائق علمية . وهل هذا إلا تفاوض من المؤلف مع ما ذكره أولا وبني عليه تأليف كتابه . ولعله يظن أن الدين غير لازم بلوغه عند المتدين مبلغ الحقائق

[١] على أن رأيه في معجزة القرآن الذى يأتي تفصيله في محله يتنافى مع الاعتراف التام بكون

العلمية ، وفيه حظ الدين عن مرتبة العلم وعلمائه عن مرتبة العلماء وسيسمع القارىء كلمة من الشيخ الأكبر أيضاً ثم على هذا .

ولو تفاضينا عن هذا التناقض وفرضنا كفاية النظر إلى الكون وسنته في إيمان الرجل الثانى ببارئ الكون وبلوغ هذا الإيمان في قلبه مبلغ الحقائق الثابتة مخالفاً لرأى العلم الحديث فيه - لماذا يكون سبب إيمان هذا الرجل بالرسول من غير حاجته إلى التصديق بالمعجزات غير القرآن ؟ ولم يذكر المؤلف هذا الإيمان منه ولا سببه . فإن قال إن السبب هو القرآن، ورد عليه ماذا يكون تأثير معجزة القرآن التى يدعى المؤلف استغناء أى أمة غير مسلمة في هذا الزمان عن التصديق بمعجزة غيرها، في إيمان الأئمة من غير العرب ؟ والعرب نفسها لا تربط اليوم معجزة القرآن بهذا الدين كثيراً من أبنائها المثقفين . وقد انقضى عهد الذين أدركوا الإعجاز بالذوق وآمنوا بالقرآن بسبب هذا الإدراك، على ما قاله الأستاذ الأكبر المراغى في مقالة نشرها في «الأهرام» و«السياسة الأسبوعية» قبل بضعة عشر عاماً في مسألة ترجمة القرآن وانتقدناها عليه في كتاب نشرناه يومئذ . قال :

« إن قراءة الأعاجم للنظم العربى نفسه لا يدهم على الإعجاز وليس فى استطاعتهم فهمه ، والأئمة العربية الآن ومن أزمته طويلة خلت لا يفقهون الإعجاز من النظم العربى، وقد انقضى عصر الذين أدركوا الإعجاز من طريق الذوق وآمنوا بالقرآن بسبب هذا الإدراك . ونحن الآن نقيم على الإعجاز دلائل عقلية فنقول إن القرآن تحدى العرب وأنهم عجزوا وهذا يدل على أنه من عند الله . »

أما قول معالى المؤلف بعد أسطر من القول الذى نقلنا عن كتابه آنفاً : « مثل الذين يؤمنون اليوم بالله ورسوله من غير أن تحملهم المعجزات على الإيمان ، كمثل الذين آمنوا بالله ورسوله فى حياة النبي العربى . فلم يذكر التاريخ أن المعجزات حملت أحداً

منهم على أن يؤمن، بل كانت حجة الله البالغة عن طريق الوحي على لسان نبيه وكانت حياة النبي في سموها البالغ غاية السمو هي التي دعت إلى الإيمان . »

فجوابي عليه اني كنت أيضاً في رأى معاليه ، على أن تكون طريقة الإيمان هذه خاصة بالأمة العربية التي تنقاد أفئدتهم لجمال البلاغة ويعلمهم التعمق والاستقصاء في الاستدلالات العقلية ، ولا أزال شديد التعجب من أن يكون المرء يفهم القرآن ولا يدين بالإسلام ، ولا أزال أيضاً قوى الاعتقاد بأن مسؤولية أبناء العرب إزاء الإسلام تكون أشد .

إلا أنه مع كل هذا فبين الذين يتوقع منهم الإيمان بالله ورسوله في الأرمنة الأخيرة وبين المؤمنين به في عصر النبي فارق عظيم من حيث ان العلم الحديث والعقل الحديث اللذين اقتبسهما الشرق المقلد من الغرب واللذين يُعتبران مانعين عن الإيمان بالله ورسوله وجاعلين وجود الله ورسوله في خارج الحقائق الثابتة ثبوتاً علمياً - لم يكونا موجودين حين آمن النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه . ومن هذا الفارق نرى معالي الباشا كاتب حياة نبينا يجهد في إخراجها عن ماعدا القرآن من المعجزات التي يعبر عنها بالحوار .. كما يظهر مبلغ اجتهاده هذا من الكلمتين المنقولتين عن كتابه . ولا يدري معاليه أن معجزة القرآن بصفة أنها معجزة يلزم أن تكون هي أيضاً من الحوار التي يصر على نفيها من حياته صلى الله عليه وسلم ، حتى ان النبوة نفسها خارقة تقتضي إخلاء حياة النبي العربي عنها على شرط كتابها الحديث . وسنبين ذلك في محله إن شاء الله . فماليه يناقض نفسه من حيث لا يشعر وبيتمد في مسألة النبوة ومعجزة القرآن عن العلم . ولذا نرى الأستاذ فريد وجدي بك يرد النبوة في « السيرة الحمديدية على ضوء العلم والفلسفة » التي أخذ يكتب مقالات بهذا العنوان في « مجلة الأزهر » - إلى المبقرية كما سنذكره . فهذا الكاتب عن حياة النبي صلى الله عليه وسلم بعد الدكتور هيكل باشا يراعى جانب العلم أكثر من معاليه ، لأن العلم في نظر الكتاب

العصرين كما لا يقبل المعجزة لا يقبل النبوة أيضاً بمعناها المعروف عند المسلمين وغيرهم من أهل الملل .

ثم من الفوارق بين اليوم وعصر النبي صلى الله عليه وسلم أنه لم يكن في عصره مستشرقون من أهل الغرب يدرسون حياته من غير إيمان بنبوته ويكون أكثر اعتماد كتاب من المسلمين عن حياته على أقوالهم ، حتى انه يوشك أن يتبعوهم أيضاً في عدم الإيمان بنبوته لكون النبوة بمعناها المعروف خارقة لسنة الكون كخوارق المعجزات^(١) في حين أنهم يهتمون بإخلاء حياته عن الخوارق أى اهتمام ، فيجملون نبوته أو يلزمهم أن يجعلوها عبقرية !! فلو كان درس حياته صلى الله عليه وسلم مؤدياً كافياً لدارسها

[١] بل النبوة تنطوي على ثلاث معجزات كما قال الفخر الرازى في تفسيره عند قوله تعالى : « وما كان ليعسر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء » . البعث الثانى أن الرسول إذا سمعه من الملك كيف يعرف أن ذلك المبلغ ملك معصوم لا شيطان خبيث . وعلى هذا التقدير فالوحي من الله تعالى لا يتم إلا بثلاث مراتب في ظهور المعجزات : المرتبة الأولى أن الملك إذا سمع ذلك الكلام من الله فلا بد من معجزة تدل على أنه كلام الله ، والمرتبة الثانية أن الملك إذا وصل إلى الرسول فلا بد له أيضاً من معجزة ، والمرتبة الثالثة أن الرسول إذا أوصله إلى الأمة فلا بد له أيضاً من معجزة ، فثبت أن التكليف لا يتوجه على الخلق إلا بعد وقوع ثلاث مراتب من المعجزات .

أقول ان هذه الكلمة القصيرة التى نقلتها من تفسير الإمام الرازى مهمة جداً من حيث ان فيها تجلية لزوم المعجزة للنبي وخصيصا للرسول الذى أخص من النبي وتجلية أن الرسالة من الله متضمنة لثلاث معجزات ، لا يكون الرسول رسولا بدونها ، وبها يحصل الثبوت في الروابط الثلاث التى يحتاج إليها تحقق صفة الرسالة من الله المذكورة في قوله تعالى « الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس » والذين يؤلفون في حياة سيدنا محمد من الكتاب العصريين المنكرين للخوارق يناقشوننا في الاعتراف بالمرتبة الأخيرة من مراتب المعجزات الثلاث التى هى أوضح المراتب ، فضلا عن المرتبتين الأوليين اللتين يفعلن عنهما بالرة فليقرأوا هذه الكلمة المنقولة وليقرأها معهم طائفة من الكتاب والعلماء المحدثين بعصر اجتلا بداء الإعراض عن كتب التفسير القديمة استخفافا بشأنها ونكرانا لجليل مؤلفيها عليهم الرحمة والرضوان .

إلى الإيمان بالله ورسوله لكان أولى الناس بهذا الإيمان هم المستشرقين الذين لهم الحظ الأوفر في درس حياته على رأى معاليه ، حتى انه يعول على ما كتبوا عنها أكثر من كتب مؤلفى الإسلام كما يطلع عليه القارىء فيما يأتى .

فالحق أن تأثير الاطلاع على حياة نبي الإسلام فى إيمان أى امرئ بنبوته مشروط بطهارة دماغ المطلع عن عقليات تخانع الإيمان كإنكار الخوارق لسنن الكون ونفى كل ما يغيب عن الحواس واعتبار هذا النفى وذاك الإنكار أو على الأقل نفى وإنكار ثبوت شئ منها ، علما .

وقد علمت من كلام الدكتور هيكل باشا أن الايمان بالله لا يكفل به العلم الحديث لكونه حائراً فى مسألة وجود الله لا يثبتته ولا ينفيه لعدم كونه فى متناول التجربة . والعلم القديم لا اعتداد عند المصريين بما أثبتته ، فوجود الله تعالى إذن غير ثابت ثبوتاً علمياً فى نظر مؤلف « حياة محمد » وأمثاله من المثقفين ثقافة جديدة غريبة ، وعلمت من كلالى أن درس حياة النبي صلى الله عليه وسلم الذى التجأ إليه الدكتور المؤلف لإثبات الدين لا يجدى بمجرد دفع الشبهة فى وجود الله لاسيما للذين شحنوا أذهانهم بصادرات الغرب ، وإن كانت الشبهة فى وجود الله تضر دارس حياته صلى الله عليه وسلم أيضاً وتبعده عن الاقتناع بنبوته .

فيجب إذن على من يريد إثبات الدين أن يتشجع ويبدأ الأمر كما قلنا من إثبات وجود الله إن لم يكن بالعلم الحديث فبالعلم القديم . وسيعلم الذين يستخفون بهذا العلم أن هذا العلم يثبت وجود الله إثباتاً أقوى وأفضل مما لو أثبتته العلم الحديث وأحرى من هذه الناحية أن يكون إثباتاً علمياً .

ولا بد إذن لإثبات الدين الذى هو اتصال الانسان بخالقه - ويكون مبدأ هذا الاتصال ومجلاؤه فى اتصال النبي الذى يبدأ الدين منه - وإثبات إمكان هذا الاتصال ،

أن نكافح العلم الحديث المانع عن الإيمان بالغيب والعقل المقيد بذلك العلم ، مادام لا ينفع الفرار من مكافحتهما ، فإن لم نكافحهما نحن المؤمنين بالغيب فهما يكافحانا ... وبمباراة أولى وأوضح لابد أن نبتدى* الأمر بدعوة المسلم والعقل إلى الإيمان ، وهما بشرط أن لانكون نحن الداعين جبناء أسارى التقليد للغرب اللاديني من ناحية والغرب المسيحي من ناحية الذى يبنى دينه على العاطفة الروحية لا على العلم والعقل - أكثر استعدادا لقبول الحق من مدعى العلم والعقل النافلين .

فأمامنا ثلاث مسائل : وجود الله ووجود منصب النبوة ووجود معجزة النبى . فالمسألة الأولى مع كونها أساس المسألة الثانية بل أساس كل شئ .. لا يجد المتعلمون تعلماً عصرياً الاستطاعة فى أنفسهم والشجاعة لإثباتها علمياً فيغفلونها^(١) والمسألة الثالثة لا يريدون إثباتها ولا يرون حاجتهم إلى ثبوتها ، لكونها مغالطة لسنن الكون والعلم المبني على التجربة الحسية ، وهذا المانع نفسه هو المانع لثبوت المسألة الأولى . فبقيت المسألة الثانية أعنى مسألة النبوة أسوة للذين يحنون إلى الدين بعد خراب بنيانه ، فالיום يبكي على أطلالها من أراد أن يبكي على الإسلام .

ثم إن هؤلاء الذين تمسكوا بالنبوة وخلا ما يسهونه العلم يقضى على المسألة الأولى والثالثة ، لا يروقه النبوة أيضاً من دون أن يجرى عليها عملية من التعديل يجعلها ملتزمة مع العلم . فالمعملية الأولى تجريدها من المعجزات . وربما يكون هذا التجريد

[١] نعم كتب الأستاذ المقاد كتابه الحديث عن الله مسمى باسمه جل وعلا ، وهو كتاب ينقب وينقر عن منشأ فكرة الألوهية فى الإنسان ويهدف إلى الإحاطة بتاريخ تطورات هذه الفكرة ، أكثر من إثبات وجود الله عليها وحل شبهات تخالف أذهان المتعلمين المصريين حول هذا الإثبات الذى هو حاجة مصر العاجلة فى هذا الزمان بل الشرق الإسلامى كله . وإن كان الكتاب لا ينقصه أيضاً ما يتعلق بهذا الصدد عرضاً من بعض تفاسى لم نكتبم لإعجابنا به فى محله المناسب وما أخذ لم نخرج عن نقدها .

مغيراً للنبوة عن حقيقتها الأصلية وينفى المجددين عن إجراء العملية في نفس النبوة ، بناء على أن النبوة نفسها معجزة خارقة لسنن الكون ، لأنها بمعناها المعروف عند المسلمين اتصال صريح بعالم الغيب لا يشبه صلة العاقل بذلك العالم بمقله وصاحب الحدس بحدسه ، مع أن العلم وأعنى به العلم الحديث المؤسس على شهادة الحواس لا يعترف بوجود عالم الغيب .

وسفوة الصفوة من الكلام الذى يجرنا إليه تحقيق الحق في هذا المقام : أن قضيتنا نحن المسلمين القدماء الذين لم يطرأ على عقيدتهم بمحمد الله أدنى شبهة في وجود الله ورسله رغم تطور الزمان واتصال الشرق الإسلامى بالغرب ، وكذا قضية المسلمين الذين أصيبت قلوبهم بشيء من الزيغ أو على الأقل خالجهما شك في عقيدتهم وزين لهم الشيطان هذا الشك أو ذاك الزيغ باسم التجديد أو الخلاص من التقليد ، على الرغم من كون حقيقة هذا الخلاص هو الميل إلى التقليد الجديد .. خالجهما شك ، ثم حدث في نفوسهم الحنان للرجوع إلى صوابهم واطمئنانهم للذين لا يحدونهما في غير أحضان عقيدتهم القديمة .. قضية هاتين الطائفتين التى هما في حاجة إلى اكتسابها وتحليصها من شر دعاة الإلحاد الذين هم أشد المبشرين في هذا الزمان خطراً على الإسلام ، لا يدانينهم مبشرو النصرانية مكيدة وخبثاً لكونهم جاثين من جانب العلم - تتكون من مسألتين : وجود الله ووجود رسل الله . ولا ريب في أن إثبات وجود الله أهم وأقدم من إثبات وجود رسل الله ، حيث لا معنى لوجودهم على تقدير عدم وجوده أو على الأقل على تقدير الشك في وجوده ، فضلاً عن أن دليل وجوده أقوى وأظهر من دليل وجودهم ، وحسبك من الفرق أن الرسول ليس بواجب الوجود مهما صح وثبت وجوده ، ولو وجب وجوده لكان الله وكان واحداً . ولما أن الفرق بين المسألتين واضح لحد الفرق بين الله ورسله ، تجد الكثرة الساحقة من الفلاسفة الغربيين ، مؤمنين بالله وتجد أقل قليل منهم يؤمنون بالنبوات ، حتى إنهم أغفلوا مبحث النبوة في المطالب

الفلسفية وحتى إن المذهب السائد اليوم في أوساط الغرب المثقفة الاعتراف بوجود الله دون وجود الأنبياء، بل هو مذهب كثير من المثقفين المصريين منا أيضاً الذى يكونه في صدورهم ولا يظهرونه إلا إذا خلوا إلى أمثالهم . وهذا مع الفرق في إيمان المصريين منا بالله من إيمان الغربيين ، بناء على أن إيمان الأولين أضعف من إيمان الآخرين لكونهم مقلدين ولكون ميلهم إلى ملاحدة الماديين من الغربيين ، لا يقل عن ميلهم إلى المؤمنين منهم . وحالة هؤلاء المثقفين هذه التى تلازمهم هى سر ضعفهم الذى يلزمهم ويضمن لثلى الغلبة عليهم دائماً عند النقاش فى أى مسألة دينية ، فليس لهم حق التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ، وانهم فى حرمان دائم عن بركة هذين المنبعين، فإن تمسكوا بهما فقلما يستفيد المرء من تمسكه بما لا يكون ممسكاً عنده ، وفى هذا أيضاً سر كونهم يخطئون كثيراً فى فهم معانى القرآن متى وقعت آية من آياته محل الخلاف بيننا وبينهم .

ومن كل هذا الذى قلنا ، نرى تقديم مسألة وجود الله فى الإثبات على مسألة وجود الأنبياء حين كان الكتاب المصريون الموجهون أنظار الناس إلى درس حياة نبينا ، يرون أنفسهم فى غنى عن درس المسألة الأولى حتى بعد الاعتراف منهم بعدم قول العلم فيها إثباتاً أو نفيًا المؤدى إلى القول بالتشكيك الذى لا يجتمع مع الإيمان بالله . على أن المسألة الأولى التى هى إثبات وجود الله ، نحن محتاجون إليها أيضاً فى الاقتناع والإقناع بوجود رسل الله ، ولذا جعلناه مسألة ثانية وقلنا انه أصعب من الاقتناع والاقناع بالمسألة الأولى التى هى إثبات وجود الله . فكان كتابنا المصريون اهتموا بإثبات الأصعب واستغنوا عن إثبات الأسهل . وكنا قلنا عن القيام بواجب الخدمة للإسلام على هذا الشكل من الترتيب : إنه أوفق لمسلك الأنبياء وحال المسلمين فى مبدأ الإسلام ، حيث كانوا يلبون دعوة الرسول بعد اختبار صدقه فى دعوى الرسالة من الله بمعجزته التى هى وسام صدق تلك الرسالة، فيؤمنون برسائله ويصدقونه فيما بلغه

من الله ، ويكون تصديقهم هذا يتضمن الإيمان بالله أيضا ... كنا قلنا كذلك لو لم تكن نرى أولئك المصريين المشتغلين بكتابة حياة ديننا ، خصوم معجزات الأنبياء اللد ، جريا وراء العلم الحديث المادى . ولو لم تكن أيضا هذه الخصومة منهم كالسى فى هدم ما تستند إليه نبوة النبي الذى يشتغلون بالكتابة عن حياته ، فعملهم بالبناء مقترن بالهدم ، والدم الذى يقدمونه للقراء خليط بالسلم ، ليس فيه ما يسر المسلم الساهر على دينه ومنزلة نبيه ... إلا ان النبوة التى لم يبلغ دليل إثباتها فى القوة والظهور مبلغ أدلة وجود الله والتى أهلها الفلاسفة ولم يدخلوها فى المطالب الفلسفية .. أصبحت فى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بفضل حياته الناصعة المضبوطة ، ذات قوة وجاذبية حملت كتابنا المصريين الذين أخذوا يرجعون إلى رشدكم ويقومون بدور علماء الدين فى دعوة الناس إلى الرغبة فى الإسلام وتقدير نبيه الجليل قدره .. حملهم نصوع حياة هذا النبي وجاذبيتها على تقديم مسألة النبوة فى ترتيب الخدمة للدين الإسلامى وعقيدته فى عصر ساور كثيرا من القلوب الشك فى صحة جميع الأديان .

وكانت هذه الفائقة الناصعة فى حياة محمد صلى الله عليه وسلم أمرا زائدا على علامة نبوة النبي يصح عددا من الكماليات وأكل الكماليات بالنسبة إلى الضروريات التى هى المعجزات الخارقة .. لكن الكتاب المصريين تصوروا - وبالأأسف الزائد - فى النصوع والفائقة المشهودين فى حياة محمد ، مزاحمة للمعجزات^(١) ، ساعين فى تفسيرها بتجريد حياته عن الخوارق ، مع كون النبوة نفسها منها ، فأبانوا رغم اشتغالهم بكتابة حياة النبي ، عن عدم فهمهم لأساس معنى النبوة والرسالة من الله التى هى اتصال بعالم الغيب .. ومنشأ المرض كون العلم الحديث لا يقبل وجود عالم الغيب وكون السكانيين لا يزال يزاحم إيمانهم بهذا العلم بإيمانهم بالنبي .

[١] رغم ما ينفى للعادل أن يرى فيها ما يؤيد للمعجزات .

(١)٢

ومن هذا نرى الأستاذ فريد وجدى بك الذى كان قبل بضع عشرة سنة قد أنكر معجزات الأنبياء على صفحات جريدة « الأهرام » فلما أنكرت عليه هذا الإنكار أضاف إليه إنكار البعث بعد الموت لكونهما من جنس واحد يأباه العلم ولا يسيفه العقل المدرب على العلم ... نراه فى الأزمنة الأخيرة يكتب فى مجلة « الأزهر » التى يرأس تحريرها ، مقالات بعنوان « السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة » محاولا إثبات إمكان الوحي بوجود المبقرات ، ثم يتحول فينفي عن نفسه القول بأن النبوة عبقرية ، ومع هذا لا يجاوز فى إيضاحها إلى ما وراء التمثيل بالمبقرات ، تجنباً لمخالفة العلم وخرق سنن الكون ، وهو غافل أو متعافل عن أن النبوة لا تكون نبوة إلا بخرق سنن الكون التى يعترف بها العلم ولا يعترف بما وراءها . والأستاذ يجعلها أى النبوة حداً بين المبقرية والطارقة ، بل يجعلها عبقرية ممتازة خافت فى محمد صلى الله عليه وسلم كل مافى عباقرة الدنيا !... يشهد به قوله :

« ربما يخيل لمن يطلع على شرطنا إيراد السيرة النبوية على أصول الدستور العلمى أن جانب الإعجاز فيها سيكابد نقصاً عظيماً ، إن لم يغفل إعفالا تاماً ، وإغفال هذا الجانب منها يجعلها أمراً طبيعياً فتفقد النبوة صبغتها المميزة وتصبح سيرة النبي كسيرة أحد عظماء الرجال ، وليكن من الممكن إثبات أنه أعظمهم ، فتكون النتيجة سلبية من الناحية الدينية .

« نقول : لا ، فإننا إن سرنا على شرط العلم فى إثبات الحوادث وعزوها إلى عللها القريبة فإنه سيتألف من جملتها أمر جليل يقف العلم نفسه أمامه حائراً لا يستطيع تحليل صدوره من فرد واحد ، وسيكون مضطراً إلى أن يعترف بأن محمداً صلى الله عليه وسلم

[١] تحت هذه الأرقام تعد بعض الأسباب الداعية إلى تأليف هذا الكتاب .

كان عبقرى من طراز خاص فاق جميع العباقرة . وهذا كسب عظيم للقائلين بنبوته^(١) لأن العبقرية في العلم لا تعنى ما تعنيه في عرف العامة . هي في العلم ما يلحق في روع العبقرى من علم أو عمل بدون جهد منه ، فيجىء فذا لا سابقة له تتخذ مثالا لغيره ولا يمكن تقليده . فالعبقرية بهذا المعنى العلمى تقرب معنى النبوة إلى العقل^(٢) وتسوغها في العلم » (الجزء الأول من المجلد العاشر من « مجلة الأزهر » ص ١٥)

وأنا أقول كثرة وقائع العبقرية لا تصعد العبقرى إلى مرتبة النبى ولا يكون في هذه الكثرة كسب للقائلين بنبوة سيدنا محمد وإن طمع فيه الأستاذ الذى وضع نبوته موضع المساومة ، وإنما يكون فيها كسب القائلين بعبقريته الفائقة . والأستاذ يحاول أن يتصور في نبينا نبوة يسوع^عها العلم الذى لا يسوغ الخوارق والمعجزات ، فيحذف شيئاً من إعجاز النبوة ويستلين شيئاً من قسوة العلم فيتردد بين الضدين ، ويقول : « العلم حائر أمام عبقرية محمد » يعنى أنها نبوة لا عبقرية ، ثم يقول بعد أن أدخل فيه ما أدخل من التغيير : « ان العلم يسوغها » يعنى أنها عبقرية لا نبوة . ومهما أتعب الأستاذ قلته فإنه لا يستطيع أن يجعل العلم الذى لا يعترف بغير الطبيعيات يقبل النبوة التى هى حالة وراء الطبيعة ، اللهم إلا أن تكون نبوة معدلة عصرية للمسلمين المصريين ! فليقل الأستاذ بصراحة : هل يعترف العلم أى العلم الذى لا يعترف بشيء فيما وراء الطبيعة وهو يؤمن بهذا العلم وبعبدته القائل : « كل معقول لا يؤيده محسوس فلا يعتمد به » وهو يعلم انه بعبدته هذا لا يعترف بالله ولا بالنبوة ولا بالمعزة ولا باليوم الآخر كما قال معالى الدكتور هيكى باشا « ان العلم يقف حائراً أمام مثل هذه الأمور لا يستطيع أن ينفىها ولا أن يثبتها » ومعنى هذا أنه ينفى ثبوتها فلا يصدقها وينفى بذلك الدين كل المنافاة ، ولذا قال بعده : « وهو بذلك لا يعتبرها حقائق علمية » .

[١] ليتأمل القارئ القائل بنبوته تعبير الأستاذ .

[٢] المفهوم من هذا أن النبوة من غير تأويلها بالعبقرية بعيدة عند الأستاذ عن العقل .

فليقل الأستاذ فريد وجدى بك بصراحة : هل هذا العلم ومن لا يسمهم من الكتاب إلا أن يسايروه مثل الأستاذ الذى اشترط على نفسه كتابة السيرة المحمدية على أصول الدستور العلمى .. هل يعترف ومعه المسايرون بأن محمدا صلى الله عليه وسلم كان ينزل عليه ملك ويأتيه ببلاغ من الله ؟ وليقل بصراحة إنه لا يعترف به . فمن شاء فليكن مع العلم ومن شاء فليكن مع الدين .. ليقول ذلك ولا يتعلل بإخراج نبوة محمد إلى سوق السماسرة ليكسب القائلون بنبوته فى تلك السوق بعض أرباح معوضة عن فقد النبوة صبغتها المميزة .. وماذا يقول الأستاذ فى نبوة سائر الأنبياء الذين لا يجتمع فيهم ما يجتمع فى سيدنا محمد من حوادث العبقريّة ليجعل له من جملتها عبقريّة من طراز خاص ، فيخسر القائلون بنبوته على تقدير ردها إلى العبقريّة ، حتى ما يكسبه القائلون بنبوته ؟ وهذا الأستاذ الذى سيراه القارئ عندما أمعن فى قراءة مقدمة كتابنا هذا الطويلة ، فى موقف عجيب من العلم المزاحم للدين ، لا يقر له قرار أيستمر فى التمسك به أم ينبذه ويحمل عليه .. هذا الأستاذ له فى مراحل خضوعه للعلم ، كلام فى سوق المساومة على مسألة وجود الله أسخف من كلامه فى سوق المساومة على نبوة سيدنا محمد . قال فى المقالة التى كتبها للممد الممتاز من مجلة « الرسالة » المنشورة فى ٥ يناير ١٩٤٧ :

« ظل العلم من الناحية الاعتقادية عدوا للدين راميا إلى محو أثره من النفسية البشرية لاعتباره إياه عاملا انقضى زمنه وبطلت الحاجة إليه وماليس إليه حاجة مادية وأدبية كان وجوده معطلا للأخذين به من التأدى إلى السكّال المنشود .

« ولكن فى القرن التاسع عشر نفسه الذى نال العلم فيه أقصى مناه من الدين ، ظهرت آثار علمية قضت بها الضرورة كان لها أثر فى إعادة سلطان الدين إليه ، منها الحاجة الملحة إلى افتراض وجود عنصر أولى لطيف إلى أقصى حد ، مالى لا يكون كله ، وهو الأثير لا يخلو منه حيز فى الأرض ولا فى السماء ، وإنه كان موجودا من أزل الآزال

وسيبقى موجودا أبد الآباد وأنه أصل المادة ، منه نشأت وإليه تعود . وغلا الأستاذ
هيكيل المدرس بجامعة بينا من المانيا فكتب في كتابه « وحدة الوجود » « المونيسم »
يقول :

« إن نظرية الأثير إذا أخذت كقاعدة للإيمان يمكنها أن تعطينا شكلا معقولا
للدين وذلك إذا جعلنا إزاء تلك الكتلة الجامدة الثقيلة وهي المادة ذلك الأثير الموجود
في كل مكان الذى يمكن اعتباره إلها خالقا »

ثم قال الأستاذ فريد بعد نقل قول فى الأثير عن أستاذ المانى آخر يؤيد قول الأول :
« لعمري ان ماذ كرناء لريح للدين من العلم أعاد إليه ماسلبه منه من الاحترام فى نظر
أتباعه ، فكان هذا جزءا للعلم من جنس العمل على نحو لا يمكن إخفاؤه ، يجب أن
يفطن له الذين يهيمنون على العقائد »

ثم نقل أقوالا لعلماء الغرب عن المادة وعن التنويم المغناطيسى يزعمها نافعة للدين .
وقال فى مختتم مقالته : « أليس من العجيب بعد هذا أن رجال الدين لا يأبهون لهذه
الأسلحة العلمية بل يوجد فيهم من يكذبها ويعمل على ملاحقتها ! ألا فليتحققوا أن
العصر الذى نعيش فيه عصر العلم ، وأن أى مدرك من المدركات لا يمكن أن يأبه به
أحد إلا إذا جاء من طريق العلم فلا نجعل بيننا وبينه حجابا »

أقول بعد التنبيه على أن مراده من العلم العلم الحديث الذى لا يعترف بغير ماثبت
بإحدى الحواس الظاهرة والذى لا يعرف الأستاذ غيره علما ولا يأبه به : لكنه أى
الأستاذ يغفل عن أن الاعتراف بوجود الأثير ضرورة تعليل بعض ظواهر الطبيعة به
ترجع من العلم الحديث المبني على الحس إلى العلم القديم العقلى الذى يستند علماء
الدين إليه فى إثبات عقائد الدين غير محتاجين إلى شهادة الحواس كما احتاج أهل العلم
الحديث .

وثانيا ان احتمال تصور الألوهية للأثير وتصور الكسب للدين من هذا الاحتمال

لا يطوف إلا ببال الغافلين عن أول مانع في الأثير عن الألوهية وهو تركبه من الأجزاء النبي عن حاجته إليها ، فإن كان كل جزء منها إلهًا كان آلهة متعددة بعددها الذي يكاد أن يكون غير متناه ، وفسدت السماوات والأرض بها أكثر من فسادها على فرض إلهين اثنين ، وإن كان الله مجموع تلك الأجزاء كان محتاجا إلى كل جزء منها . ولهذا يُعنى العلم القديم بنفى كل شائبة التركب عن الله . ولعل الأستاذ لا يعرف هذه الأمور^(١) ولا كون الفلاسفة القدماء ينزهون الله تعالى حتى عن الأجزاء الذهنية فيقولون ان وجوده عين ذاته كيلا يكون مركبا من الذات وصفة الوجود .

وثالثا أن الأثير على تقدير وجوده يكون أضال الموجودات وأوغل الخامات في الحامية وبالاختصار أقرب الأشياء إلى التلاشي وأبدها عن العلم والقدرة والإرادة ، فكيف يكون إلهًا خالقًا للسكون ؟

نعود إلى أقوال الأستاذ في مسألة النبوة :

وانظر إلى ما قاله في الجزء الثاني من المجلد العاشر من مجلة الأزهر أى في العدد الذى على العدد المتقدم ص ٩٠ « الأدلة المنطقية على صحة النبوة وإمكان الوحي كثيرة ولكن العقلية المعصرية يصعب عليها أن تقتنع بها فإن الفلسفة المادية قد أثارت شبهات حجة على النبوات ونفت وجود العالم الروحاني وادعت أن كل ما يقال فيه ويسند إليه من أوهام الأقدمين وأساطيرهم ، وقد تمسرت هذه الفلسفة إلى عقول الناس من مصادر عدة ، لذلك وجب على من يعالج مسألة النبوة والوحي أن يعدل عن الاستناد

[١] كما أنه كان الزهاوى الشاعر المراقى لا يعرفها ، وقد كتب عنه إلى مجلة « الرسالة » عدد ٧٤٥ من الموصل بتوقيع لؤى النورى أنه كانت يعتقد أن الله هو الأثير لقوله :
مالسكل الأكوان إلا إله واحد لا يزول وهو الأثير

أقول ولعل السكاتب من الموصل أيضا لا يعرف ما فى الأثير على تقدير وجوده من موانع الألوهية حيث احتاج إلى استفتاء الأستاذ العقاد .

إلى الأدلة المنطقية، إلى الأدلة العلمية بشرط أن تكون مبنية على أمور يقينية مرسى على بحثها الأسلوب العلمى . »

كان الواجب على من يعالج مسألة النبوة والوحي نظراً إلى قول الأستاذ أن يعدل عن الأدلة المنطقية إلى الأدلة الغير المنطقية ومن هنا تبتدى عقلية الأستاذ غير المنطقية ولذا قال بعده : « وهذه محاولة عنيفة تستدعى كثيراً من الجهد يبذل فى سبيل جمعها وترتيبها وتهيتها للدفاع عن النبوة » .

أقول من الصعب فى الحقيقة إثبات مسألة بأدلة يلزم أن تكون علمية ولا تكون منطقية فى وقت واحد ، بل ان هذا لا يمكن حتى بعد بذل الجهود التى ذكرها ، لأن الدليل إن كان علمياً كان منطقياً ، وإن لم يكن منطقياً لم يكن علمياً أيضاً . وكان الواجب على الأستاذ الذى يرى التعارض بين العلم والمنطق مع الرأى من ذوى العقلية المصرية الذين عزا إليهم الاستخفاف بالأدلة المنطقية ، وهو واحد منهم ، لكنه يتظاهر كالحاكمى عن الآخرين اتباعاً لقانون الدس فى ترويج الأباطيل كما أشار إليه فى مقالة من مقالاته عازياً ذلك أيضاً إلى غيره ... كان الواجب عليه أن يبطل أحد المتعارضين من العلم والمنطق بصراحة ، ولو كنت مكانه لما ترددت فى إبطال العلم المخالف للمنطق الذى وضعه العقلاء لتمييز صحيح الفكر من سقيمه . لكن الأستاذ يفضل الانحياز إلى جانب العلم وإلى جانب الذين تسربت إلى عقولهم الفلسفة المادية ولم يعرفوا المنطق عن كتب . وأى مزىة لعلم لا يخضع للمنطق فتخضع له عقول الناس ؟ فهل مزىته فى معارضته للدين وفى معارضته للمنطق مع الدين ؟ وأصدق القول ان الانحياز فى تدقيق المسائل إلى مالا يتفق مع المنطق شئ مضحك والتبجح به جهل فاضح ^(١) . ومن الأمور

[١] وقد ظهر قبل سنين ملحد باسم اسماعيل آدم ونشر كتاباً باسم « لماذا أنا ملحد ؟ » فحاول الأستاذ فريد وجدى بك حل شبهة الرجل بما كتبه فى مجلة الأزهر مع أن النجاح فى حل شبهته كان متوقفاً على الأدلة العقلية المنطقية التى يناديها الأستاذ بدل أن يعرفها . ويأتى بحث هذه المسألة أيضاً فى كتابنا هذا إن شاء الله .

المشرقة لكتابي هذا أنه يتولى الدفاع عن حقوق المنطق كما يتولى الدفاع عن الدين .
وعندى أن محاولة تأليف النبوة بالعلم الذى لا يقبل وجود شيء فيما وراء العالم المادى
المحسوس ولا يعترف حتى بوجود الله ، من قبيل طلب المحال . ففضلا عما فى مسلك
الأستاذ من عيب التنازل عن المنطق فلا بد إما أن يكون العلم الذى يريد أن يتمشى
معه ، بأبى الاعتراف بالنبوة مصرأ على إباته وإما أن تخرج النبوة عن حقيقتها . وكيف
يقر العلم برسالة من الله وهو لا يقر بوجود الله ؟ ثم ما حاجة الناس إلى رسول من الله
إن لم يكن لهم البعث بعد الموت ؟ كما هو مذهب الأستاذ تمشياً منه أيضاً مع العلم .
وسيجيء الكلام فى مذهبه هذا ، كما أن للكلام منا على مقالاته المعنونة « السيرة
الحمدية على ضوء العلم والفلسفة » بقية تأتى فى محله .

الحاصل أن أصحاب العقليات الحديثة المتمسكين بالعلم المادى مع الاعتناء بسيرة
محمد صلى الله عليه وسلم ونبوته ، لا يستقيم لهم الطريق كما لا يستقيم للجامع بين الضدين ،
وماذا قد يكون مأرب المؤمنين بالعلم المعارض للإيمان بالغيب المستهينين بالأدلة المنطقية
وفلسفة ماوراء الطبيعة . . ماذا قد يكون مأربهم فى سيرة محمد ونبوته التى هى اتصال
بعالم الغيب عالم ماوراء الطبيعة وبالعالم الغيب والشهادة ؟ إلا أن يكون مأرباً قومياً
للباحث العربى فعمد ذلك يجوز أن لا براعى المنطق فى مبحث النبوة كما لا براعى فى
المباحث القومية .

فالتعلمون المصريون الذين أبعدهم عن الدين ما اقتبسوه من علم الغرب المادى ثم
أحسوا بحاجة الرجوع إلى حضارة الإسلام فحاولوا أن يجدوا ما فقدوه من لذة الإيمان
والاطمئنان فى مطالعة حياة نبينا .. تراهم لا يزالون تحت سلطة العلم الذى أضلهم الطريق
أولاً ، حيث أنكروا المعجزات فى حياة النبي الذى يؤملون فى مطالعتها هداية لهم إلى
الحق بعد الضلال ، فحرفوا تلك الحياة عن حقيقتها وأفسدوها بدلا من أن يستفيدوا

منها الصلاح والهداية لأنفسهم . بل أفسدوا نبوة النبي ساعين في تحويلها إلى العبقرية ليمسكهم الاعتراف بها ، فأصبح مثلهم كمثل مريض أفسد الدواء عند التداوى به .
وقد كنت رأيت في عدد مجلة « الرسالة » الممتاز الخاص بأول العام الهجرى ١٣٥٨ مقالة للدكتور زكى مبارك بعنوان « النواحي الإنسانية فى الرسول » كان يقول فيها بعد أمور كثيرة نرجى ذكرها إلى الباب الثالث من هذا الكتاب « إن محمدا حرم نفسه الشهرة بإجادة البيان وبفضل الكتاب الذى بلغه عاش البيان » فإذا الذى يعنيه الرجل : أيمدح سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم بعدم الجرى من وراء الشهرة والظهور أم يرميه بالكذب فى نسبة القرآن إلى الله ؟؟

وكان أصل الضلال فى عدم إيمان هذه الطائفة المتعلمة بالدين عدم إيمانهم بالأمور الغيبية التى فى رأسها وجود الله ثم وجود الأنبياء المتميزين عن الناس بمعجزاتهم ، ونبوتهم كمعجزاتهم من الغيبيات التى لا يعترف بها علمهم الحديث . فهؤلاء المتعلمون النادمون على ما فقدوا من حضارة الدين وحلاوة اليقين لن يصلوا بأى وسيلة مباركة إلى ما يشدونه من استدراك مافات ، ماداموا ينكرون الأمور الغيبية . ومعناه أنهم ينكرون العقولات ولا يؤمنون بغير المحسوسات ، ولعدم إيمانهم بغير المحسوسات لا يؤمنون أيضاً بالمنطق ويكون إيمانهم به وبالعقل مشوباً بالاستخفاف . وهذا هو الضلال البعيد والخسران المبين . فإذا كان داء المرء فى عقله ومنطقه فلا دواء له ، وأشد أدواء العقل والمنطق يتجلى فى الاستخفاف بهما وحصر الثقة فى المحسوس .
فالواجب عليهم قبل كل شئ أن يقيموا أود عقليتهم التى جعلتهم لا يؤمنون بغير المحسوسات وينتهوا إلى مافى علمهم الذى ينههم عن الإيمان بالغيب مطلقاً ، من الجهل .
ونحن الذين نأمل كل خير وبركة - كما قلنا من قبل - فى درس حياة نبينا التى اتخذها كتاب مصر المصريون موضوع كتاباتهم فى الأزمنة الأخيرة لسد الفراغ

الحاصل في قلوب الناس من ضعف العقائد الدينية التي حاربها بين تصريح وتلميح هؤلاء الكتاب وحلفاؤهم من العلماء الأزهريين حتى حصل الضعف ... نحن الذين نأمل كل خير وبركة في درس حياة نبينا ، لا نأمل من أقلام هؤلاء الدارسين خيراً إلا ومعه شر أكبر منه .. خير يسر المسلم الذي وصفه الحديث النبوي بأنه غر كريم ، يسره رواج سيرة النبي بين حملة الأقلام وبنيمه عن المكائد الزمنية الموجهة إلى الإسلام ، وشر يهمس في أذن المتعلم الناشئ بأن نبيك ليس نبيا وإنما هو عبقرى من الطراز الأول ونحن عابرة الكتاب نظلمك على هذه الحقيقة الخفية التي اكتشفها العلم الحديث الغربي .. نظلمك عليها بين تصديق لنبوته وإنكار لمجزاته غير القرآن . وأنت تفهم معنى معجزة القرآن مع إنكار المعجزات !.. هذا ما يرى إليه الكتاب المصريون لاسيما وقد نقلنا من إفشاءات الأستاذ فريد وجدى بك عن نوابغ الكتاب والشعراء في الشرق الإسلامى بعد اتصاله بالغرب وعلمه الحديث أنهم يستبطنون الإلحاد وأنهم يهيمون الأذهان لقبوله دسا في مقالاتهم وقصائدهم .. وكان الأستاذ نفسه يلعب في هذه الإفشاءات الهامة دور شاهد الملك ، وإفلاتها من قلمه وقع قبيل توليه الوظيفة الأزهرية وسيجيء الكلام مفصلا على هذه المسألة .

وقد علمت أن مبدأ الضلال إنكار الأمور الغيبية وأوضح مايدل على وجود عالم الغيب هو المعجزة التي تحرق سنن الكون والتي نعتبر الاعتراف بها علامة الاعتراف بالأديان وإنكارها علامة لإنكار الأديان . ولشدة اتصال المعجزة بالدين نرى الكتاب المصريين الذين نحن مضطرون إلى الشك في دياتهم ، ينفون المعجزات ويخصون هذا النفي بعناية بالغة ، حتى إن مؤلف « حياة محمد » وضع جميع كتب الحديث والسيرة وجميع ما فيها من الأحاديث المنسوبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم تحت شبهة الكذب ، لئلا يصدق الروايات الواردة في تلك الكتب عن معجزات نبينا الكونية أى المخالفة

لسنة الكون كاستطلع عليه في الباب الثالث^(١). ومن قرأ ما كتبه الدكتور شبلى شميل مقدمة لتعريب كتاب بوختر في شرح مذهب داروين وهو يسمّى الإيمان بالدين إيماناً بالمعجزة المستحيلة . ولكن الناقل لا يعرف أن المعجزة مهما كانت مما تستبعده طبيعة الإنسان المرتبطة بالعادات والمحسوسات فلا يكون استبعادها بدرجة الإلحاد الذى تساط على ذهنه وأقنعه بوجود هذا الكون من غير موجد ولا سيما وجود هذا الكون المنظم من غير موجد حكيم علم .

ثم إن من أخطاء الرجل - أعنى شبلى شميل - الفاضحة أنه يرى في الإلحاد سعادة الدنيا مع أن السعادة بعيدة عن الدنيا التى لا تكون فيها مخافة الله ، لكون الأخلاق التى تتوقف سعادة الدنيا على سيادتها لا تجد ضمناً أقوى من هذه المخافة ، حتى قال الفيلسوف «فيخته» : «إن الأخلاق من غير دين عبث» وقد بنى الفيلسوف « كانت » إثبات وجود الله على دليل الأخلاق كما يأتى بيانه مع الكلام عليه . وقال « كلفين »

[١] مما يسرنى ذكره لإعطاء كل ذى حق حقه ، أن الدكتور هيكسل باشا مع كونه فى غاية البعد عن الحق نظراً لاصراره على إنكار المعجزات وكونه فى مرتبة واحدة مع الأستاذ فريد وجدى بك فى هذه المسألة .. يفترق بالنظر إلى رأيه فى مسألة النبوة ، عن الأستاذ فريد وجدى ويقترب الى جانب الحق لأن الأستاذ لا يقبل النبوة الا بعد التلاعب فى تصويرها وإخراجها عن حقيقتها ، فلا حاجة للنسبى فى مذهبه إلى تلقى الوحي من الله بل يكفيه وحى عقله الزائد الى حد الصغرية المتنازة ، كما عرفت رأيه فى نبوة سيدنا محمد . أما معالى هيكسل باشا فهو مجتنب عن إنكار الوحي ومستعد لقبوله فى شكله المعروف عند المؤمنين بالأنبياء ، وهو مع هذا حائر فى تأليفه مع العلم الذى لا يعترف بالوحي كسائر الغيبات والذى يؤمن به معاليه ويريد أن يجمع بين إيمانه بالعلم وإيمانه بالوحي فلا يستطيع ، كما يفهم من مقدمة كتابه . وكان تمام الحق أن يبت فى تخطيطه نظر العلم الى الوحي ، بعدم القبول ، وقد أوشك معاليه أن يصل الى هذا التمام فى قوله - هذه الله الى مثله فى مسألة المعجزات - : « وقد يصل العلم الى ادراك بعض الحقائق ومعرفة سننها وأسرارها بعد أجيال وقرون ، وقد يظل بعضها لا يتناوله العلم حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وهى مع ذلك حقائق يقينية تهتدى قلوب المؤمنين الصادقين إلى حقيقتها على حين تظل قلوب عليها أفعالها جاهلة بإياها لفعلتها عنها » حياة محمد ص ٤١ .

المصلح المشهور الذى كان هو و « لوتر » سبب وجود البروتستانتية : « ان الملك الذى لا ينشد مجد الله فليس بالذى يقيم مملكة وإنما يقيم لصوصية . »

٣

ومما اطلعت عليه بعد مهاجرتى إلى مصر أنه جرت مناظرة قلمية قبل أكثر من أربعين عاما بين العالم الشهير الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية وبين الأستاذ فرح أنطون منشىء مجلة « الجامعة » فى ست مقالات من الطرفين^(١) فجرت الشيخ المفتى إلى القول بأن الدين المسيحى لا يتفق مع العقل والأستاذ المنشىء إلى مقابلته بإدعاء: « أن كل دين كذلك لافرق فيه بين المسيحية والإسلام وغيرهما ، لأن الدين هو الإيمان بخالق غير منظور وآخرة غير منظورة ووحى ونبوءة ومعجزة وبعث وحشر وحساب وثواب وعقاب فى الجنة والنار وكلها غير محسوسة ولا معقولة . ولهذا كان العقلاء من الفلاسفة ورجال الدين فى كل ملة ينادون بإبعاد العقل عن الدين . بل ان الأديان تخالف أيضا العلم الذى يجب أن يوضع فى دائرة العقل لكون قواعده مبنية على المشاهدة والتجربة والامتحان . وأما الدين فيجب أن يوضع فى دائرة القلب لأن قواعده مبنية على التسليم بما ورد فى الكتب المقدسة من غير تمحيص فى أصولها »

ثم قال الأستاذ فرح : « إن العدو الحقيق للإسلام والمسيحية واليهودية والبوذية والكونفوشيوسية والوثنية فى هذا الزمان لم يعد منها بل صار خارجا عنها ، فهو عدو جديد أخرجه التمدن الجديد . وهذا العدو اللدود تطربه أصوات تنازع الأديان بعضها مع بعض ويشلج صدره مرورا كلما رآها يكفر بعضها بعضا ويطعن بعضها على بعض ، وهذا العدو الذى يهددها على السواء والذى إذا استطاع هدم واحدة منها هدم معها الباقيات بلا مراء ، هو المبادئ المادية المبنية على البحث بالعقل دون سواء »

[١] والمقالات جميعها الأستاذ فرح وكتبها فى باب الردود من كتابه « فلسفة ابن رشد »

وأنا أقول كلام الأستاذ فرح مناظر الشيخ محمد عبده يستهدف لانتقادات واسعة في أمكنة مختلفة من كتابي هذا ، حتى أني قلت في أحدها انه أى الكتاب استثناف المناظرة التي جرت في الماضي بين الشيخ محمد عبده والأستاذ فرح أنطون^(١) . وسلفاً أقول هنا وأزيد على قول الأستاذ الذي تعزى بمعادة العلم الحديث المادى للإسلام كماداته للمسيحية : إن ذلك العلم أضرباً بالإسلام أكثر من المسيحية وإن كان الإسلام المتضرر إسلام المتعلمين المحدثين المكتفين في تعلمهم بالتطفل على الغربيين . ولم يكن السبب في هذا الفرق بين المسيحية والإسلام من ناحية التأثير والتضرر من العلم الحديث ، زيادة الإسلام في الابتعاد عن العقل الذى يلزم ذلك العلم ، بل كون الإسلام بالعكس متمشياً مع العقل ومبنياً في أصوله على أدلة عقلية .

وتوضيحاً لهذا رأيت أن أنقل القسم الأول مما كتبت في التقرير المتقدم إلى وزارة الأوقاف المصرية لما اجتمعت قبل سنين رجالاً من المفكرين باسم « لجنة النهوض بالمساجد » تحت رئاسة الوزير ودعيتني عضواً فيما بينهم :

حضرة صاحب المعالي الأستاذ عبد الحميد عبد الحق بك .

أنشرف بعرض آرائى الخاصة في إنباض المساجد على الوجه الآتى :

١ — لفتنى ماسمته في خطبة أقيمتوها في ديوان الوزارة وفتحتم بها الجلسة الأولى للجنة النهوض بالمساجد ، من أن مساجدنا لا يرى فيها الباحث عن الدين يُسمون الطبقة العليا مابحث عنه ، في حين أن معابد مواطنينا اليهود والنصارى لا يقل

[١] وإن كان من ناحية أخرى استثناف ما بين الشيخ محمد عبده وبين مشايخ الأزهر القدماء من الخلاف الذى انحاز فيه المنفقون المصريون الى جانب الشيخ وخذلوا خصومه .. في حين أنهم خذلوه في اختلافه مع الأستاذ فرح أنطون وانحازوا الى الأخير .. وكل هذا ينجلي للقارئ النبه عند التغفل في أعماق الكتاب .. وينجلي أيضاً امكان القول بأنه أى الكتاب يتلخص فيما عدا بحث « وحدة الوجود » ومسألة فصل الدين عن الحكومة ، بهذين الاستثنافين .

فى المصلين بها أشراف القوم وكبار المالىين . وقد بنيتم معاليكم هذا القول على مشاهداتكم ، كما أن حضرة الدكتور منصور فهمى بك (باشا) من أعضاء اللجنة أيد قول معاليكم بما رآه فى مدن أوربا وقراها من عمارة المعابد ، سواء بمحضارها أو بجمع أسباب الجمال فى داخلها وخارجها ومحيطها .

وفى الحقيقة أن مساجدنا نحن المسلمين نراها مقفلة من علىة القوم وخاصتهم مثل رؤساء الدواوين وكبار المثقفين ، لا يتردد إليها غير العامة والفقراء والقليل من تلامذة المدارس وصغار الموظفين . وهذه الحالة عميقة السبب لاستطيع لجنة النهوض بالمساجد علاجها . وأصل المرض المؤدى إلى ما ترى من هذا البون الشاسع بين مساجدنا ومعابد أهل الملل الذين نساكنهم فى بلاد الشرق أو نطلع على أحوالهم فى الغرب ، ينتهى إلى أمرين :

الأول أن المسيحيين متغلبون اليوم فى الأرض ، والمعروف أن الغالب يكون له ولن يمت إليه بصلة ، كرامة النفس التى توحى إلى صاحبها أن يكون دينه أيضاً محفوظ الكرامة . فهو بدرى جيداً أن لا كرامة لنفس من لا كرامة لدينه ، من حيث أنه أقرب شىء إلى نفسه . وحسب صاحب الكرامة اعترافاً بهذا القرب كونه منسوباً إلى الدين الذى يدين به فى التقسيمات الرئيسية الأولية للأمم . أما اليهود فلمهم سيطرة مالية على العالم إن أعوزتهم سيطرة الحكومة ، وكلاهما من عوامل الغلبة التى تدور معها كرامة النفس والدين . فخلاصة الكلام أن المسلمين فقدوا كرامة دينهم فيما بينهم ، منذ فقدوا كرامة نفوسهم بانتزاع قوة السلاح من أيديهم . ومهما كان خلل معابدنا عن مغريات النظافة والجمال دخل فى إعراض كثير من الناس عنها ، فإن التقدير الصحيح فى منشأ الأمر هو ما قلنا ، بناء على أن المعرضين عن المساجد بالمرّة لا يصلون

في بيوتهم أيضاً . فالإعراض عن الصلاة في المساجد ناشئ* من الإعراض عن الصلاة نفسها التي هي عماد الدين الإسلامي .

الثاني - وهو المهم - أن الإعراض عن المساجد يبدو على الأكثر كما قلنا من كبار المسلمين ويكون أكثر هؤلاء الكبار في زماننا من المثقفين ثقافة غربية ، ثم يسرى المرض من هؤلاء إلى غيرهم ، فيصيحون شر قدوة للناس وبأخذ المرض أو سيأخذ شكل الوباء العام . أما إعراض المثقفين عن المساجد فسبب هذا المرض فيهم أعمق مما يظن في بادئ النظر ، ومعنى هذا أن ضعف رغبتهم في حضور المساجد ليس راجعاً إلى ضعف الرغبة في الصلاة فحسب ، الناشئ* من تكاسل النفس أو ضعف كرامتها كما قلنا في الفقرة السابقة ، بل إلى ضعف في العقيدة أيضاً مبني على الشك في صحة الدين الذي ورثوه من آبائهم . وهم وقعوا في هذه الحالة بعد اتصالهم بعلوم الغرب التي لا تؤمن بغير المحسوسات . ولذا قال الله تعالى في كتابه : « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله » أقول قولي هذا بالصراحة التي جُبلت عليها ، ومن هذا قلت أولاً إن لجنة النهوض بالمساجد لا تستطيع علاجه ، فهل في وسعها أن تقترح على الحكومة سن قانون يحتمُّ على رؤوس الدواوين ، وفيهم الوزراء المسلمون ، أن يحضروا صلوات الجمعة على الأقل ويضطرُّ الغائبين من غير عذر إلى الاستقالة من مناصبهم ؟ فعند ذلك تكون هذه اللجنة لجنة النهوض بالمساجد في معناه الصحيح ، ويتحقق كون هذا النهوض مقترناً بإرادة حقيقية من الحكومة .

وإلا فما دام الشك في قلوب المثقفين المصريين المؤمنين بالعلم الحديث فوق إيمانهم بالدين ، ومادمت لا تخرجون الشك من قلوبهم أو لا تدخلون فيها الخوف على مناصبهم ، فلا يستطيعون أن تدخلوهم المساجد . والاعتناء بالمواعظ والخطب في المساجد ، الذي كان موضوع البحث في الاجتماع الأول للجنة ، لا يجدى نفعا في البعيدين عن المساجد وعن سماع تلك الخطب والمواعظ ، للسبب المذكور الذي جعلهم معرضين عن

المساجد والصلاة . بل لا تنفع فيهم الخطب والمواعظ ولو سمعوها في غير مناسبة الصلاة بالمساجد ، وإنما تنفع فيهم الحاجة في الصحف والمجلات والكتب إلى أن يقلع الشاكون عن عقليتهم الباطلة القائلة بأن الثقافة الحديثة الغربية من حق حاملها أن يشك في دينه .

بق هنا سؤال : وهو لماذا تذهب الثقافة الحديثة بحاملها من بعض المسلمين إلى ضعف في الدين ، ولا تذهب بالمتقين من اليهود والنصارى إلى هذه النتيجة المشؤومة فلا يكون العلم خطراً على دينهم ، ومن هذا لا نراهم معرضين عن معابدهم على خلاف ما نرى في المسلمين ، حيث يبعدهم العلم بمعناه العصري عن المساجد والصلاة والصوم والعقيدة الدينية ؟

والجواب أن اليهود أصحاب المبادئ الراسخة المحافظون على قوميتهم ودينهم الذي مزجوه بقوميتهم كل المزج ، بل أنهم أفنوا قوميتهم في دينهم فلا يوجد لهم اسم من أسماء القوميات يُدعون بها ويمتازون عن غيرهم من الأمم إلا اليهود، أينما كانوا ومهما اختلطت دماؤهم بدماء الأمم المختلفة . فعنصر الدين اليهودي يبق فيهم ويحتفظ به رغم كل انقلاب سياسي أو ثقافي في العالم . بل إن اليهود على ما سمعت من الواقفين على أحوالهم لا يعملون أى دعاية لترغيب الأجانب في دينهم ، فلا يعتنق اليهودية من يمتنقها من غيرهم إلا على خلاف إرادتهم ، لأنهم ينظرون إلى دينهم كأعز ما يملكونه فيفارقون عليها من دخول الأجنبي .

والنصارى يعتمد دينهم الحاضر على العاطفة^(١) ولا صلة له بالعلم تأييداً أو نقضاً . فلم يكن العلم مؤيده بأدلتة القديمة، حتى ينقلب ضده بأدلتة الحديثة المبنية على التجارب

[١] ولذا جعل له الأستاذ فرح أنطون المار والآق ذكره، دائرة القلب دون العقل .

الحسية . لكن الإسلام ليس كذلك ^(١) ، فقد كان له في الماضي أدلة من العلم مبنية على العقل والمنطق الذي يستخف به اليوم بعض المتعلمين منا بحجة أنه منطق تجريدي ! ومنذ أصبح العلم في الغرب والشرق المقلد له لا يعترف إلا بما يثبت وجوده بالتجربة الحسية ويقول إن كل معقول لا يؤيده محسوس فلا يمتد به ، ظن كثير من الناس الذين هم في عقلية المتعلمين المذكورين المستخفين بالمنطق التجريدي : أن الإسلام فقد مستنده من العلم ، وإن شئت فقل ظنوا أن العلم الذي يستند إليه الإسلام أصبح لا يقيم له وزن ، وربما ظنوا الظنون بالعقل أيضاً فرجموا عن ثقتهم بالعلم المبني على العقل . وهذا خطأ عظيم ناشئ من طغيان التجربة على المعقول الضعيفة ^(٢)

انتهى ما أردت نقله من التقرير الذي قرأته في لجنة النهوض بالمساجد بوزارة الأوقاف المصرية . والجملة الختامية منه أعني بها قولي : « وهذا خطأ عظيم ناشئ من طغيان التجربة على المعقول الضعيفة » يشرحها هذا الكتاب إن شاء الله .

نعود إلى بحث الأستاذ فرح أنطون مناظر الشيخ محمد عبده : وكانت فيما ادعى

[١] ليس معنى قولي هذا ترجيح بناء الدين على العواطف القلبية كما وقع من بعض الأساتذة المصريين بمصر وسيجي الكلام عليه .

[٢] ولم يسلم بعض علماء الدين بمصر منذ عهد قريب من تأثير هذا التيار ، ففسروا نصوص كتاب الله وسنة رسوله المتعلقة بالمغيبات والتي لا تتفق مع العلم الحديث ، بما يخرجها عن ظواهرها ، وفتحوا أمام حملة الأفلام باباً واسعاً لتأويل النبوة بالعبرية ورد معجزات الأنبياء المخارفة للعادة ، إلى العاديات . وكان هذا بمثابة الغاء الفارق بين رسل الله وبين عقلاء الناس التطوعيين بإصلاح المجتمع بدافع من جبايتهم ، بإلغاء الرمز الحقيقي الذي ميز الله به رسله عن غيرهم كما يميز الملك مندوبه بمرسومه الخاص ، وهو المعجزة المخارفة . فأصبح بعد ذلك الوحي والملك والكتاب المنزل بواسطة الملك كلها ملغاة ، وعاد عدم تصديق الأنبياء في دعوى رسالتهم من الله : لا فرق بينه وبين عدم تصديق المصلحين من الناس الممتازين عن الجمهور بقوة عقولهم فقط ، إن لم يترتب على عدم التصديق هذا عقاب في الدنيا فلا معاقبة عليه في الآخرة قطعاً . فبهذا الشكل الذي أوضحته ذهب دين الطبقة العليا أدراج الرياح .

هذا الأستاذ في مقالاته حاجة الأمم في إصلاح أحوالها إلى فصل الدين عن الدنيا وعن سياسة الحكومات ، وقد عزا رقي أوروبا في العلم والمدنية إلى العمل بهذا الفصل كما رأى سبب تأخر المسلمين في إهمال العمل بمبدأ الفصل . ومناظره الشيخ ناقشه في هذه المسألة أيضاً ولم يوافق في الظاهر على رأى الفصل ، أما تأخر المسلمين فأجاب عنه بحمل تبعته على جمود علماء الدين .

وعلى ضوء هذه المناظرة وضع الشيخ محمد عبده كتابه « الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية » وبالنظر إلى شهرة الكتاب وتأثيره في شهرة واضعه يُظن أنه غلب خصمه في تلك المناظرة ، لكن الواقع الذي نشاهد آثاره اليوم في جو مصر الثقافي غلبة فكرة الإلحاد الدالة على غلبة الأستاذ منشىً بمجلة « الجامعة » في المناظرة على الشيخ المفتي . فيفهم أن الشيخ اكتسب الشهرة وخصمه اكتسب القضية المنازع فيها ، فمن الذي يستحق منهما لقب الغالب إذن ؟ ولو كان الشيخ هو الذي اكتسب القضية ضد مناظره لما ارتكزت في مصر اليوم عقلية اعتبار الدين في جانب والعقل والعلم في جانب مقابل ، ولما سرت هذه العقلية حتى إلى الأزهر ، وقد ذكرنا وسنذكر له من الأمثلة ما يقتنع به القارىء إن شاء الله .

ثم لو كان محمد عبده هو الذي كسب القضية ضد مناظره لما اجتراً الأستاذ فريد وجدى الذى لا بد أن يكون في طليعة الشاهدين لتلك المناظرة أو على الأقل المارفين بها ، على نشر قوله الآتى في رقم (٥) على صفحات « الأهرام » والذى أسفر عن قضاء العلم على الأديان كلها كما يراه الأستاذ قرح ، وعن استيلاء الإلحاد على نوابع الشرق الإسلامى .

أما النهضة الإصلاحية المنسوبة إلى الشيخ محمد عبده فخلاصته أنه زعزع الأزهر عن جهوده على الدين فقرَّب كثيراً من الأزهرين إلى اللادينيين خطوات ، ولم يقرب

اللا دينيين إلى الدين خطوة . وهو الذى أدخل الماسونية فى الأزهر^(١) بواسطة شيخه جمال الدين الأفغانى ، كما أنه - على ما يقال وسيأتى إيضاحه فى هذا الكتاب - هو الذى شجع قاسم أمين على ترويج السفور فى مصر .

فالشيخ ، بدلا من أن يتغلب على مناظره ويهزم جيوش المتفرنجين الكافرين وراءه ، هزم جيش علماء الدين الذى هو جيشه نفسه ، بطول ما رماهم به من وصمة الجود ، وبفضل ذلك حاز مكانة عظيمة عند المتفرنجين طبعاً وعند المهزمين تبعاً^(٢) . قال الأستاذ محمد صبيح فى كتابه « محمد عبده » (ص ٨٦ - ٨٨) :

« لم يتخرج محمد عبده طول حياته فى أن يسمى إلى المارك العقلية والعلمية يخوض غمارها ، وهو يعلم أن سلاحه بئار وأنه سيوقع الرجفة فى قلوب خصومه ويفتح أعين الناعمين من أبناء الأزهر وأجياله المتعاقبة ...

« فى أثناء درس من دروس التوحيد التى كان يلقيها قال لطلبته : « إنكم تعلمون أن الإيمان بوحداية الله تعالى هو الأساس الأعظم لدين الإسلام . ولذلك جعلت كلمة التوحيد عنوان الدخول فيه ، حتى إذا ما قالها المشرک فى ميدان القتال وجب الكف عنه . وسيكون موضوع درسنا الآتى إقامة البرهان على هذه العقيدة

[١] روى ثقة عن أستاذ من المدرسين فى إحدى كليات الأزهر الذى كان من أقرب أصحاب المرحوم الشيخ بحيث أنه استفسر الشيخ ذات يوم من أخريات أيامه عن الماسونية ، فنهده بشدة وتحذير ينان على التأسف والتندم على ماسبق له من الانقياد إليها . ثم لقيت أنا هذا الأستاذ يوما من الأيام فسألته عما جرى له مع الشيخ المرحوم فأجاب بتصديق ماسمعه أولا وقتلته آنفا .

[٢] وكان من مضار الشيخ بالاسلام وعلمائه الناشئين بعده أن حملة الأقلام عصر المنحرفين عن الثقافة الإسلامية ، لما أكبروا الشيخ وآراءه الشاذة - التى انتفدت فى هذا الكتاب - وأوجدوا له من السمعة العلمية السامية ما لا يزال طنينه فى أذن الشرق الإسلامى - ولا شك فى تأييد القوة الماسونية له - كانت ذلك حثا للذين يحبون الشهرة والظهور من شباب العلماء وكهولهم ، على نيل ما أرادوه بواسطة الشذوذ فى الرأى والتزلف إلى الكتاب المتفرنجين بل الانتهاء إلى الماسونية .

وإني سأحضر معي عند المجيء إلى هذا الدرس ١٠٠ جنيه وأعدكم بأن من أقام أماني البرهان على الوحدانية قبل أن يسمعه مني وأمكنه أن يجيب عما أوردته عليه من الاعتراض جواباً صحيحاً فإني أدفع إليه هذا المبلغ ، وليبلغ الشاهد منكم الغائب .

« ألقى الشيخ محمد عبده هذه القنبلة متحدياً الأزهريين وشيوخهم وشبابهم قدماءهم ومحدثهم فدوت في رحابه دويكاً شديداً . أذهلت الناس كلهم ، وأيقن الجميع أن حدثاً من أعظم الأحداث في تاريخ الفكر الإسلامي يوشك أن يحدث أو هو حدث فعلاً قبل المناظرة وقبل تأثيل فصولها . »

ثم قال الأستاذ المؤلف : « ما معنى التحدى من هذا الشيخ المتعقب ؟ . معناه أنه لا يوجد بين علماء الأزهر طبعاً أن يجادل عن عقيدة وحدانية الله تعالى جدلاً قوياً يرد كل شبهة وينفي كل اعتراض . معناه أن الأزهر بعلومه وشيوخه ، ومتونه وشروحه لا يصلح لإظهار مسلم مستنير يجابه الجدل بقوانينه الحديثة ويفتح عينيه بثبات أمام أضوائه . »

« وكان من المنتظر في الموعد المضروب ، أن يفد عالم أو علماء يتصدون للرد والجواب ، لا طمعاً في الجنيهاً المئة ولكن رغبة في إزالة شبهات الجهل التي ألصقتها بهم الشيخ محمد عبده ، وقد ازدحمت ساحة الأزهر بخلق عديد من كل لون ومثال . وأخذ الشيخ مجلسه وقال :

« هذه هي الجنيهاً المئة فن كان مستعداً لإقامة البرهان قبل أن يسمع مني فليتقدم . »

« وكان صمت وطال الصمت . وكان انتظار وتقليب البصر في وجوه من حضر . . ولكن لم ينهض للمبارزة فارس من فرسان العلم . »

ثم أطرى الأستاذ صبيح في البرهان الذي أقامه محمد عبده فارس مضمار العلم الوحيد ،

بين ظهراني علماء الأزهر الذين أصمتهم التحدى .. أطرى البرهان وأطرى مافى تقريره من البلاغة من غير نقل كلمة عن نص البرهان المعجز بمادته وصورة تقريره ، كما هو عادة أكثر المؤلفين بمصر في العلم والعالم ، يكتبون حكاية وترجمة أو مقبلة ولا يدخلون في مسائل العلم .. ذكر هذا المؤلف أيضا جميع ماحدث في مجلس التحدى واستحق الذكر من حركات الشيخ القاهر وسكنات شيوخ الأزهر المقهورين ، وإنما لم يذكر شيئا من لب المسألة العلمية ، ونسى فيما ذكره من الحركات والسكنات أن ينص على انتهاء الجلسة بأن قام الشيخ ملقيا جنيهاته التي وضعها على النصبة إلى جيبه ، وخرج يمشي مشية الظافرين .

والذى فعل الأستاذ في السطور المنقولة عن كتابه عبارة عن إصغار علماء الأزهر حاضرم وغابرم وعلومهم وكتبهم متونا وشرحا ، لإكبار الشيخ محمد عبده . وإنى لأعرف هؤلاء العلماء هل كانوا جاهلين إلى حد ما حكاها الأستاذ المؤلف من عجزهم عن إقامة الدليل على وحدانية الله ، وإنما أعرف كون الشيخ محمد عبده نفسه عاجزا عن إقامة الدليل على وجود الله قبل أن يقيم على وحدانيته ، بناء على أنه ينكر بطلان التسلسل ولا يفهم أن وجود الله لا يمكن إثباته ما لم يبطل التسلسل كما سيجىء بحثه . وإنى مدرك بثقل هذا القول منى ، ولكنى لايسعنى أن أضحى بالله وبالحقيقة فى سبيل إكبار الشيخ محمد عبده كما ضحى الأستاذ مؤلف كتاب « محمد عبده » بعلماء الأزهر أجمعين فى هذه السبيل !

أمامسألة إثبات الوحدانية فقد راجعت رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ، فوجدت هذه المسألة أيضا لم يؤد حقيها بأن يقول :- « لو تعدد الواجبون (يعنى الآلهة) تخالفت أفعالهم بتخالف علومهم وإراداتهم وهو خلاف يستحيل معه الوفاق وكل واحد بمقتضى وجوب وجوده وما يتبعه من الصفات له السلطة على الإيجاد فى جميع الممكنات فكل له التصرف فى كل منها على حسب علمه وإراداته ولا مرجح لنفاذ إحدى القدرتين دون

الأخرى فتضاربُ أفعالهم حسب التضارب في علومهم وإراداتهم فيفسد نظام الكون بل يستحيل أن يكون له نظام بل يستحيل وجود ممكن من الممكنات لأن كل ممكن لابد أن يتعلق به الإيجاد على حسب العلوم والإرادات المختلفة فيلزم أن يكون للشيء الواحد وجودات متعددة وهو محال .

لأن مدار الإثبات في هذه الجمل الكثيرة على اختلاف الآلهة في علومهم وإراداتهم واستحالة الاتفاق في الأفعال بعد هذا التخالف ، مع أن هؤلاء الآلهة المفروضين لابد أن يكونوا قادرين على الاتفاق فيما بينهم من الأفعال كما يكونوا قادرين على الاختلاف . وليس كونهم متخالفين في العلوم والإرادات بمعنى التضاد والتضارب حتى يستتبع التضارب فيهما التضارب في الأفعال ، بل بمعنى الاستقلال في العلم والإرادة . فلا ضرورة لأحد منهم أن يكون على خلاف مع صاحبه فيستحيل الاتفاق ويتمين الاختلاف ، وإلا لا يكون مستقلا ولا يصح فرضه إلها . وهذا ظاهر لا يحتاج الإنسان في فهمه إلى أن يكون من العلماء المبرزين بدرجة الشيخ محمد عبده الذي تحدى مشايخ الأزهر فأعجزهم وأصمهم .. فضلا عن أن يكون ذلك المتحدى نفسه . وكان في إمكان الشيخ المتحدى والمتحدى إثبات وحدانية الله بصحة ومهولة ، مادام يعرف أن الله تعالى واجب الوجود أى من يضطرنا العقل إلى الاعتراف بوجوده لبناء وجود العالم على إيجاده ، وسيجد قارئ هذا الكتاب تفصيلا وافيا عن أهمية وجوب الوجود الذى هو أخص ميزة الله تعالى على سائر الموجودات ..

كان في إمكان الشيخ أن يستخرج دليل وحدانية الله من كونه واجب الوجود ، فيقول باختصار : لو تعدد الآلهة الواجبون وكانوا على الأقل إلهين اثنين أى واجبين فإما أن يحتاج كل منهما أو أحدهما إلى الآخر في إيجاد العالم فلا يكون أى منهما أو أحدهما المحتاج إلها ، وإما أن يستغنى كل منهما أو أحدهما عن الآخر في إيجاد العالم

فلا يكون المستغنى عنه واجب الوجود . وكلا الاحتمالين يؤدي إلى خلاف الفروض
أى التناقض المحال .

والشيخ التحدى أراد إثبات الوحدة ببدليها المعروف المسمى « برهان التامع »
فلم يأت بالصورة الصحيحة له التى لا تقبل النقص ، ونحن نذكرها إن شاء الله فى محله
من هذا الكتاب ، وليكتف القارى هنا بما ذكرنا .

وانظر ما قاله معالى هيكى باشا فى مقدمة كتابه « حياة محمد » بعد الكلام عن
الطاعنين فى الإسلام من كتاب الغرب المتعصبين ، بذلك على أن الشيخ محمد عبده
ما نجح فى الدفاع عن الإسلام لعدم سلوكه الطريقة العلمية فيه ، ولكونه متهماً بالكفر
والإلحاد والزندقة . ومع هاتين الوصفتين اللتين ألصق به إحداها على الأقل معالى
هيكى باشا ، لم ينصرف عنه الشبان المتعلمون الذين ذكر معاليه انصرافهم عن الأديان
وهذا قول الباشا بنصه :

« ولقد قام بعض علماء المسلمين بمصر فى ظروف مختلفة فحاولوا إحداث مزاعم
أولئك المتعصبين من أبناء الغرب ، واسم الشيخ محمد عبده من أنصع الأسماء فى هذا
الصدد ، لكنهم لم يسلكوا الطريقة العلمية التى زعم أولئك الكتاب والؤرخون
الأوروبيون أنهم يسلكونها لتكون حججهم قوتها فى وجه خصومهم . ثم إن هؤلاء
العظماء المسلمين والشيخ محمد عبده فى مقدمتهم قد اتهموا بالإلحاد والكفر والزندقة ،
فأضعف ذلك من حججهم أمام خصوم الإسلام . ولقد كان اتهامهم هذا عميق الأثر
فى نفوس شباب المسلمين المتعلمين . »

وفيه أن الحجة إن كانت قوية فلا يضعفها كون المستند إليها متهماً بعبث فى نفسه ،
لأسيا إذا كان ذلك عيباً فى نظر المسلمين يبعد أصحاب الحجة عن محاباتهم . ومن
المعروف أن العبرة بالقول لا بالقاتل ، حتى ان معاليه الحاكى لحالة المتهمين والمتهمين

وشباب المسلمين المتعلمين المذكورين في الحكاية ، عابوا التهمين وأكبروا التهمين نظراً إلى قوله بعده :

« شعر هؤلاء الشبان بأن الزندقة تقابل حكم العقل ونظام المنطق في نظر جماعة من علماء المسلمين وأن الإلحاد عندهم قرين الاجتهاد كما أن الإيمان قرين الجود » فلا نظام منطقياً بين كون الاتهام المذكور أضعف من حجة العلماء التهمين أمام خصوم الإسلام وبين كونه أعلى منزلتهم عند المتعلمين من شباب المسلمين ، حتى انصرفوا بسبب ذلك الاتهام المعقوت من الأديان كما - سيذكره أيضاً - ولم ينصرفوا من العلماء التهمين .

وفي الحقيقة ماذا يمكن أن يكون سبب اشتهاار الشيخ من بين علماء مصر واستحقاقه لدوام الصحف والمجلات في الإشادة باسمه ، هل هو عدم سلوكه الطريقة العلمية كغيره في الدفاع عن الدين وعدم نجاحه فيه لهذا السبب ، كما ذكره هيكمل باشا أو كونه متهماً في دينه ؟ والأول غير معقول جداً أن يكون سبباً لاشتهاار أحد من العلماء وامتيازه على غيره ، فتمين الثاني .

ولا نقل غير معقول أيضاً أن يكون اتهام الرجل في دينه مزية له ومنقبة أدت إلى ارتفاع درجته عند الناس ، إذ لا يستبعد كونه مزية له عند الذين يعدون هذه التهمة حرية وعبقرية ، وهم التغلبون في زماننا . وقد قال فضيلة الأستاذ المراغى شيخ الجامع الأزهر في خطبة ألقاها بمناسبة الاحتفال بذكرى الشيخ محمد عبده يوم ١١ يونيه سنة ١٩٤١ نقلاً عن الإمام الغزالي : « أستصغر كل من بالكفر لا يعرف بالضلال لا يوصف » وكان هذا القول من الشيخ الخطيب بعد كلام عن الاتهام المعروف الموجه نحو الشيخ المحتفل بذكراه . لكن صيغة القول المذكور ، كائناً من كان قائله سيئة جداً ، بحيث أن الإمام الغزالي أن كان قال هذا القول الذي يحث العلماء على الكفر والضلال والناس على اتباع المشهورين منهم بهما ، كان أحق العلماء عنده بالإكبار ،

أكفرهم وأضلهم في نفس الأمر ، فلا بد أن يكون هو أى الإمام الغزالي أيضا متهمافي دينه أو عقله ، وإلا فعقل المسلم السليم لا يقبل أن يكون مجرد الاتهام بالكفر والضلال رمزا للمظمة في علم الدين . نعم يحتمل كون الشيخ محمد عبده أعلم معاصريه وأمجحهم في الدفاع عن الذين فيحسدوه عليه ويختلقوا له تهمة الكفر والزندقة ، لكن الشيخ الخطيب مدح بالقول الذى نقله عن الغزالي « الاتهام » مطلقا حقا وباطلا . وقد صرح هيكى باشا بعدم نجاح محمد عبده في الدفاع عن الإسلام لعدم سلوكه الطريقة العلمية في دفاعه ، فلا وجه لكون معاصريه من العلماء يحسدونه .

ثم إنه يجب التنبيه هنا على أن الطريقة العلمية التى عاب الدكتور هيكى باشا على الشيخ محمد عبده وغيره أنهم لم يسلكوها ، يلزم أن تكون الطريقة العلمية التى فضلها الأستاذ فريد وجدى بك فيما نقلناه سابقا من كلامه ، على الطريقة المنطقية : فيفهم أن الشيخ وأصحابه أغفلوا هذه الطريقة التى يسميها المصريون الطريقة العلمية ، وسلكوا الطريقة المنطقية فاعتبر هذا ذنبا عليهم ! فانظروا أى مبلغ بلغت عقلية الكتاب المسلمين المصريين ؟ فيحتاج المنطق نفسه في نظرهم إلى الدفاع عنه ، قبل الدفاع عن الدين ، ويظهر أن ذنب الشيخ محمد عبده الحقيق ومن معه عدم دفاعهم أولا عن حقوق المنطق إزاء الخصوم الغربيين المتمسكين بالعلم من غير خضوع للمنطق ، وإزاء مقلديهم من المسلمين الذين ينصرفون عن المنطق عندما رأوا الغرب ينصرف عنه . فالشيخ محمد عبده لم يقدر موقفه في الدفاع عن الإسلام مع موقف خصومه الذين يناقشهم والسامعين للتحقين بالخصوم ، حتى قدرهما . فهو أى الشيخ وأضرابه الذين نص الدكتور هيكى باشا على عدم نجاحهم في دفاعهم عن الإسلام لعدم سلوكهم الطريقة العلمية ، اما لم يفتنوا لكون خصوم الإسلام ، بل خصوم الأديان جميعا الناجين في الغرب والمتشبثين بأذيالهم من الشرقيين ، يصوبون حملاتهم على الأسس العلمية التى يستند إليها العلماء المدافعون عن الدين ، فلا يقيمون الأدلة العقلية المنطقية التى هى أفضل ما عند العلماء

وأقصى ما يرغبون فيه ، وزنا ولا يمتبرون الأدلة العقلية أدلة علمية ، ويسمون المنطق الذي نعتبره رمزا لقوة الدليل وقطعيته ، منطقاً تجريدياً أو سورياً ، وإنما الدليل العلمي عندهم ما يكون مستنداً إلى الحس والتجربة ، والمنطق الموثوق به في نظرهم هو المنطق الاستقرائي ، فكأن المنطق الاستقرائي يناوئ المنطق التجريدي ويزاحمه ، وكأنما الجديد منهما نسخ القديم وقضى على قيمته العلمية . على أنا لا نرى في أقوال المدعين المصريين مسحة من المنطق قديمه وحديثه .

فالشيخ محمد عبده ومن معه إما لم يفطنوا لِمَجال الضعف في دفاعهم عن الدين عند الخصوم . أو فطنوا لها ولم يقدرُوا على مجابهة الخصوم بإثبات القوة لما يستضعفونه وتبيين الخطأ فيما يدعونه ويتمسكون به من الانقلاب في نظام الاستدلال ، كما نفعله نحن إن شاء الله . فقد تولينا مستعينا بتوقيفه أحياء ، ما حاول الدكتور هيكل باشا والأستاذ فريد وجدي بك ومن على عقليتهما من إمانة العلم القديم المبني على الأدلة العقلية المنطقية والذي اعتمد عليه علماء الإسلام المتكلمون قروناً طويلة في إثبات الدين المبني أساسه على وجود رب العالمين ، وحرسوا المسلمين على طول تلك القرون من الوقوع في هاوية الإلحاد السائد اليوم بين المتعلمين المصريين القاصرين اعتمادهم على العلم الحديث المبني على شهادة الحس والتجربة والحائرين في وجود كل ما لا يدخل في متناول الحواس والتجارب كوجود الله ، مع العلم الحائر فيه الذي قال عنه الدكتور هيكل باشا « لا يثبت ولا ينفي » فإن قالوا بوجود الله كان قولاً غير علمي .

فنحن نخرق هذه العقلية المظلمة في هذا الكتاب إن شاء الله ، وندافع عن حقوق العلم القديم المستند إلى العقل والمنطق أمام العلم الحديث المباهى باستناده إلى الحس والتجربة . ولعل الشيخ محمد عبده لم يقم بهذا الواجب لعدم كونه تام الإيمان بالعلم القديم كما يدل عليه إنكاره لبطالان التسلسل بتهور لا مثيل له ، مع أن إبطال التسلسل له موقف خطير في مسألة إثبات وجود الله ، وسيجيء بحثه .

والمقصود هنا التنبيه على موقف الشيخ محمد عبده الأستاذ الإمام لمصر الحديثة ، موقفه المجيب المرتبك ارتباكاً شديداً يصيب رأس الناقد البصير منه الدوار : يدافع عن الإسلام طائفة من العلماء ، يقول معالي هيكل باشا اسم الشيخ محمد عبده أنصع الأسماء بهذا الصدد ، ثم يقول ما خلاسته أنهم لم ينجحوا في دفاعهم لعدم سلوكهم الطريقة العلمية وأنهم والشيخ محمد عبده في مقدمتهم قد أشبهوا بالإلحاد والكفر والزندقة ، فأضعف ذلك من حججهم أمام خصوم الإسلام .

ويدافع الشيخ أيضاً عن الإسلام عند ما جرت مناظرة بينه وبين منشى* مجلداً «الجامعة» الأستاذ فرح فيقول فيها الشيخ إن الإسلام دين العقل ، ويدعى خصمه أن جميع الأديان لا تتفق مع العقل والعلم فينفق ادعاؤه في سوق الثقافة العصرية بمصر وينتشر الإلحاد والاجتهاد في تهية الأذهان لقبوله إن لم يكن جهاراً فـدساً في المقالات المنشورة في الصحف كما سنذكره في أحد الأرقام الآتية نقلاً عن الأستاذ فريد وجدي بك وممزواً إلى نوابغ الشرق الإسلامى المستبطين للإلحاد ، تيقناً منهم بأنه مصير أخوانهم كافة متى وصلوا إلى درجهم العلمية ... ينفق رأى الأستاذ خصم الشيخ في سوق الثقافة ولا يُسمع قول الشيخ بأن الإسلام دين العقل ، بل الشيخ نفسه يخالف العقل فينكر بطلان التسلسل ، مع أن وجود الله الذى هو رأس الدين يتوقف إثباته بدليله العقلى على إبطال التسلسل كما سنذكره في محله من هذا الكتاب . فإن كان العقل يقبل التسلسل ولا يقبل بطلانه كما هو رأى الشيخ فلا يقبل العقل وجود الله لتوقف إثباته على إبطال التسلسل الذى لا يمكن إبطاله . وإن كان العقل لا يقبل التسلسل لزم أن لا يقبل عقل الشيخ الذى يقبل التسلسل ولا يقبل بطلانه ، وجود الله . ثم إن الشيخ الذى قال معالي هيكل باشا إنه متهم بالإلحاد والكفر والذى لا يألف عقله مع العقل الدينى المبطل للتسلسل ، لا يعترف بكثير من المغيبات عن الحواس كالملائكة والشیطان والمعجزات التى نصت الكتب المقدسة على أنها ظهرت للناس فى عهد الأنبياء ولكنها

لا يظهر مثلها للناس في هذا الزمان . فكأنه أى الشيخ يتفق مع خصمه في المناظرة ويخالف نصوص الكتب المقدسة ويكون له إصبع في سفور المسلمات ، وهو القائل بأن وجود شيء في القرآن لا يقتضى صحته ، كما نقلوا عنه هذا القول عند حدوث فتنة القصص الغنى في القرآن بمصر ، وسنوفى بحثها في أحد الأرقام الآتية .

فما هي حقيقة موقف الشيخ من الدين الذى يدافع عنه ثم لا يقبل كثيراً من نصوصه ، ويخرج على صراحة الكتاب فى احتجاج النساء ، ويكون دفاعه عن الدين غير ناجح لعدم سلوكه الطريقة العلمية قديمها وحديثها ؟ أما حديثها فهو مراد هيكىل باشا فى قوله بأن الشيخ وزملاءه من العلماء المدافعين عن الإسلام لم يسلكوا الطريقة العلمية ، وأما قديمها فقد علمت ومستعلم أنه يجيز التسلسل فى العلى ويرى ما قيل أو يقال فى إبطاله للتوصل إلى إثبات وجود الله ، أوهاما وخيالات كاذبة . وينحرف فى تعريف النبى والرسول عن طريقة العلماء المتكلمين فىأتى بتعريف غير معروف ينطبق على العطاء المصلحين من الناس غير الأنبياء والمرسلين الحقيقيين . وسيأتى تفصيل هذا البحث أيضاً .

فماهى إذن حقيقة موقف الشيخ من الدين ؟ هل هو صديقه الساهر أو عدوه الماكر ؟ وماذا سر إصرار الأقلام المصرية على إكباره وإعلاء منزلته بين العلماء مع عجزه عن إثبات وجود الله وإثبات وحدانيته ، رغم تبجحجه بأنه المثبت الوحيد ، وتمرده على كثير من نصوص الدين وعدم نجاحه عند دفاعه عنه إلى حد اتباع المثقفين رأى خصمه فى النقاش والمناظرة ؟ فهل هو يناضل أعداء الدين ليغلبوه ويكون هو من الخاسرين مع الدين ؟ أجل ، إنه فاز فى إحدى محارباته فقط وهى محاربته لشيوخ الأزهر القدماء فأسقطهم من عيون الناس^(١) وفوزه هذا أيضاً جدير بأن يعد من غلبات خصمه

[١] كنت أردت عند قولى عن محيط الفاع باستانبول فى كلمة خاطبت بها روح والدى وكتبته فى أول الكتاب : « انه كان أفضل من الأزهر الحاضر » ... أن أضع هامشاً لذلك =

الأستاذ فرح أنطون على الشيخ ، حيث عاب الإسلام بعدم فصل الدين عن السياسة الذى أدى إلى تقدم الغربيين وعدمه فى الإسلام إلى تأخر المسلمين . وكان جواب الشيخ عليه عبارة عن حمل تبعة هذا النقص فى الإسلام على علماء الدين الذين يهتمهم بالجمود ، ويعنى بهذا الحمل والاثهام انه من أنصار فصل الدين عن السياسة أى الدولة ، رغم انه مضاد للإسلام الذى يعلمو ولا يعلم عليه ، وفصله عن السياسة إدخاله تحت حماية السياسة ورحمتها كما سنفصله فى محله من الكتاب . فالشيخ يغلب علماء الأزهر والأستاذ فرح أنطون يغلب الشيخ ، فلمله وصديقه أو شيخه جمال الدين أرادا أن يلعبا فى الإسلام دور لوتر وكلفين زعيمى البروتستانت فى المسيحية فلم يتسن لهما الأمر لتأسيس دين حديث للمسلمين ، وإنما اقتصر تأثير سعيهما على مساعدة الإلحاد المقنع بالهوض والتجديد . وكان مؤسسو البروتستانت لم يريدوا هدم المسيحية ، وإنما أرادوا هدم اللاعبيين الأولين بها ، وقد أعانهم كون المناصب الأصلية للدين المسيحى لم يحتفظ بها سليمة كما احتفظ بها فى الإسلام ، فأراد المترعمان للتجديد فيه أن يضعوا أئمة الفقه المجتهدين مثل الإمام أبى حنيفة وأخوانه فى درجة الاجتهاد رضى الله عنهم وحاشاهم ، موضع اللاعبيين الأولين فى الإسلام وتشجعا لفتح الباب إلى هدم ما قاموا به ^(١) كما

== القول الخاص بما قبل عهد السكاليين ، ثم رأيت لإرجاءه وكان نص الهاش هكذا: يدل على رجحان استانبول بعلماء دينها الراسخين فى مبادئهم العلمية أمران : الأول أن الشيخ جمال الدين الأفغانى لم يستطع أن يسحرهم برسائله التى أنجبها فى مصر فخرج من بين علمائها من يشد أزره ويشترك فى أمره ثم يلعب دورا هاما فى هدم الأزهر بزحزحته عن نهجه القديم القويم . والأمر الثانى : ان وباء الماسونية لم يجد بيئة صالحة للانتشار بين رجال الدين فى الآستانة كما وجدها بين أقطاب الأزهر . وهذا على الرغم من أن مصر كانت فى الماضى البعيد مركزا كبيرا للعلوم الإسلامية قبل دخول الإسلام فى استانبول .

[١] وفى تصريح رجلين من تلامذة محمد عبده . ومن أقطاب الأزهر الأستاذ الأكبر المراغى بمناسبة مناقشة الرسائل التى قدمها لأول مرة المتخرجون من كلية الشريعة لنيل شهادة =

هدم لوتر ومساعدته الكشلكة والأرتودوكس فأسسا البروتستانت ولكن خان القياس للشيخين أى خيانة ، فأبان ما فى محاولتهما من الجناية .

نمود إلى أسباب سيادة الزيف فى عقليات المتعلمين : ومن ناحية أخرى فإن كون كتب الفلسفة المهمة المؤلفة فى الشرق والغرب غير مهلهلة الدرس والمطالعة وكون الاهتمام بتدقيق المسائل وقتلها بحثاً ، غير معتمد بين الأوساط العلمية بمصر سبباً شيوخ الإلحاد فيها .

وقد كان لإهراع أبناء أعيان البلاد وبناتهم إلى الغرب وكل من استطاع إليه سبيلاً من الناشئين ليرووا غلظتهم من مناهله ، من غير اكتراث بالمحافظة على كيانههم الإسلامى ، أثر أيضاً فى تكون الجو اللادينى بمصر ، لكن فكرة الإلحاد ما راجت فى الغرب رواجها اليوم فى مصر وأن دور رواجها فى الغرب عقب الثورة الفرنسية وبلغ غايته فى القرن الثامن عشر^(١) ثم لم يلبث أن نابت العقول إلى رشدتها ونمخت سورة الماديين المنكرين للإله الخالق ، وإن كانت مصر الحديثة الخيرة تزعم كتركيا الحديثة المسيرة أن الغرب باق على عهده الذى ساد فيه اعتقاد أن الكون بجميع أجزائه تابع لقوانينه الطبيعية التى لا يمكن تغييرها ، وما نرى فيه من النظام فصادفة

== الأستاذية فى الصربية ، والأستاذ عبد الحميد سليم المفتى الأكبر سابقاً ، بمناسبة كونه وكيل لجنة التقريب بين المذاهب لاحقاً .. فى تصريح الأول بدمم عد علم الفقه من الدين - وسيجىء تفصيله فى الباب الرابع من هذا الكتاب - وتصريح الثانى بأن مذاهب الأئمة المجتهدين مبنية على السياسة ، تأييد ظاهر لما قلنا .

[١] ومع هذا فلم يؤلف فى أى قرن ما ألف فى ذلك القرن من الكتب الكثيرة فى إثبات وجود الله على ما ذكره الفيلسوف الفرنسى « بول ثران » مؤلف « الطالب والمذاهب » فى تاريخ الفلسفة ، حتى قال أنه أجدر بأن يسمى عصر العقلية الإلهية « ده نيزم » من أن يسمى عصر الإلحاد « آنه نيزم » .

مجردة عن تدبير مدبر وإرادة مريد . فلا إله ولا فعل له في السكون ولا نبوة ولا معجزة ولا الحياة الأخرى بعد الموت بل ولا الحياة الدنيا ولا الروح ، والإنسان آلة ميكانيكية وجسم متحرك من غير إرادة لا فرق بينه وبين الأجسام المتحركة^(١) . وقد كان أحد

[١] قال المادى المعروف « بوخر » في خلاصة الفصل الثالث والعشرين من كتابه « الطاقة والقوة » : « حتى ان المتفكر المشهور « شوبنهاور » لم يتخلص - تحت تأثير أفكاره الفلسفية الباطلة - من فكرة القوة الحيوية وعد المعترض عليها من الحقى » ثم قال « بوخر » : « وهى بمعنى فكرة القوة الحيوية - كما قال « ويرشو » ليست بخطأ فقط بل فكرة باطلة كالشيطان والاكسير » .

ثم قال « بوخر » : « إن الحياة غير تابعة لأى قانون استثنائى وإنما هى محصلة الفعل المشترك للقوى الطبيعية والكيميائية أو مثال آخر للحركات الميكانيكية وهى مجموعة لها مختلطة معقدة - بحد غير معلوم - يقتضى إيضاحها بقوانين الطبيعة المادية المألومة . ومن لم يفهم الحياة إلا بفرض قوة حيوية فقد استدل بصورة غير معقولة كما حاول إيضاح حركة ساعة بقوة خصوصية للساعة بدلا من إيضاحها ببنيتها الميكانيكية . فكما أن حركة الساعة محصلة الحركات المرتبة المنتظمة للمواد اللازمة المنتظمة والقوى المتصادقة بعضها مع بعض ، فكذلك الحياة ليست بقوة بل محصلة حركات أو حركة لأقسام مجتمعة معينة » .

ثم قال : « والحادثات الطبيعية فى داخل الجسم ذى الحياة تقع مثل الحادثات الكيميائية . وحركة الدم ميكانيكية خالصة والجهاز الذى يحصلها مشابه من كل وجه للماكينة المصنوعة بيد الإنسان » ثم قال : « إلا أنه يجب أن يترف بأن جميع الحادثات الواقعة فى العضو ذى الحياة إن لم يوضح بالقوانين الطبيعية والكيميائية وصودف المعنى فى المعنى فليس ذلك بناشئ من طبيعة الأشياء بل من نقصان علومنا ، وذلك النقصان يقل كل يوم برقى العلوم . وهذا بطل يجعلنا قادرين على إرجاع الحادثات الحيوية يوما عن يوم إلى القوانين الطبيعية » .

أقول وهذا تسويف لا ينقض أمده . وكان اللائق بإصاحب العلم الواقعى أن يقتدر حالا على إرجاع الحياة إلى القوانين الطبيعية والكيميائية ، بل على إيجاد ذى الحياة توفيقا لتلك القوانين ، ثم يقول نحن قادرون .. ونحن نجترى بنقل أقوال « بوخر » الدالة على حماقة كما نقل هو نفسه عن « شوبنهاور » وإنما نناقى كلمة قصيرة على قوله : « فالجهاز الذى يحصل القوى الحيوية يشابه من كل وجه للماكينة المصنوعة بيد الإنسان » فنقول : ومن هو صانع هذا الجهاز؟ فهل هو إنسان أيضا؟ . وكلمة على قوله : « إن حركة الساعة محصلة الحركات المرتبة المنتظمة للمواد اللازمة والقوة =

الغريبين المضلين ألف في عصر الإلحاد كتاباً سماه « هوم ماشين » يعنى الإنسان الذى هو ما كينة . فراج فى سوق الضلالة . ومع ذلك كله كان العالم الشهير « مونتسكيو » رد فى ذلك الحين على هؤلاء الملحدين قائلاً : « ما أبعد أن تكون قدرة عمياء خلقت ذوى العقول ! » ورد كثيرون آخرون لاسيما فى العصر الأخير ومنهم الحكيم المشهور « جوستاف لوبون » وإن لم يكن من الحكماء الإلهيين ، حيث قال فى كتابه « الأفكار والعقائد » : « العلم الذى أفلت من يوم إلى يوم من العقيدة فهو خليط بها وتابع لها فى جميع الأمور التى لم يعرفها الإنسان حق المعرفة كأسرار الحياة ^(١) ومنشأ الأنواع ^(٢) والنظريات المتبعة فيها لاقيمة لها غير سمعة الأساتذة الذين قرروا نظرياتهم فى شكل الدساتير . »

وهناك غلطة فظيمة وجمجمة مثارة حول الذين يسمون الإلثباتيين . ويبتدىء النلط من تسميتهم أصحاب الفلسفة المثبتة بادعاء أنهم يبنون العلم على مائت من طريق الحواس والتجربة فينكرون كل مائت من غير طريقها ويخرجونه من دائرة العلم . وهم الذين كانوا عاملين فى زيغ فرنسا إلى الحكومة اللادينية « لائيك » وزيغ الشرقيين الذين اتخذوا فرنسا قدوة لهم ^(٣) فهم أعنى الإلثباتيين مع حلفائهم الماديين أصبحوا أئمة

= المتصادقة بعضها مع بعض . « فنقول إن كان هناك ترتيب وانتظام فلا تصادف ، ثم من المرتب والناظم ؟ وإن كان تصادف فلا ترتيب ! وهل سمعتم ساعة مصنوعة بالمصادفة ؟ هذا ، والمقصود هنا بيان أن الملاحدة ينفون الحياة والروح ويتحملون تبعه لإنكار البديهيات لحاجة فى نفوسهم قضاها على زعمهم ، وهى عدم اللجوء إلى الاعتراف بوجود الله خالق الحياة والروح .

- [١] تعريض لإنكار غلاة الماديين القوة الحيوية والروح كما نقلنا قريباً عن « بوختر » .
- [٢] تعريض لمذهب « دارون » النافق عند مثقفي مصر وسائر بلاد العرب لحد أن من علماء الدين من تأهّب لتأويل آيات القرآن التى لا تأتلف وهذا المذهب لزام كل احتمال .
- [٣] الفلسفة الإلثباتية أو الفلسفة المثبتة يسميها أصحاب الثقافة المصرية بمصر : « الفلسفة =

الكفر يأتهم بهم من سفه نفسه وكفر بدينه من مثقفة الشرق أنصاف العلماء ، وقد قال « يا كون » إمام المذهب التجربي ما معناه : « إن قليل العلم يبعد صاحبه عن الله وكثيره يرجعه إليه . »

= الوضعية « والتسمية الأولى للمثقفين الترك وهي أحسن ، وإن كان بوزنيوزم الذي هو الاسم الأصلي الفرنسي لتلك الفلسفة تحمل كلتا الترجمتين . لأت الترجمة التركية تتضمن معنى مادحا لتلك الفلسفة وتكون أوفق بمقصود صاحبها الفرنسي الذي أسسها وسماها بذلك ، في حين أن الفلسفة الوضعية لا تتضمن معنى خصوصيا تتناز به هذه الفلسفة ويؤي زعم صاحبها ، إذ لا بد أن يكون كل مذهب فلسفي وضعا أي موضوع شخص أو طائفة من الفلاسفة .

وهذه الفلسفة الإنباتية — أو الوضعية على التعبير المصري — لم تخل أقوال الدكتور هيكل باشا والأستاذ فريد وجدي بك المذقولة في كتابنا هذا ، عن التنويه بها ، حتى إن الأستاذ فريد قال في الجزء الثالث من المجلد السادس عشر من مجلة الأزهر ص ٩٩ عنها : « أنها أدق وأصدق من جميع الفلسفات المصرية في أصولها الأولية » ..

جاءت مدرسة الفلسفة الإنباتية فادعت للروح الإنسانية حالات وأطوارا ثلاثا : الحالة الإلهية والحالة وراء الطبيعة والحالة الإنباتية أو العلمية . فالحالتان الأوليان عرضيتان زائدتان والحالة الأخيرة هي الحالة الكمالية والحالة الحدية (مقابل « العرضية ») فالإنسان في حالته هذه يترك مسائل المبدأ والمعاد ويتفرغ لمشاهدة الحادثات وما بينهما من النسب الثابتة . فيجب على رأى « اوجوست كونت » مؤسس هذه الفلسفة أن ينحى الدين والصفة الدينية عن العلم . وقد أطلع هذا القانون مؤلفو الشرق المصريون حيث أخذوا مطالع كتبهم عن التبرك باسم الله وبمحمد .

ومع ذلك مالبث زعيم الإنباتيين أن وضع دينا جديدا تثلثيا قال : « أقانيمه الموجود الأعظم وهو الإنسان ، والوثن الأعظم وهو الأرض ، والمحيط الأعظم وهو الفضاء المحيط بالأرض . فالوثن الأعظم ضحى بنفسه فمرضاها للتقلب والمذلة ليكون منشأ للموجود الأعظم ، فنحن مدينون له بالعبادة شكراً ، لكن ممثل الكمال الأعلى هو الإنسان فهو الحقيق لأن يتخذ معبوداً ، بل الإنسان أفضل من الله وأجدر بالعبادة لكونه مستفيدا من محبتنا ومحتاجا الى خدمتنا ، ولأنه لا يحسننا بوعده المكافأة على الملاحظات السكسية ، ولا سيما المرأة في الجدارة بالعبادة لكونها محلا لتحقيق أمانى الصداقة والعشق وهي رمز البشرية ، فالأم تمثل الماضى والمرأة — معنى الزوجة — تمثل الحال والبنت تمثل الاستقبال . » وفي هذا الدين ٨٤ عيداً في السنة للاحتفال بالمرأة و ٩ مراسم التقديس .

وهذا الدين اشتهر بدين الأشراف . وعندى أن الأنسب تسميته بدين الشاق والفاسق . قال

وكلمة « باكون » هذه ربما يستشهد بها غيرى على الموضوع نفسه ، وفعلأعرف الأستاذ فريد وجدى بك استشهد بها فى بعض أعداد « مجلة الأزهر » كما أنه يستشهد فى كل عدد من أعداد تلك المجلة بكلمات فلاسفة آخرين غربيين يؤمنون بالله ، ولكن شواهد لا تؤثر فى تصحيح عقلية المستشهد المربوطة بالعلم الحديث ، بله عقليات قارثيه المنصرفين عن الدين ، لأنه لا يزال يمتدّد عدم إمكان المعجزات والخوارق المخالفة لقوانين

= « بول ثرانه » : « إن (اوجوست كونت) سواء كان الدين الذى وضعه جافاً أو فلسفياً قليلاً فهو حسبنا ناقضاً نقضاً تاماً لقانون الحالات الثلاث الذى اتخذه أساساً لدينه وفلسفته والذى اعتبر الانكشافات الدينية فى الإنسان الحالة الأولى الابتدائية . »

وفى الترامه الثلاث دليل على أن فلاسفة الغرب حتى ملاحظتهم لا يزالون يحومون حول النصرانية وللفيلسوف « اسينسر » أيضاً حملات على هذا الدين كما أن « لها كسلى » رداً على نظرية الحالات الثلاث . ولما التحق العلامة « باستور » بالأكاديمية الفرنسية وألقى خطبته التى تتضمن الثناء على سلفه « ليتره » - كما هو المتاد - وكان أكبر تلامذة « اوجوست كونت » نبه على الخلاف بينه وبين سلفه فى الأفكار الفلسفية فجاب على مذهب الفلسفة الثبته عدم مراعاته لمعلومة اللامتناهى التى هى أهم المعلومات الثبته ، وأراد بمعلومة اللامتناهى معلومة وجود الله . ثم إن تعليل رجحان الإنسان على الله عند الإثنائين فى استحقاق العبادة ، باستفادته من محبتنا واحتياجه إلى خدمتنا ، غاية فى السخافة .

بقى أن صديق العالم الكبير مترجم كتاب « بول ثرانه » « المطالب والمذاهب » إلى اللغة التركية ذكر بمناسبة الدين الذى وضعه « اوجوست كونت » أموراً تلفت النظر ، منها أن اعتراض المصريين على ممنوعة التصوير فى الإسلام بدعوى أنه لا احتمال للإنسان من بعد فى الرجوع إلى عصر عبادة الأوثان ، ينتقض باتخاذ المرأة معبودة فى دين الإثنائين الموضوع فى عصر الرق العربى .

ومنها أن العاقل إذا نظر فى الدين الذى وضعه فيلسوف كبير فرانسى وقارن بينه وبين الدين الذى أتى به من عند الله نبى أى قبل ثلاثة عشر قرناً يندهش من الفرق الباهر بين الدين الحقيق المنزل من عند الله وبين الدين الصناعى ولو كان مصنوعاً فى عصر العلوم .

ومنها أن كتب تاريخ الأديان التى ألفها علماء الغرب يعتبرون الوثنية « فتشيزم » أصلاً والتوحيد تطوراً وتكاملاً ، لكن دين الإثنائين « بوزيتويزم » يرى عكس ذلك ويثبت أن الوثنية تحدث بازدياد الشهوات بعد أن كان الأصل هو التوحيد .

العلم الطبيعي ، ولهذا يصعب عليه تصوير مسألة النبوة فيذهب لتقريبها من العقول
مذاهب بعيدة ، وخصيصاً يمتدح الدستور العلمى القائل « كل معقول لا يؤيده محسوس
فلا يمتد به » حقاً . فكيف يعترف إذن بوجود الله قبل أن رآه بعينه ؟ كما قاله
الأستاذ فرح أنطون منشئ مجلة « الجامعة » فى مناظرته الشيخ محمد عبده ، وعلى الأقل
كيف يعترف به علمياً ؟ والعلم حائر فيه لا يثبت ولا ينفيه لعدم قابليته لأن يكون
موضوع التجربة . وكيف يجمع بين ذلك الدستور العلمى وبين هذا الاعتراف ؟

لكننى عند ما أستشهد بقول « باكون » لا أفعله جرياً على عادة الاستشهاد
بأقوال علماء الغرب ، كما أنى قبل الاطلاع على قوله أعرف بمقل الذى أعطانيه الله أنه
لا يصح قولهم : « كل معقول لا يؤيده محسوس فلا يمتد به » على إطلاقه ولا يمكنه
أن يصح . وعند ما أستشهد بقول « باكون » أقف عليه وأستوقف القارى فأقول :
هذا إمام العلم التجربى كيف يقول هذا القول الناص على اعترافه بوجود الله لو صح
أن العلم لا يعترف به ؟ حتى انه يبني اعترافه على اعتراف العلم ، انظر قوله فى شطره
الثانى : « كثير العلم يوصل صاحبه إلى الله ! » مع أن أساتذتنا المصريين إن تفضلوا
فقادونا إلى الإيمان بالله قادونا مهريين عن العلم حذرين ، فما قولك فيهم ؟ ألا ينطبق
عليهم الشطر الأول من كلام « باكون » أعنى أليس هذا من نقصان العلم ؟

ولى تعلية أو بالأصح وقفة على قول « باستور » العظيم أيضاً الذى استشهدت به
فى الهامش السابق ، تأتى فى محلها من الكتاب إن شاء الله تعالى . وهذا الأستاذ
فرح أنطون مناظر الشيخ محمد عبده على الرغم من تصريحه بأنه مسيحى صميم ، يظهر
من قوله المار النقل أنه من الذين يؤمنون بالعلم ويزعمون أن الإيمان بالعلم يحافى الإيمان
بالله ورسله ، وبالاختصار من الذين يبيعون بضائع الغرب القديمة الفاسدة بأثمان باهظة
فى الشرق .

٤

وإن أردت زيادة الوقوف على مبلغ اعتلال العقلية في أسانذتنا المصريين واختلالها وابتعادها عن الحق إزاء الدين والعلم وعلماء الدين ، فانظر قول معالي هيكل باشا في مقدمة كتابه « حياة محمد » وقد كنا نقلنا رأيه في دفاع الشيخ محمد عبده وغيره من العلماء عن الإسلام وهو أنه ما كان دفاعاً دافعاً نافعاً لعدم سلوكهم الطريقة العلمية ولأنهم اتهموا بالكفر والإلحاد والزندقة فأضعف ذلك من حججهم أمام خصوم الإسلام ؛ ونقلنا قوله أيضاً بعده : « ولقد كان اتهامهم هذا عميق الأثر في نفوس شباب المسلمين المتعلمين ... » ثم قال :

« شعر هؤلاء الشبان بأن الزندقة تقابل حكم العقل ونظام المنطق في نظر جماعة من علماء المسلمين ، وأن الإلحاد عندهم قرين الاجتهاد كما أن الإيمان قرين الجود . لذلك جزعت نفوسهم وانصرفوا يقرأون كتب الغرب يلتمسون فيها الحقيقة اقتناعاً منهم بأنهم لن يجدوها في كتب المسلمين ، وهم لم يفكروا في كتب المسيحية والتاريخ المسيحي بطبيعة الحال ، إنما فزعوا إلى كتب الفلسفة يتلمسون في أسلوبها العلمي رى ما في نفوسهم من ظمأ محرق للحق ، وفي منطقها ضياء للجذوة المقدسة الكمينية في النفس الإنسانية ووسيلة للاتصال بالسكون وحقيقته العليا . وهم واجدون في كتب الغرب سواء منها كتب الفلسفة وكتب الأدب الفلسفي وكتب الأدب نفسه الشيء الكثير مما يفرى الإنسان بالأخذ به لروعة أسلوبها وقوة منطقها وما يظهر فيها من صدق القصد وخالص التوجه إلى المعرفة ابتغاء الحق . لذلك انصرفت نفوسهم عن التفكير في الأديان كلها وفي الرسالة الإسلامية وصاحبها ، حرصاً منهم على أن لا تنور بينهم وبين الجود حرب لا ثقة لهم بالانتصار فيها ، ولأنهم لم يدركوا ضرورة الاتصال الروحي بين الإنسان وعوالم الكون اتصالاً يرتفع به الإنسان إلى أرق مراتب الكمال وتتضاعف به قوته المعنوية .

« انصرف هؤلاء الشبان عن التفكير في الأديان كلها وفي الرسالة الإسلامية

وصاحبها ، وزادهم انصرافا مارأوا العلم الواقى والفلسفة الواقعية «الوضعية» بقرانه من أن المسائل الدينية لا تخضع للمنطق ولا تدخل في حيز التفكير العلمى وأن ما يتصل بها من صور التفكير التجريدى ليس هو أيضا من الطريقة العلمية فى شىء . ثم إنهم رأوا الفصل بين الكنيسة والدولة واضحا صريحا فى البلاد الغربية ورأوا البلاد التى تقرر دساتيره أن ملكها هو خاى البروتستنتية أو الكثلركة أو تقرر أن دين الدولة الرسمى المسيحية ، لا تقصد من ذلك إلى أكثر من مظاهر الأعياد والمراسم وما يتصل بها ؛ فأرادوا انحرافا فى هذا التفكير العلمى وحرصا على الأخذ منه ومما يتصل به من فلسفة وأدب وفن بأوفر نصيب .

فأنت ترى معاليه ينتقد كلا الفريقين من العلماء الجامدين والذين ذابوا فى بوتقة التجديد حتى أنهموا بالكفر والزندقة والإلحاد ، وكان انتقاده العلماء الجامدين أشد من انتقاده العلماء المتهمين بالزندقة والإلحاد ، بل ومن انتقاده للشبان المتعلمين المنصرفين عن الدين الذين ينميا بأسف لحالم إذا به يسرد أعذارا عنهم ويروجها من عنده ثم يحمل أوزارهم — إن كان لهم ذلك — على العلماء الجامدين المتهمين للعلماء المجددين ، متهمًا أولئك المتهمين بأنهم اعتبروا حكم العقل ونظام المنطق زندقة والجود إيمانا ، ولهذا اختار الشبان المتعلمون الزندقة التى تتفق مع حكم العقل ونظام المنطق ، ونبذوا الإيمان مع الجود . ولم يكن معاليه منصفًا فى اتهام العلماء بمناوأة حكم العقل ونظام المنطق ، لأنى لأعرف عالما من علماء الدين بعد تأسيس علم الكلام فى الإسلام يستهين بالعقل والمنطق ، بل الأساتذة المصريون أنفسهم هم الذين يستهينون بهما ولا يعدون طريقتهما طريقة علمية . ومعاليه نفسه عند ما عاب على الشيخ محمد عبده وزملائه المدافعين عن الإسلام بأنهم لم يسلكوا فى دفاعهم الطريقة العلمية ، إنما عاب عليهم سلوكهم الطريقة القديمة المنطقية التى حكم أولا بأن علماء الإسلام أفنوا فيها قرونا طويلة ، كما أن الأستاذ فريد وجدى تمدح بأنه سلك الطريقة العلمية فى إثبات إمكان النبوة ولم يسلك الطريقة المنطقية . أما حكم العقل فملاؤنا يتمسكون فى إثبات وجود الله بالدليل العقلى والأساتذة المصريون لا يعدون الدليل

العقل دليلا علميا ! وسيراني القارى ' كيف أعنى ' في هذا الكتاب بالدفاع عن كرامة العقل إزاء المستخفين بها .

ولم يكثف معاليه باتهام العلماء الجامدين في انصراف الشباب المتعلمين عن الدين ، بل اتهم الدين نفسه أيضا حيث غاب المسائل الدينية بعدم خضوعها للمنطق ، وقد كان فيما نقلنا عنه غاب المنطق التجريدى الذى أفنى فيه المسلمون قرونا طويلة . فالمسائل الدينية إذن معيبة مطلقا خضعت للمنطق أو لم تخضع ، حتى إنها إن خضعت للمنطق يكون المنطق نفسه معيبا معها : فيلزم لأن ينال المنطق تقدير المنصرفين عن الدين والذين يعمدرونهم ، أن يكون منطقا خاصا بالعلم الذى انصرفوا إليه لما انصرفوا عن الدين . لكن المنطق الذى هو ميزان العلوم لا يختص بعلم ويكون تجريديا بطابعه الأصلى .. ولذا قال الفيلسوف « كانت » منتقداً لذهب الإحساسية : « إن المنطق مستند إلى القوانين العقلية المحضة وإن الخواص التى هى موضوع الرياضيات وما يتبعها من القوانين ليست بموجودة فى الطبيعة وإنما هى موجودة فى العقل ، فالحادثات الطبيعية تحل بهذه القوانين » .

وهذا المنطق الذى يحله معاليه تارة ويحتقره أخرى محترم مطلقا إذا كان منطق الغربيين فهو يمدح كتبهم بدقة المنطق ، ويزيد فيقول : « يتلمس الشبان المتعلمون فى منطقها ضياءً للجذوة المقدسة الكينة فى النفس الإنسانية » وأنا أقول فهل لذلك كان انصرافهم عن الدين غير الخاضع للمنطق ؟

وكان أبشع أقوال الدكتور هيكل باشا وأمسها بكرامة مؤلفى الإسلام وكتبهم وصفه لمؤلفى الغرب بصدق القصد وخالص التوجه إلى المعرفة ابتغاء الحق ، مما لم يجده الشبان المتعلمون أو بالأصح لم يجده عاذرهم الدكتور هيكل باشا حتى فى كتب أئمة الإسلام الأقدمين من المحدثين والمجاهدين^(١) ولذلك أسقط فى مقدمة كتاب « حياة

[١] وأنا لا أنكر أن فى الغرب وكتبه العلمية والفلسفية والأدبية ما يحتاج إلى الأخذ منه =

محمد» (الطبعة الثانية) جميع ما في كتب الحديث فضلا عن السيرة، مثل صحيح البخاري ومسلم وسنن أبي داود والنسائي وابن ماجه وموطأ مالك ومسند أحمد وغيرها من أحاديث معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم، من حيز الاعتداد والاعتماد^(١) حتى إن هذه المقارنة

== والاعتبار به، وليت علماء مصر تعلموا من علماء الغرب ان لم يتعلموا من علمائنا الماضين، السعي البالغ لتدقيق المسائل العلمية من غير ملل، وتقويم الآراء والأفكار بقيمتها الذاتية لا بما كثر أصحابها الرسمية ولا بسمتهم الموهبة، ولتتلمذوا الشجاعة والجهاد والتضحية في نصرة الحق وإزهاق الباطل وعدم السكوت عليه، بعد استعمال البصيرة والثبوت في تمييز الحق من الباطل.. وخصيصا لأنكر ما يحتاج إليه كتاب مصر وأدباؤها وشعراؤها من تعلم هذه الخصلة الشريفة خصلة الجهاد والتضحية في نصرة الحق بعد بذل المجهود في تمييزه من الباطل، فلم وظائف عالية غير الوقوف في صف المباحين أمام الأحياء الذين قال عنهم نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم: «احتوا في أفواه المباحين التراب» وفي صف النائمات من وراء الأموات، فقد كان الشاعر الفرنسي «هوجو» ينظر في أشعاره من منقاه سهام الانذار والتنديد على نابليون الثالث.

ومن أوجب واجبات الشعراء أن لا يمدحوا من يمدحونه إلا بميزان ومقياس ينطبق على المدح فلا يطول عن قده كثوب طويل يكتس بأذياله مواطئ الأقدام، وخلافه يكون إعلانا من الشاعر بأن مدحه لاقية له فيبذله جزافا بغير حساب (ولهذا الهامش بقية وضعها لطلوها في آخر هذا الجزء من الكتاب.)

[١] وإمالى الدكتور هيكل باشا المنكر لمعجزات سيدنا محمد مع تظاهره باستثناء معجزة القرآن عنها، محاولة غير محمودة في مقدمة كتابه «حياة محمد» ترفع الأمان عن كتب الأحاديث وتشكك في صحة ماورد فيها بجملة منسوبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، لتشكيك في صحة أحاديث المعجزات... وكلامه المنقول هنا في إكبار مؤلفي الغرب وإصغار مؤلفي الإسلام يحوم حول تلك المحاولة.

وإني، بجانب موقف معالي الباشا المذكور ضد كتب الحديث، أعتبر علم الحديث والفقه وأصول الفقه تلك العلوم التي دونها علماء الإسلام وقاموا في تجميعها بمساعي جبارة لم ترعين الدنيا مثلها في أي طائفة من أهل العلم المتطوعين بالبحث عن الحقائق العلمية، لافي سبيل الوصول إلى الغايات القانيات بل في سبيل الحصول على رضوان من الله أكبر... ثم اتخذتها دول الإسلام المظلمة من العرب والترك والمغول أساسا لقوانينها في القرون الطويلة التي كان الماسمون فيها أصحاب الكلمة النافذة على وجه البسيطة وحماة الحقوق الإنسانية الصادقين لا يجر منهم شأن قوم على أن لا يعدلوا.. وقد صدق القول بأن الإسلام دين ودولة.

بين مؤلفي الغرب والإسلام الثيرة للشبهة في أمانة المؤلفين المسلمين، تضر كتاب هيكل
باشا هذا أي « حياة محمد » الذي في مقدمته هذه المقارنة .. تضره فتحط من قيمته
بصفة أن مؤلفه من كتاب المسلمين ، ولا تحول دون هذا الخط المضر المزرى تركية

أعتبر هذه العلوم وعلماءها - وقد ذكرته في أمكنة مختلفة من هذا الكتاب - معجزة من
معجزات الإسلام الباقية بعد عصر نبيه صلى الله عليه وسلم كالقرآن وأعم تأثيراً من القرآن الذي
لا يسحر اعجازه غير العرب ، بل لائنين له أيضاً قلوب كثير من العرب الحاضرين ومنهم الشيخ
الأكبر المراغي كما صرح في مقاله المنشورة لترويج فتنة ترجمة القرآن .. وأنا الذي اعتبر علم الحديث
والفقه وأصول الفقه وعلماءها من معجزات الإسلام ولا بد أن يشاطرن في هذا الاعتبار غيري ممن
لهم صلة بتلك العلوم من كتب ... يزع على أولئك المشاطرين أن يستهين معالي الدكتور هيكل
باشا بعلماء هذه العلوم أئمة الحديث والفقه وأصول الفقه فيفضل عليهم المؤلفين الغربيين ... حتى
في صدق القصد وخلص التوجه إلى المعرفة ابتغاء الحق .

نعم أنا أكبر علم الحديث والفقه وأصول الفقه إلى حد عدها من معجزات الإسلام مع عدم
كونها من الحوارق الحقيقية لسنن السكون ، ومع أن كون المعجزة من الحوارق ليس بلازم في
نظر معاليه ، ولهذا فاعتبار هذه العلوم وعلمائها من معجزات الإسلام كان أولى مني بمعاليه ، لو
كانت له صلة بتلك العلوم ولم تسكن معرفته بها وبعلمائها تقتصر على ما تراه في كتب الغربيين عنا
وعنهم .

فهل يمكن أن يكون مجد الأئمة حكماً فقط وإن شئت فقل كما قالوا : عبقرية فقط ، لكن إلى
حد أن يستخرج علماء الإسلام من أقواله وأفعاله التي نسميها نحن الكتاب والسنة ، قوانين كافية
لإدارة الدول الكبيرة وسيادة الدنيا والآخرة . وقد بسط أحد هؤلاء العلماء تلك القوانين في
كتاب يكون ثلاثين مجلداً على مذهب الإمام أبي حنيفة في الفقه سماه « المبسوط » .. هل يمكن
أن تسكون أقوال وأفعال محمد الأئمة تحتوى خزائن أحكام يكتشفها ويستخرجها علماء أمته ، ثم
يكون هذا الاختزان منه وذاك التوفيق للعلماء المستخرجين ، من غير أن يكون ذلك الأئمة نبياً مؤيداً
من عند الله ، وهؤلاء العلماء المستخرجون معجزة من معجزات نبوته ؟ .. ولم يكن مضحكاً ما يدعيه
بعض الغربيين الذين أكبر معاليه علماءهم مستهيناً بعلمائنا ، أن السكوز التي حفظها أئمة القراءة
والحديث مما أوتى محمد الأئمة من الحكمة وقتحتها وشرحها أئمة الفقه المجتهدون ، إنما هي تفصيل
ما تعلمه من الراهب المسيحي بغيرا في دقائق معدودة من مقابلته في طريق سفره إلى الشام وهو
مراهق في الثانية عشرة من عمره ؟ .. ولماذا لم يتفق ذلك الراهب من خزائن علومه التي فتحها علماء
الإسلام ، في دينه المسيحي ؟

المؤاف نفسه لكتابه ولا تزكية فضيلة الأستاذ الأكبر المرافى شيخ الجامع الأزهر ، بعد إن لم تنفع شهادة المسلمين قاطبة فى جميع قرون الإسلام الماضية على أن أصبح الكتب بعد القرآن صحيحا البخارى ومسلم ، ولا شهادة القرآن على أمانة هذه الأمة بقوله : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » وقوله : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » بناء على أن المسلمين متهمون كائنين من كانوا وتهمتهم إسلامهم ، ولو ذكّرتم المؤاف أن إجماع المسلمين حجة قاطعة وهو ثالث الأركان الأربعة التى تقوم عليها الشريعة الإسلامية ، فلمله يضحك منكم ويقول أنا لا أعتد على ركن السنة وهو قول النبى وفعله وأنتم تذكرون لى أقوال الناس .

وقد أخذنى العجب كل الأخذ من قوله بعد هذه المقارنة الظالمة : « لذلك انصرفت نفوس شباب المسلمين المتعلمين عن التفكير فى الأدیان كلها وفى الرسالة الإسلامية وصاحبها ، حرصا منهم على أن لا يثور بينهم وبين الجود حرب لائقة لهم بالانتصار فيها . » فلماذا لا يثقون بانتصارهم فى محاربة الجود والدكتور المؤاف المحارب نفسه صعد إلى كرسى الوزارة ؟ وكذا مؤاف كتاب « الإسلام وأصول الحكم » قاضى المنصورة الشرعى سابقا والمفصول بسبب كتابه عن الأزهر ، والشيخ المحارب قبلهما كان مفتى الديار المصرية . وانتصاره الأكبر أن اسمه يعيش على الصحف والمجلات أكثر من اسم أى عالم عاش من قبله بمصر^(١) وقبل عشر سنوات أنكر الأستاذ فريد وجدى بك معجزات الأنبياء وأنكر البعث بعد الموت أثناء المناظرة بينى وبينه على صفحات جريدة « الأهرام » يعنى أنه حارب الجود ، وعقب المحاربة والمناظرة قرر مجلس الأزهر الأعلى

[١] أما أستاذة ومجدده جلال الدين الأفغانى فحدث عن مركزه بمصر ولا حرج . وأنا لا أهرى أحداً من النازلين بها اشتهر ودامت شهرته فى السنة المتعلمين وأقلامهم مثل جلال الدين ، حتى إن الإمام الشافعى لا يبدله فى التذكار إن لم يكن فى الإكبار ، كما أن فرعون أشهر فى مصر المحاضرة من سيدنا موسى وأدعى منه إلى الفخر للمصريين المجددين .

تعيينه بمرتبة قدره خمسون جنهما مديراً ورئيس تحرير « لمجلة الأزهر » المسماة يومئذ « نور الإسلام » ولو أخصيت أسماء المنتصرين في محاربة الجود لطال الكلام فإذا يطلبون فوق هذه الانتصارات؟^(١) .

[١] وهل يظن معاليه أننا لا ندرى أن الرأى القديم الذى كان يطلق على الظهور فى مظهر الديانة من غير أهلها قد كسدت سوقه وانقلب على عكسه ، حتى ان بعض ضعاف الدين من العلماء والكتاب يودون اليوم أن يظهروا فى مظهر الخروج على أحكام دينهم ليختلسوا من يد الدهر المغلوب ما يستحقونه من المركز الدينى ، يودون ذلك لو أن مبدأ الديانة سامح ذويه ولم يحظر عليهم التشكر والإنكار معاً كما سامح المنفرجين مبدأهم وسوغ لهم التسليح فى نضال الحياة بسلاحين . وقد يكون هذا المبدأ موافقاً لمبدأ التحرر التام .

وهل يظن معاليه أننا لا ندرى ومعنا الواقفون على الأحوال أن ضعف الدين أضمر للنجاح فى مضمار الثقافة المصرية من قوة العلم ، كما أن شهادات العالمية لاسيما الشهادات المكتسبة فى الغرب أكثر رواجاً من العالمية نفسها .

وقد ظهر فى الآونة الأخيرة كتاب يدعو فيه مؤلفه الشيخ عبدالله القصيمى - كما قال الأستاذ سيد قطب فى مقالته المنشورة فى « مجلة الرسالة » عدد ٧٠٢ - إلى إظهار العقلية الأوروبية ، لأنها خلعت ربقة الدين وربقة الخلق وربقة التطلع إلى الله وانطلقت تهدف إلى الأرض وحدها ولا تطلق نظرها مرة إلى السماء لأن التطلع إلى الله كفىل يافساد الحياة .

« وفى ثنايا هذا الذى يبدو تحريراً فكرياً فى ظاهره ، يخدع المخدوعين ممن يحسب التحرر الفكرى مجرد التحلل من الأديان والأخلاق على أى وضع من الأوضاع ؛ من ثنايا هذا يدس الإيماء إلى الشرق العربى المسلم بأن لا حق له فى كراهة الاستثمار والمستعمرين لأنهم ورثة الأرض التى يستحقون كنوزها وخيراتها . »

وأنا أقول لقد أحسن الأستاذ فى كشف الستار عن الضجة المفتعلة التى أثيرت حول هذا الكتاب النافه المريب كما عبر الأستاذ والتى انزلق فيها بعض كبار الكتاب مخدوعين بما صور لهم المؤلف من مخاوف تحيط به وتدينه من جبل المشتقة بسبب كتابه كما قال الأستاذ أيضاً ؛ وأحسن كل الإحسان فى عد هذه الضجة وذلك الانزلاق فضيحة أدبية لمصر وربما دليلاً على غفلة النقد فيها إلى حد مخجل .

ثم أقول ليس كل مقصود المؤلف المعتدى الأئيم التزلف إلى المستعمرين الأقوياء فى مفارب الأرض ومشارقتها ، بل التزلف أيضاً أو بالأصح أولاً إلى الأوساط المثقفة المسموعة الكلام فى الشرق =

ولا أدري لماذا كتب معالي المؤلف بعد سرد أعداء الشباب المتعلمين في انصرافهم من الأديان ، قوله : « ولأنهم لم يدركوا ضرورة الاتصال الروحي بين الإنسان وعوالم الكون اتصالا يرتفع به الإنسان إلى أرقى مراتب الكمال وتتضاعف به قوته المعنوية ؟ » ولماذا لم يأتهم الإحساس بهذه الضرورة المكتملة في نتيجة الانصراف بكليتهم إلى كتب الغرب المهذبة للنفوس ؟

== الإسلامى الحديث وفي مصر خاصة التى يعجبها ضعف الدين ويروج عندها كأقوى شهادة علمية تؤهل صاحبها مركزا ممتازا ، لاسيما إذا كان التزلف من الشيوخ المعممين . يؤيدنى في هذا التوجيه قول الأستاذ صاحب المقالة التى قصمت ظهر الشيخ القصيصى وقذفت بكتابه إلى أسفل سافلين : « ... أولئك هم جميع المسلمين في نظر المؤلف وهذه هي عقليتهم الإسلامية التى جرد قلبه لينسفها نسفا . فيقف جماعة من النقاد في مصر معجبون بهذا القلم القوي البتار . »

فليس الشيخ المؤلف سوى واحد من مستبطنى الإلحاد في الشرق الإسلامى الحديث المذكورين في مقالة الأستاذ فريد وجدى القديمة .. واحد منهم أن له أن يخلع ثوب الاستبطان ويخرج على الملا عربانا . فإن كان الأستاذ فريد وصفهم بالنوابغ وكان الشيخ يبعداً عن هذه الصفة اللهم إلا أن تعدد نابغة في سرقة فصول كاملة من كتاب الأستاذ عبد المنعم خلاف ، فهو على كل حال يؤمل الحصول على رتبة النبوغ في الأوساط المذكورة الذى من أعظم وأسهل شروطه ضعف الدين . أما النقد في مصر فليس الحاكم فيه هو الغفلة فقط كما يرى الأستاذ قطب ، وإنما هو يستند أكثر من الغفلة إلى يقظة متكررة أو متنافلة ويبيع كسلعة في سوق التغيرير والإغراض السوداء الصائنة أو الصامنة ويعتمد ابتعاداً من النقد الحر .

ولابد أن أذكر هنا مثالين ذكرتهما من قبل أيضاً : فقد سبق أن حدثت فتنة ترجمة القرآن في تركيا الكمالية وكتب الأستاذ الأكبر المراغى في « السياسة الأسبوعية » و « الأهرام » مقالة طويلة يرتأى فيها لا جواز القراءة في الصلاة للأعاجم بتراجم القرآن على لغاتهم ، مع القدرة على قراءة الأصل العربى . بل ترجيح قراءة التراجم على قراءة الأصل ، فضلاً عن جوازها . وكنت انتقدت مقاله تلك انتقاداً مفصلاً في كتابى « مسألة ترجمة القرآن » المنشور سنة ١٣٥١ هـ وكان الأستاذ المراغى لم يجب على انتقاداتى ، ثم تجدد النقاش على موضوع ترجمة القرآن بعد سنين بين بعض الفضلاء الدائدين عن حمى القرآن كالشيخ محمد سليمان نائب المحكمة الشرعية العليا والأستاذ المهيأوى صاحب جريدة « المنبر » فتمدهما الله برحمته وبين الدائدين عن حمى مشيخة الأزهر المروجة ==

ثم إن معاليه اعتنى غاية الاعتناء بالفلسفة الوضعية « بوزيتويزم » التى سبق منا ذكرها باسم الإبتاتية مع التنبيه على زعيمهم الذى احتقر فكرة الدين وعدها حالة ابتدائية فى الإنسان ثم وضع ديناً جديداً معبوده الإنسان ولا سيما المرأة ، وعلى أنها أحدث فلسفة لدعاة الإلحاد فى الغرب العاملين فى زيغ فرنسا إلى الحكومة اللادينية » اعتنى بهذه الفلسفة الملعونة لحد اعتبارها حجة للمنصرفين عن الدين واستهان بالتفكير التجريدى الميتافيزيقى أعنى فلسفة ماوراء الطبيعة التى منها الفلسفة الإلهية ولم يمتد بها تفكيراً علمياً كونهاميتافيزيقية غير مستندة إلى التجربة الحسية ولعدم اعتداد الميتافيزيقى من العلم . وهذا هو المرض المستولى على عقول المعلمين العصريين - طبقاً لبرنامج الملاحدة الإبتاتيين - والذي بذلت لداواته كل مجهود فى هذا الكتاب . وأنت ترى

للموضوع فإذا بمقالة الأستاذ الأكبر المرافق القديمة قد نشرت مرة ثانية بعينها فى « مجلة الأزهر » إصراراً على ما فيها من الأخطاء التى من جلتها طيش سهم صاحب المقالة عن فهم أقوال الفقهاء الأحناف - وهو يشبه خطأه فى فهم بيت من أبيات البردة استشهد به فى مدح كتاب هيكى باشا نافعاً لمعجزات سيدنا محمد غير القرآن ، ثم سد أذنيه لئلا يسمع تقدى كما أغضض عينيه عن أبيات أخرى فى نفس القصيدة ناطقة بتلك المعجزات المنفية ومكذبة للمادح والممدوح . وقلماً يوجد فى الدنيا استهتار كهذا فى الجمل والتجاهل - وكنت قد نهيت إليها فى كتابى المذكور فتجوهل للتنبيه والمنبه اعتماداً على غفلة الناس عن الاطلاع على الحقيقة .

والمثال الثانى أنى لما نشرت كتابى « القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون » وفيه انتقادات على كثير من كبار الكتاب وذوى المناصب لاسياً معالى هيكى باشا مؤلف « حياة محمد » وجريت على عادة المؤلفين فى الإهداء إلى الجرائد المعروفة فأعلن عن كتابى كل جريدة أهديت إليها واطلمت هى على محتوياته وشذت « الأهرام » فى الإباء عن الاعلان مع استلام النسخة المهداة إليها . فكانت هذه المحاولة الصامتة من الجريدة فى عهد رئيس تحريرها أنطون جميل باشا ، دفن النقد الحر فى التراب ، كما أن ترك الرد من الأستاذ الأكبر على تقدى تجاهله كان خوفاً من شيوع النقد أكثر من النقد نفسه .

وعندى مثال ثالث أغرب من الأولين لقيه كتابى « تحت سلطان القدر » المنشور قبل « القول الفصل » وبمد « مسألة ترجمة القرآن » ليس من الحكمة أن أذكره ، وربما يذكره التاريخ .

الفيلسوف الكبير ديكارت يقول تقديرا لجلالة قدر الميتافيزيق : « لما كان الذهن الإنسانى مشغولا بالمحسوسات فقد وجب تخليصه منها وفتح عينيه إلى مسائل الميتافيزيقا لكي يرى الأفكار والمعاني في صفائها وجلائها ويحتاج ذلك إلى مجهود خاص وهو ما يسمى بالانتباه أى تركيز الفكر كله فى الأمر المروض عليه^(١) .

ويقول أيضا : « من أراد الوصول إلى الحقيقة فى المسائل النظرية وجب عليه أن يتدرب على المنهج وأن يمارس قواعده لكي يصل إلى استعمالها فى يسر واطمئنان ، وبعد أن يطول مران الإنسان على استخدام المنهج يجب أن يبادر بالنظر فى الفلسفة الحقيقية التى جزؤها الأول الميتافيزيقا والثانى الفيزيقا الخ . . . واذن فالمنهج قد ألف ليكون سبيلا لإقامة الميتافيزيقا التى منها يكون الشروع فى كل ماعداها^(٢) .

ويقول « إن القوانين التى تسيطر على العالم الطبيعى يحددها ماتعلمنا الميتافيزيقا عن الله^(٣) وإذا كان الله تعالى لا يثبت وجوده إلا بطريقة ميتافيزيقية وكانت هذه الطريقة غير معترف بها من العلم ، فإذا فائدة كتاب عن حياة محمد رسول الله الذى لم يثبت وجوده علميا ؟ وماذا فائدة مراعاة الطريقة العلمية الحديثة الغربية فى تأليف هذا الكتاب كما ادعاه مؤلفه وكرر دعواه بهذا الصدد تكريرا ؟ وهل أول مراعاته الطريقة العلمية الحديثة الغربية فى وضع كتاب عن حياة محمد رسول الله أن يعتبره رسولا من غير ثبوت وجود مرسله ثبوتا علميا ؟ اللهم إلا أن تكون فائدته إثبات زعيم عربى عظيم مستحق بالوجوه للزعامة ، ووضع كتاب عن حياة ذلك الزعيم تحت عنوان رسول الله كما أشرنا إليه من قبل أيضا ، فإن لم تثبت رسالته لعدم ثبوت وجود مرسله فلا كلام فى زعامته واستحقاقه للزعامة .

[١] ص ٨٣ من كتاب « ديكارت » للدكتور عثمان أمين - طبعة ثانية .

[٢] ص ١١٦ من الكتاب المذكور .

[٣] ص ١٨٢

لكننا نحن لا يقنعنا ولا يُروى علمنا وعقلنا إلا أن يكون الله موجودا أحق بالوجود من كل موجود وأقدم ، وإلا أن يكون محمد العربي صلى الله عليه وسلم رسول الله ، على الرغم من كون كل من وجود الله والرسالة عن الله من المسائل الميتافيزيقية ، فتلزم لضرورة وجود الله قبل كل شيء الذى هو موجود ميتافيزيقى ، ضرورة الاعتراف بالموجود الميتافيزيقى ، فإن كان فى الوجود موجود فيزيقى فلا بد أن يكون قبله موجود ميتافيزيقى كما ستعرف ذلك فى هذا الكتاب إن شاء الله . فإذن الموجود الميتافيزيقى أثبت فى الوجود من الموجود الفيزيقى ، بله أن يكون وجود الأول أضعف ثبوتا من وجود الثانى كما أوهمه كلام معالى المؤلف .

وكما أن الله تعالى موجود ميتافيزيقى فالعقل الذى به نفكر فى كل شيء ونحكم بوجوده أو عدم وجوده ميتافيزيقى أيضا . ومن هنا قال « شاتوبريان » : إن الإنسان حيوان ميتافيزيقى « ومن هنا أيضا لا يعترف العلم الذى لا يعترف بما وراء الطبيعة ، بالعقل كقوة خاصة تمتاز عن القوى العادية الطبيعية ، كما لا يعترف بالله ولا بالروح .

لا يقال إن الماديين النافين للميتافيزيقى لا ينفون العقل ، ولا يلزم من إنكار كونه قوة خاصة مختلفة عن القوى الطبيعية نفي وجوده بالمرّة ، فهم يقولون إن الإدراك فعل المخ وأثره الطبيعى كما يلد الكبد الصفراء والكلية البول . لأننا نقول ليس الفكر أثر المخ الذى هو موجود مادي وإن كان وجود المخ شرطا عاديا لوجود الفكر . فلو كان الفكر أثر المخ ومولوده لكان ماديا كالمخ وكان متعلقا بإحدى الحواس كما كانت الصفراء والبول . فليس الفكر مادة ولا قوة من القوى المادية المعلومة ، مع أن الموجود الطبيعى منحصر فى المادة وقواها المعلومة ، فيلزم أن لا يكون الفكر موجودا على قاعدة العلم الطبيعى لعدم كونه محسوسا بإحدى الحواس ... فوجود الفكر فى الإنسان أجلى دليل على وجود موجود ميتافيزيقى ، ووجوده غير القابل للإنكار ينقض نقضا ظاهرا لقاعدتهم

القائلة بأن كل معقول لا يؤيده محسوس فلا يعتد به^(١) حتى إن وجود الروح لو ثبت بالتجارب الجديدة الحسية كما يدّعونه وأمكن الماديين أن يعترفوا بوجودها إلحاقاً لها بالمادة لكونها محسوسة ، فلا يمكنهم أن يعترفوا بوجود الفكر كوجود الأشياء المادية الطبيعية .

ولأن يكون معالي المؤلف قد جمع أخطاء جمة في صفحة واحدة من مقدمة كتابه ، أثنى في مختتم كلامه على المبدأ الغربي المتعلق بفصل الدين عن الدولة فصلاً واضحاً صريحاً . والدين في مصر وإن كان مفصولاً عن الدولة والحكومة إلى حد ما ، لا تقسام المحاكم فيها إلى شرعية وغير شرعية وامدم دخول شيخ الأزهر في هيئة الوزارة ، .. لكن معاليه يتمنى فصلاً أوضح وأصرح ، بأن يحذف بتاتا من الدستور كون دين الدولة الرسمي الإسلام كما وقع في تركيا الحديثة ، أو يجرد لفظه عن كل معنى حقيقى كما فعلت الدول الأوروبية بدينها المسيحي الذي يبتدي خطأ الخاطئين من قياس الإسلام عليه .. وهذا الفصل الواضح الصريح الذي هو آخر آمال المتعلمين العصريين وآخر مفاهيم من ديننا والذي ذكره الأستاذ فرح أنطون أيضاً عند مناظرته الشيخ محمد عبده وجعل رقى أوروبا مدينه له ، ويفهم من اتفاق رأى معاليه مع رأى الأستاذ فرح صدق ما قلته من قبل أن الرجل اكتسب القضية ضد مناظره عند رأى العام - أفردت في آخر كتابي باباً للنظر فيه .

وهنا أقول سلفاً وباختصار إن معناه خروج حكومة المسلمين من ربة الإسلام ورقابته عليها وخروج الأمة أيضاً من ربقته باختيارها الحكومة الخارجة على الإسلام حكومة لها ، لاسيما الحكومة المستندة إلى البرلمان المستند إلى الأمة ، فتل الفصل في تلك الحكومات كمثل المفاداة بالردة حكومة وأمة . وإذا كان في الأفراد أو على الأصح

[١] بل المحسوس أشد احتياجاً إلى تأييد المعقول من عكسه فلا يمكن الاقتناع بوجود المحسوس لو لم يكن المعقول ، وسيأتى بيان كل ذلك إن شاء الله .

في بعضهم دين يعيش إلى أن ينقضى جيلهم ، يعيش محكوما للحكومة لا حاكما عليها كما كان قبل الفصل . وهذا وحده كاف في أن يكون الفصل كفرا لاسيما إذا كان تنزيل الإسلام عن عرش حكمه ، بأيدي المسلمين أنفسهم ، لأن الإسلام يعلم ولا يعلم عليه . والمضحك المبكى أن حكومات المسلمين أيام كانت في أوج عزها وقوتها وخضعت لها الدول ، كانت تخضع لحكم الإسلام وترضى أن تكون تحت رقابته وإشرافه ، والآن يُسَوَّلُ لحكومات المسلمين العاجزة المهزولة أن تخرج على الإسلام وتتحكم هي عليه . وقد يقول المجددون الأكياس لاحاكم هناك ولا محكوم عليه ، وإنما يراد بالفصل أن يكون الدين والحكومة مستقلين لا يتدخل أى منهما في شأن الآخر . لكنى أعرف جيدا ويعرف الإسلام الذى هو أكيس منهم أن الجانب الذى يتولى السياسة والسلطة ، لابد أن يحكم على الجانب الذى تنازل عنهما ، فيصير الدين المنعزل عن السياسة كالخليفة الزائف عبد الحميد الذى تنازل عن السلطة لمصطفى كمال فكفى في أجلاته عن عرش خلافته الاسمية وعن بلاده في منتصف ليلة من الليالى ، ورودُ أمر من أنقره إلى مدير البوليس بالآستانة وقيام البوليس بتبليغه آياه مع إيقاظه عن نومه بكلام معنويه .

وبالنظر إلى أن بلاد الإسلام تطلق في عرف الشرع على بلاد تحكم فيها قوانين الإسلام وأن عزل الدين عن التدخل في أمور الدولة يُخرج تلك البلاد من عداة بلاد الإسلام .. فبالنظر إلى هذا وعلى الرغم منه إن كانت المخالفة لمبدأ الفصل والعزل معدودة من الجود المغيب عند معاليه وأمثاله من المجددين ، فأنا أجد الجامدين وأحمد الحامدين لله تعالى على جودى هذا ؛ وباقى الكلام على مبدأ فصل الدين عن الدولة يأتي إن شاء الله في محله الذى هو الباب الرابع من هذا الكتاب .

وكنت أود إرجاء الجواب أيضا على قول معاليه في الدول الغربية المنتمية إلى الدين إنها لا تقصد منه سوى مظاهر الأعياد والمراسم ، إلى ذلك الباب الذى ينتهى فيه الكتاب ، ومعنى قول معاليه هذا أن الأولى بالدول الإسلامية أيضا أن تكتفى في

ديانتها بما اكتفت به الدول المسيحية ؛ لكن خطورة هذا المعنى تضطرني إلى إن أمجد
في الجهر بالحق فأقول :

إن كون الدولة لا تقصد في ديانها سوى مظاهر الأعياد والمراسم ليس من الديانة
الحقيقية في شيء ، وإنما هو نفاق أى ديانة في الظاهر وكفر بالدين في الباطن إن كان
الدين المسيحي يقتنع بهذا وينخدع فلا يقنع الاسلام ولا ينخدع به في المنتمين إليه
أفرادا أو جماعات متشككة .. ولهذا فنحن المسلمين إن كنا جادين في ديننا معترفين بأننا
تحت حكم الله وتكاليفه الواصلة إلينا بواسطة رسوله ، فلا فرق بيننا في هذا الموقف
منفردين أو مجتمعين ، فكما لا يجوز أن يفصل الفرد المؤمن بالله ورسوله عن دينه
فيكون في أفعاله محررا عن القيود الدينية ، لا يجوز لدولة تعتبر دولة المسلمين فصل الدين
عن نفسها لتكون الهياة الحاكمة فيها تفعل ما تشاء غير مقيدة بأمر الدين ونهيه . فإذا
خرجت حكومة أمة مسلمة عن حدود دين الأمة من غير ادعاء لنفسها حق الانفصال
عن الدين ، كانت حكومة فاسقة كأحد المذنبين من أفراد المسلمين ، ولم تكن حكومة
مرتدة عن الاسلام ، لأنها فصلت الدين عن الدولة عمليا لاعلميا واعتقاديا . فينطبق عليها
قول الله تعالى « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » .

أما إذا خرجت عن حدود الدين مدعية لكون الخضوع لأمر الدين ونهيه واجبا
على الأمة دون الحكومة ، فهذا فصل الدين عن الدولة مبدئيا أى علميا واعتقاديا ، وهذا
ارتداد الدولة عن الإسلام وارتداد الأمة معها . إذا رضيت هذه الحالة لحكومتها أو
كانت في حكم الراضية بأن تكون الحكومة حكومة برلمانية تحكم بالنيابة عن
الأمة . فينطبق عليهما حينئذ قوله تعالى « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم
ال كافرون » .

وموقف الحكومات الاسلامية من الاسلام لا يقاس على مواقف الحكومات
الغربية المكتفية من دينها المسيحي بمظاهر الأعياد ، لأن رجال تلك الحكومات

الذين لابد أن يكونوا من عقلاء بلادهم ، لابد أيضا أن يكونوا غير صميميين في دينهم الذى لا يتفق مع العقل ، (كما سبق بيانه منا في أول هذا الكتاب) فيكتفون بالمظاهر احتراماً للعامة المتدينين واعترافاً بمصلحة البلاد في احتفاظ العامة بالدين .

بخلاف الإسلام الذى تسير أصول الدين فيه مع العقل وبحق من هذه الحيثية أن يكون دين العقلاء ، فلا يختلف خاصة المسلمين عن عامتهم في إخلاصها للديانة ، بل يكون الخاصة أولى به من العامة .. وكتابتنا على طوله يثبت هذا المدعى ، حتى ان مؤلفه يحتاج عند كل دفاع عن الإسلام إلى الدفاع عن قيمة العقل وكرامته .

هذا ، ومع كون الإسلام لا يقاس بالمسيحية إن كانت هى يتسع صدرها لفصل الدين عن الدولة ، فقد صرح المصلح المسيحى المشهور « كلفين » بالاسم الذى يستحق أن تسمى به الدولة المتجردة عن الدين كما سبق نصه في آخر الرقم (٢) .

٥

وانظر إلى قول الأستاذ فريد وجدى في جريدة « الأهرام » ردًا على مقالتي في مسألة معجزات الأنبياء ، والقارىء يرى مقالتي ومقالة الأستاذ المنشورة قبيل توليه الوظيفة الأزهرية .. يراها بتمامها في ذيل الكتاب .

يقول الأستاذ^(١) : « في تلك الأثناء ولد العلم الحديث وما زال يجاهد القوى التى

[١] قول الأستاذ هذا سبق ذكره منى مراراً بينه أو بصورته المألوفة ، وسأذكره كذلك بنصه أو بخلاصته عند كل مناسبة تقتضيه ، فقد عازمت على ذلك ووعدته للقارىء في أوائل الكتاب . لأنى وجدته حجة ضد الأستاذ ومن على عقليته من ضاعف الإيمان بالإسلام أقلت من قلبه عند أول ما التقينا في حلبة المناظرة على صفحات الأهرام . وكان مقصوده من هذا الإنشاء عن الشرق الإسلامى المنهزم أمام سلاح العلم الحديث ، تهديدى بسمعة ذلك السلاح عند المهزومين ، ومقصودى من تكرارها عكس سلاح الأستاذ عليه والاستمرار فى تذكره بأنى لا أعاباً بذلك السلاح الذى غالى فى إعظامه .

كانت تساوره حتى تغلب عليها فدالت الدولة إليه في الأرض ، فنظر نظرة في الأديان وسرى عليها أسلوبه^(١) فقذف بها جملة إلى عالم الميتولوجيا «الأساطير» ثم أخذ يبحث في اشتقاق بعضها عن بعض واتصال أساطيرها بعضها ببعض فجعل من ذلك مجموعة تُقرأ لا لتقدس تقديساً ولكن ليعرف الباحثون منها الصور الذهنية التي كان يستعبد لها الإنسان نفسه ويقف على صيانتها جهوده، غير مدخر في سبيلها روحه وماله .

« وقد اتصل الشرق الإسلامي بالغرب منذ أكثر من مائة سنة فأخذ يرتشف من مناهله العلمية ويقتبس من مدينته المادية فوقف فيما وقف عليه على هذه الميتولوجيا ، ووجد دينه مائلاً فيها فلم ينبس بكلمة لأنه يرى الأمر أكبر من أن يحاوله [ليتأمل القارئ هذه الكلمات] ولكنه استبطن الإلحاد متيقناً أنه مصير اخوانه كافة متى وصلوا إلى درجته العلمية [ليتأمل القارئ*] .

« وقد نبغ في البلاد الإسلامية كتاب وشعراء وقفوا على هذه البحوث العلمية فسحرتهم فأخذوا يهيمون الأذهان لقبولها دساً في مقالاتهم وقصائدهم ، غير مصارعين بها غير أمثالهم تفادياً من أن يقاطعوا أو ينفوا من الأرض .

« وقد عثرنا نحن في جولاتنا العلمية على ماعثروا عليه فكانت صدمة كادت تقذف بنا إلى مكان سحيق لولا أن من الله علينا بوجود المخلص منها وهو قوله تعالى : « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات .. الآية » فسجدنا شكراً وقلنا مانعة الصواعق بل مانعة العرق » .

وأنا أقول ماذا هو مناسبة كون القرآن مشتملاً على المحكمات والمتشابهات - حتى ولو فرضنا فرض الحال أن آيات المعجزات وآيات البعث بعبد الموت داخلة في المتشابهات لا المحكمات كما زعمه الأستاذ .. ماذا مناسبة هذا بكارثة حلت بالأديان

[١] يريد بأسلوبه قانونه القائل بأن كل معقول لا يؤيده محسوس فلا يعتد به .

وهي كونها مقذوفاً بها بيد العلم الحديث في عالم الأساطير ثم جعل مجموعة منها تُقرأ لا لتقدس تقديساً بل تُقرأ كتاريخ الأديان ليفهم منه الإنسان الحديث مبلغ حماقة قديمه الذي استعبد نفسه لدينه وضحى في سبيله بماله وروحه؟ فهل كانت مانعة الصواعق أو مانعة الفرق هذه أعني متشابهات القرآن منقذة للأديان عامة وللإسلام خاصة الذي رآه المسلمون الشرقيون المظلمون على علوم الغرب مقذوفاً به مع سائر الأديان إلى حفرة الأساطير ، فلم ينبسوا بكلمة في الدفاع عن دينهم لكون حكم العلم الذي هو صاحب الدولة اليوم في الأرض ضد الأديان ، أكبر من أن يحاول دفعه محاول ، فلهذا تركوا الدفاع عن دينهم بل تركوا دينهم ، واستبطنوا الإلحاد وتمسكوا به غير مصارحين الناس متيقنين بأن مصيرهم أيضاً الإلحاد متى وصلوا إلى درجتهم العلمية؟

كلا ، لم تُنقذ آية التشابهات شيئاً من ذلك ، وإنما سجل الأستاذ فريد وجدى في كتبه هذه على كبار المثقفين من أهل الشرق الإسلامى باستبطان الإلحاد وعلى نفسه بما يؤول إليه ، وإن شئت فسمه باستبطان الاستبطان !.. فلو فرض أنا استقبلنا الملاحدة المعتدين على الأديان عامة والإسلام خاصة بسلاح العلم الحديث الذى لا يؤمن إلا بما ثبت بالتجارب الحسية .. لو فرض أنا استقبلنا سلاحهم بالسلاح الذى اخترعه الأستاذ فريد وجدى بك وقلنا لهم إن فى كتاب الله المنزل على رسولنا آيات محكمات وآيات متشابهات ، لضحكوا منا ومن مناسبة كلامنا بدعواهم ضد الأديان . فهم لا يعترفون بوجود الله لعدم كونه فى متناول التجربة الحسية التى لا يعتمد العلم الحديث على غيرها ، ونحن نقول لهم إن فى كتاب الله آيات كذا وكذا !.. لكن مصر لم تضحك من الأستاذ فريد ومن تظاهره بالدفاع عن الإسلام بل ولته إدارة مجلة الأزهر ورئاسة تحريرها ليستمر فى الدفاع عن الدين من فوق منبر الأزهر بهذا الشكل المضحك لأعداء الإسلام وأعداء الأزهر ، ولم يضحك الأستاذ من نفسه بل من المسلمين الغافلين

الذين انتدبوه للدفاع عن دينهم وهو نفسه من الضاحكين مع أولئك الأعداء .
وكما لم تكن آية التشابهات التي تمسك بها الأستاذ لإنقاذ الإسلام من قذف
العلم الحديث به مع سائر الأديان إلى حفرة الأساطير ، منقذة له منه ومنقذة لنوابغ
الشرق الإسلامى وفيهم الأستاذ نفسه من استبطان الإلحاد ، ولم يوجد في تلك الآية
أي مخلص من الصعق أو الفرق - فكذلك لا تكون هذه الآية ولن تكون بمنقذ
للأستاذ من إنكار معجزات الأنبياء والبعث بعد الموت ، افتنانا منه بالعلم الحديث
الذى لا يعترف بالمفاهيم الخارجة عن متناول التجربة في الزمان الحاضر .

فلا وجه إذن لتمسك الأستاذ بهذه الآية كمروة النجاة من الانزلاق إلى الإلحاد
الذى انزلق إليه غيره من نوابغ الكتاب والشعراء في الشرق الإسلامى وكان هو
الآخر نفسه موشكا للانزلاق لولا هذه الآية في كتاب الله .. لا وجه للتمسك بها
دفعاً لتيار الإلحاد الجارف ، إلا أن يكون معنى التمسك بها أن السبب في إلحاد هؤلاء
النوابغ وانصرافهم من الأديان انطواء الأديان على أنباء من الماضى والمستقبل لا يصدقها
العقل لمخالفتها السنن الكونية ولا العلم لعدم إمكان وزنها بميزان التجربة كظهور
خوارق المعجزات على أيدي الأنبياء السالفين المعروفين بأسمائهم في الكتب المقدسة
وبعث الناس من قبورهم للنشأة الآخرة بعد أن ماتوا وأكلت الأرض أبدانهم .

فالأستاذ فريد على زعمه أو بالأصح على ما يتظاهر منه ، حل هذه المشكلات التى
أخرجت غيره من دينهم ، بآية المحكمات والمتشابهات ، فكان هذه الآية تقول إن
أنباء الخوارق الماضية والآتية المذكورة في كتاب الله لم يرد الله بها ما يفهمه الناس
منها ، لكونها من قسم الميـشابهات التى تنقسم آيات القرآن إليها وإلى المحكمات ، فلا
معانى لها مفهومة ولا مطلوبة الفهم ، وما أراد الله بها مستور عنا .

لكنه يرد على حمل التمسك بالآية المذكورة على هذا المعنى أن فيه تصديقاً للعقلية

غير المعترفة بالمغيبات الخارجة عن متناول التجربة الحسية ، ويدخل في هذه العقلية عدم الاعتراف بوجود الله أيضاً كما قال الأستاذ فرح أنطون « إن في رأس الدين الإيمان بخالق غير منظور » فليس الله على هذه العقلية بموجود أى ثابت الوجود حتى يكون له كتاب منزل كالقرآن ويكون في آية من آيات ذلك الكتاب حلُّ شبهة الأستاذ وإقناذه من المشكلة العلمية التي تسوق الإنسان إلى اعتناق فكرة الإلحاد وقد ساق إليه غيره من نوابغ الشرق الإسلامي الذين لم يطلعوا على ما اطلع عليه ذكاء الأستاذ من الآية المذكورة المنقذة .

فتبين أن الأستاذ لم يكن له أى نفع من الآية التي تمسك بها يجعله مختلفاً عن الملاحدة النوابغ ، فهو كهؤلاء لا يعترف بما لا يعترف به العلم الحديث الذي هو سائقهم إلى الإلحاد، فينكر المعجزات وسائر المغيبات كما ينكرون . بل الأستاذ أسخف موقفاً منهم ، لأنهم على الأقل لا يضيفون إلى ضلال الإلحاد الذي في إنكار المغيبات ضلالاً آخر هو حمل آيات المعجزات وآيات البعث بعد الموت الصريحات الماثبات للقرآن ، على التشابهات غير مفهومة المعاني ، لكن الأستاذ ينكر المغيبات فيلحد وبقية على إلحاده دليلاً من القرآن^(١) فيلغى بهذا الدليل آيات لا تحصى من القرآن ويخليها عن المعنى الفهوم .

[١] لأريد أن أتهم الأستاذ بالكفر والإلحاد ولأخاله بنى وجوداته عمداً . فهو ليس غير رجل متقلب في شكة الذي استفاده من العلم الحديث ، وربما تراه في بعض تاراته وتطوراته خصماً هاجماً على هذا العلم الذي أكبره هنا كل الأكابر ، تراه خصماً هاجماً عليه من غير تخلص عن مغالب إضلاله ... لأريد أن أتهمه وإنما ألقت النظر إلى ما يلزم أقواله التي صرح بها أو يستنتج منها . وأنا أعرف أيضاً عدم جواز الحكم في حق أحد بما يلزم قوله أو يستنتج منه . وأعترف بأن لزوم الكفر ليس بكفر ، وإنما الكفر في التزامه كما أن لازم المذهب ليس بمذهب إلا أن يكون اللزوم في المسألين لزوماً بيناً ، إذ عند ذلك يكون اللزوم في قوة الالتزام .

أعرف كل ذلك وليس لي أى عداوة أو خصومة نحو الأستاذ . لكن من واجبي في هذا =

وكان الأستاذ قد كتب قبل مقالته التي نقلنا الجمل السابقة منها ، مقالة ادعى فيها استحالة كل ما ورد في القرآن من قصص معجزات الأنبياء عليهم السلام وقصة أصحاب الكهف وخروج دابة من الأرض تكلم الناس وخروج الموتى من قبورهم للحشر والحساب .. ادعى استحالة كل ذلك عند العقل والعلم ، ثم رد تلك الآيات الواردة فيها والتي تكاد تكون من كثرتها وتكرارها ربع القرآن ، إلى متشابهات غير مفهومة المعاني . وكان هذا سبب ردى عليه في مقالات نشرتها « الأهرام » وقد جمعها وكتبها في آخر هذا الكتاب مع مقالات الأستاذ التي قابل مقالاتي بها ، لتسهيل المقارنة بينهما للقارى .

== الكتاب ، وقد أردت أن أكون مشخصاً للداء العصرى الذى أصيب به المسلمون المتعلمون فى دينهم ، حق التشخيص ثم مداوهم بكل ما أوتيته من قوة والهمته من حجة - أن أتبع أقوال الأستاذة العصريين وأتبعها ، فربما يكون لازم القول الذى لا يكون عقيدة لفائله ، مذهباً متبعاً لكثير من الذين اتخذوا ذلك القائل قدوة لهم . فيكون فيما لا يضر القائل - إن فرضنا ذلك - ضرر عظيم لقراءه فيجب تنبيههم عليه ، لأنى كتبت هذا الكتاب للقراء الخائدين الصادق الرغبة فى معرفة الحق واتباع ما هو الأحق بالقبول ، ولم أكتب للأستاذة الذين ناقشتهم وأنا أعرفهم لا يعترفون بأخطائهم مهما تبينت عند النقد ، لأنهم مرتبطون بما وصل إليهم من مذاهب الغربيين فلا يحيدون عنه ، وحسبك أنهم لا يعتدون بالأدلة المنطقية فأصبحوا لا دواء لدوائهم كما قال الشاعر :

جنونك مجنون ولست بواجد طبيباً يداوى من جنون جنون

وحسبك أنهم لا يشقون بغير ما ثبت بالتجربة الحسية ، وقد قال الأستاذ فريد وجدى : كل معقول لا يؤيده محسوس فلا يثبت به ، لأن ذلك ما وصل إليه من علم الغرب . ومقتضى هذا عدم ثبوت وجود الله ثبوتاً علمياً لأنه لا يدخل تحت التجربة الحسية ، وعلى الأقل لم يدخل إلى الآن .

ثم إن الأستاذ رغم هذا المانع العلمى يصدق بوجود الله لأن كبار العلماء فى الغرب مثل « كانت » الألمانى يؤمنون بالله ولا يسمع الأستاذ أن يخالفهم . وهو أى « كانت » لا يبنى إيمانه على دليل على نظرى بل على دليل سماه دليلاً أخلاقياً أساسه الإيمان بالنشأة الأخرى كما سيأتى تفصيله فى هذا الكتاب . لكن الأستاذ لا يؤمن بالنشأة الآخرة ويرد آيات البعث بعد الموت أيضاً إلى متشابهات القرآن فلا يتمشى مذهبه فى الإيمان بالله مع مذهب « كانت » أيضاً ! فهل يستطيع أحد من العقلاء المنصفين أن يقول معتزلاً عن الأستاذ : ليس فى رد آيات البعث بعد الموت فى القرآن إلى المتشابهات غير مفهومة المعانى ولا بسياً غير مفهومة المعانى لاستحالتها ، إنكار للنشأة الآخرة ؟

ولا شك أن تلك الأمور المذكورة التي أنكرها الأستاذ زاعماً عدم إمكانها ، لا يراها المتقدون للأديان والمقتنعون بوجود الله خارجةً عن متناول قدرته المحيطة بجميع الممكنات - وهي ممكنة في حد ذاتها - فلا يترددون في تصديق أن ما نطق به كتاب الله من أنباء المعجزات ، قد وقع كلها في عهود الأنبياء الماضين كما نطق وفُهِمَت معانيها وتفهم حالاً واستقبلاً كما نطق وفُهِمَت معانيها وتفهم حالاً واستقبلاً فهم معاني أوضح آيات الكتاب ، كما أن ما نطق به من أحوال النشأة الآخرة فُهِمَت معانيها وآمن بها المؤمنون في كل عصر ، وكيف لا تُفهم وقد خصها الله سبحانه بالاعتناء بتفهمها ، فيرى قارىء كتاب الله في آياته التي قلما تخلو عنها سورة من سورته كيف يجادل القرآن منكراً البعث بمد أن كان الإنسان تراباً أو عظماً نخرة ويتشدد في محاجتهم . حتى إذا قال أحد من الناس المدعين لأنفسهم الفهم أكثر من غيرهم أو المتساوين معهم في الفهم : « لا أفهم تلك الآيات كان ذلك معاندة القرآن ، لا أكثر ولا أقل وهذا كما تحدى الله بما أظهره على أيدي رسله إلى الناس من المعجزات ، منكراً رسالاتهم في القرون الماضية وقد أظهرها الله لإعجازهم عن المعارضة بأمثالها ، وقصها القرآن تذكرة وعبرة للخلف من عجز السلف لا لإعجاز الخلف عن فهم ما وقع للسلف مع أنبياءهم . فهل يمكن بعد هذا وذاك أحداً ممن يؤمنون بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر أن يبلغ به استبعاده لوقوع معجزات الأنبياء فيما مضى من الزمان كما قصها الله علينا في كتابه ، ووقوع البعث بعد الموت في مستقبل الزمان كما أخبر الله به فيما لا يحصى من آيات كتابه ، مبلغ أن يقول : لا أفهم ماذا يقول الله في تلك الآيات الكثيرة ولا يفهمه أحد من أصحاب العقول ، فتلك الآيات آيات متشابهة خارجة عن طور الفهم لما أراد من معانيها ، كما أن المعاني الظاهرة منها خارجة عن طور العقل والإمكان ... فإن بلغ به استبعاده لما نطقت به تلك الآيات الصريحات الصارخات ، مبلغ أن يقول هذا القول كان ذلك إنكاراً مضاعفاً لتلك الآيات وما نطقت هي به .

لا، لا، إن دعوى كون تلك الآيات من التشابهات غير المفهومة احتقار من الأستاذ لقراء كلامه بنسبتهم إلى العجز عن فهم ما يرمى إليه بدعواه من عدم إيمانه بصديق تلك الآيات، أو إشارة منه إلى أن في مصر يقول من شاء ما يشاء ولا يخاف تبعه ما قاله، لا من حيث حرية القول الدستورية، بل من حيث أنه لا تراعى بها حرمة القول وكرامته، فيُلْقَى به جزافاً ولا يبالي بكونه حقاً أو باطلاً أو مصادماً للبديهي . وإنما يبالي بأسلوب الإلقاء وبما في القول من إرضاء هوى محي بقوة من القوى الزمنية.. فقد قرأت لأحد من كبار الأساتذة بمصر - المرحوم عبد الله عفيفي بك - أنه كان يدعى في مناقشة واحد من أعيان محرري «الأهرام» أن الشاعر المتنبي لم يهجُ الأمة المصرية في مناداتها بقوله : « يا أمة ضحكك من جهلها الأمم » في قصيدة له في هجاء كافور^(١) .

[١] وفي مصر التي أصبح العلم فيها عبارة عن تحسين الكلام وتزيينه ، لم يحفظ الكلام أيضاً بقيمته ولم تعد صلة صحيحة بين اللفظ ومدلوله ، إذ لا يقرأ القارئ - من تعويده الكتاب عليه - على أنه كلام صادق وإنما يقرأه على أنه قول بليغ جاذب . وهذا هو الذي تواضع الكتاب وقراؤهم عليه ، وهذا هو ما ينتظره القراء من الكتاب ، فلو شذ أحد واهتم فيما كتبه بمطابقة الواقع ذهب اهتمامه هدراً ، فارتفع الأمان من تأثير القائل بقوله في قلب السامع من ناحية مطابقتها للواقع . وإذا كان قول الله في كتابه عن معجزات أنبيائه وبشئ الناس عن قبورهم للنشأة الآخرة وما بعد البعث من الحشر والحساب والثواب والعذاب ، لا يؤثر في قلب قارئ القرآن على ما تلقاه الأستاذ فريد وجدي ، بوقوع تلك المعجزات في سالف الزمان ووقوع تلك الأحوال الأخروية في المستقبل ، فما ظنك بما يقوله الإنسان ليؤثر بقوله في نفوس سامعيه .

ثم إنك لو أردت مثلاً أن تمدح أحداً بما يستحقه فقد قيل بمصر فيمن هو أدنى من ممدوحك بما هو أكثر من قولك وأغلى ، وإن شئت أن تهجو أحداً بما يتفق مع حاله فقد هجى في مصر من هو أمون شراً من مهبوك بما هو أشد وأمر من قولك الذي وازنته مع المقول فيه وقدرته بقدره . وقبلما يقرأ كتاب في مصر ويشاد بذكره من دون محسوبة ، كما أت الموظفون يمينون لوظائفهم ويتلون فيها النسخ بهذا الشكل وأكبر المحسوبيات التي تنال بها كبريات الوظائف هو المحسوبة المتصلة بالإنجليز ثم الأقوى فالأقوى من القوى الداخلية المختلفة الألوان وليس للحق أى نفوذ يجنب هذه القوى ، فمن المعجائب أن الجريدة المعروفة بالإنجليزية « تيمس » كانت هي التي رشعت الأستاذ المراغى لمشيخة الأزهر الشريف في المرة الثانية .

وهنا شيء آخر وهو أن منكرى معجزات الأنبياء والنشأة الأخرى يكونون فيما نعرفه من منكرى الأديان ، أما الجمع بين إنكار المعجزات وإنكار اليوم الآخر وبين ادعاء الإسلام و « رئاسة » نور الإسلام^(١) فهذا أول قارورة كسرت وأعجب حادثة وقعت من عجائب مصر التي تبارى أمريكا ببلاد المعجائب . وقد كان الشيخ محمد عبده أورد في كتاب « الإسلام والنصرانية » أمثلة في تاريخ الخلفاء عن سماحة الإسلام ، فلو عاش ورأى الأستاذ فريد وجدى بك في رأس « نور الإسلام » و « مجلة الأزهر » لأضاف مثالا هاما إلى أمثلة سماحة الإسلام وشاهداً إلى شواهدها ، ولا عترف بأن الأستاذ بقوله في تفسير آيات المعجزات وآيات البعث قد ضرب الرقم القياسي الذي وضعه الشيخ في تفسير سورة الفيل !!

وكانت قد أدهشتني عقلية الأستاذ فريد في زعم أن معجزات الأنبياء مستحيلة عند العقل ، وكذا البعث بعد الموت ، طبق زعم الملاحدة من الماديين والطبيين وزعم أن هذا الحكم باستحالتهما مقتضى العلم كما أنه مقتضى العقل ، وهو يملن عقليته هذه على صفحات « الأهرام » ولا يقابلها الرأي العام الإسلامى بالاستنكار ، حتى ولا إفشاءه عن نوابغ البلاد الإسلامية من السكتاب والشعراء في استبطانهم الإلحاد وتمسكهم بها تماشياً مع العلم والعقل ، ولا يكون بين إعلان هذه العقلية عن نفسه وعن نوابغ الشرق الإسلامى وبين تعيينه لرئاسة مجلة « نور الإسلام » الأزهرية إلا بضعة أيام^(٢) .

[١] اسم المجلة الأزهرية في مبدأ تولى الأستاذ الوظيفة .

[٢] ومن المعجائب أن الشيخ المرحوم الظواهري الذي كان شيخ الأزهر يومئذ يقول في مذكراته التي نشرها ابنه بعد وفاته (ص ٢٨٩) متعمداً لتبرير هذا التعيين ومتحملاً لأوزاره عند الله : « عند انتشار مجلة نور الإسلام أوصاني توفيق نسيم باشا بتعيين صديقه عبد العزيز محمد بك (الباشا وزير الأوقاف سابقا) مديراً لها وأثنى عليه كثيراً فعينته ولكن بالأسف وجدته بعد ذلك غير كفء لها فأبعدته وعينت الأستاذ فريد وجدى بدله فتألم توفيق نسيم باشا من =

ساورت أفكارى هذه الاحجيات الفامضة حتى اطلعت على المناظرة القلمية بين الشيخ محمد عبده والأستاذ فرح أنطون صاحب مجلة « الجامعة » الذى ادعى فى غضون المناظرة أن جميع الأديان تتنافى مع العقل والعلم ، ولم يتغلب الشيخ المناظر على خصمه أو على الأقل لم يقتنع رأى العام الثقافى بغلبته عليه ، بل تأثر الشيخ نفسه من عقلية الأستاذ^(١) ولم يسلم عن التأثر بها حتى بيثه الأزهر . وبفضل هذا الاطلاع انحل على كثير من الألغاز العجيبة المصرية حتى أصبح مفهوماً سر استقبال كتاب « حياة محمد » الذى سعى مؤلفه جهد طاقته لإخلاء حياته صلى الله عليه وسلم عن المعجزات ، برغبة عظيمة من القراء استلزمت طبعه مرة ثانية قبل أن يمضى على طبعته الأولى سنة ، وما كفت ثانية الطبعة فى رى الرغبات المتعطشة حتى احتيج إلى ثالثها .. أصبح سره مفهوماً ومعه سر تقرىظ الأستاذ الأكبر المراغى للكتاب المذكور .

فبعد أن رأيت بمصر ذلك التيار الذى يقلب الحقائق رأساً على عقب فيعمد الديانة جهلاً وغباءً ، والإلحاد علماً وعقلاً ونبوغاً ، وقد علا التيار حتى تسلق منبر الأزهر ، وبعد

= ذلك كثيراً وكان هذا من ضمن مخاصمته لى فيما بعد « .. وكان المقول للأستاذ فريد وجدى بك الذى ثبت فى منصبه الأزهرى على طول عهد مشيخة الأستاذ المراغى الثانية ، أن يكون تعيينه أيضاً فى ذاك العهد ولا أدرى من أوعز إلى الشيخ الطواهرى الضعيف الإرادة بهذا التمييز السابق لأوانه . ولم يبعد الشيخ الطواهرى فى هذا التبديل عبد العزيز بك محمد فقط بل أبعد معه عن المجلة الأزهرية فضيلة الأستاذ محمد الخضر حسين لعدم إمكان اتفاقه مع الأستاذ فريد وجدى فى المبادئ فاستبدل بهذين الرجلين المؤمنين بمعجزات الأنبياء والنشأة الآخرة من أنكرها على صفحات الأهرام ولم يحف مداد الإنكار بعد .

[١] وكان الشيخ قبل مناظرته الأستاذ تحت تأثير مشكك آخر . ومن أجل ذلك قابل شبه خصمه فى مناظراته هذه بإيمان ضعيف لا يكفل لحجته النجاح والغلبة . ولو لم يكن الشيخ تحت هذه المؤثرات لا وسعه أن يذهب فى تفسير بعض آيات القرآن الحكيم إلى تأويلات سخيفة لا يقبلها العقل والنطق السليان كقوله فى عرش بلقيس إنه لم يؤت به لى سليمان عليه السلام كما هو مقتضى صراحة القرآن وإنما صنع مثله ، وقوله فى انغلاق البحر لموسى عليه السلام ثم انطباقه على فرعون وجنوده لأنه كان جزراً ومدا .

أن رأيت بها من العجائب باسم العلم ما يعتبر المكنات مستحيلات - في حين أن العلم يسمى فيكاد يحمل المستحيلات مكنات - وباسم الدين وتأليفه مع العقل والعلم ما يلغى ربع القرآن ويخليه عن المعنى باسم التشابهات ... بعد أن رأيت كل هذا أصبح عندي من الواجب كبح جماح المقتنعين والمغترين بالدعوى الإلحادية ، تقليداً منهم وانخداعاً بما سمعوا من بعيد أن في الغرب علوماً مثبتة وعلماء إثباتيين وعلى التعبير المصري : وضعيين لا يعترفون إلا بما يشهد به الحس وينكرون ما وراء ذلك لعدم إبتنائه على أساس صحيح من العلم . ففهم الأستاذ فرح أنطون مناظر الشيخ محمد عبده الذي يقول إن العقل والعلم لا يعترفان بوجود الله لعدم كونه منظوراً بالعيون ، وكذا كل ما جاء به الأديان ولم يدخل تحت المشاهدة والتجربة لأهل هذا العصر من المعجزة والوحي والنبوة والبعث والجنة والنار . ومنهم نوابغ الكتاب والشعراء المسلمون الذين شهد الأستاذ فريد وجدي بك باستبطانهم الإلحاد من غير ذكر أسمائهم . ومنهم الأستاذ المذكور نفسه المنقول كلامه من قبل وهو ينص على أن الأديان لا تأتلف مع العلم . فهي منبوذة بيد العلم إلى عالم الأساطير ، وكل ماورد في كتبها المقدسة مما ذكرنا فمن المستحيلات في نظر العلم والعقل ، وغاية ما يقال في تأويلها أنها متشابهات غير مفهومة .

وقد كان من جملة أقوال الأستاذ فريد وجدي المنقولة : « ان الشرق الإسلامي لما اتصل بالغرب وارتشف من مناهله العلمية ووقف على الميتولوجيا والأديان المقدوف بها فيها ووجد الإسلام أيضا بين تلك الأديان - لم ينبس بكلمة لأنه رأى الأمر أكبر من أن يحاوله ولكنه استبطن الإلحاد وتمسك به متيقناً أنه مصير اخوانه كافة متى وصلوا إلى درجته العلمية » . وفي هذا القول شيء كثير من المغزى جدير بأن تطال عليه وقفة التأمل : رجال من نوابغ البلاد الإسلامية يستبطنون الإلحاد ويتسترون في تهئية الأذهان لقبوله ولا يصارحون به غير أمثالهم لئلا يقاطعوا أو يُنفوا من الأرض ، مع أن الأستاذ يعرف أن الإلحاد في زماننا لا يكون مدعاة لنفي الملحد أو مقاطعته بل يهيئ له

مركزاً وأنصاراً بقدر ما يهيئ له من الأذهان الجديدة فضلاً عن المهيئين والمهيئين من قبل، وإنما السبب في اجتنابهم المصارحة لغير أمثالهم أن الدعوة إلى الإلحاد من وراء الستار تكون أنجح، وهم يعرفون ذلك كما يعرف الأستاذ ويقلدهم في السبى من وراء الستار. ثم لا شك أن الأستاذ صور نفسه حين يصور الشرق الإسلامى الذى أخبرنا باستبطانه الإلحاد بسبب اتصاله بالغرب وعلومه، إذ لا معنى لاستبطان الشرق الإسلامى وخصوصاً لا معنى لقوله « وتمسك به متيقناً أنه مصير أخوانه كافة متى وصلوا إلى درجته العالمية ! » لأن ذلك القول لا ينطبق على الشرق الإسلامى، فمن هم أخوان الشرق الإسلامى الذين سيكون مصيرهم مصيره فى الإلحاد متى وصلوا إلى درجته فى العلم؟ فهل الشرق الإسلامى ألد أولاً واستبطن الإلحاد انتظاراً منه أن يصل أخوانه الشرقيون غير المسلمين إلى درجته العالمية فيلحدوا مثله^(١)؟

والحق أنه لا معنى لهذا البيان، فليس مراده من الشرق الإسلامى إلا نفسه وأخوانه الذين ينتظر أن يكون مصيرهم مصيره، أخوانه.. ثم ذكر أن فى البلاد الإسلامية نوابغ مثله من الكتاب والشعراء يستبطنون الإلحاد ويهيئون الأذهان لقبوله دسا فى مقالاتهم وقصائدهم كما يدس الأستاذ.. فإن كان للفقرة المتقدمة من كلام الأستاذ معنى غير ما ذكرنا كانت هذه الفقرة الثانية تكراراً للأولى من غير طائل^(٢)

[١] ومن العجائب أن مشيخة الأزهر تحاول دعوة الغرب إلى الإسلام بواسطة ترجمة القرآن إلى لغات الغربيين فى حين أن الفرق الإسلامى يستبطن الإلحاد على قول رئيس تحرير « مجلة الأزهر » و « نور الإسلام » فهل لا يلزم إذن أن يكون الشرق الإسلامى أحوج إلى الدعوة إلى الدين قبل الغرب؟ وإن كان المراد من الفرق الإسلامى المستبطن للإلحاد هو الأستاذ نفسه أعنى رئيس تحرير مجلة الأزهر، نبذى الحاجة إلى الدعوة من دعوة الأزهر وتستفحل الرزية.

[٢] مثلاً إن الأستاذ لا يصدق أو على الأقل يلزمه أن لا يصدق بخارقة تولد المسيح عليه السلام من مريم البتول بسبب كونها مخالفة لقانون العلم الطبيعى ويرد قول كتاب الله فيها إلى التشابه كما رد إليه سائر آيات المعجزات بعين السبب ونص الكتاب هكذا : =

وكان دس الأستاذ أبلغ وأقرب إلى المصارحة ، لاسيما في قوله « لم ينس بكلمة لما رأى دينه ماثلا بين الأديان المقدوف بها إلى عالم الأساطير ، لأنه يرى الأمر أكبر من أن يحاوله » يعنى أنه يرى غير ممكن أن ينقذ دينه فيخرجه من الحفرة التى قذف به إليها مع سائر الأديان ، بأن يدافع عنه بالحاجة ، فقد سجل على نفسه نيابة عن الشرق الإسلامى بالمعجز عن الدفاع عن الإسلام ولقن من يحاول الدفاع عنه درس اليأس ، وبهذه تم الدس !!

وقد جاءت كتابة هذه الكلمات من الأستاذ جواباً عما كتبت في الرد على مقالته الأولى ، فكأنه حاول تهديدى بسلاح العلم الحديث قائلا : إن هذه المسائل التى تصر أنت على الاحتفاظ باعتقادها وتوصى بها للناس ليمضوا عليها بالنواجذ ، قد قذف بها العلم الحديث - الذى له الدولة اليوم فى الأرض - قذف بها مع الأديان المنطوية عليها إلى حفر الأساطير .. وقد جرى قبلك أمور أنت فى غفلة منها وهى أن متعلمى الشرق الإسلامى بمد الاتصال بعلوم الغرب رأوا دينهم فى تلك الحالة المنبوذة ، فلم يستطيعوا أن يتكلموا فى الذود عن دينهم كلمة ... قاله وظننى أنهم كونه القاذف بالأديان جملة هو العلم وأكم فى كآتهم الشرق الإسلامى وكفهم ، وقد عرفت أنه كنى بالشرق الإسلامى عن نفسه ؛ أو ظننى أشوب دفاعى عن كرامة الدين الإسلامى

= « واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا . فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا . قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا . قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا . قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بصر ولم أك بغيا . قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا . فحملته فانتبذت به مكانا قصيا . »

ولينظر القارئ كيف تكون هذه الآيات الصريحة متشابهة غير مفهومة ؟ نعم فيها من التشابه قوله تعالى فقط « فأرسلنا إليها روحنا » .

بشيء من التخوف والتقهقر أمام ذلك السلاح الراقى كما شاب الشيخ محمد عبده في مناظرة الأستاذ فرح أنطون لما حمل عليه الأستاذ بسلاح فصل الدين عن الدولة الذى تمسك به الغريبيون فتقدموا على زعمه بفضل هذا التمسك وأهمله المسلمون فتأخروا . فجعلته أى الشيخ هذه الحملة يتقهقر أمامها ويهاجم علماء الدين بدلا من خصمه متهمًا إياهم بالجود ومحملاً عواتقهم وبال تأخر المسلمين . فكأنه لولا جودهم الذى يمنهم من الأخذ بكل جديد لاقتبس المسلمون مبدأ الفصل أيضاً ، كأنه لا مانع من العمل به غير جودهم ، أو كأنه لا جواب عن مسألة إهمال هذا المبدأ غير الطمن فى علماء الدين بدلا من الطمن فى مبدأ الفصل نفسه !

لكن الأستاذ سيرانى إن شاء الله أصمد ولا أتقهقر أمام أى خصم فى الدفاع عن الإسلام حتى ولو كان الخصم عالماً من العلوم أو بالأصح ولو كان زعم كثير من الناس كذلك . لأن لى عقيدة راسخة وإيماناً ثابتاً يكفلان لى بأن الإسلام يعلو ولا يعلو عليه وأنه لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً .

أما تظاهر الأستاذ بالدفاع عن الإسلام بعد أن لقن الناس درس اليأس عن الدفاع ، برد ما فى القرآن من أنباء المعجزات والبعث عن القبور للحشر والحساب والثواب والعقاب .. برد كل ذلك إلى التشابهات - فلا يزيد على العجز الذى سجله على نفسه فى تسجيله على الشرق الإسلامى ، بشيء غير ما يشبه قولهم : « عذره أقبح من ذنبه » إذ ليس معنى رد تلك الأنباء إلى التشابهات إنكاراً ما جاء عنها فى القرآن بلطف ، بل معناه إنكاره بأقبحى تعبير وأشنعه .. ففيه تكذيب القرآن بادعاء أن ما ورد فيه على صورة الواقع غير واقع ، وفيه تجهيل القرآن بادعاء أنه لا يميز المحال من الممكن فيحدث عما لا يمكن وقوعه فى صيغ الواقع^(١) وفيه مع ذلك رمى القرآن بالفشل

[١] وكان واجب الأستاذ لو أن عنده شيء من الفيرة الدينية أو استقلال الفكر ، أن لا يمكن فعل العلم الحديث هذا بالدين كسلم بصحة ماقله ، بل يحتج عليه بما معناه : غايه مايكون =

والإخفاق في محاجة النكرين فلا يحصل على شيء من غير إضاعة أنفاسه ، حيث يجتهد ليقيم شواهد على قدرة الله وصدق أنبيائه بالمعجزات التي أخبرنا بظهورها على أيديهم ، فتكون نتيجة عجز الله عن خلق تلك المعجزات وعن تفهيم الناس أنباءها المسرودة في كتابه المنزل على خاتم رسله ... ففضلاً عن إقناعهم بوقوعها ، يأتي بالقول المتشابه بدلاً من المنفع . كما أنه أي القرآن يحاول محاجة النكرين لليوم الآخر استبعاداً منهم لبعث الموتى عن قبورهم بعد أن كانوا تراباً ، بإيضاح قدرة الله عليه في فنون من أساليب الإقناع وأمثلة القدرة ليقربه من الأفهام فلا يستطيعه ويُقضى عليه بالفشل ، فهو فيما يقول مثلاً في آخر سورة يوسف :

« لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه ... » الآية .

وفيما يقول : « ذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون . يوم يخرجون من الأجداث سراغاً كأثمهم إلى نصب يوفضون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون . »

وفيما يقول : « فلينظر الإنسان ممّ خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر يوم تُبلى السرائر فما له من قوة ولا ناصر والسماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع إنه لقول فصل وما هو بالهزل .. »

وفيما يقول : « ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين

== من حق العلم المبني على التجربة الحسية أن لا يحكم في شأن الدين إنباتنا أو نفياً كما قال معالي الدكتور هيكل باشا « لا يثبت ولا ينفي » أما قذفه بالأديان جملة إلى عالم الأساطير ، الذي يرجع إلى الحكم فيها بالنفي فليس ذلك من حق هذا العلم بميزانه الحسي الضيق ، فإذا اجترأ عليه خرج عن حدوده فانه قلب جهلاً . وسبطلح القارئ على تحقيق قولي هذا وتفصيله لأن لم يطلع عليه فيما سبق من هذا الكتاب .

الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة كافرون . »

وفيما يقول : « فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قال قائل منهم إني كان لي قرين يقول أئنيك من المصدقين ، أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون . قال هل أنتم مطعون فاطلع فرآه في سواء الجحيم . قال تالله إن كدت لتردين ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين . أفا نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعدين . إن هذا هو الفوز العظيم . لمثل هذا فليعمل العاملون . »

وفيما يقول : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ليبين لهم الذي يختلفون فيه ^(١) وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين . إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون . » وفيما يقول : « ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير . »

وفيما يقول : « زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير . »

وفيما يقول : « يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون . »

وفيما يقول : « أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد . »

وفيما يقول : « أو لم يزوا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يمي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير . »

[١] الأستاذ فريد أحوج الناس إلى البعث ليبين له الله ما اختلف فيه مع مجادلبيه وفيهم القرآن وآياته التي أوردنا بعضاً منها . ولم يقع من الأستاذ أن عدل عن دعواه واعترف بأنه مخطئ أمام آية حجة قطعية . ولعله ينكر البعث لكلا يظهر أخطاؤه في مجادلاته مع الناس ظهوراً لا قبل له بإنكاره .

وفيما يقول : « ق . والقرآن المجيد . بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب . أإذا متنا وكنا تراباً ذلك رجوع بعيد . قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ . »

وفيما يقول : « لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة . أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه . بلى قادرين على أن نسوي بنانه . بل يريد الإنسان ليفجر أمامه يسأل أيان يوم القيامة . »

وفيما يقول : « ويل للمكذبين الذين يكذبون بالدين وما يكذب به إلا كل معتد أثيم إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين . كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون . كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون . ثم إنهم لصالو الجحيم . ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون . »

وفيما يقول : « ويل يومئذ للمكذبين . فبأي حديث بعده يؤمنون ^(١) . »

وفيما يقول : « يوم يقوم الروح واللائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً . ذلك اليوم الحق فن شاء اتخذ إلى ربه ما بآباً إنا أنذرناكم عذاباً قريباً . يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً . »

وفيما يقول : « فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام . يوم تبديل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد سرايلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ليجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولو الألباب . »

في كل ذلك وأمثاله التي لا تحصى من كثرتها، يلزم على رأى الأستاذ فريد وجدى

[١] وهذه الآية آخر سورة كرر فيها قوله « ويل يومئذ للمكذبين » عشر مرات .

أن يكون القرآن ببلاغته السَّلمة لم ينجح في مهمته ولم يقر بحجته وإنما أتى بمبارات غير مفهومة . وإذا لم ينجح القرآن في تفهيم قدرة الله على إنشاء الناس بعد موتهم وكونهم تراباً ، نشأة ثانية ، بالرغم من كمال اعتنائه بتفهم ذلك فليس بناجح فيما سواه من مقاصده ، ولم يبق معنى لكونه في أعلى درجات البلاغة . وإذا كان القرآن معجزاً فهل إعجازه في أن لا يستطيع تفهيم كلامه وتبليغ مرامه فيأتي بما لا يفهم ويكرره في أساليب متنوعة غير مفهومة ؟ فهو معجز أم عاجز ؟^(١) مع أن نصوصه التي أوردنا قبل هذا الكلام نماذج منها واضحة يفهم معانيها كل من يعرف العربية الفصحى . والحقيقة أن قول القائل في حق كلمات ظاهرة المعاني : « إنها لا تُفهم » معناه إنكار ما فهم منها يبرود ومروود .

هذا إذا كان مراد الأستاذ من اعتبار آيات المعجزات وآيات البعث بعد الموت من التشابهات اعتباراً من متشابه اللفظ الذي لا يفهم معناه اللغوي كالحروف المنفصلة الواردة في أوائل بعض السور^(٢) أما إذا كان مراده من رد التشابهات اعتباراً من متشابه المعنى مثل « الرحمن على العرش استوى » بناء على أن له معنى مفهوماً ولكن

[١] وليت شعري كيف يؤلف الأستاذ فريد الذي كان في طليعة المحبين لحادثة ترجمة القرآن إلى اللغة التركية ليقرأها المصلون في تركيا الحديثة ، وفي طليعة المنفيين في سبيل تحييدها كثيراً من الخبر والورق ، كيف يؤلف بين ادعاء إمكان الترجمة وبين كون كثير من آيات القرآن متشابهاً عنده لا يفهم مراد الله منه ؟

أجل ولا عجب في ذلك فإن الأستاذ فسر القرآن فيما مضى من الزمان من أوله إلى آخره . فيظهر أنه فسره من غير فهم ، فلا بدع إذن لمن ترجمه المترجمون أيضاً غير فاهمين .

[٢] وهذا الاحتمال على الرغم من كونه في غاية البعد قد حملنا مراد الأستاذ عليه أولاً لكون المحذور المترتب على الاحتمال الثاني الذي ذكرناه بعبء وهو تكذيب مناطق به القرآن ، مستوراً غير ظاهر في هذا الاحتمال ولأن مادعاه الأستاذ في مقالته التي رد بها عليّ ، من عدم كون ما أراد الله من تلك الآيات مفهوماً ولا كونه مطلوب الفهم ، يميل إلى هذا الاحتمال ، كما كان في كلامه ما يميل إلى الاحتمال الثاني أيضاً .

المعنى المفهوم منه محال في حقه تعالى لإيهامه الجسمانية . فكأن المعاني المفهومة من آيات المعجزات وبعث الأموات مستحيلة أيضاً لاستحالة وقوعها ، وقد صرح الأستاذ في مقالاته بهذه الاستحالة عند نقاشنا المسألة . فإذا كان الأمر كذلك كان مراده من تسمية هذه الآيات بالمتشابهات تكذيبها لكونها ناطقة بالحالات ، مع استبطان هذا التكذيب .

ثم إننا لو فرضنا أن الأستاذ يتأول آيات المعجزات والبعث والمنشور بهذا التأويل الفاسد المبني على الفاسد وينقذ القرآن على زعمه من أن يكون ناطقاً بالمستحيلات ، فإذا يفعل فيما يمتقده المسلمون من أن القرآن كلام الله المنزل بواسطة الملك على محمد صلى الله عليه وسلم وينطق به القرآن نفسه كما ينطق بنزول التوراة والإنجيل والزيور على موسى وعيسى وداود عليهم السلام ؟ مع أن العلم الحديث الذي تبجح الأستاذ به ونبذه الأديان إلى عالم الأساطير ، لا يقر بمسألة الوحي وإنزال الكتب ، ويراها أيضاً من المستحيلات المخالفة لسنة الكون كما يرى المعجزات وبعث الأموات منها ^(١) ويعتبر هذا الرأي في رأس أسباب نبذه الأديان إلى عالم الأساطير ، فهل يصدق الأستاذ العلم الحديث في رأيه هذا أيضاً ، ثم تراجع المخلص الذي ابتدعه إزاء آيات المعجزات وإحياء الموتى فيرد آيات الوحي وإنزال الكتب أيضاً إلى المتشابهات التي لا تفهم معانيها أو لا تقبل على ظواهرها وينتهي بسخافته إلى إنكار أساس النبوة وإنكار أن يكون القرآن كتاب الله المنزل ؟؟ وإذن فما معنى تأويل آياته وتأليفها بمقتضى العقل والعلم ؟ وما الحاجة إلى هذا التكلف في تصحيح نصوص كتاب ليس بكتاب الله ولا بضروري

[١] ألا ترى أن الأستاذ فرح أنطون حين أحصى مالا يقبله العقل والعلم على زعمه من العقائد الدينية الأساسية مثل وجود الله والمعجزات والبعث والحشر والثواب والعقاب ، ذكر معها الوحي والنبوة أيضاً ؟ ومن هنا يظهر سراجتهاد الأستاذ فريد لا لاح له أخيراً أن يكتب مقالات في « مجلة الأزهر » لإثبات إمكان النبوة والوحي ، في تصوير النبوة بما يشبه العبقريّة إن لم يجعل منها صراحة . وقد سبق الكلام عليه .

من هذه الناحية أن يكون جميع ما حواه مضمون الصحة ؟ مع أن ذلك التصحيح في معنى الإفساد والإلغاء .

هذا رأى الأستاذ فريد وجدى بك وهذا ما ينتهى إليه رأيه وهو يعلن على صفحات جريدة « الأهرام » ولا يقابله رأى العام الإسلامى بمصر بالاستنكار حتى ولا إفساءه عن كتاب المسلمين وشعرائهم النوابع في استبطنهم الإلحاد وما ينتظرونه من أن يكون مصير غيرهم مصيرهم متى وصلوا إلى درجتهم العلمية .

وقد يتوقع من الأستاذ بعد اطلاعه على قولى هذا أن يقول : « إذا كان الرأى العام الإسلامى لم يقابل ما جهرت به من الفكرة بالاستنكار ولا الكتاب والشعراء النوابع الذين أفسيت عنهم ما يستبطنونه من الإلحاد وما يدسون في مقالاتهم وقصائدهم من تهينة الأذهان لقبول ما يستبطنونه إلى أن يكون الباطن ظاهراً ... إذا كان هؤلاء وهؤلاء لم ينكروا على ما كتبته وأنا اليوم رئيس تحرير « مجلة الأزهر » ومديرها بعد مجلة « نور الإسلام » فإذا يكون من حق الشيخ مصطفى صبرى أن يقوله ، ومضى من المؤيدات ما أحصاه هو نفسه ؟ .. ومن بديع المؤيدات أن تعينى من مجلس الأزهر الأعلى لرأس مجلة الأزهر السمة يوم التعمين « نور الإسلام » صادف زمناً أوشك فيه النقاش بينى وبين الشيخ أن ينتهى ولم ينته بعد ، فجاء ذلك جواباً على حملات الشيخ أبلغ من الرد الذى تتضمنه مقالاتى المقابلة !!

وأنا أجيب على قول الأستاذ هذا المفروض بأنى لا أنكر هذه المؤيدات لاسيما الأخيرة التى نالها ككفاة على رأيه في معجزات الأنبياء وبعث الناس بعد الموت وتحمسه في حكاية ما فعله العلم الحديث بالأديان وما عجز الشرق الإسلامى أن يفعله من الدفاع عن دينه وما زاد الطين بلة من تطوع نوابع الكتاب والشعراء وكلاء العلم الحديث الغربى في الشرق الإسلامى للسعى في القضاء على ما بقى في القلوب من الإسلام

وإقامة الإلحاد مقامه ، دسًا في مقالاتهم وقصائدهم ... أنا لا أنكر وقوع المكافأة على مالمع الأستاذ من دوره في هذه الأفعال التي مثلها بمهارة ، حتى إني لا أنكر احتمال ارتقائه بعد حملاتي الجديدة عليه في كتابي هذا ، إن لم أقل إلى مشيخة الأزهر فإلى مشيخة كلية أصول الدين !.. وربما أكون أخدم مصلحته بتلك الحملات ولا أضن به عليه ، بصفة رجل ضحى بكل شيء في سبيل التصريح بكلمة حق ، لاسيما فيما يتعلق بالدفاع عن الإسلام وعقائده العزيرة ... لا يمنعني من نقد أفكار الأستاذ ومبادئه المستندة إلى التقليد المحض للغرب ، كثرة المؤيدات التي وجدها وقد لا يزال يجدها في مصر الحاضرة المقلدة بل المستبطنة للإلحاد على تقدير الأستاذ نفسه في حق الشرق الإسلامي الذي لا يمكن أن تكون مصر خارجة عنه ، ولا يكبر في عيني أن تكون الدنيا مع الأستاذ زيادة على مستبطنى الإلحاد النوابغ بل ولا العلم الذي يدعى أنه يستند إليه فيما يستند إليه ، إذ لا يمكن أن يكون العلم الذي يدعو منغليه إلى الإلحاد، علمًا صحيحًا تجاه قوله تعالى « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائمًا بالقسط » . بل إني أقول قولاً يحل ما أشكل على الأستاذ في مسألتي المعجزة والبعث بمعد الموت من أساسهما : وهو أن الأستاذ الذي أنكرها وادعى استحالتها عند العقل .. لاشك أنه تابع في هذا الرأي للغربيين علماء العلم الحديث الذي أطراه في صدر مقالاته كما نقلناه من قبل ، ولكن هل يعرف الأستاذ أن منكرى المعجزات والنشأة الأخرى من علماء الغرب ينكرونها لعدم اعترافهم بوجود الله وبنائهم الكائنات على أساس الطبيعة ؟ فلو كانوا اعترفوا بوجود الله الذي يخلق ما يشاء ويختار فلا داعي إذن إلى إنكار المعجزات والنشأة الثانية ولا إلى القول باستحالتها عند العقل لأنه إذا كان الله هو الذي خلق الناس في نشأتهم الحاضرة ففي الإمكان دائمًا أن يخلقهم بعد موتهم وتلاشي أبدانهم مرة ثانية أو ثالثة أو كلما شاء ذلك . وكذا إذا كان الله خالق الحيوان والنبات بجميع أنواعهما فمن السهل عليه أن يخلق ثعبانًا من عصا موسى عليه السلام

ولا مانع منه أصلا في نظر العقل بعد تسليمه بوجود الله ، وبعد الاعتراف بوجود الله يكون كل شيء سهلا ويكون التوقف في مسألة المعجزات أو البعث بعد الموت لاداعي له إلا غباوة المتوقف^(١) .

فلا بد للأستاذ فريد وجدي إما أن يؤمن بالله ويؤمن معه بما جاء في كتابه من أنباء ومعجزات أنبيائه وبعث الناس بعد موتهم كما يفعله كل مؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وإما أن لا يؤمن بالله ولا بما جاء في كتابه من أنباء المعجزات والبعث كما يفعله الذين أخذ عنهم إنكار المسألتين من ملاحدة الماديين والطبيعيين والذين سأناقشهم في هذا الكتاب على أساس ضلالتهم أعنى إنكار وجود الله .

٦

ثم إننا لا يقتصر في الاستشهاد لغلبة عقلية الإلحاد في مصر بين المتعلمين المصريين بدافع تيار الضلال العلمي ، على الشواهد المتقدمة ، وإن كان كل من تلك الشهادات لاسيما شهادة الأستاذ فريد وجدي بك بالنظر إلى مركزه الأزهرى الذى حصل عليه قبل خروجه من حلبة الناظرة ، قائمة مقام شهادات شهود غفيرة :

فقد وقع في مقالة أرسلت من باريس إلى مصر قبل سنوات^(٢) نالت الجائزة الأولى في المباراة الصحفية عنوانها : « عدة النجاح لرجل القرن العشرين » وقد نشرتها جريدة « الأهرام » في عددها . ١٨٥٨ :

[١] على أن الفيلسوف الكبير « كانت » الذى انتقد جميع أدلة وجود الله المعروفة واختار دليلا آخر اخترعه كما سيأتى بيانه في هذا الكتاب ، أثبت وجود عالم الآخرة بالدليل نفسه الذى أثبت به وجود الله ، ومعنى هذا أن لوجود عالم الآخرة أهمية عند « كانت » بدرجة أهمية وجود الله حتى لأنه إن لم يصح وجود الآخرة ليعب في دليله لم يصح وجود الله أيضا لاستنادهما عنده إلى دليل واحد .

[٢] لكانتها عضو بعثة الجامعة المصرية بباريس ، السوربون والماجستر في الآداب

« ... وإذا أردت أن تعرف الفرق بين العقليتين « الغيبية والعلمية » فسل من شئت من عامة الناس لماذا يطير الطائر؟ فيكون جوابه حتماً : لأن له أجنحة ، وهو بذلك يحمل الطيران نتيجة المصو ، والعلم يرى عكس ذلك أى يرى الوظيفة متقدمة وقد نتجت عنها المصو .

« وصفوة القول أن الرجل المصرى يجب أن ينبذ العقلية الغيبية^(١) ويطاردها في كل مكان حتى تستوى له عقلية علمية من هذا الطراز الذى نشاهده في معامل العلماء . »
« يتصل بالعقلية الغيبية هذا الاعتقاد الشرقى بأن العالم مسير لا قدرة لنا فيه وأن القوة المسيرة تتدخل في تتابع أحداثه فتقدم وتؤخر وتحي وتميت بغير حساب ، ويجوز أن تعدل عما سبق أن كتبت من آجال، وقد تسرب هذا الاعتقاد إلى فلسفاتهم دينية كانت أو عقلية ، فقد بحث متكلمو المسلمين في هل يستطيع الله أن يقدم الآجال أو يؤخرها عن ساعتهما فذهب بعضهم إلى إمكان ذلك ، وهم لعمري لم يفهموا بذلك قدرة الله تعالى ، فإن النظام المطرد في العالم وتسلسل العلل وممولواتها أدل على القدرة اللامتناهية من ذلك التصور الركيك الذى يجعل من قدرته تعالى وسيلة لتغيير النظام الذى فطرته وأبدعته^(٢) وكأني بأولئك المتكلمين ومن لف لفهم ، يتصورون هذا النظام على أنه ليس من طبيعة الأشياء نفسها ولكنه فرض فرضاً عليها من خارجها يمكن تعديله أو المدول عنه في كل لحظة ، لهذا استسلم أهل الشرق إلى ما أسموه تارة « بالقدر » وتارة « بالقسمة » أو « النصيب » .

[١] يريد بها العقلية الدينية .

[٢] يريد به التعريض لمسألة المعجزة والظمن في المؤمنين بها أيضاً . فإله تعالى يمدح الإيمان بالغيب ويجعله رأس أوصاف المهتدين بهدى القرآن فيقول « ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلوة وما رزقناهم ينفقون » وكاتب المقالة من باريس يوصى قومه بمصر أن يطاردوا العقلية الغيبية وتراها لجنة المباراة الصحفية بها جديرة بالجائزة الأولى .

أوجب كاتب المقالة على رجل القرن العشرين أن يطارد العقلية الدينية ، التي ذكرها تحت ستار العقلية الغيبية أى عقلية الإيمان بالغيب ، فى كل مكان ويطارد معها ما يتصل بها من الاعتقاد الشرقى القائل بأن العالم مسير لا قدرة لنا فيه ، ذلك الاعتقاد الذى نسميه الإيمان بالقدر .

وأنا أقول إن الشرقيين المدينين يعتقدون كون العالم مسيرا من قبل الله وهذا ما لا يرضاه الكاتب ، لأنه على مذهبه الذى يفهم من كلامه سأثر بنفسه ولا مسير له . وخلاصة ما لا كنه بين فكى قلمه هى الشكاية المعروفة المبتدلة من تأخر الشرق المدين باستسلامه إلى القدر وإيهاله السمع والعمل وهو يزعم أن منشأ الإيمان بالقدر المستور عنا ، فى ضمن الإيمان بالغيب الذى أوله الإيمان بالله على الرغم من كونه غير منظور كما قال الأستاذ فرح أنطون وذكرناه فى رقم (٤) والإيمان بالله - يقود المؤمن إلى اعتقاد أنه الحاكم المسيطر على العالم الذى هو ملكه لا يشاركه فيه أحد ولا يجرى فى ملكه إلا ما يشاء . فلا يسمع عقل الكاتب القصير تأليف السمع والعمل للإنسان وتقدير أى قيمة لسميه وعمله ، مع اعتقاد أن العالم فى قبضة الله لا ينفذ فيه غير مشيئته ، وتكون نتيجة عجزه عن هذا التأليف أنه يسمى لتحريض الشرق المؤمن بالله وبالقدر خيره وشره من الله ، على مطاردة العقلية الدينية الغيبية وبعد تلك العقلية رأس كل خطيئة ، وتعد لجنة المباراة الصحفية بمصر مقالة هذا الكاتب - وبالإسف - جذيرة بالجائزة الأولى . فلو علم الكاتب بالاختصار قول نبيه صلى الله عليه وسلم « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » أوقرا بالتفصيل كتابى « تحت سلطان القدر » المنشور قبل مقالته بعامين ، لما فقد عقله بين العقلية الغيبية والعلمية وامتدز عليه التأليف بين سعى الإنسان وإيمانه بالقدر . وإنى جد متعجب من كون الطاعنين فى الإيمان بالقدر وفيهم كثير من علماء هذا الزمان ، يميون هذه العقيدة القائلة بأن كل شئ فى العالم يجرى تحت مشيئة الله وفيه أفعال الإنسان وإراداته ، بأنها تجر معتقدها إلى الكسل وتنمعه عن العمل ، مع أن أصحاب

هذه العقيدة الرادين كل مايقع في العالم إلى مشيئة الله ، يقولون إن الإنسان يعمل تحت مشيئة الله ولا يقولون انه يكسل ويتوقف عن العمل تحت مشيئة الله ، ومن أين يحكم أولئك الطاعنون أن الله تعالى يريد لعباده الكسل ولا يريد لهم العمل ؟ نعم يتناقل من يتناقل عن السعى بمشيئة الله ويسعى من يسعى أيضا بمشيئة الله ، فلا فرق في مسألة السعى والمطالبة بين العقيدتين عقيدة كون الإنسان في قبضة مشيئة الله وعقيدة كونه مستقلا في أفعاله . ولهذا لم يقع في السلف ترجيح أحد المذهبين المختلفين بين الأشاعرة والمعتزلة في مسألة أفعال الإنسان على الآخر بسبب تأديته إلى العمل والآخر إلى الكسل ، وإنما حدث هذا الترجيح في زماننا من بعض العلماء الغافلين تقليدا للجريان الآتي من الغرب الرامى إلى اتهام المسلمين في عقائدهم ، وكاتب المقالة ماش على طريقة هذا الاتهام . ومن أين له - وستعلم مبلغ عقله ومنطقه - التقدير بدقة المسألة التى التبتت على عالم كبير مثل المرحوم الشيخ بخيت كما هو مبسوط في كتابي المار الذ كر ؟ فقد لا يستكثر التنباهها على كاتب المقالة من باريس . إلا أن هناك نقطة أخرى توجب معاتبة الكاتب ومؤاخذته عليها ، وهى أنه يعيب الشرق المتدين بعقيدة القدر لكونها عقيدة الجبر بالإجمال ، وهو لا يدري أن الإنسان مسير أيضا في مذهب ملاحدة الماديين والطبيعيين الذين يروجّ الكاتب آراءهم في غير موضع من مقالاته لكنه مسير عندهم من قبل الطبيعة لا من قبل الله ، ويسمى مذهبهم مذهب الإيجابية ، والجبر الذى في مذهبهم أشد وأقسى من جبر الله الذى يؤلفه باختيار الإنسان وقد حققته في « تحت سلطان القدر » كما إنى سأزيد على تحقيقه في هذا الكتاب إن شاء الله . وهذا الذى قلنا يشهد به أن المادى والملحد المشهور « بوختر » ينفي في كتابه « القوة والمادة » الإرادة والاختيار للإنسان ، لكن كاتب المقالة غير عارف حتى بمذهب الذين يقتدى بهم .

فقوله بصدد الاستهانة بالتكلمين علماء الإسلام : « وكأنى بأولئك المتكلمين ومن لف لفهم يتصورون هذا النظام [في العالم] على أنه ليس من طبيعة الأشياء نفسها

ولكنه فرض فرضا عليها من خارجها يمكن تعديله أو العدول عنه « من ذلك الفارض، صرح فيما ذهب إليه ملاحدة الماديين والطبيين مثل « بوختر » الألمانى وغيره من أن نظام العالم الذى يجد فيه المتكلمون فى الشرق والفلاسفة الإلهيون فى الغرب أجلى دليل على وجود ناظم حكيم عليم خارج عن العالم المبرع عنه بما سوى الله ، أنه من نفسه وطبيعته لا من خارجه . فكانت المقالة يزين هذا المذهب القديم الباطل فى أعين القارئى بزى حديث علمى يليق برجل القرن العشرين أن يتخذ مذهباً له ويستغنى عما كان الناس يعتقدون فى القرون الماضية من وجود إله خالق للكائنات ونظمها ... ذلك المذهب الذى عُنينا بإبطاله فى هذا الكتاب ، ولجنة المباراة الصحفية بمصر ترى المقالة مستحقة للجائزة الأولى معلنة بذلك تحييد ما اقترحه الكاتب فى مقالته على أهل بلاده من نبد العقلية الدينية التى يسميها العقلية الغيبية استنكاراً لها ونبذاً عليه المتكلمون علماء أصول الدين من أن واضع نظام العالم هو الله الذى خلق العالم . وهذا كارتقاء الأستاذ فريد وجدى إلى رئاسة مجلة « نور الإسلام » الأزهرية عقب نشر مقالاته المنكرة لمجرات الأنبياء والنشأة الآخرة للناس بعد موتهم ..

أما إيهام كاتب المقالة الباريسية فى سياق كلامه بأنه يؤمن بالله وبقدرته السامية فهو تكلم ظاهر ومراعاة لصناعة الدس الذى ذكره الأستاذ فريد وجدى لمستبطنى الإلحاد من الكتاب والشعراء النابغين فى الشرق الإسلامى . فإن لم يكن كاتب المقالة من النوابغ فهو يسمى بدس الإلحاد فى مقالته ليكون منهم ، حيث يتكلم عن قدرة الله تعالى اللامتناهية التى فطر بها نظام العالم وأبدعه ثم يدعى أن ذلك النظام آت من طبيعة الأشياء نفسها لم يفرض فرضاً عليها من خارجها كما يتصوره المتكلمون ، ويعنى بهذا أن نظام العالم لم يأت من قبل الله . وهذا تناقض واضح ينفجر من بين عقلية الكاتب اللادينية العلمية وبين تظاهره بالإيمان بالله وبقدرته اللامتناهية ، رثاء لاتباسك أركانه ، وقلمنا نكتب فى الدنيا مقالة ملائى بالمناقضات والاعلاط العلمية كهذه المقالة . فلو قدرت

لأعطيت لجنة المباراة الصحفية المصرية التي أنالت المقالة الجائزة الأولى، جائزة الاختيار المعكوس الأولى. وبهذا كانت مصرأت بشاهد جديد لصدق ماقلت عنها سابقا من أن ضعف الدين يروج فيها أكثر من قوة العلم ، وإنى أرجح هذا الاحتمال على احتمال كون أعضاء اللجنة بعيدين إلى هذا الحد من تمييز الكاسب في المباراة عن الراسب !..

ومن مناقضات كاتب المقالة لنفسه الدالة على جهله العميق بالمباحث العلمية التي يتكلف التكلم فيها أنه قال بعد رمى التكلمين بعدم الفهم لقدرة الله أو تفهميها للناس ^(١) «إن النظام المطرد في العالم وتسلسل الملل والمعلولات أدل على قدرة الله اللامتناهية من ذلك التصور الركيك الذي يحمل من قدرته تعالى وسيلة لتغيير النظام الذي فطرته وأبدعته .»

وأنا أقول: تسلسل الملل والمعلولات ليس إلا قول المفكرين لوجود الله ، فهم يقولون إن العالم عبارة عن مجموعة سلسلة الملل والمعلولات اللامتناهية فكل علة في السلسلة معلولة لعلة تقدمتها وكل معلول علة لمعلول آخر يقببه ، فلا تنتهى سلسلة الملل المتصاعدة إلى علة تكون هى العلة الأولى وينقطع فيها التسلسل لعدم وجود علة تتقدمها ، كما لا تنازل المعلولات إلى معلول أخير لا معلول بعده ، فسلسلة الكائنات - وكل فيها من سلاسل ؟ - كالحلقة المفرغة من حيث أنها لا أول لها ولا آخر ، وإن كانت مختلفة عن الحلقة في شكل الامتداد ، إذ لا تنازل في الحلقة ولا تصاعد كما كنا في سلاسل الكائنات الممتدة بين الماضى والمستقبل .

فهذا هو تسلسل الملل والمعلولات ، والذين يثبتون وجود الله يثبتونه بإبطال هذا التسلسل من جانب الماضى أى تسلسل الملل الذى لا ضرورة على تقدير القول

[١] انظر كيف يصغر المتكلمون مدونو عقائد الإسلام ومؤسسوها على أسس علمية ، في عين طالب بالجامعة المصرية أولا ثم بياريس وفي عين لجنة المباراة الصحفية التي منحت هذا الطالب الجائزة الأولى .

بعدم بطلانه للاعتراف بوجود الله فيجعلون الله تعالى مبدأ لسلسلة الكائنات ويقطعون به تسلسل العلل الذي هو تسلسل في جانب الماضي . والقائلون بهذا التسلسل يريدون أن يستغفوا به عن الاعتراف بحاجة العالم إلى وجود الله ، وكان المقالة يقول عن هذا التسلسل الذي يتمسك به نفاة الله ، للاستغناء عن القول بوجوده : « إنه أدل على قدرة الله اللامتناهية » فكانه تعالى خلق آثارا ومؤثرات تتعاقب في الوجود وتغني من كثرتها وعدم تنافها عن أن يكون الله هو نفسه موجودا ، على أن يكون المؤثر الأول الذي لامؤثر قبله ، لأن الحاجة إلى وجود الله إنما تتصور على تقدير انقطاع سلسلة العلل المؤثرة في جانب الماضي ، أما إذا لم ترل السلسلة مستمرة في الانتقال من علة سابقة إلى أسبق ولم تنته إلى علة ليست قبلها علة فلا يكون الله موجودا ولا يأتي في السلسلة الممتدة إلى جانب الماضي ، دور الحاجة إلى وجوده مهما تهادى متباد في الرجوع إلى ذلك الجانب . وكان كاتب المقالة إلى لجنة المباراة يأخذ على المتكلمين أنهم يجمعون من قدرة الله وسيلة لتغيير النظام الذي فطرته وأبدعته ، ويمتبر ذلك تصورا ركيكا ، والحال أن الأستاذ نفسه يحمل من قدرة الله تعالى اللامتناهية وسيلة لإغناء الكائنات عن وجوده أي الله نفسه ولا يرى مافيه من الركائز البالغة حد الاستحالة وهي قدرة الله على أن تجعل سلسلة الكائنات مستغنية عن الله نفسه فتجعلها أي الكائنات موجودة من غير حاجة منها إلى وجود الله ، فبالنظر إلى أن هذا الجمل من الله فالله موجود وبالنظر إلى وجود الكائنات من غير حاجة إلى وجود الله فالله غير موجود ؛ فهذا تناقض ناتج من كلام الأستاذ في مقالته ، منشأ تجويز تسلسل العلل من غير انتهاء إلى العلة الأولى ، الذي يتمسك به نفاة وجود الله بالرة ، والكاتب من المعجبين بهم مع التظاهر بالاعتراف بوجود الله . ولا معنى لهذا الاعتراف غير التناقض الردود أو الدس المهود .

ومسألة بطلان التسلسل الذي يأتي تحقيقه إن شاء الله في المطلب الأول من الباب

الأول من هذا الكتاب وفي الفصل المعقود لمسألة حدوث العالم من الباب الثانى ، لم يفهمها الشيخ محمد عبده بل الفيلسوف الألماني الكبير « كانت » أيضا لما انتقد أدلة وجود الله المعروفة ، فاظنك بالأستاذ الكاسب للجائزة الأولى من لجنة المباراة الصحفية الغافلة أو المفروضة ، وماذنب علماء الأزهر المتأخرين بقليل في تجرؤ من هب ودب من الكتاب الأحداث على العلوم الدينية من غير أن يكون لديهم إلمام بها . وهذا بعد ذنب البيئة العلمية التى نشأت هذا الشاب مجهزاً بخليطة من العلم بدنياه والجهل بدينه مع الظن بأنه علم أيضا يقضى على علوم علماء الإسلام المتقدمين .

والمستول الأول عن ضلاله الطريق العلمى المستقيم بل المذهب الأول الذى شجعه على التخبط فى مسائل تتعلق بالدين الإسلامى من غير تزويده بما يجعله أهلا للتكلم فيها هو الجامعة المصرية إن كانت هى منشأه . وإن كان ناشئا من جامعة غربية فالمذهب الحقيقى سوق مصر الثقافية التى تقيم لأبناء البلاد المتخرجين من جامعات الغرب وزنا زائدا ، والشاب النغمس إلى ذقنه فى أخطاء علمية ليوجه حملات طائشة إلى دينه وعلماء أصول دينه المتكلمين ، لا بد أنه ضحية أولئك المذنبين الأولين .

أما عد قول المتكلمين القائلين بقدرة الله على تغيير النظام الذى فطره وأبدعه فى الكائنات ، من التصور الركيك ففيه نزعة إلى منكرى المعجزات مدعين أنها تغيير نظام العالم ، وأنه محال . إلا أن محالية التغيير هذا مبنية على قولهم بكون نظام العالم طبيعيا ناشئا من العالم نفسه لادخل فيه لصنع الله ، إذ لو كان هو صانعه وواضعه وكان مختارا فى وضعه لكان من الضرورى أن يقدر على تغييره إذا شاء ذلك ككل واضعى نظم وقوانين ، حيث يقدرون على تغيير ما وضعوه عند اللزوم . لكن كاتب المقالة خلط قول المنكرين لتغيير نظام العالم إنكارا ناشئا من إنكار وجود الله وإنكار كونه واضع ذلك النظام ، بكونه فطره ومبدعه وهو تشوش وتناقض .

ومع كون الكلمة التي نقلنا عن مقالة هذا الكاتب مكتظة بالأخطاء الفاحشة الدالة على أنه يتخبط في مسائل علمية لاعلم له بها إلا سماعا لبعض نواحيها من بعيد .. فع ذلك لا مناسبة منطقية بين الجمل التي ربط بعضها ببعض وانطوى كل منها بمفرده على غلط فكري . انظر قوله : « يتصل بالعقلية الغيبية هذا الاعتقاد الشرق بأن العالم مسير لا قدرة لنا فيه » يعنى ونحن مسيرون مع العالم لا قدرة لنا في أفعالنا ولا اختيار . فهو يحاول الطعن في الإيمان بالقدرة ، وقد قلنا إنه يريد بالعقلية الغيبية التي يراها - سامحه الله - جديرا بالمطاردة في كل مكان ، العقلية الدينية . مع أنه لا اتصال بين مسألة كون الإنسان مسيرا لا قدرة له ولا اختيار وبين العقلية الدينية اتصال تلازم : فقد يكون المرء من أهل الدين ولا يكون في مذهب التسيير كالمعتزلة من المسلمين ، بل الماريتية أيضا ؛ وقد يكون في مذهب التسيير مع كونه غير معتقد للدين كلاحدة المادية الإيجابية من الغربيين ومقلديهم في الشرق ؛ وقد يكون الرجل الغربى أو الشرقى مسيحيا أى متدينا ويكون عنده الإيمان بالقدرة كالمسلم الشرقى ، فلا صلة إذن بين الأمرين اللذين ذكرهما الكاتب متصلين . أما تدقيق مسألة التسيير الذى يتضمنه الإيمان بالقدرة ، للتوصل إلى كونه حقا أو باطلا ، فالكتاب بمعزل عن الدخول في ذلك البحث الذى اتخذته موضوعا لكتاب مستقل ولم يخل عنه هذا الكتاب أيضا .

ومن أمثلة الخلط والخطب في كلامه قوله : « فقد بحث المتكلمون في هل يستطيع الله تعالى أن يقدم الآجال أو يؤخرها عن ساعتهما ؟ » فيقال له متى ساعة الأجل ، ومن ذا يمينها حتى يُبحث في هل يستطيع الله تقديم الآجال أو تأخيرها من ساعتهما ؟ فإن كان الله تعالى هو معين ساعة الأجل فالبحث في استطاعته التقديم والتأخير أو عدم استطاعته لتقديم الآجال أو تأخيرها عبث وتناقض ، وإن كانت الطبيعة تحكم في الكائنات فلا معنى لوجود الله وتدخله في تقديم الآجال أو تأخيرها ، وليس في علم الكلام متكلم تكلم في استطاعة الله أو عدم استطاعته لتقديم الآجال أو تأخيرهم

عن ساعتها. ولعل هذا القول من الأستاذ كاتب المقالة تحريف مسألة كلامية «هى أن المقتول ميت بأجله خلافاً للمعتزلة» الداهيين إلى موته قبل أجله ، لكن هذا التقديم عندهم من القاتل لا من الله كما فى قول كاتب المقالة . ثم لا مناسبة أصلاً بين هذه المسألة التى لا محل لها فى علم الكلام أعنى مسألة هل يستطيع الله تعالى تقديم الآجال أو تأخيرها عن ساعتها؟ وبين ما ذكر الكاتب بعده معتدياً على المتكلمين : « وهم لعمري لم يفهموا بذلك قدرة الله تعالى فإن النظام المطرد فى العالم وتسلسل العلل والمعلولات أدل على القدرة اللامتناهية » ولا بين هذا القول الأخير وما يعقبه من قوله : « من ذلك التصور الركيك الذى يجعل من قدرته تعالى وسيلة لتغيير النظام الذى فطرته وأبدعته » كما بيناه . وكذا لا مناسبة بين قوله : « وكأننى بأولئك المتكلمين يتصورون هذا النظام على أنه ليس من طبيعة الأشياء بل فرض فرضاً عليها من خارجها .. الخ » وبين قوله : « لهذا (أى لكون متكلمى الإسلام قائلين بأن نظام العالم ليس من طبيعة الأشياء بل له ناظم من خارج العالم فرض هذا النظام على كل شئ فيه وهو الله ،) استسلم أهل الشرق إلى ما أسموه .. » يعنى أن رأس الخطأ فى استسلام الشرقيين إلى ما أسموه القدر اعتقاد وجود إله واضع لنظام هذا العالم . فكأن الرجل بنى على الشرقيين هذا الاعتقاد وذاك الاستسلام الذى يتفرع عليه وهو كفر صريح يستحق به الكاتب النعى على نفسه وعلى مانحيه الجائزة الأولى .

وأما تمثيله العقلية الغيبية والعقلية العلمية ليتبين الفرق بينهما، بمثال أجنحة الطائر، سائلاً هل هو يطير لوجود أجنحة له أم أن كونه ذا أجنحة نتيجة لوظيفة الطيران المتقدمة على الأجنحة ، وبالاختصار هل يطير لكونه ذا أجنحة أم أنه ذو أجنحة لكونه فى حاجة إلى الطيران ؟ ومجيباً باختيار الشق الثانى واعتباره العقلية العلمية دون الشق الأول المبني على العقلية الغيبية - فما يثير الضحك ، وقد قلنا إن مراده من العقلية الغيبية العقلية الدينية . ولم يكن من الصعب إيراد مثال بل أمثلة لإيضاح الفرق

بين العقليتين واللمسالة أجنحة الطائر، صلة بالدين . لكن الأستاذ كاتب المقالة وكاسب الجائزة وحد بين العامى الجاهل والتدين المؤمن بالغيب وجعل لها عقلية واحدة سماها العقلية الغيبية ثم حاول فى تمثيلها بمثال أجنحة الطائر أن يقيد الناس من علومه الحديثة فعرض عليهم مسألة من نظريات «لامارك» الذى كان زعيم مذهب النشوء والارتقاء قبل «دارون» وقد وجد هذا الأخير عيباً فى آراء الأول وانتزع الزعامة منه . واليوم حين انتقدوا نظرية «دارون» وظهرت علامة الإفلاس فى أساس المذهب ، يحاول الكاتب الكاسب أن يبيع نظرية «لامارك» التى أفلست قبل نظرية داروين، بضمن غال .

وإذا رجعنا إلى بحث الثال فللامارك هذا يرى أن العضو نتيجة الحاجة إليه ، فالحيوان يحتاج مثلاً إلى الطيران للفرار من أعدائه ويسعى إلى الجهة التى تنجيه منها فتذهب سيالات من بدنه إلى المحل المحتاج إلى العضو فيحصل فيه الجناح . وكذا الاستعمال واعتياده يقوى العضو ويزيد فى نموه .

ولا كلام لنا فى صحة المسألة الثانية أعنى نمو العضو بكثرة استعماله فهى ثابتة بالتجارب ، إلا أن «لامارك» اجتاز منها إلى المسألة الأولى أعنى كون وجود العضو نتيجة الحاجة إليه ، عملاً بالقياس ، لكن حصول العضو من عدم بمجرد الحاجة إليه والاجتهاد فى تحصيله لا يقاس على نمو العضو الموجود بكثرة استعماله لكونه قياساً مع الفارق ، بل لا إمكان للقياس بناء على ما قلنا .

وكما لا صحة لهذا القياس ، لانتبت التجربة حصول العضو من الاحتياج ، فلو كانت أجنحة الطيور نابتة من احتياجها فى زمن من الأزمنة الماضية إلى الفرار من مهلكة والسعى فيه لحصلت أجنحة فى أفراد الجيش المنهزم الهارب وأفراد الجيش الغالب المعقب ، ولا سيما إذا تكرر الهرب من الأول والتعقيب من الثانى . وفضلاً عنه

لو صح ما قاله كان الأولى بالناس في عصر الطيران هذا أن يبذلوا جهودهم في الحصول على الأجنحة العضوية ليطيروا بأنفسهم بدلا من أن يبذلوا في إنشاء الطائرات ، أو على الأقل في الجمع بينهما . وقد سعى أحد الأمريكيين على ما كتبه الجرائد أن يطير بأجنحة صناعية وقضى نحبه في سبيل الطيران بها ، فليته تعلم نظرية « لامارك » من الأستاذ كاتب المقالة من باريس إلى لجنة المباراة الصحفية بمصروف فكر في الحصول على أجنحة عضوية إنسانية ، والطيران بهذه الأجنحة كان أسلم من خطر السقوط قياسا على أجنحة الطيور .

هذا ، ويمكن أن يكون مراد بطل المباراة الصحفية مما أتى به مثالا من أجنحة الطائر للفرق بين العقلية الغيبية والعقلية العلمية ، أن ملاحدة الماديين ينكرون وجود الملل الغائية في نظام العالم إنكاراً منهم للنظام نفسه وتوسلا به إلى إنكار وجود الله الذي أنشأ العالم عالماً بما يصلح له كل جزء من أجزائه من الوظائف ، فيدعون أنه لا شيء في العالم يدل على القصد والإرادة ولا شيء من الموجودات قد وجد لأى غاية أو فائدة ، فإن كانت ترتب على وجوده فائدة من الفوائد فذاك ترتب اتفاق غير مقصود . فالعين تبصر والأذن تسمع والمخ يفكر والأجنحة تطير لأن كل ذلك وظائف عينت لها هذه الأعضاء ، إذ لا منشاء ولا وظائف ولا تميين ، وإنما يحصل كل ما يحصل من الأشياء في العالم على طريق المصادفة والاتفاق . فالطائر يطير لأن له جناحين لا أن له جناحين ليطير بهما ، ومعنى هذا أنه لم يُعطهما ليستمين بهما عند الطيران وإنما وجد له جناحان مصادفة وحصل بهما الطيران مصادفة من غير أن يكون معطى الجناحين ولا قصد شيء من إعطائهما . وسيجىء بحث هذه النظرية المجيبة التي بنى الملاحدة عليها صرح الإلحاد ، مستوفى في محلها من هذا الكتاب .

فبطل المباراة الصحفية يعتبر هذه العقلية المنكرة للملل الغائية في العالم ونظامه إنكاراً ناشئاً من إنكار وجود الله - يشهد به قوله بكون النظام ناشئاً من طبيعة

الأشياء غير مفروض عليها فرضاً من خارجها - عقليةً علميةً ، ويعتبر العقلية المعترفة بالعلل الغائية والنظام في العالم عقلية غيبية غير علمية . ونحن نبطل فيما سيأتى إن شاء الله ما اعتبره البطل عقلية علمية كما أبطلنا هنا كثيراً من اعتباره ومزاعمه .

وتوجيه قوله في تمثيل الفرق بين العقليتين بأجنحة الطائر ، على هذا الوجه الثاني أوفق للتقابل بينهما وللتعمير عن العقلية الدينية بالعقاية الغيبية ، وإن كان في تطبيق كلامه على هذا الوجه نوع من الصعوبة ولذا أخرناه عن الوجه الأول .

٧

قد اطلع القارىء مما كتبنا في الرقم السابق على طعن واحتقار موجهين إلى المتكلمين من صاحب المقالة الرسالة من باريس إلى لجنة المباراة الصحفية بمصر ومن اللجنة نفسها لكونها رأت تلك المقالة مستحقة للجائزة الأولى .

وقد رأيت في كتاب الأستاذ الفاضل محمد احمد الغمراوي^(١) الذى نشره وسماه : « في سنن الله الكونية » فصلاً بعنوان « العلم والدين » اقتبسته « مجلة الأزهر » تنويعاً بالكتاب ، قال فيه الأستاذ المؤلف :

« يظن من لا خبرة له بالعلم أو بالدين أو بكليهما أن هذه العلوم المسماة بالعلوم الطبيعية والتي يصح تسميتها بعلوم الفطرة علوم مستحدثة وأنها غريبة عن الدين وأن من الجائز وجود تناقض بين حقائقها وحقائقه ، لكن ظنهم هذا باطل لأن هذه العلوم الطبيعية هي في الواقع علوم إسلامية لأنها في الواقع علوم قرآنية ، قرآنية في موضوعها قرآنية في طريقها قرآنية في اسمها لأن مادة « علم » بهذا المعنى الطبيعى المعروف واردة أيضاً في القرآن . »

[١] المدرس بكلية الطب والمنتدب لتدريس علم سنن الكونية بكلية أصول الدين الأزهرية سابقاً

تصدير كتاب مؤلف في علم الطبيعة بهذا الفصل الذى أثنى مؤلفه الفاضل فيه على ذلك العلم بأنه علم قرآنى بموضوعه وطريقه واسمه وخطأ ظن النفاة بين حقائقه وحقائق القرآن ، إنما كان يناسب فى دور من الزمان يوجد فيه أناس متجنبون دراسة هذا العلم وأشباهه بداعية من التعصب الدينى فى غير موضعه . أما بعد أن أدخل تدريس هذه العلوم فى مدارس الأزهر ومضى وقت طويل لم يسمع فيه صوت اعتراض من المسلمين على دراستها ، بل أخذت أصوات الاستغناء والاستئثار تُسمع موجهة إلى علوم عريقة الدخول فى الأزهر عريقة المكانة فى علوم الدين الرئيسية مثل علم الكلام الذى بلغ مركزه بين العلوم الإسلامية مبلغ أن يسمى بعلم أصول الدين .. بعد أن أصبحت دنيا الإسلام مقبولة إلى هذا الحد ، فإنى أرى تصدير كتاب فى علم الطبيعة بهذا الفصل غير متناسب مع حاجة الزمان ولازمة التحوط والتحفظ من مؤلفى الإسلام لمصلحة دينهم فى كل ما يكتبون .. أرى هذا التصدير غير المصادف لأوانه يزيد فى تشويش العقليات ويؤيد العقلية المنقلبة ضد كل ماورثنا من أسلافنا بعد اتصال الشرق الإسلامى بالغرب ، لاسيما وقد ضمَّته المؤلف طعنًا فى موقف المتكلمين من تحرى الحق وتجنب التقليد الأعمى وخطأ لمرتبة الاستدلال العقلى فجاء كوخزة فى محل الأمراض المصرية التى أريد مداواتها بهذا الكتاب .

ثم إن المؤلف ذكر العلم الطبيعى عند سوق الكلام فى مدائحهم باسم « العلم » المطلق كقولهم عنه إنه « قرآنى بموضوعه » و « قرآنى بطريقه » و « قرآنى باسمه » كأنه أى العلم الطبيعى هو العلم لا علم غيره ، وهذا الاصطلاح البدعى فى التسمية الذى شاع فى الغرب وقلده الشرق المصرى من غير محاسبة ، نرى الأستاذ المؤلف ينحاز فيه أيضاً إلى جانب المقلدين .

فإذا كان علم الكلام متهمًا علمًاؤه كما قال الأستاذ النعراوى بتقليد فلاسفة اليونان،

وإذا كان ذلك العلم مستغنى عنه في الإسلام بل متنافياً مع طبيعته كما قال الأستاذ فريد وجدي بك رئيس تحرير مجلة الأزهر في الجزء التاسع من المجلد الثاني عشر من المجلة المذكورة (ص ٥٦٧) : « فإذا كان في الأرض دين تأبى طبيعته أن ينشأ فيه علم الكلام فهو الإسلام » وقال (ص ٥٦٩) : « إن مضى مائة وخمسين عاماً على أمة أتمت فيها نشوءها وتطوراتها الاجتماعية والأدبية ووصلت إلى أبعد فتوحاتها وهي طوال ذلك العهد الذهبي لا تحتاج فيه لعلم الكلام لأدل دليل على أن هذا علم دخيل لا فائدة له لا في تقوية إيمان ولا في تأييد عقيدة ولا في إنارة طريق . »

فإذا كان علم الكلام دخيلاً في الإسلام والعلم الطبيعي قرآنياً بموضوعه قرآنياً بطريقته قرآنياً باسمه، فإذا يحاول الأستاذ أن يقولاً ؟ فهل لمصر أن تخرج علم الكلام رغم كونه مسمى بعلم أصول الدين ، عن كلية أصول الدين الأزهرية وتكتفى بتدريس العلم الطبيعي في الأزهر على أن يكون الأزهر غيراً في تسمية علم الطبيعة بعلم أصول الدين، أو تخرج كلية أصول الدين عن الأزهر بأن تلغي تلك الكلية ؟ .. لكنني أشك في أن الأستاذ النعراوى الذى أعجب بكتبه ومقالاته وأحفظ له في قلبي مكاناً ممتازاً بين كتاب مصر، يرضى بهذه النتيجة وإن كنت مقتنماً بمرضاة الأستاذ فريد وجدي بك .. فإذا قيل لهذا الأستاذ الثانى : ولم يكن علم الفقه أيضاً ولا علم أصول الفقه موجوداً في صدر الإسلام فليس ببعيد أن يكون جوابه : فلنلقهما أيضاً بإخراج دراستهما من كلية الشريعة أو بإلغاء الكلية نفسها أيضاً^(١) مع أن القول باستغناء المسلمين في زماننا عن العلوم التى استغنوا عنها في صدر الإسلام ، يكون كالقول باستغنائنا عن أسلحة الحرب التى لم يستعملها مسلمو عصر الإسلام الذهبى لا أكثر ولا أقل .

[١] يأتى في هذا الكتاب إن شاء الله كلام بشأن علم الفقه .

ومما يجب التنبيه إليه أنى لا أعظم العلم الطبيعي حين جمعه الأستاذ الفمراوى الذى عرض بعلم الكلام والمتكلمين ، علماً قرآنياً بموضوعه وطريقته واسمه ، وأسلم بأن القرآن دعا عباد الله إلى التفكير فى آياته التى اخترناها فى الكون وأن هذه الآيات تُعرف حق المعرفة بما يقال عنه اليوم العلم الطبيعي .. وسيرى قراء كتابى كيف اعتنيت بشأن هذا العلم فى مبحث دلائل نظام العالم الذى أطلت الكلام فيه أكثر من غيره . لكن هذا العلم الذى أطراه الأستاذ الفمراوى من الناحية الدينية لا يتعلمه من يتعلمه فى الشرق والغرب ويخوض فيه من يخوض لغرض الاطلاع على آيات الله وأسراره فى الكون ، كيف ، والملاحدة أكثرهم من الطبيعيين ، فهل يقاس بهم المتكلمون ؟ وأين الذين ترندقوا فى زماننا من التعمق فى علم الكلام على مقتضى القول المشهور : « من تكلم ترندق » ؟ فى حين أن زنادقة العصر يلزم أن يبحث عنهم بين الجاهلين بعلم الكلام المعرضين عنه إعراض رجل عدو لما جهله . ولم ينس قراء هذا الكتاب ما نقلته فى أحد الأرقام السابقة من قول الأستاذ فرح أنطون منشى " مجلة « الجامعة » ومناظر الشيخ محمد عبده أن عدو الأديان الدود فى هذا الزمان هو العلوم المادية التى لا تعتمد بغير المسائل الثابتة بالتجربة الحسية كما أن الأستاذ الفمراوى وأستاذ « مجلة الأزهر » متفقان فى تفضيل الأدلة التجريبية على الأدلة العقلية .

أما أنا فبصفة رجل من رجال الدين يكون أول ما يعنى عن مضافة علم الطبيعة فى بحث مقارنته بعلم الكلام ، تسميته بعلم الطبيعة ، فإن كان هذا العلم علم ما وضعت الطبيعة من النظم والقوانين التى يسير عليها العالم ، ومرمى الذى يدلُّ عليه اسمه دلالة صريحة ، قطع صلة العالم بالله إنكاراً لوجوده وربطه بطبيعة الأشياء ... لزم أن يكون معنى تفضيل هذا العلم على علم الكلام تفضيل علم الإلحاد على علم الإيمان بالله^(١) ولهذا ترى الأستاذ الفمراوى المؤمن بالله يغير اسم الطبيعة عند تفضيل علمها على علم الكلام

[١] وسببنا منا فى هذا الكتاب إبطال ربط العالم بما يسمونه الطبيعة .

ويعبر عنها بسنة الله الكونية ولكن الناس لا يستمعون إلى تغيير الأستاذ الغمراوي مصرين على تسميته بعلم الطبيعة .. وبالنظر إلى هذا الإصرار يسقط الاعتراض علينا بأننا نتمسك بالألفاظ والأسماء معرضين عن المسميات والمقاصد^(١) على أن المقصود من علم الطبيعة لا يمكنه أن يعادل المقصود من علم الكلام في خدمة الإسلام بعد التنازل عن دلالة الأسماء والألفاظ .. بل لا يعادل علم الكلام غيره من العلوم الإسلامية فضلا عن علم الطبيعة وقد صرح العلماء المحققون أمثال القاضي عضد الدين الإيجي صاحب المواقف وسعد الدين التفتازاني والسيد الشريف الجرجاني بأنه أشرف العلوم لكونه أساس الأحكام الشرعية ورئيس العلوم الدينية ، والتكلم ضد علم الكلام إن كان سلامة صدر في الماضي أو غفلة عن المستقبل فهو اليوم بعد ظهور أعداء جديدة يهاجمون الأدلة العقلية ويسعون لهدم أسس الدين من وراء هدم علم الكلام جناية أو جهالة .

قال العلامة الشريف الجرجاني في شرح المواقف : « إن المقصد الأعلى في علمنا هذا إثباته تعالى فإذا لم يثبت وجود صانع عالم قادر مرسل للرسول منزل للكتب لم يتصور علم تفسير وحديث وفقه وأصوله فكلها متوقف على علم الكلام » .
نعم إن دلائل نظام العالم الذي تمسكت به في إثبات وجود الله وعدده من خير

[١] لأن هذا الإصرار العام في الغرب والشرق من غير الأستاذ الغمراوي المؤمن بالله ، ينادى بالإصرار على إسناد نظام الكون إلى طبيعة الأشياء والتمسك بفكرة الاستغناء عن الاعتراف بنظام من خارج الكون يسمونه الله ، لكونه خارجا أيضا عن دائرة العلم الحديث الذي لا يدعن لغير ماثبت بالتجربة - كما تمسك بطل العقلية العلمية الأستاذ كاسب الجائزة الأولى من لجنة المباراة الصحفية بمقالته المرسلة من باريس المذكورة في الرقم ٦ - وهذا العلم غير المؤمن بالله يكون ممدوح الأستاذ الغمراوي المؤمن ، حينما يكون العلم المؤمن وعلماءه مذهبين عنده !! فهل العلم الحديث الذي يحتكره المغمرون به اسم « العلم » ويقصرون لقب العلماء على علمائه ، يراهم الأستاذ وعلمهم غير المؤمنين أحق بالانطباق على « أولى العلم » في قوله تعالى : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط » من العلم القديم المؤمن بالله وعلمائه الذين يدخل فيهم علماء التوحيد أي المتكلمون دخولاً أوليا ؟

الأدلة يستفاد من علم الطبيعة ، ومن هذا كان علماء هذا العلم أجدر بتصديق وجود الله كما ذكرته عند مؤاخذة الملاحدة من أولئك العلماء .. لكنني قلت مع ذلك إن الدليل المأخوذ من العلم الطبيعي التجريبي ليس بكاف في إثبات وجود الله ما لم ينضم إليه شيء من الدليل العقلي الكلامي^(١) ولا أن إثباته موضوع ذلك العلم أو مقصوده ، كما كان ذات الله وصفاته وأفعاله في الدنيا والآخرة ، موضوع علم الكلام أو مقصوده الأعلى ، على أن يكون موضوعه المعلوم من حيث يتعلق به إثبات العقائد الدينية تعلقاً قريباً أو بعيداً ، وهو التعريف المختار .. فهل يعرف الأستاذ رئيس تحرير « مجله الأزهر » القائل « بأن علم الكلام لافائدة له لا في تقوية إيمان ولا في تأييد عقيدة ولا في إنارة طريق » أن موضوع علم الكلام كل معلوم يتعلق به إثبات العقائد الدينية تعلقاً قريباً أو بعيداً .. ولذا صرحوا بأن هذا العلم يتناول من كل علم شرعى أو غير شرعى كل ما يتعلق بالعقائد الدينية الإسلامية .. حتى إن العلم الطبيعي إذا كان فيه ما يصلح للنظر في درس عقائد الإسلام فهو داخل في علم الكلام ، وقد جعلوا موضوعه : « المعلوم » ليشمل الموجود والمعدوم . قال في « المواقف » :

« المقصد الرابع في مرتبته (أى مرتبة علم الكلام) قد علمت أن موضوعه أعم الأمور وأعلاها فيتناول أشرف المعلومات التى هى مباحث ذاته تعالى وصفاته وأفعاله . وغايته التى هى الترقى من حضيض التقليد إلى ذروة الإيقان وإرشاد المسترشدين بإيضاح الحججة وإلزام المعاندين بإقامة الحججة ، وحفظ قواعد الدين عن أن ترزعزعا شبه المبطلين وبناء العلوم الشرعية عليه وتقوية الإخلاص فى العمل بأحكام الشرع بتقوية الاعتقاد .. والى غاية كل ذلك الفوز بسعادة الدارين - أشرف الغايات وأجداها . ودلائله يقينية يحكم بها صريح العقل وقد تأيدت بالنقل وهى الغاية فى الوثاقة ، وهذه هى جهات

[١] ولهذا يكون فى علماء الطبيعة الذين لا يضمون إلى علومهم الأدلة العقلية الكلامية

شرف العلوم لا يعدها ، فهو إذن أشرف العلوم . » قال : « ومساألة كل حكم نظرى معلوم هو أي ذلك الحكم النظرى يدخل فى العقائد الدينية أو يتوقف عليه إثبات شئ منها توقفاً قريباً أو بعيداً .. وهو العلم الأعلى الذى ينتهى إليه العلوم الشرعية كلها ، فليست له مبادئ تُبين فى علم آخر سواء كان شرعياً أو غير شرعى . »

وقال شارح المواقف العلامة الشريف الجرجاني : « وذلك أن علماء الإسلام دونوا لإثبات العقائد الدينية المتعلقة بالصانع تعالى وصفاته وأفعاله وما يتفرع عليها من مباحث النبوة والمعاد ، علماً يُتوصل به إلى إعلاء كلمة الحق فيها ولم يرضوا أن يكونوا محتاجين فيه إلى علم آخر أصلاً فأخذوا موضوعه على وجه يتناول تلك العقائد والمباحث النظرية التى تتوقف عليها تلك العقائد سواء كان توقفها عليها باعتبار مواد أدلتها أو باعتبار صورها وجعلوا جميع ذلك مقاصد مطلوبة فى علمهم هذا .. فجاء علماً مستغنياً فى نفسه عما عداه ليس له مبادئ فى علم آخر . » قال فى المواقف : « فنه يستمد العلوم الشرعية وهو لا يستمد من غيره ، فهو رئيس العلوم الشرعية على الإطلاق لنفاذ حكمه فيها بأسرها وليس ينفذ فيه حكم شئ منها . »

أقول يُعلم من هذا سبب الفرق بين كلام القدماء وكلام المتأخرين الذى مزجوه بفلسفة اليونان والذى عيب عليه ذلك من بعض السلف كما حكى عنهم تحريم علم المنطق . وإنى أرى هذا التعميب وذاك التحريم نفسيهما عيباً يجب تنزيه الإسلام الذى يباهى بكونه دين العقل عن مثله كائناً من كان العائبون^(١) فهل نجعل الإسلام كالمسيحية فى

[١] قال الإمام الفيرى فى رسالته المذهورة للمامة : « شكايه أهل السنة بمحايه ما نالهم من الحنة » على ما نقل عنها التاج السبكى فى طبقاته رداً على القائلين بأن الاشتغال بعلم الكلام بدعة ومخالفة لطريق السلف :

« الاسترواح إلى مثل هذا الكلام صفة الحشوية الذين لا تحصيل لهم . وكيف يظن بساف الأمة أنهم لم يسلكوا سبيل النظر ورضوا بالتقليد ؟ حاش لله أن يكون ذلك وصفهم . ولقد كان =

إبعاد العقل والمقولات عن ساحة عقائده؟ فإذا كان في الفلسفة ما يؤيد الدين أو المذهب الحق في الدين فلا لوم على عالم كلامي إذا ذكرها في علم الكلام استظهاراً به لدينه أو مذهبه .. وإذا كان في الفلسفة ما يتنافى مع الدين أو المذهب الحق في الدين وذكره العالم الكلامي للرد عليه فلا لوم أيضاً . ولا تنس أن فلاسفة اليونان الذين دخلت فلسفاتهم في كلام التأخرين مثل أرسطو وأفلاطون كانوا قبل كل شيء موحدين مثبتين الله الواجب الوجود وواضعين منطق الاستدلال العقلي الذي لا بد أن يستند إليه من يريد إثبات وجود الله في نفسه وفي إزاء منكره استناداً إجمالياً أو تفصيلياً ، وقد وقع مني في هذا الكتاب اشتغال بفلسفة الغربيين ونقل عن حقهم وباطلهم للاستظهار

== السلف من الصحابة رضي الله عنهم مستفنين بما عرفوا من الحق وسمعوا من الرسول من أوصاف المعبود وتأملوه من الأدلة المنصوبة في القرآن وأخبار الرسول فلما ظهر أهل الأهواء والبدع من الخوارج والجهمية والمعتزلة وأوردوا الشبه انتدب أئمة أهل السنة لمخالفتهم والانتصار للمسلمين بمعاينة طريقهم والرد عليهم لما أشفقوا على القلوب أن تخامرها شبههم فحاموا عن دين الله بإيضاح الحجة .. « إلى أن قال : « وفي الجلة لا يجحد علم الكلام إلا أحد رجلين جاهل ركن إلى التقليد وشق عليه سلوك أهل التحصيل وخلا عن طريق أهل النظر ، والناس أعداء ما جهلوا ، فلما انتهى عن التحقيق بهذا العلم نهى الناس ليضل غيره كما ضل .. أو رجل يعتقد مذاهب فاسدة فينطوي على بدع خفية يلبس على الناس عوار مذهبه ويهيم عليهم فضائح طويته وعقيدته ويعلم أن ذوى التحصيل من أهل النظر هم الذين يهتكون السر عن بدعه والقلاب (مزيف النقود) لا يجب من يميز النقود ، والحلل فيما يده من النقود الفاسدة لافي الصراف ذي التمييز والبصيرة » .

فانظر هل الأستاذ فريد وجدى بك أحد ذينك الرجلين أو كلاهما حيث يتقلب دائماً في النقل عن أقوال فلاسفة الغرب في حين أنه يطن في علم الكلام الإسلامي مع من يطن لاختلاطه بالفلسفة القديمة . وإذا كان الحق يقال فالسبب الحقيقي للأستاذ في معاداة علم الكلام أنه لا يستطيع التمسح بذلك العلم من قعره إذ لا قعر له ، كما يتمسح بفلسفة الغرب من القواميس المدونة من غير دخول في لبها ، حسبك دليلاً على صدق قولي هذا ما سأني في محله من هذا الكتاب الخاص بالنظر في رد الأستاذ على الملاحد الجديد إسماعيل آدم . « مؤلف كتاب « لماذا أنا ملحد » ... أن الأستاذ لا علم له بالصورة الصحيحة لفلسفة « كانت » فيما يتعلق بإثبات وجود الله وانتقاده لعامة الأدلة النظرية القائمة على هذا المطالب .

بالأول والرد على الثاني ، ولعل ما أسأت صنعا ولم أشتغل بما لا يعنينى فى خدمة الحق وعقيدة الإسلام التى هى قطب دائرة الحق ، كما لم يكن أسلافى الذين أخذوا فى كتبهم مارأوا أخذه من فلسفة اليونان ، مسيئين ولا مشتغلين بما لا يعينهم . وإذا كانت مباحث الطبيعيات فى علم الكلام لا تسد حاجة العصر الحاضر فلا أقل من أن تكون هذه المباحث جواباً ماثلاً أمام أعين المولدين وجوهمهم عن علم الكلام جاعلين من العلم الطبيعى مزاحماً له مفضلاً عليه ... جواباً بأنهم لا يعرفون علم الكلام ولا كون دائرته الواسعة تحيط بالعلم الطبيعى . أما أن مباحث الطبيعيات فى علم الكلام المنقول إلينا من علمائنا باسم كلام المتأخرين لا تسد حاجة العصر الحاضر ، فلا لوم على علماء الكلام من ذلك ، وهم كانوا حاكمين فى علوم زمانهم حتى جعلوا ما ليس بإسلامى من العلوم إسلامياً وأدخلوه فى علم الكلام الذى عرفت مبلغ سعة موضوعه وحملوا بتأسيس هذه السنة المباركة واجبا كبيرا على عواتق الخلف ، والخلف بمد أن مكثوا حقبة من الدهر فى عجزهم وتوانيتهم عن تحمل هذا الواجب أخذوا يريدون لإنساء واجبهم إنساء علم الكلام نفسه .

فإذا كانت مكانة علم الكلام عند علماء الإسلام وسعة دائرته كما قدمنا ، فحكم رئيس تحرير « مجلة الأزهر » ضده حكم جاهلى ناشئ من عقلية جاهلية حديثة ليس فيها تقدير العلوم الإسلامية والجهود التى بذل علماءنا فيها لإعلاء كلمة الحق ، قدرها وإنما فيها نكران ذلك التراث العظيم . والمؤسف أن أكثر الذين يكتبون عن العلوم فى الجرائد والمجلات المصرية يحومون حول الناحية التاريخية أى تراجم العلماء من غير ولوج فى داخل العلم . فننظر إلى تاريخ علم الكلام وجد فيه فتناً وإحناً ومحناً تكفى لتنفيره عنه إن لم تكن عنده خبرة من لباب العلم نفسه أو رغبة غريزية فى استقصاء دقائق العلوم . وإنى أذكر شاهداً على صدق ماقلته وأرجو من الله تعالى العفو والمغفرة ومن القراء الكرام أن لا يحملوه منى على الإعجاب بالنفس ، وهو : أن مسألة وحدة

الوجود من يدري كم كتب عنها أناس في الصحف والمجلات بل الكتب أيضاً بمصر؟
فليقارن من شاء ما كتبوه مع ما كتبتة عنها وسيجىء إن شاء الله في الباب الثاني
من هذا الكتاب .

بقى سؤال في أهمية علم الكلام ولزوم دراسته وهو أن كل أحد لا يتسنى له
الارتفاع بهذا العلم في تثبيت أو تصحيح عقائده وأنه يكثر الخلاف في مسائله ويكثر
الخطأ بمدد كثرة الخلاف بناء على أن الخلاف يكون أحد طرفيه حقاً وأحد طرفيه باطلاً..
وجوابي على هذا السؤال أولاً أن أكثر الاختلافات الواقعة في علم الكلام لا يبلغ
مبلغ إكفار المخالف^(١) ، مثلاً أن متكلمي المعتزلة الذين قامت أشد الحرب الكلامية
بينهم وبين علماء أهل السنة ، تمسكهم بالإسلام أقوى بكثير من المسلمين الحديثين
المستهينين بعلم الكلام ، فليس منهم أحد يفكر اليوم الآخر كالأستاذ رئيس تحرير
مجلة الأزهر . وثانياً أن الذين يشكون من عدم جدوى علم الكلام يريدون أن يجددوا
ذلك العلم من غير اتعاب الأنفس في دراسته . وثالثاً - وهو المهم - أن استفادة كل
أحد من أي علم لاسيما العلوم العزيزة المنال تكون على قدر خطئه من العقل وحظه
من هداية الله وتوفيقه ، فإذا كان القرآن يضل الله به كثيراً ويهدي به كثيراً فإذن

[١] يجدر بنا التنبيه إلى أن أكثر الخلافات في علم الكلام مع كونه لا يؤدي إلى إكفار
المختلفين بعضهم عن بعض ، لا تقل عن أن يكون جانب الخطأ فيه ضلالاً ومن المعروف تسمية الفرق
الخطئة في هذا العلم بالفرق الضالة ، ولهذا لا يمكن الجمع والتأليف بين مذاهب التي تدور بين الإيجاب
والتحريم ، فمن أراد توحيد المذاهب الكلامية ودعا الناس في دروسه وأحاديثه إلى رفع هذه
الخلافات فيما بينهم وهم على دين واحد كما وقع من الأستاذ الأكبر المراغي (راجع حديث رمضان
له نشرته الأهرام قبل وفاته بقليل) فنشأ عدم الاعتقاد والافتناع من نفس الداعي بأى مذهب
من تلك المذاهب ، فلهذا يكون من السهل عليه التنازل لكل أحد من مذهبه الذي استقر رأيه
على اختياره . وما يجدر أن يذكر بهذه المناسبة أن التقليد لا يجوز في المذاهب الكلامية المتعلقة
بالاعتقاد ، بخلاف المذاهب الفقهية المتعلقة بالأعمال .

علم الكلام إن لم يكن نافعا في نظر الأستاذ فريد وجدى بك؟ وهل نفعته مثبات من آيات كتاب الله ناطقة بدلائل قدرة الله على بعث الموتى من قبورهم بعد أن كانوا ترابا وعظاما ، لتجعله مصدقا لليوم الآخر يوم البعث والحشر ومصدقا لدلالة تلك الآيات القطعية على ذلك اليوم ، حتى تنفعه دلائل علم الكلام في تأييد عقائد الإسلام؟ فرّقنا بين الأستاذين في الرضى بإلغاء تدريس علم الكلام لعلنا بأن الأستاذ رئيس تحرير مجلة الأزهر لا يقنعه إثبات وجود الله الذى كان القائم به إلى يومنا هذا علم الكلام وأنه ينتظر فيه ويستنظر غيره مع غير القانعين ، فيحيل إثباته على ما يؤمله من مستقبل البحوث النفسية الجارية في الغرب ، ولا إخال الأستاذ الغمراوى رغم تكلمه ضد علم الكلام يكون مثل الأستاذ رئيس تحرير مجلة الأزهر صبوراً عن البت الحالى في إثبات وجود الله .

ومن عجائب الأستاذ رئيس التحرير انه أورد في المقالة التى تكلم فيها ضد علم الكلام أيضا وهى فى الجزء الثامن من المجلد الثانى عشر أى قبل الجزء الذى نقلنا عنه قوليه السابقين ضد علم الكلام - نقلا طويلا عن « رسالة التوحيد » للشيخ محمد عبده ممنوننا له بالإمام الحجة ومستشهداً بكلامه فى رسالته .. فهل هو لا يعرف أن تلك الرسالة رسالة فى علم الكلام وأن أحد أسماء علم الكلام « علم التوحيد » . ومن أسمائه « الفقه الأكبر » كما أن من أسمائه علم « أصول الدين » وأن الشيخ لم يكف فى رسالته عن الخوض فى مسألة القضاء والقدر التى ينهى الأستاذ عن التكلم فيها مستنداً إلى آية المحكم والتشابه فى القرآن ، حتى إن الشيخ يختار عند المقارنة بين المذاهب المختلفة فى تلك المسألة مذهب إمام الحرمين الذى انتقدناه نحن فى « تحت سلطان القدر » والأستاذ رئيس مجلة الأزهر كما انه انتقد بنقد علم الكلام كتاب من تأخذه الإمام الحجة من حيث لا يشعر ، انتقد أيضا بنقد هذا العلم إمامه الأكبر المراغى المتكلم عن مسألة الجبر والقدر فى أحد دروسه المنشورة فى مجلة الأزهر . فإن كان

هذا الإمام بطعنه في مذهب الجبر لم يشتغل في ظن الأستاذ بعلم الكلام بل بإبطال مذهب من المذاهب الكلامية فالسعى في إبطال مذهب من المذاهب المذكورة في علم الكلام اشتغال بعلم الكلام أيضا ، بل اشتغال بإثبات مذهب كلامي هو مذهب القدريّة أي المعتزلة بدل مذهب الجبر . أما ان إمام الأستاذ لم ينجح في إبطال ما حاول إبطاله في الدرس المذكور وإثبات ما حاول إثباته فتلك مسألة أخرى يأتي بحثها منا في محل آخر من هذا الكتاب .

ومن عجائب الأستاذ في الجزء التاسع المذكور قوله (ص ٥٦٨) : « إن آية المحكم والمتشابه في القرآن لا تسمح بنشوء علم الكلام في الإسلام » في حين أن الإمام الرازي الذي يسميه الأستاذ دائماً عند الاستشهاد بكلامه في تفسير آية من آيات القرآن « إمام المفسرين »^(١) يقول في تفسير آية المحكم والمتشابه : « إن هذه الآية تدل على علو شأن المتكلمين الذين يبحثون عن الدلائل العقلية ويتوسلون بها إلى معرفة ذات الله وصفاته . » فانظروا هذه الشهادة في علماء الكلام ودلائلهم العقلية ..

وآية المحكم والمتشابه في القرآن التي هي قوله تعالى : « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الأبواب » سلاح عجيب في يد الأستاذ فريد وجدى يستعمله في كل زمان بما يقتضيه هواه ؛ وربما يكون قراء مقالاته الجديدة في « مجلة الأزهر » غير عارفين أو ناسين كون الأستاذ قد تمسك بهذا السلاح

[١] المعروف بين علماء الإسلام بإطلاق لقب الإمام على الرازي في العلوم العقلية مثل الكلام والمنطق لا في التفسير وإن كان له تفسير كبير مسمى « بمفاتيح الغيب » لكن الأستاذ الذي لا يعرف هذه العلوم من كتب لا يعرف أي علم هو الذي كان الرازي إماماً فيه ؟

قبيل توليه الوظيفة الأزهرية لما جرى بينه وبينى نقاش على صفحات جريدة «الأهرام» في مسألة معجزات الأنبياء المذكورة في القرآن فأنكر تلك المعجزات وأضاف إليه إنكار البعث بعد الموت بحجة عدم إمكانها عقلا والنفي في سبيل إنكاره جميع الآيات الصريحة الواردة في القرآن بشأن المعجزات والبعث، راداً لها إلى التشابهات غير الصالحة للاحتجاج، ولم يفكر في أن آية المحكم والتشابه إذا كانت تنمى على مبتغى التأويل للتشابهات ابتغاء الفتنة فإذا يكون حال من يبتغى تأويل المحكمات مثل آيات المعجزات وآيات البعث لاسيا آيات البعث التى هى من أصرح آيات القرآن وآكدها، ليردها إلى التشابهات أى ليلغيها تحريفاً للكلم عن مواضعه ؟

ثم ان آية المحكم والتشابه تسع احتمالين رئيسيين يُظهرها الوقف على جملة « وما يعلم تأويله إلا الله » أو عطف « والراسخون في العلم » على الله . وعليه فإما لا يعلم تأويل التشابه غير الله أو غير الله وغير الراسخين في العلم . فالآية نفسها إذن من التشابهات والأستاذ فريد يتبع هذه الآية التشابهية فيجعل منها سنداً في غير مناسبة قريبة ولا بعيدة يستند إليه في إلغاء آيات المعجزات وآيات البعث في القرآن بردها إلى التشابهات غير مفهومة المعنى ولا مطلوبة الفهم، لكونه من الذين في قلوبهم زيغ وهو يبتغى فتنة إزاحة المؤمنين بمعجزات الأنبياء وباليوم الآخر ، عن عقائدهم .

آية المحكم والتشابه يحتاج تفسيرها في حد ذاتها إلى كلام طويل لا يتحمله المقام ، لكن علاقة الآية بمقامنا مقصورة على ما إذا كان فيها تأييد للعوى الأستاذ فريد وجدى بك الفريبتين اللتين غرابتهما أشد من بطلانهما وبطلانهما أشد من غرابتهما . أحدهما دلالة الآية على ممنوعة الاشتغال بعلم الكلام في الإسلام ! فكان الآية تنهى المؤمنين عن إثبات وجود الله بعلم الكلام ضد المنكرين وجوده أو الشاكين فيه وتأمرهم بالانتظار إلى أن يثبتته الغريون ببحوثهم النفسية « اسبيرتيزم » فيراه الناس بأعينهم ويلمسونه بأيديهم كما رأوا النفس ولمسوها على ما يقولون ، وإثبات الوجود

على زعمه لا يكون إلا هكذا . وثانية الدعويين كون الآية أعنى آية المحكم والتشابه قرينة مانعة عن دلالة آيات المعجزات وآيات البعث في القرآن على ما ندل عليه من وقوع المعجزات في أزمنة الأنبياء السابقة كما حكى القرآن أنباءها ووقوع بعث الأموات من قبورهم إذا جاء وقتها كما قال الله تعالى : « ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون » يعني أن المعجزات لم تقع وأن البعث بعد الموت لا يقع ولم يكذب الله في آيات المعجزات والبعث ولكنه تكلم بما لا يفهم أو لم يقدر - وحاشاه - على تفهيم ما هو مراده من تلك الآيات على الرغم من كمال وضوحها ، وقد دلت على هذه الحقيقة الخفية على جميع قارئ القرآن غير الأستاذ ، آية المحكم والتشابه التي لا تبلغ صراحتها ووضوحها معشار ما في آيات المعجزات وآيات البعث ولا سيما آيات البعث من الصراحة ووضوح الدلالة ، فكل آية غيرها في القرآن على زعم الأستاذ يمكن التحلل من وجوب التصديق بمضمونها لكل من شاء ذلك وطريقه ردها إلى التشابهات مهما كانت صريحة المعنى ، فهي لا تكون أصرح من آيات البعث التي قد أوردنا نماذج منها في الرقم (٥) .

لا ، لا ، يا أستاذ لم يكن دليلك الحقيقي في عدم تصديقك بآيات المعجزات والبعث بعد الموت متلاعبا بها وبعقول الناس في دلالتها ، آية المحكم والتشابه ، فلست مصابا في عقلك لهذا الحد ولا الناس مصابين ليلتبس عليهم موقف آية المحكم والتشابه من آيات المعجزات ، وآيات البعث ! وإنما دليلك الحقيقي ظنك بأن العلم الطبيعي الذي أطراه الأستاذ الفعراوى وجعله قرآنيا بموضوعه قرآنيا بطريقته قرآنيا باسمه ، يمنع صدق آيات المعجزات وآيات البعث ، مع الظانين من أهل الغرب والشرق المقلد . وحضرتك تؤمن بأحكام العلم أكثر منك بآيات القرآن^(١) ، كما أشرت إليه فيما

[١] وليس العلم الذي تؤمن به أكبر من نصوص كتاب الله جديراً بهذا الاسم على إطلاقه محبطا بجميع الحقائق ، وإنما هو علم خاص بالماديات يستند إلى التجارب الحسية ويقصر مداه عن =

كتبته رداً علىّ قبل توليك الوظيفة الأزهرية ، وما استنادك إلى آية المحكم والتشابه غير تستر وتعمل - وبعبيرك أنت نفسك استبطان الإلحاد - فلو ذكرت للأستاذ الغمراوي سندك هذا في إنكار معجزات الأنبياء والبعث بعد الموت لضحك منك على الرغم من اشتراكك معك في الخط عن منزلة علم الكلام ؛ ولهذا كان الواجب على هذا الأستاذ الذى لا يمكن أن يكون من الظانين بأن العلم الطبيعى يمانع صدق آيات المعجزات وآيات البعث كما ظنفته لما جرى بيني وبينك نقاش في مسألة المعجزات والبعث .. كان الواجب

= اليقين الضرورى الأبدى . وهناك علم أسمى وأقوى يظل عنه أستاذ مجلة الأزهر ويستهن به عند استهائته بعلم الكلام الذى يبني علماء الإسلام مسألة وجود الله على الأدلة المأخوذة منه ويتحدون به المنكرين كما أنى سأعدهام وأتحدى أستاذ مجلة الأزهر لما جاء في هذا الكتاب دور الاستدلال على وجود الله بدليله العقل الكلامى ، فإن وجد فيه محلاً للاعتراض فليقل وليدخل البحث والنقاش من يابه ، وإلا فلا ينفع الطعن فى علم الكلام بأنه دخل فى الإسلام لا فائدة له فى تقوية إيمان ولا فى إنارة طريق ، لأن هذا طعن من ضل الطريق ونكب عن طريق علماء الإسلام غير مستمع لصوت الداعى إليها ، منتظراً لأصوات الغربيين المشتغلين بالبحوث النفسية أن يقولوا : إنا وجدنا الله ، لسانه بأيدينا وقبضنا عليه ليراه أستاذ مجلة الأزهر ويلامسه يديه فيؤمن بوجوده .

وهذا الأستاذ الذى يلتقى من علامبر الأزهر منذ عهد عدة من شيوخه الأكابر درس اليأس للمسلمين من إنقاذ دينهم وإخراجه من حفرة الأساطير التى قذف به العلم الحديث إليها مع الأديان الأخرى وخصيصاً درس اليأس من إثبات وجود الله الذى هو رأس الأديان ، بأدلته العقلية المبسوطة فى علم الكلام ساعياً لإسقاط هذا العلم القديم من عيون المسلمين المعاصرين ومعلقاً إعتاده على الدليل المحسوس الملموس الذى لا بد أن يكتشفه الباحثون الغربيون !! فكأن ذلك الدليل لا يكون عند الأستاذ دخيلاً فى الإسلام . نعم إنه لا يكون دخيلاً عندنا أيضاً ، بناء على أن اكتشافه من المستحيلات التى لا تقع ، وقولنا عنه إنه لا يكون دخيلاً فى الإسلام صادق لصديق القضية السالبة مع عدم وجود موضوعها . لكن الأستاذ لا يعرف - لعدم معرفته بعلم الكلام - أن الحصول على الدليل الملموس لإثبات وجود الله محال ، كما أنه لا يعرف السبب فى صدق قولنا بأن ذلك الدليل المنتظر المستحيل لا يكون دخيلاً فى الإسلام لعدم معرفته بعلم الكلام والمنطق .

وذنب علم الكلام الذى لا يقتنع الأستاذ بدليله الموجود لإثبات وجود الله فيحيله على الدليل الملموس المحال ، أن أدلة علم الكلام تكون مبنية على العقل والمنطق اللذين لا يجهما الأستاذ ، =

عليه أن يشاركني في الرد عليك وقت تلك المناقشة أو يكتب شيئاً من هذا القبيل عند تأليف كتابه ويدرجه في المقدمة التي صدر بها الكتاب، تبرئة للعلم الطبيعي الذي يُحسن الظن به ويقرّبه إلى القرآن، من ظن سيئ الظن. أما دليل الأستاذ رئيس مجلة الأزهر من هذا العلم ضد آيات المعجزات والبعث وما بعده من أحوال الآخرة فأني بعون الله تعالى وتوفيقه سأقضي عليه في الباب الثالث من هذا الكتاب.

نعود إلى الكلام على فصل « العلم والدين » الذي صدر به الأستاذ الفمراوي كتابه في علم الطبيعة : كان الأستاذ المؤلف أثنى على العلم الطبيعي بكونه قرآنيًا بموضوعه وطريقته واسمه ثم فصل هذه القرابة بين ذلك العلم والقرآن الحكيم بمهارة علمية وخبرة دينية لا بد أن أشكره عليهما مع كل قارئ غيور على دينه وقرآنه، إلا أن المؤلف قال في آخر الفصل : « لو بحثنا في تاريخ الفلسفة الإسلامية وما كان بين علماء المسلمين من خلافات كلامية وجدنا أكثر هذه الخلافات إن لم يكن كلها راجعاً

= وقد ساقه عدم معرفته بعلم الكلام إلى البحث عن الله الذي فقد مع عقله ومنطقه في الأنبر كما سبق منا الكلام عليه ؛ وفيما يأتي من هذا الكتاب سينجلي للقارئ كيف أخفق هذا الأستاذ في ردوده على الملحد الجديد مؤلف كتاب « لماذا أنا ملحد » وذلك الإخفاق أيضاً ناشئ من عدم معرفته بعلم الكلام والمنطق.

وآخر ذنوب علم الكلام وأدلته العقلية المنطقية على أستاذ مجلة الأزهر، أو بالأولى أول ذنوبه أنه صعب المزاولة يحتاج إلى العقل السليم المجهز بالمنطق القطري، ولهذا تراه في كتاباته يعيب تلك الأدلة بكثرة وقوع الخلاف والأخطاء فيها، فلما لم يمول على عقله في تمييز الدليل الصحيح من الفاسد بين الأدلة العقلية ولا على عقول المميزين من علماء الإسلام، وجد الطعن على علم الكلام أسهل من الدخول في ميدان الاستدلال على وجود الله الذي هو ميدان هذا العلم، كما أنه ميدان القرآن القائل : « أفى الله شك فاطر السماوات والأرض » .

لكن الأستاذ لم يقتنع بأدلة علم الكلام والقرآن وعدّها دخيلة فبقى على شك في ثبوت وجود الله أو على الأقل بقى عاذراً للشاكين من المتعلمين المصريين ملقياً درس اليأس عليهم إلى أن يظهر الغربيون على الدليل الملموس بإدخاله في متناول التجربة الحسية رغم تعذر دخوله فيه .

إلى قضايا فلسفية أخذها المسلمون عن اليونان من غير تمحيص « وهنا اتهم الأستاذ علماء الإسلام المتكلمين بالتقليد الأعمى الذى شدد النكير عليه فيما سبق من كلامه ، باسم العلم والقرآن المتفق فيه مع العلم .

ثم قال : « كان قدماء الفلاسفة يرون العقل مصدراً للحقائق مستغنياً بذاته عن المشاهدة ، أما محدثوهم فيرونه وسيلة . أما الحقائق نفسها عند العلم الحديث فهي خارج النفس وخارج العقل . كان القدماء لا يرون امتحان الأشياء نفسها ضرورياً لطلب الحقيقة . أما المحدثون فلا يرون سبيلاً للوصول إلى الحقيقة إلا امتحان الأشياء تحت إشراف العقل . والعلم الحديث باكتشافاته واختراعاته قد ولد حين ترك الإنسان مذهب الأقدمين في طلب العلم عن طريق التفكير البحت وبدأ هو يطلب العلم عن طريق المشاهدة مع التفكير . لذلك كان الدور الأول من أدوار نشوء العلم الحديث مشاهدة تكاد تكون بحتة ليس للتفكير فيها إلا بقدر ما يضمن صحتها . »

وقال أيضاً : « إن العلم يمنع التقليد في النظر من غير وقوف على الدليل والاقتناع به والعلم الحديث يخالف العلم قديماً في هذا لأن العلماء قديماً ، خصوصاً في القرون الوسطى ، كانوا كثيراً ما يقنعون في الاستدلال على الصحة والبطالان بإثبات أن القضية توافق أو تخالف رأى فلان أو إعلان من المشاهير ، فكان ما يثبت عن أرسطو مثلاً حجة قاطعة في موضوعه من غير أن ينظر في رأى أرسطو هذا في ذاته ومن غير أن يسأل ما دليل أرسطو وكان هذا منبع شر كبير ، ولعله كان سبب كثير من الشبه الكلامية التى قامت بين علماء المسلمين ؛ يمد أن ترجمت كتب اليونان في العصر العباسى ، فيما يتعلق بالعلاقة بين الشريعة ، وما كانوا يسمونه الحكمة ، يريدون بالحكمة غالباً ما أخذوه عن حكماء اليونان مثل أفلاطون وأرسطو حتى جاء أمثال الغزالي فوضعوا الأمر في نصابه . »

وأنا أقول عدد الأستاذ مفاخر العلم الحديث قائلاً إنه فعل كذا وفعل كذا وبقي

شيء فقط من مفاخره لم يقله وكان الأستاذ فريد وجدى بك قاله فى أثناء حدوث النقاش بينى وبينه وهو يهددنى بالعلم الحديث لأتقهقر فى الدفاع عن عقائد الإسلام المبنية على المؤيدات العقلية والنقلية دون التجربة والملاحظة فى الحال الحاضر، كاعتقادنا بوقوع معجزات الأنبياء فى الزمان الماضى ووقوع البعث بعد الموت فى المستقبل . وذلك الباقى من مفاخر العلم الحديث الذى لم يذكره الأستاذ الفعراوى وذكره الأستاذ فريد وجدى بك يفهم من قوله الآتى وقد نقلته عنه من قبل أيضا :

« ولد العلم الحديث وما زال يجاهد القوى التى كانت تساوره حتى تغلب عليها ودالت الدولة إليه فى الأرض فنظر نظرة فى الأديان وسرى عليها أسلوبه فحذف بها جملة إلى عالم الميتولوجيا (الأساطير) ثم أخذ يبحث فى اشتقاق بعضها عن بعض واتصال أساطيرها بعضها ببعض فجعل من ذلك مجموعة تقرأ لا لتقدس تقديسا ولكن ليعرف الباحثون منها الصور الذهنية التى كان يستعبد لها الإنسان نفسه ويقف على سيئاتها جهوده غير مدخر فى سبيلها روحه وماله .

« وقد اتصل الشرق الإسلامى بالغرب منذ أكثر من مائة سنة فأخذ يرتشف من مناهله العلمية ويقتبس من مدنيته المادية فوقف فيما وقف عليه على هذه الميتولوجيا ووجد دينه مائلا فيها فلم ينبس بكلمة لأنه يرى الأمر أكبر من أن يحاوله ولكنه استبطن الإلحاد وتمسك به متيقنا أنه مصير إخوانه كافة متى وصلوا إلى درجته العلمية . « وقد نبغ فى البلاد الإسلامية كتاب وشعراء وقفوا على هذه البحوث العلمية فسحرتهم فأخذوا يهيمون الأذهان لقبولها دسا فى مقالاتهم وقصائدهم غير مصارعين بها غير أمثالهم تغاديا من أن يقاطعوا أو ينفوا من الأرض .

« وقد عثرنا نحن فى جولتنا العلمية على ما عثروا عليه فكانت صدمة كادت تقذف بنا إلى مكان سحيق لولا أن من الله علينا بوجود المخلص منها وهو قوله تعالى :

« هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات.. الآية » .

فانظروا ماذا فعل العلم الحديث : قضى على الأديان كلها ولم يستثن منها الإسلام وقضى على معتقدات نوابغ الكتاب والشعراء الإسلامية فجعلهم يستبطنون الإلحاد في بلاد الإسلام ويهينون أذهان أهلها لقبول الإلحاد من غير إشعار بهم . هذا ما اعترف به الأستاذ فريد وجدي بك على حساب نوابغ الكتاب والشعراء الموجودين في البلاد الإسلامية المشتغلين بالدعاية المقتنعة ضد الأديان ، أما الأستاذ نفسه وهو لا يرضى من غير شك أن لا يكون من نوابغ الكتاب فقد استثناءه في الظاهر من استبطان الإلحاد، وإني قلت عن هذا الاستثناء : «استبطان الاستبطان» .. وما ذكره من المخلص الذي لولاه لوجد نفسه من تأثير العلم الحديث في مكان سحيق عن الدين ، لا يفر غير السذج . أما أولاً فلم لم ينقذ هذا المخلص وأعني به آية المحكم والمتشابه غير الأستاذ من نوابغ الكتاب والشعراء المسلمين إن كان فيها ما يصلح لإنقاذ المشرف على الإلحاد بسبب ما يراه من مخالفة عقائد الأديان لقواعد العلم الحديث ؟ وأما ثانياً فلأن خلاص الأستاذ بفضل تلك الآية عن ورطة الإلحاد الناشئة من التخالف المذكور بين عقائد الدين وقواعد العلم ، ليس معناه أن تلك الآية قضت على العلم المخالف للدين وجعلت الدين غالباً عليه في الحاجة أو أزال الخلاف الواقع بينهما ، وإنما معناها أن الآيات الواردة في القرآن منبهة بوقوع ما لا يقبله العلم الحديث كأنباء المعجزات والبعث وما بعد البعث من الخسر والحساب والجنة والنار ، لا عبرة بها ولا تعويل على دلالتها لكونها من المتشابهات . فالعلم الحديث على قول الأستاذ قضى على تلك الآيات وآية المحكم والمتشابه قضت على قيمة دلالتها تصديقاً للعلم الحديث . فلا حجة إذن لعقيدة الإسلام في المعجزات والبعث وما بعد البعث كما يقتضيه العلم الحديث وتصدق آية المحكم والمتشابه في القرآن ، فالقرآن والعلم الحديث متفقان ضد عقيدة الإسلام .

هذا معنى خلاص الأستاذ من مشكلة التخالف بين العلم والدين بفضل آية المحكم والتشابه ، وفيه خلاصه وتخليص قرائه من اليوم الآخر ومن مخافة الحساب والعذاب في ذلك اليوم . وهذا الأستاذ الذى أعلن مذهبه ضد الأديان عن طريق الدس الذى ذكر هو نفسه أنه طريق مستبطنى الإلحاد النوابع ، ليفهمه من يفهمه ، وهياً الأذهان لقبوله ، وهذا الأستاذ هو اليوم ومن سنوات طويلة لسان الأزهر الناطق ومعلم الأزهرين الأول لا يعترض عليه من يريد منهم أن يقيم أوده ويقفَ في وجه دسائسه.. ومن قام بهذا الواجب من علماء الأزهر يقوم على تخوف من مركز الأستاذ ومكانته عند الأستاذ الأكبر (المراعى) فيفسد الواجب بين إنكار القول وإكبار القائل ، والكثيرون لا يتنبهون لما يذيمه في منبر الأزهر من الأضاليل فضلاً عن الوقوف في وجهها .

أما الأستاذ الغمراوى فكما أنى أبرئه عن شوائب الظنّة في عقائد الدين، أربأ به عن مشابهة أستاذ مجلة الأزهر في رفع العلم الحديث وخفض العلم القديم من غير تحديد لناحية الرفع والخفض في العلمين . ولا شك في أن العلم القديم أدى واجبه في ساحة العقليات وإثبات أساس الدين ، في حين أن العلم الحديث الذى لا ينكر تقدمه في الماديات شوهد ضرره بالدين أكثر من نفعه ، وإن كان العامل في ذلك سوء فهم الطائشين من علمائه وأذئاب علمائه دون العلم نفسه .

وبعد أن يكون هذا البيان معلوماً للقراء الكرام فأقول إن الأستاذ الغمراوى ما أنصف علماء الإسلام المتكلمين في رميهم بتقليد فلاسفة اليونانيين ولا هؤلاء الفلاسفة في رميهم بطلب العلم عن طريق التفكير البحت والاستغناء به عن طريق المشاهدة . بل الحق أن مذهب التقليد للغرب وفلسفته سائد عند المسلمين وعلمائهم اليوم أكثر مما كان منه لقدمائنا إزاء الفلسفة اليونانية ، لأن الكتب الكلامية التى ورثناها من أسلافنا ملأى بنضال الفلاسفة ونقاشهم النام على أنهم رحمهم الله لم

يهملوا التمهيد في مسائل العلم أصلاً^(١) حسبك مثلاً اهتمامهم العظيم بمسألة حدوث العالم الذى له صلة قوية بكون الله تعالى فاعلاً مختاراً بالمعنى الحقيقى ، لا مختاراً بالمعنى الأعم المجامع للإيجاب الذى اخترعه أنصار الفلاسفة وفسروه بقولهم « إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل » بدلاً من قولنا « إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل » . وهذا البحث يأتى إن شاء الله مفصلاً فى فصل خاص من هذا الكتاب يحسن بى أن أنقل شيئاً مما قلت فيه ، فلمله يطول انتظار القارىء إلى أن يجرى دور ذلك الفصل فى الجزء الثالث أو الرابع من طبع الكتاب ، وهو :

ثم إن العالم ليقوم بواجبه الذى هو إثبات وجود الله بوضوح ، يلزم أن يكون حادثاً ، حيث إن حاجة القديم الذى لأوله ولم يسبقه العدم ، إلى الموجد غير واضحة . وبهذا تزداد مسألة حدوث العالم أهمية وخطورة فى علم الكلام ، على الرغم مما خفى عليه خطورة المسألة كابن رشد فلم ير بأساً فى مذهب الفلاسفة القائلين بقدم العالم وعاب على المتكلمين تشددهم على هؤلاء .

ولما خصصنا الفصل الأول من الباب الثانى لدرس مذهب وحدة الوجود ومنشئه الذى هو عبارة عن تعيين حقيقة الله تعالى على أنها الوجود وعن القول بأن الوجود فى كل موجود هو الوجود ولا موجود غيره ، وكان مقتضى هذا أن يكون الله كل الموجودات فيتحد العالم مع الله - أردنا أن نبين فى هذا الفصل الثانى موقف العالم الحقيقى من الله وهو أنه ما سوى الله ومخلوقه الحادث أى الكائن بعد أن لم يكن ، كما

[١] وليأخذ الأستاذ مثلاً صغيراً منى وأنا من أقل أعقاب المتكلمين القدماء ولينظر كيف ناضلت الفلاسفة الذين كان علماءنا يناضلونهم . كيف ناضلتهم ومن انحاز إليهم من علمائنا فى بحث وجود الله هل هو عين ذاته أو زائد عليها كما سيراه القارىء فى الفصل الأول من الباب الثانى المفقود لمسألة « وحدة الوجود » وكيف سلكت فى هذا الكتاب مسلك الثبوت والتمحيص والنقد من غير هوادة ولا تقليد أعمى لأحد من العلماء والفلاسفة الشرقيين والغربيين مهاجل مركزه .

هو مذهب علماء الإسلام المتكلمين بأجمعهم ، بل مذهب المليين مطلقا . والمخالف في هذه المسألة أيضاً الفلاسفة والصوفية الوجودية ، وإن كان دأب العلماء المؤلفين في علم أصول الدين أن يناقشوا الفلاسفة فقط عند درس مسألة حدوث العالم ويضربوا عن أذناهم صفحاً وأعنى بهم الصوفية القائلين بوحدة الوجود .

مذهب فلاسفة اليونان أن العالم قديم إلا في رواية عن أفلاطون يقول فيها بحدوثه، وعن جالينوس يتردد فيها بين القول بحدوثه وقدمه^(١) وأكثر القائلين بقدم العالم من أولئك الفلاسفة معترفون بوجود الله وتأثيره في وجود العالم . والملم بعلم الكلام يشهد معركة عظيمة بين متكلمي الإسلام وهؤلاء الفلاسفة في هذه المسألة لو تذكرها وحدها على الأقل الأستاذ الفاضل النمرأوى المار الذكر في الجزء الأول من الكتاب، الخاص بأسباب تأليفه ، أو هيئة (مجلة الأزهر) - ولا أقول لو عرفوها - لكفت في منع الأول عن رى المتكلمين بتقليد فلاسفة اليونانيين في المسائل الكلامية ، وفي منع الآخرين عن إشادة كتاب الأستاذ بنشر ما يتضمن ذلك الرى منه في مجلتهم .

اعلم أن المتكلمين علماء أصول الدين قد عُنُوا بمسألة حدوث العالم عناية عظيمة حتى شنوا على الفلاسفة القائلين بقدمه حرباً شعواء لا أغالى إذا قلت لا مثيل لها في أى مسألة خلافية بين الفريقين . ومن الغفلة استكثار هذا التشدد من المتكلمين في الإنكار على مذهب القدم زعماء من المستكثر أن المسألة لا علاقة لها مباشرة بموضوع الإلهيات ، فكانه يقول : « إن وجود الله مضمون عند الفلاسفة كما أنه مضمون عند المتكلمين وليكن العالم بعد ذلك ما كان » ومثال تلك الغفلة ما وقع للقاضى أبى الوليد بن رشد الأندلسى من الاستخفاف بمسألة قدم العالم أو حدوثه من ناحية

[١] على ما حكى عنه أنه قال في صرضه الذى توفى فيه لبعض تلامذته : « اكتب عني ما علمت أن العالم قديم أو حادث » قال الإمام الرازى وهذا دليل على أن جالينوس كان منصفاً طالبا للحق ، فإن الكلام في هذه المسألة قد يقع من العسر والصوبة إلى حيث يضمحل أكثر العقول فيه .

الدين وإنجائه باللوائم على التكلمين الذين اعتبرهم مبتدعى هذه البدعة باسم مسألة حدوث العالم أو قدمه .

فأولا ان كون الله تعالى فاعلا مختارا لا يتفق مع قدم العالم ، ومن هذا اعتُبر الخلاف في حدوث العالم وقدمه ناشئا من الخلاف في كونه تعالى فاعلا بالاختيار أو فاعلا بالإيجاب . وقيل بالعكس أى ان الخلاف في هذا ناشئ من الخلاف في حدوث العالم وقدمه . والحق أن كلا من المسألتين له خطورته الخاصة ، زيادة على ما بينهما من شدة الاتصال . فلو صرفنا النظر عن علاقة القول بقدم العالم مع القول بكون الله فاعلا غير مختار ، كفانا ما نحس في القول بقدم شيء مما سوى الله من استغناؤه عن فاعليته بالمرة لا مختاراً ولا موجبا ، إذ لا تمقل حاجة القديم الذي لم يزل موجوداً ولم يسبقه العدم إلى إيجاد من الفاعل ، فأى شيء يوجد الفاعل من الموجود الأزل ؟ أليس إيجاد الموجود تحصيلاً للحاصل أى تناقضا ؟ وإذا كان القائلون بقدم العالم يمترون باستناده إلى الله استناد المعلوم إلى علته كانت حاجته إلى وجود الله لا إلى فاعليته ، وحاجته إلى فاعليته لا تتحقق إلا بالاستناد إلى إرادته التي هو مختار فيها ، إذ الإرادة بالمعنى الذي ابتدعه الفلاسفة ليست من الإرادة في شيء ... على أن الله تعالى غير متصف عندهم بأى صفة زائدة على ذاته ، فليس هناك إرادة ولا علم ولا غيرها وإنما هناك ذات . فإذا كان الله تعالى فاعلا للعالم على أن لا ينفك فعله للعالم من ذاته ولا يتأخر عنها فمعنى هذه الفاعلية لزوم وجود العالم لذات الله بحيث لا يمكن وجود الله مستقلا عن وجود العالم كما لا يمكن وجود العالم مستقلا عن الله ، وفعله الغير الإرادى يجعله أشبه شيء بالماكينة المسخرة منه بالفاعل ، بل الاشتغال غير لازم للماكينة لزوم الفعل لله عندهم ، فهل يقال عن الماكينة إنها فاعلة ؟ وإذا قيل فهل يكون ذلك قولاً حقيقياً ؟ ولذا اعتبر فاعل القطع بالسكين هو الإنسان والسكين آلة القطع لفاعله وإن صح لغة إسناد القطع إلى السكين أيضاً ، بل وإن كان السكين أحق بإسناد القطع إليه من الإنسان الذي استخدمه ، وأقرب .

وكل هذه الفروق ناشئة من ترجيح صاحب الإرادة لأن يكون فاعلا . وليس في الله إرادة على مذهب الفلاسفة القائلين بأن الله تعالى لا يمكنه أن لا يفعل كالشمس لا يمكنها أن لا تشرق، وغير المريد لا يوصف بالقدرة حتى فيما فعله لعدم قدرته على أن لا يفعل . أما قول صاحب (الأسفار) : « المريد هو الذى يكون عالما بصدور الفعل الغير المنافي عنه ، وغير المريد هو الذى لا يكون عالما بما يصدر عنه كالتقوى الطبيعية، وإن كان الشعور حاصلًا لكن الفعل لم يكن ملائما بل منافرا مثل الملجأ على الفعل فإن الفعل لا يكون مراداً له » ففيه أنه ردُّ الإرادة إلى العلم والعلم لا يجعل صاحبه مريداً ، كالإنسان يعلم مرضه وليس ذلك بقصده وإرادته ، فإن قلنا إنه غير ملائم فصحته التى يعلمها وهى ملائمة ، تحصل أيضاً من غير قصد وإرادة منه . على أن حديث الملائم أو غير الملائم فيمن سلبت عنه الإرادة وردت إلى العلم يكون حديث خرافة ، إذ الملائم يمتاز عن غير الملائم بموافقته للإرادة ، ولا إرادة هناك ^(١) .

[١] وإنى أقول هنا قولاً لعله لم يلق بآل أحد وهو أن وجوب أفعاله تعالى عنه من غير اختيار منه عند الفلاسفة ووجوب مفعولاته المبني على وجوب أفعاله والمستلزم لقدم العالم وكون صدوره منه كصدور الإشراق من الشمس ، وقد نص بعض أنصارهم مثل صاحب (الأسفار) على هذا التشبيه مع ادعاء الفرق بينهما بعدم وجود الإرادة في الشمس ووجودها في الله ، ومع كوننا لا نعترف بهذه الإرادة المردودة إلى العلم المردود إلى ذات الله ... كل ذلك مما يقرب العالم من ذات الله ويزيد في تقريبه حتى يجعله - لا أقول كصفة من صفاته إذ لا صفة له عندهم إلا وهى منتفية في الذات بل أقول كما قال صاحب الأسفار : « شأننا من شؤون وطوره من أطواره » فيلنى كلمة ماسوى الله ويفتح طريقاً إلى مذهب وحدة الوجود أى مذهب اتحاد العالم مع الله . ويؤيده ماقلت في الفصل السابق المفقود لتحليل ذلك المذهب ولا أزال أقول من أن الصوفية الوجودية بنوا آراءهم في الله على آراء الفلاسفة ، ومن أجل ذلك اهتمدوا عن عقائد علماء أهل السنة والجماعة ، وكانوا أى الصوفية الوجودية هم الحقيقين بتفنيد الأستاذ النمراوى وتعييبه بتقليد الفلاسفة اليونانيين لا علماء أهل السنة المتكلمون .

وقد نرى هناك مذهبا ذا وجهين من الفلسفة والتصوف بعكس ما فعله الصوفية الوجودية ==

انتهى ما أردت نقله مما قلت في فصل حدوث العالم ، ليكون نموذجاً لإثبات أن علم الكلام لم يكن علم تقليد لفلاسفة اليونان . فهل يمكن الذين لا يقدرُونَ الأوائل حق قدرهم أن يُروِّنا من الآثار الحديثة في الفلسفة الإسلامية ما يعدل أو يدانى آثار السلف كيفاً أو كمّاً ويناضل فلسفة الغرب الحديثة المألوفة كالفلسفة المادية أو الوضعية .. إن أسلافنا لم يسكتوا إزاء ما يتناقض مع مبادئ الإسلام من الفلسفة القديمة اليونانية ولم يتفقوا ولم يقل أحد منهم على رؤوس الأشهاد مثل ما قال مدير (مجلة الأزهر) ورئيس تحريرها قبل تولي الوظيفتين :

« ولد العلم الحديث وما زال يجاهد القوى التي كانت تساوره حتى تغلب عليها ودالت الدولة إليه في الأرض ، فنظر نظرة في الأديان وسرى عليها أسلوبه فقذف بها جملة إلى عالم الميتولوجيا (الأساطير) ثم أخذ يبحث في اشتقاق بعضها عن بعض واتصال أساطيرها ببعضها ببعض ، فجعل من ذلك مجموعة تقرأ لا لتقدس تقدساً ،

= فينبى الفلسفة على التصوف الوجودى ، ومثال هذا ما قاله صاحب (الأسفار) عند تفضيل مذهب الفلاسفة القائلين في علم الله بارتسام صور الأشياء في ذاته تعالى وحصولها فيه حصولاً ذهنياً على الوجه الكلى ص ٩٧ : « وأما تحاشيه أى تحاشى شيخ الاشرافين وتحاشى من تبعه عن القول بالصور الإلهية لظنهم أنه يلزم حلول الأشياء في ذاته وفي علمه الذى هو عين ذاته ، فقد علمت أن ذلك غير لازم إلا عند المهجويين عن الحق الزاعمين أنها أى الأشياء كانت غيره تعالى وكانت أعراضاً حالة فيه ، وأما إذا كانت عينه من حيث الحقيقة والوجود وغيره من حيث التعين والتقييد ، فبالحقيقة ليس هناك حال ولا محل بل شيء واحد متفاوت الوجود في الكمال والنقص والبطون والظهور ، ونفس الأمر عبارة عند التعقيق عن هذا العلم الإلهى الحاوى لصور الأشياء كليها وجزئها وقديعها وحديثها فإنه يصدق عليه أنه وجود الأشياء على ماهي عليها فإن الأشياء موجودة بهذا الوجود الإلهى الحاوى لكل شيء . »

وأنا أقول إذا لم تكن الأشياء غير الله ، بل كان كل شيء عينه لحدث كما شئت عن أى مسألة شئت ولا حرج ، إنما المخطئ والمصيب ليسا غير الله ، ولو قلنا تعالى الله عما يقول الظالمون لقال هذا الفيلسوف الصوفى : ولا الظالمون أيضاً .

ولكن ليعرف الباحثون منها الصور الذهنية التي كان يستعبد لها الإنسان نفسه ويقف على صيانتها جهوده غير مدخر في سبيلها روحه وماله .

« وقد اتصل الشرق الإسلامى بالغرب منذ أكثر من مائة سنة فأخذ يرتشف من مناهله العلمية ويقتبس من مدنيته المادية ، فوقف فيما وقف عليه على هذه الميتولوجيا ووجد دينه ماثلاً فيها فلم ينبس بكلمة ، لأنه يرى الأمر أكبر من أن يحاوله ولكنه استبطن الإلحاد وتمسك به متيقناً أنه مصير إخوانه كافة متى وصلوا إلى درجته العلمية . »

ولم يقل أحد منهم أيضاً لتحريض المسلمين على تقليد أوروبا كما قال هذا الأستاذ نفسه : « إن اليابان لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه إلا بعد أن خرجوا على جميع تقاليدهم القديمة وجعلوا حكومتهم لا دينية وانتحلوا علوم أوروبا وثقافتها حتى إلحادها وقلدوا الأوربيين في مراقصهم وملاهيهم . »

الحاصل أن مافعله الأستاذ النمراوى من رى علماء الإسلام المتكلمين بتقليد فلاسفة اليونان ليس إلا مثلاً كبيراً لرى الكلام على عواهنه^(١) ، وكذلك رى فلاسفة اليونان بإهمال المشاهدة وبناء علومهم على التفكير البحت ، فقد قال سيد المحققين فى شرح «المواقف» فى المرصد الرابع من الموقف الأول عند قول المصنف : « وإليها أى وإلى الحسيات تنتهى علومهم » : « إن العلم الإلهى المنسوب إلى أفلاطون مبنى على الاستدلال

[١] علماء الكلام المساكين وعلومهم المغموط يطن فيهم ابن رشد الأندلسى وصدر الدين الشيرازى صاحب « الأسفار الأربعة » ، بمغالفتهم الفلاسفة اليونانيين والأستاذ النمراوى بموافقتهم وكذا ابن تيمية وابن قيم الجوزية ومن تابعهما - وفى مصر كثير منهم يعتبر علم الكلام علم اليونان - ويكرههم قوم ويدعون علمهم ، وهم الذين يكرهون العلوم العقلية ويترددون فى القول بمجواز تعلم المنطق وتعليمه ، وهو منتهى الجود . وأصحاب هذه الفكرة غير الذين يعرضون عن العقل والمنطق تزلفاً إلى العلم الحديث . ويقدر فى المتكلمين أيضاً أصحاب مذهب « وحدة الوجود » =

بأحوال المحسوسات المعلومة بمعاونة الحس^(١) وأكثر أصول العلم الطبيعي المنسوبة إلى أرسطو كالعلم بالسما والعلم بالكون والفساد والآثار العلوية وبأحكام المعادن والنبات والحيوان مأخوذة من الحس ، وعلم الأرصاد والهيئة المنسوب إلى بطليموس مبنى على الإحساس وأحكام المحسوسات ، وعلم التجارب الطبية المنسوب إلى جالينوس مأخوذة من المحسوسات . »

وقال « درابر » في كتابه « المنازعة بين العلم والدين » : « لقد كان تفوق العرب ناشئاً من الأسلوب الذى توخوه فى مباحثهم وهو أسلوب اقتبسوه من فلاسفة اليونان ، فإنهم تحققوا أن الأسلوب العقلى المحض لا يودى إلى التقدم وأن الأمل فى وجدان الحقيقة يجب أن يكون مفعوداً بمشاهدات الحوادث ذاتها . من هنا كان شعارهم فى بحوثهم الأسلوب التجربى والدستور العلمى . »

وفضلاً عن هذه التصريحات فإن بداهة العقل تأبى عزو نقيصة الإهمال لطريق المشاهدة والإحساس إلى الفلاسفة اليونانيين بمحملتهم وتقليد علماء الإسلام إليهم فى ذلك من غير تمحيص ، أليس لهم أجمعين المقلدين والمقلدين أعين يبصرون بها أو أذان يسمعون بها . نعم يمكن أن لا يوجد عند الأوائل من آلات المشاهدة والامتحان ما يوجد عند الآخرين فتفضل مشاهداتهم على مشاهداتهم ، ومع هذا فإن فلاسفة الغرب الجدد الذين استخف الأستاذ الفمراوى بالفلاسفة اليونانيين عند إكبارهم ، لا يرضون هذا الاستخفاف بل يعدونهم المعلمين الأولين ولا يستخرجون من رقيهم

ولكن مسلك المتكلمين لاسيما أهل السنة والجماعة منهم كالأشاعرة والماتريدية ، أقوم من مسالك جميع الفئات المذكورة المختلفة وأخدم للإسلام .

[١] يمكننا أن نستخرج من هذا القول جواباً على عابئ الدليل الكلامى القائم على إثبات وجود الله الراجع إلى إثبات وجوده بوجود العالم ، موهمين أنه دليل مبنى على التفكير البحت وهم لا يدرون أن ذلك استدلال مبنى على المشاهدة والإحساس بالعالم ، لا على التفكير البحت .

الحاضر ما يحيط من مقادير الأسلاف لأنهم يعرفون أن المعلوم تزداد بتلاحق الأفكار وتقدم الأزمان ، وإنما الاستخفاف بالأسلاف وغمطهم من خصائصنا نحن المسلمين الأحداث ، حتى إنه لا يكفيننا غمط أسلافنا مباشرة فتتوسل إليه بنمط أسلاف غيرنا .

قلنا إن الأستاذ النمراوي أورد من قوله الذي نقلناه مثالا كبيرا لرمى الكلام على عواهنه ، ونقول أيضاً إن الأستاذ الذي عاب علماء علم الكلام بتقليد فلاسفة اليونان من غير تححيص أظهر لنا من نفسه مثالا رائعا للمقلد ، لأننا لا نراه في إطار التجربة وانتقاص العقل البحت إلا مقلداً لما شاع في الغرب من المنهج بعد الفيلسوف « كانت » صاحب « انتقاد العقل المحض » .. ولكن هل يعرف الأستاذ أن هذا المنهج أعنى منهج اطراء المشاهدة والتجربة وانتقاص العقل المحض توسل به من توسل إلى الطعن في أدلة وجود الله لعدم إبتناؤه على المشاهدة ، كما أن « كانت » نفسه انتقد بهذه العقلية جميع الأدلة النظرية المنتسبة لإثبات وجود الله ، ثم بنى عقيدة وجوده على دليل الأخلاق؟ وستعرف عند الكلام عليه ضعفه وعدم كفايته في أكبر مطلب علمي كمسألة وجود الله .. وبهذه العقلية أيضاً استمهل الأستاذ رئيس تحرير مجلة الأزهر الشبان المتعلمين الشاكين في وجود الله فعلق الأمل في إثبات وجوده على وجه صحيح علمي بتقديم البحوث النفسية « اسبيرتيزم » في الغرب ، وقد تكلمنا من قبل على هذا الاستمهال وسنتكلم أيضاً .. وقد عرفت أيضاً كيف وقع الأستاذ فرح أنطون منشى مجلة « الجامعة » ومناظر الشيخ محمد عبده ، في خطأ مزدوج من إنكار العقل والعلم بصحة الدين الذي في رأسه الإيمان بخالق غير منظور ، ومن التباس إنكار المشاهدة عليه بإنكار العقل حتى قال بتناقى العقل مع الدين ، بناء على أن العلم يجب أن يوضع في دائرة العقل لكون قواعده مبنية على المشاهدة والتجربة والامتحان في حين أن الدين يجب

أن يوضع في دائرة القلب لتكون قواعده مبنية على التسليم بما ورد في الكتب المقدسة من غير فحص في أصولها . قال : « ولهذا كان العقلاء من الفلاسفة ورجال الدين من كل ملة ينادون بإبعاد العقل عن الدين ، أما عقلاء الفلاسفة فلا أنهم يكرهون مقاومة معتقدات الناس ، وأما رجال الدين فلا فرار من برهان العقل الذي يهدم كل شيء لا يقع تحت حسه . »

فتراه أي الأستاذ فرح أنطون كيف تطور في خلصة تفكير أو غفلة من إنكار المشاهدة والعلم الحديث المبني عليها للدين ، إلى إنكار العقل أيضاً للدين . وهذا هو غلظه المزدوج .. ويمثل هذا الغلط المزدوج أنكر الأستاذ فريد وجدي إمكان معجزات الأنبياء وإمكان البعث بعد الموت عقلاً واستند في هذا الإنكار إلى العلم الحديث المبني على المشاهدة أي التجربة الحسية . وسيجيء تفصيل كل ذلك منا مع ردوده بما لا مزيد عليه .. فهل الأستاذ الفمراوي الذي أظهر افتتانه بالعلم الحديث مثل الأستاذين المذكورين يوافقهما أيضاً فيما رتبا على افتتانهما من عدم الاعتراف بوقوع معجزات الأنبياء في الماضي والبعث بعد الموت في المستقبل اعترافاً علمياً وعقلياً ؟ وهل الأستاذ الفمراوي أيضاً يؤمن بالله بقلبه دون عقله وعلمه ؟

نحن نربأ بالأستاذ الفمراوي الذي لا نشك في صحة دينه وسلامة عقله وعلمه ، من كل ذلك ، والذي نريد أن نحيطه علماً بأن المقارنة بين العلم القديم والحديث وترجيح كفة الحديث على القديم لا ابتناء الأول على المشاهدة والثاني على العقل البحت ، مما يبدن به على الأكثر ملاحدة العصر الحديث تزييفاً للدين المبني على الدليل العقلي فقط دون التجربة الحسية ، فلا يروقتنا أن يشابه صنيع الأستاذ صنيعهم ، لاسيما إذا اقترنت به مذمة المتكلمين علماء أصول الدين .

مع أن هذه المقارنة بين العقل وبين الحس والمشاهدة مما ينم على السذاجة .. ومن أين للحس المشترك بين الإنسان والحيوان أن يبارى العقل الذي فيه كل ميزة الإنسان

على غيره؟ فما أنا أرفض بعقلى البحث هذه المقارنة وذلك الترجيح من غير أن أحتاج إلى إعانة التجربة المحسوسة ، لأن العقل هو الذى يرشد الإنسان إلى الاستعانة بالتجربة والملاحظة فيما يحتاج إليهما ، وهو وحده الذى يفسرها ويستخرج المعنى منهما ، وهما ليستا بشيء إزاء العقل وبدون العقل^(١) حتى إنهما بدونهما لا يستطيعان الخطأ فى معرفة أى شيء ، بله إصابة الحق . فالإصابة والإخطاء كله يصدر من العقل فهو معدن الإدراك مطلقا ما يتعلق بالمحسوس وما يتعلق بغيره .

ثم إنى لا أنكر فضل التجربة على العلوم الطبيعية المتعلقة بالماديات واحتياج العقل فى تلك الساحة إلى مساعدة الحواس ، حتى إن عقلى هو الذى يدفعنى إلى الاعتراف بهذه الحاجة . فالعقل لا ينكر قيمة التجارب الحسية وقيمة العلم الطبيعى المبني عليهما . لكن المنفرمين بالتجربة لا يقدرّون العقل حق قدره حيث ينكرون علم ما وراء الطبيعة لعدم إبتنائهم على التجارب الحسية . وهذا الفرق أيضا فى التقدير وعدم التقدير من مميزات العقل على الحس . والأستاذ الغمراوى لا أحسبه ينكر علم ما وراء الطبيعة وإنما غاب عنه أن علم الكلام بالنظر إلى مباحثه الرئيسية المتعلقة بذات الله وصفاته وأفعاله لا يختلف عن علم ما وراء الطبيعة إلا أنه إسلامى غير مترجم عن فلسفة اليونان؛ أو غاب عنه أن العلم الطبيعى ليس كل العلوم حتى يلزم من احتياج العقل فيه إلى التجربة

[١] وقد قلت فى أحد المواضع من هذا الكتاب إن الملاحدة الماديين ينعون فى توهين السند العقلى ويمادون العقل مع الدين المستند إليه فيقولون لا قيمة للاستدلال العقل المجرد من التجربة والملاحظة ونحن ندافع فى هذا الكتاب عن العقل ليتسنى لنا الدفاع عن الدين . ومن حسن حظنا فى موقف مناظلة الخصوم أن يكون العقل معنا فنُدافع عنه ويدافع عنا ، فلو لم يكن لنا إلا كوتنا فى موقف الدفاع عن العقل وخصومنا فى موقف الخاصصة للعقل لكفانا وكفام . ولنا أيضا فإن اعتذر معتذر عن الخصوم بأنهم لا يفضلون الحس ولا يستهينون بالعقل وإنما يشترطون فى التحويل على العقل شرط استناده إلى الحس وتأيده بها فالجواب أن هذا استهانة بالعقل المحض يجعل الثقة دائرة مع الحس والتجربة وليس تفضيل الحس على العقل غير هذا .

الحسية احتياجه إليها في جميع العلوم ، أو بالأصح غاب عنه ما يترتب على سلب الثقة بالاستدلال العقلي من المفسد العظيمة التي منها أن يكون الشاك في وجود الله معذوراً في شكه ، بل الملعن في إلحاده .

فلو قيل للأستاذ غير الواثق بالدليل العقلي مغرماً بالدليل التجريبي مع المزمين : إن « كانت » الذي سن سنة انتقاد جميع الأدلة العقلية النظرية لوجود الله التي اعتمد عليها علماء والتشكلمون ، كما سيجي تفصيله مع ردوده ، عاد فانتقد أيضاً دليل نظام العالم الذي نمتبره في محله من الكتاب الدليل التجريبي - انتقده بأن نظام العالم إنما يدل على وجود ناظم ولا يدل على كون الناظم هو الله ، أو يدل على وجود ناظم كامل بقدر ما في نظام العالم من الكمال ولا يدل على وجود ناظم أكمل الذي هو الله القادر على وضع نظام أبداع من نظام العالم . فلو قيل للأستاذ هكذا فكيف يدفع اعتراض « كانت » ويثبت كون واضح نظام العالم هو الله من دون أن يضيف إلى الدليل التجريبي الاستفادة من نظام العالم ما نضيفه من أن نظام العالم من الممكنات لا من الواجبات الضروريات ولا من المستحيلات؟ ولهذا يحتاج إلى ناظم يخرج من المدم إلى الوجود ويعين له هذا الشكل الذي اختاره على غيره من الأشكال ، فلو كان له ناظم غير الله كان ممكن الوجود كالنظام نفسه لا واجب الوجود لأن وجوب الوجود خاص بالله تعالى . وإذا كان ممكن الوجود كان محتاجاً إلى غلة موجدة فننقل الكلام إلى علمته الموجدة الممكنة أيضاً ، إلى أن يلزم التسلسل في العلل الممكنة أو ينتهي إلى موجد واجب الوجود ، ونحن نبطل التسلسل في الفصل الأول من الباب الأول من أبواب الكتاب الأربعة . فيتعين الشق الثاني أي الانتهاء إلى موجد واجب الوجود ، وهو الله . وخلاصة هذا الكلام أن إثبات وجود الله عبارة عن إثبات موجود واجب الوجود ، ولا يمكن إثبات هذا الموجود بالتجربة من دون أن يضم إليها شيء من الاستدلال العقلي ، والذي يثبت بالتجربة والمشاهدة وجود شيء لا وجوب وجوده .

ولو قيل للأستاذ إن أصحاب الفلسفة الإيمانية أو بمباراة معروفة بين مثقفي مصر الثقافة الغربية : أصحاب الفلسفة الوضعية أتباع « اوجوست كونت » وأكثر الماديين المنتمين كلهم إلى العلم الحديث المبني على التجربة ركنوا إلى الإلحاد بحجة أن التجارب العلمية لا تُرى في العالم غير القوى الميكانيكية التي تعمل عملها من غير شعور ولا إرادة ولا تُرى التجربة حتى وجود أي ناظم وأن ما يُرى في صورة النظام ليس بنظام صادر عن قصد تنظيم وإرادته ، وإنما هو مصادفة صادرة بنفسها من غير فاعل . فلو قيل للأستاذ هكذا فكيف يجيب عنه ويُثبت وجود فاعل النظام من دون مراجعة الدليل العقلي القاضى باستحالة المصادفة لكونها راجعة إلى الرجحان من غير مرجح وكون هذا الرجحان راجعاً إلى التناقض المستحيل كما سنوضحه في أمكنة كثيرة من هذا الكتاب؟^(١) .

ولو قيل للأستاذ إن العلم الحديث المثبت المبني على التجربة الحسية لا يعترف بالنظر إلى آخر آرائه بوجود أي شيء في الكون غير الحركة حتى إنه لا يعترف بوجود المادة أيضاً لعدم وصول التجربة إليها كما قال « كانت » وغيره من التدريبيين : « نحن نعرف الشؤون ولا نعرف ذا الشؤون » وكما قال « يول ثانه » في كتابه عن تاريخ الفلسفة « مطالب ومذاهب » : « إن مذهب التدريب ينتهي إلى السوفسطائية الحسبانية. » الحاصل أن الذي أجمعوا على معرفته بالتجربة الحسية هو الشؤون والحادثات التي يردون جميع أنواعها إلى الحركة . ثم إن الذين لا يعترفون بوجود الله من أهل العلم المثبت يقولون إن العالم بجميع أجزائه عبارة عن سلاسل الحركات على أن تكون

[١] ولا يجوز أن يظن بنا أننا ندافع عن الدليل العقلي لسكوننا نحتاج إليه ونعتمد عليه في إثبات العقائد الدينية التي في رأسها إثبات وجود الله لا يكون الدليل العقلي حقيقاً بالاعتقاد في نفس الأمر .. لا يجوز أن يظن بنا ذلك بل إننا ثبت في هذا الكتاب أن الدليل العقلي المنطقي أقوى الأدلة وأفضلها محتفظاً بقوة وثوقه أبد الأبد .

علة كل حركة هي الحركة التي تقدمتها ، ولما كان كل سلسلة من سلاسل الحركات تمتد نحو الماضي امتداداً لا نهاية له ، فكل حركة في كل سلسلة تجد علتها الحركة في داخل السلسلة التي لا أول لها وتستغنى عن وجود محرك من خارجها . فلو قيل للأستاذ هكذا فكيف يثبت وجود الله المحرك لهذه الحركات التي تشكل منها سلاسلها أو على الأقل كيف يثبت المحرك الأول لهذه الحركات الذي أثبتته أرسطو الفيلسوف الكبير اليوناني بدلية الخاص العقلي ؟ وكيف يثبت الأستاذ المستهين بالدليل العقلي وبفلاسفة اليونان من دون البراهين العقلية المبطلّة للتسلسل ؟

ولا يغرن الأستاذ ما قاله الشيخ محمد عبده في تعليقاته على شرح الجلال الدواني للمقائد المضدية (ص ٢٨) : « وجميع ما قالوه في إبطال التسلسل من البراهين فإنما هو مبنى على أوهام كاذبة . وإلى الآن لم يقم برهان خطابي فضلاً عن يقيني على وجوب تنهاى سلسلة اجتمعت أجزاؤها في الوجود مع الترتيب أو لم يكن كذلك .. وطريق إثبات الواجب متسع لنا فيه مندوحة عن ارتكاب هذه الأوهام . »

لا يغرن الأستاذ قول الشيخ الذي يتبع في آرائه الخاصة هواء في الازدراء بآراء علماء الإسلام .. ومسألة بطلان التسلسل الذي أجمع عليه علماءنا المتكلمون والذي كان عليه فلاسفة اليونان بشرطين فجاء علماءنا المقلدون - كما قال الأستاذ - وألحقوا ما لم يوجد فيه الشرطان بما وجد فيه واستقر إجماع الفريقين على بطلان التسلسل في أمور مرتبة مجتمعة في الوجود وفي رأس هذا النوع تسلسل الملل .. ثم يحجى الشيخ محمد عبده فيخالفهم حتى في محل إجماع الفريقين على بطلانه لأنه معلول بداء الخلاف والشذوذ .

ولا يدري الشيخ المعجب بعقله ولا عقلاء مصر المعجبون به أن إثبات وجود الله يشوقف على إبطال تسلسل الملل^(١) ، كما لا يدري هو والمعجبون به أن تسلسل الملل

[١] فالذين التزموا إثبات وجود الله الذي هو إثبات موجود واجب الوجود ، بالعقل =

إلى مالا نهاية له بديهى البطلان بالنسبة إلى العقول السليمة ، والبراهين التى أقامها العلماء لإبطاله كبرهان التطبيق وبرهان التضافى والثى اعتبرها الشيخ أوهاماً كاذبة ، وقائمة للذين لا يفهمونه من غير تفهيم وتنبيه . ونحن بفضل الله تعالى نزيح فى الفصل الأول من الباب الأول النقاب عن وجه هذا البطلان بكل بداهة بحيث لا يستطيع أى منكر إنكاره ولو كان الشيخ محمد عبده . فيتين هناك أن سلسلة العلل المحتاجة إلى علة إن لم تنته إلى علة لا تحتاج إلى علة لتكون مبدأ السلسلة ، بل امتدت إلى غير نهاية ، وهو التسلسل الذى أجازة الشيخ وأنكر بطلانه كل الإنكار ، فهى معدومة بحملتها وأن وجود سلسلة كهذه مبنى على أوهاام كاذبة ، لا البراهين القائمة لإبطال التسلسل كما توهم الشيخ . والدليل المختصر الذى ذكره ^(١) لإثبات الواجب واستغنى

== النظرى — وعليه علماء الإسلام جميعاً والحكماء الإلهيون قديماً وحديثاً عدا « كانت » — كان حتماً عليهم إبطال تسلسل العلل الممكنة الوجود المحتاجة إلى علة موحدة ، إلى غير نهاية ، حتى ينتهى فى علة واجبة الوجود .. أما « كانت » الذى لم يقتنع ببطلان التسلسل كالشيخ محمد عبده فقد عدل لذلك عن إثبات وجود الله بالعقل النظرى ، لسكونه يعرف أن إثبات وجود الله بالعقل النظرى ، يتوقف على إبطال التسلسل ، واستدل على هذا المطلب بدليل آخر يخصه ، وسنتقله ثم نقده إن شاء الله .

لكن الشيخ محمد عبده مع كونه شريك « كانت » فى عدم التنبيه لإبطال الذى فى التسلسل لاسيما تسلسل العلل الذى لا عذر للعقل السليم فى عدم التنبيه له — مفترق عن « كانت » ومضيف إلى عدم تنبيه هذا عدم التنبيه أيضاً لسكون الطريق إلى إثبات وجود الله مسدوداً على العقل النظرى ما لم يبطل التسلسل ، كما تنبه « كانت » فعدل إلى دليل غير دليل العقل النظرى ، وبقى الشيخ الذى لا دليل له غير دليل العقل النظرى ، بلا دليل .. وحق لنا أن نقول : لا عجب إن شاعت عداوة علم الكلام فى أوساط المتعلمين بمصر الحديثة ، بعد أن كان أستاذها الإمام تحبظ فى أعظم مسألتيه من مسائل علم الكلام وهما إثبات وجود الله وإثبات وحدانيته . وقد صر الكلام منا على تحبظه فى المسألة الثانية فى الرقم ٣ .

به عن إبطال التسلسل يتوقف على إبطال التسلسل وإن خفي هذا التوقف على الشيخ لأن إثبات وجود الله كما قلنا من قبل أيضا عبارة عن إثبات موجود واجب الوجود، والذي نبى عليه الشيخ دليله واكتفى به هو إبطال الرجحان من غير مرجح، وإبطال هذا وإن كان ضروريا أيضا في إثبات وجود الله، ولكنه إنما يثبت به وجود صانع للكائنات مطلقا لا وجود صانع واجب الوجود فتبقى الحاجة في دليل الشيخ إلى إثبات وجود صانع لصانع الكائنات وهم جرا .. فيلزم التسلسل ويتوقف إثبات الواجب على إبطاله، ولا يمكن إبطاله عند الشيخ فلا يمكن إثبات الواجب أى إثبات وجود الله عنده، وإنما يقوم العالم على سلاسل العلل الممكنة الوجود غير المتناهية التي يفنى عدم تنهايتها في زعم المتمسكين بها عن وجود الله الواجب الوجود^(١).

نعود إلى ما كنا فيه : أما قول الأستاذ النمراوى : « أما الحقائق نفسها فهي خارج النفس خارج العقل » فأنا أجيب عنه مضيفاً إليه قولى : خارج الحس أيضا . قال « ا. رابو »^(٢) : « من البديهي أن الإدراك الخارجى أعنى الإحساس لا يصل إلى ماهيات الأشياء ولا تحدثنا التجربة ماهو العالم في حد ذاته . لأنه إذا عمق النظر في المسألة فلا إدراك خارجيا أصلا ، والتي نقول عنها الأشياء « اوبره » ما هي إلا تسكيقات نفسية نرممها بوهمننا في خارج شعورنا »^(٣) .

وقال أيضا : « لا نستنبط من إحساس أكثر من إحساس ولا يُستثنى من هذا الحكم الإحساسات اللمسية التي يخوّل لها على الأكثر امتياز كونها تجعلنا في حالة التماس مع الخارج ، فإحساس المقاومة التي يفسر بها اللمس داخل محض كإحساس اللون . »

[١] هنا هامش طويل أرجأناه إلى نهاية هذا الجزء من الكتاب .

[٢] في دروس الروحيات ص (١٥٧) من الترجمة التركية للأستاذ الكبير محمد على عيسى .

[٣] « المطالب والمذاهب » ليول ثرانه .

وقال « كانت » سائلا عن معيار الحق^(١) « فهل نحن نبحث عنه في متعلق المعرفة المعنى ؟ » ثم قال : « إن الحقيقة عبارة عن مطابقة المعرفة للمعنى « الواقع » فالافتناع بحقيقة معرفتنا يكون مشروطا بمطابقتها للواقع ، والحال أن موازنة المعرفة بالواقع ليست غير موازنتها بالمعرفة فتكون نتيجة المطالبة بمطابقة المعرفة للواقع هي المطالبة بمطابقة المعرفة للمعرفة ، لأنه لما كانت معرفتي في الواقع خارجا منى فغاية ما أحكم به موافقة معرفتي بالواقع لمعرفتي بالواقع أو عدم موافقتها أعنى موافقة المعرفة للمعرفة لا للواقع . وكان الحسابيون يعبرون عن هذا الدور (بالصادرة) . فتمريف الحقيقة دور كما قالوا وهو يشبه أن يقوم أحد في تأييد ما أخبر به فيأتى بشاهد غير معروف عند الناس مدعيا له العدالة والصدق وساعيا في إقناع الناس بشهادته ، فلا اعتراض على طريق معرفة الحق وارد جدا ، وحل هذه المشكلة بمقتنع لجميع العالم امتناعا مطلقا . »

فيرى أن فيلسوفا كبيرا مثل « كانت » مؤسس انتقاد العقل المحض ذلك الفكر الذي حاز إعجاب الأستاذ النمراوى مع المعجبين من الغربيين والشرقيين ، يحكم بكون الطريق إلى معرفة الحقيقة مسدودة لعدم إمكان الوصول لنا إلى الواقع الخارج ، بالخروج منا .. فنحن محصورون فينا ولا يخرجنا من هذا الحصار أى واسطة لا عقل ولا حس كما ذكره « ا. رابو » .

ولست أنا على رأى « كانت » لأنه حسبانى كما سيأتى تحقيقه في آخر الفصل الأول من الباب الأول ولسكنى ذكرت قوله هنا ليعلم الأستاذ أن الحس كالعقل في عدم الوصول إلى الحقيقة عند علماء العلم الحديث لأن المدرك في الإحساس أيضا هو العقل ، فإذا كانت الحقائق في خارج النفس وفي خارج العقل كما قال الأستاذ فالعقل الذى

لا يخرج من محله ولا يدخل إليه شيء من الخارج لا يتصل بالحقيقة التي في الخارج ولا تجعله الحواس متصلاً بها، فإدراك الخارج الذي نعرف عنه بالإحساس داخلي محض كما أن التصور الذي هو الإدراك بغير واسطة الحواس داخلي محض .

أما الإشكال العظيم الذي أثاره « كانت » وقال لا جواب له فيعلم جوابه مما سنذكره عند تدقيق مذهب « كانت » وهو أن الإشكال الذي نصادفه في مبحث المعرفة والذي لا يمكن حله ، راجع إلى كيفية معرفتنا لا إلى المعرفة نفسها . وقد قلنا هناك إن الإنسان يعرف ما يعرفه من المحسوسات والمقولات ولا يعرف كيف يعرفه ، لأن الله عرفه ماشاء أن يعرفه ولم يعرف كيفية معرفته ، فعندنا معلومات من المحسوسات والمقولات نعرفها ونعرف أننا نعرفها وإنما لا نعرف كيف نعرف ، ولا يضر معرفتنا بما نعرف كوننا لا نعرف كيف نعرف . فاندفع الإشكال الذي تصوره « كانت » ، ولو ورد الإشكال لورد على المقول والمحسوس سبطين ، كما أن « كانت » نفسه لم يفرق بينهما في إرادته . فما نعرفه بعقولنا المحضة وما نعرفه بواسطة الحواس سيان في أنهما أولا تعريف الله لانعرف بهما أي شيء لا أننا نعرف بواسطة الحواس ولا نعرف بواسطة المقول لكون الحواس تصل بنا إلى الواقع الخارج ولا تصل المقول .. والدليل على عدم الفرق بينهما في عدم الوصول بنفسهما كوننا لا نعرف عند ما نعرف بكل منهما ما نعرفه ، كيف نعرف ، ولا يزال هذا الجهل فينا وهو الإشكال الذي ظن « كانت » أنه في معرفة ما نعرفه مع أنه كان ولا يزال في كيفية معرفتنا .

وجواب آخر عن إشكال « كانت » وإن لم يكن في درجة الجواب الأول : وهو أن المطلوب في المعرفة ليس الوصول إلى الواقع الخارج بالخروج منا والولوج فيه أو خروجه منه وولوجه فينا ، بل المطلوب معرفته اليقينية عن معرفة دليلها العقلي والحسي ، فتكون معرفة الشيء بدليله في مثابة معرفة الواقع التي هي المطلوب ، ومثال الإخبار بالشيء ثم الإتيان بشاهد غير معروف عند الناس الذي ذكره الفيلسوف بكل

حذافة ومهارة ، لا يكفي في تصوير الدقة التي ينطوى عليها موقف العارف بالشيء معرفة يقينية . وسنوفى القول حقه في بحث المعرفة عند الكلام على فلسفة « كانت » . وقال الفيلسوف « لينتز » : « اليقين على ثلاث درجات اليقين البديهي واليقين البرهاني واليقين الحسى ، فنحن نعرف وجودنا بالبدهاية ووجود الله بالبرهان ووجود الأشياء السائرة بالإحساس . واليقين البرهاني يرجع إلى اليقين البديهي الذى ينطبق على الرابطة بين القضايا المتعددة بدلا من انطباقه على حقيقة منفردة . أما اليقين الحسى فمع أنه لا كلام فى حصولنا بالإحساس على معنى شيء خارج منا فإن محل النظر هو معرفة أن يكون لنا حق التقيد به باعتقاد فطرى » (١) .

ففى المعرفة الحسية أيضا يقين عند « لينتز » كالمعرفة البديهية والبرهانية إلا أنه يلزم وجود معيار للتمييز بين المعرفة الحسية والتخيلات الواقعة فى النوم واليقظة ، ولا تكفى شدة التمثلات فى أن تكون معياراً ، وإنما الحقيق بأن يعد معياراً حقيقياً هو الارتباط الواقع بين الشؤون كتوافق التجارب من أناس مختلفين فى أزمنة مختلفة وأمكنة مختلفة واتحاد نتائجها . فارتباط الشؤون التى توثق الحقائق الواقعة بشأن الأشياء المحسوسة فى الخارج منا ، يحقق بحقائق العقل . وخلاصته أن الحقائق الحسية تعتمد على الحقائق العقلية . فليُفهم من هذا مبلغ خطأ الذين يظنون أن مرتبة الأدلة العقلية دون الأدلة التجريبية .

وقد قلنا من قبل إن العقل وحده هو الذى يفسر التجربة والملاحظة ويستخرج منهما المعنى وهما ليسا بشيء بدون العقل فالإحساس بدونه أعمى والتجربة بدونه خرساء ، فاستخراج المعنى منهما ثم توثيق ذلك المعنى وتحقيقه إنما يكونان بفضل العقل . فإذا كان الأمر كذلك وكان العقل يخطئ ويصيب فكل الاحتمالين جارٍ فى المقول

والمحسوس . والخطأ في المحسوس كثيراً ما يقع فيما إذا كان المعنى المستخرج من الإحساس مركباً ، ومن هذا لا يندر أن العلم المبني على التجربة قد ينتقض قديمه بحديثه . فمدار الإصابة سواء كانت في المقول أو المحسوس ، على سلامة العقل ومدار الخطأ فيهما على عدم سلامته ، فلن يخطئ سليم العقل والمنطق مهما كان ناقص التجربة وغير سليمهما يخطئ وسط التجارب .

وإني أذكر كلما اقتضت المناسبة ما وقع لأكبر أدباء تركيا في العصر الأخير « جناب شهاب الدين بك » عند مناظرتي إياه في مسألة تعدد الزوجات ، من عدم اعترافه بفائدته المعروفة في إكثار النسل - رغم كون فائدته هذه كالثابت بالدليل الرياضي من حيث أن الزوجات العديدة يلدن أكثر من زوجة واحدة - مدعياً أن الإحصاءات « ستاتستيك » تُرى انتقاص عدد الأهليين في البلاد التي تبيح تعدد الزوجات بله ازديادهم ، ومطمئناً على أن الإحصاء لا يكذب .. فكنت قلت يومئذ ما معناه أن الإحصاء لا عقل له ولا منطق ، ومن هذا لا يكذب وإنما يكون تابكاً لعقل ومنطق من يستنطقه وربما يقوله ما لم يقله .. فإذا شهد الإحصاء على انتقاص الناس في أي مملكة تبيح تعدد الزوجات على مر الزمان من غير وقوع مهاجرة منها إلى الخارج ، فشهادته يجب أن تقصر عليه أي الانتقاص نفسه فقط ، وأما سبب الانتقاص فهو خارج عن شهادة الإحصاء ودلالته وإنما هو علاوة على مدلوله من عقل من يستشهد به ، فإذا وقع الخطأ في المسألة فالخطئ عقل صاحب الملاوة الذي جعله يظن أنه استند في الحكم بتعيين سبب الانتقاص ، ومثله الازدياد إلى الإحصاء . وكذلك كل حكم تجريبي اتفق عليه الناس حقبة من الدهر بل اتخذوه دستوراً علمياً ثم تبين أنه خطأ ، فسبب الخطأ الخروج في الحكم الأول من حدود التجربة ولا خطأ للتجربة في حدودها . وهذه مزلة أقدام المجريين الذين لا يتحفظون حق التحوط في تحديد ما دلت عليه تجاربهم ، والذنب ذنب عقولهم التي لم تفقه عند حدود التجربة . وأكبر مثال في هذا الباب

أن المادة التي كان الماديون قائلين بأزليتها وأبديتها ولم يكن عندهم شيء أحق باسم الوجود منها وأسلم من الهلاك والفناء ، وكانوا يقولون ما قالوا فيها بناء على التجارب المستمرة منذ تاريخ العلم الطبيعي إلى هذا الزمان المسفرة عن أنها يتغير شكلها أو خصوصية نوعها ولا يضيع شيء من كيتها وثقلتها . وكانت النتيجة المعقولة التي يجب أن يكتفى بها في الاستنباط من تلك التجارب أن يقال إننا لا نقدر على محو المادة ولا على معرفة انمحائها بنفسها بوسائلنا الحاضرة فتبقى كمية الأجسام في تقديرنا بهذه الوسائل محفوظة دائماً .. لكنهم جاوزوا حدود مدلول التجربة وحكموا بأن المادة لا تتغير ولا تقبل المحو ، بل قالوا إنها أزلية أبدية .. فلما ظهر أخيراً أن بعض الأجسام مثل « أورانيوم » و « راديوم » ينشر أشعة غير مرئية وينمحي بالتدريج ، ثم تبين بتجارب أخرى أن هذه الحالة أعنى نشر الأشعة والانمحاء التدريجي لا يختص بالجسمين المذكورين بل يعم جميع الأجسام إلا أنه يكون فيهما أزيد من غيرها ، وإن كان فناؤها أيضاً في بقاء لا يعد بمئات ألف من السنين .. فلما ظهر ذلك ثبت أن ما يمتقدونه الدائم الباقي من الأجزاء الفردة للأجسام البسيطة يتفرق في بقاء متناه وينمحي شيئاً فشيئاً مضيقاً لصفاته التي بها تعتبر المادة .. وظهر لاحق التجربة ناقضاً لسابقها في أشهر أمثلتها وأصحها عندهم .. وما سبب ذلك الخطأ السابق إلا المغالاة في قيمة التجارب وإضافة الضرورة إلى نتائجها حتى كانوا يحكمون باستحالة فناء المادة مع أن الضرورة والاستحالة خارجتان عن حدود التجربة داخلتان في حدود ما وراء الطبيعة الذي القول الفصل فيه قول العقل ، فله وحده الحق في الحكم بالضرورة التي تجعل الاحتمال المخالف مستحيلاً ولا يكون هذا الحق أبداً للتجربة ، والتجربة نفسها بريئة من ادعاء هذا الحق لها وإنما الذنب لمقول المجريين وأذنانهم في إلصاقها بها كما ذكرنا^(١) والاختلاف بين المتمسكين بالتجربة والمتمسكين بالدليل العقلي لا يكون

[١] وإن أحسن في الرأي المرتب على التجارب الأخيرة في فناء المادة أيضاً بعض الخروج =

خلافًا بين التجربة والعقل بل بين عقول الطرفين ويكون الحق دائمًا في جانب الأقوى والأقوم منهما عقلاً .. وليس معنى هذا إلغاء التجربة والاستغناء عنها بالدليل العقلي بل العقل نفسه يقضى لزوم التجربة في المسائل المادية التي تحتاج إليها وتخضع لها .. فن أراد الاستغناء بالعقل في مثل تلك المسائل لا يكون أقوم عقلاً من ملتزمي التجربة. فالعقل يقدر التجربة قدرها في حين أن المولمين بالتجربة لا يقدرون العقل حق قدره، وهو مما يدل على فضل العقل .

على أنه لاشك في أن الدليل العقلي أسمى قيمة من الدليل التجريبي ، ومن هذا تكون الأحكام الضرورية إمامبدئية أى مستندة إلى بداهة العقل أو إلى البرهان العقلي المحض كالبراهين الرياضية والمنطقية لا مستندة إلى التجربة التي لا ينقطع دأبراحتمالات الشبهة فيها فيبقى دائماً احتمال مخالف مكنون في أحد الأزمنة والأمكنة ، وقد اعترف بها كبار علماء المذهب التجريبي مثل « ستوارت ميل » . قال في منطقته : « إنه وإن كان هناك بعض تجارب غير منحلة وغير منتقضة فليست أى تجربة غير ممكنة الانحلال والانتقاض فقد كان اقْتُنِعَ بناء على تجارب متكررة في مدة طويلة أن الطائر (Le Cigne) لا يكون إلا أبيض ، فلما اكتشفت استراليا تبين بطلان هذا الاعتقاد » حتى إن هذا الفيلسوف لما كان مذهبه أن المبادئ الأولى للمعرفة التي لا يشك أحد في قطعيتها

== عن حدودها فيقولون مثلاً إن ما كان بظن من قبل من وجود شيئين باسم المادة والقوة تبين الآن أنهما شيء واحد وهو القوة أما المادة فلا وجود لها وإنما هي عبارة عن قوات مجتمعة متكيفة ، فهذا أيضاً زيادة على مدلول التجربة الأخيرة ومدلولها الصحيح كون المادة تفرق وتنفق .. أما عدم كونها موجودة منذ الأول .. أما أنها عبارة عن قوى مجتمعة فالتجربة ساكتة عنه بل يأباه قديمها وجديدها وبأباه العقل ، إذ لا يمكن أن تجتمع قوات لا تقل لها أصلاً فتحصل مادة ثقيلة ولا أن تجتمع أعراض لا تقوم بذاتها فتقوم بذاتها . ومنشأ هذه الأغلاط الزعم القديم بأن الموجود لا يقبل العدم والمعدم لا يقبل الوجود . ومذهبتنا أن الله تعالى أوجد الكائنات بعد أن لم تكن ، وهو يعدمها متى شاء .

ويقينيّتها محصول الاختبار والتجربة ، أثار حولها شكاً قاتلاً :

« لا ريب في أنها أى المبادئ الأولى تمثل جميع التجارب السابقة في الماضي ، إلا أن عدد الحالات الواقعة مهما كان عظيماً فليس بشيء . إزاء ما يحتفظ به المستقبل من العدد غير المتناهي .. والقول بأنه لا سبب داعياً على أن لا تكون حالات المستقبل طبق الماضي مؤيدةً للتجارب السابقة خروجٌ عن دائرة التجربة وإقامة مبدأ آخر مقامها ، فن الممكن أن يوجد في أنحاء العالم الذى لا يحده له حد محل لا يُعترف فيه بهذه المبادئ » .

وفي قول الفيلسوف هذا على الرغم من كونه من أكبر علماء المذهب التجريبي في الغرب عبرة عظيمة للذين يكبرون التجربة ويستخفون بالدليل العقلي لأن المبادئ الأولى التى هى رأس اليقينيّات والبدهيّات كبداً للتناقض ومبدأ العلية لما كانت عند هذا الفيلسوف مستنبطة من التجربة تنزلت قيمتها اليقينية باعترافه حتى قال بإمكان أن لا تكون هذه المبادئ مسلمة في مكان من أمكنة العالم الذى لا يحده لسمعته حد . إلا أن مذهبه التجريبي في المبادئ الأولى لما لم يكن مختاراً عند المحققين كما سيأتى في الفصل الثالث من الباب الأول لهذا الكتاب ، لم يؤثر تشكيكه في قيمتها اليقينية . فقد عرفت أن ما يدرك بالحس والتجربة فدور العقل فيه أكبر منهما وما لا يدرك بالحس والتجربة فكل الدور فيه للعقل . والذين لا يعترفون بهذا للنوع من المدركات أو يحلونه محلاً دون محل المدركات بالحس والتجربة ثم يبينونه بأحلال العقل نفسه دون محل الحس والتجربة فدافعهم إلى كل ذلك ضعف عقولهم بالنسبة إلى حواسهم . نعم ، إن ما يدرك بالحس والعقل فاجتماعهما في إدراكه أصح وأقوى أو بالأصح أظهر وأوضح من انفراد العقل . وهذا أيضاً من أحكام العقل إلا أنه يكون من التباس الأمور على المرء أن يطبق قاعدة الترجيح هذه فيما لا سبيل فيه للتجربة والمشاهدة ،

فيجعل المحسوسات فوق المقولات في مرتبة الإدراك . فالمقولات أعنى ما يدركه العقل مما لا يتعلق به الحس يدركها العقل بقوة لا تقل عن إدراك العقل والحس معاً للمحسوسات إن لم تفضل عليه . ولا يضره تمحض العقل في إدراكه لأن المقول محل هذا التمحض بخلاف المحسوس الذي يحتاج العقل للتثبت فيه إلى مساعدة الحس ، ولا يحتاج إليها في المقول كسائل ما وراء الطبيعة . وقد علمت أن المدرك في الكل هو العقل إلا أنه لعدم المناسبة بينه وبين الماديات مباشرة احتاج في إدراكها بيقين إلى توسط آلة من الحواس ، أما المقولات فهي متجانسة مع المدرك أى العقل ، فأدراكه إياها بنفسه ويمحضه ويكون تاماً من غير حاجة إلى توسط آلة . فلما كانت مسائل ما وراء الطبيعة لاسيما الإلهيات التي هي أهم ما كان يدرسه المتكلمون بل كبار فلاسفة اليونان أيضاً ، مما يتمحض فيه العقل ولا تمثني فيه التجربة والمشاهدة فتعيب الأستاذ النعمراوى إياهم بأنهم يستندون إلى العقل المحض - كأن الاستناد إلى العقل المحض عيب - من قلة التدبر .. ألا يرى أن ما وضعه الفيلسوف « ديكارت » في رأس المدركات اليقينية من انتقاله من شكه الذي هو نوع من الإدراك إلى وجوده قائلاً : « أدرك فأنا إذن موجود » ليس إلا استدلالاً عقلياً محضاً ؟ فلو قال : « أراى فأنا إذن موجود ما كان أبلغ وأقوى من قوله الأول . »

ثم نقول في سر اهتمامك الناس في هذا الزمان في إطراء التجربة ووضعهم إياها فوق ما يستحقه من المرتبة العلمية ، إن التجربة يستفاد منها كثيراً في العلوم المادية والصناعات التي يدور عليها رقى الغرب وتقدمه وغلبته ، فتلك العلوم تعطى ثمراتها في الحياة الدنيا . أما علم ما وراء الطبيعة لاسيما الإلهيات فعظم ثمراتها يتأخر إلى الحياة الأخرى ، والناس مغرمون بترجيح العاجل وإيثاره على الآجل . فإذا يستفيد رجل الدنيا والمادة من أدلة وجود الله والتفكير فيها مهما امتلأت بها الكائنات ؟ فالطبيب الذي قال عنه شاعر العرب الكبير المعري :

عجى للطبيب يلحد في الخا لق من بعد درسه التشريحاً
لاشك أن ما يعرفه الطبيب من علم الطب ليس بشيء يحق أن يطلق عليه اسم العلم، لأن
مسائله كلها تكاد تكون ظنية، وقوة الملازمة بين أدويته وبين صحة المريض لا تبلغ
عشر معشار قوة الملازمة بين المعاني التي تواجهه عند تشريح بدن الإنسان وبين
وجود الله، فما حضر عنده من العلم بوسائل مداواة المرضى أضعف بكثير مما حضر
عنده من دلائل وجود الله مع كونها أيضاً دلائل تجريبية، كما سنبينه على طول الفصل
الرابع من فصول الباب الأول باسم دليل العلة الغائية ودليل نظام العالم، فلماذا
لا تكون للتجربة من أهميتها عند الطبيب في ناحية ما يكون لها من أهميتها عنده
في ناحية أخرى؟ ولماذا تهمل المشرِّح ناحية الطب، في حين أنه يغمض عن الناحية التي
هى أثرى وأجلى، يغمض عنها كأن لم يمر بها؟.. وجوابه ظاهر.

ويحسن بنا في هذا المقام الباحث عن سر اهتمام الناس بالعلوم المادية وبقظتهم
بشأنها أن ندل القارئ على حكاية الراهب الحكيم «غالياني» الآتي ذكرها في أوائل
الفصل المشار إليه آنفاً، ولم نكتبها هنا خوف الإطالة.

٨

وممن لم يقدر علماء الإسلام المتكلمين حق قدرهم فغمطهم ولكن أكثر اعتدالا
من غمط الأستاذ الغمراوي ولا سيما من غمط الأستاذ فريد وجدى بك، الأستاذ
أحمد أمين بك القائل في مقالة من مقالاته في مجلة «الثقافة» عدد (٦٩٦) عنوانها
«في الحالة الروحية»، وإن شئت فمد قول الأستاذ إيهام الغمط وليس غمطا بمعنى
الكلمة، لكن نوع العقلية المملوءة واحد ولهذا يجب التعليق عليه أيضاً. وهذا قوله:
«لقد سلك رجال الدين في تأييده وتقويته مسلكين: قوم حددوا عقولهم وقوم

حددوا مشاعرهم ؛ فأما الأولون فعلماء التوحيد أو علماء الكلام ، وأما الآخرون فصادقوا الصوفية - في جميع الأديان - فالأولون جعلوا الدين منطقاً وفلسفة وخلفوا لنا تراثاً ضخماً من المؤلفات تبرهن برهاناً عقلياً منطقياً على وجود الله وصفاته وما إلى ذلك . »

إلى هنا كلام في غاية الصحة والاستقامة . ثم قال الأستاذ : « ولكنى أعتقد أنهم لم ينجحوا في ذلك نجاح العلماء في البراهين العقلية على قضايا العلم . إن قانون الكيمياء أو الطبيعة أو الرياضة إذا قال به أحد العلماء وبرهن عليه آمن به كل الناس بلا فارق بين أمة وأمة وأهل دين وأهل دين وشرقي وغربي . أما علم التوحيد أو علم الكلام فبرهان لمن يعتقد لا لمن لا يعتقد ، برهان لصاحب الدين لا لمخالفه . ولهذا لم نرى في التاريخ أن علم الكلام كان سبباً في إيمان من لم يؤمن أو إسلام من لم يسلم إلا نادراً . إنما كان سبباً في إيمان الكثير أو إسلام الجمل الغفير الدعوة من طريق القلب لا من طريق علم المنطق . »

أقول إن هذا الأستاذ اتبع في قوله « أنهم لم ينجحوا نجاح العلماء في البراهين العقلية على قضايا العلم » تيار العرف الغربي في إطلاق اسم العلم على العلوم الحديثة خاصة المبنية على التجربة الحسية^(١) . ولم يصب في اعتبار الكيمياء والطبيعة مع الرياضة في صف واحد واعتبار براهينهما براهين عقلية ، كما لم يصب في تمييز الراجح من المرجوح بين طرفي النجاح . فإذا كان علماء التوحيد المسلمون المتكلمون جعلوا الدين منطقاً فكيف يصح أن يقال إنهم لم ينجحوا في قضيتهم نجاح علماء الطبيعة والكيمياء أو المتمسكين بمواطف القلب كالمتصوفين في جميع الأديان ؟ فكان علماء

[١] ولنا لا قبل هذا العرف الذي يحتكر اسم العلم للعلوم الحديثة المبنية على التجربة وسيجيء بحثه في هذا الكتاب.

التوحيد نجحوا في جعل الدين منطقاً ولم ينجحوا في إنجاح المنطق ، وهو غير معقول جداً . بل المنطق والعقل الذى يمشى معه لا بد أن يكونا ناجحين ، ولا شئ في الدنيا أنجح منهما . فإن لم ينجحاً كان ذلك عند العامة العاجزين عن تقدير العقل والمنطق قدرهما ، ومثلهم المتعلمون المصريون الذين فسدت عقولهم بتقليد الغرب المعرض عن العقل والمنطق ، احتفاظاً بدينه الذى لا يأتلف معهما ، وغاية في الخسارة والضلالة انصراف هؤلاء المقلدين عن طريقة علمائهم المتمسكين بالعقل والمنطق ، من غير حاجة منهم في دينهم إلى أن يبحثوا عن غير هذه الطريقة ، وإنما تقليداً للحجاجين .

فليعلم هؤلاء المتعلمون وليعلم الأستاذ أحمد أمين بك أن أفضل طرق النجاح وأقواها طريقة العقل والمنطق ، وثانيها التجربة طريقة علماء الطبيعة والكيمياء ، وثالثها التمسك بالمواظف . ولكون الطريقة الأولى أفضل وأقوى لا يعدل العاقل عنها إلى إحدى اثنتين بعدها ما أمكن التمسك بها ، وخصيصاً لا يعدل العاقل عن طريق العقل والمنطق استخفافاً بهما ورغبة في غير طريقهما .

أما الاستدلال في رجحان قوانين الطبيعة والكيمياء على أدلة علم التوحيد المنطقية بعدم الاختلاف بين الناس في الإيمان بأى واحد من تلك القوانين إذا برهن عليه أحد العلماء ، بخلاف علم التوحيد ، ففلط ناشئ من قلة استعمال المنطق في التفكير بعد أن ضل مقوموه الطريق في العهد الأخير . وقد وقع الأستاذ فريد وجدى بك في مثل تلك الغلطة لما كتب مقالة في مجلة « الرسالة » بعنوان « الدين في معترك الشكوك » — وقد نقلناها في الكلمة المقدمة على الكتاب — فبعد أن نص الأستاذ في مقالته على أنه لم يعد للمنطق سلطان على الإنسان ، صدق بقول الأستاذ (بيرس) مدرس علم النفس بجامعة كبرديج :

« كنت معتقاً بالدين لو أمكنت معرفة شئ عن العالم الروحاني على الطريقة التى نحن مدينون لها بمعارفنا عن العالم المحسوس . وهذه المباحث لا يجوز أن تبنى

على التأكيدات التي صدرت عن هذا الوحي أو ذاك ، بل يجب أن تؤسس ككل بحث علمي بمناه الصحيح على تجارب يمكننا تكرارها اليوم... » فقال الأستاذ فريد وجدى بك « هذا شرط العلم في قبول الأصول الاعتقادية وهو شرط لا يجوز الاستخفاف به ولا إغفاله . »

فهؤلاء الأساتذة الثلاثة - مع الأستاذ أحمد أمين بك - يحاولون في الشرط الذي وضعوه للإيمان بأصول الدين أن يكون الإيمان بالأديان من الأمور المادية التي لا يختلف فيها الناس لاستنادها إلى تجارب حسية كمعرفة كون النار محرقة ومماسسة التيار الكهربائي قاتلة ، فلا يكون هناك امتياز المؤمن على الكافر ، فإما أن يتحقق شرطهم فلا يبقى على الأرض كافر ينكر الدين ، كما لا يوجد أحد ينكر حرارة النار وإما أن لا يتحقق الشرط فلا يبقى على الأرض من يؤمن بالدين ، بل لا يبقى في الدنيا إخصائي في أى مسألة يعرف ما لا يعرفه غيره أو لا تكون معرفته فوق جهل الجاهل في الصحة والجدارة بالقبول .

وقد ذكرنى قول الأستاذ أحمد أمين بك : « إن علم التوحيد أو علم الكلام برهان لمن يعتقد لا لمن لا يعتقد .. » قول صديق لى فى الآستانة من فضلاء المحامين كتب إلى وقوعه فى تفكرات عميقة بعد أن قرأ تأليف العالم الكبير فضيلة صديق الشيخ زاهد رداً على رسالة منشورة لإمام الحرمين فيها حملات شديدة على مذهب الإمام الأعظم أبى حنيفة لا مبرر لها سوى التعصب لمذهب الإمام الشافعى . ويفهم من كتاب الرد أن للإمام الرازى أيضاً مثل تلك الحملات المفكرة . ثم أراد الصديق الحامى أن يطلع على رأى فيها وهذا ما كتبه :

« إن كان يمكن إخماد أحد البرهان والمنطق فلا يمكن طمأنة قلبه بسهولة بل ولا بصعوبة أيضاً ، فلا يستطيع أحد تحويل أحد عن مذهبه ما لم تدخل العواطف التى تجعل

كل شيء عاليه سافله ، فى البين ؛ فقد يلعب العشق والحرص والخوف والأمنية الدنيوية دوراً كثيراً حين لا تنفع البراهين مهما كانت منطقية ؛ حتى إن هذه البراهين لا ترى إلا كترنجات مزينة لتلك المواطف أو سارة لها ، فى مقابل اتفاق الآراء على قبول مقررات العلوم المادية لا ينصرف أحد فى الساحة الروحية والوجدانية عن حركته الابتدائية ، فالذى ولد حنفياً مقضى عليه أن يموت حنفياً والذى ولد شافعياً أن يموت شافعياً والسلام ، كأن العلم^(١) لا يجدى أى فائدة فى هذه الأودية ، وكأن هذه العلوم فيما رأيت تبقى عبارة عن الدفاع عن مذهب أو مسلك ، حتى إن الأمر يكون دفاعاً للمرء عن طريقة له بين أصحاب المذهب الواحد بعينه ، ولعله مع هذا لا مندوحة عنه .

فكتبت جوابى إليه وقلت تقريباً : « لا بد أن يكون الحق واحداً فى كل ساحة مادية أو غير مادية . فعند وقوع الخلاف فى أى مسألة ، يكون أحد المتخالفين على حق والآخر على باطل ؛ ولا يمنع من هذا الحكم القطعى كون المجتهد المخطئ فى الأحكام الشرعية العملية ينال نصف أجر المصيب تفضلاً من الشارع فى مكافأة من اجتهد وكان أهله ومخلصاً فى اجتهاده ، كما لا يمنع إصرار المخطئ على مخالفة المصيب قطعية كون الحق فى جانبه ولا يعد هذا الإصرار فشلاً للدليل المصيب ، لأن نجاح الدليل فى إثبات الحق يعتبر بالنسبة إلى نفس الأمر وإلى اقتناع المتمسك به غير مقصر فى عرضه على طلاب الحق ، لا إلى اقتناع المخالف المصر على خطأه .

» ثم قلت ، لكم العذر فيما خضتم من التفكرات العميقة ، وخصيصاً ما أصدق قولكم بأن الأدلة لا ترى إلا كترنجات مزينة أو سارة لما تحتهما من المواطف . ومع كون علماء أصول الفقه صرحوا بعدم جواز الاجتهاد مع التشهى ، فإنى لا أظن أن الإنسان يدرك أولاً أدلة الدعاوى التى يستدل عليها ثم ينساق إلى ما يتناسب مع تلك الأدلة من

الدعاوى ، إلا أن يكون إدراك الدلائل قبل الدعوى فى غاية الإجمال . نعم يمكن أن يستثنى من هذا الحكم مسائل الفقه المستندة إلى النقل أكثر من العقل أو حالة الإنسان فى أوقات كونه صادق نظره دليلاً لمسألة ثم المسألة نفسها بينما هو خالى الذهن عن كليهما .

« ومع هذا وبعد عد الأفكار المستندة إلى عوارض كالمشقة والحرص والخوف والأمنية أو إلى التقليد المحض خارجة عن البحث بالمرة ، فالذى يتقرر فى ذهنى أولاً أو يجذب قناعتى يكون هو الدعوى ، فأنا أميل منها إلى ما أميل من القبول أو الرفض . وهذا هو ساعة تجلى هداية الله على من يطمئن قلبه إلى شىء أو حرمانه عن هدايته ، فإن كان الرجل مهدياً إلى الحق فى دعواه فالهداية الإلهية تجمد أدلتها وتأتى بها إلى قلبه ، وإن كان من المحرومين تلقن أدلتها أيضاً أو بالأصح شبهاتها إلى المدعى .

« أما كون كل الناس فى موقف متفق عليه تجاه العلوم المادية حين ساد الخلاف فى الساحة الروحية والوجدانية وعدم كفاية دليل أحد فى تحويل أحد عن مذهبه وكون المولود الحنفى لهذا مكتوباً عليه أن يموت حنيفاً والشافعى شافعيًا ، فالفهم منه فى النظرة الأولى عدم كون الأدلة العقلية مفيدة ومقنعة بقدر الأدلة المادية التجريبية . وإنى أذكر بهذه المناسبة أن فى مصر فكرة لا شبهة فى مجيئها من الغرب مستولية على حملة الأفلام المصرية من صفارهم المتطفلين إلى كبارهم البارزين^(١) مثل الأستاذ فريد وجدى بك الذى تولى إدارة « مجلة الأزهر » ورئاسة تحريرها منذ سنوات وأصبح لسان أكبر محيط دينى ، ففند معتق هذه الفكرة لا يوثق بالأدلة العقلية المنطقية ، حتى إنها لا تسمى أدلة علمية بحجة أن العلم يستند إلى دليل حسى وحتى إن الكلمة القائلة كل معقول لا يؤيده محسوس فلا يعتد به ، دستورهم الذى يتشدقون به ،

[١] مع أنهم الآخرون أنفسهم متطفلون على الغرب .

فسميت أنا في كتابي الذي ذكرت اسمه في أحد خطاباتي إليكم (هذا الكتاب) وأرجأت نشره بسبب أزمة الورق ، لتصحيح هذه الفكرة .

« إن الفيلسوف « كانت » منتقد جميع الأدلة العقلية القائمة لإثبات وجود الله الذي لا يدخل في متناول التجربة الحسية ثم المقيم من عنده دليلا عمليا أو أخلاقيا لإثبات هذا المطلب .. استفاد الملاحدة كثيرا منه حتى اتخذ أصحاب الفلسفة الوضعية المعنى بها بين كبار الكتاب المصريين مثل هيكل باشا ومحمد فريد وجدى بك ، على الرغم من أنها أحدث فلسفة إلحادية وأخبثها . وقد سبق الكلام عليها باسم الفلسفة المثبتة ... اتخذوا الناحية السلبية لفلسفة كانت ، سندا لهم في عدم الاعتراف بوجود الله ، غير عابئين بالدليل الذي اختاره لإثباته . وفي الواقع لا يتسنى إثبات وجود الله الذي هو إثبات موجود واجب الوجود ، إن لم يبق الاعتماد على الأدلة العقلية . ولا محل لأن يقال : « فإذا يكون إن لم يبق ؟ » تفسيراً لموقف أمثالنا نحن المعتمدين على تلك الأدلة ، بموقف المنساقين إلى المحاباة العاطفية المائلة لتعصب إمام الحرمين والإمام الرازي المذهبي ، موقف الذين يحبون أن يموتوا مؤمنين بالله لكونهم ولدوا مؤمنين .. لا محل لهذا التفسير وذاك التشبيه ، بل الإخلاد - في زمان يركن الكثير من أبنائه إلى الإلحاد متهمين آباءهم بالغفلة والجود - إلى الصبر والثبات في موقف الأسير لعاطفة كسدت سوقها وفي موقف المقلد للمناقلين ، أصعبُ على ذوى النفوس العزيزة من أن يمازوا بترك عقائد الآباء والأمهات . فلو كنا مؤمنين ومتمدين على أدلة وجود الله العقلية بدافع المحاباة العاطفية فعاطفة الإلحاد أقوى في زماننا وأشهى من عاطفة الإيمان بالله .

« فلذا لم تكن مسألة الإيقان بوجود الله أو عدم وجوده أو الشك بين الاحتمالين لاسيما عند الذين يرون أنفسهم فوق العامة ، غير مسألة اختلاف العقول الفطرى ، فعلى أنا يستيقن وجود الله ولا يلبث أن يرتب الأدلة لذلك بل يكفى الإنسان في هذا الباب كما قال « ديكارت » إدراك وجوده نفسه ، أما رؤية العالم بأرضه وسمائه فزيادة

على الكفاية بكثير وبأكثر من الكثير . فهذه الحالة البديهية عبارة عن شدة نفوذ مسألة بطلان الترجيح بلا مرجح التي هي المركز الأول لقلة دليل إثبات الواجب وقوة وطأته في بعض العقول . ولا أغالى في التعبير عنها بالحالة البديهية لأن ما نساق إليه من إنكار الترجيح بلا مرجح هو بعينه الاعتراف ببدا الملية الذي هو أحد الأمور التي يسميها علماء الغرب المبادئ الأولى ويرونها فوق كل مناقشة ؛ مع أن كثيراً من العقول الجديدة لا يتحرجون من القول بأن العالم موجود من تلقاء نفسه ، غير متأثرين من تلك البداهة الملتظمة بمقولنا .

« وإنى لأظن أن حضرتكم تنحازون عند القول بأن البراهين العقلية لا تصرف أحداً عن مذهبه ، إلى الأفكار الحديثة التي ذكرتها ، لا أظنكم تنحازون إليها حتى عند ما تشتكون بدافع التأسف الحق من عجز تلك الأدلة عن تقريب علماء أجلة كإمام الحرمين والفخر الرازي إلى رؤية الحق بدعوى الشافعية والحنفية الجاهلية .. إذ لا شك في احتفاظ الأدلة العقلية المنطقية المستجمعة لشرائط الصحة دائماً بقوتها وقطعيتها بدرجة تفوق قوة الأدلة المادية التجريبية المبنية على القوانين الطبيعية التي قال عنها الفيلسوف « ليبنتز » : « إن القوانين الطبيعية ليست قوانين عندية كما دعى « بابل » ولا ضرورة هندسية » لأن الأدلة العقلية تفيد الضرورة مثل الأدلة الرياضية ، وإمكان اجتماع الآراء على ما ثبت في العلوم المادية بواسطة التجربة والاستقراء بل وقوع ذلك الاجتماع دائماً ، في حين أن تفريق الحق من الباطل بواسطة الأدلة والبراهين العقلية ليس أمراً سهلاً ، لا ينقص قيمة الأدلة العقلية بل يزيد قيمة على قيمتها كما قال شاعر فارسي :

قدر زرر کر شناسد ، قدر کوهر کوهری

ومنه لا يقدر الذهب والماس قدرهما إلا القسطار والجوهری . ولا يحط من قدرهما أن لا يستطيع كل أحد تمييز صحيحهما من زيفهما .

ولا يقال أليس إمام الحرمين أو الفخر الرازى قسطارا جوهريا ؟ لأننى أقول يفهم من كتابيهما ثم من كتاب الرد عليهما لفضيلة صديق الشيخ زاهد أنهما لم يكونا قسطارين ولا جوهريين فيما أخطأ من المسائل العلمية ، لأن القسطرة فى العلوم تفوق ما عند نقاد الأحجار الثمينة من الخبرة وتتوقف على اختصاص وامتنياز أسى وهو الاختصاص بتوفيق الله ، فلكون تأثير الأدلة العقلية فى العقول منوطا بإرادة الله يظل تمييز صحيحها من سقيمها ، تابعا لتوفيقه وهدايته ، ولا يدور هذا الحظ الممتاز المختلف باختلاف المسائل حتى مع كثرة العلم والعقل أو زيادة السمعة - بعد أن كان كل واحدة من هذه الميزات أيضا تابعة لتوفيق الله - بل يكون التوفيق فى كل مسألة بعينها حظا ثانيا مقترقا عن الحظ الأول المتعلق بكثرة العلم أو العقل أو زيادة السمعة . فالذى يكفل بسلامة العقل السليم من الخطأ هو الإرادة الإلهية ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وبالنظر إلى أن كل شىء فى العالم يجرى تحت إرادة الله فاتفق العقول على قبول مقررات العلوم المادية وإن لزم أن يكون مستنداً أيضاً إلى إرادة الله ، إلا أن إرادة الله التى ساوت التمييز بين الناس فى ساحة الماديات ساقطت الأفكار فى المعقولات إلى الاختلاف ، تشريفاً للذين أصابوا سواء السبيل فى تلك الساحات وإعزازاً للأدلة التى تمسك بها أولئك الأشراف وصينوا عن خطر الإخطاء . فوجود احتمال الخطأ فى الأدلة العقلية لا يخفض قيمة تلك الأدلة بل يرفع درجة المستدل المصيب للحق ويرفع قيمة دليله الذى امتاز بالصحة واستند إليه الحق . وليس هذا الفضل والرجحان بالنسبة إلى دليل المبطل الذى حقه أن يسمى شبهة لا دليلا ، بل الفضل الذى نريد تفهيمه فضل صحيح الدليل العقلى الذى كلامنا فيه على صحيح الدليل من غير العقلى . وفضله من ناحيتين ، الأولى كون تمييز الصحيح من غير الصحيح صعباً فى العقل

يكسب به المصيب شرفاً ورفعة درجة ، والثانية ارتقاء مدلول الصحيح من الدليل العقلي إلى مبلغ الضرورة .

« و خلاصة الفرق بين الدليلين العقلي وغير العقلي بشرط أن يكون كل منهما صحيحاً ، ان الثاني أوضح في الدلالة ، ولذا يشترك في فهمه الجميع . والأول أقوى وأفضل . وقد عبرت عنه في محل آخر من الكتاب بأنه دليل الخاصة وعن الثاني بأنه دليل العامة . وأنت تعلم مما ذكر آنفاً أن المراد من الخاصة هنا المختصون بتوفيق الله في الاهتداء إلى صحيح الدليل العقلي .

« ومثال ما ذكرنا من فضل الدليل العقلي على غيره مع احتمال الخطأ في الدليل العقلي ^(١) أن الإنسان يعد أفضل من الملائكة مع كون الإنسان منقسماً إلى الخيار والشرار وكون الشرار أصل من الأنعام ، لكن وجود هذا القسم بين الناس لا يحط من مرتبة الخيار بل يعلى قدرهم ، لكونهم لم يقموا في الشر الذي وقع فيه طائفة من بني نوعهم ، مع احتمال وقوعهم فيه وعدم احتمال وقوع الملائكة ... وهكذا الأدلة بنوعيها العقلي وغير العقلي ، حيث لا ينقص احتمال الخطأ في الأدلة العقلية مرتبة الصائب منها الذي كلامنا فيه ، بل يعلى قدره . فافهم هذا الموقف فإنه دقيق .

« وقولكم من ولد خنфия يموت على مذهبه ومن ولد شافعيًا على مذهبه من غير تأثير الدليل القائم على خلاف المذهب في قلب كل منهما ، معناه أن الإنسان متمسك بال التقليد أكثر من غيره أو يكون تأثير التربية فيه أكثر من غيرها .

« لكن المقلد العامى الذى يصر على ما ورث من آباءه ولا يستمع إلى القول بخلافه - ومثله المتعلم المعاند من الخاصة - قد تركناه خارج البحث وكان كلامنا في تعيين

[١] ومعنى احتمال الخطأ فى الدليل العقلي انقسام الناس فيه الى من يصيب الحق فى استدلاله ومن لا يصيبه ، وليس معناه احتمال الخطأ فى دليل المصيب كما يتوهم الشاكرن فى قيمة الدليل العقلي .

أفضل واسطة لهداية الإنسان إلى طريق الحق . فيلزم أن يكون هذا الإنسان طالباً للحق باحثاً عن أسباب الوصول إليه ، وليس هو القلْد المتمسك بما وجد عليه آباءه المذموم في كتاب الله أو المتعصب لما أخذ من أساتذته ، ولا التقليد أو التعصب طريق من طرق الهداية والإصلاح .

«نعم التربية طريق من طرق الإصلاح والهداية إلى الحق ، لكن يلزم أولاً أن يكون الحق الذى تهدف إليه التربية والتنشئة حقاً في نفس الأمر لا في زعم الربين ، لأن التربية كما تكون موجهة إلى تأييد الحق تكون موجهة أيضاً إلى تأييد الضلال فيجب قبل كل شيء معرفة الحق وتمييزه من الباطل ، ولا يكون ذلك إلا بدليل العقل .

«ثم إن التربية التى ترجع إلى تنظيم العاطفة - وسيجيء بحثها ومقارنتها بدليل العقل والمنطق - تأتلف مع العلم والجهل على السواء كما تأتلف مع الهدى والضلال .. فإذا فرضناها تهدف إلى تأييد الدين الحق وتثبيتته في قلوب النشء وسلم دين الأمة بفضل سلامة دين الناشئين ودامت سلامته أعصاراً طويلة كما دامت للترك في عهد الدولة العثمانية وقبله ... فقد يحى رجل لا ديني مثل مصطفى كمال ويمجد أعواناً له من المعلمين المشايخين للغرب اللاديني ، فيفتح أبواب الدعاية لهم على مصراعيها ويكرم أفواه المدافعين عن الدين . فلما اختلت الموازنة بين الفتنتين من خاصة الترك وتغلبت الفئة الفاسدة على الفئة السليمة ، كفى ذلك في القضاء على دين الأمة في أقل من ربع قرن .. وسيتجلى صدق ظفنا هذا السوء بدين الأمة المسكين بدم انقضاء بقية الجيل القديم المسلم التى لا تزال تملأ المساجد وينخدع بها الغافلون ، فلو كان دين الأمة قائماً على دليل العقل والمنطق - كما يخدمه علم الكلام - بدلا من قيامه على التربية لما تسنى للفئة الفاسدة التغلب في البلاد ، بل لو كان الغرب الذى هو منبع الفساد يتفق دينه مع العقل وينفذ في قلوب عقلاء البلاد الذين يكون رجال الحكومة منهم كما ينفذ في قلوب

العامة لما كان الدين هناك منحصراً في الظاهر ولما ضربت فوضى الأخلاق والآداب أطنابها في المجتمعات ، وبفضل ذلك كان يبقى الشرق في مأمن من عدوى المدنية الزائفة والمقلبات الزائفة إليه .

«نغير ضمان للدين والأخلاق المبنية عليه في أي أمة أن تركز عقيدته في قلوب المثقفين بأدلته العقلية ثم يستند إليه أساس دين العامة العاجزين عن الاستدلال والدائرين مع التقليد والتربية ..»

وإذا عدت مما كتبت إلى الصديق الحامي في الآستانة - وربما زدت عليه هنا عند النقل أو نقصت شيئاً عنه - إلى قول الأستاذ أحمد أمين بك فقد تضمن الخطاب كثيراً من الرد على ما ذكره من عدم نجاح علماء التوحيد في براهينهم العقلية المنطقية ونجاح علماء الكيمياء والطبيعة في براهينهم ، وقد عرفت أن نجاح البرهان يقدر بإيصال من تمسك به إلى الحق في نفس الأمر ، فلا يتأني نجاح برهان الحق في رأيه وإبراهه عدم خضوع الطرف المخالف له ، لأن هذا يكون عدم النجاح في نظر المبطل أو نظر من لا يميز بين الحق والمبطل فيجب أن لا يعتد به ، ولا بد أن يكون في كل محل الخلاف من محق ومبطل في نفس الأمر . ولا تقل من يدري من الحق ومن المبطل في الاستدلال العقلي الذي يصعب فيه التمييز بين الحق والباطل؟ لأن الفضل كل الفضل يكون حينئذ لمن يدريه ويميزه ، وهو المطلوب .

وآخر ما أقول لأحمد أمين بك الذي استضعف براهين علماء التوحيد لكونها براهين عقلية منطقية وفضل عليها براهين علماء الطبيعة والكيمياء معتبراً لهما في درجة واحدة مع براهين الرياضة : إن براهين الرياضة تفيد الضرورة لكونها براهين عقلية ولا تماثلها في ذلك براهين الكيمياء والطبيعة المبنية على التجربة والتي تفيد الصدق فقط ولا تفيد ضرورة الصدق ، وإنما تماثلها في إفادة الضرورة براهين علم التوحيد العقلية المنطقية .

والدليل عليه ما قاله الفيلسوف « كانت » وقد نقله الأستاذ في تصنيفه الذى اشترك فيه مع الأستاذ زكى نجيب محمود وسمياه : « قصة الفلسفة الحديثة » (ص ٢٧٣) ونقلناه نحن أيضاً فى محل آخر من هذا الكتاب :

« التجربة تدلنا على ماهو واقع ولكنها لاتدلنا على أن هذا الواقع لابد بالضرورة أن يكون هكذا ولا يكون على صورة أخرى ، وهى لذلك لا تمدنا بالحقائق العامة^(١) مع أن هذا الضرب من المعرفة هو ما نزع إليه عقولنا بصفة خاصة ، فالتجربة توظف العقل أكثر مما تقنعه .. ومادام العقل فى مكنته أن يصل إلى الحقائق العامة مع أنها ليست من التجربة فهو إذن مصدر العلم إلى جانب التجربة . ولعل أنصع مثال يدل على وصول العقل إلى المعرفة من غير طريق التجربة هو مثال الرياضة لأنها يقينية، ويستحيل على التجربة أن تنقضها يوماً ما ، فلقد يجوز لك أن تتصور الشمس (على خلاف التجارب المشهودة منذ تاريخ الدنيا) مشرقة من الغرب فى الغد وأن النار قد تبدل عليها الظروف فلا تعود قادرة على إحراق عصاك الخشبية ، ولكنك لاتستطيع بحال من الأحوال أن تتصور العالم سيحدث فيه ما يحمل اثنين فى اثنين لا تساوى أربعة ، فهذه الحقيقة الرياضية ثابتة إلى الأبد ومن الأزل ، ولا تحتاج لكسبها إلى تجربة ، لأنها حقيقة مطلقة ضرورية لازمة الحدوث ، والتجربة لا تمدنا إلا بإحساسات متفرقة وأحداث مفككة لا يترد تناوبها ، فقد تمجى* فى الغد على غير النظام الذى جاءت به اليوم أو أمس . »

فنعم ما قاله « كانت » فى هذه الأسطر المنقولة بصدد المقارنة بين التجربة والعقل ونبه إلى أن السبب فى قوة الرياضة اليقينية الأبدية استنادها إلى العقل .. ونعم ما قاله

[١] يريد بها المبادئ الأولى التى يجمى* بحثها فى هذا الكتاب ويذكر هناك أنها فطرية فى الإنسان على المذهب المختار غير مستفادة من التجارب .

الأستاذ المقاد في كتابه الجديد : « الله » ص ٤٩ - ٥١ ، وقد نقلته هنا على طوله تسجيلاً لشدة إعجابي به :

« وقد أحس الإنسان قبل أن يفكر فلا جرم ينقضى عليه ربح من الدهر في بداية شأنه وهو يفكر حسياً أو يفكر لسياً فلا يعرف معنى الوجود إلا مرادفاً لمعنى المحسوس أو الملموس . فكل ما هو منظور أو ملموس أو مسموع فهو واقع لاشك فيه ، وكل ما خفى على النظر أو دق عن السمع واللمس فهو والمعلوم سواء^(١) .

« وقد كان للحاسة الدينية فضل الإنقاذ من هذه الجهالة الحيوانية . لأنها جعلت عالم الخفاء مستقر وجود ، ولم تتركه مستقر فناء في الأخلاق والأوهام . فتعلم الإنسان أن يؤمن بوجود شيء لا يراه ولا يلمسه بيديه . وكان هذا « فتحاً علمياً » على نحو من الإنجاد ولم ينحصر أمره في عالم الدين والاعتقاد ، لأنه وسّع آفاق الوجود وفتح البصيرة للبحث عنه في عالم غير عالم المحسوسات والملموسات . ولو ظل الإنسان ينكر كل شيء لا يحسه لما خسر بذلك الديانات وحدها ، بل خسر معها العلوم والمعارف وقيم الآداب والأخلاق .

« ويحيى الماديون في الزمن الأخير فيحسبون أنهم جماعة تقدم وإصلاح للعقول وتقوم لمبادئ التفكير . والواقع أنهم في إنكارهم كل ما عدا المادة يرجعون القهقري إلى أعرق عصور في القدم ، ليقولوا للناس مرة أخرى إن الموجود هو المحسوس وإن المعلوم في الأنظار والأسماع ممدوم كذلك في ظاهر الوجود وخافيه ، وكل ما بينهم وبين همج البداة من الفرق في هذا الخطأ - أن حمهم الحديث يلبس النظارة ويضع السماع على أذنيه .

« ويحسبون على هذا أنهم يلتزمون حدود العلم الأمين حين يلتزمون حدود النفي

[١] زعم الإنسان البدائي هذا يشبه كل الشبه ماسبق للأستاذ فريد وجدي بك من وضعه « الفيت » في مقابل « الواقع » وجعله الإيمان به إيماناً بخلاف الواقع .

ويعصرون عليه في مسألة المسائل الكبرى وهي مسألة الوجود ، بل مسألة الآباد التي لا ينقطع الكشف عن حقائقها في مئات السنين ولا ألوف السنين ولا ملايين السنين.. ونحن لا نستطيع أن نقول « لا » إلى آخر الزمان في مسألة من مسائل الحجارة أو المعادن أو الأعشاب أو مسائل البيطرة وعلاج الأجسام .

« وليس النوع البشرى على أبواب محكمة يخاصم فيها من يثبتون أو ينكرون ويتحداهم وهو جالس في مكانه أن يثبتوا له ما ينفيه ولا يهتدى إليه بالعين والمجهر . ولكنه على الأقل أمام « معمل للتجارب » يبدأ فيه البحث وبعيده ثم يبدأ وبعيده في كل عصر على ضوء جديد ، وهو أمام الكون خاصة لم يكبد يبدأ البحث في مسألة الآباد إلا منذ مئات معدودة من السنين . فياله من علم بديع هذا العلم الذي يقطع بالنفي إلى آخر الزمان ... دون أن يتردد أو ينتظر مفاجآت الزمان .

« والواقع أن العلم كله يقوم على أساس الإيجاب والترقب ولا يقوم على أساس النفي والإصرار وما من حقيقة علمية إلا وهي تطوى في سجلها تاريخاً من تواريخ الاحتمال والرجاء والأمل في الثبوت ، وإن تكررت دواعي الشك بل دواعي القنوط . فبحث الإنسان عن العقاقير وبحث عن المعادن وبحث عن الثمرات والفلات بروح ترقب إيجاباً وثبوتاً ولا تنتقل من نفي إلى نفي ومن إصرار إلى إصرار ، وهذه هي روح العلم أمام الصغائر من شؤون البيوت والأسواق . فلماذا تكون روح العلم إصراراً محضاً وإنكاراً متلاحقاً على غير إحساس وبغير ترقب أو انتظار في كبرى المسائل على الإطلاق ؟

« وأجدر الأزمنة أن يتبدل فيه هذا الموقف هو الزمن الذي تكشف فيه الأجسام عن عناصرها الأولى ، فإذا هو إشعاع أو حركة في فضاء فاقرب الوجود المادى نفسه من عالم المعقولات والمقدورات ، وتقرر لنا أن الحواس لا تستوعب معنى الوجود في

الصميم ، لأن زوال العدم هو الصفة الوحيدة اللازمة للوجود ، ولا يستلزم زوال العدم تجسماً ولا تجزماً ولا كثافة من هذه الكثافات التي تتمثل بها الأجسام للحواس بل يكفى حركة مقدورة أو معنى كأنه من طبيعة العقولات . فما أضيق النطاق الذى بقى للحس مظاهر من أسرار الوجود . وما أحرانا أن نفسح للوعى الكونى وللبداهة بما لا يتسع مع الزمان ، ولا يحبس في نطاق يضيق ثم يضيق حتى يسقط من الحساب .

« والإنسان قد رأى نور الشمس والكواكب بعينه منذ مئات آلاف من السنين ولم يقبس نور الكهرباء من بنوع الضياء الكونى إلا فى القرن الأخير . فتدرج من قدح الحجر إلى حك الخطب إلى فتيلة الدهن إلى غاز الاستصباح إلى نور الكهرباء فى هذا الأمد الطويل من الدهور وراء الدهور .

« فوعيه الباطن لم يقصر عن وعى عينيه فى هذا الشوط البعيد ، لأنه تنقل من عبادة الحصى والحشرات إلى عبادة الإله الواحد فى بضعة آلاف من الدورات الشمسية وجاز لنا أن نقول إن ضميره كان أسرع من عينيه إلى اقتباس الضياء وكان أقدر من فكره على مغالبة الظلام . وأى ظلام؟ إنه لم يكن إظلاماً كظلام الليالى والكهوف يُسلم مقاده لكل قاذح زئد أو نافح عود ، ولكنه كان ظلاماً تجوس فيه مرده الجهل وشياطين العادات وأبالسة المطامع والشهوات . فإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على حاجة الضمير إلى ذلك النور الذى اهتدى به واهتدى إليه . »

كلمة الأستاذ العقاد هذه القيمة جداً لا تحتاج إلى أى تعليق منا سوى أن نقول إنه حارب فيها أصحاب العلم الحديث المادى القاصرين كل تمويلهم على المحسوسات والنافعين لما وراءها النفى البات دون أن يترددوا كما قال الأستاذ أو ينتظروا مفاجآت الزمان ودون أن يفسحوا للوعى الكونى والبداهة إلا نطاقاً يضيق ثم يضيق حتى يسقط من الحساب ... حاربهم فهزمهم هزيمة منكرة ولكن خاصة بالمتكررين دون

الشاكين والمشككين ، والدين لاسيما الإسلام كما يناوى 'إنكار وجود الله يناوى' الشك في وجوده ولا يكفيه الاعتراف باحتمال وجوده ولا الوعي الذى ينطوى على هذا الاحتمال بل يتوقف على قناعة جازمة تحقق التعمير عن الله بواجب الوجود .

فإيمان العامة من المسلمين يقوم على هذا الوعي إجمالا ، وتفصيل هذا الإجمال الذى يجعله قانونا علميا يفيد الوجوب والضرورة ويفوق بهذا ما يستفاد من العلم الحديث فحله في علم الكلام وصدور علمائه .

ثم إنا وجدنا الأستاذ أحمد أمين بك بسيطا جدا في قوله من المقالة المذكورة المنشورة في « الثقافة » : « وكان نابليون - في حملته على مصر - في سفينة حوله ملحدون ، وفي ليلة بدبعة لمت النجوم في السماء وتلاألت في رونقها وبهاثها وجمالها ؛ فقال نابليون : انظروا أيها الرفاق ما أبدع النجوم وأجلها ! فن أبداعها ؟ قال ملحد نحن لا نسأل هذا السؤال ، وما يدور في ذهنك من هذه الأسئلة لا يدور في أذهاننا ، إنما نسأل نحن كيف تطور هذا العالم ، وكيف وصل إلى ما نرى ، إن برهانك أيها الأمبراطور - دليل جميل لك . »

لأن تطور العالم بنفسه وارتقاؤه حتى وصل إلى ما وصل إليه بنفسه من غير وجود واضع لهذا النظام ، محال يخالف لمبدأ العلوية على تعبير علماء الغرب ومستلزم للرجحان من غير مرجح على تعبير علمائنا المتكلمين ، فلا يلتفت إليه ولا يستحق الذكر مقابلا لقول نابليون . لكن الأستاذ نقله من غير تعليق عليه ، وهو يرى إلى قوله السابق في المقالة - وكأنه مؤيد له - : « أما علم التوحيد فبرهان لمن يمتقد لا لمن لا يمتقد ، برهان لصاحب الدين لا لمخالفه » وهل لا يلزم التحديد أنه برهان في نفس الأمر أو غير برهان ؟ لأن اختلاف صاحب الدين وغير صاحب الدين في الاعتقاد لا ينفى نفس الأمر ،

فهل علم التوحيد برهان وغير برهان ممّا ؟ ولهذا أقول أنا إن التعلم المصرى الناشئ فى أحضان هذه المقالات والكتب المصرية يختار لنفسه عقيدة الشك .

أما قول الأستاذ بعد الجملة المنقولة آنفا : « ولهذا لم نر فى التاريخ أن علم الكلام كان سبباً فى إيمان من لم يؤمن أو إسلام من لم يسلم إلا نادراً . إنما كان سبباً فى إيمان الكثير وإسلام الجمل الغفير الدعوة من طريق القلب لا من طريق علم المنطق » فقارنة أخرى من الأستاذ للعقل والمنطق يوازن قوتها فى تأييد الإيمان بقوة القلب ، بعد مقارنتها بالتجربة وتفضيلها عليهما ، فكما أنه خص براهين علم الطبيعة والكيمياء المبنية على التجربة بالنجاح دون براهين علم التوحيد المبنية على العقل والمنطق ، عد مساعدة القلب للإيمان أنجح من مساعدة العقل والمنطق .

وفيه عندى نظر ظاهر لأن معنى تأييد القلب للإيمان تأييده بمواطنه وليس التأييد بالماطفة تأييداً بالدليل والبرهان الذى كلامنا فيه ، ولهذا لا يُبحث عن الحق والباطل فى التمايلات القلبية ، وهذا كاعتزاز كل قوم بقوميته وترجيحها على القوميات الأخرى . فيكون لكل قوم الحق فى ذلك من غير أن تكون قوميات الآخرين معرضة للبطلان ويكونُ الترجيح يمثل هذه العواطف القلبية عندياً محضاً ليس من الرجحان الحقيقى فى شئ . لكن المطلوب فى ترجيح الإنسان لما اختاره ديناً له وعقيدة يبتنى فيها مرضاة الله ، لزم أن يكون ترجيحاً ناشئاً من كونه حقاً وما يخالفه باطلاً وأن يكون له فى ذلك دليل من العقل والمنطق ، ولا يجوز أن يكون ترجيحه مبنياً على الماطفة والمحابة المجردة المنبثة عن عدم وجود مرجح حقيقى لما يرجحه ، حتى إذا استطاع أن يذكر لماطفته ومحاباته سبباً معقولاً انقلبت الماطفة القلبية إلى الاستدلال العقلى .

الحاصل أن المقصود من العلوم هو الوصول إلى الحقيقة ، وعليه فلا شك أن العقل المحايد أحق بالثقة من العواطف المحابية وأن فى إسناد الإيمان إلى العواطف اعترافاً ضمناً

بعدم استناده إلى سبب معقول بل إلى اختيار صحيح أيضا مبنى على الموازنة بين المختار وغير المختار . ولهذا فإن صح هذا الإيمان صح إيماننا تقليديا لا إيماننا استدلاليا ، ولا يمكن أن يكون إيمان المقلد أفضل من إيمان المستدل فإن أمكن ذلك في أي دين فليس بممكن في الإسلام . وليس بصحيح ادعاء كون الإيمان في عصر النبي صلى الله عليه وسلم على هذه الحالة . فإن لم يكن علم الكلام في ذلك العصر على شكله المدون كان روحه مركوزة في عقول الصحابة ، ألا يرى أن كتاب الله مشحون بأدلة الفكر والنظر ، ومن ذا ينكر ما في قول سيدنا إبراهيم : « إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض .. » من الاستدلال الكلامي ، بحجة أنه سابق لتدوين علم الكلام بقرون كثيرة ؟

فلا شك في أن ترجيح القلب لأن يكون بمواطفه سندا للإيمان ، على سند علم الكلام العقلي والمنطقي ، نزعة من الأستاذ إلى عقلية علماء الغرب التدينين المحتاجين إلى الاعتماد عن ساحة العقل والمنطق تهريبا لدينهم المسيحي من برائن انتقاداتها ومتمسكين بدلا منهما بالقلب وعواطفه ، وسيجيء منا كلام عن شنههم الحرب في هذا السبيل ضد العقل ، كلام ننقله عن كتاب الأستاذ نفسه ثم نعلق عليه ، ولا حاجة في الإسلام الذي هو ديننا ودين علمائنا المتكلمين إلى تلك الحرب .

ومن حاجة الغربيين في تقوية الدين إلى تأييد العاطفة القلبية وترجيحها على العقل تراهم قد يدعون أن إيمان العامة أمتن من إيمان الخاصة وترى مقلديهم في الشرق يصدقونهم في ذلك . ولا صحة لدعواهم هذه أيضا ^(١) وكفى دليلا على هذا أن حالة

[١] ولما نرى هذا على ضعف الإيمان في الخاصة الغربيين بل وفي مقلديهم من الخاصة المصريين في الفرق الإسلامية أيضا ، فتتصرمهمة هؤلاء في الغرب والشرق على الاحتفاظ بدين العامة من طريق العاطفة القلبية لا من طريق العقل والمنطق ، إذ لو كانت عقولهم مائلة إلى الإيمان كانوا هم أنفسهم أقوى فيه من العامة .

العامة تتغير بتغير الخاصة من دون عكس ، وتدور قوة ارتباطهم بدينهم مع قوة
المتدين إلى ذلك الدين وغلبتهم في وجه الأرض فيظن الغافل ذلك قوة في الدين .
وأصدق القول قول علمائنا المتكلمين إن إيمان المقلد عرضة للزوال بتشكيك مشكك .
ثم إن الأستاذ القائل : « لم نر في التاريخ أن علم الكلام كان سببا لإيمان من لم
يؤمن أو إسلام من لم يسلم إلا نادراً . إنما كان سببا لإيمان الكثير وإسلام الجمل الغفير
الدعوة من طريق القلب لا من طريق علم المنطق » لم يفكر في سبب كون المسلمين
احتفظوا بدينهم وصحة عقيدتهم في القرون الطويلة المتقدمة على اتصالهم أو بالأصح
على اتصال متعلمهم بالغرب وتياراته في الأزمنة الأخيرة . وما كان السبب في هذا
الاحتفاظ إلا استناد علمائهم إلى علم الكلام واستناد الخلق إلى أقوال هؤلاء العلماء
وإرشاداتهم . فإذا مست الحاجة إلى المباحثة والمجادلة في العقائد كانوا يقومون بها
مكتئين إلى قوة علم الكلام ويقفون في وجه التيارات المضللة بهذا السلاح المؤيد
بالعقل والمنطق . ولم يكن ممكناً في أى وقت من الأوقات استخدام العاطفة القلبية ولا
تهذيب القلب بالتصوف الذى هو الطريق المعروف في تربية العواطف والمشاعر ، سلاحاً
للمجادلة الدينية العلمية لكونه سلاحاً لا يتعدى تأثيره إلى غير حامله . فلو كان رجال
الدين في العصر الحاضر أقوياء في علم الكلام وفي الوثوق بقولهم المؤيدة لهذا العلم كما
كان سلفهم ، لما وجد الإلحاد وكل ما لا يتفق مع الإسلام من الأفكار الغريبة ،
فرصة النفوذ في عقول مثقفي الشرق المصريين وما اجتراً الأستاذ فريد وجدى بك
مدير ورئيس تحرير « مجلة الأزهر » على أن يقول بين ظهراني شيخ وأستاذة كلية
أصول الدين أقاويل ضد علم الكلام وينتصب في رأس المجلة عدوالة عداوة المرء لما
جهله حتى كأنه يجهل أيضاً كون هذا العلم اسماً آخر للعلم الذى أضيفت إليه تلك
الكلية الأزهرية .

هاجم رئيس مجلة الأزهر علم الكلام وكان صنيعة هذا اقتراحا ضمينا للإلغاء
تدريس هذا العلم بالأزهر ، ولكن من غير إقامة علم مقامه تستند إليه عقائد الإسلام ،
بل ليس في الإسلام شيء يستحق أن يسمى علما بعد أن اشترط في العلم أن يكون
مؤسسا على التجربة الحسية وتقبل هذا الشرط في نظر الغرب وأذنا به الشرقيين ،
ولذا لم يذكر الأستاذ خلفا لعلم الكلام المطلوب إلغاؤه بل ترك الإيمان بالله معلقا بذمة
المستقبل ، لعل جهود علماء الغرب تكتشف يوما وجود الله بتجاربها الحسية كما
اكتشفت الروح ، ففي ذلك اليوم السعيد فقط يثبت على زعمه وجود الله علميا !

لكن الأستاذ أحمد أمين بك ، على الرغم من تسليمه برجحان براهين العلوم
التجريبية على براهين العلوم العقلية المنطقية ، لم يقع في سذاجة الاستجارة من التجارب
الحسية لاكتشاف وجود الله وامتناع عن أستاذ مجلة الأزهر أيضا فذكر خلفا لعلم الكلام
في حفظ العقائد وهو علم التصوف . وإنى لا أرضى أن يُخترع من التصوف الذى هو
عمل وإخلاص وتربية للنفس أكثر من أنه علم ، والذى ينبغى أن يكون متمما لعلم
الكلام - مزاحم له ، وإن كان هذا الاختراع المقوت قد وقع من غلاة الصوفية
القدماء قبل الأستاذ أحمد أمين بك . ولما كان علم الكلام عند ما قلت في أوائل
الكتاب : « انتهت قوة السيف في الإسلام بانتهاء الدولة العثمانية ، وإنى هاجرت
إلى مصر في هذه الفترة فوجدت قوة الإسلام العلمية أيضا في حالة النزع » ، في طليعة
المقصود من قوة العلم الإسلامية المحتضرة - فقد حق لى أن لأبرح موضوع الدفاع عن
علم الكلام وعن العقل الذى بنيت أدلته عليه ، قبل أن أعطيه حقه فأقول :

الأستاذ الذى يروقه التصوف لإثبات الدين ولا يعول على أدلة علم الكلام العقلية
والمنطقية ، نسأله عن كيفية غلبة الصوفى على مفكرى الدين وعن السلاح الذى يستعمله
في إلغامه؟ هل يكون سلاحه إظهار خارقة من كراماته تدش من عاينها ؟ وهل يكون
لصوفى أن يتحدى بها في حين أن الفارق بين معجزة النبي وكرامة الولي أن يتحدى

النبي بمجزته ولا يتحدى الولي بكرامته وفي حين أن منكرى الدين في زماننا وكثيراً ممن يعد نفسه من المسلمين لا يؤمنون بالمعجزات الخارقة للقوانين الطبيعية ، بله الكرامات ؟

فالحق أن محاولة تحويل وجهة المسلمين من علم التوحيد إلى التصوف تأييداً لدينهم وتثبيتاً لعقائدهم ، تشبه محاولة إحداث نوع من بعثة الأنبياء بعد انقضاء عهد النبوات يستغنى به الناس عن البحث والنظر بمقولههم لتمييز الحق والباطل من الأديان وأضداد الأديان ، وعن العلوم المستندة إلى ظاهر كتاب الله وسنة رسوله ، بل وعن المبالاة بآيات الكتاب نفسه الآمرة بالتفكير في السماوات والأرض وفي أنفسهم والقائلة مثلاً: « إنما يتذكر أولو الألباب » ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ولقوم يعقلون وإن في ذلك لآيات لأولى النهى » ، والقائلة بالسنة أهل جهنم النادمين على ما فاتهم عند معاينة العذاب: « لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير » .

وقد كان طروء الضعف على دين المسلمين واستيلاء الشك على قلوب المثقفين ، بل تغلب الإلحاد على الإيمان ، حصل كل هذه التقلبات في الشرق الإسلامي بعد أن أخذ الغرب يغزو دين الشرق بعلمه الحديث ، لما وجد الناحية العلمية في الدين ضعيفة وصدّقه في زعمه هذا أعوانه المقلدون في البلاد الإسلامية^(١) ولم يكن دخول الإلحاد الغربي في الشرق ناشئاً من كون العلم الحديث الذي هو أداة فتحه الوحيدة ، وجد في الأعصر الأخيرة ضعف البلاد الإسلامية في التصوف .

فإذا كانت حرب العلم الحديث الغربي متوجهة إلى الأدلة العلمية القديمة الذي كان الإسلام منذ قرون طويلة معتمدا عليها ، لا متوجهة إلى التصوف .. وإن شئت فقل لما كان دخول الإلحاد في كثير من أذهان المصريين بواسطة حرب العلم الحديث ضد

[١] وفي استخفاف الأستاذ بعلم التوحيد مثال واضح لهذا التصديق .

الأدلة العلمية الكلامية وجب أن يكون المهجوم المقابل في نفس الجهة التي شنت الحرب منها ، ليكون الحرب بين العلمين لا بين العلم وال عاطفة اللذين لا حرب بينهما في الإسلام ، وإنما المثقفون العصريون من مقلدى الغرب في الشرق رأوا ملاحظة الغرب يحاربون الأديان بالعلم الحديث الذي لا يؤمن بغير ماثبت بالتجربة الحسية فأنحازوا إلى جانب العلم والحدوا ، ثم رأوا أهل الدين في الغرب المسيحي يتمسكون بال عاطفة لإنقاذ دينهم من مغالب العقل وال علم فأنحازوا إلى جانب الدين وقلدوا المسيحيين في الاستهانة بالعقل وال علم ، وفي ضمن هذا التقليد استهانوا بعلم الكلام المبني على العقل والمنطق والذي هو سلاحنا في حرب الملاحدة ، مع أن العاطفة ترجع قيمتها العلمية إلى قيمة التعصب ولا تنهض حجةً ضد العقل والمنطق ولا نحن في حاجة إلى التمسك بها أو بالتصوف الذي يربّيها .. لا في إثبات الديانة ضد الإلحاد ولا في مقارنة الإسلام بالأديان الأخرى وإنما نحتاج إلى التصوف في داخل الإسلام لترويض النفس على العمل بأحكامه لنكون مسلمين عمليين بمد أن كنا مسلمين نظريين بفضل علم أصول الدين الذي هو الكلام وفروعه التي هي الفقه .

وأنا لا أغالى ولا أظلم إذا قلت إن الأستاذ الذي يفضل التصوف على علم التوحيد عند المقارنة بينهما ، يفضلهُ أيضاً على المنابع الأصلية للإسلام أعني بها ظواهر الكتاب والسنة ؛ ومما يؤيدنى في قولى « لا أغالى ولا أظلم » أن الأستاذ حين مدح التصوف مقابل علم التوحيد مدحه شاملاً للتصوف في جميع الأديان . ولو كان لغير دين الإسلام علم كعلم التوحيد في الإسلام لذكره الأستاذ مع علم التوحيد المفضول كما ذكر التصوف في ذلك الدين مع التصوف الفاضل في الإسلام ، ولهذا بقى علم التوحيد الإسلامى وحده مفضولاً في كلام الأستاذ ومقابلاً للتصوف في جميع الأديان ، فكأنه لا قيمة لهذا العلم بالنسبة إلى التصوف .. حتى ولو كان تصوفاً غير إسلامى . وفصلُ هذا التصوف عنده حتى ولو كان تصوفاً غير إسلامى ، ناشئ من عدم كونه مبنيّاً على العقل

والمنطق كما كان علم التوحيد ؟ ومنشأ هذه العقلية في الأستاذ ظنه بأن الدين خير له أن لا يأخذ مسنده من العقل والمنطق كما في المسيحية المتجافية عنهما فيسمى الأستاذ أن يُبعد الإسلام عنهما كما بعدت. فهو إن لم يكن مقلداً للمسيحية في نظره إلى الإسلام فقلد للعقلية الغربية المسيحية الممرضة عن العقل والمنطق ، وبهذا التقليد أصبح علم التوحيد الذي يدور مع العقل والمنطق ، منبوذاً عنده تاركا مكانه للتصوف .

وهنا نقطة هامة يجب أن يلفت إليها وهي أن وجود التصوف لا سيما وجوده معترفاً به عند الأستاذ - في المسيحية التي لا توحيد فيها ولا علم التوحيد ولا اتفاق مع العقل والمنطق ، ولا الحاجة إلى ذلك الاتفاق - يضر عند أولى العقل والمنطق بمركز التصوف في الإسلام أيضاً، إذ يفهم من هذا كون التصوف واسع الصدر إزاء ما يوافق العقل والمنطق وما يخالفهما . ولعل الأستاذ يتمجب من أنى أعد مخالفة العقل عيباً، بينما هو يمين علم التوحيد بأن علماء جملوه عقلاً ومنطقاً، كأنه يقول قول الفيلسوف المسيحي « اسپنسر » : « خير للدين أن يترك هذا العقل العنيد الذي لا يطمئن إلى غير الحجة المنطقية » وقد نقله في كتابه « قصة الفلسفة الحديثة » ص ٤٧٨ . فليعلم الأستاذ أن التصوف في الإسلام إن خالف علم التوحيد وخالف معه العقل والمنطق كان باطلاً كما بطل زعم التصوف في دعوى وحدة الوجود وسيجيء بحثه مستوفى في هذا الكتاب ، وليحذر قارئ الكتاب قبل أن يقرأه ، التكلم ضد العقل والمنطق . فإن كان التصوف يمتاز بالإلهام من الله فالعقل الذي هو قانون الله وسفيره العام الرسمى عند الإنسان والذي هو المهبط الأول الطبيعي لإلهام الله ، يقدم إلهامه على الإلهام الخاص الذي يخالفه ويكون معنى هذا أن الإلهام المخالف ليس بإلهام . ولهذا لم يجزى فيما جاءت به الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ما يحيله العقل ، فإذا كان في سعة علم التوحيد التكلم بالعقل والمنطق أن يضع لقدورات الله حدوداً من الممكنات حيث تقول متونه

عند ذكر صفاته تعالى الثبوتية « قادر على جميع الممكنات » فأولى أن يكون في سبعة ذلك العلم تحديد التصوف دائماً .

ولينظر الذين يعملون التصوف من أساتذة مصر مزاحماً لعلم التوحيد المسمى بعلم الكلام مفضلين الأول ومستهينين بالثاني ... لينظروا بعين العبرة إلى ما نقلناه سابقاً من كلام الإمام القشيري^(١) في إنذار من يجحد بعلم الكلام ، وكلمة السيد الشريف الجرجاني شارح المواقف في إكبار ذلك العلم وتقديمه على جميع العلوم الإسلامية مع كون كلا الرجلين الجليلين ممن جمع العلمين الكلام والتصوف في نفسه ، ومما يزيد في العبرة أن ناقل الكلمة عن الصوفي العظيم الأول أي الإمام القشيري كان هو الصوفي العظيم الآخر نضر الصوفية المعاصرين فضيلة الشيخ سلامة العزاي المصري متع الله الإسلام بطول حياته ، ونحن نقلناها من كتابه « فرقان القرآن بين صفات الله وصفات الأكوان . »

وقال الصوفي العظيم الإمام الرباني مجدد الألف الثاني أحمد بن عبد الله السرهندي في « المكتوبات » ، وسنقله أيضاً مع تصريحات أخرى منه في مبحث تدقيق وحدة الوجود (المكتوب ٨٦):

« فينبغي للسالك قبل بلوغه كنه الأمر أن يمد تقليد علماء أهل الحق لازماً لنفسه مع مخالفة كشفه وإلهامه وأن يمتد العلماء محققين ونفسه مخطئاً ، لأن مستند العلماء تقليد الأنبياء عليهم السلام المؤيدين بالوحي المعصومين عن الخطأ والغلط وكشفه وإلهامه على تقدير مخالفته للأحكام الثابتة ، خطأ وغلط . فتقديم الكشف على قول العلماء تقديم له في الحقيقة على الأحكام القطعية المنزلة وهو عين الضلالة والخسارة . »

[١] في رسالته التي يمد بها الصوفية - كما قال أحد فضلاء الكتاب في مجلة « الرسالة » - ككتاب سبويه عند النحويين ولا ينصرف الإطلاق لإلهامه .

أما الإمام الغزالي الذي تشبث الأستاذ أحمد أمين بك في مقالته الأخرى المنشورة « بالثقافة » والأستاذ عبد الحليم محمود المدرس بالأزهر وكاتب المقالات في « منبر الشرق » - بذيل أقواله ضد علم الكلام ، فهذا الإمام الملقب بحجة الإسلام نقول - عملاً بقوله الذي نقله هو - في مقالة الأستاذ أحمد أمين - عن علي كرم الله وجهه : « لا نعرف الحق بالرجال » - إنه ليس بحجة الإسلام في تلك الأقوال التي قالها في أواخر عمره .. وله رحمه الله أخطاء لا تغتفر ولا تستصغر نهينا إلى بعضها في « القول الفصل » وسننبه على بعض آخر منها في هذا الكتاب غير الذي نتكلم الآن عليه . والأقوال الأخيرة لهذا الإمام ، لاسيما مقاله في عدم الاعتماد على المحسوسات والمعقولات التي يُستمد بها للحصول على اليقين ، لا تؤثر عندنا في إكبار علمه الجديد وإنما تحدث تأثيراً سيئاً في سمعته بقديم علمه . وهذا السيد الشريف الجرجاني الذي يسميه من جاء بعده من فرسان الميدان في العلوم « سيد المحققين » والذي أكبر علم الكلام إلى حد أنه قدمه على جميع العلوم كما سبق بنصه في الرقم (٧) ما أكبره جاهلاً بالتصوف ولا مطلقاً في وزنه أو مجازاً في وزن علم الكلام . وماذا يقول الإمام الغزالي الذي بنى الطريق إلى اليقين غير طريق الكشف ، في قول علي رضي الله عنه : « لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً ؟ »

ولقد أتى الغزالي فيما نقل عنه الأستاذ في الثقافة (عدد ٣٥٨) بالمعجب المعبى حين رفع الأمان عن شهادة الحس والعقل وعن عالم اليقظة . وعنده : كما أن ما يشاهده الإنسان في حالة المنام أي الرؤيا لا حقيقة له مع كون الحالم يراه على أنه حقيقة ، فكذلك يمكن أن يكون عالم اليقظة عبارة عن الخيال الكاذب .. وعليه فلو ضرب زيد عمراً في منامه فاقتص منه المضروب في اليقظة ورُفعت القضية إلى الحاكم وقال الضارب اليقظان إنه ضربه قصاصاً ورد عليه الحاكم بأنه لا قصاص على أضغاث الأحلام ، فللمقتص أن يجيب قائلاً : « من بدرى أن عالم اليقظة ليس له أضغاث كأضغاث

الأحلام ؟ » . والحقيقة السالمة المسلّمة عند الإمام ومن تصوف معه من الأساتذة المصريين إنما هي في العالم الثالث المتجلى لهم من دون المشتغلين بالمحسوسات والمعقولات ، ولا ندرى أنهم لما تكلموا هذه الكلمات الرافعة الأمان عن حالة اليقظة ، كانوا في حالة اليقظة أو في عالم غيرها .

ويرد عليهم أن المبادئ الربية التي تمسكوا بها في هدم الاعتماد على المحسوسات والمعقولات صالحة لأن تتسلط على التصوف أيضا . وبالنظر إلى أن التصوف علم الوصلة إلى الله فن لم يقتنع بوجود الله ولم يكفه في الجزم بوجوده أدلة علم التوحيد لزمه أن لا يقتنع بأن الذي اتصل به بعد دخوله في العالم الثالث الذي هو التصوف هو الله بعينه . وكيف يتسنى له التعرف بمن لم يسبق منه التسليم بوجوده؟^(١) ومعنى هذا أن علم الكلام يتولى إثبات أن الله موجود وواحد ، من غير تحديد لذات ذلك الموجود الواحد بأنه هذا أو ذاك . وهذا العلم يعترف بمجزئه عن التحديد والتمييز ، بل يمنع المسلم عن السعي من ورائه ويقول : « العجز عن درك الإدراك إدراك ، والبحث عن سر ذات الله إشراك » ، والتصوف أو بالأصح تصوف الإمام الغزالي القائل بوحدة الوجود مع القائلين اشتغال بتمييز ذات الله ، حتى إن الاتحادى المعروف الشيخ محي الدين عربي تجرأ على تجهيل من قال : العجز عن درك الإدراك إدراك على الرغم من كونه منقولا عن الصديق الأكبر رضى الله عنه كما سيجى في بحث وحدة الوجود ، وحتى إنه صرح بأن خطأ النصارى إنما هو في قصرهم الألوهية على المسيح بن مريم دون سائر الموجودات .. فالإمام الغزالي الذي تذكر للمحسوس والمقول وتنكر له لومه من نوعهما وقع من التصوف في هاوية وحدة الوجود . فإن كان من حقنا أن نعرف الرجال بالحق

[١] ومن الغريب وقوع التجلي من الله لنا كين في وجود الله المنكرين للأدلة العقلية التي أقامها علم التوحيد عليه ، دون المؤمنين بوجوده اعتمادا على تلك الأدلة .

ولا نعرف الحق بالرجال فنحن نعلمه في طوره هذا ممن قال كتاب الله عنهم :
« ومنكم من يردّ إلى أرذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئا . »

وأنا الذي دفعني تصوف الأساتذة المصريين دراوشة الإمام الغزالي^(١) إلى التكلم بما قد يُظن منه أني من خصوم الصوفية ، وليس الأمر كذلك .. أصارحهم بأنّي أحبهم وأجلهم بشرط أن يكون واجبههم تعويد الناس العمل بعلوم علماء الدين الذين قديكون أي العلماء أنفسهم مقصرين فيه ، وبذلك يكون في إمكان الصوفية أن يتولوا إرشاد العلماء وإصلاحهم فضلا عن العامة . ثم لا أرضى بهم أن يجاوزوا هذا الواجب وهو إرشاد الناس وتعويدهم العمل بعلوم العلماء إلى أن يحاربوا علوم العلماء ويدعوا الناس إلى الاستغناء عنها بالتصوف المزيج في الغالب بالأباطيل والأضاليل . وبفضل إرشاد هذه الطائفة الناس وتمرنهم على العمل ولا سيما الإخلاص في العمل بعد أن كانوا قدوة للناس في العمل والإخلاص ، يمكنهم أن يقولوا من فيوضات الله ما يمتازون به على غيرهم فيصبحوا من عباد الله المقربين ، كما يشير إليه الحديث القدسي : « لا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها »^(٢) ومع هذا الامتياز العظيم فالمحجة التي لا عوج فيها ولا أمت ، للحصول على العلم والمعرفة طريق العقل ولا يزال قول علماء الكلام في أوائل كتبهم : « أسباب العلم ثلاثة الحواس السليمة والخبر الصادق والعقل . وليس الإلهام من أسباب المعرفة عند أهل الحق » قانوناً معترفاً به عند ذوي العقول ، قانوناً لا ينقضه خطأ الحواس مثلاً في أحوال نادرة يظهر منشأ الخطأ فيها عند التفتيش بالعقل الذي لا تستقل عنه الحواس أصلاً ولا تستغنى عن

[١] دراوشته للطعن في علم التوحيد وما بني عليه من العقل والنطق ، لالمواظبة على الأذكار والأوراد الصوفية ولا للتخلي عن مناصب الدنيا وملاذها كما تخلى الإمام الغزالي .

[٢] وقد توهم أصحاب المذهب الوجودي من المتصوفين أن هذا الحديث من مؤيدات مذهبهم الباطل

مساعدته في القيام بدورها ، كما لا تنقضه إصابة الكشف والإلهام من بعض الخواص في بعض حالاتهم ، مع عدم الاطراد في حالات الإصابة وفي تعيين أصحاب هذا الكشف المصيب كتميين أشخاص الأنبياء المؤيدين بالمعجزات والمعصومين عن الخطأ . فلا يوثق بألهامهم كما يوثق بألهام الأنبياء .

إن تيار الإلحاد الغربي وجد السبيل إلى الشرق الإسلامي من أحد البابين الأول المادية التي لا تموّل إلا على مائتة بالتجربة الحسية ويمتاز في زعم المصريين باسم العلم وقانونها الذي يردده الأستاذ فريد وجدي بك ويتمسك به وهو « كل معقول لا يؤيده محسوس فلا يعتمد به . » وهذا مذهب إيقاني في دائرته المحدودة التي تخرج عنه المغيبات الداخلة في عقيدة الإسلام وعلى رأسها الإيمان بالله .

وثاني البابين السوفسطائية الربية التي لا نعترف بالحصول على اليقين لافي المحسوسات ولا في المعقولات . ويتفق كل من المذهبين على عدم الثقة بالعقل والمنطق اللذين يبنى الإسلام عقائده عليهما . فالإسلام يأبى كلا من هذين المذهبين كما أن المذهبين يتنافيان في أنفسهما مع بعضهما . فيلزم منطقيا لمن ينتمى إلى أحد المذهبين أن يرفض المذهب الآخر ، كما أن من ينتمى إلى الإسلام لزمه أن يرفضهما . والمعجب أن الأستاذ أحمد أمين بك لم يكن ريبيا عند ما قال : « إن علماء التوحيد أو علماء الكلام لم ينجحوا حين جعلوا الدين منطقاً وفلسفةً نجاح العلماء في البراهين العقلية على قضايا العلم . إن قانون الكيمياء أو الطبيعة أو الرياضة إذا قال به أحد العلماء وبرهن عليه آمن به كل الناس بلا فارق بين أمة وأمة وأهل دين وأهل دين وشرق وغربي . أما علم التوحيد أو علم الكلام فبرهان لمن يعتقد لا لمن لا يعتقد ، برهان لصاحب الدين لا لمخالفه » وقد تكلمنا عليه . ولم يكن مؤمنا بقضايا العلم التي قال عنها إنها يؤمن بها كل الناس والتي آمن بها مع الناس ، عند تحبيذ كلمة الإمام الغزالي القادحة في المحسوسات والمعقولات ، فأنكر قضايا العلم التجريبي والثقة بالحواس إيمانا بمبادئ الربية ، وأنكر الربية إيمانا

بقضايا العلم وثقة بالحواس وآمن بهاتين اللتين أنكرهما ، إنكاراً للعقل والمنطق اللذين يستند إليهما علم التوحيد .. وجاوز عند إيمانه بالريبية ريبية الإمام الغزالي القائل عن الرياضيات كما نقل عنه الأستاذ : « وهذه أمور برهانية لا سبيل إلى مجادتها » فعلق عليه الأستاذ قوله : « هذا ما كان يُعتقد في زمنه » ومعناه أن الأستاذ يجادلها أيضاً لأنه أخذ الريبية عن سوفسطائية الغرب الحديثة قبل أخذها عن الإمام . وسيمجى بحثه منا في مدخل المطلب الأول من هذا الكتاب . وكذا المنطق يختلف نظر الأستاذ فيه عن نظر الغزالي الذي يعترف بأنه لا يُفكر . فالأستاذ ريبى تام غير محتاج إلى أخذها عن الإمام .

وهناك أستاذ آخر من المدرسين في الأزهر ذكرنا اسمه من قبل ، كتب عدة مقالات في « منبر الشرق » عن التصوف وأخرى بعنوان « على هامش فلسفة الأزهر » فرأيت يدخل في مسائل مهمة مختلفة ويخرج غير مؤت شيئاً منها حقه في البحث ، وهو أيضاً يرى علم التوحيد الذى اعتنى علماءنا بشأنه واعتمدوا عليه قرونًا طويلة ، بعدم إزالة الشكوك ويرى الخلاص منها فى الالتجاء إلى التصوف بل يعزو مذهب العلماء إلى اعتبار الشك أول واجب على الإنسان . ولعله وصل إلى سمعه من بُعد قول أبى هاشم المعتزلى فى ذلك فظنه مذهب علماء الإسلام مطلقاً .

وتراه لا يبت فى أن الدين يسع حرية التفكير أو يحظرها ولا يدري أن حرية التفكير مضمونة فى أساس الدين الإسلامى المبني على الأدلة العقلية ، إلا أن هذه الحرية الواسعة لا تنافى بعد التسليم والتصديق بكونه الدين الحق القيم ، أن يتقيد من اتخذه ديناً له بأحكامه وقوانينه التى يكون العمدة فيها على ثبوتها عن الرسول المبلغ عن الله ولا يكون المنتمى إلى الإسلام حرّاً فى مناقشتها . والمناقشة التى كانت من حق المسلم

العاقل قبل التثبت في عقيدة الإسلام والاطمئنان على كونه ديناً إلهياً متفقاً مع العقل، لا تكون من حقه بعد ذلك . وإلا كانت هذه المناقشة مناقشة الله .

ثم إن هذا الأستاذ الذي تردد في الحكم بوجود حرية الرأي في الدين والذي كتب جُل ما كتبه مشوباً بظلام الشبهات غير مكوّن فيه رأياً واضحاً واقتناعاً صريحاً، قال في عدد الصحيفة المذكورة (٣٦١) :

« إلى أي مدى يسمح الدين بحرية الفكر فيما يتعلق بمسا وراء الطبيعة ؟ إننا نعلم أن كل الأديان نبذت هؤلاء الذين لم يمتقدوا بوجود الإله واستنكرت أو استغربت لهؤلاء الذين لا يؤمنون « أفي الله شك » ولم يستنكر الأديان هؤلاء فحسب وإنما استنكرت أو نبذت كل أولئك الذين لم يستكملوا الإيمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر وليس الأمر كذلك فقط ، بل في الأديان أيضاً إشارات وإشارات إلى أن الطريق المستقيم ليس هو حرية الرأي وإنما هو اتباع الوحي « فيه آيات محكمات هن أم الكتاب... إلى قوله تعالى : من عند ربنا » وجاء في الآخر : « إذا ذكر القدر فامسكوا . »

« وموقف الدين في تلك الناحية موقف طبيعي حكيم ذلك أن تلك الناحية - ما وراء الطبيعة - لا يمكن مطلقاً أن يصل الإنسان فيها إلى رأى ، إذ أن الإنسان لا يمكنه أن يكون رأياً إلا في المحسوس . أما الأشياء الغيبية فكل رأى فيها هو بلا شك ضرب من الأوهام ولا يمكن أن يقر الدين ذلك النوع خصوصاً إذا اتصلت المسألة بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وفي الواقع كيف يمكننا أن نكون رأياً في تلك الناحية والدين يرشدنا إلى أن « كل ما خطر ببالك فإله غير ذلك . »

« وهذه الخطة - خطة الاتباع في تلك الناحية - هي خطة السلف الصالح . خطة الإمام مالك وغيره ، وهي كذلك خطة الشيخ محمد عبده في تفسير جزء عم كلما ذكرت

الجنة أو النار وكلما ذكر شيء من المفيات، حيث يقول هذه أشياء أخبرنا الله بها لنعلم حقيقتها ولكننا بها من المؤمنين . »

فزعم هذا الأستاذ أن الدين لا يسمح بحرية الفكر في الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فكان الإنسان إن آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فلا يؤمن مقتنعا بعقله حرا في تفكيره وإنما يؤمن اتباعا للوحي الأمر بالإيمان ، وكأن الوحي الأمر به من التشابهات حيث يأمر بالإيمان بما يستحيل عند العقل الحر في تفكيره ، وكأن الذين يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر يؤمنون بها قياما للواجب بالوحي وإن لم توافقهم عقولهم في هذا الإيمان . وهذه خطة الشيخ محمد عبده في تفسير جزء عم حيث يقول : هذه أشياء أخبرنا الله بها لنعلم حقيقتها ولكننا بها من المؤمنين .

وأنا أقول هذا كلام الأستاذ صاحب المقالات في « منبر الشرق » وقد كتبه غير واع لما تضمنته ، كالؤمن بالمفيات في مذهب الشيخ . والحق أن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر لما كان المراد منه الإيمان بوجودها فلا شك في اعتراف العقل الحر بهذا الإيمان، أما وجود الله فليس العقل يعترف به فقط بل يوجبه أيضا بأدلة القطعية حيث لا يتصور وجود هذا العالم بغير وجوده . وأما ما ذكر بعد الله من الملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر فالعقل الحر في تفكيره يعترف بها أيضا ولكن مع الفرق بينه وبين اعترافه بوجود الله الضروري فإن معنى اعتراف العقل بهذه الأمور إنها غير مستحيلة في حد ذاتها عند العقل ممكنة الوجود بعد وجود الله القادر على إيجادها ، وحاجة العقل إلى الوحي في الإيمان بهذه الأمور إنما تعتبر لتصديق وقوعه تفصيلا لا للاعتراف بها إجمالا الذي يكفي فيه إمكانها . كما قال خضر بك أستاذ الحق الخيالي في منظومته النونية الكلامية :

وواقع كل ما نص الصدوق به من ممكن كصرائط أو كيزان

فالأمر المذكورة بمد الله يُثَبَّتْ إمكانها بالعقل ويُصَدَّق وقوعها بالوحي ، حتى إنه لو لم يثبت إمكانها عقائياً لما كفى الوحي في الإيمان بها وكان الوحي من التشابهات. أما الذين يقولون باستحالتها العقلية ويبنون الإيمان بها على مجرد الوحي من غير أن يدعموه باعتراف من العقل الحر فغير جادّين في إيمانهم إن لم يكونوا من عامة الناس كائنين من كانوا ، ولذا أنكر الأستاذ فريد وجدى بك معجزات الأنبياء الخارقة للقوانين الطبيعية وأنكر البعث بعد الموت والجنة والنار على أوصافها الواردة في القرآن وجرى نقاش بيني وبينه قبل سنوات على صفحات « الأهرام » وكان الأستاذ يمدّها من متشابهات الكتاب التي لا تحمل على ظواهرها ، ولهذا أيضاً اعتاد الشيخ محمد عبده تأويل المعجزات بما يخرجها عن منافاة الطبيعة . والأستاذ كاتب المقالات في « منبر الشرق » يمشي على آثارها كما مشى على رأى الأستاذ أحمد أمين بك في الاستهانة بعلم التوحيد وترجيح علم التصوف عليه في الاقتناع بأصول الدين .

أما قول الأستاذ : « إن ما وراء الطبيعة لا يمكن مطلقاً أن يصل فيه الإنسان إلى رأى إذ أن الإنسان لا يمكنه أن يكون رأياً إلا في المحسوس . أما الأشياء الغيبية فكل رأى فيها هو بلا شك ضرب من الأوهام » فاتباع منه للضلال الفكرى المستولى على المثقفين المصريين بمصر ، القائل بأن العلم إنما يبنى على المجرىبات المحسوسة وما وراء ذلك لا يعتد به ، ولذا لا يعد ما وراء الطبيعة علماً ولا يعول على الأدلة العقلية. وأنا الذى كتبت هذا الكتاب للقضاء على هذه الضلالات أقول لهذا الأستاذ الماشى على الضلال العصرى مدعياً لعدم إمكان الحصول للإنسان على رأى في غير المحسوسات : كيف أمكنه أن يرتأى كون التصوف طريقاً إلى الحصول على اليقين في الدين أفضل من علم التوحيد في حين أن التصوف بعيد عن المحسوسات ؟ .

بل أقول أليس له رأى مكون ومقرر فى وجود الله الذى هو فى رأس مسائل ما وراء الطبيعة ؟ لا أسأل عن رأيه فى كيفية وجوده أو كنه ذاته حتى تلتبس عليه هذه المسألة بما يرشدنا إليه الدين - بل العقل أيضا قبل الدين - من أن « كل ماخطر ببالك فالله غير ذلك » وقد ذكره الأستاذ فى غير موضعه - بل أسأله عن وجود الله الذى ينازعنا فيه الملاحدة الماديون والطبيعيون غير المؤمنين بغير المحسوسات .

وبما التبس على الأستاذ فذكره فى غير موضعه خطة السلف الصالح خطة الإمام مالك وغيره المتوقفين عن تأويل التشابهات فى كلام الله ورسوله المستحيلة عند العقل إذا حلت على ظواهر معناها مثل قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » ، فقد خلطها الأستاذ بخطة الشيخ محمد عبده أو الأستاذ فريد وجدى بك فى معجزات الأنبياء وأحوال الآخرة ، خطة عدد الآيات الواردة فيها من التشابهات التى تستحيل معانيها الظاهرة على العقل . وعندنا وعند غير المختلطة عقولهم بمبادئ الماكفين على المحسوس لا مانع عقليا عن قبول تلك الآيات على ظواهرها ، لكن الأساتذة المصريين عاجزون عن التمييز بين الممكن والمستحيل والتشابه وغير التشابه .

وفى مختتم بحث المقارنة بين العقل والماطفة القلبية التى يرجع إليها التصوف ويراها الكتاب المصريون منا قدوة جديرة بالاتباع أفضل من العقل ، تقليداً للعقلية الغربية المتولدة من العقلية المسيحية التى هى فى حاجة إلى استضعاف العقل ليخلص الدين من محاربهته ... فى مختتم هذا البحث يحسن لى أن أنبه القارى على أن العقل الذى يخالف المسيحية ويحاربها والذى لا يمكن التغلب عليه هو العقل السليم . لا عقل الغرب المتجنن بالحياة الدنيوية وزيناتها وشهواتها ، فتراه يحمل الدنيا عليها سافلها مستترا بتلك الشهوات لذويه وواضعا للقوة فوق الحق .. وقد سميت هذا العقل فى أوائل الكتاب عقلا شيطانيا تمرد على بارئه وأصبح الشيطان بفضل هذا العقل من النظيرين

إلى يوم الوقت المعلوم . وهكذا يكون ما يكسب الغريبيون من عقولهم على أكثر تقدير،
وهم لسكونهم أقل عقلا من الشيطان لا يدرون ما يدره أستاذهم من العاقبة التي تنتظره
في الآخرة وينص عليه قوله تعالى: « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ . »
بل ربما يكون إنظارهم أقصر من إنظار أستاذهم .

كتبت هذه الأسطر مقدمة للانتقال إلى قصة كتبها الأستاذ إبراهيم المصري
في جريدة « أخبار اليوم » بعنوان « عند ما يتحير الإنسان » يحاول بها إثبات فضل
العاطفة على العقل .

وخلاصة القصة: أن رجلا أرسقراطيا أنانيا من كبار أدباء الألمان في القرن التاسع
عشر بلغت أنانيته وكبرياؤه أنه لم يعرف الحب ولم يخفق قلبه لامرأة وهو في الثلاثين
من عمره ... ثم اتفق له أن يرى فتاة فقيرة يتيمة الأبوين باهرة الجمال اهتم بها أولا
ثم أحبها وأحبته خاضعة لكبريائه ومطبعة له في كل ما يرومه، فتزوجها واشتد حبه بها
فكان يغار عليها غيرة عنيفة أنانية تجاوز حدودها المعقولة ولا تخلو من مضايقتها وهي
تصبر على كل ذلك عن طيب نفس .. ثم ولدت غلاما فأحبته كما تحب زوجها وشنق
على الزوج الأناني أن يرى من ولده شريكا له في حبها فحاول إبعاده منها فأبى فأصر
الرجل على محاولته والراة على إباءها حتى عزمت على الهرب من بيته في ليلة من ليالي
الشتاء حاملة ولدها فأدركها الرجل وأبى هي إلا أن تخرج ولكن الرجل انقض عليها
وانزع الطفل منها وصفعها أمام الخادمة فخدقت إليه تحديقا هائلا ، ثم ارتعت عليه
كاللبوة المفترسة وانزعرت منه طفلها وانطلقت تعدو على غير هدى ، حتى اندفعت من
باب الحديقة إلى الشارع الكبير وكان الظلام كثيفا والبرد شديدا . وإذ ذاك وفي
ومض الطرف زادت الريح ودوى الرعد وأبرقت السماء وانفجرت الماصفة وانهمر المطر
وانصب على الأم وطفلها كسيل من رصاص فاضطربت وتراجعت ودب الذعر في قلب
الرجل فلحق بها وهو يصرخ ارجى رحمة بابنك .. فاضطرت إلى الرجوع واسكن

الطفل أصابته حمى من تأثير البرد والمطر وتجاذب المتنازعين ، ولم ينفع الطب في إنقاذه حتى مات في اليوم الرابع من ليلة الحادثة .

قال كاتب القصة : « وفي تلك اللحظة فقد تحطمت جبروت الرجل وتبددت أنانيته وتقوضت فلسفته فأدرك أمام جثة ابنه العزيز الوحيد أنه لم يكن إنساناً ، لأنه لم يضع القلب فوق العقل والتواضع فوق الكبرياء والرحمة فوق القوة . »

وأنا أقول قد غلط الكاتب في ظنه الكبرياء والأنانية والغيرة الجنونية التي أرادت أن تمنع الأم من حب طفلها الذي لا حب أسمى وأطهر وأوفق للغيرة الإنسانية والحيوانية منه عقلاً ، ثم سهل عليه تمويب رجل القصة بأنه لم يضع العاطفة فوق هذا العقل ، وهو ليس بمقل . نعم إنه عقل الفريين الأنانيين الواضعين القوة فوق الحق . وكاتب القصة كأكثر الكتاب المصريين منا يتبع عقليات الغرب الفاسدة^(١) لينال من مركز العقل الصحيح المحترم عند الأمة اتباعاً لعقلية الإسلام الذي يكبر العقل ويمشي معه جنباً لجنب .. فإذا ضل عاقل إلى حد أن يستهين بالعقل فذلك الضلال البعيد .

ثم أقول للمسلمين الفيورين على دين بلادهم : اهتموا بدين متفقيكم إن كنتم تريدون بقاء الدين محفوظ الكرامة ومرعى الأحكام . واهتموا بكون المثقفين يعتنقون الدين بصميم عقولهم قبل أن يعتنقوه في صميم قلوبهم فذلك أنسب بهم وأثبت وأسلم من طروء الزيف عليه . وليس من العقول أن يكون دين المثقفين الذين هم عقلاء البلاد

[١] يفضل طاعة القلب على طاعة العقل كما رأى قارى هذا الكتاب مثله في الأستاذ أحمد أمين بك وسيراه في الأستاذ فريد وجدي بك ورآه قبلهما - وسيراه أيضاً في الأستاذ فرح أنطون عند مناظرته الشيخ محمد عبده ، وهو أقدم المدافعين عن القلب ضد العقل - فيمن أعلمهم بمصر - ومنه يعلم صدق ما فهمته من أن الشيخ لم يقلب خصمه في تلك المناظرة ، فهو لاء الأستاذة أتباع رأى فرح أنطون ، لا أتباع رأى الشيخ .

مبنيا على العاطفة دون العقل ولم يقل علماء الإسلام عبثا إن مدار التكليف الشرعى هو العقل ... فإذا رسخ الدين في قلوب هذه الطائفة من الأمة بواسطة عقولهم كان دين العامة ودين البلاد في مأمن من الضعف والانحلال ، وكل ما نراه في الشرق الإسلامى الحديث من ضعف الدين وفساد الأخلاق فنشؤه كون الضعف متمركزا في الخاصة المثقفة .

٩

الدكتور السيد محمد يوسف الهندى الذى كانت أعجبتنى مقالته في مجلة « الرسالة » الممنونة « رأى الأكثرية في السياسة الشرعية » . . هذا الدكتور كتب مقالة أخرى « في الرسالة » أيضا « عدد ٧٧٢ » بعنوان « مجلس الشورى لإبليس » ترجمه من شعر المرحوم الدكتور إقبال شاعر الهند المشهور ، يضرب فيها الدكتور الشاعر والدكتور المترجم على وتر الاستهانة بعلم الكلام ومعاداته الشائنة بين المثقفين المصريين في البلاد الإسلامية . وهما لا يبدیان استهانتهم بعلم الكلام في صدد المقارنة بينه وبين التصوف ، أو بينه وبين العلم الحديث بل أنهما يمحلان على الكلام والتصوف معا ويمتبرانهم شاعليين عن العمل الذى هو الأولى بالاشتغال في خدمة الإسلام وإعلاء كلمته .

وأنا أقول إن الذين أحدثوا المقارنة بين علم الكلام المبني على العقل وبين التصوف المبني على العاطفة ، مع تفضيل التصوف على علم الكلام في بناء الدين عليه ، وقد أخطأوا في كلا الأمرين كما سبق منا إيضاحه وإثباته ... هؤلاء المقارنون المخطئون كانوا على الأقل معقولين في مقارنتهم ، وإن كانوا مخطئين في تفضيلهم . . أما إحداث المقارنة بين العمل ومباحث الإلهيات الموجودة في علم الكلام أو بين العمل والتصوف ثم تفضيل الاشتغال بالعمل على الاشتغال بهما فليس له معنى معقول أصلا .

ولنبداً من المقارنة بين العمل والتصوف : فهي كالمقارنة بين العمل وبين العلم وقد سبق مني أن قلت عند مناقشة أحمد أمين بك في أوائل هذا البحث إن التصوف عمل وإخلاص في العمل وتربية النفس أكثر من أن يكون علماً .. فهو أي التصوف لا ينفك عن العمل إلا في مذهب غلاة المتصوفين القائلين بأن للإنسان مرتبة عند الله من مراتب الكمال إذا وصل إليه يسقط عنه التكاليف الشرعية . وهو مذهب باطل لا نمتد به .

وأما إحداث المقارنة بين العمل وبين علم الكلام فكان هذا كالسعي لإحداث الزاخرة بين العلم والعمل مع دعوى الاستغناء بالعمل عن العلم ، في حين أنا نحن المهتمين بعلم الكلام لم نقل يوماً بعدم الحاجة إلى العمل بمد تعلم علم الكلام ، بل العلم أوضح طريق إلى العمل وأسلمها ، والعمل بدون العلم يكون بناء على شفا جرف هار ، ولا يعتمد به إن لم يكن كذلك بل احتفظ بكيانه على خلاف القياس ولم يزل قائماً .. لا يعتمد به لكونه عملاً من غير عقيدة ، وليس المقصود من علم الكلام إلا تأسيس عقيدة الدين على أساسه العلمي ، ولذا كان من أسمائه علم أصول الدين ، فصاحب الأعمال الدينية من غير اشتغال بهذا العلم إما أن لا يكون له عقيدة أيضاً جازمة بصحة أساس الدين ... فهو منافق ينطبق عليه قوله تعالى : « والذين كفروا أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد .. » وإما أن يكون له عقيدة جازمة من طريق تقليد العلماء المشتغلين والاعتماد على علمهم ، أو تقليد القلائد والمتممدين .. فلا بد أن ينتهي القائلون بأعمال الدين إلى المشتغلين بعلم أصول الدين .. ولا نقول نحن أيضاً بلزوم هذا الاشتغال لكل أحد من المسلمين ، وإنما نقول كما قال الله تعالى : « فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم .. الآية » فيكفيهم أن يكون لهم علماء يعتمدون على علمهم في تثبيت عقائدهم الدينية ، كما يعتمد الناس في قضاء حوائجهم الدنيوية على إخصائين في علوم أخرى

مثل الأطباء والمهندسين . ولا يكون من شأن العاقل المهتم بدنيائه أن يهجم على علم الطب أو الهندسة مدعياً لاستغناء الناس عنه .. وليس ما فعله الدكتور إقبال والدكتور محمد يوسف المترجم عنه إلا من قبيل هذا الهجوم والاستهانة غير المقولين^(١) .

وقد سبق أن قلت في هذا الكتاب « المسلمون في زماننا يتلاومون فيما بينهم بالتقصير في العمل عازين إليه تأخرهم المشهود ، مع أن تقصيرهم في العقيدة التي لا تقبل التقصير أصلاً أشد من تقصيرهم في العمل .. حتى إن تقصيرهم فيها قد يبلغ كما ترى - مبلغ مناواتها والاستهانة بها ، وهو دائم الذي أصيبت بها الكثرة الساحقة من مثقفهم فعاقمهم عن الصلاة والصيام وعاق حكوماتهم عن العمل بقوانين الإسلام في بلاد معدودة من البلاد الإسلامية استبدالا بها قوانين فرنسية أو غيرها ، أو تعديلا في قوانين الإسلام يتضمن الخروج عليها باسم التسهيل على الأمة أو التوفيق بمصلحتها حتى إن الكثيرين يمجهم فصل الدين عن الدولة ، وحتى كان الشيخ الأكبر الراغى لا يبعد الفقه من الدين ولا التفسير في أحكامه تغييراً في الدين^(٢) وكان كل هذه الحالات والمحاولات يتظاهر أصحابها بالخروج على الجود في الإسلام طلباً للسهولة والمصلحة والتجديد في ناحية العمل ، لكن الحقيقة أنهم خارجون على الإسلام نفسه من ناحية العقيدة أى ناحية الإيمان به الذي هو أساس العمل بأحكامه ولهذا سهل عليهم التفسير في أحكامه العملية ، ولهذا أيضاً غنيت في هذا الكتاب بالناحية الاعتقادية التي هي الناحية العلمية وصرفت كل جهد في تثبيتها . »

[١] ولا يمكن الدفاع عن الدكتور الشاعر والدكتور المترجم باحتمال أن يكون مرادها من الأعمال التي يفضلان الاشتغال بها على الاشتغال بعلم أصول الدين والتصوف ، الأعمال النافعة للمسلمين في دنياهم ، لأنه إذا لم يكن لإحداث المقارنة بين علم أصول الدين والتصوف وبين الأعمال الدينية ، معنى معقول ، مع كون الطرفين من جنس واحد ... فعدم المعقولة في إحداث المقارنة بين ذينك العلمين الدينيين وبين الأعمال الدنيوية أولى .

[٢] لهذا البحث تفصيل وتمحيص في الباب الرابع من هذا الكتاب .

وقلت هناك أيضاً: «وبعد اقتناع المسلمين بمقيدة الإسلام اقتناعاً يتفق مع العقل والعلم الصحيحين يكونون مسلمين حقيقيين ويسهل لهم الحصول على ما يحتاجون إليه من العمل بأحكام الشريعة الإسلامية ، إذ العمل المعتقد به ينبئ - كما قلت من قبل - مباشرة أو انتهاء على المقيدة العلمية التي لا يتعب بها الإنسان أصلاً بعد استيقانها بعقله وفهمه ، بل يكون له منها قوة ينشرح بها صدره ويستعين على القيام بالناحية العملية التي ليست سهلة في حد ذاتها سهولة الناحية الاعتقادية لانطوائها على تكاليف وتوضيحات . »

نعم إن الناحية الاعتقادية المبنية على تدقيق علم أصول الدين المسمى بعلم الكلام ليست سهلة أيضاً لاسيما على العامة وعلى أكثر العقول الحديثة التي تستصعب هذا العلم لاستثناس أصحابه بالعلوم الحديثة المادية فيسهل عليهم الإعراض عنه والكلام ضده بدل الاشتغال به والتعمق فيه ، بدعوى عدم فائدته وعدم حاجة الإسلام إليه ، لكننا نقطع إن شاء الله في هذا الكتاب خصوم علم الكلام والذين هم خصوم العقل والمنطق أيضاً^(١) - حتى إن القارىء اطلع على الأستاذ فريد وجدي بك رئيس تحرير مجلة الأزهر وهو يتمنح في مقالاته بأنها خالية عن الأدلة المنطقية - مع أنا كما قلنا آنفاً لا ندعو كل أحد إلى الخوض في مسائل علم الكلام كلها حتى ولا بعضها الذي خصصنا ، بالتدقيق في هذا الكتاب لاشتداد الحاجة إليه في هذا العصر ... لا ندعو الناس إلى أن يكونوا علماء علم الكلام الملقبين بالتكلميين وإنما ندعوهم إلى الاعتراف بحاجة الإسلام إليهم ليعتمد الناس في عقائدهم إلى علومهم إن لم يكن لأنفسهم علم يعتمد عقائدهم عليه كيلا يبقى اعتقاد لأحد من غير سند علمي ولو بالواسطة أي تقليداً لعلماء السند .

[١] وقارىء كتابي هذا يستبين خصوم العقل والمنطق بأسمائهم ونصوصهم في أمكنة مختلفة

فإن قال قائل إن مراد الشاعر والمترجم الدكتورين الهنديين من التكلم ضد التوغل في علم الإلهيات ما يضاهي قول الأستاذ عبد القادر المغربي في كتابه « جمال الدين الأفغانى » مترجماً عن رأيه في واجب المسلمين ص ٣٠ :

« القرآن وحده سبب الهداية والعمدة في الدعاة . أما ما تراكم عليه وتجمع حوله من آراء الرجال واستنباطهم ونظرياتهم ، فينبغى أن لا نعول عليها كوحى . وإنما نستأنس بها كراى ولا نحمّلها على أكفنا مع القرآن في الدعوة إليه وإرشاد الأمم إلى تعاليمه لصعوبة ذلك وتمسره وإضاعة الوقت في عرضه . ألسنا مكلفين بالدعوة إلى الإسلام وحمل الأمم على قبوله ؟ وهل تمكن الدعوة من دون ترجمة تعاليم الإسلام إلى لغة الأقوام الذين ندعوهم ؟ هل في طاقة سكان البرازيل مثلاً إذا أردنا دعوتهم إلى الإسلام أن يفهموا كنه الإسلام من ترجمة علماء الإسلام وآرائهم المتشعبة في تفسير القرآن والحديث ؟ التى نظرك على فهرست أحد الكتب الدينية الكبرى وتأمل فيها لترى ما الذى يمكن عرضه والدعوة إليه من أحكامه وتعاليمه وما لا يمكن ، نجد أن ما لا يمكن العمل به ولا الدعوة إليه ولا تطبيق مفاصله أصبح عبثاً يجب الاستغناء عنه بما يمكن ، والممكن هو ما فى القرآن وحده . »

فجوابى عليه أن كتابى هذا وإن كان ينطوى على كثير من الانتقادات الموجهة نحو آراء الفلاسفة الغربيين فليس المقصود الأول من الكتاب دعوة الأمم الغربية إلى الإسلام ولا تعليم العامة من المسلمين دقائق علم أصول الدين ، وإنما المقصود دعوة الخاصة المثقفة المصريين منا المولّين وجوهرهم قبل الغرب ليأخذوا كل ثقافتهم منه حتى الثقافة الدينية ... المقصود دعوتهم إلى حظيرة الإسلام وتعلّم ما لم يعلموا من دقائق علومه لتصح عقيدتهم وتأمين شر ما يدهمها من الشكوك التى يوحىها إليهم شيطان العلم الحديث المادى ويؤمن دين العامة المسلمين وطلاب المسلم من الجيل الآتى شر هؤلاء المثقفين .

أما قول جمال الدين الأفغانى «إن القرآن وحده سبب الهداية من غير ما تراكم عليه وتجمع حوله من آراء الرجال...» فنحن نرى آراء الرجال المجددين الذين التفوا حول هذا الزعيم الأفغانى مثل الشيخ محمد عبده وتلامذته .. نرى آراءهم التى لا تتجمع حول القرآن ولا تصلح أن تنضم إليه بل تناقض نصوصه مثل إنكار المعجزات والملائكة والشيطان وعدم الاعتراف بصحة قصصه كما وردت ... أليست هى أكثر مخالفة لقضية المحافظة على وحدة القرآن مما تراكم عليه وتجمع حوله من آراء العلماء المتقدمين ؟

عنيت فى هذا الكتاب بالناحية الاعتقادية وصرفت كل جهدى فى تثبيتها عسى أن يكون من قوة العقيدة ذخراً لآخرتى وليس لى شيء يذكر من الأعمال إلا تعميم هذه القوة لينتفع بها المسلمون الذين هم صفر الأيدي من العمل مثلى ... أما المحتاجون إلى هذه التقوية لا يتلائم بضعف العقيدة فانتفاعهم بهذا الكتاب إن كان فيهم استعداد لقبول الحق ، يكون عظيمًا إن شاء الله .

وتوضيح هذا المقام يحتاج إلى إطناب فى القول يتضح به أهمية العقيدة التى ترجع إلى العلم وتقابل العمل ... كما يتضح به ما قلنا من أن العقائد لا تكلف أصحابها بعد أن استيقنتها أنفسهم صعوبة تدوم مع دوام العقيدة ، كما كانت الحال فى الأعمال الدائمة الصعوبة مدة دوام العمل .. لا تكلفهم صعوبة وتقييم ضروراً خطرة عند انتشار الفساد فى الأعمال .

مثلاً إن وباء السفور الذى أتى الشرق الإسلامى من الغرب بواسطة سماسرة مثل قاسم أمين وجعل نساء المسلمين كاسيات عاريات كالغريبات ، لا شك فى أنه حرام بنص الكتاب والسنة وإجماع الأمة^(١) ، وهذه الحرمة دامت إلى هذا العصر الذى

[١] ونحن إذا التزمنا الدفاع عن علم الكلام اهتماماً بعقائد الإسلام وصيانتها من اعتداء المعتدين ، لانهضيق علينا موضوع الدفاع بأن نقصره على المسائل التى اعتاد المؤلفون فى علم الكلام =

هو عصر فساد الأمة المشار إليه بالحديث النبوى : « من تمسك بسنتى عند فساد أمتى فله أجر مائة شهيد » وفى إعظام الأجر الموعود للتمسك إلى هذا الحد عند تطبيق الحديث إلى فتنة السفور، دلالة على شدة صعوبة هذا التمسك بحيث يعجز رؤساء الأسر عن وقايتها شر هذه الفتنة ، كما دلت هذه الصعوبة على قلة التمسكات بالحجاب فى زماننا إلى حد الندرة ، ولاشك فى كون التمسك بالإحتجاب أصعب من خروط القنادى فى عصر انتشار السفور وانتشار الشكاية من الحجاب على الرغم من عدم وقوع الشكاية منه طول عصور الإسلام عصور كرامة أحكامه ...

كما لا شك فى كون هذا السفور المقلد للسفور الغربى فسقاً وكون إباحته واستحسانه كفرًا والحث عليه أشد الكفر^(١) والنجاة من خطر هذه الفتنة العظيم الذى هو الكفر المؤدى إلى عذاب الأبد فى نار جهنم إنما تتاح فى عصر ابتلاء المسلمات بالسفور ، بفضل الالتجاء إلى الاحتفاظ بصحة العقيدة ، رغم فساد العمل الذى مهما عظم خطره فهو دون خطر الكفر كما قال الله تعالى : « إن الله لا يفر أن يشرك به ويفر ما دون ذلك لمن يشاء » ، وقال : « إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية . »

== أن يشتغلوا بتدقيقها .. بل تتوسع فندخل فى ساحة الاهتمام الناحية الاعتقادية الموجودة فى الأعمال الدينية التى يفضل الدكتوران الهنديان الاهتمام والاشتغال بها على الاهتمام بلم الكلام. ويمكن أن نعبّر عن هذه الناحية الموجودة فى العمل ناحيته العلمية ونلحقها بمسائل علم الكلام الاعتقادية ثم نعدّها أحق بالاهتمام وأقدم من ناحية العمل على خلاف عقلية الدكتورين .

[١] ولأنى أجندى كثرة السافرات من نساء هذا العصر وما يتلوه من الأعصار ، ما يكفى فى ملء العدد اللازم لتغليب النساء من أهل جهنم على الرجال حتى على فرض أن لا يكون لهن ذنوب أخرى .. تلك الغلبة التى ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم فى حديث « اطلعت على الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء واطلعت على النار فرأيت أكثر أهلها النساء » ونساء المسلمين السافرات المتمتعات للكثرة التى رآها رسول الله فى بنات جنسهن لما اطلع على النار ، لأن لم يكن يلازمهن أذى قلبي نائبي* من الاعتراف بأن السفور ، فخالدها فى النار ؛ وإن لازمهن الأذى فما كانت بها إلى أن يفر

فإذا سافرت السافرات من نساء المسلمين العاجزات بمقتضى ضعفهن الغريزي عن مقاومة هذه الفتنة التي عمت عدواها وعز دواؤها ، وكن مع ذلك لا يزلن معترفات بذنبهن الذي يقترفنه لاعتات للزمان الذي يضطرهن إلى اقترافه ، وإن لم يكن هذا الاضطراب معدوداً من الضرورات الحقيقية التي تبيح المحظورات - وقين أنفسهن بفضل هذا الاعتراف النبي* عن عدم سراية الفساد إلى عقيدتهن الإسلامية القائلة بأن السفور من عمل الشيطان ، وكان خيراً لهن في الدنيا والآخرة أن لا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى والثانية .. وقين أنفسهن شر الوقوع في الكفر بفضل هذا الاعتراف الراسخ في نفوسهن ، وإن كانت هذه الوقاية المبنية على ذلك الرسوخ أيضاً في غاية الندرة المتناسبة مع ندرة بقاء العقيدة عند شيوع الفساد في العمل ، سليمة عن الفساد .

وهؤلاء النوارد العاتلة المحتفظة على الأقل بمقيدتهن الإسلامية ضد السفور كما يقين أنفسهن من أعظم أخطاره الأخروية ، يقينها في الدنيا من الإفراط والاستهتار في تقليد الكاسيات العاريات .

وهذه الطريقة التي عرضناها على المرأة المصرية المسلمة وأوصينا بها إليها ، طريقة الاهتمام والاحتفاظ بالعقيدة على خلاف التقصير في العمل على وفق الحكم الشرعي .. أنفع في حق الموصى إليها والموصى جميعاً وأقوم من البحث عن طريق إباحة السفور المحرم في طريقة العلماء الدائرين مع الزمان .

كان في العهد القديم عند المسلمين يُخاف على علماء الدين أن لا يتفق أعمالهم مع علومهم ولا يخطر بالبال أن لا ينطقوا بالحق أو يلتبس عليهم الحق والباطل لاسيما فيما كان معدوداً من الضروريات الدينية التي لم تكن تلتبس على المسلمين ، إن التبست على العلماء من طريق فرض الحال .

والآن أصبح الإسلام في حاجة إلى العلماء الذين يقولون الحق مهما كان فيه مصادمة

لأهواء الزمان .. يقولون الحق ويهتدون إلى معرفته بين دعاية المضلين ، كما أصبح الإسلام في حاجة إلى المسلمين الذين لا يلتبس عليهم العالم من الجاهل ، والحق من المبطّل ؛ وقد ورد في الحديث النبوى الشريف : « أخوف ما أخاف على أمتى كل منافق عليم اللسان . »

لا نتكلم في سفور النساء بمعنى الكشف عن وجوههن بحجة أن المرأة هي الأخرى إنسان كالرجل يضابقها ما يضابقه من الاحتجاب والاستتار .. بل بمعنى كونهن كاسيات عاريات لا يُقنمن ما يقنع الرجل من أعضائهم المكشوفة فيزدن بكثير على مبلغهم فيها .. وإن شئت فقل في اختصار يتفق مع تعبير القرآن : سفورهن بمعنى إبداء زينتهن لغير الأقربين من الرجال المدودين في آية الحجاب التي ينكر أنصار السفور وجودها في كتاب الله .. إبداء زينتهن مستهترات في إبدائها المنوع عنه في تلك الآية ، يتكوّن ويتفنن على حسب العادات المستحدثة في الفرييات غير المسلمات ^(١) .

هذا السفور وهذا الإبداء للزينة الذي جعل الأندية والمحافل والشوارع معارض وأسواقاً للنساء تنادى بتنازلهن عن منصة الاستغناء والاحتشام إلى ميادين الابتذال، لدالتها على احتياجهن إلى هذا التصنع والتكلف لاستجلاب أنظار الرجال أو لتلاقي

[١] وإن شئت فزد عليه كون هذه التزينة الكاسية العارية مستعدة لتلبية من يرغب في مخاصرتها من الرجال الأكفاء ومرافقتها بين ظهراني الناس في المجامع والمحافل . هذا هو المعنى المقصود من السفور الحاضر المختلف فيه بين أنصاره المجددين وأعدائه المحافظين ، ولا تسمع إلى أقوال بعض المناققين أو الغافلين إن السفور الحاضر الحايح ليس ما كان يريد قاسم أمين داعيته الأول . ولو كان الأمر كما يدعون من أن قاسم أراد شيئاً وحصل غير ما أراد له كانت ذكرياته المتكررة المظفرة في سنيها الطويلة الحاضرة التي يزداد فيها السفور خلاعة واستهتارا ، مليئة لنا وثبورا لا كما نراها مليئة هتافا وشكورا .

ما فيهن من نقصان الجمال والكمال .. إن لم تكن هذه الدلالة وتلك المفادة بلسان المقال فبلسان الحال الذي هو أنطق^(١) .

فهؤلاء المبديات الزينة من أجسامهن كأثهن في سباق دائم تكسب السابقة منهن وتحسر المسبوقة وتكون أولى الخاسرات أزواج الرجال الذين يصطادهم السابقات ليكون خليلات لهم أو أزواجاً ثانية . فيعود ضرر هذا السباق السافر إلى أخوات الكاسيات من بنات جنسهن ، في حين أن السفور عند الغافلين والغافلات يُمد من منافع المرأة .. يعود ضرر هذا السفور والسباق في السفور إلى أخوات السابقات من بنات جنسهن ثم تنتقم من تلك السابقات سابقات أخرى في سباق آخر جديد .

فتنة السفور هذه أدت إلى ضلالات واعتمدت على سخافات لم يتعمق في مثلها من الضلالات والسخافات أنصار الضلالات والسخافات الأخرى .. فتزى قاسم أمين ينكر وجود احتجاب المرأة في الإسلام بالمرّة ، فيدعي أنه دخيل طراً على المسلمين من مخالطة بعض الأمم فاستحسنوه وأخذوا به وبالفوا فيه وألبسوه لباس الدين كسائر الماديات الضارة التي تمكنت في الناس باسم الدين والدين براء منها ! ..

وناقض الرجل هذا الادعاء في دعواه الأخرى الضالة أيضاً فقال إن الاحتجاب أمرت به أزواج النبي صلى الله عليه وسلم خاصة .. دون نساء المسلمين فكأن هذه المادة الضارة التي هي دخيلة في الإسلام ولا مناسبة لها بالدين ، منيت بها من غير مبرر أزواج النبي اللاتي هن أقرب الناس إلى الدين وخاصة الإسلام ونبي الإسلام .

[١] ولا يمنع أن تكون الكثرة من غريرات الفتيات والنساء خاليات القلوب عن أغراض الفساد بأن يمتحن على التقليد المحض لأتباعهن العصريات ... لا يمنع هذا كون ألوان الزينة التي يبدنها مربية بالشكل والمظهر ، وفيه ما لا يستهان به من الفساد ... على أن سلسلة التقليد الذي تتبعه هؤلاء الغريرات لا بد أن تنتهي من مقلدة بعد مقلدة إلى أصحاب الأغراض الفاسدة من الرجال والنساء الذين اخترعوا تلك الألوان المغرية .

أقول وفي سورة الأحزاب التي فيها قول الله : « يا نساء النبي لستن كأحد من النساء » الذي تمسك به قاسم في دعواه الباطلة الثانية متغاضياً عما يحفه من القرائن المانعة عن دعوى الاختصاص كما فصلناه في مكان آخر من هذا الكتاب - آية أخرى تبطل هذه الدعوى بكل صراحة ، وهي قوله تعالى : « يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين » فكيف ينكر الرجل من غير مخافة ولا استحياء من الله وجود الحجاب للنساء في الإسلام ، إن كان يؤمن بأن القرآن كلام الله ، أو كيف يدعى اختصاصه بأزواج النبي ؟ ومثله في نبذ الخوف والحياء المحتفلون كل عام بذكره في مصر من مدعى الإسلام والإيمان .

ولم يكف قاسماً أن يستخف بضلال السفور وبأئمه فجاء ولده وادعى استحقاق أبيه لأجر من سن سنة حسنة وجرى على رأى الولد البار أصحاب الذكرى المحتفلين بقاسم في كل سنة من وفاته بالفة اليوم الذكرى الأربعين وهذا اعتراف منهم لاسمه بالخلود في الألسنة رغم كون مسماء من المستحلين ما حرمه الله والحاكين بغير ما أنزله .

ثم يعود قاسم المخلد في السنة المحتفلين بذكره مدعياً لكون الاحتجاب أجنبياً عن الإسلام فيصرح بأن السفور تمسك به الغرب وهو قدوتنا اليوم ونعم القدوة ، فأى شيء يتمسك به الغربيون الذين هم أعقل منا ولا يكون خيراً محضاً ؟

فقد تبين من هذا أن السفور الحاضر يأتينا من الغرب وقد كان الرجل يدعى أن الاحتجاب أجنبى عن الإسلام أخذه المسلمون من مخالطة الأمم . فهل السفور الذى نأخذه من الغرب باعتراف من قاسم أمين لا يكون أجنبياً عنا ، في حين أن الاحتجاب الذى لا يُعرف من أى قوم أخذناه وإنما يُعرف على الأقل أن أزواج النبي كنّ مأمورات به .. كان أجنبياً عنا في زعمه ؟

ضلالات السفور وسخافات الدفاع عنه لم تنحصر في قاسم أمين ، بل أصبحت طريقاً معبدة يركض فيها من حديثه نفسه الأماره بالحياة المختلطة من أزيمة النساء التملين في مدرسة المغفلين كما سماه الأستاذ توفيق الحكيم وأخذ عنواناً لإحدى مقالاته في « أخبار اليوم » ولعل الوجه لهذه التسمية عن الحياة المختلطة وما يسمونها الحفلات الساهرة . أن تلك الحياة التي كثيراً ما يخالطها القمار أيضاً مقامرة بذاتها من غير قار ، ورأس المال الموضوع على المائدة عقيلات القاصرين أو قريباتهم الأخرى التي يحضرن معهم محافل الاختلاط .

وقد رأيت في مجلة « الرسالة » عدد ٧٧٣ ، ٧٧٤ مقالتين بتوقيع الشيخ محمد رجب البيومي وعنوان « المرأة في شعر الرصافي » يحكم من قرأها بأن محمد صلى الله عليه وسلم يُكفّر به في صحف مصر والمراق جهاراً ويفندق على الكافرين المدح والثناء . أما المحافظون على إيمانهم بهذا الدين وكتابه فهم منهزمون ومقهورون لا يقام لوجودهم وزن ولا يصنف إلى أقوالهم بأذن ، فكان البلاد ولا سيما العراق أصبح فيها المنكر معروفاً والمعروف منكراً بين عشية الحكم العثماني وضحي الخروج عليه من العرب الجدد قبل الترك الجدد .. ولولا هذا التقدم المشثوم في البلاد الإسلامية المجاورة لما فاز إعلان الجمهورية اللادينية في تركيا الجديدة .

يقول الشيخ رجب : « حيا الله الشعر العربي ، فلقد آزر النهضة الشرقية أتم مؤازرة ، فأيقظ عيوننا نائمة ، وأسمع آذاننا موصدة ، وطاح بجبابرة قساة وأدوا الكرامة الإنسانية ، وأرهقوا العزة القومية ... »

« ولقد كان الرصافي رحمه الله في طليعة هؤلاء المباقرة المجاهدين ، فقد أخذ من يراعه القوى صارماً بقاراً ، تنقل به من معركة إلى معركة ، فهو في ميدان السياسة يشن الغارة على السرطان الاستعماري ، ويقف في وجه الطاغوت التركي !... »

« وسأحاول اليوم أن أكشف عن أثر الرصافي في النهضة النسوية كما أيقن شعوره نحو المرأة كإنسان ناضج ... »

ثم قال الشيخ رجب : « لم تكن حال المرأة في العراق خيراً منها في مصر ، بل كان الحجاب والجهل من لوازمه الأكيدة في كلا القطرين ، فارتفعت الدعوة بتحريرها^(١) في ربوع النيل ، واحتدم الجدل بين الأنصار والمحضوم ، فكانت معركة طاحنة تردد صداها في ربوع العراق ، فنهض الرصافي والزهاوي للمطالبة بحق الفتاة ، وتصديا للهجوم العنيف بما يملكان من بيان ، فكانت المقالات الضافية والقصائد الرنانة ، تعبر عن آرائهما الجديدة في جرأة وعنف ، وأوصل الرصافي جهوده ، فتأب عليه الجمهور وتنبه الحاكم التركي في غدوه ورواحه ، وهو لا يفتأ يناضل عن حق اعتقده ويقوض أركان عقيدة يراها غير صالحة للبقاء .

[٩] أنصار السفور الضالون يمدونه حرية المرأة مع أن الأمر بالعكس أعنى إذا سافرت المرأة تأمت ، وبذلك تتضاعف غفلة قاسم أمين وجهاته في ادعاء أن احتجاب المرأة دخيل في الإسلام من مخالطة بعض الأمم . انظر ما ذكره صديق الأستاذ الكبير محب الدين الخطيب في مجلة « الفتح » الفراء عدد ٨٦٢ :

« في لسان العرب (مادة : حرر) عند تفسيره معنى الحرية وأنها نقبض الأمة وأن جمع الحرية حرائر ، قال ومنه حديث أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب ، قال للنساء اللاتي كن يخرجن إلى المسجد : « لاردكن حرائر » أى لأزمكن البيوت فلا تخرجن إلى المسجد . لأنت الحجاب إنما ضرب على الحرث دون الإمام . وتعرض الإمام للناس في الأسواق معدود في أخلاق وسنة الإسلام أموة وامتهنا تترفع الحرائر عن مثلها . »

أقول وقد ذهبت حشمة المرأة وروعة جمالها بذهاب الحجاب وقامت مقامه الأصابع والمعاجين الملونة السائرة لما تحتها من الحقيقة ، مع فرق ما في الحجاب من إثارة حسن الظن بتلك الحقيقة المجهولة وما في الأستار الجديدة من إثارة سوء الظن بها . ومن حماة الندوة المصرية مسابقة حسنانم يقباحهن في الاصطفاغ .

« كان قاسم أمين في مصر صاحب الرأي الأول في حركته التحريرية ، وكان الشمرء والمتقفون يسرون وراءه في كثير من التحفظ والاحتياط ، أما في العراق فقد كان معروف وجميل يقومان بعق قاسم في حماسة يصل بها إلى الثورة والاندفاع ، ومن هنا كانت مكانتهما الاجتماعية في بغداد أقوى من مكانة شوقي وحافظ ومطران في مصر ، والفرق بين هذين وهؤلاء فرق ما بين الخطيب والمصققين مع التسامح اليسير . »

أقول منشأ هذا الفرق بين من ذكرهم من شعراء مصر وبين معروف الرصافي وجميل الزهاوي أن الأولين لم يكونوا في ضعف الدين بدرجة الرصافي والزهاوي المشتهرين بالإلحاد ، ومن سوء حظ الشيخ رجب والقضية المعقوتة التي ألزم إثباتها في مقالته وفضل مؤيديها العراقيين على المؤيدين المصريين ، كون المفضّلين من الملاحدة، والشيخ لا يكتم في مقالته الثانية كون معروف الرصافي إباحتيا متحذرا يبحث عن شهوات الجسد من أي طريق ، وإلحاد جميل معروف أكثر من معروف ، فنعم الشهود إذن شهود قضية الشيخ ! وقد قال الرصافي في إحدى قصائده التي أوردها الشيخ معجبا بها :

لم أر بين الناس ذا مظلمة أحق بالرحمة من مسلة
منقوصة حتى ببراءتها محجوبة حتى من المكرمة

والبيت الثاني اعتراض على الله في تقسيم الميراث بين الذكور والإناث . وفي البيت الأول الذي يرى الشاعر فيه المرأة المسلمة ذات مظلمة وظالمها الذي هو الله لم يرحمها في تقسيم الميراث وفي غيره من الأحكام الشرعية التي تفرق فيها المرأة عن الرجل في دين الإسلام^(١) . يريد الشاعر أن يكون للمرأة المسلمة أرحم من الله الذي يتمدح

[١] وهو يغفل أو يتجاهل أن صاحبات الحظ المساوي في الميراث لحظوظ الرجال من نساء الغرب اللاتي سفرت المرأة في بلاد الإسلام تقليداً لهن ، يمتحن إلى بدل المال في سبيل الحصول على =

في القرآن بأنه أرحم الراحمين . وفي كل هذا يكفر الرصافي والشيخ صاحب المقالة بل وصاحب « الرسالة » لنشر مقالته في مجلته من غير تكبير . وإني أرى حماقة المترضين على أحكام الإسلام الخاصة بالمرأة ، في وقوفهم مع المسلمين في صف واحد رغم خروجهم على حكم دينهم الظالم !!

أما ما سبق من قول الشيخ صاحب المقالة : « لم تكن حال المرأة في العراق خيراً منها في مصر ، بل كان الحجاب والجهل من لوازمها الأكيدة في كلا القطرين » فالجواب أن القرون الإسلامية قبل عصور السفور الأخير لآسيا القرون الذهبية ، مضت في الحجاب ولم يمنع الحجاب وجود المتعلمات ومشاهير الفضليات في تلك القرون كما لم تسمع فيها أية شكاية عن حجاب المرأة ، فهل أهل تلك القرون الطويلة كانوا في غفلة عميقة عن مظلمة الحجاب والميراث ظالمين ومظلومات ، حتى جاء قائم أمين في مصر فتنبه للعلاقة بين الحجاب والجهل ؟ ولم يبال بالعلاقة بين السفور والفسق مع كون علاقة الفسق أبين من علاقة الحجاب بالجهل فأثار ثورة السفور ، واقتنى شاعران ملحدان في العراق أثر قاسم وتبعهم الفاسقون والناوون ففازت دعواهم في عصر الفسق والفجور ، وأصبحت حال المرأة في القطرين خيراً من ماضيها على زعم الشيخ صاحب المقالة في « الرسالة » .

وأما قول الرصافي :

شرف المليحة أن تكون أديبة وحجابها في الناس أن تهذباً
والوجه إن كان الحياء نقابه أغنى فتاة الحى أن تنتقبا

== الأزواج تلتافاً للنقصان الطارىء عليهن من ابتذال السفور ، في حين أن المرأة قيمة بذاتها في الإسلام غانية عن مصاريف الحصول على الزوج بما يسمونه الدوطة ، بل الرجل مكلف بالإئثار عليها عند عقد الزواج وبعده إلى ما شاء الله أن يعيشا عيشة الزوجين .

فمن قبيل التضييل والتسويل ، لأن الحياء في وجه الفتاة أول ما تدعوها إلى التنقب والتمنع لا إلى السفور والاستفشاء عن النقاب ، لأن المناسبة بين الحياء والتنقب أشد من المناسبة بين الحياء والسفور ، ولذا يكفى عن قليل الحياء بخلع المدار .

وبمناسبة الكلام عن الحياء أنقل هنا قول الشيخ عن الرصافي في آخر مقالته الأولى : « ثم دلف إلى آراء المحافظين فدحضها في هدوء وبساطة وبين موقف الشريعة الإسلامية من المرأة وكيف أخطأ الجامدون فنسبوا إلى الدين ما ليس منه ، واستدل بمائسة أم المؤمنين وما كانت عليه من فصاحة وفقه . »

ثم أتى الشيخ بأبيات من شعر ممدوحه بل إمامه العراقي وفيه قوله عن المحافظين :

وقالوا شرعة الإسلام تقضى بتفضيل الذين على اللواتي

لقد كذبوا على الإسلام كذبا تزول الشَّمُّ عنه مزلزلات

أنقل هذا عن مقالة الشيخ ثم أتمتع قائلاً : لا يكون من حق الدين ينكرون وجود مرقف خاص للمرأة في الشريعة الإسلامية موافق لآراء المسلمين بأن تكون ممنوعة من إبداء زينتها للرجال غير المحارم الذي هو سفورها الحاضر وأقل من سفورها الحاضر ، وأن تكون مرتبتها دون مرتبة الرجل في كثير من الأحكام الشرعية كالبراث والشهادة وولاية الطلاق .. لا يكون من حق هؤلاء المنكرين وجود موقف خاص للمرأة مع وجود قول الله تعالى في كتابه : « وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو أبناءهن أو إخوتهم الذين لا عداوة بينهن وأبنائهن أو بناتهن أو إخواتهم الذين لا عداوة بينهن وأبنائهن أو بناتهن أو إخواتهم الذين لا عداوة بينهن » وقوله : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ... » وقوله : « وللرجال عليهن درجة » وقوله : « واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء .. » وقوله : « للذكر مثل حظ الأنثيين . »

لا يكون بعد هذه الآيات من حق هؤلاء المنكرين وجود موقف خاص للمرأة في الشريعة الإسلامية ، الذين خلقهم الله عارى الوجوه من حلية الحياء ، أن يتكلموا في الموازنة بين حياء الفتاة المحتجبة والفتاة الكاسية العارية .

الحاصل ان الخصومة في مظلة المرأة المسلمة إن كانت هناك مظلمة فهي تتوجه إلى دين الإسلام ثم إلى المحافظين . فعلى أنصار السفور الحاضر وأنصار مساواة المرأة مع الرجل أن يحاربوا الإسلام قبل محاربة المحافظين على قانون الإسلام . إلا أن يلتزم التغاضي والتماهي على طول خط المحاربة والمناقشة عن نصوص الكتاب والسنة في المرأة أو تُقابل تلك النصوص بوجود مظلمة بغلف غليظة من الكبرة في فهم معانيها ، كأن أصحاب هذه الوجوه يمثلون بأمر أسلافهم القائلين : « لا تسموا لهذا القرآن والنوا فيه لعلكم تغلبون » وما دامت تلك النصوص في القرآن ، فضلا عن نصوص السنة في كتب الأحاديث ، فلا خلاص لحلة الأقلام المتخذين من المؤنات الغافلات أدوات اللهو والملاعة والمجون ومن عاسنهن نصبا وأهدافا لخائفة العيون .. لا خلاص لهم من الإلزام .. فعليهم إن أرادوا الخلاص أن يخترعوا كتابا للإسلام يختلف عما أنزل على محمد ، كما اخترع القساوسة بعد المسيح ، وكما قيل لنبينا من قبل : « انت بقرآن غير هذا أو بدله . »

واستدلال أنصار المرأة الجديدة بسيدتنا عائشة وفصاحتها وفقهها من فقدان الحياء أيضا ، كأنهم يستدلون بفقهها على سفورها ، مع أن زعيم السفورين قائم أمين يقصر الحجاب في شريعة الإسلام على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم . فهل عائشة أم المؤمنين التي إن كان في الإسلام حجاب فهي مأمورة به حتى في اعتراف أول قائم بفتنة السفور .. هل سيدتنا عائشة هذه كانت في ظن الرساق والشيخ محمد رجب البيومي مثالا رائعا للمرأة الجديدة الناهضة عارية الساقين عارية العضدين عارية السحر والنحر

إلى مفترق الشدين على أن تكون الغاية داخلة في المنيا؟ .. ولنا كلام آخر مع قاسم أمين في غير هذا المكان من الكتاب .

نعود إلى أساس الموضوع : ولدينا مثال آخر يسفر عن أهمية المقيدة وهو معلوم أن المثقفين المصريين مغرمون بمحاربة الحكم الشرعى القائل بجواز تعدد الزوجات ؛ وأخيراً قام أحد الباشوات الكبار يسمى لاستخراج تحريره من آية التحليل نفسها أعنى قوله تعالى في أوائل سورة النساء : « فأنكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » وهو ضلال جديد بناء على غاية من الغرابة في تفسير تلك الآية، وكان أصحاب الضلال القديم يستخرجونه من قوله تعالى : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » في مكان آخر من سورة النساء أيضاً، جما بينه وبين قوله عقب القول الأول : « فإن لم تعدلوا فواحدة » ولم يمنع الباشا من سعيه الغريب المكابر ولا الضالين الأولين ماجرى طول تاريخ الإسلام من العمل بتعدد الزوجات .

وادعى الأستاذ عبد التعال الصميدى من علماء الأزهر في مجلة « الرسالة » أن أولى الأمر يملكون تحريم التعدد لا من الطريق الذى سلكه الباشا من طريق المحافظة على العدالة ورعاية المصلحة . وخالفهما أي الباشا والأستاذ الدكتور زكى الدين بدوى نافياً عن أى جهة أن تملك تحريم ما أحله الله .

وأنا أقول إن ما يذكرونه من المصلحة في تحريم تعدد الزوجات أن الزوجة الأولى يشق عليها أن تشاركها في زوجها امرأة واحدة على أنها زوجة ثانية ، أكثر من مشاركة ألف امرأة على أنهم خليلات ، كما سمعت هذا القول فعلا من كاتب مصرى معروف سبق أن ناقشته في الجرائد دفاعاً عن مبدأ التعدد الإسلامى وكتبته في « قولى عن المرأة » والمفهوم منه أن هذا المبدأ يشق على أعدائه من كتّاب المسلمين المصريين

قبل الزوجات الأولى وإن السبب الحقيقي لمعاداتهم عدم اتفاق هذا المبدأ مع عقليات الغربيين التي يهتم بها كتابنا منذ زمان أكثر من اهتمامهم بعقليات المسلمين .

أما ظلم الرجل على زوجته الأولى بمد تزوج الثانية فلاولى الأمر أن يمنموه بما يملكونه من الطرق الأخرى المشروعة ، لا من طريق تحريم الحلال الذي لا يملكونه ويعمدونه مصلحة يصادمون بها النصوص فيصدمونها .. مع أن تحريم التعدد يسوق الرجال الذين لا يكتفون بالزوجة الواحدة إلى اتخاذ خليله له بدل الزوجة الثانية بل خليلات ، وتساعده إباحة السفور للنساء مع تحريم التعدد على الرجال . ولا شك في انتشار الزنا في بلاد تسفر نساؤها ويمنع رجالها من تعدد الزوجات ، فيتضمن هذا المنع مفسدة أكبر من المصلحة التي يبنونه عليها وهي انتشار الزنا في بلاد الإسلام ، فهل يملك أولو أمرها إباحة الزنا ، كما يملكون تحريم تعدد الزوجات على رأى الأستاذ عبد المتعال الصعیدی ؟ وهل يقول الأستاذ كما قال الكاتب الذى ناقشته من قبل : إن المرأة يهون عليها أن تكون لزوجها ألف خليله ويشق عليها أن تكون له زوجة واحدة أخرى ؟ أو هل يصدق الأستاذ وجود كرامة في مثل هذه المرأة لا يكون من حق الزوج أن يدوسها كما يدعى أعداء مبدأ التعدد ، بل يكون لأولى الأمر في سبيل المحافظة على هذه الكرامة المزعومة أن يحرم حلالا كبدأ التعدد ويحلل حراما كانتشار الزنا في البلاد أو على الأقل كالتغاضى عن انتشاره ؟

والشاهد المستفاد من هذا البحث لموضوعنا - وهي أهمية العقيدة بالنسبة إلى العمل - أن تحريم الحلال كفر كتجليل الحرام لأنهما معارضة لقانون الإسلام ورفض لحكم الله ، والتورط في الحرام فعلا معصية دون الكفر . فإذا استهتر أولو الأمر فأحلوا حراماً وحرّموا حلالاً تقليداً لسنن الغرب وقام الناس بالعمل على مقتضى التيار الجارف كان التجليل والتحريم اللذان هما حصة أولى الأمر من هذا التحول المعارض

لحكم الله ، كفرأ والعمل بموجبهما من غير اعتراف بصحتها وكونهما حقا وصوابا وإنما استصعابا لمخالفة الجمهور كما ذكرناه في فتنة السفور أو اتباعاً لشهوات النفس - ممصية دون الكفر لا يياس مرتكبها من عفو الله ومغفرته .

فنحن المهتمين بصحة العقيدة التي يعتاز بها الإسلام على اللادينية أولاً والأديان الضالة ثانياً ، كما عُيننا في هذا الكتاب بإزالة شكوك الملاحدة في وجود الله وشكوك أشباههم المنكرين بنبوة الأنبياء في إنكارهم المعجزات فأسسنا عقيدة الألوهية والنبوة على أساس علمي يفوق علم الملاحدة الحديث الذين يقومون به في تلك الشكوك - فكذلك نستخرج من الأعمال التي تقابل العلم والعقيدة ، ناحية اعتقادية فنلت إلى الاهتمام بالمحافظة على صحة هذه الناحية عند صحة الناحية العملية وعند فسادها ، أما عند صحة العمل فليكون صحته مبنية ومتوقفة على صحة العقيدة . وأما عند فساد الناحية العملية فلأن صحة الناحية الاعتقادية تلاقى إلى حد لا يستهان به ما في العمل من الفساد ... فنحن باستجلاب الاهتمام إلى صحة العقيدة حتى في العمل ، نخدم طلاب الحق والصلاح من المسلمين المبتهلين في الزمان الفاسد بفساد الأعمال ونقيهم من المهلاك التام ، ولا نخدمهم بالبحث عن طريق التجويز والتصحيح لأعمالهم الفاسدة .

ثم نقول لفضلي الصلحة على النصوص عند تعارضهما ، الواجدين في تفضيلهم هذا طريقاً إلى جمل الإسلام ديناً خالداً يأتلف بكل تجديد في كل عصر .. كسمادة عبد الرحمن عزام باشا مؤلف كتاب « رسالة سنة الله الخالدة » وفضيلة مفتي حضرموت كاتب المقالين في مجلة « الرسالة » - تأييداً لسعادته فيما دار بينه وبين الأستاذ بهجت الأثرى - ثم الأستاذ عبد المتعال الصعیدی المطلي لأولى الأمر حق تحريم ما أحل الله في تعدد الزوجات ، وقبلهم الأستاذ فريد وجدي بك صاحب كتاب « الإسلام دين عام خالد » والقائل : « لا يوجد تجديد إلا ويسمه صدر الإسلام الرحب » حتى إنه هتف

حكومة أنقرة السكالية عند إعلانها قبل ربع قرن ، جمهورية لا دينية تلتفى الخلافة الإسلامية والمحاكم الشرعية والمدارس الدينية .. وعند ما عادت أخيراً تتظاهر ببعض آثار الرجوع إلى الدين ، وإن كان لا يؤمن لجديتها إلا النافلون ، والأستاذ يهتف بتلك الحكومة في حالتيها أى على خروجها من الدين جملة ثم عودها إليه بنسبة واحد في المائة وبعد كليهما من الإسلام .. وقد سمعت أن الأزهر الجديد الذى أسسه أستاذه الأكبر الراغى اتخذ مسألة التعارض بين النص والمصلحة مادة امتحانية لطلاب تخصص القضاء فى آخر هذه السنة الدراسية (١٩٤٨) ! ..

ونحن نقول لهؤلاء العلماء المصريين : أى مصلحة يراها أى فريق من أولى الأمر وتفضلونها أنتم على النصوص ؟ .. فهذه تركيا الجديدة قد سن أولو أمرها قانوناً يبيع زواج غير المسلمين بالمسلمات ، ولهم فى ذلك طبعاً ما يسمونه المصلحة .. وفى مصر وغيرها من البلاد الإسلامية من لا يزالون يعدون تركيا دولة إسلامية .. ثم إن الدول الإسلامية الحاضرة غير تركيا الجديدة تنتابها ما نابت تركيا من داء التقليد للغرب حتى قضى على دينها ، وأول دليل على هذا أن تلك الدول لم تقم بواجب النصيحة نحو تركيا قاطعة صلتها السياسية عنها عند إعلانها عن نفسها جمهورية لا دينية . والدليل الثانى أن تلك الدول أيضاً قد دخلت منذ زمان فى طريق فصل الدين عن السياسة وقطعت فيها مراحل ...

فلنفرض أن واحدة من تلك الدول سن أولو أمرها - لا قدر الله - ماسنت تركيا فى زواج غير المسلمين بالمسلمات ، وهم لا يعدمون مصلحة فى ذلك على زعمهم كما لا ندم تركيا الجديدة . فإذا يكون قول مفضلى المصلحة على النص عند تعارضهما فى هذه المسألة المفروضة ؟ وماذا يكون فيها قول الأستاذ الأزهرى عبد المتعال الصعیدى المخول لأولى الأمر قلب الحرام حلالاً والحلال حراماً مصلحة بتصورونها فى القلب ؟ والمسألة

جامعة لشروط الأستاذ في التخويل والتفضيل : أولو الأمر والمصلحة! بل ماذا يكون قولهم وقوله عند ما فرضنا أن أى دولة من تلك الدول أراد أولو أمرها حذف المادة من دستورها القائلة بأن دين الدولة الإسلام وإضافة مادة إلى قانونها المدني - بدلا من المادة المحذوفة عن الدستور تجعل كل من بلغ سن الرشد من أفراد الأمة ، حراً في اختيار أى دين شاء ؟ كما فعلته تركيا الجديدة أيضا . ولا تسئل عن المصلحة في هذا الحذف والإضافة ، فكل تجديد في عصرنا يتضمن مصلحة يرغب فيها المصريون ولو كانوا من علماء الدين ، لا سيما التجديد الذى يهدف إلى تقليد الغرب القوى من الشرق الضعيف ، كما سبق في مسألتى السفور وتمدد الزوجات .

فهذا ما يؤدى إليه ترجيح المصلحة على النص ، فيجعل الإسلام لا مبادئ له ثابتة بل تابعة لتصرفات الحاكمين في كل عصر .. يستخدمه من شاء إلغاء أى حكم من الأحكام التى شرعها الله في الإسلام إلى أن يلغى الإسلام نفسه .. وهذه سبيل في الفصل بين المسلمين المحافظين والمجدين الذين يرمونهم بالجمود ، أناضل الرامين بطريقة عقلية تكشف عما يستره مشروعاتهم من مفسدة أعظم مما يظهرونه من المصلحة .

يقول الأستاذ عبد المتعال ماممناء قد فسد الزمان وفسدت أخلاق الرجال فأتخذوا ماحل لهم من الجمع بين عدة زوجات أداة لظلم الزوجات الأولى .. ففي مثل هذا الزمان يكون من حق أولى الأمر أن يحرموا عليهم ذلك الحلال القديم ... كما كان من حقهم في عصرنا هذا قبل سنوات ، إلغاء الطلاقات الثلاث بلفظ واحد واعتبارها واحدة ، بعد أن جرت الأحكام على وقوعها مجموعة منذ سيدنا عمر الذى كان هو الآخر قد غير الحكم الجارى في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وخلافة أبى بكر وصدر خلافة عمر نفسه ، على وقوعها واحدة .. ولكن الناس خالفوا ذلك فأوقعوها ثلاثاً ، فامضاهما عمر عليهم

عقوبة لهم وأخذ الأئمة الأربعة بحكم عمر .. ثم أصبح حكم أولى الأمر في زماننا باعتبار الثلاث واحدة ، رجوعاً إلى ما كان في عهد النبي وأبي بكر وموافقاً لمصلحة منع الناس عن الإسراف في الطلاق .. هكذا قال الأستاذ عبد المتعال .

وأنا أقول يحاسب الأستاذ فساد أخلاق الرجال بفساد الزمان فيعتبر حكم أولى الأمر بتحريم ما كان حلالاً لهم من تعدد الزوجات - إذا حكموا - حقاً موافقاً للمصلحة ولا يحاسب الفساد في أولى أمر الزمان الفاسد ولا ما أصبح فيه كثير من المفساد مصلحة !.. وقد أوردنا نماذج منها .

ولا نقبل عنه ما عزي إلى سيدنا عمر من تحريم ما حلّ أو تحليل ما حرم في عهد النبي وأبي بكر لأن الشارع في الإسلام واحد وهو الله الذي لا يتصور له الخطأ فيما بلغه بواسطة نبيه ، وقد يخطئ النبي في اجتهاده ثم لا يلبث أن يصحح خطأه من عند الله في عهده بله أن يلبث التصحيح إلى عهد عمر أو يكون من عند عمر !..

ولا نقبل أيضاً ما عزي إلى عمر من إمضاء الطلقات الثلاث ثلاثاً ، مخالفاً لاعتبارها في عهد النبي وأبي بكر واحدة . ونبنى عدم قبولنا على أساس عقليتنا الدينية غير القابلة لتكون عمر ينقض ما بناء النبي .. لا على ترجيح ما رواه المحافظون من أن الطلقات الثلاث الواردة بلفظ واحد كانت تعتبر في عهد النبي وخليفته الأول أيضاً ثلاثاً كما أمضاها عمر ، ولو بني بناء على ترجيح هذه الرواية كان حقاً ولكنه لا يكفي في إسكات غير المنصفين من أنصار المصلحة إذا أصروا على ترجيح الرواية المرجوحة وكان مافملته عبارة عن مقابلة رواية برواية أخرى ، مهما كان إحدى الروایتين أقوى ولم تكن مقابلة حاسمة .

وقد رأينا الأستاذ عبد المتعال يذكر مثالا ويستشهد به على ما ادعاه في قوله :
« نعم نملك تحريم تعدد الزوجات » رداً على الدكتور زكي الدين المستنكر لهذه المالكية

وهو أن الطلاقات الثلاث بلفظ واحد قد ألغيت قبل سنين بقرار من أولى الأمر واعتبرت تطليقة واحدة ، بعد أن اتفقت مذاهب الأئمة الأربعة في وقوعها مجموعة وجرى العمل عليه في البلاد الإسلامية التابعة لتلك الأئمة الأربعة على طول التاريخ إلى أن جاء هذا العصر فرأى أولو الأمر إلغاء الثلاث . فكان الأستاذ يقول : وهكذا يفعل أولو الأمر فتلقى إجابة تعدد الزوجات كما ألغيت الطلاقات الثلاث بلفظ واحد وينتهى الكلام في المسألتين كما سكت الدكتور زكي الدين في الشوط الأخير من النقاش . وأنا أقول فإن كان المحافظون لم يمتثلوا بمصلحة الإلغاء في الطلاقات الثلاث كما انتقده فضيلة صديقنا الشيخ زاهد الكوثري وقضى عليه علميا بتأليف مستقل سماه « الإشفاق على أحكام الطلاق » فالأستاذ عبد المتعال يرى جانب أولى الأمر أقوى ويعتبر كتاب فضيلة الصديق صرخة في وادٍ ، فيتجاهل عنه بالمرّة . أما الحق فهو عند الأستاذ يدور مع المصلحة والمصلحة في أيدي أولى الأمر . يقلبونها كما يشاءون وقد سبق منا أمثلة من تقلباتها يعتبر فيها المعتبرون .

١٠

ولا يسعنا أن نختم الكلام في الدفاع عن العقل وعلماء علم الكلام قبل أن نضيف إليه كلمة دعنا إليها مقالتان نشرتهما « مجلة الأزهر » في الجزء التاسع والعاشر من المجلد الرابع عشر بعنوان « نقد متملى الإسلام لقانون الفكر الأرستطاليين » لأحد المدرسين بجامعة فاروق ادعى كاتبتها دعوى غريبة قائلة بأن متملى الإسلام انتقدوا منطق أرسطو في أعظم مبدئين من مبادئه وهما استحالة اجتماع النقيضين واستحالة ارتفاعهما .

ولا أدري بالضبط أن مراد الأستاذ كاتب المقالين الطعن على منطق أرسطو مع الطاعنين المتكلمين في زعمه بإثبات إمكان ما ظنه أرسطو مستحيلا ، أم الطعن على

التكلمين في إنكارهم استحالة ما لا شك في استحالة؟ وعلى كلا التقديرين أراد الأستاذ ابتكار الكشف عن الخلاف بين منطق أرسطو ومتكلمي الإسلام في أعظم أساسين من أسس ذلك المنطق بل عن الخلاف بين العقل والمنطق وعلى الأقل بينه وبين عقل التكلمين . وقد ذكر أمثلة من أقوال التكلمين ومذاهبهم في سمة قدرة الله وموقف صفاته من ذاته واختلافهم في إثبات الحال المتوسط بين الوجود والمعدم ونفيه .

وأنا أقول استخراج الطعن والاعتراض من أقوال متكلمي الإسلام على منطق أرسطو في مبدأ استحالة التناقض جماعاً أو رفماً ، وهم لا يبادلوه وهم واهم في الدنيا ، كما أن قول كاتب المقاتلين عن مذهب التكلمين الأشاعرة : « إن سلطان قدرة الله يجمع بين الاثنين معاً الممكن والمستحيل ، فللقدر الإلهية أن تجمع بين الوجود والمعدم وتجمع بين القدرة والمجز ، وتجمع بين العلم والجهل .. وبهذا قضت الأشاعرة على مبدأ عدم الجمع بين النقيضين قضاء تاماً » فريبة ما فيها مريبة ، ناهيك قول المؤلفين على مذهب الأشاعرة من أصحاب التون في بيان قدرة الله : « قادر على جميع الممكنات » وقول الشراح : « إن الممكنات احتراز عن المستحيلات » ومن المسائل المعروفة فيما بين علماء الكلام أن المستحيل لا يكون متمملاً لقدرة الله .

إن كان الأستاذ كاتب المقاتلين يرى في أي مذهب من مذاهب التكلمين أنه يتضمن التناقض جماعاً أو رفماً كان واجبه إبطال ذلك المذهب وردّه على أصحابه بدلاً من تفسيره بأنه نقد منطق أرسطو ونقضه في مبدأ التناقض ، لأن هذا المبدأ أقوى وأرفع من أن يدركه النقد والنقض ، كما أن متكلمي الإسلام أعقل من أن يمتعضوا على منطق أرسطو ويخافوه في مبدأ التناقض ، لأنه أعرف وأشهر المبادئ الأولى التي أجمع علماء الغرب مع علماء الشرق على كون المناقضة ضدها تمد غرابية وهذياناً . وليس مبدأ

التناقض بمبدأ أرسطو فقط بل من مبادئ العقل البشرى التى فطر الله الإنسان عليها،
فن حاول نقده فقد رجع النقد على نفسه .

ولا يرد على أن وجود الربيين فى فلسفة اليونان وفى فلسفة الغرب مع (هيوم)
(هيجل) يجعل استحالة التناقض أمراً مختلفاً فيه متردداً بين مذهبى النفى والإثبات ،
لا مذهباً عاماً بشرياً ... إذ لا مذهب للشاك يثبت عليه ويقطع به . والقطع فى مذهب
الشك ليس بمذهب بل قطع بنفى المذهب . ولذا قال اسپينوزا إن واجب الحسابى أى
الربى السكوت ، وقال أرسطو إن الحسابى الذى لا يقرر على شىء ويؤمن بما قاله ولا
يؤمن به مما .. لا يمتاز على النبات .

والحق إنه لا يوجد عاقل ينكر استحالة التناقض فإن أمكن اعتراء الشبهة على
هذه الاستحالة انهار علم البشر من طريق البرهنة على ثبوت أى مسألة يقينية ، لأن
اليقينيات الضرورية فى مسائل العلوم تستند إلى كون خلافها مستلزماً للتناقض .. حتى
إن مسألة إثبات وجود الله مبنية على أساسين : لزوم الرجحان من غير مرجح فى وجود
العالم ثم لزوم التسلسل على تقدير عدم وجود الله ، وهما مستحيلان لانطوائهما على
التناقض المستحيل كما نبينه فى محله من هذا الكتاب ، فلو أمكن عدم استحالة
التناقض لما أمكن إثبات وجود الله .

ولهذا فإن توهم الأستاذ من بعض مذاهب المتكلمين أن أصحاب تلك المذاهب
انتقدوا منطق أرسطو ونقضوه فى مبدأ التناقض ، يكون اعتداء عليهم وعلى مذهبهم
فى صورة الاعتراض على منطق أرسطو وهم لا يقبلون ولا يرضون أى توجيه لمذهبهم
يتضمن مثل هذا الاعتراض ، والاعتراض على المنطق إنما هو شأن أساتذة مصر
المصريين لا علماء الإسلام المتكلمين .

نعم ، ربما يكون من أصحاب المذهب فى العلوم أنهم عند النقاش فيما بينهم يشعرون

المختلفين عنهم في المذهب إلى التناقض اتهاما لمذهبهم بمخالفة مبدأ التناقض لا اتهاما لبداً التناقض بمخالفة مذهبهم .. ربما يكون ذلك ثم يتعقبه جواب المهتم ساعياً لتبرئة مذهبه عن مخالفة مبدأ التناقض المسلم به عند جميع العقلاء . ولا يخطر ببال أحد من أصحاب المذاهب المختلفة أن يشذ في مذهبه فيخترق به مبدأ التناقض . انظر ما قاله الفاضل الكليني في تعليقاته على قول المحقق الجلال الدواني في شرح المقائد المضدية عند قول القاضي عضد : « متصف بجميع الصفات السكالية » : « ... ولكنهم تخالفوا في كون الصفات عين ذاته أو غير ذاته أو لا هو ولا غيره فذهب المعتزلة والفلاسفة إلى الأول وجهور المتكلمين إلى الثاني والأشعرى إلى الثالث » فقال الكليني تعليقا على قول الشارح « أو غير ذاته » : « أى ما يطلق عليه في الشرع والعرف واللغة أنها غير ذاته إطلاقاً حقيقياً كما يدل عليه سياق كلامه من أن الغير لا يطلق في الشرع والعرف واللغة إلا على الموجود الذى من شأنه الانفكاك عند الأشعرى وعلى ما ليس بعين عند غيره ، فلا يرد عليه أن يقال إن أريد بالغير المعنى المصطلح أعنى جائز الانفكاك فقله : « وجهور المتكلمين إلى الثاني » محل نظر ، إذ لم يذهب أحد من المتكلمين إلى جواز انفكاك الصفات عنه تعالى ، وإن أريد المعنى اللغوى أعنى نقيض هو هو فقله : « والأشعرى إلى الثالث » محل تأمل ، لا لما قيل « فإنه ليس بمختص بمذهب الأشعرى بل مذهب جميع الأشاعرة والماتريدية كذلك » بل لأن مذهب الأشعرى على هذا المعنى يستلزم التناقض فكيف يكون مذهباً له ولغيره . »

فاذن لا وجه يُعقل لفهم كاتب المقاليتين موقف متكلمى الإسلام من منطق أرسطو على أنه موقف النقد والاعتراض ولا لا انتشار المقاليتين في مجلة الأزهر من غير أي تعليق عليهما من الشرفين على المجلة .. لا وجه يعقل إلا أن كلهم لا يعرفون مذاهب المتكلمين المذكورة على وجه الصحة ولا منطق أرسطو ولا حقيقة مبدأ التناقض المستجمع

لشروط استحالاته ولا درجة قيمته في المعلوم ولا مركزه في العقل البشرى غير القابل للنقد والاعتراض ، وقد هان على كل من الكاتب وأصحاب المجلة تصور الخلاف بين متكلمي الإسلام ومنطق أرسطو بمسد أن راجت الاستهانة بالنطق في أوساط مصر العلمية الحديثة .

ولعل الحقيقة أن السائد في جو هذه البلدة المنكودة الحظ منذ عهد الشيخ محمد عبده الذى دالت إليه دولة الزعامة العلمية بها على الرغم من كونها عريقة في المعلوم الإسلامية منقولاتها ومعقولاتها وكون الشيخ ريبيا كما ذكره فضيلة الشيخ زاهد في إحدى مقالاته المنشورة في مجلة « الإسلام » نقلا عن اللورد كرومر، ويؤيده ما ذكرنا في هذا الكتاب من أنه كان ينكر استحالة التسلسل في شكله المجمع على استحالاته ، لأن إنكار استحالة التسلسل معناه إنكار استحالة التناقض ، بناء على أن التسلسل ينطوى على التناقض .. إن السائد في جو مصر منذ ذلك العهد عدم الاستيقان بأى شيء والشك في كل شيء . ناهيك بشك محمد عبده في بطلان التسلسل وناهيك بشك مدرس في الجامعة في استحالة التناقض وناهيك في شكه فيها بتفسيره لمذاهب المتكلمين بنقد منطق أرسطو في مبدأ التناقض وناهيك دليلا على كون الفساد مستوليا على الجو انتشار مقالاتيه في « مجلة الأزهر » .

ولا يظن كون الشيخ محمد عبده ريبيا ولا إنكاره استحالة التسلسل ابتكاراً من عنده ، فلمل رأى أن أكبر فلاسفة الغربيين في أقرب العصور السالفة وأعنى به « كانت » ينكر استحالة التسلسل فأنكرها^(١) ، ورأى الحسابية التى ظهرت

[١] مع أن « كانت » لا ينكر استحالة التناقض وإنما غفل عن كون التسلسل الذى أنكر استحالاته يتضمن التناقض ، ويلزم أن يكون الشيخ محمد عبده كذلك .

فى فلسفة اليونان ثم قضوا عليها ثم ظهرت ثم قضوا عليها ثم انتقلت إلى فلسفة الغرب وبقيت إلى ان قضى عليها « ديكارت » ثم ظهرت على يد « دافيد هيوم » ولم يدخل هذا الوباء فى فلسفة الإسلام ، فعلمائنا رحمهم الله أخذوا ما أخذوه من فلسفة اليونان خالصاً من لوث الحسبانية .. رأى الشيخ محمد عبده هذه الحسبانية فى فلسفة الغرب ارتدت عند « كانت » الذى تولى معالجتها ، ثوباً جديداً^(١) ثم ازدهرت تحت هذا الشكل فى فلسفة « هيغل » وهو الذى نقى اليقين فى كل شىء حتى فى استحالة التناقض وفى كون اثنين فى اثنين يساوى أربعة وصدق أحدث آراء العلم الحديث هذه الفلسفة كما يأتى ذكره فى هذا الكتاب نقلاً عن « قصة الفلسفة الحديثة » فصارت نتيجة هذه العقليات الفلسفية فى الغرب أن جملة إمام مصر الحديثة ريبيا .

ولا يجوز أن تعتبر هذه الحالة فى فلسفة الغرب التى أوقعت رجلاً من علماء المسلمين فى هوة الحسبانية معذرة للأستاذ كاتب المقاتلين مخففة لخطأه الفاحش ، لأن خطأه الذى لا يفتقر هو فى توهم كون الخلاف الحادث أخيراً بين فلسفة الغرب وبين منطق أرسطو المسفر عن إفلاس الفلسفة فى الغرب ، قد حدث مثله فى فلسفة متكلمى الإسلام ! فلا يعنينا كون الفلسفة تجننت فى الغرب فأنكرت اليقين والضرورة المطلقة فى الدنيا واكتفت بالظن الغالب والاحتمال الراجح فى جميع معلومات الإنسان حتى أصبح وجود الله عند المؤمنين به احتمالاً راجحاً بالنسبة إلى عدم وجوده غير بالغ مبلغ اليقين القطعى الذى يستحيل خلافه لعدم وجود المحال وعدم وجود اليقين الضرورى المستند إلى مجانبة المحال وأصبح لذلك كون اثنين فى اثنين يساوى الأربعة أو كون الكل أعظم من الجزء ، غير مقطوع فيهما بالقطعية الضرورية المستحيلة الخلاف .. لا يعنينا

[١] يتضح ذلك فى أواخر الفصل الذى عقدناه للنظر فى الحسبانية بين فصول الباب الأول .

كثيراً اعتناق مصر لهذا الجنون تحت زعامة الشيخ محمد عبده ، وإنما يعنينا كل العناية أن لا يتصل شيء من ذلك بفلسفة الإسلام ، فلسفة علم الكلام .

أما كون الأمثلة التي ذكرها صاحب المقاتلين من مذاهب المتكلمين على أنها مخالفة لمبدأ استحالة التناقض ، غير مخالفة له مخالفة مقصودة ، فإني في غنى عن إطالة الكلام في إثباته وإيضاحه مع كون الكتب الكلامية المعتبرة متولوية لهذا الإثبات والإيضاح عند تمحيص تلك المذاهب في أمكنتها الخاصة من تلك الكتب . ولا يعنيني في كلتي هذه التي ألفتُ بها النظر إلى خطأ كاتب المقاتلين وغفلة أصحاب مجلة الأزهر كون هؤلاء المتكلمين أخطأوا أو أصابوا ، وحسبي في إثبات وقوع السكاب نفسه في أعظم خطأ من الشذوذ الفكري ووقوع المشرفين على المجلة في غفلة عظيمة ، حسبي في كل ذلك أن تكون المقاتلان قد سيقنا بنصهما وعنوانهما كتفسير مذهب المتكلمين في الأمثلة المذكورة بإحداث مخالفة منهم لمنطق أرسطو ونقده في أعظم مبادئه ، في حين أن هذه المخالفة لا يرضاها أصحاب تلك المذاهب قطعاً وفي حين أن هذه المخالفة وذاك النقد لا يتصور صدورهما من عاقل .

١١

ومن راجع العدد ١٥٥ من (أخبار اليوم) رأى صفحة تعرض عواصف حول الكتب المقدسة تحت عنوان « مطران انجليزى يفكر المعجزات » وتعرض طالباً أو معيداً بجامعة فؤاد مسمى خلف الله يقدم إلى كلية الآداب رسالة عن الفن القصصى في القرآن للحصول على دكتوراه فيتهمه الناس بالكفر والإلحاد وهو يلتجئ إلى السكاب القصصى توفيق الحكيم .

وخلاصة الصفحة أن قصة موسى في سورة الكهف لم تعتمد على أصل من واقع الحياة بل ابتدعت على غير أساس من التاريخ وأن ما تمسك به الباحثون

المستشرقون ليس سببه جهل محمد بالتاريخ ، بل قد يكون من عمل الفنان الذى لا يعنيه الواقع التاريخى ولا الحرص على الصدق العقلى . وإنما ينتج عمله ويبرز صورته بما ملك من الموهبة الفنية^(١) والقدرة على الابتكار والاختراع والتغيير والتبديل !!

ثم قال الكاتب : « وقد طالبه البعض بحرق الرسالة على رأى ومشهد من أساتذة وطلبة كلية الآداب . وطالب آخرون بفصل الأستاذ خلف الله .. وقد طلبت جريدة (الإخوان المسلمون) باتخاذ إجراءات حاسمة وقالت : إذا ثبت أن ما نقل عن رسالة الفن القصصى فى القرآن الكريم قد ورد فيها كما نقل فلا يكفى أن يحرقها مؤلفها بيديه أو يبدى غيره على رأى ومشهد من الأساتذة والطلاب ، بل لابد أولاً أن يعلن رجوعه إلى الإسلام ويحدد عقد نكاحه على زوجته إن كان متزوجاً وأن يقوم بكل ما يقوم به من ارتكب جريمة الردة عن دين الإسلام » .

ثم ذكر الكاتب رداً على هذه الطلبات بما يدل على أن العادة فى مصر رجوع المتهمين فى أمثال هذه الحادثة عن مطالباتهم ، بدلاً من رجوع أصحاب الجريمة ، فقال : « وليست هذه الحركة هى الأولى من نوعها فى مصر ، فقد سبق أن ألف الأستاذ على عبد الرازق وزير الأوقاف الحالى كتاباً عن الإسلام وأصول الحكم فقامت قیامة الأزهر واحتججت هيئة كبار العلماء وفصلته ، واستقال الوزراء الأحرار الدستوريون من وزارة زبور باشا احتجاجاً على الفصل وأقيل وزير العدل عن منصبه ، وكان عبد العزيز فهمى باشا ، بهذا السبب .

« وحدث مرة أخرى أن ألف الدكتور طه حسين بك كتاباً عن الشعر الجاهلى

[١] غير خاف على القارىء البقظ أن كاتب الصفحة أو الرسالة يدير قلمه ويبنى قوله على أن القرآن تأليف محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد نادى بذلك تنحيته عن الجهل بالتاريخ وتحلته بالموهبة الفنية .

شك فيه في بعض المعتقدات فقامت قيامة البرلمان وأراد مجلس النواب إخراجه من منصبه ، فهدد عدلى باشا رئيس مجلس الوزراء بالاستقالة لحماية للبحث العلمى . »

ومن عجائب المصادفات في هذه الآونة الأخيرة أن مطرانا انجليزيا قام - قبل كاتب الصفحة في أخبار اليوم ، كانه يؤيد المرتد المصرى صاحب الرسالة المقدمة إلى كلية الآداب - بعد قصة قيام عيسى بعد قتله ، قصة وهمية ، وينفى أن السيدة كانت عذراء كما أنه قال إن أبحاثه أظهرت أن كل المعجزات هي اشاعات عامية سخيفة وأن الفن القصصى يلعب دورا هاما في صياغتها وقالت الصحف عن قول كبير الأساقفة ضد المطران: هذا لا يصح أن يكون ردا على أبحاثه في كتابه ، كما أشارت تلك الصحف إلى أن مؤتمر الكنيسة الذى اجتمع عام ١٩٢٢ واستمر ١٤ عاما قرر عدم الأخذ بحرفية الإنجيل .

أقول ولم يختلف صوت الأزهر في حق الرسالة المقدمة إلى كلية الآداب على ما نقله كاتب الصفحة في أخبار اليوم عن فضيلة الشيخ شلتوت والمفتى السابق ، عن قرار مؤتمر الكنيسة على عدم الأخذ بحرفية الإنجيل . كما أن المطران الإنجليزى القائل بكون كل المعجزات إشاعات عامية سخيفة ، قد سبقه فئة من كتاب المسلمين وعلماء الدين الذين أنكروا المعجزات .

وزاد صوت الأزهر فوعد لصاحب الرسالة المقدمة إلى كلية الآداب والقائلة بأن القرآن لا يهمهم في قصصه أن تعتمد على أصل واقع من الحياة وعلى أساس معترف به من التاريخ بعد أن كانت مبتدعة على صيغها الفنية وابتكاراتها الخيالية طبق ما هو مهمة الرواة الفنين ... زاد فوعد له اجرا واحدا إن أخطأ وأجرين إن أصاب ، شأن المجتهدين في الإسلام ، وهذه الفتوى الأزهرية يُتعمزى بها في أخبار اليوم ^(١) على الرغم

[١] وقد روى في مجلة « الرسالة » نقي أحمد هذين المالين الأزهريين أو كلاهما ما عزى لهما من القول المساعد لصاحب الرسالة المقدمة . لكن نأى النقي إن صح كان الواجب عندى نقره من جانب النافين باهتمام يتناسب مع أهمية الموضوع .

من أن الأستاذ الشائب أستاذ الآداب في الجامعة وجماعة الاخوان المسلمين حكموا بارتداد صاحب الرسالة عن دين الإسلام ، كما أن قول الأستاذ أحمد أمين بك الذي تولى فحص الرسالة مع الأستاذ الشائب لا يقل في التشديد عليها عن قول زميله .

ثم التجأ صاحب الرسالة إلى السكاتب القصصى الأستاذ توفيق الحكيم كآخر مرجع لرفع قضيته وأكبر مفت في البلاد المصرية غير مفتيها الأكبر من اختصاصه النقض والإبرام في المسائل المعضلة الدينية : فقال هذا الأستاذ بمد أن عد اختلاف الطرفين في تنفيذ صاحب الرسالة وتأيينه ، تحرراً لرجال الأزهر ورجعية وتأخراً لرجال الجامعة ، ورأى الأمر يدعو إلى العجب لاسيما بمد ضم حادثة الطران الإنجليزي المنكر لمعجزات المسيح عليه السلام إلى حادثة الرسالة المقدمة إلى كلية الآداب ، ورأى جامعة مصر فيها ، لحد أنه لا يدهشه أن يسمع غداً بقيام أساتذة جامعة لندن يفتنون بأن ذلك الطران يستحق أن يحرق حياً... قال « ما الذى حدث الآن بالضبط في عقول الناس ؟

« رجال التعليم الروحي - كالمطران الإنجليزي وعلمين من كبار علماء الأزهر يريدون الخروج إلى نور المنطق العقلى ، ورجال العلم العقلى - كرجال جامعة مصر الحاضرين القائمين ضد صاحب الرسالة - يريدون الدخول إلى معبد النور الإلهى ... إنه ولاشك عصر الجشع .. كل طائفة لاتقنع بما في يدها وتنظر إلى مافي يد الآخرين . حتى في المسائل العقلية والدينية . »

ثم قال : « إنى أفهم موقف علماء الإسلام (يعنى الذين انحازوا إلى صاحب الرسالة ولم يقولوا ضده) فهم يفتنون طبقاً لقواعد مقررة في هذه الرسالة الجامعية ، وشاء لهم اتساع الأفق أن يضيئوا النصوص القديمة بأضواء جديدة .. دون أن يحيدوا عن روح الدين وجوهر العقيدة .. ولكن الذى لست أفهمه هو موقف أساتذة الجامعة الذين

يحكمون بالكفر على طالب جامعي ويطفئون بأيديهم الجامدة مشعل الحرية الفكرية الذي هو صلب عملهم وعمود رسالتهم .. ولئن استطعت أيضاً أن أفهم هؤلاء ، فإنني لأستطيع أبداً أن أفهم موقف المطران الإنجليزى الذى يحمل المسيحية كما يحمل تاجر الزيوت فن رفاثيل أو تاجر المسرح فن شكسبير .

« لماذا يهدم المطران الوقائع التاريخية فى الدين؟ وهو الذى يجب أن يعلم أن الحقيقة الدينية لا يمكن أن توضع تحت مصباح الذهن البشرى ... » ثم قال : « ما قيمة اكتشافات المطران بارتر بالنسبة إلى الحقيقة الدينية ؟ .. إذا كان هذا المطران رجل دين حقاً لفهم ذلك ، ولكنه فيما يبدو لم يخلق للدين .. ولكن لمهمة أخرى ... وإنى أُرشحه لمهمة الصحافة لأنه ولاشك قد خلق لها دون أن يشعر .. »

هذا ما نقلته ملخصاً من أخبار اليوم متعلقاً بالرسالة المقدمة إلى كلية الآداب والضيعة المثارة حولها .. وإنى أتمجّب من الأستاذ توفيق الحكيم التمتعّب ممن شاء وغير التمتعّب ممن شاء ، كونه يعذر الخروج على دين الإسلام من صاحب الرسالة ويعذر العالمين الأزهريين اللذين يجملان من هذا الخارج على الإسلام مجتهداً يستحق أجراً واحداً على الأقل .. ولا يعذر أبداً المطران الإنجليزى الخارج على الدين المسيحى ! ومن عجائب الأستاذ كونه يرى أن ذلك المطران لم يخلق للدين فيرشحه لمهمة الصحافة كأن الصحفى يجوز له أن يقول فى الدين ما لا يجوز لغيره ، فكأن الدين مسئول عنه رجاله فقط .. ومن أجل هذا يرى الأزهر موقفاً من الإسلام وللجامعة موقفاً مختلفاً عنه .

وإنى لا أقول عن الأستاذ توفيق الحكيم المتطوع للدفاع عن المسيحية حيال حملات المطران الإنجليزى عليها والمتطوع فى الوقت نفسه لمؤازرة الثائرين على كتاب الإسلام ...

لا أقول إنه يفضل المسيحية ويمادى الإسلام ، وإنما أقول إنه لا يعلم الإسلام علمه بالمسيحية^(١) وطبيعى أن يكون المرء مدافعا عما يعلمه ومعاملا لما لا يعلمه ولا يميز أعداءه من أنصاره معاملة العدو ، وإذا أراد أن يدافع عن الإسلام أيضا يتكلم عنه بالقياس إلى المسيحية التى يجعلها أسمى من المنطق ومن كل العلوم كما جعل المسيحيون وهو يظن أن علماء الإسلام كرجال الكنيسة فى حاجة إلى الاعتماد عن العقل ،

[١] وأخيراً قرأت للأستاذ توفيق الحكيم فى أخبار اليوم كلمة بنوان « ارتفعوا بالدين » قال فيها « طبل فارى وزمر وأرعد وزجر قلقاً على الدين لأنه قرأ فى رثاء عظيم (أنه عاش بالروح كما عاش المسيح ومات مقتولا بيد عشيرته كما قتل المسيح) » ثم قال « ولم يظن ذلك الفارى إلى أن المقصود هو استعارة صورة لا تقرير حقيقة، فكتب يذكر بالآية الكريمة (وما تلووه وما صلوه ولكن شبه لهم) وهى آية فى الذاكرة لا تنسى ، ولكن من بسطاء القراء من يتوهم أنه وحده الذى يذكر ويعلم . حقا هذه الآية تقول ذلك .. وفسر علماء الإسلام عبارة (ولكن شبه لهم) بأن الذى صلب وقُتل هو شخص آخر لا المسيح الذى رفع ، وهذه الحقيقة لم يتعرض لها الكاتب - يعنى نفسه - فهو أراد أن يمرض الأذى الذى يلحق العظيم من عشيرته وضرب ذلك مثلا بالمسيح الذى آذاه قومه فى شخص ذلك البديل الذى شبه لهم . ذلك أن صورة الاعتداء والإيذاء من العشيرة هى وحدها المقصود بالإبراز .. حتى وإن كان الإيذاء قد وقع على غير المسيح باسم المسيح .. وكان على الفارى المسلم أن يفهم من عبارة « كما قتل المسيح » أن المسيح هنا هو البديل الذى يتفق مع تفسير الإسلام . وللفارى المسيحى أن يرى الوضع الذى يتفق مع تعليم الكتاب المقدس .. والدين بعدئذ للديان » .

أقول كان الواجب فى زعم الأستاذ على الفارى المسلم أن يفهم من عبارة الأستاذ المكتوبة على أسلوب المذهب المسيحى فى موت المسيح مقتولا المخالف لكتاب الإسلام ، ما يوافق مذهبه أيضا وأن لا يضال ما تضمنه كلامه فى تشبيه موت غاندى بموت المسيح من ترويج الرأى الذى لا يتفق مع الحقيقة وهو موت المسيح مقتولا بيد أعدائه .. ولا ينفع الأستاذ أن هناك مقتولا أيضا وإن كان غير المسيح، لأن المقصود بالتشبيه هو المسيح لا من قتل بدلا منه .. فالقول غير مشبه به والمشبه به غير مقتول ولا مؤذى .. فالأستاذ حاول تشبيه عاقبة غاندى بعاقبة المسيح الذى لا يعلم عاقبته فتشبهها بعاقبة غيره من حيث لا يشعر .. فكأنه وقع فى مثل التباس أعداء المسيح الذى أرادوا قتله فأخطأوه وقتلوا غيره .. بل الذين أرادوا قتل المسيح فأخطأوا وقتلوا غيره ليسوا من عشيرة المسيح ، فتشبيه غاندى فى ممانته لا يستقيم من هذه الناحية أيضا. =

ولهذا أسست الجامعة بجانب الأزهر للمحافظة على الحرية العقلية والمنطقية ، ولهذا أيضاً كان المسموع من صوت الأزهر المقرر إزاء صوت الجامعة المستنكر في مسألة الرسالة المقدمة إلى كلية الآداب عن الفن القصصى في القرآن - عكس المتوقع ، حتى التجأ صاحب الرسالة إلى توفيق الحكيم بمقالة عنوانها «أبحر في الأزهر ورجمية في الجامعة؟» لكن الرجل وملتجأه قد وقفا في لبس وبعد عظيمين عن الحقيقة في تحليل المسألة وتعيين موقف الجامعة والأزهر من الإسلام .. إذ لا يجوز أن يكون الأزهر موقف من الإسلام وللجامعة موقف آخر منه ولا اختلاف مع العقل إزاء اتفاق الجامعة معه ، بل الأزهر في موقفه الأصلي القديم أكثر تمسكاً بالعقل والمنطق إزاء استخفاف الملاحدة المصريين بأدلة علماء الإسلام العقلية والمنطقية في إثبات وجود الله ، حين أصبح أولئك الملاحدة متمسكين بالشك استناداً إلى علمهم الحديث القائم على التجربة ، ولي معارك عظيمة في هذا الكتاب لدخض حججهم بهذا الصدد ، فإن كان الأستاذ توفيق الحكيم المحتكم إليه يقول قوله المؤيد للرسالة الخارجة على صدوقية القرآن ، يرغب في قراءة كتابي اطلع على أنه ليس هناك حقيقة دينية غير مؤلفة مع الحقائق العقلية ، حتى إن النصرانية الصحيحة المنزلة على سيدنا المسيح غير مختلفة في ذلك عن الإسلام .. واطلع الأستاذ أيضاً على أشياء أخرى تنفعه وتحرره من الأغلال التي يرزخ تحتها أفكار المعاصرين التابعين للغرب حتى في المعلومات الدينية متوهمين لهم التحرر الفكري في تلك الأغلال .

= وأصل الغلط الذي وقع فيه الأستاذ عدم معرفته بمذهب المسلمين في عاقبة المسيح معرفته بمذهب المسيحيين .. فهو لا يعلم الحقيقة ويقابل جميل قارئ علمها ، بالنكران .. ومن المجب أن الأستاذ يقول بعد أن اطعم مصحح غلطه في مسألة دينية منصوص عليها في القرآن : «ولكنني مع ذلك أحب كل من يحب الدين وأحث الناس على أن يفخروا بالدين .. » فهل هو يحب الدين جزافاً ويحب كل من يحبه من غير تحقيق الحق فيه ؟

أما مسألة الفن القصصى فى القرآن فضلال صاحب الرسالة فيها لا يوزن بميزان الموافقة لإجماع المفسرين أو المخالفة له ولا بميزان المجتهد المخطئ أو المصيب المستحق للأجر على كلا التقديرين كما وزنه فضيلة الشيخ شلتوت وأشرك معه فى الرأي فضيلة المفتى الأكبر السابق على ما نقل عنه صاحب الرسالة فيما كتبه إلى الأستاذ توفيق الحكيم . وكان هذه الفتوى الأزهرية أبلغت قضية صاحب الرسالة المنازع فيها مبلغ القضية المحككة بما أعجبت الأستاذ الحكيم آخر المفتين .. حتى قال عن أصحابها : « إن هؤلاء العلماء شاء لهم اتساع الأفق أن يضيئوا النصوص القديمة بأضواء جديدة دون أن يحيدوا عن روح الدين وجوهر العقيدة » وإن لم يكن الأستاذ عارفاً لا بروح الدين ولا بجوهر العقيدة كما أثرننا إليه .

لا يوزن ضلال صاحب الرسالة بما ذكر من الموازين وإنما يوزن بميزان العقل الذى يظن الأستاذ الحكيم أنه بمنزل عن الدين أى دين كان .. فعند ذلك يتبين أنه ضلال لا يقبل التبرير ، بل يقضى على مبرره كما يقضى على الرسالة نفسها ، لكونه رعباً للقرآن الذى هو كلام الله فى اعتقاد المسلمين ، بأن وجود شىء فيه لا يقتضى صحته ومطابقته للواقع . وهو تشكيك صريح فى صدوقية الله بحكم العقل قبل كل شىء بأنه كفر بالله وانتقاص لمقام الألوهية . فإن لم يكن كفراً بالله فهو كفر بنبوة محمد وتلميح إلى أن القرآن كلامه لا كلام الله . لا يؤيد هذا الاحتمال الأخير اهتمام صاحب الرسالة فى سعيه لترويج رأيه ، بنفى الجهل عن سيدنا محمد بالتاريخ دون نفيه عن الله . والأستاذ الحكيم الذى يسمى عبثاً بما يكتبه فى أخبار اليوم لمناصرة صاحب الرسالة وامتداح مساعديه بالفتوى ، غير عابى بما يطوّقه من اللوازم العقلية التى ذكرناها قاضية عليه ... لا بد أن يكون شريكه فى اعتناق إحدى العقيدتين اللتين أقلمهما كفر بنبوة سيدنا محمد ونجوز وجود الكذب فى القرآن باعتبار أنه كلامه لا كلام الله ثم تأويله بأنه كذب فنى .. أو أنه كلام الدين فلا يقاس بمقياس الحقيقة

التاريخية لأن الحقيقة الدينية لا يمكن أن توضع تحت مصباح الذهن البشرى . وهذا الوجه الأخير الذى هو زيادة من الأستاذ توفيق الحكيم على تأويل صاحب الرسالة بوضع الإسلام مع المسيحية فى بوتقة ثم اعتبار مكان الحقيقة الدينية اسمى من كل حقيقة ... معناه الخفى فى كلام الكتاب المصريين قضاء على الأديان بلطف ولباقة . ومن عجائب المحاباة من الأستاذ الحكيم أنه يحكى فى العدد ١٥٦ من أخبار اليوم شكوى الأستاذ أحمد الشائب أستاذ الأدب فى الجامعة والفاحص للرسالة ثم القائل برفضها .. من كون الجهات الرسمية منعتهم من الكلام .. يحكى شكواه ثم يعلق عليها بما يحيل للقارىء أن الجهات الرسمية منعت الأستاذ صاحب الرسالة من الكلام لا الأستاذ الذى رفضها ورفضها .. يحكى الشكوى عائباً للمنع من الكلام ولايساعد جانب الممنوع منه الذى هو الأستاذ فاحص الرسالة ورافضها ، بل يتكلم مؤيداً لصاحب الرسالة المرفوضة كأنه هو الممنوع من الكلام . فهو أى الأستاذ توفيق الحكيم يؤيد المانعين بمناورته فى صورة المهاجمة عليهم ثم يتشدد محايياً لصاحب الرسالة الذى يراه ماشياً فى طريق الحرية الفكرية .. وهو طريق النهضة التى فاتحها فى مصر هو الأستاذ الإمام ، ومتقدماً فى مناورته ضد المتمسكين بكرامة الإسلام والقرآن من أساتذة الجامعة وهم قليلون مثل فاحص الرسالة جزاء الله عنى خيراً كثيراً ..

يتشدد فيدعو رئيس الحكومة - النقراشى بإسارحه الله - إلى مشاركته فى التكلم مصداقاً لما بين يديه من الرسالة الممقوتة ويتشدد أيضاً فى دعوة الرئيس إلى الكلام قائلاً : « ليس هو الذى يخيف الإنجليز بصوته فى مجلس الأمن وبصمته فى مجلس الوزراء ... ولكن الذى يخيف الإنجليز هو هذه النهضة الفكرية التى اعتقدوا أنها من الجامعة . وهذه النهضة الروحية اعتقدوا أنها سرت فى الشرق من مصباح الأستاذ الإمام !.. التقدم الفكرى والروحى فى مصر هو وحده مفتاح القضية المصرية ... وإذا جلت جيوش الاحتلال عن أرضنا .. فلائها لا تستطيع البقاء طويلاً أمام أشعة

عن الفكر والعرفان تعمى أبصارها .. وإذا حسب المستعمرون حساب مصر، فلا شيء يحشون تلك المنارة الفكرية والروحية أن تلاحقهم بأشمتها في العالم العربي » .

ثم انتهى تحكم الأستاذ الحكيم وتحمسه لترويج الرسالة الجامعية الطاعنة في أمانة القرآن والتي رفضته حتى الجامعة نفسها ... إلى تهديد رئيس الوزارة المصرية في أدق أدوار فلسطين وأحوجها إلى استقرار جميع الوزارات في جامعة الدول العربية المستمدة لمقاومة فكرة التقسيم العنصرية الظالمة مقاومة حربية ... انتهى تحكم الأستاذ الحكيم وتحمسه لترويج رسالة الأستاذ خلف الله المتقدمة إلى كلية الآداب لنيل الدكتوراه .. في تهديد النقراشي باشا بقوله :

« فالأمر خطير يا رئيس الحكومة إلى حد ، أطالبك معه بواحد من أمرين لا ثالث لهما : إما أن تدرأ في الحال الخطر المحقق بهذه المنارة الفكرية والروحية .. وإما أن تستقيل ! »

وأنا أقول لم يقنع حرص الأستاذ توفيق الحكيم على حل مشكلة الرسالة المشنومة المقدمة إلى كلية الآداب ولو كان في نجاح الرسالة ضعيفة مكان كتاب الإسلام في قلوب المؤمنين .. لم يقنع حرص الأستاذ على قضية صاحب الرسالة التي جعلها قضية لنفسه أيضا ، بحلها على الطريقة العلمية والعقلية .. بل راجع في انجاحها الطريقة السياسية فأراد كسب المسألة العلمية بالسياسة أى بقوة الحكومة .. حتى بنى على كسبها كسب قضية مصر .. وكفى هذا عيبا على الأستاذ المحابي واعترافا بضعف أدلته العلمية التي تمسك بها أولا في ترويج الرسالة .. وقد استحق تحوله هذا من الطريقة العلمية إلى الطريقة السياسية ، تعليقا طويل الذيل ربما لا يتحمله القام .

لكن لا بد من أن اتبسط بعض الشيء فأقول ان معنى ما قاله الأستاذ في هذه الأسطر الأخيرة ... معناه الخفى بالنسبة إلى بعض القراء والجلل بالنسبة إلى بعض آخر أن المسلمين ولا سيما العرب إن أرادوا وكانوا جادين في إرادتهم أن يكسبوا

قضاياهم المعلقة بينهم وبين الإنجليز وغيرها من دول الاستعمار فعليهم أن يضحوا بدينهم وتمسكهم بقرآنهم وعقيدتهم في قرآنهم . وليست هذه التضحية من قبيل مداراة الخصوم ومصانعتهم أو مخادعتهم ، بل في ذلك هدى للعرب إلى طريق النهضة وتحرر من الجمود والتأخر وإشراق للأمم الشرق بنور عرفان الغرب الذي اكتشف مصباحه الأستاذ الإمام ... وهذا النور الذي يصل مصر ببافيس ويربط مآذن الأزهر يبرج ليقل كما صوره الأستاذ محمد صبيح في غلاف كتابه السمي « محمد عبده » .. هو الذي يخيف الإنجليز وسائر المستعمرين على قول الأستاذ توفيق الحكيم ويعمى أبصارهم .

ولم يفكر الأستاذ في غرابة خوف الدول الاستعمارية من نور النهضة الفكرية التي اقتبسته مصر الشرقية من الغرب حتى أدى إلى جلاء جيوش الاحتلال عن أرضها .. أي غرابة ... فكانت هذه الحادثة كتحدى تلميذ مصارع لأستاذه الذي علّمه بعض حيل النجاح في المصارعة ولم يعلمه تمامها ... أو كما ظن الغافلون أن انسحاب جيوش الإنجليز والفرنسيين واليطاليين وأساطيلهم من استانبول بعد احتلالها في الحرب العظمى الأولى ، قد وقع خوفاً من قوة مصطفى كمال الحرية التي هزمت اليونان وأخرجتها من أزمير ، على الرغم من أنها أي اليونان كانت حليفة الدول المذكورة الغالبة ثم منتدبتها إلى أزمير .

وأصدق القول في تحليل هذا المقام أن الإنجليز وغيرهم من دول الاستعمار الكبيرة إن انسحبوا من بلاد المسلمين بمد ما استيقنوا نهضة أهلها الفكرية التي أخذوها من وحى المستعمرين أنفسهم فلا يكون ذلك خوفاً من بأس تلامذتهم في تلك البلاد الذين لاشك في أنهم لا يزالون ضعافاً بالنسبة إلى أسلافهم ، وإنما يكون حبا بأولئك للناهضين .. لكون النهضة الفكرية الموحاة إليهم - والتي وجد الأستاذ توفيق الحكيم أروع مثال لها في رسالة الأستاذ خلف الله المقدمة إلى كلية الآداب للجامعة فؤاد الأول فروّجها وناضل مستنكرها في صفحات أخبار اليوم بكل ما في يديه من قوة القلم

رغم أن الجامعيين لم يتقبلوها بقبول حسن ، ففاضلهم الأستاذ أيضا - تقريبهم من المستعمرين وتحبيبهم إليهم ، بقدر ما تبعدهم من الإسلام والقرآن الذى طعنت الرسالة المذكورة فى صميمها قائلة : « إن وجود شيء فيه لا يقتضى صحته » .

فالمستعمرون لا يخيفهم النهضة الفكرية المزعجة إيمان المسلمين بالقرآن بل تحبيبهم إليهم ، وإنما يخيفهم القرآن كما شهد به القول المروى عن غلادستون .. يخيفهم بقاؤه سليما ومؤمنا به حرفيا عند المسلمين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون . والذين إن يكن منهم عشرون صابرون يغلّبوا مائتين وإن يكن منهم مائة صابرة يغلّبوا ألفا من الذين كفروا .. والذين قد سبق أن مثلهم من السلف الصالحين ، نصرروا الله فنصرهم وكانت لهم الدولة والغلبة فى الأرض . فالمستعمرون يخيفهم القرآن والإيمان به حرفيا على أنه كلام الله الذى لا يتصور منه الكذب .. لا كلام محمد الذى يكفيه كذبا أن كان كلامه فعزاه إلى الله ... يخيفهم ويسخطهم المؤمنون به ، ويسرهم دخول ثلثة فى إيمان المؤمنين به ليفتحوا حصن الإسلام من هذه الثلثة المفتوحة ، فيجربون طبعها فاتحها بأيديهم من المسلمين الأخلاء .. حبا جما ويتخذون منهم سماسرة للقضاء على إيمان الباقين فيحبسونهم جميعا .. وربما ينجر هذا الانقلاب فى عقيدة الإيمان بالقرآن ، إلى كف أيدى الدول الكبرى الغربية عن بلاد الثقيلين عن صلابة الإسلام إلى حرية الزندقة والإلحاد . وهناقط اعترف للأستاذ توفيق الحكيم بإمكان الحصول للأمم الإسلامية على صداقة الدول الغربية .. فأى أمة من هذه الأمم رأت مصلحتها فى اختيار هذه الطريقة لكسب صداقة الدول الغربية والتخلص من عداوتها .. فلها ما تشاء من اشتراء الدنيا بالدين واستبدال عداوة الله بعبادة الدول أعداء الإسلام . ولا بارك الله فى نهضة أمة مسلمة تتنازل فيها عن إيمانها بصدق القرآن لتكتسب صداقة الدول غير المسلمة . كما ذكر فى قوله تعالى : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » .

فهذا مفترق الطرق في تحديد المسألة التي دخلها الأستاذ توفيق الحكيم وأبدى كثيراً من النشاط والتعمق في بحثها .. وكما أن الأستاذ لم يدخر جهداً في الوصول إلى النهاية التي قصدها حتى دعا رئيس الحكومة إلى حسم المسألة راجياً أن يفعل مثل ما فعل أسلافه في المسائل الماثلة التي ذكرها الأستاذ في العدد السابق من أخبار اليوم، كنماذج الأمثال للحكومة الحاضرة .. فإني أذهب إلى أكثر وأبعد مما طلبه الأستاذ في حسم المسألة .. بأن يكون الحسم مجاهراً لأساس الخلاف في الأحداث التي تظهر الغيبة بعد الفينة في الأوساط الفكرية وتثير ضجة تهز كيان الدين في قلوب المسلمين .. مجاهراً للأساس العامل في تلك الأحداث غير خاص بجزئيات المسائل والوسائل ... فليقرر المسلمون فيما بينهم : هل هم باقون على الإسلام وعقيدته التي تمسك بها آباؤهم ثلاثة عشر قرناً أفراداً وجماعات أي حكومات ، راضون عنها ومعترفون بها كما رضى آباؤهم واعتزوا ، مؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله وسائر ما أنزل في كتابه على خاتم أنبيائه كما آمنوا .. لا مؤمنون بيمض الكتاب وكافرون بيمض ولا متدينون أفراداً ولا دينيون حكومات ومسلمون أسماء وغير مسلمين في الأعمال والآداب، متبعين سنن غير المسلمين شرباً وبشر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلوه .. أم إنهم غير باقين ؟

يقوم الفينة بعد الفينة من سولت له نفسه بالخروج على الإسلام في ناحية من نواحيه الاعتقادية فيثور احتجاجاً عليه فئة من الغيورين على دينهم ، ويحميه منهم رجال من الوزراء المستبطين ما أظهره الخارج .. وإن لم يحمه حام محاب عاجلاً في المستقبل القريب أو البعيد ينال الرجل مكافأة خروجه بأضفاف ما كان له من المراكز والمناصب يوم خرج ونار عليه المسنكرون .. ويكون هذا المصير له غبطة لآخرين فتتكرر المهزلة في أيام آخر على مسائل أخرى مماثلة وتستقر بدعة استخراج فوائد عند قوم من مصائب الدين .. عادة مستمرة في بلاد الإسلام إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

هذا ولم يقف حرص الأستاذ الحكيم على تأييد الرسالة الطاعنة في أمانة القرآن ، عند دعوة رئيس الحكومة إلى العمل الحاسم .. بل دعا الله تعالى أيضاً إلى التدخل في الأمر ليصدق صاحب الرسالة في تكذيب ما جاء في القرآن . وهذا هو معنى الجملة الدعائية التي اختتم بها الأستاذ الحكيم قوله في العدد التالي لأخبار اليوم المنشور فيه مقال الأستاذ أمين الخولي المشرف على الرسالة معنوناً « إنها لحق .. ألقوا بي في النار » : « شهادة الأستاذ الخولي خطيرة وإنني أحب أن ألفت النظر إلى نقطة الخطورة فيها ، تلك هي قوله إن الأستاذ الإمام محمد عبده انتهى إلى مثل هذه الآراء منذ اثنين وأربعين عاماً .. إذا كان هذا القول صحيحاً كما يؤكد الأستاذ الخولي ، فلنا أن نطلب تعليلاً لما صرنا إليه . وعلى المسئولين من رجال الدين أن يوضحوا الموقف لأنهم لا يرضيهم أن يرجع إليهم في عهدهم - القهقري بعد نهضة إسلامية بعثها الأستاذ الإمام ، أما رجال الجامعة فيلصق بهم زميلهم الأستاذ الخولي في عقليتهم وخلقهم ، تهمة لا يدفعها عنهم غير دليلهم .. وهي إن صحت لكانت قديرة على هدم « التعليم الجامعي » من أساسه واقتلاع أهدافه من جذورها ... اللهم لا تخيب أملنا كله فيما حسبناه نهضتنا » .

أقول إن الأستاذ توفيق الحكيم يتحكم فيعدل عن محط النزاع الذي هو تهمة صاحب الرسالة إلى تهمة الجامعيين الذين اتهموه ، استناداً إلى قول الأستاذ أمين الخولي المشرف على الرسالة والتفق مع صاحبها في الرأي . لكن شهادة الأستاذ الخولي لا تُسمع ولا تنفع صاحب الرسالة المتهم - كشهادته لنفسه - وقد اتهموه مع المتهم لكون الرسالة وضعت تحت إشرافه ، فضلاً عن أن للأستاذ الهامى مقالة بل مقالات في مجلة « الرسالة » عن هذا الأستاذ الخولي وعن دروسه في الجامعة التي

هو أستاذ البلاغة فيها منذ عشرين سنة كما يقال ... مقالات حسبها قاضية عليه وعاراً على الجامعة^(١) .

وإني ألفت النظر إلى أن الأستاذ الحكيم يهّم باتهام الأستاذ الخولى للجامعيين للتهمين ولا يهّم باتهامهم له ، فإذا السبب لهذا الوضع المعكوس ؟ والجواب أن سند التهمين للرسالة مخالفتها لكرامة القرآن، وسند الأستاذ الخولى التهم للتهمين موافقة الرسالة لأراء الأستاذ الإمام .. وفى هذا مفتاح هذه الفتنه وما سبقها من الأمثال ... فن كان اهتمامه بكرامة الأستاذ الإمام فوق اهتمامه بكرامة القرآن لا يسمع كلام التهمين للرسالة ويفتح أذنيه بين إطار من كفيه لسماع من يتهم التهمين .

ومن أعجب المجائب أن التهمين لصاحب الرسالة من الجامعيين وغير الجامعيين يقطعون التهمة فى الرسالة والمشرف عليها ولا يمدونها إلى الأستاذ الإمام ، على الرغم من أن كلاماً من الأستاذين اللذين اتهموها دافع عن نفسه بإيراد جل من أقوال الأستاذ الإمام، تتفق مع الأقوال التى وردت فى الرسالة واتخذت تهمة لها والمشرف عليها ، كما يفهم أيضاً من قول الأستاذ الحكيم الذى نقلناه آفا . فذلك الأقوال إن صحت نسبها إلى الإمام فلا كلام عند الأستاذ الحكيم فى استحقاق الأستاذين التهمين لكسب القضية ضد متهميها وفى انتقال التهمة منهم إليهم .. بل وعلى مايلزم عندي أيضاً لا كلام فى براءة الأستاذين عن التهمة عند متهميهم أنفسهم إذ كانوا فى اتهامهم لا يمدونها إلى الأستاذ الإمام ، فكيف يصح أن يكون قول تهمة إذا قاله زيد ولا يكون إذا قاله عمرو .. وقد رأينا متهمى صاحب الرسالة والمشرف عليها على ما فيها من أقوال قال مثلها الأستاذ الإمام قبل اثنين وأربعين عاماً .. رأيناهم سكثوا إذا جاء دور

[١] فاقه الذى هو أبو السبيح عند النصارى أخو محمد، على قول الأستاذ الخولى فى محاضراته أو بمثابة الأخ يحاطبه يا أخى !! فكأن أستاذنا يقول : وهكذا يكون أستاذ البلاغة فى عصر الحرية والمساواة والديمقراطية وفى عصر التقريب بين الطبقات .

الكلام إلى اتهام الأستاذ الإمام وذلك عند تمسك الأستاذين المتهمين بأقواله دفاعاً عن نفسيهما وهم الآخرون يُتهمون بهذا السكوت إلا الأستاذ الشائب الممنوع من الكلام . وقد رأينا بين الساكنتين إذا جاء دور الكلام على الأستاذ الإمام الأستاذ علي الطنطاوي الذي من عادته أن يتظاهر متحمساً في مثل هذه الأدوار والذي قال عند إحدى حملاته المشورة في مجلة « الرسالة » : « لو قال ما نقلته عنها (يعني رسالة الأستاذ خلف الله) معتقداً به أبو بكر وعمر لكفر به أبو بكر وعمر وصاراً به أبا جهل وأبالهب . » فهل مركز الأستاذ الإمام في الإسلام أحسن من مركز أبي بكر وعمر ؟ .

ومما رأينا في هذه المسألة قول عميد كلية الآداب صديقنا الدكتور عبد الوهاب عزام بك تخفيفاً عن كاتب الرسالة : « إني فيما أعرف عنه وكما يبدو من كتابته شاب مسلم قصد أن يدفع عن القرآن بعض شبه الملاحدة أو رجال الأديان الأخرى فجاربه رأيه عن القصد وحاده اجتجاده عن سواء السبيل » وقد كتب الأستاذ الطنطاوي ما نقلنا عنه آنفاً ، معلقاً على قول العميد ومشدداً ... ولعل الدكتور العميد الذي شهد على إسلام الرجل ، غاب عنه أن الاعتداد بإسلام أحد مشروط بسلامة عقيدته وابتعاده في عقيدته عما يناقض الإسلام ، ولا يبرره قصد الدفاع عن القرآن بعد أن تضمن دفاعه التنازل باسم التأويل عن صحة القرآن في بعض ما ينطق به نصوصه ، فيكون ذلك قبولاً لدعوى أعداء الإسلام في القرآن لادفعا لشبههم .

وأخيراً انتهى أمر صاحب الرسالة رسمياً فيما قال عنه عميد الكلية ونقلناه قريباً إنه شاب مسلم لم تخرجه رسالته من الإسلام ، فقد انمقدت بأمر وزارة المعارف - على ما كتبه أخبار اليوم تحت عنوان « عاصفة تهدأ » - لجنة مؤلفة من أستاذ الشريعة

في كلية الحقوق ووكيل كلية الآداب ، تُحقق ماورد في تقرير الأستاذ أحمد أمين بك عن اتهام صاحب الرسالة بأنه ذهب في رسالته إلى ثلاثة أمور أولها أن محمداً فنان هذا القرآن وصانعه الخ.. وقد سلم صاحب الرسالة بأنه لو قال شيئاً من هذا كان كافراً، كما قال الأستاذ أحمد أمين بك إنه قال هذا فعلاً.. أما اللجنة الجامعية فقد قالت بالعكس: «.. أما القول بأن محمداً فنان بهذا المعنى فإنه قد يستنتج من عبارة الرسالة في آخر صفحة ١٢٥ وأول صفحة ١٢٦ ورأت اللجنة أن العبارة التي قد يُستند إليها في هذا ليست صريحة ولا قطعية الدلالة على معنى معين ، ولكن توجد في صفحة ١٦٩ من الرسالة عبارة أخرى تدل على أن الكاتب لا يعتقد أن محمداً فنان هذا القرآن وإنما يؤمن بأن القرآن نزل من السماء على أنه معجزة العرب الكبرى وأوحاه خالق مبدع منزّه عن كل ما يتصف به البشر » .

وأنا أقول لم أر الرسالة كما لم يرها الكثيرون^(١) وعابهم الأستاذ سيد قطب بأنهم حكموا عليها من غير أن يقرأوها . لكنني قرأت مع الناس في مجلة «الرسالة» لصاحب الرسالة وفي أخبار اليوم للأستاذ أمين الخولي المشرف على الرسالة، مقالات بتوقيعهما كافية في اتهام كل منهما ناصه على أن وجود شيء في القرآن لا يقتضي صحته ، وهما ينتقلان هذا القول عن الأستاذ الإمام ويتعززان بل يعترزان بالاستناد إليه في قطع أسنة التهمين . وفيهم الأستاذ أحمد أمين بك الذي لا يُتهم بالجمود وضيق الأفق في الأفكار الدينية . حتى أن الأستاذ المشرف قال في دفاعه عن الرسالة : « إنها الحق .. ألقوا في النار » وقد صدقه قرار اللجنة الأخيرة المؤلفة بأمر وزارة المعارف على براءة صاحب الرسالة . لكننا نحن لانستدل على تعيين الحق والباطل بقول فلان أو قرار لجان ، لاسيما وأماننا سوابق من الوزارات المصرية تحت الخارجين على الدين ، وكان اعتماد الأستاذ الخولي

[١] لأن أصحابها هربوها كما يهرب الحشيش تاجروه ولا عجب فإن أصحاب الرسالة أيضاً راموا تجارة المناسبات والمنافع في عصر العجائب ، وإنما المجب كون الحكومات يهصر لاتماق المهرين بل تكافئهم .

عليها في قوله الحماسي : « إنها لحق القوا بي في النار » لاعلى أنها حق يضحى بالنفس في سبيله ويكون المضحون عشاق الحق المحققين ، لا النساقين وراء شهرة الأستاذ الإمام والمقلدين لمن سمعوا من بعض أبطال علماء الغرب أنه قال مثل ذلك القول ... وإذا لم يكن فنان القرآن على فهم اللجنة الجديدة من قول صاحب الرسالة ، سيدنا محمد وكان فنانه هو الله انتقل احتمال الكذب السائق في الفن القصصى - على مذهب الرسالة - إلى الله .. ولا ينفع صاحب الرسالة ما كتبه في مجلة « الرسالة » دفاعا عن نفسه أن الأساطير التي ذكرها المشركون ردا للقرآن إليها وطنفاه ليست بمعنى الأكاذيب ، بل بمعنى الأقوال مطلقا ، واستدل عليه بقوله تعالى « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيل » واستدل الذي يعلم السر في السماوات والأرض « حيث تهتم الآية في رد قول المشركين بكون القرآن كلام الله لا كلام الأولين . واللجنة المؤلفة بأمر وزارة المعارف المشتعلة على عبدالوهاب خلاف بك أستاذ الشريعة لكلية الحقوق بجامعة فؤاد للنظر في رسالة الفن القصصى في القرآن والمقررة على براءتها من تهمة الطعن في القرآن ، إنما اهتمت بناحية براءة الرسالة من تهمة عدال القرآن تأليف سيدنا محمد لا كلام الله ^(١) ولم تهتم بما فيها من القول بأن القرآن لا يعنيه أن يكون جميع قصصه متفقة مع الحقائق والوقائع .. فؤلف الرسالة كالشرف عليها ليس لإبطال الاعتماد على ما يعرفه من مساهمة الوزارات المصرية في أمر الدين وضعف التمسك به في أوساط المثقفين الجدد المتملتين بتقليد المبادئ الغربية من ناحية وتقليد الشيخ محمد عبده من ناحية الذي أحدث بما أسرف من تأويلاته لنصوص القرآن مادية جديدة في الإسلام أو باطنية جديدة متمشية مع مادية الغرب . أما دفاعه عن الإسلام ضد أعدائه فقد تبخر بين تقهقراته

[١] مع أن في اهتمام صاحب الرسالة بنفى الجهل عن سيدنا محمد بالتاريخ عند ما يرى قصص القرآن مخالفة للحقائق التاريخية كما سبق نقله منا في هذا البحث عن المقالة المنشورة في « أخبار اليوم » - ما يوم بحق أن القرآن في نظر صاحب الرسالة تأليف محمد .

أمامهم .. وقد سبق أن ناقش الأستاذ فرح أنطون صاحب مجلة « الجامعة » مدافعا عن الدين ضد الملحاه ، وفي النتيجة ازداد مستبطنو الاتحاد بين النقيضين بمصر كما أشار إليهم الأستاذ فريد وجدى بك في مقالة من مقالاته وإني أسجله عليه في هذا الكتاب عند كل مناسبة .. ومعناه هنا أنه نجحت دعوى الأستاذ فرح أنطون ، ولم تنجح مدافعة الأستاذ الإمام .

ومن كتبوا في بحث رسالة الفن القصصى في القرآن الأستاذ سيد قطب صاحب كتاب « التصوير الفني في القرآن » لكن مقالات هذا الأستاذ التي كتبها في مجلة « السوادي » تمتاز بأنها حملت على الطرفين من صاحب الرسالة والأستاذ أمين الخولي الشرف عليها ومن الحاملين عليهما المهددين بإخراجهما من دائرة الإسلام .. وتمتاز أيضا بأنها كاشفة عن أسباب وأغراض حملت الأولين على إثارة الضجة على نفسيهما والرغبة في الفرقة التي تلفت النظر وتحدث حدثا يلفت عليه الناس .. والأخيرين أو البعض منهم وهو الأستاذ أحمد أمين بك والأستاذ حسن الزيات صاحب مجلة « الرسالة » على رد جميل الأستاذ أمين الخولي .

قال « فذكرت الوقائع ليعلم الناس أية مهزلة تكن وراء الموضوعات الجديدة . وكيف تُمنح أرق الشهادات العلمية وتمنع في جامعتنا الوليدة وكيف يصير الكثيرون ذكارة أو ماجسترات وكيف لا يصيرون ... ثم قال « ولكن ما شأن مجلة الرسالة ومحررها العباس وما شأن الأستاذ توفيق الحكيم ، وقد أرسل الأستاذ على الطنطاوى صيحته الفرقة الطنطائىوسل سيف الإسلام على رأس الطالب الجامعى وأستاذة . وبذلك وصلت المهزلة أول أهدافها »

والأستاذ قطب ، على الرغم مما ذكر في خارج الموضوع أمورا كثيرة لاتبني ، قد خدم الحقيقة في فتح عيون القراء وسجل على أن الخروج على الإسلام والقرآن بمصر يذهب بالخارجين إلى ماراموه من الوظائف والناصب ، قال : « ثم تمضى خطوة

إلى الأمام فتجد رجالاً من رجال الدين ورجالاً من المحترفين حماية الدين لم يطلع أحد منهم على الرسالة ولم يحقق قضايا ومواجهها ولم يعلم أكثر من إشاعة تشيع، أو تلخيص ينشر، أو تقرير لا يكون سواباً .. ترى هؤلاء الناس لا يحترمون أنفسهم ولا يحترمون إسلامهم الذى يوجب التثبت قبل الحكم، يثيرون ضجة حمقاء شعواء، يرفعونها إلى القصر ويصرخون بها فى الطرقات .. ويهتفون بها فى الصحف أحرقوا الرسالة اطرءوا انطوى من الجامعة طلقوا زوج الطالب الجامعى ... مهزلة لا تقع إلا فى مصر .. وحاققة ليس وراءها تمقل، وضجة ينقصها الإخلاص الصحيح .

« ووقف الطالب الجامعى خلف هذه المهزلة يندبها بالوقود كلها هدأت والدنيا لا تكاد تسمعه من الفرح وأحسبه قد أعد نفسه عميداً لكلية الآداب ثم مستشاراً فنياً لوزارة المعارف أو يمد نفسه لأن يكون وزيراً للأوقاف ... ألا يعرف مثله أن الضجة التى ثارت حول كتاب « الأدب الجاهلى » للدكتور طه حسين بك هى التى جعلته عميداً لكلية الآداب ومستشاراً فنياً بعده ؟ ألا يمتدح مثله أن الضجة التى ثارت حول كتاب « الإسلام وأصول الحكم » للأستاذ عبد الرازق بك هى التى جعلته كذلك وزيراً للأوقاف ؟

« فلماذا إذن لا يرشح نفسه لأحد هذه المناصب ، ونحن فى مصر . والضججات الحمقاء التى يثيرها رجال الدين والمحترفون حماية الدين حول هذه الموضوعات ترفع الذكر وتنشر الصيت وتغير الأقدار . »

أقول فهل على رأى الأستاذ قطب خير للذين أثاروا الضجة من رجال الدين والمحترفين حماية الدين على الطالب الجامعى أى صاحب رسالة « الفن القصصى فى القرآن » وحمقهم الأستاذ .. خير لهم أنفسهم بل خير للدين نفسه أيضاً أن لا يثيروها عليه فيخدموا من حيث لا يشعرون أغراضه المفكرة فى اكتسب الشهرة وتصيد المناصب

بواسطة الخروج على الإسلام والقرآن ؟ فقد أصبح مبلغ الفساد بمصر في رأيه إلى الحد الذي لو قلت للخارج المعتدى على كرامة الإسلام وقداسة القرآن : « أسأت » كان تأثير قولك هذا عند الرأي العام الحاكم في تقسيم المناصب أو في تمييز السوء من المحسن .. كأنك قلت له : « أحسنت » !!

أم إن الأستاذ لا يرى في رسالة الطالب الجامعي ولا في تأييد أستاذه المشرف عليها ما يستحق الضجة التي أثارها عليهما المثيرون ؟ وإنما يرى خطأ الطالب بل وأستاذه المشرف على رسالته أيضا - الذي يراه الأستاذ قطب في أزمة نفسية وقد حكاه مفصلة في مقالاته - في قياس نفسيهما على الدكتور طه حسين بك والأستاذ علي عبد الرازق بك كما يفهم من قول الأستاذ بمد أقواله المنقولة آنفا : « وليس صغار الطلاب مكلفين أن يدركوا أن للدكتور طه حسين بك مواهبه الذاتية وأن للأستاذ علي عبد الرازق بك ميزاته الشخصية والعائلية .. فهم معذرون إذا رأوا هذا الطريق جيد التوصيل » أقول وهل هم معذرون أيضا ومهمهم الأستاذة المشرفون عليهم ، في التלב بكرامة القرآن ابتغاء لنيل المناصب العالية ؟ ومن عبّدهم طريق التوصيل هذه ، إن كان الذين اتخذوهم قدوة لهم نالوا ما نالوا بمواهبهم وميزاتهم ، لا بما ابتدعوا في القرآن والإسلام ما عيس كرامتهما كرمولماذا لم يحل - على الأقل - شذوذهم هذا بينهم وبين المناصب المذكورة التي نالوها في بلد إسلامي عريق ولو بمواهبهم وميزاتهم ؟ وعلى كل حال فلا يفهم موقف الأستاذ قطب من اتهام الطالب الجامعي وأستاذه المشرف على رسالته ، بقدر اتهام المثيرين عليهما الضجة من رجال الدين ومن الذين سماهم المحترفين حماية الدين ، وإن كان مذهب الأستاذ لا يتفق مع الأولين في تصور التصوير الفني في القرآن ، بمعنى أنه يراه أعلى شأنًا من عرض قصصه على تصديق المؤرخين من أهل الغرب والشرق ثم تأويله عند الاختلاف معهم بالمساحة الفنية . ومع هذا لا يبت الأستاذ في فساد مذهبهما بل وفي صحة مذهبه نفسه أيضاً ، حيث

قال في آخر مقالاته الثالثة المنشورة في مجلة « السوادى » بعد إيضاحاته القيّمة المسفرة عن إعظام القرآن :

« وبعد فلست أنكر أن شبهات اعترضت طريقى وأنا أبحث موضوع القصة في القرآن ومشاهد القيامة في القرآن أهذا كله مسوق على أنه حاصل واقع ؛ أم أن بعضه مسوق على أنه صور وأمثال ؟

« وقفت طويلا أمام هذه الشبهات ولكنى لم أجد بين يدي حقيقة من حقائق التاريخ أو حقائق التفكير فاطمئن إلى يقينيتها وقطعيتها ، فأحكم القرآن إليها وما كان يجوز لى أن أحكم القرآن إلى ظن أو ترجيح .

« ولم أكن في هذه الوقفة رجل دين تصدّه العقيدة البحتة عن البحث الطليق بل كنت رجل فكر يحترم فكره عن التجديف والتلفيق .

« فإذا وجد سواى هذه الحقيقة التى يحاكم إليها القرآن فإنى على اعتماد أن أستمع إليه فى هدوء واطمئنان » .

أقول : لا يحتاج إلى البحث والتنقيب عن حقيقة من حقائق التاريخ أو التفكير ليحكم إليها القرآن ، إلا من يخالج قلبه الشك فى كونه كلام الله الذى لا تحوم حوله شبهة الكذب . وبعد استيقان أنه كلام الله يكون البحث فى حاجة إلى حقيقة تاريخية أو تفكيرية ليحكم إليها ، تناقضا لا يقبله منطق الفكر والمقل قبل الحقيقة التاريخية التى لاتعدل الحقيقة الفكرية والتى يقول عنها الأستاذ حسن الزيات فى مجلته عدد ٨١٦ التاريخ مادته عمل ابن آدم وابن آدم حيوان كذاب لا يقول الحق على نفسه ولا ينقل الصدق عن غيره إلى آخر ما قال فى مقالة برأسها عن منزلة ما يسمونه الحقائق التاريخية بالنسبة إلى الحق وأحسن كل الإحسان .

وأنا لا أقول هذا القول كرجل دين تصدّه العقيدة البحتة عن البحث الطليق ،

بل رجل عقل ومنطق يصدانه عن التناقض المستحيل ويحترم دينه وعقيدته في ضمن احترام العقل والمنطق ، وليس رجل الدين في الإسلام من يكون في واد والعقل والمنطق في واد آخر ، بل هذا الرجل أشد تمسكا بالعقل والمنطق من غيره كما يتبين قارئ هذا الكتاب ، حتى إنى أرى الأستاذ قطب الذى يقول في مقالته المارة الذكر : « إن الذهن البشرى خليق بأن يدع للمجهول حصته » دون رجل الدين في تقدير العقل الذى لا يلتبس عليه المحال بالممكن ، قيمته فهو أقوم قسطاس في الفصل بينهما وليس له أن يدع للمجهول حصته في هذا التمييز. ومادام يعرف هو أى العقل حدود الممكن والمحال بمبادئه الأولى التى فطره الله عليها فى إمكانه أن يدرك بسهولة ما يصلح لأن يكون متعلقاً لقدرة الله وهو جميع الممكنات التى لا حد لها ولا حصر وما لا يصلح له ، وهو ينحصر فى أمور معينة مستحيلة يعرفها العقل بالبداهة الفطرية كجمع النقيضين ورفعهما والدور والتسلسل. فالعقل المقيد بقوانينه الخاصة مهما كان طليقاً فليس له أن يكون أداة شبهة فى العقيدة الدينية المتعلقة بالقرآن الذى هو كلام الله ، إلا أن ينطلق خارقاً لقوانينه نفسه. فهو أى العقل الحر فى دائرة قوانينه الخاصة حسب المسلم نبزاً فى إدارة طريقه إلى أصول العقائد الدينية. ولذا قال خضر بك أستاذ السلطان محمد الفاتح العثمانى وأستاذ المحقق الخيالى أيضاً صاحب التعليقات الدقيقة على شرح العلامة التفتازانى للعقائد النسفية ، فى قصيدته النونية الكلامية :

وواقع كل ما نص الصدوق به من ممكن كصرط أو كيزان
 قصص القرآن كلها ومشاهد القيامة المذكورة فى القرآن كلها ما دامت من
 الممكنات وما دام الله قادراً على جميع الممكنات - كما هو مقرر فى علم الكلام - فلا
 وجه لصاحب العقل وصاحب الفكر الحر أن يتردد فى قبول ما ورد فى القرآن منها كما
 ورد .. فلو عرف الأستاذ قطب هذه الحقيقة الوجيزة التى يتضمنها بيت خضر بك ،

أو لو لم يكن الأستاذ أجنبيا عن العلوم الإسلامية لحد أن لا يعرف أن الله قادر على جميع الممكنات ، أو لو لم يكن غافلا عن عدم جواز وضع حد للممكنات الواسعة الحدود إلا بالهال .. لما احتاج إلى أن يقول : « وبعد فلست أنكر أن شبهات اعترضت طريق وأنا أبحث موضوع القصة في القرآن ومشاهد القيامة : أهذا كله مسوق على أنه حاصل واقع ؟ »

نعم ، تلك الشبهات التي اعترضت طريق الأستاذ قطب والتي اعترض أكثر منها طريق غيره مثل الطالب الجامعي وأستاذه الخولي ومن سبقهما من أصحاب الفن بمصر .. تلك الشبهات اعترضت طريق كثير من الناس^(١) بعد مقررات وضمها الأستاذ الإمام قبل أربعين سنة وضع بها حصن القرآن من مركزه الراسخ في قلوب المؤمنين فتضمنت تأويلاته الموجهة نحو المغييات مطلقا أو بالنسبة إلى أهل الأزمنة البعيدة عن زمان الأنبياء مثل الملائكة والشیطان وأحوال القيامة والمعجزات ، نفي هذه الأمور نفيا مؤولا !.. وقد صرح بذلك الطالب الجامعي وأستاذه في الجرائد والمجلات عند الدفاع عن نفسيهما أمام الضجة المثارة ضدما من رجال الدين وتحميدام بنقل كلمة الأستاذ الإمام الناصئة مثلا على أن وجود الشيء في القرآن لا يقتضي صحته ووقوعه .. وقد كان وجود الشيء في القرآن حجة عند المسلمين بصحته لا تمدلها حجة ولا يتناولها تأويل ، إلا إذا كان الحل على ظاهره يستلزم محالا عقليا كقولته تعالى « الرحمن على العرش استوى » و « جاء ربك » .

فإذا لم يقتض وجود شيء في القرآن صحته ووقوعه مع كون وقوعه في متناول قدرة الله لعدم استلزامه المحال العقلي بمجرد استبعاد المستبعدين الذين لا يقدر الله

[١] والأستاذ قطب الذي لم يأل جهدا في الاطعام بشأت القرآن ولم يرضى لله عنه محاكمة نصوصه إلى حقيقة تاريخية أو تفكرية ، فهو أقرب الضالين في تقدير القرآن ، إلى الهدى . وإنى أتمنى له تمام الهداية إلى أن لا يكون عنده مسألة جديرة بأن تسمى حقيقة تاريخية إذا كان كلام الله نزل على خلافها .

حق قدره ولا القرآن الذى هو كلام الله حق قدره ولا سعة حدود الممكنات التى يدخل جميعها تحت قدرة الله حق قدرها .. فاذا يكون معنى قداسة القرآن التى يعترف بها الأستاذ قطب؟ وماذا يكون الفرق بين كلام الله وكلام البشر؟ أم القداسة المعترف بها للقرآن لا تبلغ مبلغ أن يكون كلام الله؟

فهذه النقطة المنتهى إليها الكلام هى منبع جميع المشكلات والشبهات فى موقف القرآن التى تنتاب أفكار المصريين من كتاب مصر وعلمائها بعد أستاذهم وإمامهم الشيخ محمد عبده ، التى تختلف شدة وخفة باختلاف أشخاصهم ، أو قل إن شئت : بالنسبة إلى شدة إيمانهم بالشيخ وضعف إيمانهم بالقرآن! .. وإذا فكرت وتعمقت فى التفكير فأدنى شك فى قداسة القرآن وأقل استبعاد لصدقه فى جميع ما نص عليه يمان الله على أنه شك فى كونه كلام الله بدلا من كونه كلام محمد ، ثم يُمدى الشك نبوته صلى الله عليه وسلم بل نبوة جميع الأنبياء فيتركز فيها بل يتقوى ويتحول إلى النفي البات بإنكار المعجزات التى هى شواهد نبوتهم وقد اشتهر هذا الإنكار من كتاب مصر وعلمائها المصريين ، حتى ظن الدكتور توفيق الطويل مدرس الفلسفة بجامعة فاروق أن ابن خلدون شذ فاعترف بالمعجزات من غير تأويلها بما يخرجها عن كونها خارقة لسنة الكون ، مع أن جميع علماء الإسلام متفقون قبل ابن خلدون وبعده فى الاعتراف بها من غير تأويل .. وليس الشذوذ فى ابن خلدون المعترف بل فى الأستاذ الإمام المؤول ، إذ التأويل كما يخرج المعجزات عن كونها خوارق ، يخرجها أيضاً عن كونها معجزات . ولا يفرنك قولهم : « إن المعجزات غير القرآن شبهة لا حجة » أنهم يعترفون بمعجزة القرآن باعتباره معجزة عقلية وإنسانية وخارقة - وقد سبق منا شرح قولهم هذا - كما أن ذلك الاعتبار الخاص منهم بالقرآن تستر فى إنكار معجزة القرآن ، وهم ملاحدة مستبطنون كما وصفهم الأستاذ فريد وجدى بك - متظاهراً باستثناء نفسه من بينهم -

في قوله الذي أردده كثيراً في هذا الكتاب ، لا مجاهرون ، وإلا فإعجاز المعجزة ليس إلا في خرقها لسنة الكون .. ولا بد أن تكون معجزة القرآن كذلك .

وعند ضم إنكار المعجزات التي هي شواهد صدق الأنبياء في دعوى نبوتهم ، إلى عدم تصديق القرآن في كل ما حكاه عن الأنبياء وغيرهم ، كما علم القارئ من رسالة الفن القصصى في القرآن .. ثم تجريد النبي في التمرير الذي ذكره الشيخ محمد عبده له ، من خواص النبي المعروف في الإسلام - لاسيما من أخص خواصه الذي هو الوحي وسيأتى بحثه في هذا الكتاب - ثم إنكار وجود الملائكة الذين ملك الوحي منهم وتأويلهم بالأرواح والقوى .. ثم النظر إلى اجتماع هذه الإنكارات في الشيخ - يكون الإنسان معذوراً في سوء ظنه بدين هذا الشيخ الذي هو أستاذ وإمام عصر الفن الدينية بمصر وسند مؤلف رسالة الفن القصصى وأستاذ المشرف على رسالته - سندهما الذي أصمت اسمه السنة الثاثرين عليهما - موجهاً ذلك الظن السيئ الذي يكاد أن يكون يقيناً ، إلى إيمانه بالنبوة . وقد عرفت ماهية هذه الإنكارات عدا إنكار الملائكة ودرجة منافاته لمقيدة الإسلام .

أما إنكار وجود الملائكة - ومثله إنكار وجود الشيطان الذي لم يهمله الشيخ أيضاً^(١) - فإني لا أقضى العجب من جرأة الشيخ على هذا الإنكار من غير إكترات منه بمصادمته آيات جد كثيرة من القرآن ناطقة بوجود طائفة من عباد الله تسمى ملائكة .. ولا يمتنى زيغ الشيخ وضلاله في دينه إذا اعتدبت أنا وسلم المسلمون من سراية زيفه إليهم .. ولكنه يمتنى كل العناية إذا رأيت يجر من ورائه الجيل الحاضر

[١] وقضية الشيخ شلتوت عضو هيئة كبار العلماء ومنكر وجود الشيطان غير مبتكر في هذا الضلال بل تابع الأستاذ الإمام .

من مثقفي المسلمين الذين سحرتهم شهرته في التجديد ولم تكفل لهم ثقافتهم بالتمييز بين الحق والباطل من الجديد .. وقد كان الإسلام القديم يسمّى الحادث بدعة ويأخذ حِفْزه في انتقاء النافع منه لا يفره كل ما هب ودب ، ولا يقول لكل جديد لذة .
قال الشاعر :

لكل جديد لذة غير أني وجدت جديدا الموت غير للذيذ
فلن لم تُجدِ عنايتي بوزن مبتدعات الشيخ محمد عبده في ميزان التحقيق ،
ما تستحقه من الاهتمام والالتفات في الجيل الحاضر بمصر لانفلات أزمة عقولهم إلى
تقليد الشهرة الواصلة إليهم من الغرب والشرق ... فسيهت بها الجيل الآتي إن شاء الله
وهو شهيد على أني قد بلغت .

نصوص كتاب الله على وجود طائفة من عباده تسمى ملائكة

وهي جمع ملائكة على الأصل لأن الهمزة متروكة بكثرة الاستعمال .. فلما جمعوها ردوها . وهو مقلوب مآلك من الألوكة بمعنى الرسالة .. سُموا به لكون الطبقة العالية منهم رسلا بين الله والناس . وقد اختلف علماء الإسلام في المفاضلة بين الملائكة والبشر ، لكن الراجح تفضيل رسل البشر على رسل الملائكة وتفضيل رسل الملائكة على عامة البشر وتفضيل عامة البشر على عامة الملائكة ، والدليل على هذا الترتيب مذكور في الكتب الكلامية .

وعلى كل حال فهم يوصفون بما يوصف به ذوو العقول والحياة يتلقون القول ويقولون ويخاطبون كما يخاطبون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ولا

يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون . وأول شاهد على ما قلنا تسميتهم بالملائكة التي هي بمعنى الرسل ، وقد قال الله تعالى : « الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس » وقد قال : « الحمد لله قاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أول أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير »^(١) والمراد من الرسول في قوله تعالى في سورة التكوير : « إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند العرش مكين مطاع ثم أمين وما صاحبكم بمجنون ولقد رآه بالأفق المبين » - جبريل عليه السلام ، وفي وصفه بذى قوة مانع آخر عن تأويله بالقوة ، وإلا كانت للقوة ، قوة .. ومثله قوله تعالى في سورة النجم : « علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى ما كذب الفؤاد ما رأى » لأن المراد من هذا الملم الشديد القوى أيضا جبريل .. فهل تصلح القوى التي أول بها الشيخ محمد عبده الملائكة ، أن توصف بالتعليم ؟

ولا ينحصر تعبير القرآن عن الملائكة بالرسل فيما ذكرنا ، قال « ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بمجل حنيذ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط .. ولما جاءت رسلنا لوطا سمى بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخرجون في ضيقي أليس منكم رجل رشيد قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما تريد قال لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد قالوا يا لوط إنا رسل

[١] كنت قرأت في « منبر الشرق » الأغر لرجل يكتب فيه الفينة بعد الفينة : أن ما في كتب التفسير من الملائكة ذات الأجنحة حديث لإسرائيل لا أصل له . فلعل الرجل لا يقرأ كتاب الله أو لا يبول عليه تمويله على أقوال الأستاذ الإمام .

ربك ان يصلوا إليك فاسر بأهلك بقطع من الليل .. الخ » وفي هذه الآيات دلالة ظاهرة على أن الملائكة مستعدون للظهور في غير صورتهم الأصلية كما ظهر المرسلون منهم إلى قوم لوط في صورة أناس من الشبان الحسنان .

فمن سولت له نفسه إنكار وجود الملائكة وتأويلهم - من غير داع - بغير ما نعرفه نحن المسلمين وعرفنا القرآن أى القوى والأرواح ، ومن غير اكترات بما في تأويله من إلغاء جميع ما جاء به كتاب الله للملائكة من الأوصاف الكثيرة المختلفة التى لا تنطبق على غير ذوى العقل والشعور والحياة ، مثل « عباد مكرمون » و « الملائكة المقربون » و « الملائكة يشهدون » و « يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا » و « الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ، ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون » و « يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون » « لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون » ... وجميع ما فيها من صيغ الجمع جمع العقلاء والضمائر ضمائر العقلاء - فهو^(١) مجنون مصاب في عقله إن لم يكن مصاباً في دينه^(٢) .

[١] جواب « من سولت له نفسه » في صدر الكلام

[٢] مفرطاً في احترام نصوص الله في كتابه ... وليس بشيء ما يقوله اصحاب هذا المفرط المغترون بمقرراته مثل الطالب الجامعى صاحب الرسالة الممقوتة وأستاذة الشرف على رسالته : « ان إيمان المؤول يكون أقوى من إيمان المستسلم بنصوص القرآن في القصص وغيره من غير تأويل » فأى الإيمائين أقوى من رجلين يؤمن أحدهما بوجود الملائكة المذكورين في كتاب الله بأوصاف مختلفة لا تنطبق إلا على الكائن الحى العاقل فيؤمن بوجودهم طبق ما ورد في الكتاب من غير حاجة إلى تأويل يغيرهم عما ورد ، ولا يؤمن أحدهما بوجودهم إلا بتأويل يغيرهم إلى حد أنه ينفيهم ، كأن قدرة الله لا تسع إيجاد المنصوص عليهم بعينه لكون المؤول العاقل يظنه محالاً عقلياً كما قال الله تعالى « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » .

وهل لا يخاف منكر الملائكة قول القرآن : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله والملائكة والكتب والنبيين » وقوله « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله » وقوله « ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا » . فهذه الآيات صريحة في كون الإيمان بالملائكة من أركان الإسلام ، معدوداً في صف الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر .. والشيخ محمد عبده إمام وأستاذ مصر الحديثة ساء عن هذه الآيات المروعة أو لاه . وقد أدهشني مما كتب الطالب الجامعي المار الذكر دفاعاً عن رسالته في الفن القصصي وأسوة بإنكار الأستاذ الإمام كثيراً مما جاء في القرآن، قوله المنشور في مجلة « الرسالة » عدد ٧٥٠ عن إنكار الملائكة الكاتبين لحسنات الإنسان الملازمين لجانبه الأيمن والكاتبين لسيئاته الملازمين لجانبه الأيسر : « هل ترى شيئاً من هؤلاء الملائكة مهما طال نظرك إلى جانبك » كأنه يتهمكم أو يماند قوله تعالى : « وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون » وقوله : « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » .

والذين ينكرون وجود الملائكة بحجة أنهم لم يروا أحداً منهم إلى الآن فيسندمون « يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ، هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً قل انتظروا إنا منتظرون » يندمون « إذا دكت الأرض دكا وجاء ربك والملك صفا صفا » وأما نحن فلا نؤول من هذه الآيات إلا بحجى الرب لتزهره عن الأوصاف الجسمانية كالحركة والسكون ونؤمن بما عدها كما ورد ، من غير تأويل .

آيات الملائكة في كتاب الله كثيرة جداً^(١) لا نتحصر فيها ذكرته بمناسبة الرد على أصحاب فتنة الفن القصص في القرآن الذين جرّأهم على إيقاد نارها أقوال الشيخ عبد مقبل اثنتين وأربعين سنة في الخروج على نصوص كتاب الله فنبذوها وراء ظهورهم وتحسكوا بأقوال الشيخ . ولهذا فإني بعد حدوثها وتبين ما يعتمد عليه محدثوها ومؤيدوها عند دفاعهم عنها ، كتبت مقالة وصوبت حملاتي فيها على الشيخ المذكور وأرسلتها إلى مجلة « لواء الإسلام » ثم سمعت أن صاحبها سعادة أحمد حمزة بك يأبى نشرها قائلاً : « أنا لا أنشر مقالة في مجلتي ضد الشيخ محمد عبده » وهذا على الرغم من أني كنت تلقيت من سعادته وهو متأهب لتأسيس مجلته ، خطاباً يبدى رغبته في مقالاتي ، وكنت يومئذ كتبت جواباً أنصح له فيه وأذكر نوع مجلة دينية تحتاج إليها البلاد الإسلامية في عصرها الأخير ، ثم لا أدري ما بدا لي فكففت عن إرسال هذا الجواب إليه واكتفيت بحفظه عندي .. إلى أن كتبت مقالتي في نقد مبادئ الشيخ محمد عبده وأرسلتها إلى مجلة لواء الإسلام فلم تحظ بالقبول فتبينت منه إصابتي في عدم إرسال مقالة التصحح وتبين أنه لواء الإسلام الذي يهجمه الأسماء والأهواء أكثر من الإسلام نفسه ، فقد يقوم واحد من علماء مصر يحارب العلماء ويتجرأ على تغيير مبادئ الإسلام المروفة عند المسلمين ويقول إن وجود شيء في القرآن لا يقتضي صحته ، فيجيز له هذا اللواء ذلك ولا يجوز أن يتجرأ أحد على التجري .

ولإني قد رأيت أن أنشر هنا مقالة النقد على الشيخ والمقالة التي كتبتها جواباً لخطاب صاحب اللواء المتضمن طلب مقالات مني لنشرها في لوائه والتي كتبتها ثم لم أرسلها .. رأيت نشر المقالتين هنا بادئاً من ثأنيتهما ليحكم القاري بيننا ثم يحكم الله وهو خير الحاكمين .

[١] وهناك حديث مسلم وأبي داود والترمذي والنسائي عن عمر بن الخطاب : « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره » .

المقالة التي كتبها جوابا على خطاب سمادة الأستاذ أحمد حمزة بك ثم عدلت عن إرسالها إليه :

حضرة الأستاذ الكبير صاحب مجلة لواء الإسلام الفراء
تحية وتكريما ثم مباركة عطرة لأثركم الخطير وسؤالا مرفوعا إلى الله تعالى أن
يؤيدكم بتوفيقاته إنه سميع قريب مجيب .

وبعد فإن مصر المحروسة لم تعدم ذوى همّة من القادرين في العلم والأدب والمال
تتابعوا بعد أن وضعت الحرب أوزارها في وضع الكتب وإصدار الصحف والمجلات ،
بل سبقوا وضع الحرب أوزارها بوضعهم ذاك ، كما لم ينقص هذه الموضوعات في مجلتهم
ما ينحون نحو الدين ويعنى المسلمين . لكن أعظم الواجب في التأليف والإصدار أن يسد
فراغا محسوسا ويقضى حاجة ملحة من حاجات الزمان ، فهل قام بهذه المهمة في ناحية
الدين أحد المؤلفين والمصدرين في هذه الأيام الأخيرة ؟ ولا أعد من القيام بها ما كتب
أو يكتب في هذه الناحية ويهدف إلى التزديد في المعلومات أو الحث على الباقيات
الصالحات والردع عن المنكرات ، لأن حاجة الزمان في مسألة الدين غير هذا وأهم من
هذا .. ألا وهي مسألة الفصل في أمره ووضعه من أساسه إلى الميزان ، حتى ينجلى
الحكم والحسم في هل له أصل ثابت يقوم عليه ، كما كنا نحن المسلمين نعتقده غير
مدخرين في سبيل الاحتفاظ بهذه العقيدة كل نفيس ورخيص عندنا وشاركنا فيها
الجادون من أهل الأديان الأخرى ... أم إنه خرافة من الخرافات يُعد استمرار العاقل
في التمسك بها غفلة ورجمية لا تليق بمصر العلوم ؟

ولا يقال لي من أين هذا الاحتمال المظلم المتشائم في موقف الدين حتى يلزم أن
يحتاج المؤمنون به إلى وضعه في الميزان ليكونوا على بينة حاسمة من أمره ؟ إذ مما لا شك
فيه ولا مساغ للتفاضى عنه أن دين الأجيال الأخيرة من المسلمين بل من جميع النتمين

إلى الأديان أصابه ضعف ظاهر في نفسه يرى آثاره أولاً في إهمال العبادات أو الاجترار على المحرمات المسفرين عن التقصير والتفريط في معاملاتهم مع الله ، ثم يرى آثار ذلك الضعف في ضياع الأخلاق التي يقوم عليها نظام معاملات الناس بعضهم مع بعض .

ومما يلفت إليه أن هذا الضعف في الناحيتين إن كان يبدو الثانى منهما كثيراً بين العامة ، فالأول يبدو كثيراً وواضحاً بين الخاصة ولا سيما الخاصة المثقفة المعصرين .. فلا يوجد من يصلى ويصوم فيهم إلا نادراً ولا يُسمع صوت الأذان في دور الوزارات وكليات الجامعة وسائر المدارس الحكومية يدعو الموظفين والمدرسين والطلاب رسمياً إلى الصلاة بالجماعة في مساجدها التي لا بد أن تشتمل عليها تلك الدور ، والمحافظون على الأخلاق من الخاصة المثقفة إنما يحافظون أو يتظاهرون بها لئلا يكونوا شراً مثال للعامة الذين يحتاجون إلى كونهم محافظين أكثر منهم أنفسهم ليستقر الأمن في المجتمع ، بل الواقع أنهم إذا اعترفوا بلزوم الدين نفسه فإنما يعترفون بلزومه للعامة ولا يؤمنون به لأنفسهم ، ولا بلزومه للعامة إلا ليكون واسطة إلى حفظ أخلاقهم ، فكأنهم أنفسهم ليسوا في حاجة إلى الدين حتى الاحتفاظ بالأخلاق .. مع أن الأخلاق لا تستقيم بلا دين ولا يكون الدين المقصود لغيره ديناً صحيحاً ولا واسطة يوثق بها في حفظ الأخلاق ، كما لا يصح الاعتماد على دين العامة وصلاحهم ، من غير دين في الخاصة ولا صلاح يقوم على الدين أو بالأصح من غير دين في الحكومة . فعدم الدين في الخاصة المثقفين الذين تتشكل الحكومة أيضاً منهم منشأ كل شر وفساد في المجتمع ، والدين مع ضعف وشبهة في العقيدة مساو لعدم الدين . ولا ينفع في معالجة هذا المرض الاجتماعي نشر المقالات الناصحة في الصحف والمجلات إذا كان الفساد في الكتائب الناصحين .. فهم يكتبون ما يكتبون إما لينالوا فيه مكسباً أو ليعمل به غيرهم . ومادامت الخاصة المعصريون على شك في عقيدتهم الدينية غير مثبتين - ويكون أكثر الكتب

منهم في زماننا - فلا بد أن يكونوا متخبطين فيما كتبوا أو غير مأمونين من التخبط، فلا خير للمجتمع منهم ومن العامة التي لا بد أن يكون لزيغ الخاصة تأثير فيهم .

فأعظم الواجب لكاتب الزمان في الدين تصحيح عقيدة الخاصة ، وحاجة الأمم الإسلامية الأولية اليوم ترتكز في الاهتمام بمداواة خاصتهم قبل عامتهم .. حتى إن أخطر مرض اجتماعي في الزمن الحاضر وهو الشيوعية والبلشفية وإن كانتا تأخذان مادتهما وقوتهما من العامة ويتظاهرا دعائهما بادعاء أن كل الكسب فيهما للعامة ، لكن الرأي والتدبير في نجاح الثورة الشيوعية والبلشفية وتمشية نظامهما بعد النجاح يكون التمويل فيهما على عقول الخاصة الماكرين وهما نفسيهما من شباك الصيد الجديدة لهم النصوبة للعامة والخاصة .

ولنا أن نقول في تحليل المرض الحاضر إن الخاصة المثقفين كان يوجد فيما بينهم قدما مقصرون في العبادات والمجتثون على المحرمات ، ومع هذا لم يكن مستوى الدين في المجتمع نازلا الى هذا الحد الذي نراه في الأجيال الأخيرة بعد أن اتصل الشرق الإسلامي بالغرب وأنت منه إلينا مع أنواع الملامى المتنافية مع الدين من ناحية العمل ، عقليات أفسدت عقيدة الدين وأصبح تأثير هذا الوباء الثانى ظاهراً في الخاصة المثقفة . فأخذ الذين كتبوا في الصحف والمجلات ليدلوا الناس بأقلامهم على الطريقة الحديثة التي يجدر بهم أن يسلكوها ، يضلون طريق الهدى ويحتاجون إلى من يدهم عليها ، وحق أن نقول - كما يقال حاميا حراميا - هاديا معاديا .

وقد سبق قبل أكثر من بضع عشرة سنين أن كتب الأستاذ فريد وجدي بك في « الأهرام » أن العلم الحديث الذي نجم في الغرب ودالت إليه الدولة في الأرض، قذف بالأديان جملة إلى عالم الميتولوجيا (الأساطير) حتى إن الشرق الإسلامي لما اتصل بالغرب وعلومه ورأى دينه ماثلا فيها مع سائر الأديان لم ينبس بكلمة ، لأنه يرى الأمر

أكبر من أن يحاوله ، ولكنه استبطن الإلحاد متيقناً أنه مصير إخوانه كافة متى وصلوا إلى درجتهم العلمية .. كتبه حضرة الأستاذ الذي هو اليوم ترجمان لسان الأزهر وقرأه القراء المسلمون بمصر فلم ينبسوا هم الآخرون بكلمة إلا راقم هذا الخطاب ، فإني نبست وما حبست لساني ، كما لم يرعنى سلطان دولة العلم الحديث أن أنصب من قلبي العربي الأعجمي رقيباً عليه يناقشه الحساب على قذفه بديني العزيز إلى عالم الأساطير .. اتخذت كلام الأستاذ هذا - الذي قاله لا حيرة على الدين بل تلقيناً لليأس على ناصريه - حجة ضده أردد ذكرها في كتيبي عند كل مناسبة وأندم الأستاذ في سره ألف مرة على ما قاله وإن لم تسكن الندامة على فرطانه عادة له .

وقال الأستاذ حديثاً - بالنسبة إلى قوله الأول - في مقالة نشرها في مجلة «الرسالة» « صرح علماء القرن الثامن عشر والتاسع عشر بأن عهد الدين قد انقضى وأن بقاءه على الأرض مرتبط ببقاء السذاجة العامة ، فإذا نشر العلم رواقه على العامة زال الدين كما يزول كل ما ليس له أصل ثابت يقوم عليه »^(١) .

ولا يستطيع الأستاذ أن يعتذر عن هذين القولين اللذين نقلناهما ، بأن ذكرها حكاية للحالة الواقعة ثم ذيل كلا منهما بما يراه لتلافي مافات .. لأن ما ذكره في ذيلهما من هذا القبيل - وقد سبق نقله بنصه - لا يعنى فتيلاً عنه ، وبعيد كل البعد أن لا يدركه الأستاذ ، لكنه الدس الذي لا يتركه - كما ذكره أيضاً فيما ذكره مع قوله الأول ، عازياً إلى نوابغ الكتاب والشعراء في البلاد الإسلامية المستبطنين للإلحاد . الحاصل أن نوابغ الكتاب المصريين في الشرق الإسلامي - والأستاذ منهم - إن كتبوا عن الدين فإنما يكتبون فتناً في عضده ودساً للشر في خيره ، ولا خير للدين

[١] وحول هذين القولين اللذين نقلتهما أقوال أخرى للأستاذ نفسه تناولتهما كفتت عن نقلها هنا اكتفاءً بأني اشتغلت بنقلها في غير هذا الخطاب .

فيهم ، فهم ليسوا من أنصاره . وإنى اقتصرت في الكلام عن موقف الدين ومركره الحاضر في قلوبهم على أقوال كاتب واحد هو الأستاذ فريد وجدى بك باعتبار أنه كاتب مجلة الأزهر وخطيب منبره في عهد شيوخة الأربعة الآخرين . . فإذا سمعنا انقطاع الأمل عن بقاء الدين في غير قلوب العامة السذج الجهال وزواله عن قلوبهم أيضا عند بسط العلم رواقه على الجميع ، كما يزول كل ما ليس له أصل ثابت يقوم عليه - فإذا تؤمل من الخير للدين فيما نسمعه من الكاتبتين الكرام بعد كلام كاتب الأزهر . وسبب كل ذلك أن هؤلاء الكتاب يريدون أن يمشوا وراء العلم الحديث الذى أذن مؤذن بينهم أنه لا يبعد الأديان إلا أسطورة من الأساطير، ولم ينكره الهاقون عليه .

ولعل سعادتك تقول لى : ما بالك فى اقتصار الكلام عن موقف الدين على ما سمعته أو تسمعه من الكتاب ولو كان فى طليعتهم كاتب مجلة الأزهر ، وعلى علم هؤلاء الكتاب الحديث الذى هو داعيهم إلى الانصراف عنه ؟ أليس هناك علماء الأزهر وعلومهم المؤيدة للدين وعلى رأسها علم أصول الدين المسمى بعلم الكلام ؟

وجوابى عليه : ماذا تقول سعادتكم أنتم إذا كان حضرة الأستاذ رئيس تحرير مجلة الأزهر نفسه قاضياً على هذا العلم فى مجلته قائلا : « فإذا كان فى الأرض دين تأبى طبيعته أن ينشأ فيه علم الكلام فهو الإسلام .. ثم إن الأستاذ محمد صبيح الذى نشر فى الماضى القريب كتابا عن الشيخ محمد عبده مسمى باسمه ، يقول فى ذلك الكتاب إن الشيخ لم يبق على علماء الأزهر وعلومهم وكتبهم جميعا ولم يستثن منهم أحداً إلا فضحه فى الامتحان العام الذى تحداهم به .. وبقى هذا المار إلى يومنا هذا غير مفسول عن هؤلاء العلماء وعلومهم وكتبهم ، يجدد الكتاب من أمثال الأستاذ صبيح ذكراه الفينة بعد الفينة .

فيفهم من هذا أن الدين والعلم القديم الذى يقوم الدين عليه والعلماء القدماء الذين يحرسونه ، قد أييد كلهم من زمان بمؤامرة فتحت الحصن من داخله باتفاق من شذ منهم

مع المؤامرين ليحصل على مكانة عظيمة عندهم يحتفظون بسمعته ويسبحون بحمده على مر الزمان . وقد ساعدت المؤامرة المحتلطة الماسونية المعروفة بمبادئها ضد الدين ، فكان لانتساب أقطاب الأزهر إليها منذ عهد محمد عبده وجمال الدين الأفغانى مما لم يمهّد مثله فى علماء تركيا ، معناه .

فات الدين وعلمه القديم وعلماءه القدماء وأصبح الذين على قيد الحياة منهم ، فى حكم الموتى ، وقام مقامهم علماء أحداث^(١) متمسكون بالعلم الحديث الغربى الذى لا يؤمن بنفى المحسوسات ، فلا يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر لكون كل منها لا يمكن إثباته فى زماننا بالتجارب الحسية . وقد نقل أستاذ مجلة الأزهر فى مقالته المارة الذكر هنا والمنشورة مقالة افتتاحية فى مجلة « الرسالة » قبل سنين وكان عنوان المقالة « الدين فى معترك الشكوك » ، عن أستاذ علم النفس فى كبردرج : « أن هذه المباحث لا يجوز أن تبنى على التأكيدات التى صدرت من هذا الوحي أو ذاك ، بل يجب أن تؤسس ككل بحث علمى بمعناه الصحيح على تجارب يمكننا تكراره اليوم مؤملين أن نزيد عليها غدا ، ويكون الدافع إليه هذه القضية : إذا كان يوجد عالم روحانى ظهر للناس فى أى عهد كان ، فيجب أن يكون كذلك قابلاً للظهور فى أيامنا هذه » .

نقله الأستاذ مصدقا ومحبذا لما يتضمنه من عدم الإيمان بعقائد الإسلام الأساسية . وليس الأستاذ فريد وجدى بك صاحب المقالة وحيداً فى هذا التصديق والتحييد ، بل معه كل من لا يؤمن بمعجزة غير القرآن ، بحجة عدم كونها فى متناول التجربة الزمنية ، حتى إن معه الأستاذ الأكبر المراغى مقدم كتاب هيكىل باشا « حياة محمد » المجرد عن المعجزات ومستبدع قول البوصيرى :

[١] كما قال الدكتور زكى مبارك فى مقالة له منشورة فى مجلة « الرسالة » : « نزعنا راية الإسلام من أيدي البهلة وصار إلى أفلامنا المرجع فى شرح أصول الدين » .

لم يمتحننا بما تعمي العقول به حرصاً علينا فلم ترتب ولم نهم ومعه أيضاً فضيلة الشيخ شلتوت الذى ينكر وجود الشيطان لعدم وجود من رآه فى الزمان الحاضر .

فتبين من هذا أن الفتنة الماثرة ضد الدين الواصلة إلى حد إنكار وجود الله، لعدم كونه أيضاً فى متناول التجربة الحسية ، أو لكونه لا يزال محلاً للشك فى وجوده على الأقل ، أو لعدم الاعتراف بثبوته علمياً.. وإنكار معجزات الأنبياء الخارقة المستلزم لإنكار النبوة لكونها أيضاً من الخوارق التى لا تقدر على تجربتها فى هذا الزمان - وكل هذه الإنكارات مرووق من الإسلام - طمّت وعمت كبار علماء الأزهر الجدد وأكبر كبارهم بعد الكتاب المصريين ، والمؤامرة المحبوكة للقضاء على الدين قد أحكت لحمتها وسداها وشد أزرها بالعلم الحديث وعلماء الدين الأحداث ، فتهيبها العلماء الأزهريون الباقون على عقيدة الإسلام وسكتوا ، ولم يكن سكوت البعض منهم تهيباً بل إسرافاً فى حسن الظن بالمؤمنين وإبطاءً فى فهم مراميهم لعدم كونهم مجاهدين فى محاربة الدين .

وإنى أرسلت مقالة إلى مجلة « الثقافة » قبل بضع سنين للدفاع عن معجزة رفع عيسى عليه السلام إلى السماء التى أنكرها فضيلة الشيخ شلتوت رغم صراحة القرآن فى أمره .. أنكرها اتباعاً لقواعد العلم الحديث الغربى فى عدم الاعتراف بالخوارق ، وإن تعلل فى إنكاره بأسباب أخرى واهية ، فلم تنشر مقالتي ... وأرسلت مقالة أخرى قبل سنتين إلى مجلة « الرسالة » لارد على مقالة الأستاذ فريد وجدى بك المنشورة فيها بعنوان « الدين فى معترك الشكوك » كما مر ذكرها .. فلم تنشر أيضاً . وكل هذا من شواهد الاهتمام بإحكام المؤامرة من المؤمرين .. فنشرت كتابي « القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون » بدل المقالة غير المنشورة فى مجلة « الثقافة » ، فكان له تأثير بالغ فى قلوب من قرأوه من أصحاب التمييز والإنصاف ، وتأثير من نوع آخر فى قلوب محاربي الدين دفعهم إلى وضع سياج من السكوت حوله

عجمين عن محاربته أى محاربة كتابي لئلا تتسع دائرة اطلاع الناس عليه ، وإن كان الكتاب يوسمهم ضرباً موجعاً بحملاته المقاتلة .. وليس هذا الكتاب إلا جزءاً من الكتاب الكبير المنظوم على ما يقرب من ألفى صفحة أو يزيد عليهما والذي يدخل معترك الشكوك أو بالأصح معترك التشكيك ويكافح المشككين وعلمهم الحديث الذي اتخذوا منه دعامة لشكوكهم ، ويقف كلا من هذا العلم وعلمائه عند حدودهما .. وإني أريد نشر هذا الكتاب من زمان فلا أستطيعه بسبب غلاء الورق ومصاريف الطبع .

وبينا أنا في هذه الحالة جاءني كتابكم الكريم يطلب مني مقالات لمجلتكم الإسلامية الفراء ، لكن مقالتي التي تكرمتم بتقديرها ، مهما أجتهد في تهذيبها فذهي متعلق بالكتاب وهو أجدى منها لحاجة الزمان التي سميت في هذا الخطاب لتوضيحها . وكم يسرني نشر هذا الكتاب في مجلتكم منجماً لو كانت المجلة شهرية ضخمة الحجم ونشر منه في كل عدد منها ما لا يقل عن ملزمتين .. وكل من المجلة والكتاب يساعد بعضهما بعضاً ويزيد في انتشاره بدلاً من أن يضره . وليس معنى هذه الرغبة مني أن أحصل على طبع الكتاب في ضمن طبع المجلة وأستغنى عن طبعه مستقلاً بعد انتهاء نشره بالمجلة في عدة سنين ، فإذا قرأتموه مجزأ في أعداد المجلة وأعجبتم به أنتم وقراءه ففي إمكاننا نشره ثانياً على شكل كتاب مؤلف من ثلاثة أو أربعة أجزاء ومطبوع في مطبعة المجلة على حسابي .

ولا مؤاخذة في إطالة الكلام عن هذا الكتاب في أول تشرفي بمخاطبتكم . وإني قوى الأمل في أن تكون خدمته للإسلام وإعلاء كلمته علمياً مضمونة عند أولى الألباب إن وفقني الله للاهتمام إلى طريقة معقولة في نشره بفضل تقدير من سعادتكم واهتمام به .

الأستاذ الإمام وكتاب الله تعالى في كفتي الميزان^(١)

بمناسبة رسالة الأستاذ خلف الله التي قدمها إلى كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول فاستنكرها رجال من الجامعيين وغيرهم لقولها بعدم لزوم الصدق ومطابقة الواقع في قصص القرآن .. ودافع عنها أستاذ البلاغة في الكلية الأستاذ أمين الخولي والمعرف على الرسالة استناداً على اتفاقها مع مقررات الأستاذ الإمام محمد عبده .

طلب إلى بعض أصدقائي من علماء الدين أن أدلي برأيي في الموضوع فقلت قولي الآتي .. باعتبار أن القرآن كلام الله وكتاب المسلمين جميعاً على اختلاف أقوامهم وأجناسهم ، لا باعتبار أنه كتاب العربية الأكبر كما سماه الأستاذ الخولي في مقالة وجهها إلى الأستاذ توفيق الحكيم ونشرتها (أخبار اليوم) .

قلت قولي الآتي بعد أن تطور الموضوع بإقامة الأستاذ الخولي مؤيد الرسالة سنداً لحسم هذا النزاع من مقررات الأستاذ الإمام .. وكان حق الإنصاف يوجب على أن أعترف بأن هذه المقالة قد نقلت مسؤولية الرسالة ومسؤولية تأييدها ، إلى عهدة الأستاذ الإمام صاحب المقررات المذكورة التي ينطبق عليها قول كل من كاتب الرسالة ومؤيدها لاسيما مقرر الإمام القائل : « إن وجود شيء في قصص القرآن لا يقتضي صحته » .. والناقل يزعم أن الأستاذ الإمام لا تصعد إليه المسؤولية بل تتلاشى قبل أن تصل إلى مقامه البعيد .. يزعم هكذا ولا يبالي أن يكون مع إمامه من الذين « إذا أداركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون » .

[١] مقالة أرسلتها إلى مجلة « لواء الإسلام » فلم تنشر .

قلت قولى هذا وإنى أرى الرسالة المستفكرة وما سبقها فى مصر من الأحداث والفتن الماثلة الماسة بدين الإسلام وعقائده المحفوظة إلى عصر الشيخ محمد عبده .. كلها ناشئة من الأسس التى ابتدعها هذا الشيخ الملقب بالأستاذ الإمام .. فلا مناص إذن للقضاء على تيار الفتنة من مصدرها ، من أن تفصل الدعوى مع الإمام دون المؤمنين .. وكان هذا الواجب قد بقى منذ أمد بعيد على عاتق مصر حملا ثقيلا ودينا عظيما غير مقضى .. ولعل هذا الوقت الذى تكافح مصر فيه داء السكوليرا ، قدره الله لمعالجة هذا المرض أيضا الذى هو وباء أفكك من وباء السكوليرا ، بحيث لو ترك على حاله لكان شر ميراث للأجيال الآتية يظهر نكسه الفينة بعد الفينة ويشتد بأسه عليهم حتى يكفى لأن يأتى بنيانهم من القواعد فينهار به فى نار جهنم .

كان المسلمون قبل عهد الشيخ محمد عبده على طول ثلاثمائة وألف عام يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله ومعجزات رسله وبكل ما ورد فى نصوص كتاب الله وسنة رسوله السليمة الاسناد ، من الأوامر والنواهي والقصص وأحوال الآخرة .. وكان لهذين الركنين الأساسيين لدين الإسلام مهابة عظيمة فى قلوب علماء الإسلام الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا .. لا يجترى أحد منهم على تأويلهما والعدول عن ظاهر نصوصهما ما لم يترتب على الاحتفاظ بالظاهر محال عقلى خارج عن متناول قدرة الله الذى خلق بها السموات والأرض .. وكان مما لا يطوف ببال أحد أن ينكر وجود الملائكة ووجود الشيطان الرجيم الذى نعوذ بالله منه فى أول كل صلاتنا والذى تأبى صفة الرجيم وسائر الأوصاف الحية له المذكورة فى القرآن تأويله بدواعى الشر .. مع أنه لا مانع قطعيًا وعقليًا من أن يُتصور هذا الشيطان الرجيم كائنًا حيا كما وصفه كتاب الله ... ولم يكن المسلمون فى تلك الأعصار الطويلة يعترهم أى شك فى وجود الأنبياء وتأييدهم من عند الله بالمعجزات الخارجة عن طوق البشر .. فسكانوا يؤمنون من غير تردد بأن الله تعالى كلم موسى ومنحه يدًا بيضاء وعصا تنقلب

حية إذا ألقاها تلقف ما يأفكه سحرة فرعون .. ولما ضرب بها البحر شقته إلى أفراق كل فرق كالطود العظيم ففتحت له ولن معه من بينها طريقاً في البحر يبساً اجتازوه وغرق فرعون وجنوده الذين اتبعوه ، في البحر ... ويؤمنون بأن عيسى ولد من غير أب وكلم في المهد صبياً وأبرأ الأكمه والأبرص وأحيا الموتي بإذن الله .. فلما أراد اليهود قتله وصلبه رفعه الله إليه وسوف ينزله في آخر الزمان .. وأن إبراهيم بنى له قومه بنياناً وألقوه في الجحيم فلم تحرقه النار وأصبحت بأمر ربها برداً وسلاماً عليه ... وانشق القمر لمحمد صلوات الله وسلامه عليهم وأسرى به ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وأمد الله في غزواته بآلاف من الملائكة مردفين ومسمومين ...

حتى جاء الأستاذ الإمام فوضع منهاجاً عجيباً لتأويل النصوص يمثل باسم النهضة الدينية الحركة القهقرية أمام خصوم الإسلام الغربيين المسلمين على كتابه وبلق الشك في قلوب المسلمين الذين يمتقدونه كتاباً منزلاً من عند الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ... قائلًا : « إن وجود شيء في القرآن لا يقتضى صحته » .

وبهذه النهضة المكسوة والحماسة الضالة الماثورة من الإمام ، قال تلميذه الشيخ صاحب المنار فيما كتبه دفاعاً عن كتاب (حياة محمد) لمعالى هيكل باشا : « إن المعجزات شبهة لا حجة » وبتلك الحماسة أيضاً اتهم معاليه في الطبعة الثانية لكتابه ، جميع ما في كتب الحديث من أقوال رسول الله بشبهة الكذب وكان هذا التشكيك العام منه في كتب الحديث ، للتوصل إلى إسقاط أحاديث المعجزات من حيز الاعتماد والاعتداد . وقد ارتكزت فكرة إنكار معجزات الأنبياء في قلوب العلماء الأزهريين من تلامذة الإمام ، وفيهم من تولى مشيخة الأزهر ... حتى شجع هذا الاستخفاف الموروث بنصوص الكتاب والسنة ، بمضاً منهم على إنكار رفع عيسى إلى السماء المنصوص عليه في القرآن ونزوله في آخر الزمان المذكور في ستين حديثاً رواها ثلاثون صحابياً .. كما شجعت مقررات الإمام في المنبيات إلى نفي وجود الشيطان .. وأصبح إنكار

الخوارق عادة مألوفة بمصر عند المتعلمين بعد انتشار مبادئ الإمام واشتهاره فيها بينهم، حتى إن معجزة القرآن الخارقة لسنة الكون ولو بالنظر إلى نزوله من عند الله بواسطة الملك، يفكرونها أيضا أو يلزمهم ويفهم من أقوالهم إنكارها .

إن علماء الإسلام يؤمنون بجميع مانص عليه القرآن من قصص الأنبياء ومعجزاتهم التي تدخل أيضا في قصصهم، وأحوال الآخرة مثلها في إيمان العلماء بها كما ورد في القرآن ولا يتصورون وجود أى شيء فيه يخالف الواقع ويحتاج إلى التأويل والتفسير لأن هذه المذكورات إخبارات لا تحتل حتى النسخ من عند الله وإلا كانت كذبا أو جهلا يجب تنزيهه تعالى عنه ... وعقيدة المعجزات الخارقة لسنة الكون - ولا بد أن تحرقها لتكون معجزة - تنبئ على ثلاثة أسس، الأول: الاقتناع بأن الله الذى خلق المعجزة - لا النبي الذى تظهر على يديه - قادر على أن يخلقها، أعنى أنها ليست مما يستحيل عقلا حتى تكون خارجة عن متناول قدرة الله . والثاني: أنها، فضلا عن إمكانها فى حد ذاتها، يشهد كتاب الله الذى لا يجيز العقل أن يحوم حوله الكذب، بوقوعها .. فيمكن أن يكذب التاريخ أو يخطئ ولا يمكن أن يكذب الله أو يخطئ .. ومن شك فى صدق وقوع ما أخبر به الله، من غير مانع عن وقوعه يتصوره فى عدم إمكانه عقلا أو عدم كفاية قدرة الله على إيجاده، فهو كافر .. وهذان الوجهان لعقيدة المعجزات يجريان فى قصص القرآن غير المعجزات ويجريان فى أحوال الآخرة أيضا .. والثالث: حاجة الأنبياء إلى المعجزات ليستندوا إليها فى دعوى نبوتهم وفى دعوة الناس إلى أن يشقوا بهدایتهم .. فهذه الحالة الواقعة من وجود المقضى وعدم المانع، توجب علينا الإيمان بما نص عليه كتاب الله من معجزات الأنبياء وقصصهم وأحوال الآخرة .. والذين لا يؤمنون بصدق النصوص الواردة فى القرآن متعلقة بهذه الموضوعات، كما ورد فيه .. ويحتاجون إلى تأويلها، فهم لا يؤمنون لما نعت

ناشئ من ضعف دينهم وعقولهم التي تعتمد على أقوال المؤرخين والمستشرقين من أعداء الإسلام والقرآن ولا تعتمد على نصوص كتاب الله .

فعند ما قارنت بين كتاب الله وما أشار إليه الأستاذ الخولي من مقررات الإمام الموجبة للتنازل عن الآيات المتعلقة بالشیطان والملائكة والمعجزات والقصص ، بواسطة التنازل عن الاعتماد والاعتداد بنصوص تلك الآيات .. وأضفت إلى ذلك الآيات الواردة في أحوال الآخرة من البعث بعد الموت والحشر والسؤال ووزن الأعمال والصراف بنعيم الجنة وعذاب النار المبتدئين من القبر وسائر المغيبات التي لا تقبلها عقول الكتاب لمصريين المقيدة بالعلوم الطبيعية التجريبية ، فينكرونها .. وقد فجع الأستاذ الإمام لهم طريقاً معبدة يقتحمونها رغم خطرهما ، في كل أمن وحصانة وهي طريق التأويل وتفسير النصوص تفسيراً يؤدي إلى إلغائها ... عند هذه المقارنة لا يبقى جل آيات القرآن إن لم يكن كلها ، مستحقاً لاعتقاد صدقه والاعتصام بمنطوقه ، ويكون الباقي بعد التنازل : آيات التوحيد ، كما يكون الكثير الذاهب أدراج الرياح : آيات معجزات الأنبياء وقصصهم وجميع المغيبات .. مع أن تلك الآيات الباقية أعني آيات التوحيد أيضاً تنهار بضربة تشكيك أخرى من العلم الحديث المبني على التجربة ، ثم لا يبقى بعد هذا التنقيح الثاني إلا آيات الفضيلة .

فكان الأستاذ الإمام قرر العمل بما اقترح عليه الأستاذ فرح أنطون منشيء (مجلة الجامعة) عند ما جرت بينهما مناظرة قلمية في ست مقالات من الطرفين^(١) . وهو أن يختارا بعض الآيات من الإنجيل والقرآن فيعضاً عليه بالنواجد ثم يدعا ما بقي بمذلك من السكتابين ، تحت ستار مقدس .. فيتفقا فيما بينهما على الآيات المنتقاة من الإنجيل والقرآن ويمتبراها الإنجيل كله والقرآن كله ثم يتخذاهما من تلك الآيات

[١] والمقالات كلها الأستاذ فرح وأوردها في باب الردود من كتابه (فلسفة ابن رشد) .

المختارة ديناً أبدياً معقولا ليس فيه سيف ولا نار ، بل كله إخاء عام ومحبة مطلقة لجميع
بني آدم .. وإن أنكر هذا التخصيص والاختيار المتمصون من أهل الكنائس ..
فالدين الأبدي المقول لا يوجد على رأى الأستاذ المقترح إلا عند القائلين بهذا التخصيص
وهم أنصار الفضيلة المفضلون على أنصار الديانات !! ..

والآن ، وبعد أن بلغ السيل الزبى بمحادثة الرسالة المقوتة المقدمة إلى كلية الآداب
بجامعة فؤاد والتي بُنى أساسها على فكرة احتمال الكذب والاختلاق والابتعاد عن
الحقائق التاريخية في قصص القرآن ، تمشياً في تلك الفكرة مع أقوال المستشرقين
والمؤرخين ... بعد هذا وبعد إعلان الأستاذ المشرف على الرسالة تضامنه مع صاحب
الرسالة في جميع ما تضمنته .. إلى أن يقول : « إنها حق .. أقوا بى فى النار ! » ..
ثم استقبال لأئمة من المسلمين النيويرين على دينهم ، بنقل بعض كلمة من مقررات الإمام
يضم تضامنه إلى تضامنه ويكون آخر كلام يقطع جميع السنة الملام .

بعد كل هذا ، وإني يدعوني واجب النصيحة لله ولرسوله وللمسلمين إلى أن أقول
وفقاً لكبرى الأستاذ الإمام فى هذه البلاد ، عند حدودهم : إن المسلمين المصريين
مضطرون إلى البت فى أمرهم باختيار أحد الدينين : فينتمون إليه ويدعون به يوم يدعى
كل أناس بإمامهم فى الدنيا ، دين للمسلمين القدماء يعتمد على نصوص الكتاب والسنة
ودين للأستاذ الإمام والمؤمنين به لا يعتمد عليها فيلقى كثيراً منها ويتصور الكذب
والاختلاق فى قصص القرآن ، وهم يعتمدون فى ذلك على أقوال المستشرقين والمؤرخين
من أهل الغرب التى لا تتفق مع تلك النصوص ، فتلجى أصحاب الدين الجديد إلى
الانصراف عما نطق القرآن بشأنها ، والبحث عن طريق التأويل التمشى مع أقوال
الغربيين ، مع الاهتمام بنفى الجهل عن سيدنا محمد بالتاريخ . وهم ينسون كون القرآن
كلام الله قبل أن يكون كلام محمد .. ولو أن هؤلاء الغافلين اعتمدوا على أنه كلام

الله كان تصور الحاجة إلى الانصراف عن نصوصه اعتناء بأقوال المستشرقين والمؤرخين الذين لا يمكن أن يكون لهم علم بالحقائق التاريخية لا سيما ما يتعلق منها بالقرون الخالية ، أصدق وأوسع من علم الله - تصوراً في غاية الجراءة والضلالة .

على أن أنصار الدين الجديد لا يكفيهم التنصل من قصص القرآن للحصول على مرضاة المستشرقين والمؤرخين من أهل الغرب لأنهم لا يمتدحون نبوة سيدنا محمد ولا يمنحون القرآن رتبة كلام الله ، مهما ضحى ضماف العقل والدين منا بنصوص القرآن في قصص الأنبياء توفيقاً لآرائهم .. كما قال الله تعالى : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » ، وقال : « يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من أهل الكتاب يردوكم بمد إيمانكم كافرين » .. فيلزم الذين يرون لهم ضرورة تطبيق قصص القرآن وغيرها على آرائهم .. أن ينكروا نبوة سيدنا محمد إرضاء لخاطرهم .. وقد يجدون في ذلك أيضاً سنداً لهم من قول الأستاذ الإمام الصالح لنفي النبوة عن جميع الأنبياء ، يتم على ذلك تعريف النبي الذي أتى به الإمام في تعليقاته على شرح الجلال الدواني للمعاند المضدية .. وكما يفهم هذا النفي من إنكار معجزات الأنبياء التي هي علامة النبوة وحجة إثباتها .

فإذا انهدمت النبوة بانهدام المعجزات وتمريف النبي بما لا ينطبق على النبي المعروف في الإسلام ، ولم يكن القرآن كلام الله ولا كلام محمد النبي ، احتمال بالضرورة أن ينطق عندئذ محمد مؤلف القرآن الذي هو بالنسبة إليه كواحد من المؤلفين ، عن الهوى رغم قوله فيه (وما ينطق عن الهوى) وإن كان الهوى الذي يحتمل أن ينطقه هوى فنان كبير عربي ، وكان له أن يزين كلامه حول القصص عن الأولين ، بطلاء من الأكاذيب .. وإن كانت أكاذيب فنية - كما ادعاه صاحب الرسالة والمشرف عليها - من صنع الشعراء الخياليين الذين قال عنهم شاعر تركي :

سرمایه شاعران توکنمز دنیا توکنمز ، یالان توکنمز^(١)
والذین لا یقام - إلا من طریق حد مؤلف القرآن منهم - وزن لا کتشاف صاحب
الرسالة والمشرّف علیها ومُلهمها فی تبریر الکذب ومخالفة الواقع التي تصوروها لآیات
القصاص ...

وکل هذا علی الرغم من أن القرآن یقول عن نفسه : « وما هو بقول شاعر » ..
إلا أن یقال عنه وعن قوله المار الذکر قریبا : إنهما - والعیاذ بالله - کذب فی
کذب !! ..

فإذا کان القرآن کتاب فنان لا یتقید فی کثیر من آیاته بالتزام الصدق ومطابقة
الواقع بل یسوقها كما یقتضيه هوی الفن الذی یكون مطمع النظر فيه جذب القلوب
والأسماع .. فإذا هو المانع إذن من أن یأتی بمصر زمان یقرأ فیسه القرآن بین عزف
المود والدف والکمان ، كما یقرأ الیوم بین عزفها قصائد فی مدح النبی صلی الله علیه وسلم .

مصطفیٰ صبری

١٢

وإلیک نموذج آخر من أشباه ما ذکرته فی رقم (٦) یدل علی رواج الفكرة
اللاذنیة والابتکارات الدائرة حولها بمصر ویؤید طغیان العلم الحدیث الغربی أو بالأصح
طغیان المفتونین به فی الشرق الإسلامی علی الدین بعد ما حکاه الأستاذ فريد وجدی بك
من أن الدولة فی الأرض دالت إلیه .. وهو أن الشاعر محمد إحسان الحامی نشر شعراً
فی جريدة « الأهرام » قبل سنوات ولم ینکر علیه أحد من المسلمین ولا من السیخیین
ولا من اليهود ، إما استثناساً بأمثاله فی الجرائد والمجلات المصریة أو تهیباً لغلبة
أصحاب الفكرة اللاذنیة وأنصارها ، مع أن الشعر کله کفر بالأدیان واستهانة بأنبیاء

[١] معناه : « لا ینفد ولا یتنهى رأس مال الشعراء لأنه تنهى دنیا ولا یتنهى الکذب »

الله ومعجزاتهم تبجحاً من الشاعر بعلم الفريين ومكتشفاتهم التي لهم فضلاً اكتشافها وللشاعر وأمثاله الشرقيين أن يطيشوا بمفاخر غيرهم فيرموا دين آبائهم وأجدادهم في الأرض كما ترى الأواني الزجاجية ويعلن بكسرها السرور والمرح في مجالس السكارى السفهاء . وهذا هو الشعر المنشور في « الأهرام » لناظمه محمد إحسان الحامى :

النبي الجديد

أو نبوءة عن المستقبل

قام في الناس نبي إنما	شأنه ليس كشأن المرسلين
وحد الناس وقد فرقهم	كافة الرسل على مر السنين ^(١)
جاءهم من غير إنجيل ولم	يأتهم بالوحي جبريل الأمين ^(٢)
لم يروا منه عصا موسى التي	تلقف الإفك وسحر الساحرين ^(٣)
معجزات العلم قد أوفت على	معجزات الدين في ماضى القرون ^(٤)
إذ أراهم كيف يُحجي علمه	ميتاً لولاه وارتبه المنون ^(٥)
خاطبوا المريح حتى إنهم	سمموا المريح في صوت ميين
ورأوا منه الذى أدهشهم	قدرة العلم على جنس الجنين ^(٦)
آمنوا بالعلم ديناً وهدى	ليس بعد العلم للأفهام دين

أراد بالنبي الجديد الذى فضله على الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، العلم الحديث . ونحن نرد عليه هفواته فى أبياته على ترتيب الأرقام :

١ — كذب الشاعر والشعراء يكذبون ويتبعهم الغاوون، لم يفرق الناس رسل الله والأديان التى جاءوا بها من الله ، وإنما فرقهم فكرة القومية الجاهلية القديمة والتى

راجت عصبيتها في الأعصر الأخيرة أيضاً ، حتى إن الأمم يقتلون على المبادئ القومية لا الدينية ويساعد اقتتالهم العلم الحديث بأسلحته الجهنمية ؛ في حين أن الدين يعيب — ومعه العقل — هذه العصبيات القومية والانقسامات الدولية ، ويحرم عليهم التحارب والتقاتل في سبيلها .

أما تفريق الأديان بين معتققيها فهو لم ينشأ من طبيعة الأديان نفسها ، وإنما الناس ابتدعوا هذا التفريق فيما بينهم فيجب أن تكون تبعته عليهم لا على الأديان ، إذ لا تراحم بين أديان الله في أى زمان من الأزمنة . وتوضيحه أن الله تعالى منزل الأديان السماوية لم يأمر اليهود والنصارى والمسلمين أن يكون كل طائفة منهم على دين ينتمون إليه حتى يصح أن تعد الأديان مفرقة بين الناس ودافعهم إلى الخلاف بعضهم مع بعض ، وإنما أمر الله أن يكون الناس في عهد كل رسول تابعين لشريعة ذلك الرسول مجمعين عليها ، ولم يكلفهم في زمان واحد بشرعين مختلفين حتى يكون اختلاف الأديان سبباً لافتراق الناس وانقسامهم على أنفسهم . فلو كانوا امتثلوا أمر ربهم لأصبحوا في كل زمان على دين واحد . لكنهم لم يتفقوا في مراعاة واجب العهد الحاضر ، فكان منهم من أصر في عهد عيسى على دين موسى الماضي ولم يعترف برسالة عيسى ، فحصل الخلاف بين اليهود والنصارى . وكان منهم من أصر في عهد محمد على دين موسى وعيسى الماضيين غير معترف بالإسلام ، فحصل الخلاف بين اليهود والنصارى والمسلمين ، ولا ذنب للأديان في هذا الخلاف ولا للرسل صلوات الله وسلامه عليهم . والدليل على هذا أن الرسل لا يختلفون فيما بينهم ولا يكذب بعضهم بعضاً .

فتبين أن دين الله واحد في استطاعة كل إنسان أن يجتمع فيه مع جميع أبناء نوعه في كل زمان ومكان ، بخلاف المبدأ القوي المفرق الحقيقي بين البشر ، فلا يمكن أن يكون العربي تركيا بكلمة واحدة ولا الهندي ألبانيا ولا الفرنسي ألمانيا حتى ولو أرادوا أن يكونوا . وهذا على الرغم من كون كلهم من نسل أب واحد وأم واحدة .

وكتاب الإسلام ينص على وحدة دين الله وعدم التفريق بين رسل الله ومبادئهم ، فيقول : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله » ويقول : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » والتفرق في الدين سببه التفريق بين الرسل وعدم الإيمان بجميعهم .

٢ — فيه تعريض لسيدنا عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام وكتايبهما الإنجيل والقرآن ، ولم يجترئ الشاعر على ذكر اسم الأخير في معرض الاستهانة ، بصراحة .

٣ — ماذا يريد أن يقول الشاعر؟ نعم : لم ير الناس بعد سيدنا موسى عصا تنقلب ثعبانا وتلفف ما يأفكون .

٤ — هذه الدعوى إنما تروج عند الجاهلين بالفرق الأساسي بين المعجزة والصناعة لأن الصناعة مبناها على العلم التجريبي مهما أعظم أثرها ، فهي تابعة للسنة التي اختارها الله في خلق الأشياء والتي سماها الغرب اللاديني قوانين طبيعية ، لا تتخطى إلى ماورائها . فأصحاب المكنشفات العلمية الراقية لم يأتوا بالخوارق وإن نعمت مكتشفاتهم بها مبالغة ، لأنهم يحتاجون فيما يجترعون إلى التوصل بالأسباب الفطرية المواتية ، ولا يزال هذا الاحتياج يبقو مهما ارتقى العلم . ولا كذلك المعجزات التي تخرج على تلك القوانين وتخرقها ، فلا تحتاج إلى توسط الأسباب ، فهي من صنع الله مباشرة ، ولهذا يفوق أصnerها أعظم المخترعات العلمية ويمتاز عليه بدلالته على أن من ظهر هذا على يده فله صلة خاصة بالله ورسالة منه إلى عباده . ولقد أحسن المغفور له الدكتور عبد العزيز إسماعيل باشا حيث قال في مقالته المنشورة في الجزء التاسع من المجلد السابع من « مجلة الأزهر » :

« إرادة الخالق جل وعلا ليست مقيدة بسنة أبدا ولا نعم من طريق إنجازها إلا :

« كُنْ فَيَكُون » وهذا هو الفرق الأساسي بين المعجزة التي هي من صنع الله مباشرة وبين أفعالنا المقيدة بالسنة الإلهية .

ولا يعرف الشاعر الجاهل الذي استصغر معجزات رسل الله إكباراً للعلم ومكتشفاته، أن المعجزة شيء عظيم إلى حد أن علم الملاحظة يراها مستحيلة الوقوع ، ومن استصغرها تعظيماً للعلم فقد استصغر العلم الذي يستعظمها وينكرها لاستعظامها . فانظر ما قال هذا الغافل وما قال عبد العزيز إسماعيل باشا تنمده الله برحمته .. فقد أنلج صدرى كلامه وفهمه حقيقة المعجزة بين الكثرة الذين حُرِّموا هداية الفهم - ولا أدري ماذا قال الأستاذ مدير المجلة ورئيس تحريرها لما قرأ مقالة الباشا؟ والأستاذ من منكري المعجزات كما عرفت مما سبق . ولقد أحسن الباشا المغفور له أيضاً في التعبير بالسنة الإلهية عما يتداول في السنة الكتاب المعاصرين بلفظ « الأسباب الطبيعية » وهو التعبير الصحيح وإن كنا قد نجارى الألسنة المصرية في هذا الكتاب ، لكوننا في موقف التقاض معهم على موضوعه .

٥ - الضمائر غير ضمير (وارته) راجعة إلى النبي الجديد القائم في الناس والمفهوم أنه القرب ، ولو قلنا إنه العلم الحديث والضمائر راجعة إليه كان للعلم علم . والشاعر كذب مرة ثانية في هذا البيت ، لأن علم الغرب لم يُحْيِ بعدُ ميتاً كما أحياء المسيح عليه السلام، ولا يزال الطب يتضور عجزاً عن مداواة كثير من الأمراض بله أن يحيي الميت .

٦ - الجنين ما استتر عن الميرون . وكأنه أراد به الميكروبات التي لا ترى إلا بواسطة الآلات المكبرة . والعلم وإن كان استطاع رؤية بعض أنواعها والوقاية من بعض مضارها فكذلك هناك منها ما لم يره أو لم يتغلب عليه بعد رؤيته ، وما يعلم جنود ربك إلا هو .

ويحتمل احتمالاً بعيداً أن يكون مراده من الجنين معناه المعروف مما في بطون
الأمهات ، فيشير الشاعر إلى إمكان معاينته بواسطة ما اكتشف العلم وما يكتشف من
الأشعة وتعيين جنسه ذكراً أو أنثى . ثم يحتمل احتمالاً أبعد أن يحاول بهذا البيت
معارضة كتاب الله القائل « إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام
وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأى أرض تموت » . لكن الآية
نزلت على سؤال بعض الناس الرسول عليه الصلاة والسلام هل يعلم الأمور الخمسة
المذكورة ؟ فجاء الجواب بالنفي يعنى أن الله يعلمها ولا يعلمها الرسول . وفضلاً عن هذا
فإن جواب القرآن أتى عن ثانی الأمور الخمسة وثالثها في أسلوب يختلف عن أسلوب
الثلاثة الأخرى وإن في ذلك لآية لقوم يتفكرون .

فالشاعر أتى في شعره بما أتى من الفطرات ثم نفى في آخره الأديان غير دين العلم
وصرح بأنه أى العلم وحده جدير أن يكون دين العقول وذويها ، يعنى أن العلم يكفيهم
وينفى عن الدين . لكن العاقل يعرف أن قول الشاعر هذا ليس بقول ذى عقل وفهم .
ولنا عودة إلى التكلم على هذا الشعر إن شاء الله .

غير أنى أقول هنا عن هذا الشعر المستهين بدين الله وأنبيائه ومعجزاتهم ، إن
صاحبه نشر أخيراً في جريدة الأهرام أيضاً قصيدة بعنوان « فرنسا » يبكي فيها على
فرنسا التى انهارت في أوائل الحرب الأخيرة أمام جيش الألمان فقال في تلك القصيدة
مخاطباً لفرنسا ومعظم لشأنها :

لولاك ما عرف الإنسان قيمته لولاك ما أصبح الإنسان إنساناً

وكتب في هامش هذا البيت أنه يشير إلى ماسبق للفرنسيين في ثورتهم المشهورة
من أنهم كانوا أعلنوا بياناً عن حقوق الإنسان .

وأنا لا أذكر ما تضمنته تلك الثورة من الأخطاء الفاحشة والمظالم الطائشة وما

أعقبها من انهيار المبادئ الدينية والأخلاقية الذي لابد أن يكون له تأثير في انهزام فرنسا في الحرب ، كما لا يصعب فهم ذلك من تصريحات رجالها الآخذين بزمام الحكم على أثر الانهزام والانهيار وعلى رأسهم المارشال « بيتان » . ولا أذكر أيضا ما للفرنسيين أنفسهم بعد نشر ذلك البيان عن حقوق الإنسان ، من استعمار البلاد الذي لا معنى له إلا استرقاق أهلها . أما الذي أذكره فهو أن الشاعر نفسه ما عرف قيمة إنسانيته وإنسانية إخوانه حتى بعد أن عرفت فرنسا قيمة الإنسان ، حيث لم يتذكر حين تعمّد لفرنسا بقصيدته أن معبودته استعبدت المغاربة ومن قبل السوريين وهم إخوانه العرب . فهل هم عرفوا قيمة إنسانيتهم بفضل سادتهم الفرنسيين ، أم لأنهم ليسوا معدودين من أفراد الإنسان عند الشاعر ؟

وليُعرف هو إن كان لا يعرف ، أن قيمة الإنسان معروفة منذ نص كتاب الإسلام على قوله تعالى للملائكة : « إني جاعل في الأرض خليفة » . . معروفة منذ قال لهم ذلك ومنذ أمرهم أن يسجدوا لآدم فسجدوا .

فقد استبان القارئ مما قدمنا من الأمثلة الهامة لاسيما البعض منها الحائز لقوة أمثلة كثيرة ، أن الرأي العام العلمى السائد في مصر مسموم ، وهو يظل ينتجر بهذا السم^(١) منذ نشوب النقاش بين الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية وبين الأستاذ فرح أنطون منشى^{*} مجلة « الجامعة » كما حكينا في الرقم (٣) وعدم توفيق الشيخ المفتى للتنبل على الأستاذ المنشى^{*} . فلو كان الشيخ صرع خصمه الذى استمد في حملاته على مصارعه من دعوى أن العقل والعلم ينكران كل ما لم يثبت وجوده بالتجربة الحسية

[١] وإن كان تأثير السم في البعض النادر من المصايين المذكورين بأسمائهم ، خفيفا يرجى له العصمة من الهلاك بفضل إيمانه القوى ، ولا يصعب على القارئ التبعين ذلك البعض .

لما كان الأستاذ فريد وجدى بك يجترى بعد أن شهدت مصر ذلك الصراع والصراع ولم تسهما ، على أن يقول عند مناقشته إياي المنشورة قبل سنوات على صفحات جريدة الأهرام : « إن العلم الحديث الغربى قذف بالأديان جملة إلى عالم الأساطير وإن الشرق الإسلامى اطلع على هذا القذف بعد اتصاله بالغرب وعلومه ورأى دينه ماثلا بين الأديان المقدوف بها فأحجم عن مكافئة القاذف ولم ينبس بكلمة لأنه رأى الأمر أكبر من أن يحاوله ، ولكنه استبطن الإلحاد وتمسك به متيقنا أنه مصير إخوانه كافة متى وصلوا إلى درجته العلمية !! »

فدل هذا القول من الأستاذ على كثير من المعانى الخطرة المتعلقة بحياة مصر الدينية. ودل أيضا على أن الأستاذ فريد لا يعتمد بما سبق للشيخ محمد عبده المسمى الأستاذ الإمام من الدفاع عن الإسلام عند مناقشته الأستاذ فرح أنطون ، بل لا يعده كلمة منبوسة ؛ ودل كون الأستاذ فريد - الذى جىء به عقب هذه الإفشاءات إلى رأس مجلة الأزهر - ترجانا عن الشرق الإسلامى فى استبطن الإلحاد ، على أن اليأس عن الدفاع المستولى على الأستاذ حتى بعد جهود الدفاع الواقع من الشيخ محمد عبده ، مستولٍ عنده على الشرق الإسلامى مطلقا ، حيث استبطن الإلحاد واختاره بدلا من مكافئة العلم المسلط على دينه .

وهذا السقوط الدينى للشرق الإسلامى أفظع عندى وأعظم خطرا وأكثر مساسا بكرامته من سقوطه السياسى الذى جعل له فى الدنيا موقف الذل والتطفل على دول الغرب فقد يكون له الحصول على ما يستحقه من السكان فى الأرض بعد ذاك السقوط بواسطة السؤال الملحف أمام تلك الدول والتفنن فى الإلحاف ، وليس له بعد السقوط الثانى الدينى إلا الحصول على مكان فى جهنم يتلو أمكنة تلك الدول . يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكاننا مؤمنين .

فكان الرأي العام العلمى الذى كان يراقب النقاش الجارى بين الشيخ وبين الأستاذ فرح أنطون فى حينها وفيما بعد ذلك الحين ، اطمأن إلى جانب الأستاذ فأخرج الدين من دائرة العقل والعلم وبقي من بقى بعد هذا من المسلمين على دينه - إن لم يكن من العامة السذج - فى عقيدة يساورها الشك فى صحتها ولا سيما فى موافقتها العقل والعلم أو يخالفها الحذر من وضعها موضع البحث والنظر ، فلا ينبس بكلمة فى هذا الصدد كما قال الأستاذ فريد وجدى بك ويحلى الجو للذين يتكلمون ويدسون فى كلامهم ما يهيج الأذهان لقبول ما يستبطنونه ويتمسكون به من الإلحاد من غير مبالاة ولا وجل من مغبة ما يدسون تيقنا منهم بأن مصير إخوانهم القارئىن مصيرهم متى وصلوا إلى درجتهم العلمية .

وأنت ترى منذ عهد الشيخ محمد عبده الذى ناقشه وغلبه فى نقاشه - أو عده الرأي العام كذلك - الأستاذ منشى مجلة « الجامعة » ومؤسس عقلية الإنكار فى مصر لما لا يشهد به الحس والتجربة ومقدمها للناس على أنها شمار العلم والعلماء ... ترى أن هذه العقلية ارتكزت فى نفوس المتعلمين ، لحد أنه لم يبق شيء مما أنكره ملاحدة الغرب الماديون إلا وأنكره هواة العلم الحديث بمصر ولو كانوا من علماء الدين . حتى إن فضيلة الأستاذ الشيخ محمود شلتوت عضو جماعة كبار العلماء ووكيل كلية الشريعة أنكر وجود الشيطان وادعى كون المراد من الشيطان الوارد ذكره فى القرآن نزعات الشر المنبثة فى العالم . ثم أيد إنكاره لما اعترض عليه ، بقول من الإمام الغزالى يوم عدم وجوده . والشيخ يعلم أن الكتاب والسنة لا يُنسخان بقول الغزالى ، فلم هذا لا نشغل بنقل قول الغزالى ولا ببيان الفرق بين قوله وقول الشيخ شلتوت ، وإنما نقف على نص الأستاذ القائل فى تفسير قوله تعالى « وإن يدعون إلا شيطانا مريدا » : « معنى الشيطان نزعات الشر المنبثة فى العالم على مقتضى سنة الله من الابتلاء بموالم الخير والشر فهم بذلك يتعمون قوة خفية أطلق عليها كلمة الشيطان جريا على عادة

العرب المألوفة أن كانوا يتصورون قوة الشر شياطين تتحدث وتناجى وتفرى وتدفع إلى ما تريد .

وعندى أن السند الحقيقى الذى لم يصرح به الشيخ العصرى قولُ العلم الحديث الغربى غير المعترف بوجود أى شئ لم تشهد به التجربة الحسية ، لا قول الغزالى ، إذ لا داعى لتأويل مايتصوره القرآن كشخص يؤمر بالسجود لآدم فىأبى، ويجادل الله لتبرير إبانته بأنه خير منه لكونه مخلوقاً من نار وآدم مخلوقاً من طين .. لا داعى لتأويل هذا الشخص بنزعات الشر ، غير كون العلم الحديث التجربى لا يؤمن بوجود شيطان غير مشهود .

ولا يلتفت إلى مااعتذر به الشيخ بعد ذلك من أن القرآن ماعرفنا بكنهه الشيطان، كأن القول بوجوده يستلزم العلم بكنهه ، فقد كفانا أن القرآن ذكر عنه أوصافاً وحالات لا تتفق مع تفسيره بما فسر به الشيخ كقوله : « كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى » ، وقوله : « إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم » ، وقوله : « لأملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين » ، وقوله : « فاخرج منها فإنك رجيم » ، وقوله : « وقاسمهما إني لسكا من الناصحين » ، وقوله : « قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين » ، وقوله بعد الآية التى فسر فيها الشيخ الشيطان : « وإن يدعون إلا شيطانا مريدا لعنه الله وقال لا تأخذن من عبادك نصيبا مفروضا .. ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا . يعدهم ويمنيهم ومايعدهم الشيطان إلا غرورا » .

فهذه الآيات صريحة فى أن الشيطان كائن حى يتكلم ويرى ويتكبر ويجادل ويقسم وينسل ويُطرد ويُرجم ويعذب فى جهنم مع الذين أغواهم . ورجم الشيطان من مناسك الحج فى الإسلام . ولوجود هذه التصريحات وأمثالها فى القرآن بكثرة تجعل الشيوخ

النكر لوجود الشيطان مضطراً إلى الاعتراف بأن بيانات القرآن لا تتحمل ذلك التفسير
الابتدع ، نرى الشيخ يقول مناقضاً لدعائه بأن القرآن ما عرفنا بكنه الشيطان : «إن
القرآن جارى اعتقاد العرب في تصويره كشخص يتحدث ويناجى ويُعري ويدفع إلى
ما يريد» وهو جراءة شنيعة على القرآن الذى جاء للقضاء على عقائد العرب الباطلة ،
جرأة تقلبه فتجعله ماشياً على عقائدهم مؤيداً لها .

لم كل هذه التخبطات التى لا يقوم صاحبها منها إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان
من المس ؟ أليس دافع الشيخ الأزهرى إليها كونه اتخذ العلم الطبيعى الحديث الذى
لا يعترف بوجود ما لم يثبت وجوده بالتجربة الحسية ، أساساً وجعل كل شيء حتى
كتاب الله تابعاً له ؟ كما صرح به شيخ أزهرى آخر مدرس فى كلية الشريعة بصدد
الدفاع عن الشيخ الأول ، وكما هو أساس الداء المعصرى الذى نضمه فى هذا الكتاب
تحت مشرح الدرس .

كان علماء الإسلام قبل حدوث المقلبات المصرية يقبلون كل ما ورد فى نصوص
الكتاب والسنة على ظواهرها إلا ما تعارض منها مع العقل المحض لا العقل التابع
للحس . فعند ذلك يؤولون النصوص . لكن علماء آخر الزمان يعاملون المانع الطبيعى
معاملة المانع العقلى ، وهم مخطئون فى عدم التمييز بين العقل الذى يكون حكمه قطعياً
مستنداً إلى أحد المبادئ الأولى ويكون ما ينفيه مستحيل الوجود كشريك البارى
وما لا ينفيه ممكن الوجود ، وبين الطبيعة وعلتها الذى لا يكون ما اعترف به واجبا
ضرورياً وما لم يعترف به مستحيلاً ، كما يأتى تفصيل كل ذلك فى محله من هذا الكتاب .
ولا شك أن نظر العلماء المتقدمين المحققين أدق من نظر المتأخرين المقلدين أدعياء العلم
الحديث العربى التجربى ، والعالم لا يجدى شيئاً بدون العقل السليم ، فهل العلم المذكور
اطلع بتجاربه على كل موجود حتى يكون ما لم يطلع على وجوده كالشيطان ، غير

موجود؟ فإذاً يلزم أن لا يصح للعلم اكتشافات جديدة عن وجود أشياء لم تكن معلومة له من قبل فيقف العلم في الحد الذي وصل إليه وينسد على وجهه أبواب الرق والاتساع الجديدين .

وآخر ما أقوله هنا : إذا بنى أمر الإنكار والإقرار على شهادة التجربة الحسية كما هو شرط العلم الحديث في زعم النافلين عن حدوده فلا مانع من أن يكون منكر الشيطان ومؤوله بنزعات الشر منكراً للرحمن أيضاً ومؤوله بنزعات الخير !!

بقى أن فضيلة الشيخ شلتوت قال لى عند اجتماع لجنة النهوض بالمساجد فى بيتى بمصر الجديدة وكنا عضوين فى تلك اللجنة : « أنا لا أنكر وجود الشيطان وكيف أنكر وجود إبليس » .

وكانه يقول إن الشيطان الذى أنكره غير الشيطان المعروف المسمى إبليس . وهو يريد بهذا القول القصير تهينة خط الرجعة لإنكاره بتأويل قوله الأول بصدد الإنكار .

وكان لفظ الشيطان فى الحقيقة صالحاً لأن يكون له معنى مجازى غير معناه المعروف كما فى قوله تعالى : « وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً » لكن أقوال الشيخ التى تقوّلتها من قبل تأييداً لقوله المنكر كادعاء أن القرآن لم يعين كنه الشيطان وإنه جارى عقائد العرب ، يناقى قوله الأخير الشفهى فى تأويل الشيطان الذى أنكره أولاً ، وقد صدر هذا الإنكار منه عند تفسير قوله تعالى : « وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً » مع أن تمام هذه الآية نفسها وهو « لعنه الله وقال لا تأخذن من عبادك نصيباً مفروضاً » يتعين فى إبليس ويأبى تراجع الشيخ تحت ستار التأويل .

عود على بدء : كنت قلت : كأن الرأي العام العلمى الذى راقب المناقشة الصحفية الجارية بين الشيخ محمد عبده وبين الأستاذ فرح أنطون فى حينها وفيما بعد ذلك الحين ، اطمأن إلى جانب الأستاذ فرح فأخرج الدين من دائرة العقل والعلم ، وبقى من بقى بعد هذا من المسلمين على دينه - إن لم يكن من العامة السذج - فى عقيدة يساورها الشك فى صحتها أو يخاطبها الحذر من وضعها موضع البحث والنظر ، فلا ينبس بكلمة فى هذا الصدد كما قال الأستاذ فريد ويخلى الجو للذين يتكلمون ويدسون فى كلامهم ما يهيب الأذهان لقبول ما يستبطنونه ويتمسكون به من الإلحاد ، من غير مبالاة ولا وجل من مقبة ما يدسون ، تيقناً منهم بأن مصير إخوانهم القارئىن مصيرهم متى وصلوا إلى درجاتهم العلمية .

ففكرت ملياً وملئى الأسى والأسف ، ثم رأيت من الواجب بل من أوجب الواجبات أن أدعو هذا الرأي العام العلمى المعاصر إلى الإفاقة عن غيه وأريه الغبن الفاحش فى اشتراطه الضلالة بالهدى لا من ناحية الدين فقط ، بل من الناحية العلمية أيضاً ، وإن كان الذين طبع الله على قلوبهم لا يفقهون العلم من الجهل ولا يفقهون التعليم والتنبيه ، إذ لا شئ من ذلك يسقط منى واجب التفهيم ولا من القارى واجب الإصغاء والاهتمام . ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة وإن الله لسميع عليم .

وبعبارة أخرى لما لم تنتج المناقشة الجارية بين الشيخ محمد عبده وبين الأستاذ فرح أنطون غلبة الحق على الباطل بل أدت إلى زعزعة مكان الحق فى قلوب كثير من المؤمنين بدلا من ترسيته ، وجب استئناف تلك المناظرة على أتباع الأستاذ فرح القائلين بمثل ما قاله وإثبات أن الدعاوى التى ادعاهها فى مناقضة العقل والعلم للدين افتتات على العقل والعلم القديم والحديث . اللهم إلا إذا كان العلم فى الشرق والغرب منحصراً فى علم الملاحدة مثل « بوختر » وأضرابه وأذنابه ، والعقل فى عقولهم السخيفة ، وليس الأمر كذلك

لأن في الغرب مسالك فلسفية ورجالاً آخرين كثيرين انتقدوا مذهب المادية الإلحادية والإلحادية الوضعية انتقاداً شديداً ولم يوافقوهم على القول بمناقاة العقل والعلم للدين .
وإني أردت أن أكون القائم بهذا الواجب الكبير^(١) مع عجزى وغربى بمصر وباللغة العربية ، لأنى بحمد الله غير غريب عن الإسلام وعن العقل الذى يحفه من كل جانب، ولأن الإسلام أيضاً أصبح غريباً في هذا الزمان فلا غرو إذا كان الغريب للغرب نسياً وظهراً . ثم إني مؤمل أن يكون قد حصل بعض الألفة في هذه البلاد بكتابتى العريضة الأعجمية، فإن وفقنى الله عز وجل لإعادة أحد من القراء إلى رشده بإزالة الشبه التى ألقاها في قلبه دعاة الإلحاد ومستبطنوه الدساسون - الذين ذكرهم الأستاذ فريد وجدى بك تبجحاً بهم وإنذاراً لى بنبوغهم - فهو غنيمتى من هجرتى إلى مصر ، غنيمتى الباردة التى لا تنغص بهجتها شمس مصر في الصيف ولا خيال ظلال بوسفور ، وهو خدمتى وشكرى لمصر التى آوتنى وأسرتى^(٢) والتى كانت لها سمعة قديمة في الإسلام منذ فتحها عمرو بن العاص في عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنهما

[١] خلاصة المقصود من هذا الكتاب إحياء علم أصول الدين الذى نجاه الناعون في مصر باسم علم الكلام ، إحياءه بتدريس من لم يدرسه أو تفهيم من لم يفهمه من الدارسين منحصراً في مسائل منه تشتد الحاجة في هذا العصر إليها وإلى تفهيم من لم يفهمها ، بأسلوب مزيج من الفلسفة القديمة والحديثة وطريقة تخضع لها العقليات المستعارة من الغرب ، مع بعض من غير مسائل علم الكلام شديد الحاجة إليه أيضاً بل شديد الاتصال أيضاً بذلك العلم . وليس المقصود استعراض علم أصول الدين بجميع مباحثه في هذا الكتاب ، ولا أن يكسب به القارئ النجاح في الامتحانات المدرسية التى يحصل الفائز فيها على الشهادات بل ليكون ناجحاً في الامتحان الأكبر الذى ينتظره في الآخرة ويعيش في الدنيا مؤمناً حقيقياً .

[١] ولا تقل كيف تقضى لمصر حق الشكر بهذا الكتاب مع ما فيه من النقد المر لكثير من كبار كتابها وعلمائها الحاضرين والغائبين ؟ لا تقل هكذا لأن الشكر النافع للمشكور لاسيما من مثلى يكون كذلك . أما شكر المدح والثناء فمصر متخمة منه بأحيائها وأمواتها . على أنى - كما يرى القارئ - لا أضن بهذا النوع من الشكر أيضاً عند ما وجدت أهله في غضون مباحث الكتاب وأدعو الله سبحانه أن يكثر من أمثالهم .

ومكانة معروفة في العلم مفد توطئها وقضى نحبهم فيها أئمة الدين العظام - الشافعي والليث والزني والطحاوي والجصاص وابن الحاجب وابن الهمام وأكل الدين والاثقاني وعز الدين بن عبد السلام وابن دقيق العيد وابن خلدون والبدر العيني وابن حجر المسقلاني والسبكي والجلال السيوطي وغيرهم ممن لا يحصى عددهم ، ودامت سيادة الإسلام والعلم فيها إلى أن خلف من بعدهم خلف سودوا العقلية الإلحادية التي يتصل حبلا بالجاهلية القديمة الفرعونية وضيعوا سيادة الإسلام بين الجاهليتين الحديثة والقديمة .

ثم إن مسألة وحدة الوجود التي ترجع إلى فكرة جد غربية في موقف العالم من الله كما أشرت إليه في اسم الكتاب ، رأيها عقلية شائنة بين طائفة من المتصوفين يرأسهم الشيخ محي الدين بن عربي وبين مكبريه من المسلمين الذين لا يقدرون قبح خطر تلك العقلية على العقيدة الإلهية الصحيحة ، بالرغم من وجود كثير من العلماء الأعلام بين أولئك المكبرين ، ورأيت بعد تفكير ملي أن هذه النظرية العظيمة الخطر والضرر مشتقة من القول بأن وجود الله عين ذاته كما ذهب إليه الفلاسفة وتبهم جمع من محقق المتكلمين ومتأخريهم وفضلوه على مذهب جمهور المتكلمين القائلين بأن وجود الله غير ذاته ، أي غير متحد معها في التصور ، والخلاف بين الفريقين في مسألة كون وجود الله عين ذاته أو غير ذاته بحث معروف في علم أصول الدين . فأردت درس المسألتين أيضا في هذا الكتاب أعنى مسألة وحدة الوجود ومسألة كون وجود الله عين ذاته درسا وافيا يستكشف جذور ما فيهما من الأخطاء والأضاليل ثم يستأصلها وإياها .

فهذه أربع مسائل يتكون منها موضوع الكتاب جعلت لكل واحدة منها بابا ، مسألة إثبات وجود الله إثباتا علميا لا يقل قيمة وقوة عن مسائل العلوم المثبتة بل يفوقها ، ومسألة وحدة الوجود وما اشتقت هي منه ، ومسألة إثبات إمكان المعجزة وممها إثبات

النبوة وإثبات النشأة الأخرى مع ما فيها من بعث وحشر ونعيم وعذاب ، ومسألة فصل الدين عن الدولة هل يسوغه الدين الإسلامى وتتطلبه مصلحة الأمة أم تمانعانه ؟ ومسألة وحدة الوجود التى هى الثانية من هذه المسائل الأربع المتكون منها الكتاب والتى شغلت أذهان كثير من مفكرى الإسلام واستعصت على الفحول من العلماء الأعلام : جاءت فى كتابى وحيدة فى بابها من حيث تحمى الدافع إلى نظرية غريبة كهذه لا ينساق إليها العقل إذا خلى وطبعه ومن حيث التعمق فى المقارنة بين أدلة الإثبات والإبطال . والكاتبون عن هذه المسألة فى الأزمنة القريبة إنما حاموا حول اكتشافها من بُعد ولم يدقوا الباب فضلاً عن دخولهم الدار . ومن نكده الأيام وطفیان الجهل أن يكتب عن هذه المسألة الموصاء شاعر عراقى أو ناثر مصرى معروفان لو فرض فرض المحال فأتحدت الموجودات على مقتضى وحدة الوجود وأصبحت موجودا واحدا ينطوى على وجودها أيضا ، لأفسدا تلك الوحدة بشنوذ عقلهما عن عقول الآخرين .

فأماننا أربع مسائل لا تقل أخطارها خطراً فى الدين والمجتمع عن أولاهما مع كون هذه الأخرى أحوج الكل فى زماننا إلى الدرس والتمحيص لكون انحذاع الناس بها أكثر وظنهم أنها منشأ رقى الأمم الأوروبية وأن ترك العمل بها منشأ تأخر المسلمين^(١) كما أشار إليه مؤلف « حياة محمد » وكما ادعاه الأستاذ فرح أنطون مناقش

[١] كما أن الإيمان بالقدر الذى يؤول إلى عقيدة الجبر والذى يلام به الإسلام وينسب تأخر المسلمين إليه فى زعم الزاعمين من أهل الغرب ومقلديهم فى الشرق ، غيت بتحقيقه مرة ثانية فى هذا الكتاب بعد أن درسته مستقلا فى كتابى « تحت سلطان القدر » وتمقت فى دراسته ، لكونه من أعوص مسائل الدنيا الدينية والعلمية . . حتى إن أحسن حل له فى الاعتراف بامتناعه عن الحل . فهو يجارى مسألة « وحدة الوجود » فى الإعضال وإن كان خطر الخطأ فيه لا يبلغ مبلغ خطر الخطأ فيها . . وللعقل السليم أن يتخلص من إعضالها بالبت فى إبطالها ، من دون أن يكون له التخلص من إعضاله .

الشيخ محمد عبده ولم يرد عليه الشيخ ردًا حاسمًا وإنما أجاب بما يشبه التفهيم أمام خصمه أكثر من الرد عليه فحمل تأخر المسلمين على جود علماء الدين . وجاء هذا الجواب ضئلاً على إباله ، فصدق الناس ما ادعاه مناقش الشيخ في المسائل التي كانت مواضع الخلاف بينه وبين الشيخ وصدقوا الشيخ في هجومه فقط على جود العلماء فأصبح مصيبة رابعة على الإسلام زيادة على المصائب التي أنت من قبل خصمه .

وشاهدى على صدق قولى هذا أيضاً ما كتبه الأستاذ فريد وجدى بمناسبة ما حدث في تركيا من فتنة ترجمة القرآن وإقامة الترجمة التركية مقام الأصل العربى فى الصلاة وغيرها^(١) ولم يقتصر الأستاذ على تحييد حادثة الترجمة فقط ، بل جذب جميع ما فعلته حكومة أنقرة ، وإن كان جل ما كتبه بهذا الصدد قبل أن عين مديراً ورئيس تحرير لمجلة الأزهر . وقد ذكرت ذلك ورددت عليه فى كتابى « مسألة ترجمة القرآن » . ولا بد من نقل بعض كلمات الأستاذ المذكورة هناك ليعلم مبلغ خروج الناس على الجود بعد أن شجهم الشيخ محمد عبده عليه كقوله :

« إن الشعب التركى الذى أشبه الشعوب الحية فى دخوله أدوار الانقلابات الاجتماعية ليستحق منا كل الإعجاب وكل التشجيع إن لم يكن باعتبار أنه أقرب الأقربين إلينا فباعتبار أنه دفع شبه القائلين بأن العالم الإسلامى متحجر لا يصلح أن يجارى سواء فى حياة الحياة الاجتماعية » .

وقوله : « فنحن الذين شهدنا هذه الآية [يعنى الانقلاب التركى السكالى] محرم علينا أن نصغر من شأنها أو أن نمر بها غير مكترئين ، فإننا سنمر فى كل الأدوار التى مر بها الترك متى جاء دورنا فى نهوض حقيقى صحيح فإن لم نتعلم مما دخل فيه الأتراك درساً فلا أقل من أن نعجب به مع المعجبين » .

[١] وما يلت النظر أن هذه الفتنة على الرغم مما وجدت مظاهرين فى مصر مثل الأستاذ فريد وجدى بك والأستاذ الأكبر المراعى لم تنجح فى تركيا التى هى محل حدوثها .

يعنى المعجبين الغربيين الأجانب عن الإسلام، وأكثرهم إعجاباً به أعداءهم للإسلام والترك، لأن خلاصة ذلك الانقلاب قطع صلة الترك بالإسلام وبتاريخ الترك الذى مضى فى المجاهدة فى سبيل الإسلام وإعلاء كلمته، والذى لم يجرى فى ماضى الترك أشرف من ذلك التاريخ ولن يجرى فى المستقبل لا جاءهم الله به ماداموا منحرفين عن الإسلام. ثم إن الخلاصة الثانية لتلك الانقلابات القضاء على جميع مقومات الترك من الدين والزى والحروف واللغة حتى الموسيقى وحتى النكاح والفيرة على النساء، ولا يتمنى مثله لقوم إلا عدو ذلك القوم. فالأستاذ فريد وجدى الذى يتمنى لمصر أن تمر بكل الأدوار التى مر بها الترك السكاليون متى جاء دور مصر فى نهوض حقيقى صحيح، معناه أنه يتمنى أن تكون لمصر حكومة لا دينية وحروف لاتينية ولغة غير عربية أو عربية عامية ونكاح غير شرعى وقانون يبيح زواج المسلمات بغير المسلمين ويبيح الارتداد عن الدين ويساوى فى الميراث بين الذكر والأنثى ويأمر بلبس القبة وخلع الطربوش والعمامة ويقاقل من أراد لبسهما ويسد المحاكم الشرعية والمعاهد الدينية ويمنع منح جواز السفر إلى الأقطار الحجازية لأداء فريضة الحج ويحل الجمعيات الدينية مثل جمعية تحفيظ القرآن والهداية الإسلامية والشبان المسلمين وشباب محمد. وهكذا يكون لمصر النهوض الحقيقى الصحيح، كما كان لتركيا الجديدة.

وهذا الأستاذ مدير « مجلة الأزهر » اليوم ورئيس تحريرها الذى ما كنت أحب إطالة الكلام عنه وعن مذهبه فى الإسلام والقرآن والنبوة والمعجزة لكنه يتمثل شخصه ومركزه فى منبر الأزهر دليلاً ناطقاً بحال مصر وموقفها من الإسلام، هذا الأستاذ كتب مرة أن الأمم الإسلامية لى حاجة إلى تقليد الغربيين فى كل شىء حتى ملاحيمهم ومراقصهم وإلحادهم إن أرادت أن تبلغ شأوم فى حلبة الحياة^(١)

[١] ما أشبه هذا القول بقول « آغا اوغلى احمد » من كتاب أنقرة: « إنا عزمنا أن نأخذ كل ما عند الغربيين حتى الاتهامات التى فى رثيهم والتجاسات التى فى أفعالهم » .
(٢٤ - موقف العقل - أول)

وأن اليابان لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه إلا بعد تقليدكم في جميع هذه الأمور . وادعى في كتابه « الإسلام دين عام خالد » أن علماء الغرب مستغنون عن الاهتداء بهدى الشرائع المنزلة لأنهم أنفسهم وضّاع الشرائع والمذاهب وهذا القول من الأستاذ الذي لا يؤمن بمعجزات الأنبياء يدل دلالة واضحة على أن منشأ عدم هذا الإيمان عدم إيمانه بنبوات الأنبياء بمعناها المعروف عند أهل الأديان وهو كونهم مبعوثين من عند الله إلى الناس ، إذ لو كانوا كذلك لكان الناس عامتهم وخاصتهم سواء في وجوب طاعتهم والعمل بشرائعهم التي أتوا بها من الله كما يكون عامل الملك وقانون حكومته مطاعين للجميع من غير فرق بين الخاصة والعامة فيه ، ولكان ما قاله الأستاذ من استغناء العلماء والحكماء الغربيين عن طاعة الأنبياء بمثابة استغنائهم عن طاعة الله .

ومعنى كون الإسلام ديناً عاماً خالداً في نظر الأستاذ أن هذا الدين مستمد لكل تجديد وكل تعديل وتعديل حتى قال الأستاذ الكبير محب الدين الخطيب صاحب مجلة « الفتح » عن الأستاذ فريد وجدي بمناسبة مقالة له نشرت في « الفتح » رداً على مقالة الكاتب الكبير الرحوم الأمير شكيب أرسلان ، وما أحسن قوله :
« الأستاذ لا يزال مصرّاً على أننا نحن المسلمين في أنحاء المعمورة مجبولون على الجود وأن هذا الجود لا يمكن علاجه إلا بنسف الإسلام وأنه بعد انقضاء الأمد الطويل على الثورة التي يُنسف بها الإسلام سيرجع الثائرون على الإسلام إلى الإسلام فيكونون أحسن منا نحن الجامدين » .

وأنا أقول ليسمع مفتي الديار المصرية الشيخ محمد عبده في قبره أقوال رئيس تحرير مجلة الأزهر الناسفة للإسلام في معالجة جوده ، وهو الذي طالما كان يشكو في حياته من جود الأزهر ، فليسمعها وليتهج من كثرة ما أثمرته شجرة الخروج على الجود .
وبقية الكلام في الجود والخروج على الجود تأتي إن شاء الله في الباب الرابع المقود لمسألة فصل الدين عن الدولة .

سؤال مفروصه أُورده علىَّ ثم أُجيب عنه :

فإن قيل إن ثورة الأستاذ فريد وجدى على الدين دفاعاً عن ثورة الأتراك الكمالين وقوله الشاذ في آيات المعجزات والبعث بعد الموت الواردة في القرآن والتي وجدها الأستاذ لا تأتلف مع العقل والعلم ، وقوله في حاجة الأمم الإسلامية إلى تقليد الغربيين في كل شيء حتى ملاحيتهم ومراقصهم وإلحادهم ، وقوله باستغناء علماء الغرب عن الاهتداء بهدى الشرائع الإلهية المنزلة على الأنبياء .. كل ذلك من الأمور الماضية التي لا ينبغي أن نذكرها مهما كانت قريبة المهد لم يتسها قراؤها ، لكن الأستاذ يحامى اليوم من علامبر الأزره عن الإسلام كأحد علمائه الغيورين على دينهم وكحجائمه التي اشتهر بها في ماضيه البعيد . وما فرط منه بين ذلك الماضى والحال يكون عفواً كشر مضمحل بين خيرين ، فالأستاذ ليس من الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا المذمومين في كتاب الله ، بل من الذين آمنوا ثم ثاروا على الدين ثم سكنت ثورتهم وآمنوا من جديد . فهل من الحق والعدل هذه المؤاخذات المصوبة نحوه وإدخال شخصه في مقدمة هذا الكتاب المؤلف ضد الملاحظة كمنصرهام من أسباب تأليفه ؟

قلت على فرض توجيه هذا السؤال إلى فاني أسأل القائل السائل : هل الأستاذ رجع في دوره الثالث عن أقواله في دوره الثاني الثائر ، وصرح بكونه مخطئاً في تلك الأقوال ؟ ولا سيما في قوله بأن آيات المعجزات وآيات البعث بعد الموت من متشابهات القرآن غير المفهومة أو غير ممكنة القبول عند العقل على ظواهرها ، استبعاداً منه لوقوع تلك المعجزات في زمان الأنبياء ووقوع البعث بعد الموت للإنسان إذا جاء وقته المقدر بمشيئة الله^(١) وقوله بلزوم تقليد الشرق الغرب في كل شيء حتى في إلحاده

[١] وجواب هذا الاستفهام أن الأستاذ لا يسه مركزه في عالم التحرير أن يرجع عن أخطائه مهما عظمت ، فهو لا يتبرها أعظم من مركزه ، ولو وسعه مركزه لا يسه فهمه أن يقدر =

وملاهيته ومراقصه إن أراد أن يرق رقيه . وقوله باستغناء العلماء الغربيين عن اتباع الشرائع المنزلة . وقوله في مقالة عنوانها « سطوة الإلحاد على الأديان » ولا أدري أين نشر الأستاذ هذه المقالة وإنما رأيت نقولا عنها في مجلة « الهداية الإسلامية » بمددها الصادر في صفر سنة ١٣٥١ قال :

« تقدم الزمان وأفلتت الحكومات من سلطان رجال الدين فاقتصر سلاح الدين على ما كان لديه من قوة الإقناع وفي هذه الأثناء كان العلم يؤتي ثمراته من استكشاف الجمهورات وتخفيف الولايات وترقية الصناعات وابتكار الأدوات والآلات ويعمل على

عظمة تلك الأخطاء . فلا يتنازل أبداً عن ضلالة القديم في جوهره ، لاسيما إذا سبق أن ناقشه أحد على ذلك الضلال ، وإنما يسعى ليسيفه في أسلوب يظن الغافل أنه يقوم بواجبه في رئاسة تحرير « مجلة الأزهر » وربما يتجلد فيصرح بأنه ثابت في رأيه أو بالأولى يصرح بتأنيدهم منه من يفهم أنه ثابت في رأيه الذي يبعد عن وظيفته في الأزهر بمد المشرقين وهو لا يتزحزح عنه قيد شمرة . ألا يرى أن الأستاذ بعد أن مضت عليه في دوره الثالث سنوات طويلة وأوشك أن تكون أقواله في دوره الثاني المادحة للإلحاد النافية للمعجزات نسباً منسياً ، يقول في الجزء السابع من المجلد الحادي عشر « لمجلة الأزهر » من مقالة له عنوانها . « السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة » :

« الأمور الحارقة للنواميس في وقعة بدر »

انظر إلى هذا الكلام كيف يتراجع فيه الأستاذ بين إنكار المعجزات والاعتراف بها ؟ فأولا يدعي أنه يكتب السيرة المحمدية تحت ضوء العلم أي يكتبها على الأسلوب العلمي خالية عن الحوارق التي هي المعجزات السكونية ومتفقة مع النواميس الطبيعية ، بناء على أن العلم والناويس الطبيعية لا يقبلان الحوارق ، ولهذا أدخل الدكتور هيكل باشا كتابه « حياة محمد » من المعجزات السكونية واعتذر عما فعله بأن العلم لا يقبلها . وهكذا يريد الأستاذ فريد وجدى أيضاً أن يكتب في « مجلة الأزهر » السيرة المحمدية ، لا كما كتبها كاتبو السيرة القدماء المضيفون إلى حياته صلى الله عليه وسلم حوارق . ولما قال الأستاذ بعد عنوان مقاله النقول آتفا :

« تماز المصور النبوية » يعني عصور الأنبياء « بالحوارق لنوانيس الطبيعية . فأسلطير الأديان ملائى بذكر حوادث من هذا القليل كان لها أقوى تأثير في حمل الشعوب التي شهدها على الإذعان للمرسلين الذين حدثت على أيديهم . =

تجديد الحياة البشرية تجديداً رفهما عن المستوى فشعر الناس بفارق جسيم بين ما انتهوا إليه في عهد الحياة الحرة وتحت سلطان العلوم المادية وبين ما كانوا عليه أيام خضوعهم لحفظه العقائد . فانتهاز الإلحاد فرصة هذا الشعور الجديد وازداد كلبا على مهاجمة الدين واستهتر في مطامعه فرمى إلى القضاء عليه القضاء الأخير .

== « وقد حدثت أمور من هذا القبيل في العصر المحمدي صاحبت الدعوى في جميع أدوارها وكانت أعظم شأنًا وأجل أثرًا من كل ما سبق من نوعها . ولست أقصد بها ما تناقله الناس من شق الصدر وتظليل الغمامة وانتشاق القمر وما إليها مما لا يمكن لإثباته بدليل محسوس ومما يتأتى توجيهه إلى غير ما فهم منه ؛ ولكن أقصد تلك الانقلابات الأدبية والاجتماعية التي تمت على يد محمد صلى الله عليه وسلم في أقل من ربع قرن . وقد أعوز أمثالها في الأمم القرون المديدة والآماد الطويلة .

» وقد لاحظ قارئنا أننا نحرس فيما نكتبه في هذه السيرة على أن لا نسرف في صرف كل ناحية إلى ناحية الإعجاز ، ما دام يمكن تحليلها بالأسباب العادية حتى ولو بقي من التكلف . مسايرة لمذهب المبائين في الثبوت والمحافظين على إقامة الدستور العلمى ، ثقة بأن بحثا لا تحترمه النخبة المثقفة ولا تجد فيه صورة صحيحة لمثلها الأعلى في عرض المسائل وتحليلها لا يمكن أن يؤدي إلى ما قصد منه من الخدمة العامة .

ومعنى هذا القول أنه يحرس فيما يكتبه على إخراج الحوادث التي اعتبرت معجزات عند قدماء المسلمين ، من أن تكون معجزات وردوا إلى الأمور العادية حتى ولو بقي من التكلف . وليس الدافع إلى هذا إلا كون العلم لا يقبل المعجزات وأن النخبة المثقفة ثقافة عصرية تؤمن بالعلم ولا تنبل للمعجزات التي لا يقبلها العلم .

فظهر أن الأستاذ بعد أن تولى الوظيفة الأزهرية كالأستاذ قبله في عقلية المناوئة للمعجزات ومذهبه مذهب المحافظين على إقامة الدستور العلمى الذى لا يقبل ما لا يمكن لإثباته بدليل محسوس كالأمور النبوية التي تؤمن بها الأديان ، وليس هذا إلا مذهب ملاحدة الماديين والإنشائيين أو الوضعيين . ومراده من النخبة المثقفة التي لا يحترم عنده ما لا تحترمه هي ، الفئة التي عبر عنها حين كان حرا من وظيفته الأزهرية بالشرق الإسلامى المستبطن للإلحاد . فالأستاذ لم يغير شيئا من مبادئه الصالحة . فهو عند القيام بواجبه في رأس « مجلة الأزهر » يستطيع أن يحول وجهه إلى نخته ونخبة قارئيه فيصارعهم في مناجاتهم ولا يكتم نخته بفئلة القراء المؤمنين من ناحية وبضف مركزهم في البلاد من ناحية ، رغم تسميتها بالبلاد الإسلامية . فأين لجنة الفتوى الأزهرية ورئيسها الذى أرسل كتابا ==

وقوله أيضا في تلك المقالة : « وهم (يعنى رجال الدين الذين قد يتستر فيعبر عنهم بحفظة العقائد) يرون أن العلم والفلسفة ينقصان من أطرافهم كل يوم وأن الناس يتسللون عنهم زرافات حتى لم يبق سواهم في المجال الذى هم فيه . فابتنى على ذلك أن الفلسفة المادية تهتم الطبقات المتعلمة وأصبحت عنصراً من عناصر روح العصر تنزل منها العادات والآداب والأخلاق بل والأنظمة والقوانين والمثل العليا » .

= إلى وزارة الشؤون الاجتماعية يعاتبها على مانعته مجلة الوزارة واستفتى المسلمون اللجنة بشأنه من أن سيدنا موسى لقيط وسيدنا عيسى في حكم اللقيط ينسب إلى نحرار ؟ أين لجنة الفتوى ؟ ولماذا لا ترى « مجلة الأزهر » وما يكتب فيها رئيس تحريرها ؟ ولعل محرر « مجلة الشؤون الاجتماعية » لا يملك حذافة كافية في صنعة الدس فلا يستطيع القيام بخدمة المبادئ العلمانية اللادينية من غير أن تثير ضجة المسلمين من أصحاب الأفكار القديمة . أما محرر « مجلة الأزهر » فقد رأيت كيف يكلم الناس في مقالة واحدة بلسانين ويتناجى مع فريق من مخاطبيه في غفلة فريق .

فهو في الخطوة الأولى من كتابة « السيرة الحمديّة » يسجل على مذهبه ومذهب نخبته في المعجزات ، ثم لا ينسى أن يولى وجهه الآخر نحو منصبه في رئاسة « مجلة الأزهر » وقرائه من غير نخبته فيفكر في أن النبي لا بد أن تكون له معجزة ، فالواجب في حياة نبينا المتنازة على حياة أسلافه الكرام أن تشتمل على معجزات ليست بمعجزات ، والأستاذ لا يعجز عن الجمع بين هذين النقيضين ، حيث قال أولاً عن عصور الأنبياء لأنها عصور الأساطير من حيث اشتغالها على الحوارق للنواميس الطبيعية وإن واضعي تلك الأساطير وضعوها لأن لها أقوى تأثير في حمل الشعوب على الإذعان للمرسلين . فهذا إعلان من رئيس تحرير « مجلة الأزهر » بإنكار المعجزات جميعاً للإنكار واحدة منها مثل تولد سيدنا عيسى من غير أب كما فعلته « مجلة الشؤون الاجتماعية » .

ثم يقول : « وقد حدثت أمور من هذا القبيل في العصر الحمدي » ، فنظفه يعترف للعصر الحمدي بما أنكره لعصور الأنبياء من المعجزات وحملها على الأساطير ، ثم يضيف إليه قوله : « وكانت أعظم شأننا وأجل أثرنا من كل ماسبق من نوعها » وهو مقدمة للرجوع من الإقرار إلى الإنكار ، يعنى أن معجزات العصر الحمدي ليست كمعجزات العصور الأولى من قبيل الأساطير ، ثم يزيد في إيضاح مراده مما اعترف للعصر الحمدي بما أنكره للعصور الأولى من الحوارق فيقول : « ولست أقصد بها ما تناقله الناس من شق الصدر وتظليل الغمامة وانشقاق القمر وما إليها مما لا يمكن إثباته ببديل محسوس » راجعاً إلى مذهبه الأصلي الذى هو إنكار المعجزات مطلقاً سواء كان للعصر الحمدي أو لغيره من العصور المتقدمة ، لأن هذه الأمور الثلاثة التي ذكرها أمثلة لما لم

فعلى ما ادعاه الأستاذ الشامت بالدين وحَفَظَة عقائده أن العلم قد قضى عليهم كلهم القضاء الأخير . وكان الأستاذ يوم كتب هذه الأقوال لا يدري أنه سيتولى الوظيفة الأزهرية ويدخل في عداد حفظة العقائد المقتضى عليها وعليهم . فهل حدث قارئه عن الطلسم الذى أحيا به الموتى؟ ولم يكن الأستاذ يؤمن بالمعجزة ولا بالبعث بعد الموت

== يقصده من المعجزات المحمدية التى اعترف بها، أمثلة الخوارق الحقيقية للنواميس الطبيعية . وهو أى الأستاذ لا ينأى بجانبه عنها لشبهة في صحة رواية بعضها بل لكون كل منها مما لا يمكن إثباته بدليل محسوس . فذهب مذهب الماديين غير المؤمنين بنير المحسوس ، مع أن الأمثلة المذكورة من الأمور المحسوسة في حينها . فإذاً يلزم من نفاها أن ينفى كل ما مضى في التاريخ وينفى حتى وقعة بدر لعدم إثباتها اليوم بدليل محسوس . لكن مراد الأستاذ من إمكان إثبات الشيء بدليل محسوس إمكان الإثبات بمثال محسوس من جنسه في العصر الراهن وذلك بأن لا يكون من الخوارق للنواميس الطبيعية . وإعراضه عن الأمثلة الثلاث المذكورة التى تناقلها الناس ليس لكونه يدعى أنها لم تقع في حينها بل لكونه يدعى عدم إمكان ذلك لمخالفتها النواميس ، وهذا هو الداء العياء للفرق الإسلامى العصرى المثقف بالثقافة المادية والذى لم يتخلص منه الأستاذ رغم توليه الوظيفة الأزهرية منذ سنوات طويلة ورغم نقاشه في خلال هذه الوظيفة الأستاذ نصيف المنقبادى المحامى المادى وستنكلم على ذلك النقاش أيضا .

فحصل مذهب الأستاذ فريد وجدى بك في المعجزات أن ما سبق الإسلام منها في عصور الأنبياء كلها أساطير وما ينسبه الناس إلى العصر المحمدى من الخوارق للنواميس الطبيعية فهى أيضا أساطير لا أصل لها .

ثم إن الأستاذ الذى لعب دوراً ولقنا إليه من ألف والدوران المنتهى في إنكار المعجزات المحمدية أيضا ، يمود فيحاول أن يستخرج من الأمور الواقعة في بدر غير الخارقة للنواميس الطبيعية خوارق لتلك النواميس مثل غلبة العدد القليل من المؤمنين على العدد الكثير من المشركين ، ولينظر القراء من غير النخبة المثقفة إن لم تنظر هي : كيف يكون الأستاذ التكرار للمعجزات الخارقة للنواميس مضطرا إلى إيجاد معجزات خارقة للنواميس من الأمور غير الخارقة ؟ فهذا الاضطراب منه حسبهمنها - لو كان ينقعه التنبيه من غيره ومن نفسه - على خطأه الفاحش في إنكار معجزات الأنبياء الخارقة للنواميس وعلى أن المعجزات يلزمها أن تخرق النواميس الطبيعية لتكون معجزات ، وإلا فلماذا يسمى الأستاذ أن يقلب الأمور الواقعة في بدر مما لا يخرق النواميس الطبيعية فيجعلها خارقة لها كقلبة القليل على الكثير؟ وهى رغم ادعاء الأستاذ أشبه بالأمور العادية منها بالمعجزات لوفوع ==

فهل الطلسم بين فكى قلمه إن شاء يوما قضى به على الدين وإن شاء يوما قضى على العلم
(وسيجىء ذلك منه) وأحيا القضى عليهم الأولين فينضم إليهم؟ أم الأستاذ كما قال
للشاعر:

يوما يمان إذا لاقيت ذا يمن وإن لقيت معديا فعدنانى
وهل صرح الأستاذ أيضا بمد تولى الوظيفة الأزهرية ، برجوعه عن تحييد
الانقلاب التركى اللادينى وتشجيعه قائلا: «إننا سنمر بكل الأدوار التى مر بها

== مثله فى جيش من لا يدعى النبوة . وكمنه قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله وإن كان ذلك لاسيما
مثل غلبة بدر فى غاية الدور ، لكن المعجزة لا تطلق على النواذر وإنما تطلق على الخوارق .
ومثل ما وقع فى بدر من غلبة القلة على أضعافها من الكثرة ولم يصح مع ذلك عده معجزة
لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم تلك الانقلابات الأدبية والاجتماعية التى تمت على يده فى أقل من ربع
قرن والتي اعتبرها الأستاذ معجزة أعظم شأنًا وأجل أثرًا من المعجزات كما نقلنا من قبل ، وهى ليست
بمعجزة حقيقة لعدم كونها خارقة للنواميس فهى معجزة وليست بمعجزة فى الوقت نفسه ، معجزة
لكونها أعظم شأنًا وأجل أثرًا من المعجزات ، وليست بمعجزة لعدم كونها خارقة للنواميس ،
ولكونها ممكنة الحصول على يد غير النبى عند الأستاذ نفسه ، حتى لو لم تكن كذلك وكان حصولها
على يد غير النبى مستحيلًا كانت خارقة للنواميس وكان حصولها على يد النبى أيضًا مستحيلًا عند
الأستاذ . فإذن لا يصح ذكر هذه الانقلابات من الأستاذ على أنها معجزة دالة على نبوته صلى الله
عليه وسلم .

ودليل آخر على أن الانقلابات الأدبية والاجتماعية التى تمت على يد نبينا ممكنة الحصول عند
الأستاذ على يد غير النبى ، أن الانقلاب التركى الذى تم على يد مصطفى كمال فى أقل من ربع قرن
جدير أيضًا عند الأستاذ أن يعد معجزة وهو يفت صاحب هذه المعجزة بأنه «عبرى أنقذ أمة
الترك من مخالب الدول العظيمة الغالبة فى الحرب العالمية الأولى» فجعلها كآثارها غالبية على العالمين
وأرى العالم أكبر مثال لنفعية القليل على الكثير ، وزاد على ذلك «أن دفع أمة الترك للتقدم بخطوات
لم يعمد لها مثيل ولا فى تقدم الأمة اليابانية» فهذه غلبة ذلك العبرى وهذا انقلابه اللذان تما على
يده . والغريب أن الانقلاب الاجتماعى الذى تم على يد مصطفى كمال تجلّى بهدم الانقلاب الاجتماعى
الذى تم على يد نبينا وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وكان نعم الأستاذ لمصطفى كمال خاليا فقط عن ==

الأثرak متى جاء دورنا في نهوض حقيقي صحيح فإن لم نتعلم مما دخل فيه الأثرak فلا أقل مع أن نعجب به مع المعجبين» (١).

ثم هل نوابغ الكتاب والشعراء في البلاد الإسلامية الذين ذكر الأستاذ استبطانهم الإلحاد رجعوا بعد تولى الأستاذ رئاسة «نور الإسلام» و«مجلة الأزهر» عما يستبطنونهم وأصبحوا من أنصار الإسلام؟ وكان في الإمكان أن يجاب عن هذا السؤال الأخير بالإثبات لو وجدت رئاسات مثل رئاسة مجلة الأزهر ووُلّئ كل واحدة منها واحد من أولئك المستبطنين، أو كانت لآية المحكمات والمتشابهات التي وجدها الأستاذ في القرآن

== وصفه بصفة النبوة على الرغم من كونه صاحب معجزة أعظم شأنًا وأجل أثرًا عند الأستاذ من المعجزات .

الحاصل أن الأستاذ يصير على إجمال المعجزات الحقيقية وعدم الاعتداد بها إلا من الأساطير، مستنداً في إصراره إلى دعوى التماشي مع العلم، ثم يسمي في اعتبار الحوادث التي لا يصح عدّها من المعجزات، معجزات! حتى إنه يغمض عينيه عن ألف من الملائكة مردفين أمد الله بهم المؤمنين في وقعة بدر، كما قال الله تعالى «إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين» يغمض عينيه عنهم مع كونهم منصوباً عليهم في كتاب الله، ومع كون نص الكتاب هذا مذكوراً في مقالة الأستاذ عن السيرة النبوية ومع كون الإمداد بالملائكة معجزة حقيقية غير قابلة للتأويل بالأسباب العادية، وأصل العلة التي تفكر الأستاذ معتلة بها مع مفكرة نخبته المثقفة المصرية كونه لا يؤمن بالمعجزات، فلهذا تراه يتلاعب بها نخباً وإثباتاً. وغير خاف على الفطن أن في اعتبار ما ليس بمعجزة معجزة، علاوة على إلغاء المعجزات التي تكون خارقات للعادات والنواميس الطبيعية والتي هي المعجزات الحقيقية، استهانة مضاعفة بالمعجزات وإنكاراً لها مضاعفاً.

[١] راجع كتابي «مسألة ترجمة القرآن» ص (١٤٢). على أن من رأى الجزء الثاني من المجلد الثامن من «مجلة الأزهر» الصادر تحت إشراف الأستاذ فريد وجدي وقرأ التفريط الآتي لم يتردد في الحكم بأن الأستاذ في دوره الثالث لم يتغير عنه في دوره الثاني: «كأل أناتورك.. هذا عنوان ملحق لمجلة الهلال نشرته في نهاية سنة ١٩٣٦ على عاداتها في نهاية كل سنة من سني حياتها المباركة. وموضوع هذا الملحق من أجل الموضوعات وأنفعها: درس حياة عبقرى أفتد أمته من مخالب الهلاك وزاد على ذلك بأن دفعها للتقدم بخطوات لم يعهد لها مثيل ولا في تقدم الأمة اليابانية فهذا الكتاب أخذ باللب من رواية وأنفع للفارئ من كتاب على» .

وأعلنها في « الأهرام » وقت حدوث النقاش بيني وبينه ، مائة الصواعق ، قيمة إقناعية حقيقية للوقاية من صاعقة الإلحاد .

وهل يُعقل أن رجلاً كالأستاذ هدم الأديان - ولو في زعمه - بمول العلم الحديث الذي اعترف له بالدولة في الأرض وقذف بما هدمه إلى عالم الأساطير قاطماً صلته بعالم الحقائق .. هل يعقل أنه يستطيع أن يبني ما هدمه في رأى ومسمع الشاهدين لحادثة الهدم أو بالأصح لحادثة مساعى الهدم .. هل يستطيع أن يبني بأقوال تناقض أقواله الأولى الهادمة لا مؤلفاً بين أقوال الدورتين دورة الهدم ودورة البناء ولا معترفاً في دورة البناء بأخطائه في عملية الهدم السابقة^(١) أفلا يقول الناس عن أقواله في دورته البنائية أنه يتكلم بدافع الوظيفة الرسمية لا عن عقيدة صميمية ولا يمدونه في تلك الأقوال « غير مصارع بالحقيقة غير أمثاله » كما ذكره هو نفسه عن نوابغ الكتاب والشعراء في البلاد الإسلامية المستبطين للإلحاد؟ فهل الأستاذ حين قال في دورته الهادمة وتشدد في القول :

« في تلك الأثناء ولّد العلم الحديث وما زال يجاهد القوى التي تساوره حتى تغلب عليها ودالت الدولة إليه في الأرض فنظر نظرة في الأديان وسرى عليها أسلوبه فقذف بها جملة إلى عالم اليتولوجيا « الأساطير » ثم أخذ يبحث في اشتقاق بعضها عن بعض واتصال أساطيرها بعضها ببعض فجعل من ذلك مجموعة تقرأ لا لتقدس تقدسها ولكن ليعرف الباحثون منها الصور الذهنية التي يستعبد لها الإنسان نفسه ويقف على صيانتها جهوده غير مدخر في سبيلها روحه وماله .

« وقد اتصل الشرق الإسلامى بالغرب منذ أكثر من مائة سنة فأخذ يرتشف

[١] فكان الأستاذ فريد وجدى الباني غير الأستاذ فريد وجدى الأول الهادم وكأنه ليس عند الأستاذ الثانى خبر عن الأول ولا عن هدمه وإلا كان من واجبه أن يناقشه حساب الهدم.

من مناهله العلمية ويقتبس من مدينته المادية فوقف فيما وقف عليه على هذه الميتولوجيا ووجد دينه ماثلاً فيها فلم ينبس بكلمة لأنه يرى الأمر أكبر من أن يحاوله ولكنه استبطن الإلحاد وتمسك به متيقناً أنه مصير إخوانه كافة متى وصلوا إلى درجته العلمية.

« وقد نبغ في البلاد الإسلامية كتاب وشعراء وقفوا على هذه البحوث العلمية فسحرتهم فأخذوا يهيتون الأذهان لقبولها دسا في مقالاتهم وقصائدهم غير مصارحين بها غير أمثالهم تفادياً من أن يقاطعوا أو يُنفوا من الأرض » .

إلى آخر مقالاته المنشورة في « الأهرام » والتي لا تكفى لنفسها أنهر مقالاته اللاحقة المكتوبة في « نور الإسلام » أو « مجلة الأزهر » ولا أبحرها ، فهل هو حين صال صولته وقال قولته الخارجة على الأديان الجارحة في مقائلها ، لا يفكر فيما سيقوله يوماً في ص (٤٨٩) من الجزء السابع من المجلد الخامس من مجلة « نور الإسلام » الأزهرية :

« استمر الناس محتفظين بمقائدهم حتى ولدت الفلسفة المادية في القرن السادس عشر فاتخذت مظهرأ خطيراً من الاعتقاد بالعلم الطبيعي فافتتن بها قصار النظر (كنوايغ كتاب البلاد الإسلامية وشعرائها) وما زالت تؤثر في أمثالهم في القرنين التاليين وصارت فيهما له دولة (يسكت الأستاذ في هذه المرة عما لدولتها من المستعمرات في الشرق الإسلامي) فتدارك الله الناس بما وجه عقولهم إليه من مكتشفات علمية في المباحث النفسية أثبت لهم من طريق الأسلوب العلمي أن هؤلاء الماديين على ضلال مبين » .

فهل هذه المكتشفات العلمية ضد الفلسفة المادية الإلحادية وتدارك الله الناس بها كل ذلك حصل مع تولى الأستاذ رئاسة تحرير مجلة « نور الإسلام » أم إنه كان حاصلًا قبله فكتمه حين كتبه في « الأهرام » كلماته التي تحدى فيها الأديان بلسان العلم

الحديث وأعلن عجز الشرق الإسلامي عن أن ينسب بكلمة أمام هذا التعدي واضطراره إلى استبطان الإلحاد وتمسكه به متيقناً أنه مصير إخوانه كافة متى وصلوا إلى درجته العلمية ، وأعلن اضطرار الأستاذ نفسه بسبب هذه الكارثة إلى إلغاء ربيع القرآن وإخلائه عن المعنى المفهوم ؟ فن أين للأستاذ هذه القوة السحرية التي بُعثت بها الأديان من قبورها بعد أن كانت مقدوناً بها إلى عالم الأساطير ؟ فهو جمل الأديان أولاً أماتها العلم الطبيعي ثم يجعلها يحياها علم النفس ، مع أن كلا من الإماتة والإحياء لا أصل له إلا في مخيلة الأستاذ وستعرف ذلك .

وكان الأستاذ حين كان مع العلم الطبيعي والفلسفة المادية اللتين أذعن لدولتهما في الأرض ، يستشعر من تشابه الأديان السماوية بعضها مع بعض أنها من موضوعات البشر مشتقة الأصول بعضها من بعض وأن إسنادها إلى الله كذب ودجل ، كان في ذلك الحين يسلّم للعلم الطبيعي والفلسفة المادية بهذا الظن السيء نحو الأديان ولم ينسب بكلمة في الرد عليه مع أن تشابه الأديان السماوية الحقّ بعضها مع بعض في الأصول ضروري ، لكون واضعها جميعها هو الله الذي لا يناقض نفسه في أديانه التي دعا إليها عباده في أزمنة مختلفة^(١) كما ناقض الأستاذ نفسه حين اعتبر تشابه الأديان مع بعضها أولاً من عيوبها وهو يومئذ متكلم بلسان العلم لا يسمع لكلام غير كلامه . ثم اعتبر هذا التشابه بعد أن عين لرئاسة مجلتي الأزهر وتولى الدفاع عن الدين كمحام يدافع عن قضية موكله - من فضائلها مناقضة خالصة من غير أن يرجع عن قوله في مقالته التي ناقشته عليها والتي نقلت منها آنفاً ما يلفت إليه . فانظر ماذا يقول في الجزء السابع من المجلد السابع من « مجلة الأزهر » من مقالة رئيسية وهو يمتدح الإسلام :

[١] وكتاب الإسلام لا يخفى هذا التشابه بل يجهر بقوله في خطاب خاتم الرسل : « نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه » .

« ومن الوسائل التي تذرع بها الإسلام للتقريب بين الأمم المختلفة ما نص عليه كتابه في مسألة الإيمان برسالة محمد خاصة ورسالات المرسلين عامة ؛ فقد صرح سبحانه وتعالى أنه لم يرسل خاتم رسله بدين جديد ولكنه أرسله بالدين الذي أنزل على جميع من تقدمه من المرسلين . فقال تعالى (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب . وما تفرق الذين أوتوا السكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم وإنهم لفي شك منه مريب . فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير) .

« نصت هذه الآية على أن وظيفة النبي صلى الله عليه وسلم إعادة ما سبق به الوحي على السنة جميع المرسلين من الدين والصراط السوى لخرفه أتباعهم وخرجوا به عن حقائقه » .

وهل الأستاذ عند إيمانه بالعلم وحده - أعنى العلم المادى - لا يعرف ماسيقوله أيضا في ص ٣٩ من المجلد السادس من مجلة نور الإسلام :

« كتبنا مرارا في سقوط المذهب المادى وتدهوره إلى الحضيض وصورتنا بعض الممارك التي حدثت بينه وبين أركان العلم في العالم الغربي ونرى أن الواجب (واجب الوظيفة) يدعوننا إلى متابعة الكشف والإيضاح عن هؤلاء الممارك الفلسفية . فإن الدين في العصر الحاضر لا يُخدَم بأحسن من دحض هذا المذهب الذي كان له رواج لدى بعض العقول فتخليوه من العلم وما هو منه في كثير ولا قليل . »

وما سيقوله في مقالة ينشرها في جريدة « الأهرام » عدد (١٩٣٨) عند مناظرته الأستاذ نصيف المنقبادى المحامى الذى أنكر حادثات تحضير الأرواح وردها إلى الدجل والنصب مستنداً إلى عدم قبول العلم أى العلم الحديث المادى أمثال تلك الحادثات فقال الأستاذ فريد وجدى مجيباً عليه :

« يقول حضرته (يعنى الأستاذ المنقبادى) العلم يبرأ من هذه الخرافة . فأى علم يريد ، والعلم نفسه يعلم أنه لم يجاوز قشر الأشياء ولم يعد يعرف بعض العلاقات بينهما وأعلن حيرته في كنهه السادة وحقيقة الإدراك وما لا يحصى من دساتير فيزيولوجية وبيولوجية وغيرها مما لا يحصى كثرة وقد صرح أكبر أقطابه أنه لا يزال في المهد . فأى علم هذا الذى ينطق بلسانه الأستاذ المنقبادى ويجمله يقول هذا ممكن وهذا مستحيل ؟ »

وأنا أقول لو كنت مكان الأستاذ المنقبادى - ولا أود أن أكون - لقلت جواباً على سؤال « أى علم هذا .. » : هو العلم الذى قال الأستاذ السائل نفسه عنه في مقالته المنشورة على « الأهرام » قبل أن عين مديراً ورئيس تحرير لمجلة « الإسلام » الأزهرية تأييداً لإنكار معجزات الأنبياء :

« .. في تلك الأثناء ولد العلم الحديث وما زال يجاهد القوى التى كانت تساوره حتى تغلب عليها ودالت الدولة إليه في الأرض فنظر نظرة في الأديان وسرى عليها أسلوبه فقفذ بها جملة إلى عالم الميتولوجيا (الأساطير) ثم أخذ يبحث في اشتقاق بعضها عن بعض واتصال أساطيرها بعضها ببعض فجعل من ذلك مجموعة تقرأ لالتقدس تقديساً ولكن ليعرف الباحثون منها الصور الذهنية التى كان يستعبد لها الإنسان نفسه ويقف على صيانتها جهوده غير مدخر في سبيلها روحه وماله . وقد اتصل الشرق الإسلامى بالغرب منذ أكثر من مائة سنة فأخذ يرتشف من مناهله العلمية ويقتبس

من مدنيته المادية ووقف فيما وقف عليه على هذه الميتولوجيا (الأساطير) ووجد دينه مائلا فيها فلم ينبس بكلمة لأنه يرى الأمر أكبر من أن يحاوله ولكنه استبطن الإلحاد وتمسك به متيقنا أنه مصير إخوانه كافة متى وصلوا إلى درجته العلمية .

« وقد نبغ في البلاد الإسلامية كتاب وشعراء وقفوا على هذه المباحث العلمية فسحرتهم فأخذوا يهثون الأذهان لقبولها دسا في مقالاتهم وقصائدهم غير مصارعين بها غير أمثالهم تقاديا أن يقاطعوا أو ينفوا من الأرض »^(١) .

ولو كنت مكان الأستاذ النقبادى لقلت أيضا هو العلم الذى قال الأستاذ السائل نفسه عنه في مقالة أخرى سابقة : « إن العلم والفلسفة ينقصان كل يوم من أطراف رجال الدين وإن الناس يتسللون عنهم زرافات حتى لم يبق سواهم في المجال الذى هم فيه فابتنى على ذلك أن الفلسفة التهمت الطبقات المتعلمة وأصبحت عنصرا من عناصر روح العصر تنزل منها العادات والآداب والأخلاق بل والأنظمة والقوانين والمثل العليا » .

يكاد لا يوجد في الدنيا مثال لمناقضة الإنسان نفسه أبلغ وأظهر مما ناقض الأستاذ فريدوجدى بك بعد توليه الوظيفة الأزهرية نفسه قبل توليها : فهو يخوّل للعلم الحديث السادى أولا حق الحكم والسلطان في الأرض ثم حق القذف بالأديان جملة إلى عالم الأساطير ولتعليمه حق استبطن الإلحاد ، ويجعله يحكم باستحالة ما نطقت به كتب الأديان السماوية من معجزات الأنبياء وأنبياء البعث بعد الموت . وهو القائل ثانيا :

[١] نقلت كلام الأستاذ هذا من قبل أكثر من مرة أو مرتين أو مرات وبودى أن أكرره كلما دعت إليه مناسبة التحكك في هذا الكتاب بأقوال الأستاذ لأنه - ولم يحرك ساكنا غيرى عند نشره على صفحات « الأهرام » - حسب معرفا بموقف مصر من العناية بالدين ، والسهر على حياته وصيائه من مكاييد المعتدين .

« أى علم هذا الذى يحكم بأن هذا ممكن وهذا مستحيل ؟ والعلم لم يتجاوز قننر الأشياء وهو بعد فى المهد » .

ويكاد لا يوجد فى الدنيا بلد « كل شئ فيه ينسى بعد حين » مثل مصر كما قال أمير شعرائها ، ولا فى مصر مثل الأستاذ فريد وجدى بك حيث يجترى على أن يدعى تقيض ما ادعاه من قبل على صفحات الصحف اعتماداً على غفلة القراء واعتبارهم أقل من أن يسجلوا ما كتبه عليه ، لا رجوعاً عن دعواه الأولى واعترافاً بخطئه فيها ولو فعل ذلك كان فضيلة لنفسه ...

بل لا يكاد يوجد مثل مشيخة الأزهر رأت فى الصحف والمجلات مقالات تار كاتبها على الأديان جملة وحمل عليها حملات باسم العلم ساعياً لهدمها ورأت أنه ينكر معجزات الأنبياء والدار الآخرة ويلغى فى سبيل إنكارها ربع القرآن تقريباً . رأت كل هذا فانتدبت ذلك الساعى فى هدم الأديان وإقامة الإلحاد مقامها باستبطانه أولاً ثم الجهر به لما جاء أوانه ، للدفاع عن الإسلام ، انتدبت للدفاع عنه على الرغم من أنه ادعى عند ثورته على الأديان أن الإسلام كغيره فى عدم إمكان الدفاع عنه وأن إنقاذه وإخراجه عن حفرة الأساطير التى قذف به إليها مع سائر الأديان أكبر من أن يحاوله . محاول لكون القاذف هو العلم الحديث الذى دالت الدولة إليه فى الأرض .

وأنا لا أدري أى الموقفين أعجب وأمس بكرامة الواقف ؟ أموقف الأزهر الذى احتاج إلى شخص الهادم لأمر البناء ، أم موقف الهادم المتولى بناء ما هدم بيده ؟ وأطرف ما فى الأمر أن الرجل لا يستطيع البناء كما أنه لم يستطع الهدم ، وإنما هو هادم نفسه فى حالتيه ، وعلى هذا فقد يمكن الاعتذار عن فعل الأزهر الذى انتدب الهادم للبناء ، بأنه استدرجه ليهدم نفسه !!

أقول هذا غير حاسد الأستاذ فى مركزه بالأزهر ومجلة الأزهر وليس فى الإمكان

أن أحتل محله في رئاسة تحريرها ، ولكنه إن لم يوجد في الأزهر ولا في مصر للدفاع عن الإسلام غير من سعى بالأئس ليهدم الأديان كلها ولم يكن هذا التحول لشعور منه أو اعتراف بأنه مخطئ في أقواله السابقة الهدامة فيرجع عنها كما يرجع القائب عن ذنبه ، بل لأجل وظيفة في مقابل أجره لا بأس بها حتى إنه إن أقبل عن وظيفته خيف من معاودته إلى تعديه على الأديان، ولا تكون تلك المعاودة أول تحوله ضد الأديان. فما هو إلا كالسجين يؤمن شره مادام في السجن وسجن هذا السجن وظيفته الأزهرية، ولعل موقفه الخاص بين الموظفين يكفل له بدوام الوظيفة . لكنه إن لم يوجد في الأزهر ولا في مصر من يدافع عن الدين غير هذا الذي يدور مع الزمان وينقلب مع انقلابه فعلى الأزهر وعلى مصر العفاء .

وجدت عجيب من الأستاذ تحوله ضد الفلسفة المادية لا من قبيل تصحيح الخطأ ولا من حيث لا يشعر بالتحول بل من حيث لا يشعر به . انظر كيف نزل العلم الحديث المادى الذى ما زال يجاهد القوى التى كانت تساوره حتى تغلب عليها ودالت الدولة إليه فى الأرض فقضى بسلطانه المسلّم به على الأديان كلها ولم يستطع الشرق الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه مع جميع كتابه وشعرائه النوابغ (وأين علمائوه؟) أن يدافع عن دينه أمام القاضى عليه فلم ينبس بكلمة لأنه يرى الأمر أكبر من أن يحاوله بل اضطر إلى اعتناق الإلحاد ديناً سرياً له ... كل هذا مأخوذ من كلام الأستاذ فى إكبار ذلك العلم وتأثيره فى الشرق الإسلامى ضد الدين .. انظر كيف نزل هذا العلم بين عشية توليه الوظيفة الأزهرية وضحاها إلى حد أنه « كان يوماً ما له رواج عند بعض العقول أو بالأصح عند بعض قصار النظر فتخيلوه من العلم وما هو منه فى كثير ولا قليل ! » وكيف حق له هذا الاستصغار بعد ذلك الإكبار ؟ فإذا كان إذن معنى كون الشرق الإسلامى

يرى الأمر أى أمر الدفاع عن دينه أكبر من أن يحاوله ؟ وإذا لم يكن ما تخيلوه من العلم فى كثير ولا قليل منه فلماذا كان الأستاذ قبل توليه الوظيفة الأزهرية يحاول هدم الأديان به ويؤليه اسم العلم بلاء شديقه ويراء صاحب الدولة فى الأرض ؟ أفكل هذا الذى يسلبه الجدارة باسم العلم تعلمه الأستاذ فى هذا العهد الأخير ؟

وهل الأستاذ أيام إيمانه بالعلم وحده كان لا يعرف أيضا ما سيقوله فى ص (٦٩٥) من الجزء العاشر من المجلد السادس من « مجلة الأزهر » :

« مضى الزمان الذى كان يُعتبر الدين سخرة أو تقييداً للحرية الصحيحة أو حرماناً للنفس من مشتهياتها فى الحدود العلمية (قل أو شيئاً يقذف به إلى حضيض الميتولوجيا) وهذا زمان (لما جلا عيني الأستاذ بكحل الوظيفة) ^(١) تجلى فيه بالدليل القاطع أن الدين حاجة أولية للروح لا معدى لها عنه ^(٢) وإذا قلنا الدليل القاطع قصدنا به الدليل العلمى المؤسس على علم النفس . ولا يتسع المجال الآن لبيان ذلك على وجه يوفى بالحاجة العقلية من كل نواحى هذا الأمر الجلل ، ولكنى أستطيع أن أقول على عجل إن الفلسفة المادية التى حاولت فى قرون ثلاثة أن تقطع كل صلة بين الإنسان وما فوق المادة ، قد منيت بفشل حاسم لا قيام له من طريق العلم الطبيعى نفسه لا من طريق العلوم الدينية ، فقد توصل العلم إلى إحالة المادة إلى قوة أى إلى إثبات أن لا وجود لها وأنها عرض من أعراض القوة ، وبزوال هذه العقبة الكأداء من طريق العقل الإنسانى انفتحت أمامه باحة لا حد لها إلى عالم القوى التى هى مصدر كل موجود فى عالم الشهادة » .

[١] السكحل معروف وبمعنى المال الكثير .

[٢] الإيمان بالدين لكونه حاجة أولية للروح ليس بطريق متين فى إثبات الدين بل الواجب أن يؤمن به لكونه حقاً .

على أن انقلاب الأستاذ لحساب الدين ضد الفلسفة المادية بهذه الطريقة مما لا حاجة إليه للدين لأن صلة عقل الإنسان بما فوق المادة كانت موجودة قبل ما ذكره الأستاذ من وصول العلم إلى عدم وجود المادة.. وأن ما ذكره في هذا الصدد لا يثبت عدم وجودها ولا كونها عرضاً من أعراض القوة وإنما يُثبت كونها قابلة للفناء الذي كان معلوماً لأهل العلم الحقيقي، لأن كل شيء غير الله تعالى قابل للفناء عندهم، فمن مسائل التئون الكلامية المؤلفة في الإسلام قدماً أن العالم حادث وأنه قابل للفناء لأن ما لم يثبت قدمه لا يمتنع عدمه وأن المادة لم يثبت قدمها عند علماء الإسلام فلهذا لم يمتنع فناؤها. ثم إن المادة لو فرض أنها قديمة وأنها لا تنعدم بناء على أن ما ثبت قدمه امتنع عدمه فلا يمنع ذلك صلة عقل الإنسان بما فوق المادة، ألا يرى أن الفلاسفة الإلهيين أعنى المعترفين بوجود الله مثل أرسطو قائلون بقدم المادة مع القول بوجود الله فليس ما اعتبره الأستاذ عقبة كأداء بمقابلة ما ذكره في زوالها بمزِيل. لكن الأستاذ عند التكلم عن الفلسفة وعلوم الغرب ومكتشفاته لا يتكلم بميزان يميز النافع للدين من غير النافع بل ولا الحق من الباطل.

ومثال ذلك ما كتبه في مقالة بعنوان « إلى الذين لا يؤمنون بالغيب » ص ٧٥٠ من الجزء العاشر من المجلد الرابع من مجلة « نور الإسلام » عن أمور لم تدرِكها الحواس في حالتها الطبيعية مثل المكروبات وغيرها مما لا يحس وجوده إلا بآلات دقيقة راقية، ويحاول الأستاذ بتعدادها الاعتراض على الذين لا يؤمنون بالغيب، لكنه ينسى أو يتناسى كونه نفسه هو الذي علّم الناس ولا يزال يعلمهم عدم الإيمان بالغيب في تمسكه دائماً بقاعدة الفلسفة المادية القائلة بأن كل معقول لا يؤيده محسوس فلا يعتمد به. وعلى هذا فالذين لا يؤمنون بالغيب المألومون في مقالة الأستاذ لهم أن يقولوا جواباً على تلك الأمور التي عددها الأستاذ: إنها اليوم ليست بغائبة عن حواسنا ولو بواسطة الآلات ونحن لا نؤمن بالغيب ما دام غيباً، وماذا فائدة ذكر الأمور التي كانت غيباً

ثم أصبحت شهادة ، بصدد الاعتراض علينا ؟ فإن كانت فائدته أن يستدل بها على إمكان وجود غيب آخر لم يصر بمدِّ شهادة فلا يتعين أن يكون ذلك الغيب ما يعتقده المؤمنون بالدين مثل وجود الله ، مع أن الاعتراف بإمكان وجود الله مشلا لا يكفي في الدين بل يجب القطع بوجوده . فليس لنا بالنظر إلى أسلوب الأستاذ في الدفاع عن وجود الغيب إلا أن نقول للذين لا يؤمنون بالغيب: انتظروا وأنتم معذورون في الانتظار حتى تكتشف في الغرب آلة تعرض الله على الحواس !!

ومن قبيل ما كتبه الأستاذ في هذه المقالة ما كتبه في مقالة أخرى عنوانها : « لماذا يصادف أكثر الشاكين في المعلمين ؟ » ص ٣٨٢ الجزء الخامس من المجلد السابع من « مجلة الأزهر » وقد قال في صدر المقالة :

« من الشبهات التي تُكدر على بعض أذكىاء العامة صفاءم الاعتقادي أنهم يصادفون كثيراً من المعلمين شاكين مستهينين بالدين ، وبعضهم مجاهرين بالزندقة زارين بالاعتقادين ، وقد كثر أمثال هؤلاء في طلبة المدارس وبخاصة الذين يتلقون العلم منهم في أوروبا^(١) حتى لا يحجل الواحد منهم أن يهاجم معتقدات أبويه مثيراً عليهما من الشبهات ما لم يصلإ إليه ، فتسرب إلى عقول العامة أن العلم يفسد العقائد ويفرى بالزندقة ويعدّ القلوب للإلحاد » .

سبحان الله ، ما تسرب إلى عقول العامة من مضادة العلم للدين كان الأستاذ جهر به على صفحات « الأهرام » قبل الحصول على الوظيفة الأزهرية بأسبوع ، فهل كان هو يومئذ من العامة يجري على قلبه ما تسرب إلى عقولهم ؟ إلا أن يلاحظ الفرق بينه وبينهم بأن العامة لكونهم لم يصلوا إلى درجة الأستاذ العلمية لا يميلون إلى جانب العلم

[١] كان الأستاذ من قبل مجد طبيعياً التهام الفلسفة المادية للطبقات المتعلمة حتى إنه كان يشتم رجال الدين على انفضاض الناس من حولهم وعدم بقاء غيرهم في المجال الذي هم فيه كما سبق قلبه عن لفظه .

خاذلين الدين في الحرب القائمة بينهما، ولا يقاس عليهم الأستاذ طبعا لاسيما بعد أن قال ما معناه : « إن العلم قذف بالأديان جملة إلى عالم الأساطير وانتهى الأمر ولم يبق للناس إما أن يكونوا متدينين من غير علم أو يكون علماء بلادين فلهذا اختار الشرق الإسلامى وعلى الأخص نوابغه من الكتاب والشعراء أن يستبطنوا الإلحاد ، على أن يظلوا جهالا ، فمن تردد في اعتناق الإلحاد فنشأ نقصان العلم ولا بد أن يكون مصيره مصير النوابغ في قبول الإلحاد سرا أو جهرا متى وصل إلى درجتهم العلمية . »

هذا كله مأخوذ من نص كلام الأستاذ من غير أدنى مبالغة زدناها عليه ، فهكذا قال من قبل ورسخ قوله في قلوب المعترفين له بالنبوغ ثم أعدى الضلال منهم إلى غيرهم . فلا محل للتمجيب إذا كان أكثر المتعلمين بمصر وغيرها من البلاد الإسلامية وبخاصة الذين تلقوا العلم منهم في أوروبا مُلْهِمَةً أقوال الأستاذ المضلة ، شاكِّين مستهينين بالدين ألا يحبون أن يكونوا نوابغ بلادهم المتداد أن يكونوا ملاحدة والنتظر من كل من هو في سبيل التعلم أن يكون مصيره مصيرهم من الإلحاد متى وصل إلى درجتهم العلمية ؟ وكل كلام للأستاذ اليوم مخالف لما قاله أولا فليس يبعد أن يقول عنه الناس ولاسيما المتعلمون تلامذة الأستاذ الأولون : إنه محمول على مسلك الاستبطان الذى هو ملاذ النوابغ عند الحاجة كما نبه عليه الأستاذ نفسه من قبل وأطلهم على هذه المهمة أيضا . وإلا فكيف أمكنه اليوم أن ينبس بكلمة في الدفاع عن الدين على حين أن الشرق الإسلامى يرى الأمر - على قوله - أكبر من أن يحاوله ؟

وقال في آخر المقالة : « أكثر المتخرجين في العلوم يتوهمون أن ما حصلوه هو نهاية ما يبلغه الإنسان من العلم وأن الموازين والقياس التى تحت أيديهم تكفى لأن يدركوا بواسطتها ما هو موجود وما ليس بموجود وما هو ممكن وما هو محال . فتى دُعوا لينظروا في أمر من الأمور العلوية وزنوه بتلك الموازين فإن لم يتأثر به حكموا بعدم وجوده . »

« هنا لعل قائلا يقول : هذه موازيننا فإن كان لديكم غيرها فأتوا بها ، فإن لفتموننا إلى الموازين العقلية والذوقية فلا يخفى عليكم ما مُنيت به من النقد في المصور المتأخرة ، وهي وإن كانت قد أقنعت أهل القرون الخالية فإنها اليوم لا تقنع أمثالنا ممن أدركوا الفرق بينها وبين الدستور العلمى . »

ونحن نقول إن المنهج الذى انتهجه الأستاذ في إثبات الدين بقسر الوظيفة الأزهرية الطارئة غير مضمون النجاح ، لا أقول إنه غير صميمى في الدفاع عن الدين صميميته في حملته عليه حين كان حرا من الوظيفة ، لكنى أقول إنه لا يعرف طريق الدفاع الناجح كما أنه كان ولا يزال غير عارف بسخافة موقفه لما ضرب الدين بمدفع العلم ، فلو كان ذا بصيرة في موقف الهجوم لما اجتأ عليه ولو استبصر في موقف الدفاع وأدرك خطأه السابق لما سلك في الدفاع طريقا وعرا . فهو في حالته لا يفارق الضلال الفكرى ، فهو فيما نقلنا عنه آثما من السؤال المقدر الذى أورده على نفسه من جانب المتعلمين الشاكين ، نص على خطأه الذى كان دافعه في حالته الأولى إلى مهاجمة الدين ، وهو فيما سننقل عنه من جوابه على سؤاله ينص على محل خطأه في حالته الثانية . فهذا السؤال والجواب يلخصان ضلال الأستاذ القديم والحديث . ويلخصان أيضا أعماله ومساعيه وخدماته القلمية الموجهة نحو إرشاد الناس في دورتيه المختلفتين . فليس للأستاذ قناعة اعتقادية متقررة في مسائل الدين ، فهو يسعى لإقناع نفسه فيما كتبه لإقناع قارئيه على طول السنوات وهو في طليعة الشاكين عند ما يلومهم ويعمل على إزالة الشك من أذهانهم ، وهو زيادة على ما عليه الشاكون من أكبر المشككين ، وقد قرأتم سؤاله فاقروا جوابه عليه :

« فنحن نحييه بأن الحق سبحانه وتعالى قد أتى هذه النزعة العلمية بما يوفى بحاجتها فقد فتح على أقطاب العلم تحت إشراف البحوث النفسية أبوابا من المشاهدات المحسوسة خرت لها أعناقهم خاضعين ، ولكنهم لا يمرون هذه البحوث التفاتا ، فإن ذكروا

بها قالوا إنها أوهام قوم مخدوعين وهى فى الواقع تجارب ومشاهدات قام بها أقطاب العلم القدمين من أعضاء الأكاديميات وعمداء الجامعات ، فإن كان خصومنا يصرون بمد هذا على موقفهم فالتبعة عليهم لا على نقص الموازين .

« وهذا هو السبب الرئيسى فيما يصادفه الرأى من مظاهر بعض المعلمين بمدم الأبه بغير المسائل المادية وقد بينت أنهم فى هذا الشذوذ هم المقصرون ، وأن الحق جل شأنه آتى العقول فى كل زمان بما أحست بالحاجة إليه من وسائل البحث والتمحيص والسهولة إلى أقصى مراتب العلم بعالمى الشهادة والغيب » .

فالأستاذ بمد أن قال فى مقالته السابقة التى نقلنا عنها بعض الجمل : « وهذا زمان تجلّى فيه بالدليل القاطع على أن الدين حاجة أولية للروح » فكان هذه الحاجة إلى الدين ثبتت اليوم ولم تكن من قبل حاجة إليه ، وكأنه إذا ثبتت الحاجة إلى الدين يثبت الدين من نفسه !! قال : « ونعنى بالدليل القاطع الدليل العلمى المؤسس على علم النفس » فسجل على أن أدلة الدين لم تكن قبل هذا الزمان قاطعة ولا علمية .

وبمد أن أورد فى المقالة الأخيرة اعتراضه على ممتقدات الدين بالسنة الملاحدة المصريين وسجل مرة ثانية على أن الموازين العقلية المثبتة غير خاف على المصريين أنها ممنوعة بالنقد وأنها إن أقنعت أهل القرون الخالية فالىوم لا تقنع المعلمين المدرسين الفرق بينها وبين الدستور العلمى ، كما سجل عليه مرة ثالثة بقوله فى مقالة أفردا لنقد آراء الفيلسوف (على تعبيره) الزهاوى العراقى ونشرها فى الجزء الخامس من المجلد الثامن من « مجلة الأزهر » :

« أسلوب الفلاسفة الأولين الاعتداد بالمسلمات العقلية والقضايا المنطقية والتدرج منها إلى إدراك الغلل الأولية (يعنى إدراك وجود الله) وهو أسلوب أصبح لا يقنع أكثر المعلمين على الطريقة الحديثة » .

وقال في نفس المقالة عن الفيلسوف الذى ينتقد آراءه : « افتتن بمقررات العلم الطبيعى وشغف حبا بالفلسفة المادية تخلصته عن العقائد الدينية ولم يستطع أن يتغلب على عقائده الوراثة فيعلمن أنه أصبح ماديا^(١) فوق حائراً لا يدري بأى فريق يلتحق ؟ أيفريق الذين يؤمنون بالغيب أم بفريق الذين يؤمنون بالواقع ؟ »

فوضع الإيمان بالغيب فى مقابل الإيمان بالواقع وهو أقبح تسجيلات الأستاذ على نفسه كأن الإيمان بالغيب إيمان بغير الواقع^(٢) فزعزع بهذين القولين الأخيرين والذين قالمها قبلهما مكان الثقة بالدليل العقلى المنطقى القائم على أساس الدين أعنى وجود الله وخلى الزعزعة تفعل فعلها فى القلوب بل أيدها وأيد اعتراض خصوم الدين بقوله فى مقالة أخرى بصدد مدح العرب فى خدمة العلوم ص ٢٨٣ الجزء الرابع من المجلد الخامس من « مجلة نور الإسلام » : « ومما حير أنهم اتبعوا فى محوهم العلمية الأسلوب العلمى الذى يؤدى إلى نتائج صحيحة لا الأسلوب العقلى الذى يكثُر فيه الخطأ » .

بعد كل هذا الذى يقضى فى زعم الأستاذ على الدليل العقلى بالرغم من أنه كان مدار إثبات وجود الله عند علماء الإسلام على هذا الدليل منذ تأسيس فلسفة الإسلام بتدوين علم الكلام الذى هو علم أصول الدين الوحيد فى الإسلام^(٣) .. بعد كل هذا علق الأستاذ

[١] وقال فى نفس المقالة أيضاً : « إن الزهاوى كان يكتب شيئاً ثم يفضّه بقول آخر وهو أسلوب فى الكتابة كل ما يمكن أن يعتذر عنه أنه يلجأ إليه هرباً من تبعة ما قرره من الآراء الإلحادية فى نظر الرأى العام والحكومة ، ولكنه اعتذار غير وجيه ، وكان الأولى أن يتحمل تبعة ما يقول كما فعل جميع الذين تقدموه من ضحايا آرائهم أو أن يسكت » أقول أو أن يفعل كما فعل الأستاذ فريد نفسه فتأمل .

[٢] فلماذا إذن كان الأستاذ فى مقاله المذكورة من قبل يلوم الدين لا يؤمنون بالغيب مادام الإيمان بالغيب إيماناً بخلاف الواقع .

[٣] مر على الإسلام زمان كانت المترددون فى أمر الدين لا يقتنهم الدليل العقلى كالأيات والأحاديث فيطالبون العلماء بدليل عقلى وكان بعض معاني تلك المطالبة أنه لا يقتصر حل المسألة على =

أمل تأسيس العقيدة الدينية على أساس متين علمي ، بما اكتشفه أقطاب العلم في الغرب وما سيكتشفونه تحت اسم البحوث النفسية ، وبالخلاصة علق إثبات وجود الله باكتشافات « الاسبيريتيزم » واعترف في ضمن هذا التعليل بأنه لم يثبت بعد في صورة قطعية علمية ، لأن ما اكتشف منها أيضا لم يقنع أكثر المتعلمين المصريين الشاكين كما لم يقنعهم الدليل القديم العقلي المنطقي . أما كونه يحتملهم تبعة عدم الافتتاح بالدليل الجديد العلمي المكتشف فليس له الحق في ذلك ، لأن الأستاذ نفسه أيضا كان قبل تولي الوظيفة الأزهرية لا يقتنع بثبوت عقيدة الديانة بتلك البحوث النفسية ولم تكن تلك البحوث يوم أعلن الأستاذ عجز الشرق الإسلامي عن إنقاذ دينه المدفون مع سائر الأديان في مقبرة الأساطير ، مجهولة للذين لهم اتصال بالغرب واكتشافاته مثل الأستاذ ، وقد قرأت أنا كثيرا من تلك البحوث في كتاب ألفه كاتب تركي ونشره في سنة ١٩٢٨ وهذا التاريخ يتقدم بسنوات على مقالة الأستاذ التي صوب فيها حملته العنيفة على الأديان مستندا إلى العلم الحديث المادى والتي نشرها في « الأهرام » أثناء المناظرة الجارية بيني وبينه وتولى رئاسة المجلة الأزهرية بعد أسبوع أو أسبوعين ، وقد نقلنا عنها فيما سبق فقرات وسنقل تماما في نهاية هذا الكتاب إن شاء الله .

الحاصل أن الناظر المدقق يرى الأستاذ في دورة دفاعه عن الدين أى في دورة البناء أيضا لا يقطع ولا يتخلى عن الهدم كما أن دورته المتقدمة المتحاملة على الدين كلها هدم . وأصل الداء الذي ساق هؤلاء المتعلمين إلى الشك المنتهى في الإلحاد - وفي قلب الأستاذ أيضا على الرغم من تعيبهم به أثر عميق منه ينكس الفينة بعد الفينة - اعتقاد

== ما بين المسلمين ، لكن الأستاذ فريد وجدى بك تقدم شأوا آخر ففضى بآية المحكمات والمتشابهات على الدليل القلبي فيما بين المسلمين أيضا . ثم دار الزمان ومل الإنسان عقله فأصبح الآن لا يقنع الشاكين بدليل يقنع العقل فطالبونا بدليل يقنع البصر . ويخشى من حلول زمان لا يروج فيه غير دليل يشبع البطن !! وقد لا نقال إن قلنا بأن ذاك الزمان حل فعلا .

أن الله تعالى لا يثبت وجوده ثبوتاً علمياً ما لم تشهد به التجارب الحسية كما شهدت بسائر المسائل الثابتة في نظر العلم الحديث وأن ثبوته بالدليل العقلي المنطقي لا يكفي ، لعدم الوثوق بسلامته عن الخطأ . ولهذا لا ترى الأستاذ أبداً يجابه اعتراضه الحاكى عن أفكار الذين لا يقيمون غير ما تشهد به التجربة الحسية وزناً ، بأن الدليل المنطقي المبني على العقل يغني كل الغنى عن غيره وأنه دليل من الطراز الأول ، وكتابنا يُعنى على طوله بإزالة الخطأ الفاحش القائل بأن الحس والتجربة طريق الوصول الوحيدة إلى الحقيقة دون العقل ، إذ لا يمكن تثبيت عقيدة الدين إلا بإزالة هذا الخطأ الذي صعب الأمر على المتولين الدفاع عن الدين فتركوا الطريق العظيم المستقيم وسلكوا الترهات الصالح .

والأستاذ في دورة مؤازرته الدين يستمد دائماً من اكتشافات الغرب التجريبية ، كما أنه في دورة كتاباته ضد الدين كان أيضاً يقلد الغرب ولا يُرويه الدليل العقلي في دورتيه حتى دليل العلة الغائية الآتي في محله من الكتاب على الرغم من كونه مزيجاً بالتجربة ، لعدم محوضته فيها . وآخر آمال الأستاذ معلق بتكامل التجارب الحسية بواسطة ترقى البحوث النفسية في الغرب إلى حد أنها تُقنع المتعلمين المصريين الشاككين في حقبة الدين ولا تبقى مجالاً للشك في قلوبهم .

ومحور تمحيص البحث الذي تدور حوله أفكار الأستاذ وأقواله أن الدليل العقلي المنطقي الذي أقنع العقلاء والعلماء بوجود الله في القرون الماضية ، لا تقنع المتعلمين المصريين . ولكن المهم أن نعرف هل عدم اقتناعهم اليوم به ناشئ من عيب في الدليل العقلي نفسه ظهر للمصريين بعد أن كان خافياً على الأوائل ، أم العيب والتقصير في المصريين الذين لا يقتنعون به ؟ فقبل إعمال الفكر في الأمر يظهر لصاحب العقل ظهوراً بديهياً أن القول بكون الدليل العقلي المنطقي غير مقنع ليس بقول ذي عقل ،

فلماذا لا يقابل الأستاذ المتعلمين المصريين غير المقتنعين بالدليل العقلي المنطقي ، بهذا الاستنكار ليصدمهم عن غيهم ويوقفهم من غفلتهم ؟ أكان ذلك لعدم اعتماد الأستاذ نفسه على عقله ومنطقه وقوة إيمانه بوجود الله الذي يقوده عقله ومنطقه إلى هذا الإيمان ؟ فإذا هو إذن واجبه في رأس « مجلة الأزهر » ؟ فهل واجبه أن يقول للناس : انتظروا نتيجة تقدم البحوث النفسية في الغرب لتقتنعوا بوجود الله اقتناعا علميا ؟ والأستاذ وإن تراءى في مسألة عدم الاقتناع بالدليل العقلي المنطقي كالحايد الحاكي لرأى المتعلمين المصريين ، لكن ميله إلى رأى أولئك المتعلمين ظاهر من أنه لا يعاتبهم على عدم اقتناعهم بهذا الدليل وإنما يعاتبهم على عدم اقتناعهم بالدليل الجديد العلمي ، فيفهم أن الأستاذ نفسه في طليمة غير المقتنعين بالدليل القديم العقلي وإن لم يصرح بذلك تمام التصريح تخوفاً وجبناً ناشئ من عدم كونه على بينة من حقيقة هذه المسائل رغم وقوفه موقف المعلم الأول إزاء المتعلمين المصريين وغيرهم ، والأستاذ من دأبه أن يقول غيره ما لا يجترئ أن يقوله . ومع هذا فنحن قانعون بأن الأستاذ نفسه لا يمول على الدليل القديم العقلي لما ذكرنا الآن ولقوله الذي نقلناه أولاً من مقالة له يصرح بأن الأسلوب العقلي يكثر فيه الخطأ . لكن الخطأ في الأستاذ الذي يعيب الدليل العقلي بهذا القول ؛ وهذا القول أيضاً لا يصدر من صاحب العقل السليم ، لأن النزاع يلزم أن يكون في قيمة الدليل العقلي المنطقي الصحيح المستجمع لشرائط الصحة لا في قيمة الدليل العقلي الذي وقع الخطأ في ناحية من نواحيه ومثله لا يمد دليلاً حتى يعاب به الدليل العقلي المنطقي . فهل لنا إذا وقع الخطأ في بعض التجارب أن نعيب على التجربة مطلقاً ونحكم بعدم التعميل عليها أبداً ؟ وليعلم الأستاذ أن الدليل العقلي الصحيح الذي يعبر عنه بالدليل المنطقي كناية عن صحته يحتفظ بقيمته أبد الآبدين^(١) ولا يفوقه

[١] ولأن أذكر مثالا للدليل العقلي المنطقي داخلا في موضوع هذا الكتاب ومذكوراً في

بل لا يعدله أى دليل . ولعل الأستاذ وأمثاله ممن يستخفون بالأدلة العقلية المنطقية إزاء الأدلة التجريبية لا يعرفون أن المنطق لا تقبل قوانينه الانتقاض كالقوانين الرياضية ، ففي الإمكان أن تنحل القضايا التجريبية المقررة في يوم من الأيام بتجارب أخرى جديدة وليس في الإمكان أن ينحل دليل عقلى منطقى .

نعم يمكن أن يقال لا يقدر كل أحد على تمييز صحيح الدليل العقلى من سقيمه . وعلى ذلك فالدليل التجربى الذى يسميه المصريون وفيهم الأستاذ الدليل العلمى يكون بعد تقرر صحة التجربة وعرضها على غير المجربين الأولين دليل العامة ، والدليل العقلى

== محله منه ، وهو دليل وحدانية الله تعالى المعروف في علم أصول الدين ببرهان التمام المستبسط من قوله تعالى « لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا » فإن كان في استطاعة الأستاذ فريد وجميع خصوم الدليل العقلى المنطقى في المشرق والغرب نقضه فليقضوه فإنى أتقدم به . وقد سبق منا في رقم ٣ مثلاً عن كتاب الأستاذ محمد صبيح « محمد عبده » أنه وضع مسألة الوحدانية موضع امتحان طام لعلهم الأزهر ، مع مائة جنيه جعلها مكافأة للعالم الناجح في الامتحان فمجز جميع العلماء عن دخول هذا الميدان ثم قرر الشيخ نفسه الدليل الذى طالبهم به . هكذا حكى الأستاذ المؤلف حادثة الامتحان العام ولم يدع شيئاً من تفصيل ما وقع في الحادثة الهامة المذكورة من غلبة الشيخ محمد عبده وهزيمة من عداه من الشيوخ ، غير مذكور إلا الدليل الذى أقامه الشيخ وعجز عنه الباقون فلم يطلعن عليه الأستاذ .

ثم إنى راجعت « رسالة التوحيد » تأليف الشيخ محمد عبده لاطلع على دليله الذى أطراه الأستاذ محمد صبيح من غير ذكر الدليل نفسه فوجدته لا يكفى ولا يستقيم لإثبات المطلوب ، وإنما هو مثال للدليل العقلى المنطقى الذى يقول الأستاذ عنه إنه يكثر فيه الخطأ ويصعب تمييز الصحيح منه عن غير الصحيح . . ثم ذكرت في الرقم ٣ دليلاً آخر لهذا الموضوع . أما ذكر الصورة الصحيحة للدليل الذى أراد الشيخ أن يأتي به - والذي يسمى برهان التمام - فلم ينبج . . فقد أرجأته إلى محله من هذا الكتاب . وكلا الدليلين اللذين أوردت أحدهما في الرقم ٣ بدلاً من دليل الشيخ ، وأرجأت الآخر محالاً إلى محله الخاص بإثبات الوحدانية . . أتعدى أعداء الدليل العقلى المنطقى ليجدوا عيباً في أى واحد منهما يردونه بسببه على .

المنطقي دليل الخاصة والمعلول عليه كالإخصائيين المميزين للأحجار الكريمة الثمينة من زيفها ورخيصها^(١) .

ثم أقول للأستاذ : إذا لم تبين مسألة وجود الله على الدليل العقلي المنطقي فعلى أى دليل تبنيه ؟ وسيكون جوابه حتماً : أبنيه على الدليل العصري أى الدليل العلمى الطبيعى التجريبي ! وعند ذلك أقول ولا تمنعنى عن القول بحكاية البحوث النفسية الجارية فى الغرب ، أقول من غير انتظار لنتيجة تلك البحوث : إن العلم الطبيعى ولا أى علم تجربى لا يعطينا بوسائله التجريبية دليلاً على وجود الله وأعنى بذلك أنه لا يستطيع أن يعطيناه وهو أقل من أن يعطيه ولا يكفينا ما يعطيه ولا يقنعنا نحن أصحاب العقل والمنطق كما لا يقنعكم أنتم أعداء العقل والمنطق ، الدليل العقلي المنطقي . نعم إن دليل العلم التجربى لا يكتفى إزاء عظمة المسألة ، لأن أخص صفات الله ومميزاته وجوب وجوده وغير الدليل العقلي المنطقي قاصر عن إعطاء هذا الوصف أعنى وجوب الوجود لأى شئ . أثبت وجوده إلى الآن أو سيثبت من بعد . لكن أستاذ بحجة الأزره ، لعدم معرفته بعلم الكلام وعداوة لذلك العلم عداوة المرء لما لا يعرفه ، لا يعرف عجزه الأبدى عن إثبات وجود الله الذى هو إثبات وجود موجود واجب الوجود ، بواسطة العلم الحديث التجربى الذى لا يستطيع إثبات وصف مضاعف هو وجوب الوجود ، لما يُثبت وجوده ،

[١] كان يقول الأستاذ فيما قلنا عنه قريباً ، مستغفاً بالدليل العقلي المنطقي : « أسلوب الفلاسفة الأولين الاعتداد بالمسلّمات العقلية والفضايا المنطقية والتدرج منها إلى إدراك الملل الأولية وهو أسلوب أصبح لا يقنع أكثر المتعلمين على الطريقة الحديثة . ويقول الفيلسوف « كارو » من كبار أعضاء الأكاديمية الفرنسية فى كتابه « مذهب الماديين والعلم » « مسائل المنشأ والملل الأولى سواء كان المطلوب إثباتها أو نفيها فهى حائزة لصفة فوق التجربة لا يقدر على نزاع هذه الصفة منها أدق مهارات علم الجدل ولا أرق رقيات العلم . فإذا حصل الوصول إلى أعلى حد لمعرفة البقير فعند ذلك تمجز الحواس . وهذا المحل الذى تتوقف فيه الحواس مهما ساعدناها بآلاتنا الدقيقة الراقية هو دائرة الفكر والنظر » .

لعدم كون الوجوب في متناول التجربة كما كان الوجود في متناوله ، وإنما يستطيع إثبات ذلك الوصف المضاعف العلم القديم المبني على الأدلة العقلية لاسيما الدليل العقلي القائم على إبطال تسلسل العلل الذي خفي بطلانه على الشيخ محمد عبده فورط نفسه في القول بأن كل ما قيل أو يقال في إبطاله فمن قبيل الأوهام والخيالات الكاذبة . لكن القارى سينجلي عليه في هذا الكتاب بطلان ذلك رغم مساعي الشيخ لسد الباب على الإبطال وتعليق قفل كبير عليه . ومعنى قولى هذا سيقفه القارى حق الفهم عند تغلغه في أبحاث هذا الكتاب وأنا لا أذكر في مقدمته كل ما فيه .. والآن أقول شيئاً غير هذا في حسم المسألة المنازع فيها بينى وبين الأستاذ ومتمعليه المصريين . فمن شاء من هواة الدليل التجري الذين يقيمون له أكثر مما يستحقه من الوزن ، فلا يقتنع من الآن بكون التجربة قاصرة عن إعطاء الدليل على وجود الله !!

والذى أقوله الآن هنا^(١) إن المؤمنين بالله الماضين إيماناً بالغيب أى مع غير مشاهدته بإحدى الحواس الظاهرة ولكن مستيقنين بوجوده كأهم شاهده لاسيما علماء هؤلاء المؤمنين ، أسندوا إيمانهم على قول الأستاذ رئيس «مجلة الأزهر» وغيره من المثقفين المصريين، إلى غير مسند وهو الدليل العقلي المنطقي، إلا أنهم كانوا يزعمونه دليلاً يقتنع به فاقنعوا وآمنوا .. ولنقل وقد تحقق بذلك ما ذكره الأستاذ في مقالته التى نقلنا منها بعض الجمل ، من أن الله يأتى العقول فى كل زمان بما أحست الحاجة إليه من وسائل البحث . وبانقلاب الزمان تبين للأستاذ وزملائه المتصلين بالعلم الحديث الغربى أن دليل الأولين ليس بدليل علمى جدير بالاعتبار والافتناع - كإنص عليه أيضاً فى مقاله المنشورة أخيراً فى مجلة « الرسالة » بعنوان « الدين فى معترك الشكوك » لكن الأستاذ نراه بعد برهة من الزمان وجد ما يعوضه عما فات : وهو ما اكتشفه بعض العلماء الغربيين

[١] نقلت الصفتين الآتين فيما كتبه قبل الشروع فى الكتاب بعنوان « التعريف بمنهج الكتاب » لمناسبة دعت إليه .

في بحوثهم النفسية فاقتنع به واعتبره دليلا قاطعا علميا ؛ وإن لم يوافق على ذلك كثير من العلماء الآخرين وقالوا إنها أوهام قوم مخدوعين . وعلى فرض كونه دليلا قاطعا ، يلزم التنبيه إلى أن ما وجدته الباحثون الغريبيون واكتشفوه بالطريقة العلمية التجريبية ليس ذات الله أو وجوده بل وجود الروح ، إلا أن هذا الاكتشاف قد أطمع الأستاذ في أنهم يجدون الله أيضا في الزمن القريب أو البعيد سواء تحقق في المستقبل ما كان يطمع فيه أو لم يتحقق وصار طمعا مقضيا عليه بالخفية . وعلى كلال التقديرين فليس لدينا اليوم - استغفر الله - لا ، لا ، بل ليس لدى الأستاذ وأمثاله المصريين غير المقتنعين بغير الأدلة التجريبية ، ليس لديهم فيما بين الزمان الماضي الذي كان يُعتمد فيه على الدليل العقلي المنطقي وبين الزمان الآتي الذي يجد الباحثون الغريبيون فيه ذات الله بالطريقة العلمية التجريبية - إن وجدوها - كما وجدوا الروح . ففيما بين هذين الزمانين من المدة - مدة انتظار نتيجة البحوث النفسية - التي يمكن أن تطول أعصارا ، وفيها زماننا الحاضر الذي وُجد فيه الأستاذ على رأس « مجلة الأزهر » وهو يدافع عن الدين - لا دليل على وجود الله ، ولا يجري بالنسبة إلى هذا الزمان المتوسط ما قاله الأستاذ من أن الله يأتي العقول في كل زمان بما أحست الحاجة إليه من وسائل البحث ، لأنه لم يأت العقول الحاضرة وفيها عقل الأستاذ بما أحست الحاجة إليه من الدليل على وجود الله ، وإنما أناها بأن الدلائل القديم العقلي لا يكفي لإثباته علميا ولا أحست تلك العقول بالحاجة إلى دليل جديد يكفيه إذ لو أحست لآتي به ، وإنما أحست بالانتظار إلى أن يكتشفه الباحثون . فليس لدى الأستاذ وأمثاله المنتظرين دليل في هذا العصر على وجود الله ولا حاجة إليه محسوسة ، وما لا دليل على وجوده فلا مانع من أن يقال عنه إنه غير موجود عندهم في العصر الحاضر .

بل أقول إن الله تعالى لم يكن عندهم موجودا في الأزمنة الماضية أيضا التي كان

الناس فيها يظنونونه موجودا ، لعدم كون دليلهم على وجوده دليلا علميا يصح الاعتماد عليه .. بل أقول لا دليل عندهم أيضا على أن الله تعالى سيكون موجودا بأن يكتشفوا وجوده في المستقبل بالدليل العلمي . إذ لا معنى لانتظار الاكتشاف عن وجود ما لم يوجد إلى الآن ولم يقم على وجوده دليل يعتمد عليه^(١) . فإله تعالى على رأى الأستاذ المنجلى من أقواله - وبالأسف انجلاء منطقيا - ليس بموجود فى أى زمان من أنواع الأزمنة الثلاثة . نعم كان الله تعالى موجودا عند أصحاب السذاجة العامة والذين يلتحقون بهم من العلماء المعتمدين على الدليل العقلى ، غير أن العلم الحديث قضى على علم هؤلاء العلماء ودليلهم المبني على العقل والمنطق والأستاذ فريد وجدى بلغنا هذا القضاء من علامبر الأزهر الحديث .

فهذه خلاصة أعمال الأستاذ فى رئاسة « مجلة الأزهر » منذ أكثر من عشرين سنة أعنى لإعدام الله الموجود عند الناس فى الماضى وتعليق الحكم بوجوده من جديد إلى أجل غير مسمى بل غير مرجو الحلول . هذه خلاصة أعمال الأستاذ وخدمته للأزهر خاصة والإسلام عامة فليقدر أجرها فى الدنيا والآخرة القادرون .

وهذه السكلمة منى نموذج من الدليل العقلى المنطقى فى الرد على مقالات الأستاذ ضد هذا النوع من الأدلة . فإن لم يكفه مفتحها ومفهمها لخطئه الفاحش فى تقدير قيمة الدليل العقلى المنطقى قدرها فسيقول جوابا على : « هذا كلام معقول منطقى ولكن » « لم يعد للمنطق سلطان على الإنسان ! »^(٢) .

[١] فلو كان وجود الله معلوما بالدليل وكان المنتظر هو اكتشاف ذاته وحقيقته وكنا سلمنا بإمكان هذا الاكتشاف كان للانتظار وجه معقول .

[٢] هذه الجملة الموضوعية بين القوسين نص عليها الأستاذ فى مقالته المنشورة فى « الرسالة »



بنسبة النقاش بين أستاذين :

وقد وقع بعد سنتين من كتابة الأستاذ فريد وجدي هذه المقالات التي نقلتُ منها كلمات وعلقتُ عليها كلمات، أن جرى نقاش بينه وبين الأستاذ نصيف المنقبادي المحامي دام على صفحات جريدة « الأهرام » أكثر من أسبوعين وأردت أنا أن أنشر رأبي بصدد هذه المسألة المختلف فيها بين الأستاذين ، في مقالة طويلة وكتبتها فعلا . وبينما أنا منتظر لانتهاى القول منهما في مقالاتهما المتقابلة لأرسل مقالتي إذ أعلنت « الأهرام » إقفال باب المناقشة وكففت أنا عن طلب فتحه لنشر مقالتي .

والآن أريد أن أدرج تلك المقالة هنا وإن ازدادت بها مقدمة كتابي طولا على طولها ، لأنى لا أكون خرجت بهذه الإطالة عن موضوع الكتاب ، غاية الأمر أن القارى يصير عارفا في مقدمة الكتاب ببعض ما سيعرفه بعدها ، لمناسبة دعت إليه . وهذه هي المقالة :

رأبى فى موقفه الدين بالبحوث النفسية

— ١ —

عقليتان أراهما سائدتين اليوم فى الشرق الإسلامى بين الأوساط المتعلمة : أولاها أن التعلم والثقف للشرق أن يُثبت ما ثبت فى الغرب وينفى ما نفى فيه . فإذا اختلف كاتبان هنا فى مسألة وجرى بينهما النقاش على الصحف فالمنافعة والمناقشة إنما تكون فى : مَنْ منهما أصاب رأى السائد هناك ؟ أو بالأصح أصاب رأى الأخير هناك . والمستحق لأن يُعترف له بالنجاح والغلبة يُعتبر هو الذى جعل رأيه وعقله وقفاً لرأى الغرب وعقله ، فكأنه ظل الغرب المدود إلى الشرق لا عقل له يفكر بنفسه أو تكون

له حصّة من التفكير . وهذا التفانى في الغرب بمصر بين الكتاب المصريين يسود في حين أن الأزهر يحاول أن ينفلت من التقيد بأقوال أئمة المذاهب الأربعة في العمل وأقوال المتكلمين أهل السنة في العقيدة .

وثانيتها - ويمكن عدها فرع الأولى - أن حصول العلم اليقيني في الإنسان بوجود أى شيء ، يتوقف على رؤيته بالبصر أو لمسه باليد أو بالأعم على استناده إلى التجربة الحسية ولا يكفي فيه الاستدلال العقلي ، فإن حصل به اليقين في أماس ، كان من حق آخرين أن يشكّوا فيه وأن لا يمدوه عليهم حجة مفحمة . وهذا يؤدي إلى نفي الأديان المستندة إلى عقيدة وجود الله ، لعدم كون الله مرئيا أو ملموسا . فإن اعتقده المؤمنون موجوداً فهذا منهم يكون اعتقاداً لا يعترف به العلم . نعم إن العلم قد يعترف بوجود بعض ما لم تصل إليه التجارب الحسية إلى الآن ، لكنه يعترف في دائرة الإمكان بناء على احتمال وصوله إليه بالتجارب في المستقبل . أما الجزم بوجوده قبل الوصول إليه بهذه الوسطة الوحيدة أعنى التجربة الحسية فهو الذي ينافي العلم . وقد يغالى هواة العلم التجريبي فينكرون ما لم تصل إليه التجربة بتاتا . والفريق الأول الذين يرون في العلم سمة القول بإمكان وجود الله هم اللادينيون المعتدلون والفريق الثانى المتطرفون . وإنما سمينا أصحاب الاعتدال من هواة العلم أيضا باللادينيين لأن الدين يبنى على عقيدة الجزم بوجود الله لا على عقيدة تجويز وجوده الذى يرجع إلى الشك فيه ، كما لا يبنى على إنكاره البات .

فهذه العقلية اللادينية بكلتا درجتيه موجودة في مصر بين الأوساط المتعلمة ، يكون الإنسان على تقدير صحتها واقعا بين شرين عظيمين فإما علم بلا دين وإما دين بلا علم ، ومن المؤلم المؤسف أن الدين لا يمانع العلم في حين أن العلم يمانع الدين بشرطه فيما يعترف بوجوده . فلا بد إما من إبطال هذا الشرط وتخليص العلم من ذلك الجهل الدخيل ، ففيه أعظم خدمة للدين والعلم معا ؛ أو إثبات أن دائرة العلم أوسع مما يزعمون ويحتكرون

اسمه أى اسم العلم له . وفى الحقيقة أن الذى يسمونه « العلم » ويشترطون بناءه على التجربة الحسية ماهو إلا فرع محدود من فروع العلم . وهناك علم يجهلونه أحق باسم العلم مما يعلمون لا يخضع معلوم هذا العلم للتجربة الحسية ، وإنما يخضع للعقل والمنطق . ففى إثبات هذا النوع من العلم وضعه فى نصابه الحقيقى . أما الذين وضعوا العلم فى دائرة ضيقة مادية واشتروا له التجربة الحسية ثم اضطروا إلى تطبيق هذا الشرط على غير محله ليجعلوا الدين المبني على الغيب شهادة ، فقد حملوا الدين بالايحتملة وألقوا أنفسهم فى مأزق العقلية اللادينية . ثم إنا نرى المعتدلين من أصحاب هذه العقلية وهم الذين يميلون منهم إلى الديانة ويودون أن يكون الله موجوداً ، وجدوا فى شخص الأستاذ فريد وجدى وكىلا لهم فضولياً يعللهم الفينة بعد الفينة بالنتيجة المنتظرة للبحوث النفسية الجارية بين بعض البيئات العلمية فى الغرب .

وقد حدث نقاش على صفحات « الأهرام » منذ أكثر من أسبوعين بين الأستاذين محمد فريد وجدى بك رئيس تحرير « مجلة الأزهر » ونصيف المتقبادى المحامى فى هذه المسألة أعنى مسألة البحوث النفسية مع مسائل أخرى ، مثل كون منشأ الشيخوخة فى الإنسان المنتهى إلى الموت السكويرات البيضاء الموجودة فى الدم أو عدم كون الأمر كذلك ، ومسألة غريزة الخير كيف نشأت فى الإنسان ؟ فطعن الأستاذ المتقبادى فى مسألة تحضير الأرواح وردّها إلى الدجل والنصب . وتحامل عليه الأستاذ فريد وجدى ووثق المسألة بوثائق من شهادات علماء الغرب مؤملا منها كل خير للدين وعقائده ، حيال إنكار المنكرين الذين كانت لهم ولعلمهم المادى دولة وغلبة على الأرض فى العصرين الأخيرين إلى أن نجم العلماء الروحيون . وتأنق نجمهم بمحادثات تحضير الأرواح . ثم انضم الأستاذ أحمد أبو الخير بمقالاته المعنونة « عالم الأرواح » إلى جانب الأستاذ فريد وجدى بك .

وإنى أريد أن أبين رأيى فى هذه المسألة . أما المسائل الثلاث الأخرى فاثنتان منها

لاشك في خطأ الأستاذ المتقبادى فيهما وهما طمع الحياة الأبدية للإنسان في هذه النشأة الأولى وتعيين منشأ الأخلاق في الفرد والمجتمع وبنائها على أساس المنافع المتقابلة .

يريد الأستاذ المتقبادى أن يقول إن غريزة الخير في الإنسان والحيوان لا يعطيها الله وإنما تحصل وترقى بمرور الزمان . فرور الزمان المعبر عنه بقانون التطور أو النشوء والارتقاء منشأ كل كمال في العالم ، حتى إن الأستاذ على ما كتب في مقالته ينتظر من مستقبل البشر أن يكتشف لكل داء دواء ويتغلب على الموت وترقى أخلاقه فيلغى الحروب والظالم وينال الجنة والحياة الأبدية في الدنيا ، ولا حاجة بعد ذلك إلى جنة الآخرة . فطوبى للآتين وتمسكاً للماضين .

ونحن نرى الأستاذ يرى المستقبل البعيد ويففل عن حال العالم الحاضرة ومواقف الدول الراقية الظالمة . على الرغم من أنه يفضل التجربة على كل دليل ولا يمتد بغيرها ، فسكانه جرب المستقبل ولم يجرب الحال . على أن كون مبدأ المنافع المتقابلة يعين الظالم القوي على المظلوم الضعيف ، معلوم للمقل من غير حاجة إلى التجربة .

وما ذكره من تأخر الإنسان في الأخلاق وتقدم النمل فيها لكونها أقدم من الإنسان بملايين من السنين فجرى عليها من التطور ما لم يجر على الإنسان ، فبنى على فروض خارجة من حدود التجربة ، وإن كان أساتذة الأستاذ في الغرب الذين تكلموا في هذه المسائل استناداً إلى تلك الفروض ، والأستاذ نفسه الذى تكلم فيها استناداً إلى أقوال أساتذته ، يظنونها أحكاماً قطعية مؤيدة بالتجربة . فإذا كان مقتضى قانون التطور التقدم على حسب القدم فلماذا تقدم النمل القديمة على الإنسان الحديث ، في الأخلاق فقط ولا تتفوق في مزايا الإنسان البارزة ؟ وعلى فرض التقدم العظيم الذى ينتظره في المستقبل للإنسان إلى حد الحياة الأبدية كيف تستوعب كرتنا الأجيال الآتية المتراكمة من البشر التى تنسل ولا تمرض ولا تموت ؟ فعندئذ يشتد الجدل بل الاقتتال بين الأفراد والجماعات والدول وتتضاعف الشرور المتغلبة على غريزة الخير في الإنسان . وما أصدق قول المتنبي :

سُبِقْنَا إِلَى الدُّنْيَا فَلَوْ عَاشَ أَهْلُهَا مُنَعْنَا بِهَا مِنْ جَيْشَةٍ وَذُهُوبٍ
تَمَلَّكَهَا الْآتَى تَمَلَّكَ سَالِبٌ وَفَارَقَهَا الْمَاضَى فَرَاقَ سَلِيبٍ

لست أريد أن أكتب في هذه المقالة عن مثل هذه المواضيع، فقد وفيت الرد على مدعيات العلم والتجربة المغالي بها وأفضت في تحليل العقليات العلية الناشئة في الشرق الحديث من تنظيم الغرب واتخاذ القدوة في حقه وباطله، في كتابي الذي عنيت بتأليفه منذ سنين (هذا الكتاب) وسميت فيه أن أحدث انقلاباً في العقليات التي أشرت إليها في هذه المقالة وسأشره إن شاء الله .

ولا يعنيني مهما كان سبب الشيخوخة، وهو إحدى النواحي الثلاثة التي اختلف فيها الأستاذان والتي لم أكتب مقالتي هذه لبحثها، وإن كنت لا أجتاز قول الأستاذ المنقبادي في غضون كلماته: «أجدادنا من الحيوانات القديمة» من غير تنبيه إلى أن أكثر الناس وأنا منهم - لا يقبلون الدخول في ضمير الجمع التكلم الذي أضاف إليه الأستاذ أجداده .

فبقيت مسألة تحضير الأرواح لتكون موضع الكلام في مقالتي، لكن لا على أنها خرافة من الخرافات كما ادعاه الأستاذ المنقبادي ولا على أنها حقيقة من الحقائق المكتشفة الحديثة كما ذهب إليه الأستاذ فريد وجدي بك والأستاذ أحمد فهمي، فلا يعنيني أحد الطرفين في هذه المسألة أيضاً، وإنما دافعي إلى التكلم في هذا البحث ما يوهمه أقوال الأستاذين الآخرين المتفقين من كونهما ينتظران من نتيجة البحوث النفسية المجرأة في الغرب تأثيراً هاماً لمصلحة الدين باستئصال جذور الشبهة التي لازالت تحوم حول عقائده، بناء على ظن أن أدلة الدين التي كان الدين قبل تلك البحوث مبنية عليها عقلية أو نقلية، لا تُقنع أبناء العصر الأخيرة لعدم استنادها إلى التجربة الحسية التي هي طريق الإثبات العلمي الوحيدة، لكن تلك البحوث يكسب بها الدين دليلاً جديداً قائماً على شرط العلم الحديث كما قال الأستاذ فريد وجدي بك في مقالته المنشورة

في « الأهرام » عدد (١٩٣٦٨) وهي من مجلة المقالات المكتوبة رداً على الأستاذ المتقبادي : « ومن أحوج من أصحاب الأديان إلى هذا الدليل في عصر تقرر الفلسفة الوضعية فيه ^(١) أن كل مقول لا يؤيده محسوس لا يجوز الاعتداد به ؟ » وقال أيضاً : « يجب أن يكون الإنسان من أهل القرن الذي يعيش فيه »

فهذا ما أوهمه بل نص عليه كلام الأستاذين فريد وجدي واحد فهمي لاسيما كلام الأستاذ الأول وهو الموافق لسلكه الذي يمشي عليه في « مجلة الأزهر » منذ نولي رئاسة تحريرها معللاً قراءه الفيورين على دينهم والمشفقين عليه من اعتراضات المنكرين والمشككين ، ومتمنياً إياهم بتلك البحوث النفسية التي أجريت ولا تزال في الغرب . لكنني أنا لا أوافق على إسناد الدين إلى هذا الدليل الجديد المنتظر أن يطلع الباحثون عليه ، لا أوافق على إسناد الدين إليه ترجيحاً له على أدلته القديمة وأرى ضرره أكبر من نفعه .

فأولاً : لا أرضى أن يكون حتى ديننا مترجماً من الغرب مع كل شيء مترجم عنه بمصر ، لا أرضى أن نكون مؤمنين بالدين إذا آمن الغرب وكافرين به إذا كفر . وإني أخاف أن يكون قول الأستاذ فريد وجدي : « يجب أن يكون الإنسان من أهل القرن الذي يعيش فيه » مؤدياً إلى هذا .

وثانياً : أن انتظار ثبوت الدين ثبوتاً علمياً من نتيجة البحوث النفسية الجديدة ، يتضمن الاعتراف بأنه لم يثبت قبلها ثبوتاً علمياً يضطر العقول السليمة إن لم يضطر المعلمين المصريين ، إلى اعتقاد صحته . وهذا ما لا أرضاه ولا أقبله . وكيف أرضى أن يكون الدين من عهد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلى زماننا ، مع من مضوا فيما بين

[١] انظر درجة أهمية الفلسفة الوضعية عند أستاذ مجلة الأزهر على الرغم من أنها فلسفة « اوجوست كونت » الإلحادية التي سبق منا الكلام عنها ...

الزمانين من أئمة الدين وعلمائه الراسخين ، لم يثبت على أساس متين يؤيده العلم .. حتى جاء العلماء أصحاب البحوث النفسية في الغرب فأثبتوه أو سيثبتونه . فكان سلفنا الصالحين رضوان الله عليهم إن كانوا آمنوا بالله فإنما آمنوا به عن عاطفة قلبية أو متابعة وراثية . وليس فيهم ولا في علمائهم أصحاب التأليفات الذائمة الصيت في العلوم أحد كان على بينة من أمر دينه وعقيدته فيه ، فإن كان قد ظن أن دينه وإيمانه بالله مبني على دليل يفيد اليقين فليس الأمر في الحقيقة وفي نظر العلم المثبت كذلك .

أنا لا أَرْضَى هذه العقلية الخاطئة التي هي التسليم بعدم ثبوت وجود الله ثبوتاً قطعياً علمياً قبل البحوث النفسية التي يقوم بها الغربيون منذ آونة ، وأكافحها بكل ما أوتيت من قوة العقل وعزة النفس الدينية وتكون مكافحتها عندي ديناً « بفتح الدال » على كل عزير النفس من أصحاب الديانة الذين اتخذوا ما اتخذواهم من الدين ، عن علم وبينه .. فقد كان وجود الله ثابتاً ثبوتاً علمياً بتمام معنى الكلمة قبل تلك البحوث النفسية ، ومن اعتقد خلاف هذا فهو لا يدري بعقل نفسه كيف يكون الثبوت العلمي وإنما يترجم عن رأى وعقل غيره .

ثم إنى لا أقبل خصيصاً قول الأستاذ فريد وجدي بك اتباعاً لما قررته الفلسفة الوضعية الإلحادية فلسفة الإثباتيين أصحاب « أوجوست كونت » من أن كل معقول لا يؤيده محسوس فلا اعتداد به . بل أعده أكبر خطأ إن جاز صدوره من قلم أى أحد فلا يجوز من قلم رئيس تحرير مجلة الأزهر ، وإن جاز صدوره من قلمه فلا يجوز وقت ظهوره في مظاهر الباطن الذي قد هدمه قبل تولى هذه الوظيفة ، لأن فيه تصديق ملاحدة الماديين في أكبر دعوهم التي ينفون وجود الله أو على الأقل ثبوت وجود الله استناداً إليها . ومن العجب أن الأستاذ رئيس التحرير يتمسك بهذا القول في صدد الرد على مناظره الذي يعشى في مناظرته على أسس الماديين أعنى الأستاذ نصيف المنقبادي ، ولهذا كان الأستاذ فرح أنطون منشى مجلة « الجامعة » يقول

حين ناقش الشيخ محمد عبده قبل أكثر من ثلث قرن كما سبق ذكره ، مدعياً عدم
اثناف الدين أى دين كان مع العلم : « إن الدين هو الإيمان بخالق غير منظور ووحى
ونبوة ومعجزة .. الخ . وكلها غير محسوسة ولا معقولة (أى غير معقولة لكونها غير
محسوسة) ولهذا كان العقلاء من الفلاسفة ورجال الدين فى كل ملة (!) ينادون
بإبعاد العقل عن الدين . بل إن الأديان تخالف أيضاً العلم الذى يجب أن يوضع فى دائرة
العقل لكون قواعده مبنية على المشاهدة والتجربة » يعنى أن وجود الله لا يعتمد
على دليل محسوس فلا يقبله العلم . وهو عين ما قاله الأستاذ فريد وجدى فى الرد على
الأستاذ المنقبادى ، كأن هذا الأستاذ هو الشيخ محمد عبده والأستاذ فريد فرح أنطون !
أعنى أن فى قول الأستاذ غرابة إلى هذا الحد .

الحاصل أن القول بعدم الاعتداد بأى معقول لا يؤيده محسوس ، على الرغم من
تمسك الأستاذ مدير « مجلة الأزهر » ورئيس تحريرها ، به لمصلحة الدين ، مضر بموقفه
إلى حد أن إثبات وجود الله الذى هو رأس الدين لا يتسنى إلا بعد إبطال هذا القول ..
حتى إن شكوك المتعلمين المصريين الذين يشكو منهم الأستاذ فى مقالته السابقة الذكر
ترتكز على هذا القول ، وبإبطاله تنبذ تلك الشكوك لا بتحضير الأرواح ولا بغيره ،
ولهذا كان أهم ما عُنيت به فى كتابى الذى أشرت إليه (هذا الكتاب) هو هذه
النقطة .

وثالثاً : ماذا يتصور أن تكون نتيجة البحوث النفسية ؟ فلنفرض أن الباحثين
تمكنوا من تحضير الأرواح وضبط صورها الفطوغرافية ووزنها وجس نبضها وتسجيل
أصواتها كما ادعى أو بالأصح كما حكي . وعند ذلك يكون وجود الروح قد أثبت
بالتجربة الحسية ، لكن أساس الدين يقوم على وجود الله لا على وجود الروح ،
ولا يلزم من وجود الروح وجود الله إلا بقدر ما يلزم من وجود أى موجود ممكن

وجودٌ موجودٍ واجب ، ومعناه الرجوع في إثبات وجود الله إلى الدليل القديم العقل المنطقي ، فلا فرق بين الروح وغيرها من الموجودات في الدلالة على وجود الله . وإنما مناسبة مسألة وجود الروح بالدين أن ملاحظة الماديين إذا أنكروا وجود الله لعدم وجود من رآه وإن شئت فقل لكونه معقولا لا يؤيده محسوس ، كان يقال لهم : ولم يوجد من رأى الروح أيضاً مع أنه لا قبل لأحد بإنكار وجودها . فكانوا يضطرون في جوابهم إلى أن يقولوا ، نحن ننكر وجود الروح أيضاً ، وكان إنكارهم هذا الاضطراري يجلب عليهم الهزء والسخرية ويدل على تناهيهم في العناد والتمرد ، فكانت استفادة الدين من إنكارهم الروح مضطرين إلى إنكارها ، أكثر من استفادته في اعترافهم بها مضطرين إليه بالبحوث النفسية التي قام بها ولا يزال بعض علماء الغرب .

فإذا لم يبق لهم مجال في إنكار وجود الروح بعد تلك البحوث النفسية ، يُفتح لهم باب لإنكار وجود الله أوسع مما كان قبلها ، لأن لهم أن يقولوا : قد كان إنكارنا وجود الروح ناشئاً من عدم محسوسيتها ؛ وليس علينا من حرج إذا اعترفنا بها بعد ظهورها للحواس ، فأرونا الله كما أثبتهم الروح نعرف بوجوده أيضاً . وقولهم المفروض هذا يكون أوقع في النفوس من قولهم بنى وجود الروح كوجود الله . فهل يمكن تحضير الله لإغفامهم كما أمكن تحضير الأرواح ؟ وهل يتصور أن تبلغ البحوث النفسية في الغرب يوماً من الأيام مبلغ أن تجعل الله تعالى يُرى بالعيون أو يلمس بالأيدي أو توزن ثقَلته أو تمثل صورته بواسطة أدق وأرق آلة من آلات الرؤية واللمس والوزن والتصوير الحاضرة ؟ ولا أظن أولئك الباحثين يخطر ببالهم أن يبحثوا عن ذات الله من طريق المايئة والتجربة الحسية . وإذا خطر ببال أحد كان ذلك رجوعاً باسم الرق العلمي إلى عقليات الجاهلية الأولى وتمثيلاً لمهد فرعون القائل «ياها مان ابن لي صرحا

لعلى أبلغ الأسباب أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى « أو عهد بنى إسرائيل القائلين : « يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » .

والقول الفصل هنا الذى آمحدى به أدياء العلم الحديث فى الشرق المولدين كل التمويل على التجربة الحسية والمزدرين للأدلة العقلية المنطقية لقلة نصيبهم من العقل والمنطق غير الباتين لهذا السبب فى الاعتراف بوجود الله اعترافا علميا ، معلقين آمالهم فى الحصول على اليقين بهذا الصدد على التجارب الروحية الجارية فى الغرب المترفية يوماً عن يوم : أن معنى هذه الفكرة ليس إلا الغفلة عن أن وجود الله لن يكون موضوع التجربة . فإذا أمكن إثبات وجود كل شيء بالتجربة فلا يمكن إثبات وجود الله بها ، لأنها إنما تدل على أن هذا الشيء موجود فقط ولا تدل على أن هذا الموجود واجب الوجود الذى هو الله والذى لا يشاركه أى موجود فى وجوب وجوده .. فهو أى وجوب الوجود العلامة الوحيدة فى كون ما وجده الواجد المجرَّب هو الله . لكن وجود الشيء إن عرف بالتجربة الحسية فلا يعرف بها وجوب وجوده الذى هو استخالة عدمه والذى ربما يمر عنه بالوجود بوصف مضاعف ، لكونه أمراً لا تتعلق به الحواس .. ومن يضمن للمجربين أن ذلك الذى وجدوه وزعموا أنه الله يكون موجوداً إلى الأبد ولا يتعدم فى يوم قريب أو بعيد من أيام المستقبل الذى لا تدركه تجربتهم ؟ ومن يضمن لهم أيضاً أنه موجود من الأزل الذى لا تصل تجربتهم إليه أيضاً ؟ مع أنه حتى الوجود أزلاً وأبداً لا يستلزم وجوب الوجود الذى هو المطلوب والذى هو فوق الوجود الأزلى والأبدى . فلو فرضنا أن الباحثين اكتشفوا بتجاربهم الحسية موجوداً فراوه بأعينهم أو لمسوه بأيديهم وادعوا أن هذا الموجود هو الله المنشود ، يقال من أين علمتم أنه الله ؟ فاعلمه ملك من ملائكته أو شيطان أو مخلوق آخر له غركم ما أحسستم به فيه من القوة أو العظمة التى لا يوجد مثلها فيما عرفتموه إلى الآن من الوجودات ، وهذا لا يكفي فى الدلالة على أنه الله ما لم يثبت كونه واجب الوجود وإنكم لن تجدوا هذه الميزة

لأى شيء مما وجدتموه أو ستجدونه أو سوف تجدونه بالدليل الحسى وإنما تعرفون بالدليل العقلى المنطقى أن هذا الكون المركب من الممكنات غير واجبات الوجود لابد أن يستند إلى موجود واجب الوجود وهو الله ، فتحكمون بوجوده المفهوم من وجود الموجودات المحسوسة ، من غير حاجة منكم إلى مشاهدته بإحدى الحواس ويكون وجود هذا الموجود الذى عرفتموه بالدليل العقلى ولم تشاهدوه ، أقوى من وجود الموجودات التى تشاهدونها لكون وجوده واجبا ضروريا ووجودها غير ضرورى .

وقول هذا الذى أتمدى به أدعياء العلم الحديث فى الشرق والغرب والذى لا يستطيعون نقضه : دليل عقلى . فهل عرفتم الآن الفرق بين الدليل العقلى المنطقى وبين الدليل التجربى الحسى ، بما ينجلى به عكس ما تزعمون فى مفاضلة أحدهما على الآخر ؟

ثم إنه كما لا تُثبت البحوث النفسية وجود الله لعدم كونه روحا - وإن قال من قال من جهال أولئك الباحثين إن الله هو الروح الأعظم وقده الأستاذ أحمد فهمى أبو الخير - لأن الله تعالى لا تعرف حقيقته وإنما يعرف وجوده .. لا تُثبت تلك البحوث حتى وجود الروح ، لثبوت وجودها أيضا قبل وجود الباحثين النفسيين وبحوثهم ، والثابت لا يحتاج إلى إثبات ، بل يستحيل إثبات الثابت كتحصيل الحاصل .. فقد كان وجود الروح معلوما لذوى العقول من الناس منذ خلقهم الله وخلق الموت والحياة ، ولم يكن إنكار الماديين الروح لعدم كونها محسوسة ، غير مكابرة منهم مضحكة قصدوا بها المحافظة على قاعدتهم النافية لوجود كل ما لا يكون محسوسا والتى فى معناها قول الأستاذ فريد وجدى « كل معقول لا يؤيده محسوس فلا يعتمد به » ومع ذلك فقد كانوا متمسكين فى نفي وجود الروح للمحافظة على تلك القاعدة .. متمسكين لحد أن وجود الروح كان يدل على بطلان قاعدتهم أكثر من دلالة تلك القاعدة على عدم وجود الروح ، أعنى أن وجود الروح كان واضحا إلى هذه الدرجة . وقد حق للشاعر

الفرنسي المشهور «هوجو» تعريضه الظريف لمذكرى وجود الروح قبل ظهور البحوث النفسية قائلاً في مبتدأ ما كتبه عن الروح :

« أنا أعرف كون باريس اليوم ماديين إثباتيين (أو بعبارة أخرى وضعيين) لحد أنهم لا يؤمنون إلا بسر اويلات الراقات الضيقة ومحفظات الصرافين » كما نقله الكاتب التركي إسماعيل فتى بك في كتابه « اضمحلال مذهب الماديين » وقد نص الفيلسوفان الكبيران «ديكارت» و « لينتز » على أن وجود الروح قطعي أكثر من وجود الأجسام، حتى إن «ديكارت» أثبت وجود نفسه أي روحه قبل إثبات وجود العالم ووجود الله وقال إنها الحقيقة الأولى الثابتة، وسيجيء بحثه في الباب الأول من كتابي الذي أشرت إليه (هذا الكتاب).

أنا لا أغخط الباحثين الغربيين في النفس وغيرها وإنما أقول لا تثبت بحوثهم النفسية وجود ما لم يكن وجوده ثابتاً قبلها عند ذوى الأبواب ، ولو قلنا مع القائلين إن وجود الروح يثبت أول مرة بهذه البحوث أو لم يكن ثبوته قبلها ثبوتاً علمياً معتدّاً به لكننا سلطنا بدعوى الملاحدة الإثباتيين (أو الوضعيين) والماديين القائلة « كل معقول لا يؤيده محسوس فلا يمتد به » تلك الدعوى التي نحن المتدينين في حاجة إلى إبطالها قبل كل شيء وفي التسليم بها ظفر الماديين ، حتى إن في إثبات الروحيين وجود الروح بطريق التجربة الحسية ظفراً لهم أيضاً أى الماديين على حساب أصحاب الدين، لتنازل الروحيين على شرطهم في الإثبات.

فالماديون الذين يأمل ذوو العقليات الضعيفة من المتدينين أن يتغلبوا عليهم بفضل الأبحاث النفسية، لهم أن يقولوا بعد ثبوت وجود الروح من طريق التجربة الحسية : ثبت الآن وجود الروح وليس ثبوته هكذا ظفر الروحيين بل ظفر طريقة التجربة الحسية التي هي طريقتنا نحن الماديين . وفي إمكاننا بعد هذا أن نلحق الروح بالماديات كما قال الأستاذ احمد فهمى أبو الخير : « إن السير ولیم کروکس وهو ذلك العالم الذى تُدرس

في مدارسنا تجاربه في الإشعاع ، قد تمكن من تجسيد روح فثاته (كاتى كنج) ثم من جس نبضها وخبر رثتها « وقال الأستاذ فريد وجد بك « إن ذلك العلامة الكيمياء يعمل تجارب خاصة في معمله توصّل بها إلى رؤية أمور كثيرة خارقة للمادة ^(١) حتى أمكن أن تتجسد روح من تلك الكائنات ففحص أعضائها ووزنها وخطبها » .

وقال أيضا : « قد ثبت أن للأرواح جثانا أثريا لا يعتريه الانحلال كالأثير نفسه وأنها إذا أرادت الظهور استعارت من الكون أو من المجريين بعض المواد لتظهر في أعينهم » .

ولست العمدة في اختلاف الماديين مع غيرهم لاسيما المتدينين وجود الروح وعدم وجودها ، ففي إمكان الماديين أن يقولوا عن الروح بعد ثبوت وجودها على طريقتهم ما قلنا آنفا حكاية عنهم ، فهل في إمكان غيرهم أن يثبتوا وجود الله بمثل التجربة الحسية الامتحانية التي أثبتوا بها وجود الروح ؟ فهل لله جثان أثري كما كان للأرواح ؟ وهل هو إذا أراد الظهور للمجريين يستعير بعض المواد فيحل بها ليظهر في أعينهم مثل ما استعارت الروح وظهرت ؟ ذلك مما لا نعتقه ولا إمكانه ^(٢) فعندئذ يكون كسب المتدينين المعتقدين وجود الله من البحوث النفسية المثبتة للروح بالتجربة الحسية ، منحصرا في كونهم قد فقدوا مثالا لما يوجد ولا يرى . وعندئذ يكون للماديين الحق في إنكار وجود الله لكونه معقولا لا يؤيده محسوس حسب الشرط الذي تواضعوا

[١] انظر كيف يعترف الأستاذ بالحوار مع علماء الغرب وهو لا يعترف بها للاثنياء في مذهبه المنكر لمعجزاتهم .

[٢] فان قيل كيف تنفي إمكان رؤية الله مع كونها واقعة لأهل الجنة في الجنة كما هو مذهب أهل السنة ؟ أقول رؤية الله تعالى في الجنة تقع بإرادة من الله مبنية على وعده بها ، ورؤية الله التي تنفيها وإمكانها ما يقع بإرادة المجريين الغربيين من غير إرادة من الله .

عليه مع الروحانيين والمتدينين الذين علقوا أمانيتهم الدينية على البحوث النفسية.. وليس هذا عندنا إلا تمرىض الدين للخطر المحقق والفشل المتحقق .

ومهما يكن مبلغ اكتشاف الغرب فى الأبحاث النفسية فالدين مبنى على الغيب ، وسوف يكون مع سطوع برهانه فى كل زمان محتفظاً بمبناه هذا ولا ينتقل إلى متناول الحواس ، وبه يدوم امتياز المؤمنين على الكافرين والمهتدين على الضالين^(١) أما الذين يملقون مسألة كون الناس على بينة من أمر دينهم بالحصول على الأدلة الحسية فقطضى عليهم بخيبة الآمال . هل ينظرون إلا أن تأتيتهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً قل انتظروا إنا منتظرون .

— ٢ —

الخلاف الحادث بين الأستاذ نصيف المنقبادي المحامى المادى والأستاذ فريد وجدى غير المادى غريب من ناحية أن الأستاذ الأخير يعترف بأساس المذهب المادى ولا يعترف بالمذهب نفسه والأساس الذى يعترف هو به : « كل معقول لا يؤيده محسوس فلا اعتداد به » كما سبق منا نقله عن نص الأستاذ فى إحدى مقالاته التى كتبها ردّاً على الأستاذ نصيف ، بل قلما تخلو مقالاته فى « مجلة الأزهر » من هذا النص . فالأستاذ فريد إذن مادى من حيث لا يشعر^(٢) ويلزم على هذا أن يكون بينه وبين الأستاذ

[١] قال الشاعر وهو من قدماء الترك المسلمين :

غيبه إيمان كثير أى ملحد غافل كه سكا آخر تندن خط تمايق ايله حجت كلمز
ومعناه آمن بالغيب أيها الملحد الغافل إن كنت تؤمن ، فلا يأتيك حجة من الدار الآخرة مكتوبة بالخط الفارسى . وتخصيصه بالخط الفارسى مبنى على كون الحجج والناشير مكتوبة فى المعتاد بهذا الخط الجميل .

[٢] وقد كان قبل توليه الوظيفة الأزهرية مادياً من حيث يشعر .

نصيف المادى خلاف وزراع . أما الخلاف بينهما من حيث أن أحدهما يسلم بوجود الروح بعد ثبوته بالأبحاث النفسية الحديثة المطابقة لطريقة الإثبات المادية والآخر لا يسلم به ، فراجع إلى الخلاف في صحة تلك الأبحاث وعدم صحتها لا إلى الاختلاف في المذهب المادى المبني على الأساس المذكور . ويلزم على هذا أيضا أن يكون الحق فيما اختلفا مع الأستاذ نصيف إلى أن يريه الأستاذ فريد وجدى الروح كما رأى الباحثون في القرب وأروها منكرها . أما نقله لشهادات الباحثين هنالك ف مجرد دليل نقلى لا يكفي في تبكيث خصمه على قاعدة الإثبات المادية التى اتفق عليها الأستاذان المختلفان والتي هى رأس الأخطاء عندى ، لعدم تأيد مانقله الأستاذ فريد وجدى بتجربة من الأستاذ النقبادى بل ولا بتجربة من الأستاذ فريد نفسه لأن رواية أقوال المجربين ليست بتجربة لارأوى بله المروى إليه .

ومن العجب أن الأستاذ فريد يوجه بمض حملاته في المقالات التى كتبها ردا على الأستاذ النقبادى ، إلى العقلية العلمية ويدعوها إلى الإفاقة من غرورها . فإن كان الأستاذ نفسه أفاق قبل إفاقة العقلية العلمية فاذا حاجته إلى إثبات وجوده بالطريقة العلمية الحسية ؟ أو إن كان في عهده الأخير لا يمجبه المذهب المادى وعقليته العلمية حقيقة ويرى حتما أن تفيق من غرورها فليرفض قبل كل شئ تلك القاعدة القائلة بأن كل معقول لا يؤيده محسوس فلا اعتداد به وليرفض انحصار طريق الإثبات العلمى في التجربة والمشاهدة ، بل ليرفض الامتياز باسم العلم لما يثبت بالتجربة الحسية دون ما ثبت بالدليل العقلى .. بل ليرض نفسه لقبول كون الثانى أحق باسم العلم من الأول ولا يهب اشتهار عكسه عند الغربيين ولا يفرنه انتقاد العقل المحض للفيلسوف « كانت » ، فلا ينبغى للمتكلم من علا منبر الأزهر أن يكون عقله في أسر العقلية الغربية ولا أن يقيد نفسه - بينما دعا العقلية العلمية إلى الإفاقة من غرورها - بأقصى قيد مادى ، فقد

لا يُستبعد من الغرب المسيحي أن يناوئ العقل فيحطّ من كرامته مرة ثانية بعد أن أعاد له الفيلسوف « ديكارت » حقوقه المهضومة طوال القرون الوسطى .

ومع عدم كون المذهب المادى مذهب التدريب الخالص لأن العلم حتى بوجود المادة لم يكن مؤيداً بالتجربة إذ المادة لا ترى ولا تلمس - فعدم الاعتماد بغير التجربة في استيقان وجود أى شئ ، يدفع الإنسان إلى إنكار البديهيات بل إلى الشك في وجود نفسه ، وقد أنكروا وجودهم أنفسهم فعلا بإنكارهم الروح ، فإنكارهم الروح التى أجمت مدرسة « ديكارت » على أن وجودها قطعى أكثر من قطعية وجود الأجسام^(١) ، معناه إنكارهم بوجود أنفسهم لا أكثر ولا أقل . ولذا كان موقف الماديين المنكرين للروح - سواء أنكروها قبل الأبحاث النفسية المجراة في الغرب أو بعدها - موقف لا تجوز مخاطبتهم ولا يعبأ بنفيهم وإثباتهم ، وهل يعبأ بأقوال الغافلين عن وجود أنفسهم ؟

وكون إنكار وجود الروح كإنكار المنكرين لوجودهم أنفسهم ، يظهر عند تفكير الإنسان في شخص ما يعبر عنه بقوله « أنا » .. فإن كان هذا الشخص بعينه موجوداً مستمر الوجود طول حياة القائل يلزم أن لا يكون هو جسمه الذى يزول بالتدرج ويحل محله غيره ، حتى إنه لا يبقى فيه شئ مما كان موجوداً قبل سنين فيكون في شبابه غير الذى كان في طفولته وفي شبابه غير الذى في كهولته ، لا من حيث المنظر فقط أو القوة والضعف فقط بل في شخص الممثل له ، فكيف يعد نفسه في أدواره المختلفة شخصاً واحداً ويقول عنه « أنا » ؟ وكيف يُسأل في الأربعين من عمره عن أفعاله في الثلاثين مثلاً ؟ بل وكيف يتذكر في الخمسين ما فعله في الثلاثين أو العشرين وهما شخصان متغايران بالكلية ؟

[١] الطالب والمذاهب ليول مرانه.

فإن لم يكن وراء هذا الجسم المتغير شيء يستمر ولا يتغير طول عمره يعبّر عنه بالروح أو النفس لم يوجد هناك ما يصح أن يقال عنه «أنا» ضميراً للتكلم وحده. فهي وحدها مرجع هذا الضمير ، فهي تقول عن نفسها «أنا» وهي صاحبة هذا البدن، وأعضاؤه من مفرقه إلى أخصه آلاتها التي تستخدمها حسبما تريد^(١) وهذا الدليل على وجود الروح الدلالة العامة لجميع الأزمنة مما قبل جريان البحوث النفسية الحديثة وما بعده ولجميع أفراد الإنسان من الذين أجريت عليهم التجارب النفسية أمام أعينهم ومن غيرهم في البلاد الدانية والقاصية.. هذا الدليل العام لى غنى عن الدليل الجديد الحسى الخاص زمانه ومكانه وأشخاصه، وفي قوة أكثر من قوة ذلك الدليل الجديد . أما الذين يدّعون من الماديين والإثنائيين (الوضعيين على تعبير المصريين) ومن يلتحق بهم من حيث يشعرون ولا يشعرون : ان الدليل العقلى العام لا يعتد به مالم يؤيده دليل محسوس، فهم أنفسهم لا يُعتمد بهم لعدم وجودهم على موجب ادعائهم هذا كما بينا .

وأما ما يقال في الاعتذار عن الذين يهتمون بالدليل الجديد أكثر من الدليل العقلى القديم ، من أن في إثبات وجود الروح بالدليل الجديد الحسى تأييداً لثبوتها قديماً بالدليل العقلى ، لولم يكن فيه إلا الخفام الماديين لسكنى في أن يكون باعنا على استبشار المتدينين بالبحوث النفسية واعتبارها ظفراً على خصومهم الملاحدة - ففيه أن مآل الاعتذار عن المستبشرين بالاكتشاف الجديد من أهل الدين يستند إلى أن في هذا الاكتشاف إثبات

[١] نعم قال « ا . رابو » في « دروس الروحيات » : « ليس «أنا» بجوهر روحانى فقط وإنما هو كل طبيعى روحانى وجسمانى . فالبدن محل تطبيق نشاطنا وبواسطته يمكن تعديل الأشياء وتغييرها . فهو لهذا السبب جزء حقيقى من ذاتنا واللسان العادى يشهد به لأننا نقول نأكل أو نتمو كما نقول نفكر أو نريد » .

لكن الحق أن البدن ليس بجزء أصلى منا لتجدده وعدم احتفاظه بوحدة العينية .

الروح بالدليل الحسى علاوة على إثباتها من قبل بالدليل العقلى ، وهو لا يمنع كون وجود الروح ثابتا قبل هذا . ولكن تحرير مراد المستبشرين بهذا الشكل من الاعتذار لا يجتمع ابدامع التسليم والتنويه بالقاعدة المادية القائلة بأن كل معقول لا يؤيده محسوس فلا اعتداد به كما فعل الأستاذ فريد وجدى ، لأنها تجعل ثبوتها بالدليل العقلى القديم غير معتد به كالولم يكن هناك أى دليل وأى إثبات ، لأنها تعده إثباتا وتعد الإثبات بالدليل الجدى الحسى زيادة عليه مفحمة للمفكرين المعاندين ، فعندئذ يكون تعليل المتدينين وتبشيرهم بالاكتشاف الجديد وبناء القصور والمالئ عليه ضرره أكبر من نفعه .

فن مضاره أنه يجعل ثبوت الروح إلى هذا الزمان بدليله العقلى كمدم الثبوت ومثلها كل ما لم يؤيد وجوده إلى الآن بمحسوس كوجود الله تعالى .

ومنها أن وجود الروح وإن كان يثبت الآن وبعد الآن بدليله الجديد الحسى فلا يثبت وجوده تعالى - الذى هو العمدة فى إنكار المنكرين وإقرار المؤمنين وفى استبشارهم بالبحوث النفسية - بالبحث الحسى ولا يتحقق الأمل فى أن يظفر الباحثون لذات الله كما ذكرنا ، فيبقى وجوده المعلق بالوصول إلى ذاته مجهولا كذاته وهلاك المسوفون .

ومنها أن الاقتناع بوجود الروح من طريق التجربة الحسية يقتصر على المجربين ولا تكون التجربة الحسية دليلا تجريبيا لغيرهم بل يبقى دليلا سمعيا يحتمل الصدق والكذب ولو بلغ المجربون حد التواتر ، لأن غواة التجربة الحسية القاصرين لأسباب العلم على الإحساس بإحدى الحواس يلزمهم أن لا يعتمدوا بالخبر المتواتر أيضا . فلا يقتنع عندهم بوجود مدينة « باريس » مثلا من لم يذهب إليها ويرها بعينه فهو معقول لم يؤيده محسوس لمدم تجربة وجودها من جانبه ، ولذا لم يصدق الأستاذ النقبادى إخبارات الأستاذ فريد وجدى عن حوادث تحضير الأرواح ، وهكذا يكون نطاق الدليل التجربى ضيقا جدا . أما المقتنعون بوجود باريس بناء على تواتر الأخبار بوجودها

من المسافرين إليها المعانين بحيث لا يميز العقل تواطئهم على الكذب ، فدليلهم خليط من التجربة والاستدلال العقلي ، على أن يكون الفضل في الاقتناع والاستيقان للاستدلال دون التجربة .

لا يقال إن التجربة الحسية لا تنحصر في الرؤية والمشاهدة ، فسماع الأخبار أيضا تجربة حسية بإحدى الحواس الخمس ، فلا وجه لبناء الاقتناع بوجود باريس ممن لم يسافر إليها على الاستدلال العقلي . لأنني أقول متعلق التجربة في هذا المثال المحسوس بحاسة السمع أقوال المخبرين عن باريس لا باريس نفسها وهي نفسها من البصرات لا من المسموعات ، كما أن سماع الأستاذ النقبادي من الأستاذ فريد وجدى في مسألة تحضير الأرواح لا يعد تجربة لحادثة التحضير بل تجربة لكون الأستاذ فريد قال أقوالا عن تلك الحادثة .

قلنا فيما سبق إن الانهماك في التجربة الحسية وعدم الاعتداد بغيرها يؤدي إلى إنكار البديهيات وإلى إنكار المجرّب حتى وجود نفسه وأوضحنا كون إنكار الروح قدما مساويا لإنكار المنكر وجود نفسه ، بأن نفسه ليس عبارة عن بدنه الذي يتغير ويتجدد بالتدرّج حتى لا يبق فيه شيء مما كان موجوداً قبل سنين ، فإذا هو الشيء الباقي مع الإنسان طول عمره محتفظا بعينيته لو لم نقل بوجود الروح ؟ وهذا دليل وجود الروح التي إن لم نعلم حقيقتها نعم وجودها بهذا الدليل العقلي القطعي . وليس لنكرى الروح ما يقولون جواباً عنه غير ما ادعاه الفيلسوف الحسابي «داويد هيوم» :

« كل إنسان يتوهم له نفساً بسيطة متحدة في ذاتها يعبر عنها بقوله «أنا» مع أن شهودات الإنسان متميزة قابلة للتفريق فكيف يرتبط بعضها مع بعض ويحصل منها «أنا» المتحد ؟ : وتوضيحه أن الذاكرة تعيد لنا دائماً خيالات إحساساتنا الماضية فتتشكل منها سلسلة وتدور الذاكرة بسرعة على حلقات هذه السلسلة بفضل الاعتياد وينجر الأمر إلى أن يُرى لنا تتابع الأجزاء المتميزة كأنها ملتصمة الأطراف بعضها

مع بعض، بمنظر المتصل وتمتد السلسلة المركبة من الأجزاء الماضية والحالية إلى جانب المستقبل أيضا قبل وقوعه . فاللذة والألم كما يرجعنا إلى أمثالها السابقة يُريانا أيضا ما سيقع منهما بعد الآن . فمع كون الروح مجموعة شؤونات باطنية تُرى بتأثير قوانين الخيلة كأنها جوهر بسيط ويرجع اعتقاد أن روحى موجودة أيضا في حين أنها لم تحس ولم تدرك ولم تشعر بنفسها ، إلى اعتقاد دوام هذه الحالات .

أقول فكان « هيوم » اعتبر « أنا » كالحركة بمعنى القطع المعروفة في كتب المتكلمين والتي لا وجود لها في الخارج ، فإن الحركة كيفية بها يكون للجسم توسط بين المبدأ والمنتهى مستمر لا يجتمع مقدمه مع مؤخره وبها يكون الجسم في حيز بعد أن كان في حيز آخر ، وتسمى الحركة بمعنى التوسط ، وحقيقته أمر واحد متصل في نفسه منقسم بحسب الفرض بين المسافة والزمان . وقد تطلق الحركة على ما يتوهم من الكل المتصل الممتد بين المبدأ والمنتهى ، وهى الحركة بمعنى القطع ، ولا وجود لها في الخارج ، لأن المتحرك نسبة إلى المكان الذى تركه وإلى المكان الذى أدركه ، فإذا ارتسمت في الخيال صورة كونه في المكان الأول ثم ارتسمت قبل زوالها عن الخيال صورة كونه في المكان الثانى فقد اجتمعت الصورتان في الخيال وحينئذ يشعر الذهن بالصورتين معا على أنهما شئ واحد .

ولكن يرد على « هيوم » الذى قلنا إن قوله عن الروح يشبهها بالحركة بمعنى القطع فيجعلها أمراً تخيلاً لا وجود له في الخارج مثل هذه الحركة .. يرد على هيوم مع ما أورده عليه « استوارت ميل » وقد ذكرته في كتابي المار الذكر (هذا الكتاب وسيجيء ما أورده في محله) أن فيه اعترافاً بوجود الذاكرة التى تنسج من الشهادات سلسلة ملتصمة الأطراف والتي تبقى محتفظة بعينييتها طول امتداد السلسلة إلى آخر الحياة فتكون الذاكرة هى المعبر عنها « بأنا » إن لم يكن هو الروح ، ويكون نزاعه لمثبتي

الروح نزاعاً لفظياً ، وهو خلاف المفروض على مذهب هيوم الذى لا يعترف بوجود أى شئ لكونه حسابانيا مؤسس الحسابانية الأخيرة . وهذا كما يرد على مذهب « كانت » الذى لا يعترف هو الآخر بوجود « أنا » لا لكونه مادياً ولا لكونه حسابانياً ، وإنما لكونه من التصوريين ، الذين لا يعترفون بوجود أى شئ . فى غير الأذهان ، فيرد عليه أنه ملزم بالاعتراف بوجود الذهن ، ولا يقال إن الذهن لا يوجد إلا فى الذهن لاستلزامه التسلسل الباطل .

وليس للفيلسوف هيوم الذى لم يكن مادياً معارضاً للروحانيين ، دافع إلى إنكار وجود الروح المعبر عنها « بأنا » بل ولا لإنكاره للمادة أيضاً وإحيائه لمذهب الحسابانية الذى كان « ديكارت » قضى عليه ، إلا كونه تدريبياً تاماً التمسك بمذهب التدريب لا ناقصه كالماديين الذين اعترفوا بالمادة ولم يعترفوا بالروح فى حين أنهم لم يروها كليهما ولم يجربوا وجودهما حسياً .

وفى هذا القدر من الكلام فى مبلغ كون المذهب المادى مذهباً تدريبياً وفيما ينجر إليه المذهب التجربى الحقيقى ، كفاية للقارىء اليقظ .

وزيادة على كل هذا فإنى أرى من الواجب التصريح بكونى متعجباً من تخصيص الغريبيين اسم « العلم » فى الأعصر الأخيرة بما ثبت بالدليل التجربى دون ما ثبت بالدليل العقلى وتقليد الشرقيين الجدد إياهم من غير تدقيق كما هو دأبهم^(١) حتى ملأ المصريون كتبهم ومقالاتهم بمحدث الطريقة العلمية والأسلوب العلمى إلى حد ممل . وقد عرف قراء « مجلة الأزهر » كيف تمدح الأستاذ فريد وجدى بأنه يكتب السيرة المحمدية مستنداً إلى الأدلة العلمية التجريبية لا إلى الأدلة العقلية المنطقية ، تمدح بإبعاد العقل

[١] ولذا أى لكون العلم عند الفثنين المغلدة والمغلدة منحصر فى ما يثبت بالتجارب الحسية ، شاع فى بينهما أن العلم لا يعترف بوجود الله ، اتعذر بناء القول بوجوده على التجربة .

والمنطق عما كتبه من غير أنه لعقول القراء ، وهو لا يدري أن الثابت بالدليل التجريبي لا يكون أقوى مما ثبت بالدليل العقلي ، بل الثابت بالدليل العقلي أقوى ، كما لا يخفى على من طالع مبحث المعرفة من مباحث الفلسفة بدقة . وحسبك أن الثابت بالدليل العقلي يكون خلافه مستحيلا ولا يستحيل خلاف الثابت بالدليل التجريبي كما يشهد به علماء المذهب التدريبي أنفسهم . ومن هذا ترى المسائل العلمية التجريبية قد ينتقض قديمها بمحدثها ولا ترى شيئا من القوانين الهندسية والمنطقية المستندة إلى العقل تتبدل أبد الآبدين . أفليست الهندسة والمنطق علما ، في حين أن العلم الطبيعي علم ؟^(١) .

وصاحب العقل السليم الذى يثق ببصيرته ثقته ببصره ولا يرضى أن يكون عقله الذى يمتاز به على البهائم لا بحواسه ، أدنى من حواسه - يدرك أن مناسبة العلم بالعقل أقوى وأشد من مناسبة الحواس ، لأن العقل والعلم كلاهما من جنس واحد غير محسوس . قال الفيلسوف « كوزين » : « إن العلم إلهى بالطبع » فكيف يكون إذن هذا العلم مهنة ملاحدة الماديين والإثباتيين أو الوضعيين دون الحكماء الإلهيين ؟^(٢) وقد كان الأجدد بالأستاذ فرید و جدى بك مدير « مجلة الأزهر » ورئيس تحريرها أن ينتقد تخصيص اسم « العلم » بالعلم المادى بدلا من شماتته بذلك العلم ودعوته إلى الإفاقة من غروره ، تقليداً للشامتين الغربيين ، والشامتون أنفسهم كانوا خولوا العلم المادى هذا الغرور ، أو بالأصح كانوا هم الغرورين ، وكان الأستاذ فى طليعة المقلدين للغرورين ، واليوم هم المفيقون بمض الإفاقة وهم الشامتون .

انتهت المقالة التى كنت كتبها من قبل على أن تنشر فى الصحف ثم انصرفت عن نشرها فيها رائيا أن أدرجها فى هذا الكتاب الذى أشرت إليه فى المقالة غير مرة .

[١] ونحن ندرس فى هذا الكتاب هذه المسائل أكثر من هذا .

[٢] كما أن الأنسب بالروح غير المادية أن يكون الدليل على وجودها عقليا غير مادى .

هذا ، وبعد مُضى ما يقرب من عامين على جريان النقاش بين الأستاذين ، نشر الأستاذ فريد وجدي بك مقالة في «الأهرام» عنوانها : «اعتراف العلم بالظواهر النفسية نشوء عهد جديد للعاطفة الدينية» ذكر فيها نقلا عن «سنداي تيمس» وغيرها خبر إنشاء فرع خاص بتدريس الباحث النفسية وحاول بنشر مقالته التعريض للنقاش السابق بينه وبين الأستاذ نصيف المنقبادي مستغلا للخبر المذكور في الشبهة بخصمه في غير مصارحة .

وذكر في صدر مقالته مالا يزال محتفظا به في أدواره المختلفة المتحولة ولا أزال أنا أنكره عليه من عقليته الخاطئة في تقدير الحقائق العالية الفلسفية ، فقال : «لمبادئ حياتي التأملية وكانت مبكرة وعرضتُ العقائد الأولية على عقلي ، شعرتُ بالحاجة إلى إقامتها على أدلة محسوسة كما هو شرط الفلسفة الوضعية السائدة اليوم ، وإلا هان أمرها وضعف تأثيرها عند الذين نهلوا من حياض العلوم الغربية » . فكان الأستاذ عند ماعرض العقائد الأولية على عقله غلط فعرضها على حواسه وأصبحت نتيجة العرض انه أنكرها لعدم وجود الأدلة المحسوسة على تلك العقائد التي ورثها من آباءه وهو معنى وصفها بالأولية . وهذه الفقرة من كلام الأستاذ كالصريح في أنه غير معتقد للدين منذ ابتدأت حياته التأملية ولم ينس التمدح بأنها كانت مبكرة . والفلسفة الوضعية التي اعترف بسيادتها اليوم واعتمد على شرطها هي فلسفة «أوجوست كونت» الإلحادية المسماة تارة بالفلسفة الإثباتية وتارة أخرى بالفلسفة الوضعية «بوزيتويزم» وشرطها المذكور وضعه أصحاب هذه الفلسفة لئلا يمتدحوا بأساس الأديان المبنية على الإيمان بالغييب أي الغائب عن الحواس^(١) أما قوله بعد هذه التمهيدات :

[١] وصاحب المعالي مؤلف كتاب «حياة محمد» لا يقل إيمانه بهذه الفلسفة عن إيمان

أستاذ مجلة الأزهر ، راجع ما كتبناه تحت الرقم •

«والإهان أمرها وضعف تأثيرها عند الذين نهلوا من حياض العلوم الغربية» فرجوع إلى مسلك الدس والاستبطان ليظن من ظن من القراء أن الأستاذ يسعى لإزالة الشكوك التي تساور عقائد المتعلمين المصريين الدينية لأعقائده نفسه !! فهل هو لما بدأت حياته التأملية - وكانت مبكرة - وأحسست بالحاجة إلى إقامة عقائد الدين على الأدلة المحسوسة، كانت تلك الحاجة التي أحس بها ، حاجة غيره من الناس قبل حاجة نفسه ؟

وعلى كل حال فعقل الأستاذ الذي عرض عليه العقائد الأولية فضلا عن كونه محدودا بنطاق الحس فإنه محروم أيضا عن استقلال الفكر تحت تهيب الذين نهلوا من حياض العلوم الغربية والتقييد بمشائهم . وإني أهنيء الأزهر في عهد فضيلة الأساتذة الأكابر الراغب والظواهرى قبله ومصطفى عبد الرازق ومأمون الشناوى بعده بلسان انتدبوه للأزهر ينطق في دفاعه عن الإسلام بعقل يأخذ الوحي من فلسفة «أوجوست كونت» الإنبائية والوضعية الإلحادية . وقد سبق منا الكلام (ص ١٤٨) عن مبادئها المعروفة بقانون الحالات الثلاث .

ثم قال الأستاذ: «فدأبت أبحث عن هذه الأدلة في الثقافة العربية فأعوزتني، فلجأت إلى الثقافة الغربية فاهتديت على أوسع وأوفى ما كنت أتمنى في التجارب التي كانت تتولاها من علماء كل أمة متمدنة طائفة من أقطابهم في الناحية النفسية عقب حوادث خوارق للعادة ظهرت في الولايات المتحدة سنة ١٨٤٧ وثبتت صحتها بالدلائل المحسوسة..» وكان عجيبا من الأستاذ الذي لا يعترف بحوادث خارقة للعادة ظهرت على أيدي أنبياء الله في عهودهم المختلفة ، اعترافه بحوادث خارقة ظهرت في الولايات المتحدة، رغم كون الخوارق الظاهرة على أيدي الأنبياء أيضا من المحسوسات، فلمل ما ظهر منها على أيديهم لم تثبت صحته عنده ولم تكفه شهادة القرآن بوقوعه ، كما كفت شهادة مخبري الغرب بوقوع خوارق سنة ١٨٤٧ .

وبعد أن أشاد الأستاذ في المقالة بفضل ثمرات تلك التجارب النفسية من حلول معاضل اعترف العلم المادى بمجزه عن حلها، ختم مقالته بقوله: « فحيا الله العلم وأيد دولته وقوى شوكرته حتى يعم نوره الخافقين » ففي المقالة الواحدة مدح الأستاذ العلم وأذعن لدولته وشوكرته ورماء بالعجز، والعلم الذى أطراه والذى ازدراه كلاهما العلم المادى المستند الى الأدلة المحسوسة . وحسبك فى مدح العلم وذمه معا عنوان المقالة القائل : « اعتراف العلم بالظواهر النفسية » الدال على أن النكر أولا والمعترف بما أنكر هو العلم نفسه ، فهو أى العلم فى التحول من رأى إلى رأى كالأستاذ صاحب المقالة الذى قال قبل بضع عشرة سنة فى مناقشته إيأى على صفحات جريدة « الاهرام » .

« .. فى تلك الأثناء ولد العلم الحديث وما زال يجاهد القوى التى كانت تساوره حتى تغلب عليها ودالت الدولة إليه فى الأرض فنظر نظرة فى الأديان وسرى عليها أسلوبه فقذف بها جملة إلى عالم الأساطير » .

وقد قال قبله بسنة أو سنتين فى مقالة أخرى : « إن العلم والفلسفة ينقصان كل يوم من أطراف رجال الدين وان الناس يتسللون منهم زرافات حتى لم يبق سواهم فى المجال الذى هم فيه فابتنى على ذلك أن الفلسفة المادية التهمت الطبقات المتعلمة وأصبحت عنصراً من عناصر الروح الحاضر » .

ثم قال بعد سنوات عند مناقشته الأستاذ المنقبادى : « أى علم هذا الذى ينطق بلسان الأستاذ المنقبادى ويجعله يقول هذا ممكن وهذا مستحيل ، أى علم يريد؟ »

« والعلم نفسه يعلم أن له لم يجاوز قشر الأشياء » وهذا على الرغم من أن الأستاذ المزرى بالعلم فى هذه المناقشة كان فى حين مناقشته إيأى قد جعل للعلم دولة فى الأرض تحوّلته حق الحكم باستحالة ما نطقت به كتب الأديان من معجزات الأنبياء وأنبياء البعث بعد الموت ، حقّ القذف بالأديان جملة إلى عالم الأساطير .

وأخيراً يقول فى العلم المنكر للحقيقة والمترف ببعجزه وبما أنكره : « حيا الله العلم وأيد دولته وقوى شوكرته حتى يعم نوره الخافقين » .

قلنا كأن العلم فى التحول من عقلية إلى عقلية كالأستاذ نفسه فى أدواره . نعم إن العلم ينصف فقد يترف بما كان ينكره لكن الأستاذ لا يعترف فى تحولاته بما كان ينكره بل يتحول كأنه رجل آخر ، وخصيصاً لا يعترف ببعجزه أبداً .

وقال الأستاذ بعد كل تلك المقالات التى نقلنا إلى الآن شواهد منها ، قوله الأحدث فى الجزء الثامن من المجلد الحادى عشر من « مجلة الأزهر » تعليقاً على ما نقله من كتاب « فلسفة الدين » للفيلسوف « سباتييه » أستاذ الفلسفة بجامعة باريس ، وهو أى الأستاذ فريد وجدى لا يزال يضرب على الوتر القديم الذى لا يتركه مهما تحول من مظهر إلى مظهر منذ تولى الوظيفة الأزهرية وهو داؤه الذى لا يقبل المداواة :

« ولا أخفى على القراء أنى مهما أظهرت إعجابى بالتحليل النفسى الذى قام به الأستاذ « أوجوست سباتييه » وأثبت به أن التدين هو معنى الإنسانية ولا إنسانية بدونيه فإنى لا أزال أرى أن قضية الدين تحتاج لشاهد من العلم نفسه ، يأتى النفوس من ناحية الدستور الذى سنه وأصبح العمل به ضربة لازب على العقول .

« ذلك أن العلم قد غرس فى النفسية البشرية فى العهد الحديث أن كل معقول لا يؤيده دليل محسوس لا يمكن أن يودى إلى اليقين الذى تثلج عليه الصدور وتطمئن إليه القلوب ، فهما تأتى الإنسان بواسطة التحليلات الموقفة إلى نتائج فإنها لا تخرج عن كونها من المعقولات التى يموزها الدليل المحسوس ، ولا يخفى أن العقيدة لا تبلغ درجة التأثير العملى إلا إذا وصلت إلى درجة اليقين . وأين هى فى هذه الحالة النفسية للمعاصرين الذين يتطلبون الدليل المحسوس ولا شئ غير الدليل المحسوس ؟ فالتدين فى هذا العهد يحتاج إلى الدليل المحسوس » .

وأنا أقول أستاذ « مجلة الأزهر » والمدافع عن الدين على رأس هذه المجلة ، منذ سنين طويلة بلح في عدم إدراك ما يحتاج إليه الدين بالضبط الصحيح في هذا العصر ، فيزعم أنه محتاج إلى الدليل المحسوس . وصوابه أنه محتاج إلى إبطال حاجته إلى الدليل المحسوس التي هي دعوى الملاحدة ، لكن الأستاذ الذي يقوم في رأس « مجلة الأزهر » بتمثيل دور القضاء على دعاوى الملاحدة والذي يمجز عن إبطال دعواهم التي هي المبني الحقيقي للإلحاد المصري ، يردد في مقالاته التسليم بتلك الدعوى ، ثم ينحو نحو إبطال ما لا ينفعه إبطاله وإثبات ما لا يستطيع إثباته فيقع أولا في هاوية دعواهم ثم يجتهد عينا لكسب القضية مغمورا وقائلا :

« ليس الحصول على الدليل المحسوس في الشؤون الاعتقادية في هذا العصر من الصعوبة في الدرجة التي يتوهمها الأكثرون ، فيكفي فيها هدم عقيدة سلبية أقامتها الفلسفة المادية من طريق الآراء العلمية لا من طريق الأدلة الحسية واكتسبت بالجرى عليها حكم المقررات اليقينية وما هي منها في شيء » .

أقول ولا أحصى أخطاء الأستاذ : إن الدين لا يحتاج إلى الدليل المحسوس ، وهو ما عنينا بإثباته في هذا الكتاب وأن الحصول على هذا الدليل المحسوس بالمعنى الذي يُقنع المطالبين به ليس سهلا كما زعمه ، بل ليس بممكن لعدم إمكان إثبات وجود الله الذي هو أساس الدين ، بالدليل المحسوس ، إذ الدليل المذكور قاصر عن إثبات الوجود الواجب الذي هو وجود الله كما سبق منا التنبيه عليه وكما يأتي تفصيله . ومن أخطاء الأستاذ أنه يزعم عدم حصول اليقين إلا بالدليل المحسوس مع أن اليقين يحصل بالدليل العقلي أيضا ويكون اليقين الحاصل به فوق اليقين الحاصل بالدليل المحسوس كما سيطلع عليه القارىء إن لم يطلع إلى الآن .

أما قوله : « وأين هي (يعني العقيدة الواصلة إلى درجة اليقين) في هذه الحالة

النفسية للمعاصرين يتطلبون الدليل المحسوس ولا شيء غير الدليل المحسوس ؟ فالندين في هذا العصر يحتاج إلى هذا الدليل المحسوس « ففيه إبهام لا يُعرف تماماً أن الأستاذ في تطلب الدليل المحسوس يترجم عن المعاصرين أو يترجم عن نفسه . فإن كان الأول كان واجب الأستاذ الممثل للسان الأزهر في رأس مجلته أن يتشجع فيصدم عن ضلالهم ويعلمهم الحقيقة التي هي عكس ما ادعاء الأستاذ من جانبهم أو من تلقاء نفسه أنه لا شيء غير الدليل المحسوس ! . ففضلاً عن أن يكون الدليل المحسوس هو كل شيء ولا شيء غيره (أى هو كل الدليل ولا دليل غيره)^(١) فالمقيدة الواصلة إلى درجة

[١] ويحتمل أن يكون معنى قوله « ولا شيء غير الدليل المحسوس » ولا شيء يتطلبه المعاصرون غير الدليل المحسوس . وعلى هذا التقدير يكون الأستاذ معترفاً بمعجزه النام عن إرشاد المعاصرين الضالين ، إلى الحق فيتبهم هو من رأس مجلة الأزهر بدلاً من أن يحملهم يتبعونه . ويؤيده ما سبق من قول الأستاذ في مقالة عنوانها « الديرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة » وهو من أحدث أقواله وقد نقلناه من قبل في ص ٣٧٣ عن الجزء السابع من المجلد الحادى عشر من مجلة الأزهر ، استفهاماً على أن الأستاذ بعد تولى الوظيفة الأزهرية كالاستاذ قبله في الخوض لسلطان العلم الحديث المانع عن الإيمان بالغيب : « وقد لاحظ قراءنا أننا نحرص فيما نكتبه في هذه السيرة على أن لا نسرف في صرف كل ناحية إلى ناحية الإعجاز مادام يمكن تحليلها بالأسباب العادية حتى ولو يشي من التكلف مسaire لمذهب المبائين في التثبت والحفاظ على الدستور العلمى ، ثقة منا بأن بحثاً لا تحترمه النخبة المثقفة ولا تجد فيه صورة صحيحة لمثلها الأعلى في عرض المسائل وتحليلها لا يمكن أن يؤدي إلى ما قصد منه من الخدمة العامة » .

وأنا أقول : عار كبير على الأزهر أن يقول رئيس تحرير مجلته هذا القول مصارحاً قراءه بأن المنهج الذى انتهجه ودأب عليه في القيام بوظيفته في رأس المجلة أن يماشى أهواء المصريين الذين لا يؤمنون بالغيب ويتابعهم في عقلياتهم ، وقد أكرمهم بتسميتهم النخبة المثقفة ومدح مذهبهم بأنه مذهب المثبتين والحفاظين على الدستور العلمى ومدح نفسه بالحرص فيما يكتبه على هذه الماشاة والتابعة ، كأن واجبه في رأس المجلة الأزهرية أن يتفق مع ملاحظة العصر في عدم الإيمان بالغيب المتوارى عن الحواس بدلاً من أن يجاهد وينبه القراء على ضلالهم عن الحق الأحق بالاتباع ، بل ينير للضالين طرائق العودة إلى حظيرة الإيمان . =

اليقين بشأن وجود الله الواجب الوجود تتطلب الدليل العقلي ولا ينفع فيها الدليل المحسوس ، اللهم إلا إذا كان المراد من الدليل المحسوس دليل نظام العالم الذى يأتى تفصيله فى هذا الكتاب إن شاء الله تحت عنوان « دليل العلة الغائية » لكن هذا ليس ما أرادته الأستاذ من الدليل المحسوس ... كان واجب لسان الأزهر أن يتشجع فيجاهر المعاصرين بالحقيقة لا أن يماشيهم فى الضلال البعيد عن الحقيقة . وإن كان الثانى ولم يكن هذا ضلالتهم بل ضلال الأستاذ نفسه كان الواجب أن يبدأ بتصحيح الخطأ من نفسه ويتعلم الحقيقة قبل تعليم غيره .

ولا يزال الأستاذ فى قوله : « ليس الحصول على الدليل المحسوس فى الشؤون الاعتقادية فى هذا العصر من الصعوبة فى الدرجة التى يتوهمها الأكثرون فيكفى فيها هدم عقيدة سلبية أقامتها الفلسفة المادية من طريق الآراء العلمية لا من طريق الأدلة الحسية واكتسبت بالجرى عليها صفة المقررات اليقينية وما هى منها فى شئ » متمسكا بالدليل المحسوس ، حتى إنه يعيب على أصحاب الفلسفة المادية المتمسكين بالأدلة المحسوسة كونهم لم يتمسكوا فى عقيدتهم السلبية التى ذكرها بالدليل المحسوس ، وينزع عنهم بهذا السبب حق إجراء صفة المقررات اليقينية على تلك العقيدة . ولا يدري الأستاذ أن السلب لا يقوم عليه دليل محسوس كما لا يقوم على الوجود بوصف مضاعف أعنى الوجود الواجب ، وإنما يقوم على الوجود العادى . ولا يدري أيضا أن خطأ أصحاب الفلسفة المادية فى عقيدتهم السلبية لم ينشأ من عدم كون تلك العقيدة مبنية على الدليل المحسوس بل نشأ من انهماكهم فى المادة والأدلة الحسية فإذا لم يجدوا دليلا حسيا على وجود أى شئ حكموا

== فإن كان هذا الأستاذ رئيس تحرير مجلة الأزهر الذى يعلن هكذا عن برنامجه فى القيام بوظيفته متفقا فى العقيدة مع من يسارهم من النكرين فهو كحام عن الدين متفق مع أعدائه وباع قضيتهم منهم برأى ومسمع من مؤكله الذى اختاره للمحاماة وهو يأخذ ثمن المبيع منه لا من الأعداء المشترين قضية الدين . وإن كان يماشيهم بعجزه عن مقاومتهم ، لا لبيع قضيتهم منهم .. فإى خسارة الدين والأزهر من هذا الحماى العاجز الظاهر بظهور أكبر بطل فى الدفاع عن الإسلام خاصة والديانة عامة لم يوجد مثله فى الأزهر فانتدبوه من خارج الأزهر !!

بسلب وجوده وليس حكمهم هذا من طريق الآراء العلمية كما توهم الأستاذ، لأن الرأي العلمى لا يسلب الوجود عما لم يقم على وجوده دليل حسى ، وإنما يسلب العلم بوجوده من طريق الأدلة الحسية ولا يلزم من عدم العلم بوجوده من ذلك الطريق ، بل من أى طريق عدم وجوده فى نفس الأمر . فنشأ خطأهم الانحصار والانحباس فى الأدلة الحسية الذى يباريهم فيه الأستاذ ، ويجاوزهم فيطالبهم بالدليل المحسوس للسلوب .

ثم يقول الأستاذ : « هذه العقيدة السلبية هى أن الوجود ينحصر فيما تدركه الحواس الإنسانية ولا شئ فوقه أو وراءه يدير ويتحكم فيه فهو قديم بمادته وقواه وقائم بنفسه لا يحتاج لسواه وأن كل ما يقال عن خضوعه لقوى أرفع منه وعن تخلف نواميسه بعوامل غير طبيعية فهراء لا يجوز الالتفات إليه .

« ينزل من هذه العقلية أصول تناسبها وهى أنه لا روح مستقلة للإنسان ولا بقاء لها بعد هذه الحياة فى عالم أرفع من هذا العالم ... فهذه العقلية السلبية التى أقامت صرحها الفلسفة المادية وأحكمت بناءها فى مدى الثلاثة القرون الماضية قد صادفت فى العهد الأخير من الاكتشافات العلمية ما هدمها من أعماق قواعدها بل ما نسفها نسفاً وذرأها فى الهواء ونصب مكانها علم التعاليم الروحية مؤيداً بأقوى الأدلة الحسية » .

وأنا أقول من العجب أن يكشف وجود الروح ويثبت بأدلة حسية أى أن تدرك الروح بالحواس فيزعّم الأستاذ كون هذا الكشف هادماً لعقيدة الفلسفة المادية القائلة بأن الوجود ينحصر فيما تدركه الحواس الإنسانية ، وكيف يخفى على الأستاذ أن الماديين المنكرين وجود الروح لعدم إدراكها بالحواس ، لا يصعب عليهم الاعتراف بوجودها بعد إدراكها بالحواس بفضل الكشف الجديد وتسلم لهم عقيدتهم السلبية ولا تنهدم بل تتأيد كما ذكرنا قريباً فى المقالة التى لم ننشرها فى حينها وأرجأنا نشرها إلى نشر هذا الكتاب . فإذا قيل لهم لماذا كنتم تنكرون وجود الروح ؟ قالوا لأنها لم

تكن مدركة بالحواس . وإذا قيل لماذا نترفون اليوم بوجودها؟ قالوا : لأنها أدركت بالحواس فتحقق شرطنا في الاعتراف بوجود أى شئ . وكان الرعى من قبل ومن بعد هو شرطنا .

وأصل السبب في عدم ظهور النتيجة كإيرومها الأستاذ وهو هدم عقيدة الماديين السلبية بالكشف الجديد وإخام الماديين ، أن الأستاذ نفسه مربوط بالعقيدة المادية السلبية التي يريد هدمها ، ولذلك فهو يريد هدمها ولا يستطيعه . وكيف يستطيع الإنسان هدم عقيدة هو نفسه مرتبط بها؟ أليس الأستاذ مقتنعا ومصدا للعقيدة القائلة بأن كل معقول لا يؤيده محسوس فلا يعتد به ؟ وماذا الفرق بين هذه العقيدة السلبية وبين العقيدة السلبية التي نسبها إلى الماديين القائلة بأن الوجود ينحصر فيما يدركه الحواس؟ ما الفرق بين العقيدتين؟ وكلاهما لا يمتد بنير المحسوس . فلعل الأستاذ أخذ العقيدة السلبية التي يمتنقها ويرتبط بها من ملاحظة الفلسفة الوضعية «بوزيتويزم» فظن أنها غير العقيدة السلبية التي يمتنقها ملاحظة الماديين ، مع أن أصحاب الفلسفة الوضعية أخذوا تلك العقيدة عن الماديين وكلاهما واحد في المعنى . فلو هدم السكشاف الجديد العقيدة السلبية المادية هدم العقيدة الوضعية معها وإذا لم يهدم العقيدة الثانية التي هي عقيدة الأستاذ أيضا لم يهدم العقيدة الأولى المادية أيضا المطلوب هدمها عند الأستاذ . ولو أدرك الأستاذ عدم وجود الفرق بين العقيدتين اللتين احتفظ بإحدهما وأراد هدم الأخرى لما أخطأ في وضع عقيدة الماديين السلبية ولما أصابه الفشل في هدمها .

والوضع الصحيح لتلك العقيدة المطلوب هدمها أن توضع بحيث إذا نهضت أنهضت معها العقيدة التي لا يزال الأستاذ يحتفظ بها أنهداما واضحا يفهمه الأستاذ أيضا ، فيقال إنهم قد حصروا طريق الاستيقان بوجود الشئ في قيام الدليل الحسى على وجوده ، وأنكروا وجود ما لم تدركه الحواس إلى الآن مثل الروح ، على الرغم من وجود الدليل العقلى على وجودها منذ كانت الروح وكان العقل .. فكذبهم الكشفيات الأخيرة الروحية وأثبتت

صدق العقل ويقظته أكثر من الحواس لكونه تقدمها في إدراك بعض الموجودات إدراكاً جازماً .

ولا يكون للماديين إذا صورت عقيدتهم المطلوب هدمها كما صورنا، أن يقولوا: لفائدة في هذا الاكتشاف الجديد عن الروح لأهل الدين ولا مضرة بنا فنحن ماشون على شرطنا في الاعتراف بوجود الشيء عند قيام الدليل الحسى عليه وثابتون في عدم الاعتراف بوجود الله حتى بعد ثبوت وجود الروح بالدليل الحسى . فليؤجل أهل الدين حكمهم القطعى بوجود الله إلى أن يروه بأعينهم كما رأوا الروح ... ليس لهم أن يقولوا هكذا ، لأن إثبات وجود الروح بالدليل الحسى إن لم يأت بفائدة جديدة لأهل الدين في إثبات وجود الله بناء على أن إثباتها بالدليل الحسى ليس إثباته بالدليل الحسى ، إلا أن لهم في هذا الإثبات فائدة انهزام العقيدة السلبية المادية .

ومن كل هذا يتبين خطأ الأستاذ في إيهام القول عن موقف أهل الدين وموقف الماديين بعد الاكتشافات الأخيرة الروحية على تقدير صحتها ، حتى كأنه حصل بها كل شيء ، يصدق الأولين في قضيتهم ولم يبق للأخبرين ما يقولون دفاعاً عن فلسفتهم . نعم ثبوت بقاء الروح بعد انفصالها عن البدن ينفع بعض النفع في تنبيه الأستاذ على خطأه الذى كان مصرّاً عليه لما ادعى استحالة معجزات الأنبياء وجرى عليه النقاش بيني وبينه قبل سنوات على صفحات « الأهرام » وفى أثناء جريانه أضاف إلى دعواه فى استحالة المعجزات دعوى استحالة البعث بعد الموت أيضاً . وهذا الخطأ الفاحش وإصرار الأستاذ عليه مسجل فى مقالاته التى سأثبتها بحروفها فى ذيل هذا الكتاب ، ولم يسبق من الأستاذ حتى الآن اعتراف صريح بخطأه فى ذلك الصدد أو شبه صريح ، كما هو دأبه فى أخطائه .

ثم ماذا قد تكون استفادة أهل الدين من اضطراب الماديين بعد الاكتشافات الروحية إلى التسليم بوجود الروح وبقائها بعد هذه الحياة فى عالم أرفع من هذا العالم ؟

فأين الركن الأول للدين وهو الإيمان بوجود الله؟ وليس وجود الله وجود الروح ولا وجود عالم أرفع من هذا العالم ، وإنما هو وجود موجود واجب الوجود . وثبت هذا الوصف المضاعف لأي موجود أعني وجوب الوجود الذي لا يكون الموجود إلهاً إلا به ، يتطلب دليلاً عقلياً منطقياً ولا ينفع فيه أى اكتشاف نفسى يكسب دليلاً حسياً لوجود الروح أو لوجود عالم أرفع من عالمنا لينتقل به الذهن إلى احتمال وجود الله فى ضمن ذلك العالم وماذا هو الفائدة فى حصول هذا الاحتمال ؟ فأين احتمال وجود الله من الله الذى يجب وجوده ويقصر عن مداه الوجود المتحقق فضلاً عن الوجود المحتمل ؟ وقد عرفت أن مرتبة الألوهية هى وجوب الوجود فشكل موجود يكون وجوده دون هذه الدرجة فهو غير الله . والذين لم يستيقنوا الله بما له من ضرورة الوجود التى يمتاز بها عن كل موجود سواء منذ استيقنوا أنفسهم ، يبحثون عن الله فى الاحتمالات المنتظرة من الكشف الجديدة الغريبة ، ولا يبحثون إلا عبثاً . فقد سبق الشرق الغربيين بحكمائه اليونانيين وعلمائه الإسلاميين فى اكتشاف وجود الله بالدليل العقلى المنطقى الذى لا يحتاج إلى دليل غيره . والذى يبقى فضل هذا السبق إلى الأبد للشرق على الغرب ، إن تأخر عنه فى اكتشافات كثيرة أخرى لا يقاس فى الأهمية والخطورة بهذا الاكتشاف الأعظم . ولا إخال أنا كون أساتذة الغرب الباحثين عن الروح بالتجارب الحسية ، يستخدمون هذه التجارب فى البحث عن الله . أما أستاذ مجلة الأزهر فإما أجدره بأن يتمثل بقول الشاعر :

قالت وقد قشقت عنها كل من لاقيته من حاضر أو باد
أنا فى فؤادك فارم طرفك نحوه ترنى فقلت لها وأين فؤادى ؟

فإنه تعالى على رأى هذا الأستاذ الذى يستمد فى ثبوت وجوده بالاستكشافات النفسية

المستقبل ، سيثبت وجوده في الغرب ثم يثبت في الشرق بفضل الغربيين ، ولم يثبت بعد في الشرق ولا في الغرب ولم يتحقق الركن الأول للدين من تلك الكشف الحاصلة ، وإنما تحقق وجود الروح وبقاؤها بعد هذه الحياة ، حتى إنه لا يلزم من تحقق بقائها بتحقيق خلودها . وأين بعد هذا مسألة النبوة التي لا تتم أركان الدين إلا بها^(١) والتي لا يعترف بها الأستاذ كما يعترف أهل الدين فيجتهد في تنزيلها منزلة العبقرية .

ولنختم الكلام هنا بتكرار لفت النظر إلى نقطة وهي أن العقيدة السلبية المادية لا تنهدم إلا مع العقيدة الفلسفية الوضعية السلبية القائلة بأن كل معقول لا يؤيده محسوس فلا يُعتمد به كما أشرنا إليه من قبل مع التنبيه إلى أنها عقيدة الأستاذ أيضا التي لا يزال محتفظا بها ومعناها أن غير الدليل المحسوس لا يفيد القطع واليقين . ومن الغريب أن الأستاذ الذي يريد في طوره الثالث هدم عقيدة الماديين السلبية لا يألو جهدا في الاحتفاظ بعقيدته السلبية الوضعية ولا يدري أنها متلازمة مع العقيدة التي نسبها إلى الماديين وأراد هدمها . فإن لزم هدم إحدى هاتين العقيدتين لزم هدم الأخرى أيضا وإن لزم الاحتفاظ بإحدهما لزم الاحتفاظ بالأخرى ، وألا يلزم أن يكون الأستاذ متمسكا بالمادية ومكافحا لها في وقت واحد .

نعود إلى مواصلة ما كنا فيه من النظر في مقالات الأستاذ فريد وجدي بك في « نور الإسلام » و « مجلة الأزهر » وإني أستمع القراء ان لا يعاتبوني على إطالة هذا البحث والإكثار من تعقب قول الأستاذ رئيس تحرير المجلتين الأزهريتين في مقدمة هذا الكتاب ، لأن الأزمة الاعتقادية الخبيثة على العقليات الحديثة والتي أردنا القيام

[١] ولهذا لم يمد الفيلسوف « سبانيه » مذهب الراسيوناليزم القائل بوجود الله وخلود الروح وأداء الواجب ، مذهبا دينيا لعدم وجود الاعتراف بالوحى في هذا المذهب . وسيجي ذكره منا . والشاهد هنا أن الكشف الروحية لا تتضمن إثبات الدين ولا تكفل به .

بالسعى فى سبيل انفراجها، يتوقف حل عُمْدِها على مثل هذه التعقبات فضلا عن أن لها صلة قوية بموضوع الكتاب .

فما يجب أن نلفت إليه القراء أن الذين يهتمون بالحواس فى إثبات وجود الموجود ويحطون من قيمة العقل ومكانته فى إدراك الحقائق ويفرّعون عليه الخط من قيمة إثبات أساس الدين الذى هو وجود الله بالدليل العقلى وعلى رأسهم الأستاذ فريد وجدى الذى سجلنا عليه ذلك بتصريحات مقالاته فى مختلف أدواره ؛ فبينما أنت تراه قادحين فى العقل والدين باعتبار أنهما حليفان ، إذا هم يُبعدون الدين عن العقل ويُزلونه فى ساحة القلب ويقولون فى تاريخهم هذه : لو كان الدين سند من العقل اعتبرناه من الحقائق الثابتة ولكنه يستند إلى القلب أى إلى عاطفته لا إلى العقل . وفى هذا التفريق بين العقل والدين اعلاء للعقل واعتراف بقوته مع توهين مراكز الدين . وأنت تجد هذا التفريق والتبديد بينهما فى كلام الأستاذ فرح انطون مناقش الشيخ محمد عبده (وقد نقلنا كلامه فيما سبق) بل وفى كلام الأستاذ فريد وجدى أيضا وإن كان بين كلاميهما فرق فى درجة الصراحة ، حتى إن الأستاذين بعد اعترافهما بافتراق العقل من الدين وبطروء الوهن على مركز الدين من هذه الحثيثة، تراهما فى حالة التظاهر بمؤازرة الدين : يؤيدان القلب ضد العقل .

فهذه ثلاث نظريات للأستاذين واضراهما من مقلدى الغرب المادى تدل على ما هم فيه من عقيدة مضطربة كل الاضطراب فى موقف العقل والدين بمضهما من بعض وفى موقف العقل من الحقيقة . النظرية الأولى أن الدين يستند إلى الدليل العقلى وهو سند ضعيف غير مقنع ، والثانية أن الدين يستند إلى القلب لا إلى العقل ولو استند إليه كانت حجته قوية . والثالثة أن الدين يستند إلى القلب وهو أفضل من العقل الذى قد يطنى فيجر صاحبه إلى الشر . وفى النظرية الثالثة تقليد للغرب المسيحى كما أن فى النظريتين الأوليين تقليد للغرب المادى مع شئ فى ثانيتهما من تقليد الغرب المسيحى أيضا .

فالنظرية الأولى تنبئ عن وهن مركزي العقل والدين باعتبار أن الدين يستند إلى الدليل العقلي ويعوزه الدليل العلمى المحسوس . والنظرية الثانية تنبئ عن قوة مركز العقل ووهن مركز الدين باعتبار أنه يستند إلى القلب لا إلى العقل . والنظرية الثالثة تنبئ عن قوة مركز الدين المستند إلى القلب ووهن مركز العقل المقترب عن القلب . والأستاذان لا يدریان بالضبط أن الدين يتفق مع العقل ويستند إليه أولا يستند، وأن العقل سند قوى أضعيف ؟ ففي النظرية الثانية القائلة بافتراق الدين من العقل مع قوة العقل وضعف الدين، تناقض وتصادم بالنظرية الأولى القائلة باتفاقهما وضعفهما معا . وفي النظرية الثالثة تناقض في تناقض، لأن مرمى النظرية الثانية المفرقة بين العقل والدين توهين أساس الدين بإبعاد العقل وتأبيده عنه ، فترجيح مسند الدين أعنى القلب وتأبيده ضد العقل في النظرية الثالثة يكون تراجمًا وتعاقلًا عن النظرية الأولى . فالأستاذان يتناقضان مع أنفسهما بين عقليات ثلاث، في حين أن المعروف في التناقض أن يكون بين أمرين اثنين . وإثبات ما قلنا من أن الأستاذين يعتنقان فكرة إبعاد العقل من الدين الذى يستند إلى القلب مع تأييد القلب ضد العقل^(١) تلك الفكرة المادية والمسيحية معا^(٢) . فالدليل عليه من كلام الأستاذ فرح أنطون سيجى بعد الفراغ من مقدمة الكتاب المستوعبة للجزء الأول منه، ومعنى هذا أن الفراغ من المقدمة يتأخر إلى الجزء الثانى من الكتاب .. أما الدليل عليه من كلام الأستاذ فريد وجدى فما كتبه في الجزء الرابع من المجلد الخامس من مجلة « نور الإسلام » ص ٢١٥ :

[١] وهو ما ذكرنا في النظرية الثالثة . أما الفكرتان المذكورتان في النظريتين الأوليين فلا حاجة هنا إلى الاستمهاد لهما من كلمات الأستاذين لكونهما معلومتين للقارى مما سبق ، وسيزداد علما بعد التوغل في الكتاب .

[٢] وهذا الاشتراك في العقلية بين الأستاذين الذين كان أولهما أعنى الأستاذ فرح أنطون أول دافع إلى تأليف هذا الكتاب ، يتبين عذرى أيضا في إطالة النقد والتعقيب في الكتاب على أقوال الثانى أعنى الأستاذ فريد وجدى .

«للإنسان عقل وقلب وهما وإن كان مظهرين لروحه المدبرة فإنهما لا يختلفان اختصاصهما في حياته الأدبية قد يُعتبران مستقلين لكل منهما مقومات خاصة وسلطان خاص، فمقومات العقل العلوم ومهمته النظر والتمحيص لإدراك الواقع^(١) ومقومات القلب الشعور الفياض والعواطف الكريمة... ولا تقوم على جادة الحياة الصحيحة إلا إذا تعادل فيها هذان المظهران الروحانيان، فإن طغى أحدهما على الآخر اضطربت أحوالها على نسبة ذلك الطغيان.

«هنالك يتساءل سائل فيقول إذا تغذى العقل بلباب العلوم فأصبح قويم النظر في الأمور مدركا للواقع على ما هو عليه، ألا يكفي ذلك في إقامته على صراط الحق المستقيم؟... نقول: لا، وهذه بعينها شبهة الذين وقفوا التربية على العقل وحده من أصحاب المذهب الحديث في التعليم فقصروا التدريس على العلوم وما إليها وأهملوا تربية القلب جانباً فكان أثر ذلك أن بطل التعادل بين العقل والقلب، فإن كان شيء يبطل هذا المذهب فهو ما نشاهده من حال الجيل الذي نُشئ هذه التنشئة إذ قل اعتداده بالآداب النفسية، بل منهم من اتخذ الإباحة البهيمية مذهباً وأخذ يدعو إليها في عبارات تحتمل وجهين وهي ترى بجملتها وتفصيلها إلى إحلال الملاذ البدنية المسكنة العليا من النفوس. فكل ما يصدر من ثمرات العقول اليوم ويبيع من مطبوعات الملايين لا يرى إلا إلى تقديس الأهواء النفسانية والجري وراء الميول البدنية.. حتى أصبح الناس لا يتنفسون إلا أهواء مشحونة بالملمهيات والمثيرات للشهوات، ونرى في الأمم المتقدمة التي أهملت تربية القلب الشاهد العدل على ما قلنا. فهي اليوم تزج تحت كلاكل الإباحة التي ضربت

[١] هذا هو النظرية الثانية من النظريات الثلاث المارة الذكر، وفيها ينسب الأستاذ مؤدى النظرية الأولى التي التزمها في كثير من مقالاته - وقد سبق قريباً ذكر نماذج منها - من أن الدليل العقلي لا يوثق به ويكثر فيه الخطأ وفي نظر العقل وتمحيصه لإدراك الحقائق. ومن هذا لا يقتنع المتعلمون المصريون بالمقائد الدينية المبنية على الأدلة العقلية المنطقية.

بجرائها فيهم على عظم ما يبذلونه من الجهود الجبارة في تربية العقول. ولسنا نرى دليلاً أقوى وأوضح من هذا الدليل المحسوس على أن سلطان العقل وحده لا يكفي في تقويم الشخصية الإنسانية ، وإن لا يحيد لها عن سلطان القلب لإبلاغ هذه الشخصية إلى كمالها المنشود .

« فالإسلام الذي أنزل رحمة للمالين قد عني بتربية القلب عنايته بتربية العقل فكما منح العقل سلطانه في التمييز بين الحق والباطل أعطى القلب سلطانه ليقود الإنسانية إلى العواطف النبيلة وليفتح له كوة إلى عالم الأرواح كي يستمد من نفحاتها ما يقوى به على الدواعي البدنية النائرة عليه .

« قال الله تعالى « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب » ولم يقل لمن كان له عقل إذانا لسلطان القلب في الردع وعدم كفاية العقل وحده في ذلك .. فقد يعقل الإنسان ما تجرّ عليه المنكرات فلا يقوى وحده على الإقلاع عنها إلا إذا أيدته قلبه ولولا ذلك ما وجد على سطح الأرض من يجري وراء منكر قط فإن أقل الناس يدرك سوء المنقلب مما يجترحه من السيئات ولكن لحرمانه من عزيمة القلب لا يصادف وازعاجه عن النفي فيتمادى فيه .

« وقد زاد الله في التنويه بسلطان القلب فقال تعالى « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها » وقال « أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يفقهون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » فصغر عاهات الجوارح في جانب عاهات القلب »

وأنا أقول ما أعظم خطأ الأستاذ الذي حمل سقوط الجيل الحديث من الأمم المتقدمة في الأخلاق والآداب إلى دركة الإباحة البهيمية ، على طغيان العقل بما بذلت الجهود الجبارة في تربيته وتنميته وأهمّل الاهتمام بالقلب ! ! فهذا السقوط إلى دركة الإباحة منشأ عندنا انتشار إلحاد في الجيل الحديث المتمدن واعتقاد أنه

لا حياة بعد هذه الحياة الدنيا ، لأن فساد العمل إلى هذا الحد لا بد أن يكون متولدا من فساد العقيدة التي تتكون تحت حكم العقل الفاسد ، فلو أنهم اهتموا بتربية عقولهم وتنميتها لهدتهم إلى طريق الدين المستقيم الذي كان يكفيهم على الأقل وازعا من الإباحة البهيمية. فإما أن لا يكون لهم عقول تدلهم على الاقتناع بالدين ومالك يوم الدين وإما أنهم لا يقتنعون بالعقل مهما دلم على الدين جاهلين قدر الدليل العقلي ومنتظرين الدليل المحسوس ، وإما أن دينهم لا يتفق مع العقل فلا يطمئن إليه عقلاؤهم ويروجون الإباحة .. وعلى كل حال فالخوض في إرضاء الشهوات من الجيل الحديث المتمدن والسعى وراء اللذات البدنية واتخاذها المثل الأعلى في الحياة مانشاً من زيادة أورهجان في العقول كما زعم الأستاذ بل من نقصان فيها وأى نقصان !!

ويمكننا أن نقول في توضيح ما في هذه المقالة التي نقلنا عنها جملاً طويلاً، من خطأ العقلية : إن الأستاذ يبنى ماضعاً مقالاته من المواعظ الحسنة على تفريق العقل من القلب وهو أسلوب الدين المسيحي الذي لا يجد له مسنداً ومنتكاً من العقل فيستند إلى القلب وعواطفه .. والأستاذ رئيس تحرير مجلة « نور الإسلام » الأزهرية ينتهج هذا المنهج لأنه يستحسن المذهب المسيحي بل لأنه المنهج الغربي الذي لا يعرف الأستاذ غيره .. وهذا الأسلوب المفرق بين العقل والقلب ينتهي إلى القول بأن الإنسان يؤمن بالعقائد الدينية بقلبه ولا يؤمن بعقله . وهذا القول كما ينطبق على الدين المسيحي ينطبق على الإسلام أيضا في نظر الذين يرون كثيراً من عقائده أيضا من المستحيلات العقلية كالأستاذ رئيس التحرير .

لكن الإسلام لا يفرق بين العقل والقلب ولا يوجد في عقائده ما لا يقبله العقل وهو يعتبر صلاح القلب صلاح العقل وفساده فسادا . والآيات القرآنية التي أوردها الأستاذ شواهدا لسلطان القلب المستقل من سلطان العقل شواهد تقض لدعواه . ألا يرى أنها تنسب الفقه إلى القلب نفيًا وإثباتًا فتقول « لهم قلوب لا يفقهون بها » ،

ونقول « فتكون لهم قلوب يفقهون بها » وليس الفقه والفهم إلا فعل العقل .
والمفسرون فسروا القلب في قوله تعالى « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب » بالعقل
على الرغم من قول الأستاذ : « ولم يقل لمن كان له عقل » ومن جراء ما ذكرنا أخذت
هذه الآيات بعينها في « المواقف » وشرحه ، (اللذين اطلع القارىء فيما سبق منا على
أنهما كتابان جليلان في علم الكلام) شواهد على أن محل العقل هو القلب ، وهو
مذهب أرسطو . وفي مختار الصحاح : « القلب الفؤاد وقد يعبر به عن العقل » ، قال
الغزالي في قوله تعالى : « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب » أى « عقل » .

أما قول الأستاذ : « فقد يعقل الإنسان ما تجرّه عليه المنكرات فلا يقوى وحده
على الإقلاع عنه إلا إذا أبدته قلبه » فهو مسألة العلم والعمل وعدم استلزام الأول للثاني ،
لكن العقل التام القوّم يكفل ناحية العمل أيضا . ولهذا ما سمي العقل عقلا إلا لكونه
عقلا عما لا ينبغي اقترافه . والأستاذ التبس عليه العقل بالعلم الذى قد يفرق عن العمل
فلا يتدخل فيه وإن أعدّ صاحبه له ، أما العقل فيتدخل فيه ويصلحه لأنه يعلم أيضا
وجوب العمل بمقتضى العلم ، ومن هذا يصح أن يوصم العالم غير العامل بمله بنقصان
العقل وإن لم يوصم بنقصان العلم . ومن هذا أيضا يصح أن يقسم العقل إلى عقل نظرى
وإلى عقل عملى في حين أن العلم لا يقبل القسمة إلى علم عملى .

والعقل الذى هو أشرف مواهب الإنسان لا تسكون الزيادة فيه إلا زيادة في الخير
ولا يعبر عنها بالطغيان كما عزا الأستاذ مدنية الجيل الحديث من الأمم المتمدنة المهمل
في الملهيّات والسامى من وراء الشهوات والمتمذهب بمذهب الإباحة البهيمية ، إلى
طفيان العقل والاهتمام بتربيته . فهل الأستاذ يعترف لأهل الأهواء وأنصار الإباحة
البهيمية بمقول زائدة مربّاة فيحمل جريهم المعب من وراء الشهوات على زيادة عقولهم ؟
ومن العجيب المضحك أنه يخص العقل بوظيفة التمييز بين الحق والباطل ثم يمزو

مذهب الإباحة البهيمية إلى طغيان العقل وتغلبه ، فهل ذلك المذهب حق في نظر العقل
أو في نظر عقل الأستاذ ؟ ومنشأ الغلط أن الأستاذ كما التبس عليه الأمر فظن العلم
عقلا فهو ظن طغيان الهوى طغيان العقل .

ثم إن الأستاذ يتصور الطغيان والغواية في العقل ولا يتصورها في القلب ، أترأه
لم يسمع قول القائل :

قلبي إلى ما ضرني داع يكثر آلامي وأوجاعي
كيف احتراسي من عدوي إذا كان عدوي بين أضلاعي

وقال البحترى :

ولست أعجب من عصيان قلبك لي عمداً إذا كان قلبى فيك يعصينى
والآن تنتهى من الكلام فى مقدمة الكتاب على تحبظات الأستاذ فريد وجدي بك
فى مقالاته للتدليل على أن الأستاذ بعد تواليه الوظيفة الأزهرية كالأستاذ قبله .

* * *

ثم إن الشيخ محمد عبده الذى حكينا فى الرقم (٣) المناقشة الجارية بينه وبين منشىء
مجلة « الجامعة » الأستاذ فرح أنطون ، كان قد حمل فى أثناء المناقشة على النصرانية
فاستوجب ذلك من الأستاذ مقابلة الحملة بالحملة ، ولما لم يجد ثمة فى الإسلام يدخل منها
فى النيل منه ، صوّب حملاته نحو جميع الأديان وأنكر اختلافها مع العقل والعلم الحديث
المبنى على التجربة الحسية . وهناك لم يوف الشيخ حق القيام بما حمل عاتقه موقف
الدفاع عن الدين لاسيما الإسلام الذى لا تمارض فى أصول عقائده مع العقل ولم يوفق
لحراسة عقول الخاصة بمصر الفافلين عن حقائق الدين ودقائق الفلسفة ، من أن يفتتنوا بدعاية
خصمه ضد الأديان حتى كانت نتيجة ذلك النقاش أن استولت فكرة الإلحاد على سرائر
أكثر المثقفين فأصبح الدين فى نظرهم ترانا مزعجا لا يرغب فيه ولا يجهر بالتخلي عنه ، فإن
قالوا بحسب اقتضاء الحال إنهم مؤمنون فلا يجاوز إيمانهم حناجرهم .

وخلاصة الموقف أن إخواننا المصريين لم يكفهم وقوع بلادهم تحت استعمار الغرب حتى تملك الاستعمار قلوبهم وكان المعافون منه العامة خاصة والقليل من الخاصة غير مسموع الكلام، لاتهمه بالجمود والرجعية وأمسى خلاص البلاد من الاستعمار الثانى أصعب من خلاصها من الاستعمار الأول . وقد تمت صفقة ذاك التملك بثمن بخس من نشرات «داروين» فى بلاد العرب. قالوا إن هذا العلم ينقى كل مالا يثبت وجوده عن طريق المشاهدة والتجربة ، ففضل متعلمو مصر المصريون الإيمان بالعلم كمال قال الشاعر محمد احسان المحامى :

آمنوا بالعلم ديناً وهدى ليس بعد العلم للأفهام دين

على الإيمان بالغيب ولم يرضوا أن يعودوا جهالاً . وما نفهم تحفظ الأستاذ فرح لحساب الدين بتخصيص القلب محلاً للإيمان به من غير استئذان العقل والعلم اللذين لا يعترفان بالدين، لأن عقلية المسلمين لا تأتلف بهذا التناقض الذى تموت العقلية المسيحية قبوله بدون تمحيص . فقبين عندهم أى المسلمين المصريين بطلان مادعاه رجال دينهم وفى مقدمتهم الشيخ محمد عبده من استناد الإسلام إلى العقل والعلم ، ولم يبق فى مصر من انتسب إلى العقل والعلم من المسلمين غير الجامدين أو بالأحرى ممن كانوا من المسلمين إلا واستبطن الإلحاد - كما قال الأستاذ فريد وجدى فى مقالته التى سبق منا الكلام عليها - وتذهب بمذهب الاثنائيين الذين نوه بهم معالى هيكىل باشا والأستاذ فريد وجدى بك فى كتابهما المنقولة سابقاً باسم أصحاب الفلسفة الوضعية ، وجاء قاسم أمين فأعلن شعار المذهب وهو عبادة المرأة^(١) فبإله من انقلاب بلغ بالاستعمار ما لم يبلغه الإيمان فأسر القلوب وحل رباط الإسلام وحرر المرأة وأسامها فى الأسواق وقدمها على الرجل . فالعربى الجاهلى القديم كان إذا بُشِّرَ بالأنثى يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه

[١] تقدم منا لمضاح هذا المذهب الفلسفى ودينه الصناعى السخيف الذى يستعبد للمرأة .

على هون أم يدسه في التراب ، والعربي الحديث العلماني يبدأ خطبته بقوله : سيداتي ، سادتي^(١) ولا يتوارى من القوم عندما خاصر قرينته رجل غيره ورافصها بين ظهرانيهم ، لعله بأن له عوضا في أن يخاصر هو الآخرُ قرينة ذلك الرجل أو قريبته ، وفي الحقيقة أن هذا العربي أيضا جاهلي ولكن من طراز آخر .

ولست بكاشف عن عيوب مصر أو الشرق الإسلامي الحديث ، وإنما بنيت قولي في استبطان الإلحاد من عقلاء البلاد على كشف الأستاذ فريد وجدي عنهم ونشره على صفحات « الأهرام » قبيل توليه رئاسة تحرير مجلة « نور الإسلام » الأزهرية بأسبوع أو أسبوعين ولم يلق كشفه ونشره كلمة إنكار من الجمهور فصار كالأويد بالاجماع السكوتي .. وقد أدخل الأستاذ نفسه في عقلاء البلاد الذين ذكرهم واستبطانهم الإلحاد ، ثم لم يأت في إخراجه من بينهم بمقنع ؛ على أن الإلحاد رغم استبطانه لا يمد عيبا في هذا الزمان بل ثقافة وعلمانية ، وكانت هذه العقلية هي التي قولته تلك الأقوال قبل توليه

[١] وقد بلغني أن حفلة من الحفلات التي تكثر إقامتها في مصر وقد تجمع بين الجندين ، ألقى فيها خطاب وكان ملقوها يبدأونها بالقول المتعارف المصري : سيداتي سادتي ! فلما جاء دور أستاذ أزهري قام واستهل خطبته كاستهلال الذين تقدموه من الخطباء ، ثم قال ما معناه : أنه لم يحجر في خطابه على ترتيب الآداب العصرية في المحافل الجامعة للجنسين ، وإنما اتبع ترتيب القرآن الحكيم في ذكر الاناث قبل الذكور ، ثم قرأ قوله تعالى : « يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور » .

وأنا أقول بل اتبع الأستاذ المادة الحديثة وزاد فأقنى بحسنها ومطابقتها لأسلوب كتاب الله ، ولصكون الأستاذ مجبا بها لفته آية الشورى التي قرأها ولم يقرأ ما بعدها وهو : « أو يزوجهم ذكرا وإناثا » ولم تفته آية الأحزاب :

« إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والفاتنات والفاضلات والصادقات والصابرين والصابرات والحاشمين والحاشمات والتصدقين والتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما » وخصيصا لم يفته إدماجهن في ضمير الجمع المذكور في آخر الآية . ولا اذكر قوله تعالى : « المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض والتائقون والمنافقات بعضهم من بعض » .

الوظيفة الأزهرية. فإن كان المصابون غير مرتاحين له فليس كتابان الداء أولى من مكاشفته وأقرب إلى مداواته .

وأما مسألة المرأة فظاهرة وغنية عن الكشف ، وحسبك فيها الحفلات الساهرة التي تشترك فيها الأسر الإسلامية ونشرات الجرائد والمجلات عن صور العقيلات والفتيات الكاسيات العاريات . وقد قال لى أحد رجال مصر الواقفين على دخالها (المرحوم أبوبكر يحيى باشا) إن الأحداث التي تحدث في تركيا الحديثة تحت إكراه حكومتها ، تحصل بمصر في هدوء وطوعية^(١) .

ومما يجدر بالذكر أن سجلت جريدة « الأهرام » في عددها الصادر ٢٣ إبريل سنة ١٣٣٨ الذكري الثلاثين لقاسم أمين مؤلف كتاب « تحرير المرأة » مع صورته الفطوغرافية وكلمة لابنه قاسم قاسم أمين عن هذه الذكري استهلها بالحديث الشريف : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم يُنتفع به أو ولد صالح يدعو له » .

ثم قال « أما الصدقة الجارية فقد مات قاسم عن غير تركه ، وأما الولد الصالح الذي يدعو له بخير فإني لا أستطيع أن ادعى لنفسى ذلك الصلاح لأعني تواضع بل عن تقصير ، ثم أستطيع سادق العلماء العفو في أن أذهب إلى أبعد من ذلك أيضا فأقول إني أرجو لقاسم عند الله أجرا عظيما بقدر خدمته للإسلام والمسلمين فقد جاء في الحديث : « من سن سنة حسنة فله ثوابها وثواب من عمل بها إلى يوم القيامة »

[١] على أن مسألة المرأة كتبت عنها مرات في الاثنتين التركية والعربية ، وأن ناحية الحق والصواب فيها جلية لا تخفى على أحد ، وإنما يضل من يضل فيها عن الصراط السوى بدافع من شهوات نفسه يقضيها - قليلا وكثيرا - من نساء الناس في إباحة اختلاط الجنسين ، بعد ما أمكنه التفاضل عما يجرع عليه هذا الكسب على حساب الناس من تعويضهم بنائه . فهذه المسألة فيها خسارة وفيها منفعة لمن لا يخفى العار . أما الإلحاد فليس له ما يدعوه غير نار جهنم ، وليس له دافع من النفس غير الحق واشتراء أعظم جهل باسم العلم .

« وأى خدمة أجل من هذه الخدمة التى كان يراها أبناء جيل نعمة لما كان عالقا بالأذهان إذ ذاك من أن الدين يفرض الحجاب ومحتمة ويمقت السفور ويحرّمه فما زال يقرع الحجة بالحجة والدليل بالدليل ما بين معقول ومنقول حتى هدى الله قومه سواء السبيل وبدد الظلمات الخيمة على المقول » .

أقول^(١) فكان حجج قاسم القارعة نسخت نصوص الحجاب الواردة فى كتاب الله وسنة رسوله وبرعتها وأبطلت عمل المسلمين إلى عهد قاسم وأقنعت مصر بذلك .. ولم يتأخر ولده عن أبيه فى الإنيان بالمعجب المعجاب حيث استخرج من ذنب أبيه عملا له ثوابه وثواب من عمل به إلى يوم القيامة . فهو بعد أن تواضع فتنى عن نفسه الصلاح والتواضع فى نفيه ونفى بهذا كله انطباق الحديث النبوى الناطق بانقطاع عمل ابن آدم بعد موته إلا من ثلاث ، على قاسم فى ثلاثة الثلاث - أثبت انطباق الحديث عليه فى ثنائيتها وهى علم ينتفع به . فهذا الولد ذهب كما قال هو نفسه إلى أبعد من موقف الولد الداعى لأبيه واختار لنفسه موقف المحامى عنه ولعله عندما اعتبر إباحة السفور علما ينتفع به نظر إلى أنها - وقد كان مسلمو مصر يجهلون بها إلى أن جاء أبوه فعلمهم وأماط أحوط حاجز بين الجنسين - كم انتفع بها زيرة النساء من الرجال فى قضاء مآربهم منهم وزيرة الرجال من النساء فى قضاء مآربهن منهم .

وحديث تأميل الثواب من الله لقاسم أمين من سفور النساء المسلطات بمصر لكونه رائد نهضتها نحوّه ، كرّر فى قصيدة الأستاذ على الجارم بك بالراديو من محطة الحكومة ليلة الاحتفال بذكرى قامم والمنشورة فى « الأهرام » فى اليوم الثانى من نشر كلمة ابنه .

[١] ولانى كتبت ما كتبه هنا عن قاسم أمين قبل مطالعة كتابه ، وأما ما كتبه بعدها فيجده القارى فى نهاية الجزء الأول من هذا الكتاب .

قد كان هذا الشاعر الكبير يقول في مختتم قصيدته :

كنت في الحق للإمام نصيرا والوفى الصفى من أصحابه^(١)
نم هنيئاً فصر نالت ذرى المجد وفازت بمحضه ولبابه
منك عزم الداعي وفضل المجلى ومن الله ما ترى من ثوابه

وبهذا يتأيد أن مهزلة رجاء الثواب من معصية السفور لزوجها شوطت في مصر
أشواطاً بعيدة كادت تكون جدا .. وبهذا يستحق تبرجها أن يفوق تبرج الجاهلية
الأولى حيث لم يكن عرب الجاهلية القديمة جاهلة لحد أن تؤمل على تبرج نساءها ثواباً
من الله .

وقد كانت مجلة « المصور » عدد (٧٠٠) نشرت قبل أيام من الاحتفال بذكرى
قاسم أمين الثلاثين هذه ، صورة فطوغرافية لحفلة ساهرة كل رجل بها خاصر امرأة
نصف عارية . ونقول المجلة مانصه :

« الاحتفال برأس السنة الهجرية »

« تمثل هذه الصورة لفيفاً من المدعويين والمدعوات في حفلة جمعية إحياء الأعياد
العربية التي أقيمت ليلة رأس السنة الهجرية ، وهذه أول مرة تحتفل بها على هذه
الصورة بالعام الهجري . وكانت حفلة باهرة خصوصاً وقد خلت من الشراب احتراماً
للمناسبة الهجرية » .

وأنا أقول خلت من الشراب المحرم وماخلت طبعاً من مخاصرة المدعويين للمدعوات

[١] مراد الشاعر من الإمام الشيخ محمد عبده ! فيفهم منه وما كتبت السيدة هدى شعراوي
رئيسة الاتحاد النسائي في « الأهرام » بمناسبة ذكرى قاسم أمين هذه أعنى الثلاثين ، أن للشيخ
أيضاً إصبعاً في اليد البيضاء العاملة على نهضة مصر السائرة بل المفهوم أن اليد للإمام والإصبع لقاسم .

كما يشاهد في الصورة وهي من لوازم السفور المصري^(١) المثاب عليه بفتوى قاسم أمين والذي لقاسم أمين بل وللإمام قسطنطين جزيل من ثواب العاملين والعاملات به ومنه ثواب لوازمه إلى يوم القيامة !!

ومن المجائب السارة من ناحية والمحزنة من ناحية أخرى أن الشبان والشابات الطالبين والطالبات في المدارس العالية لا يروقهم الاستهتار الاجتماعي ضد آداب الإسلام وقوانينه ، وما نسينا مراجعة فئة من طلبة الجامعة ومن مختلف كلياتها رئاسة الجامعة بكل حرارة وحماسة شريفة لتغيير أصول التدريس المختلط من الجنسيتين ، ثم مانسينا أيضاً عدم إصغاء أولياء الأمور إلى تلك الطلبات التي كان الأحرى أن تنبث من جانبهم وهم شيوخ أو كهول . لكن أمل عظيم في إسلام الشبان والشابات الذين ابتعد عنهم عن المناقشة الجارية بين الشيخ محمد عبده والأستاذ فرح أنطون منشىء مجلة «الجامعة» وكانت كلمات الأخير أثرت في نفوس الجيل الذي أدرك زمن المناقشة أو وحيه^(٢) وأمل عظيم أيضاً في تأثير كتابي هذا في عقول أولئك الشباب الطرية غير الجامدة على الضلال الحديث^(٣) .

[١] السفور اليوم ليس على معناه في أصل اللغة وهو كشف الوجه ، بل معناه تقليد المرأة الغربية في سفورها الذي قد يجعلها أكثر من نصف عارية .

[٢] وذلك الزمن يتفق مع العهد المشؤم الذي كانت وطأة النفوذ الإنجليزي فيه على وزارة المعارف بمصر على أشدها ، ولا خير للإسلام في رجال البلاد الناشئين في ذلك العهد إلا من ندر منهم وظلوا في عصمة الله .

[٣] لاسيما «شباب محمد» جماعة المجاهدين الجاهرين لصوت الحق إلى الآذان المضية وعيها بين تلاطم أصوات المستهترين والمتسكعين في سبيل الضلال والانحلال ، تقليداً لمدينة الغرب الزائفة في هذه البلاد المسكينة المريقة في الإسلام العامرة بعلومه والمتأدين بأدابه .

ولأنى كما أدعو لجماعة هؤلاء الفتيان بتأييد من عند الله وتسييد لما يسلكونه في خدمة الإسلام وتقويته من السبل .. لا أكنم إعجابي وتعجبي من أنه كيف نجم هذه الصفوة المباركة بعد شيوع الفساد والابتعاد عن الدين والأخلاق في أوساط الناشئين والمتعلمين بمصر ، حتى اعتبر التحرر من قيود الدين والأخلاق شعار الشباب والنهوض . ثم أنول ليس يبعد عن قدرة الله وسنته بمصر =

وهناك ناحية أخرى بمكان من الأهمية وهي أن مصر تحول نفسها بعد زوال تركيا الإسلامية وانقلابها إلى تركيا العلمانية (لاييك) زعامة الإسلام.. فن حق كل أحد إذن من المسلمين ولو كان من غير المصريين أن ينتقد ما فيها من الأحوال التنافية مع هذه الزعامة، بل من واجبه أن ينبه المصريين إخوانه في الدين ليتداركوها بالإصلاح فتسلم لهم زعامتهم الدينية أو ينبه المسلمين الأباعد ليكونوا على بينة من موقف ما يتصورونه للزعامة. وقد وقع قبل بضع سنين أيضا أن قررت الجامعة المصرية أن تكون شارات حراسها رموزاً من صور آلهة المصريين القدماء، فتكون شارة كلية الزراعة صورة إله الزراعة وشارة كلية الطب صورة إله الحكمة وهلم جرا. فكتب صديق المغفور له الشيخ عبد المجيد اللبان شيخ كلية أصول الدين مقالة في الجرائد يستنكر هذا القرار ويلفت نظر الجامعة والوزارة إلى واجبهما نحو دين الدولة الذي هو الإسلام البعيد كل البعد عن الوثنية ورموزها، فلم تسمعاً له وسكتت مشيخة الأزهر عن تأييد شيخ الكلية فاستقرت شارات الآلهة وشكر الله وحده سعي الشيخ اللبان.

وكتب بعض المهوسين ردّاً على الشيخ بأن متخذى تلك الشارات لا يقصدون عبادتها. والجواب عليه: فإذا يقصدون من اتخاذها؟ وأي علاقة بتصورون بين تلك الآلهة وبين الزراعة والطب وغيرها، فإن كانت آلهة باطلة لزم أن تكون الصلة بينها وبين الأمور المنسوبة إليها باطلة أيضاً وتذكيرها تذكيراً للباطل. وفضلاً عن أن يكون هذا الاتخاذ غير خالي من قصدى له عاقل، فإن الإسلام غيور لا يسوّغ التشبه بالمشركين.

== أن تنفى فيها جماعة من شباب سيدنا محمد وينصرهم على الكثرة الزائفة عن طريقة محمد صلى الله عليه وسلم، كما نشأت سيدنا موسى في أحضان فرعون الطاغية وجنوده وغلبه عليه وعليهم من غير حرب وتصادم بين الغالب والمغلوب ومن غير جند للغالب سوى المعجزة. ولأنى آتئنى أن تكون غلبة الإيمان بمصر على الإلحاد والصلاح على فساد الأخلاق في هدوء المعجزة وسكونها. والله على كل شيء قدير.

وكان وزير المعارف الذى اتخذت الجامعة شارات حراسها من صور الآلهة فى عهد وزارته ، قد افضى قبل توليه الوزارة بقليل إلى محرر جريدة تنشر فى القاهرة على اللغة الفرنسية ، ببيان يعرب عن رأيه فى الجامعة ولم تتناوله الجرائد العربية ، وهو أن تكون الجامعة لادينية « لا ييك » وينحصر التعليم الدينى فى الأزهر. فحدث اختيار الشارات فى مجلس الجامعة من صور الآلهة كان يلائم ذلك البيان السابق كما يلائمه حديث الأستاذ فريد وجدى السابق الذكر عن عقليات نوابغ الشرق الإسلامى المستبطنى الإلحاد الذين لا يعزب كثير عنهم أعضاء مجلس الجامعة المصرية.

ومما يجدر بالذكر هنا أنه كتب صديق الدكتور طه حسين بك مقالة فى الأهرام بعنوان « تقاليد » تدل على أن وزارة المعارف بمصر إن صادقت وزيراً يحترم شعار الإسلام وآدابه استهدف حملات ساعية لأن تجعله غريباً كالإسلام نفسه .. فقد سخر الكاتب فى مقالته هذه من وزير المعارف معالى مرسى بدر بك لإلفائه الرقص التوقيعى فى مدارس البنات والبعثات منهن إلى مدارس البلاد الغربية مع استثناء لندن التى توجد فيها دار خاصة لمن بنتها الحكومة المصرية أو تملكها وتوجد فى تلك الدار سيدة مصرية تشرف عليهن ... سخر من قرار الوزير هذا قائلاً ما معناه إذا لزمتم المحافظة على التقاليد فالمقول تأسيس وزارة باسم وزارة التقاليد وتخيير معاليه بين الانتقال إليها أو البقاء فى وزارة المعارف التى هى وزارة التعليم غير مشغول بما هو أجنبي عنه .

وقد ذكر الكاتب فى مقالته من وزراء المعارف من يتهم عليه ويستحق فى زعمه لقب وزير التقاليد غير مرسى بدر بك وهو معالى محمد حلمى عيسى باشا الذى تولى وزارة المعارف قبل سبعة عشر عاماً وفعل مثل ما فعله الوزير الحالى جزاء الله عن خيرا . وأنا أقول : إن « التقاليد » يستعمله الكاتب فى معنى الآداب والمعادن الدينية

التي ورثها الناس من آباؤهم وأجدادهم واهتموا بها تقليداً لهم أى بمجرد أنها تراث الآباء والأجداد لا لأنها جديرة بالاحتفاظ والاهتمام ، وتكون خلاصة ما قصده من وزارة التقاليد وزارة الدين التي تسهر على شعائره وتظل قوة الظهور للمحافظين ... لكنى أنا لأبأرضى التقاليد التي هي جمع تقليد ، اسماً لوزارة الدين ، كما لا أقبل ما يدل عليه كلام الكاتب من عدم وجود تلك الوزارة بمصر في الحالة الحاضرة ... فأولا لأن وزارة الدين الذي هو حقيقة من الحقائق المالية لا تكون وزارة التقليد ، بل وزارة التحقيق ، وإنما الوزارات غيرها التي تتخذ الغرب لها قدوة وتحاول أن تأخذ من هذا الاتخاذ قوة ، أحق باسم وزارات التقليد من وزارة الدين التي يسخر منها صديق الكاتب بهذه التسمية على تقدير تأسيسها .

وثانياً لأن هذه الوزارة أى وزارة الدين موجودة في مصر لا حاجة لها إلى تأسيس جديد ، وهي مشيخة الأزهر . والذي جعل صديق غافلاً عن وجودها كونها مجردة عن سلطتها اللائقة بها - بفضل مساعي أناس قائمين بأعمال وكلاء الغرب اللاديني أو الطابور الخامس له في الشرق الإسلامي -^(١) ومتروكة في خارج الوزارة الحاكمة ، اسماً بلا معنى ولا وزن غير وزن مرتبتها المقدر بالقناطير المقنطرة ، كأن هذا الوزن الثقيل المالي لهذه الوزارة غير المتناسب مع الواجب الموزول المحمول على عاتقها ، ثمن التنازل عن التدخل والمساهمة في وزارة الحكم والتخلي من الإشراف على رؤساء المحاكم الشرعية وفيهم رئيس المحكمة العليا وكذا مفتي الديار المصرية الأكبر وكلهم اليوم أتباع وزير العسذل مقطوعى الصلة بمشيخة الأزهر ، مع أن المحاكم الشرعية

[١] فإن لم يكن كاتب المقالة الساخر بتسمية وزارة الدين وزارة التقاليد ، منهم فإني أعهده مقلد الغرب بل مقلد مقلده في الشرق الإسلامي الذين كانت لهم مصلحة التمتع من سفور النساء ومن الفن في أوضاع سفورهن المستهتر ، في حين أنه لا يتصور مثل هذا التمتع لكاتبنا شخصياً ، وإنما هو يقلد المتمتعين .

والإفتاء الدينى لو خليا وطبعهما كانتا تحت إشراف وزارة الدين التى لا ممثلى لها فى مصر سوى مشيخة الأزهر... لكن هذا المقام الذى يُعتبر صاحبه فى المظاهر والمرامم فوق الوزير، لا محل لها من الإعراب على تعبير علماء النحو العربى^(١) وكأنه وزير بلا وزارة يشرف عليها، مع وجود أمور ومصالح فى الحكومة ذكرتها قطعت صلتها به وجعلت تحت إشراف غيره؛ أو كأنه ليس وزيراً بالرة لعدم وجود كرسى له فى مجلس الوزراء... والسبب المحتفى تحت هذا التفرق الشبيه بحال التفرقين أيدى سبا الداخل بين شيخ الأزهر وبين ما كان يلزم أن يكون تحت إشرافه من المصالح والمناصب الكبيرة الدينية - هو الحد من نفوذ الدين ومركزه فى المشرف والمشرّف عليه، بتجريد الأول من العمل وربط الثانى بمقام غير مقامه... والذى يشق على المسلم كون هذه المؤامرة ضد عزة الإسلام وكرامته حيكّت فى أول وضعها بأيدى طائفة معدودة من المسلمين كما تؤيد وتستزاد اليوم بأيدى طائفة من الناسجين على منوال الواضعين. وكلتا الطائفتين من أعوان الاستعمار الغربى الذين احتل الاستعمار قلوبهم وعقولهم زيادة على احتلال بلادهم. فهم يعيشون بأجسامهم فى أوطانهم ويعيشون بقلوبهم وعقولهم فى بلاد المستعمرين وربما يعيشون فيها بأبدانهم أيضاً إذا ساعدهم الحال فيكون ذلك الزمان المساعد أسعد أوقات حياتهم، والمرء فى الدنيا والآخرة مع من أحب.

وكاتبنا لم يكتف فى تأنيب وزير المعارف بمقالة واحدة بل عزّزها بثانية وثالثة... وكتب فى إحدى المقالات نذيراً موجهاً إلى سمّة مصر عند دول الغرب خلاسته أن انحرافها عن الأوضاع التى اكتسبت بها هذه السمّة تجعلها لقمة سائغة لتلك الدول. وأنا أقول: فإذا كانت سمّة مصر فى نظر الدول غير الإسلامية مرجعها إلى

[١] ولهذا انتهى أمرها إلى أن أصبح موشكا لتذكير قول الشاعر:

لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها وحتى سامها كل مفلس

الحصول على مرضاتهم بالابتعاد عن الإسلام والتقرب إليهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، فإن الآية التي يعرفها الكاتب وهي قوله تعالى « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » - وقد ذكرتها في هذا الكتاب عند التعقيب على أقوال الأستاذ توفيق الحكيم في مسألة الفن القصصى في القرآن - تعود عند كاتبنا ، كأنها مؤيدة لإنذاره وحانة لسلمى هذا الزمان على اتباع ملة الدول الغالبة !! والله في خلقه شئون والحديث ذو شجون وأشجان .

هذا ، وكتب الأستاذ كاتب « نحو النور » في الأهرام بمد زهاء شهرين من مقالات الدكتور طه حسين بك في الموضوع نفسه ، منتقداً لوزير المعارف معالى مرمى بدر بك كما انتقد الدكتور ، إلا أن انتقاده صادف زمن استقالة الوزارة التي تحتوى معاليه ، فقال :

« حقاً ما أشد حيرة المدرسات والطالبات في وزارة المعارف !

« إلى ما قبل أربعة أيام كانت الأوامر أن يرتدين ملابس فضفاضة وأن لا يبدن زينةن ، وأن تُوقف البعثات إلى الخارج ويُمنع الرقص التوقيى !

« أما اليوم فقد أضحت هذه الأوامر بغير سند تعتمد عليه ، فإن الوزير الذى أصدرها متحمساً لها قد استقال ، وحل محله وزير آخر له رأى آخر ! فلا بد أن الأمور فى هذه المسائل ستعود إلى سابق عهدها .

« ولكن يبقى بعد ذلك وضع حد لمثل هذه القرارات والأوامر العاجلة ، فإنها إذا كانت تُقيل فيما يملك الإنسان التصرف فيه وفيما لايمس سياسة قديمة استقرار العمل بها ، فإنها أخطر ما تكون إذا تناولت نظاماً قائماً ومستم ما لا سبيل إلى التصرف فيه إلا بعد دراسة وتقرير وبُحث .

« إن حدود عمل الوزير ينبغي أن تكون واضحة ، واستقرار الأنظمة الحكومية

ينبغي أن يكون له احترامه وإلا إذا خضعت المصالح والوزارات إلى الأفكار الشخصية للوزراء فكيف يكون الحال ؟

« ليكن لكل وزير ما يشاء من الآراء ، ولينفذها في النطاق الشخصي الذي هو وحده صاحب الشأن فيه كميته أو عائلته . أما إذا تعلق الأمر بسياسة أمة وسياسة جيل ، فليس معنى كونه وزيراً أن يستقل بالفصل فيه ، وإلا انقطع الاستمرار وخضعت التوجيهات العامة للآراء الشخصية .

« إن هناك مسائل لا بد أن تكون حرماً لا يستباح بسهولة وفي أولها التعليم وما يجري مجراه من نظم تعد عماداً وكياناً . ولسنا نعى بذلك أن يُحرّم تعديل هذه النظم ، كلا .. فإن الكثير منها لا يتفق مع رأينا ، ولعلنا نوافق مرسى بدر بك في بعض ما ذهب إليه ، ولكن تعديل النظم لا يجوز أن يتم بمثل هذه السهولة وبجرة قلم ... لأنها نظم وتقاليد استقرت خلال أجيال طويلة ، فإذا أريد تعديلها فلا بد أن يكون باقرار عام وبعد دراسة طويلة ... الخ »

وقال في آخر مقالته : « ولعل الدرس الذي وعيناه من قرارات وزير المعارف السابق والمصير الذي آلت إليه ، يفتح أعين المشتغلين بالمسائل العامة ممن تؤول إليهم سلطة التنفيذ فلا يتمجلون المسائل ، ولا يجعلون بالهم إلى هدم القديم بينما لدينا المجال الواسع للبناء والتجديد . وقيمة الوزير لا تجمى من أن يهدم ولكنها تجمى من أن يبني » . وأنا أقول : انتقاد هذا الكاتب يختلف عما كتبه الناقد الأول ، حيث عد هذا قرار وزير المعارف بإلغاء الرقص التوقيمي للطالبات وحظر ابتعادهن وابتعاد مدرساتهن عن ملابس الحشمة وأزيائها ، هدماً للقديم وخروجاً على التقاليد .. في حين أن الدكتور طه حسين بك كان يعد ما فعله الوزير رجوعاً إلى التقاليد القديمة المنسوخة وإحيائها . ولهذا ذهب إلى لزوم تأسيس وزارة التقاليد لينتقل إليها هذا الوزير الذي يسخر منه

في انتقاداته .. ومع ذلك فإن أسلوب الكاتب الثانى الخالى عن التهمك أغرب من أسلوب الدكتور طه وأبعد عن الحق ، فإنه يجعل الرقص والبعد عن الاحتشام فى ملابس الطالبات ومدرساتها ، أساساً وما فرض عليهن الوزير خروجاً على الأصل المتبع .. يدل عليه قوله عن هذه الأمور التى أنفاها الوزير : « إنها نظم وتقاليد استقرت خلال أجيال طويلة » . وقوله فى فقرته الأخيرة : « فلا يتمتعون المسائل ولا يجعلون بالهم إلى هدم القديم » . مع أن تلك الأمور التى أنفاها الوزير لا يعرفها الإسلام إلا من البدع المنكرة ولا يعترف لها بالقدم والاستقرار ، اللهم إلا ما كان لها من النظام والاستقرار فى الجاهلية الأولى المشار إليها فى قوله تعالى : « ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » .

أما قول الناقد فى صدر مقالته : « حقاً ما أشد حيرة المدرسات والطالبات فى وزارة المعارف !

« إلى ما قبل أربعة أيام كانت الأوامر أن يرتدين ملابس فضفاضة وألا يبدن زينتهن ، وأن توقف البعثات إلى الخارج ويمنع الرقص التوقيعى ! »
فهو كالصريح فى أن مانهى الوزير عنه يتفق تماماً مع نهى الإسلام القائل فى كتابه « ولا يبدن زينتهن إلا لبعوثهن ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن »
كما أن قول الكاتب المنقول يكون بمثابة المعارضة لنهى الإسلام فى معناه ولفظه .
وجد فظيع وبشيع فى بلدة إسلامية كصر أن يكون ما أنكره الإسلام ونهى عنه فى كتابه ، كيأنا لها ونظاماً مستقراً وحرماً لا يستباح بسهولة .. بعد أن لم يكن ماعرفه الإسلام واعترف به وجرى العمل عليه بين جميع المسلمين مدة ألف سنة وثلثمائة -
نظاماً مستقراً وحرماً لا يستباح بسهولة .

ولو سألنا الكاتب عن مقصوده بما اشترط لإعادة نظام الإسلام فى مصر من

الإقرار العام بعد أمر الحكومة بلسان وزير المعارف وعدم احتمال مصادمة هذا النظام بآراء عامة المسلمين فيها - فإذا يكون جوابه ؟ . . . ولعل نصاب الإقرار العام عنده إقرار نفر من الكاتنين الكرام في الصحف أمثال الدكتور طه حسين بك وكاتب « نحو النور » في الأهرام . ومعنى حصول الإقرار العام بإقرارهم على الرغم من كونهم قلة ضئيلة ولا كواحد في مائة ، كونهم يجرون من ورائهم آراء الغريبيين غير المسلمين .

ولا يمكن اجتياز هذا البحث من دون تعرض لمسألة خطيرة الشأن تدل على أن حكومة مصر لا يهتمها أن ينشأ أولاد المسلمين نشأة إسلامية ، لأن مدارس مصر الرسمية لا يدرس فيها الدين بتاتا عدا المدارس الابتدائية وفيها لا يعتبر درس الدين من المواد الأصلية المؤثرة في نجاح الطالب في الامتحانات أو رسوبه فيها . وهذه المسألة الغريبة البكية لأصدقاء مصر ليس المسئول عنها عند الله الحكومة فحسب بل الأمة أيضا الباعثة نوابها إلى البرلمان . فعمثلو مصر التي تباهى بزعامة الإسلام يكونون أدنى مرتبة وأقل حيازة لحقوقهم الدينية قبل الحرب العالمية الأخيرة ، من مسلمى بلاد البلقان التي كانت تحكم فيها حكومات غير إسلامية مثل يوغسلافيا وبلغاريا ورومانيا واليونان ، لأن جميع المدارس التي كانت تتولى أمورها الجماعات الإسلامية في تلك البلاد لاسيما بوسنة وهرسك التي لم تستطع تركيا الجديدة اللادينية أن تفسدها بفضل ثبات أهلها المسلمين في التمسك بدينهم إفسادها لمسلمى اليونان ورومانيا وبلغاريا ، هذه المدارس الإسلامية في تلك البلاد كانت تعتبر دروس الدين من أهم موادها الأصلية .

لا يقال جوابا على انتقادى هذا الموقف المسلمين بمصر أن للمسلمين في بلاد البلقان موقفا خاصا يقفونه إزاء كون حكوماتهم أجنبية عن الإسلام وكون مدارسها لا يدرس فيها دين المسلمين فلا يقاس عليهم مسلمو مصر . ومع هذا فلمهم أن يؤسسوا مدارس كمدارس المسلمين في البلقان يدرس فيها ماشاءوا من علوم الإسلام معدودة من المواد

الأصلية . كما أن هذا الحق بأيدي المدارس الحرة الموجودة بمصر وما سيوجد منها .. لأنني أقول ماذا يريد أن يقول هذا الحبيب على نقدي لمدارس مصر الحكومية؟ فهل مسلمو مصر في حاجة إلى تشكيل جماعة إسلامية فيما بينهم تشرف على حاجات المسلمين الدينية وتعتبرهم في مصر كأنهم يحكم في بلادهم الأجانب عن الإسلام فتؤسس لهم مدارس تهتم بالدين وتعد دروسه من المواد الأصلية كما كانت تفعل الجماعات الإسلامية في بلاد البلقان غير المسلمة .

وقد سمعت أن عذر الحكومة المصرية في إغفال دراسة الدين في مدارسها الرسمية عدم اختصاص تلك المدارس بأبناء المسلمين . فلو علمتهم دينهم وأهل دين طلابها من غير المسلمين مع كونهم أيضا من أبناء مصر كالطلاب المسلمين ، ليمت بعمد مراعاة المساواة إزاء أهل بلادها . والجواب عليه أن مثل هذه الملاحظة واردة على تصريح الدستور المصري بأن دين الدولة الرسمي الإسلام ، فالذي يوجب ترجيح الإسلام في دين الدولة يكفي مرجعا لتدريس هذا الدين في مدارسها الرسمية ، وإلا كان امتياز الإسلام في هذه البلاد بأن يكون هو دين الدولة ، لفظا ، من غير معنى .

هذه حالة المدارس المصرية التي تديرها أو تشرف عليها وزارة المعارف . أما الأزهر فالباحث الحازم يتردد كثيرا في القول بأنه أحسن حالا .. ولو عرف العالم الإسلامي أو بالأولى لو عرف علماء الإسلام في أقطار العالم أن الأزهر الجديد في حيرة عن أمره في الاحتفاظ بما ورثه من قديمه من العلوم والعقائد حتى التي كان يعتمدها من الضروريات لقضوا عجباً منه .

حسبك شاهدا على هذا أن هيئة كبار العلماء الأزهريين ، بعد أن دعيت قبل بضعة سنين هي أو لجنة منتخبة منها إلى إبداء رأيها في الغلام أحمد القادياني الهندي ، حدث خلاف بين أعضائها أو على الأقل شكٌ يحتاج بعضهم في خروج من لم يعترف بكون محمد

صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء عليهم السلام ، عن الإسلام^(١) والذين اقتنعوا به من أولئك الأعضاء لم يجدوا نصا قاطعا بهذا الضدد يكفي في إخماد من شك من زملائهم ، وتمسك بوجود احتمال في قوله تعالى : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » يفتح الطريق إلى الشك ويمتص الحكم بكفر صاحبه مهما كان احتمالا ضعيفا وهو احتمال أن يكون المراد من الخاتم الزينة لا الخاتمة .

وأنا أقول وقد سألتني أحد أقطاب الأزهر أعنى صديق الغفور له الشيخ عبد المجيد اللبان أن أجد نصا في إكفار من قال بإمكان بعث نبي بعد نبينا أصرح من الآية الناصة على أنه خاتم النبيين... سألتني ذلك كيلا يبقى للشاك في هذه المسألة - وهو غير الشيخ الغفور له طبعاً - مجال الجدل وإن كان هذا السؤال بعد وجود الآية المذكورة تكليفا بما لا يطاق ودافعه إليه من شك في البديهييات . وكما كان واجبي في هذا العصر إزالة الشبهة في البديهي ! ..

أقول طلب الدليل بعد هذه الآية في القطع بأنه صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء كطلب الدليل على النهار بعد طلوع الشمس ، وقد انعمد الاجماع على كفر من ادعى النبوة بعده كما صرح به المولى على القارى في شرحه على « الفقه الأكبر »^(٢) وأيضا لو لم تكن دعوى النبوة بعد نبينا كفرا لما قاتل سيدنا أبو بكر المتنبئين وأتباعهم .

[١] أنا لا أقول بوجود عضو في هيئة كبار العلماء يشك في أن محمدا صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء ، ولكن هل لا يكون التردد في الإفتاء بكفر من قال بخلافه فأجاز أن يبعث الله نبيا بعده ، شكاً في كفر القائل والشك فيه شكاً في كونه آخر الأنبياء ؟ فإن كان الفتى المتردد لا يفهم الملازمة بين هذه الأمور فسلام على العلم والعلماء وعضوية كبار العلماء .

[٢] وهناك إجماع غير هذا يستلزمه وينبئ عنه وهو أن المسلمين جميعا يعتقدون كون نبينا آخر الأنبياء ، وهو إجماع عام يعرفه الخاصة والعامة ولا يشك في كفر من أنكره كالإجماع على عدد ركعات الصلوات الخمس .

أما احتمال التأويل في لفظ « الخاتم » بالزينة فبعيد جدا بحيث لا يعقل ولا يجوز أن يعد احتمالا . أما أولا فلعدم الثامه بما قبله وهو نفي كونه صلى الله عليه وسلم أبا أحد من الرجال ، إذ لا مانع في كونه زين الأنبياء من كونه أبا أحد من الرجال ، وإنما المانع منه كونه آخر الأنبياء فلا يكون ابنه نبيا بعده كما هو المعتاد في أبناء الأنبياء .

وأما ثانيا - وهو المهم وإن لم يتصد لذكره أحد من المفسرين لأن الشبهة التي خالجت عقول بعض الأعضاء^(١) من هيئة كبار العلماء الأزهرية لم تكن تخالج عقولهم - فلان الختم بمعنى الإنهاء أو الطبع ، والخاتم ما يختم به أى ما يجعل في النهاية أو ما يطبع به ، وهو بالمعنى الأول نص في الخاتمة وبالمعنى الثانى يكون كناية عن الخاتمة تشبيها لطبع الشئ بالخاتم ، بإنهائه لأن طبع الشئ بالخاتم ينهى الأمر ويسد الباب على التصرف فيه . فإن كان الخاتم في « خاتم النبيين » بمعنى النهاية فالأمر ظاهر وخاتم النبيين آخرهم . وإن كان الخاتم بمعنى ما يطبع به فالمراد منه أيضا أنه آخرهم تشبيها للختم بمعنى الطبع بالختم بمعنى الإنهاء ، كأنه صلى الله عليه وسلم الخاتم المضروب على قائمة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم فلا يكتب فيها بعده اسم نبي لكونها مختومة .

أما أن يكون المراد من الخاتم ما يلبس في الأصابع ويتزين به ويكون معنى خاتم النبيين زين الأنبياء فلا وجه له لامن طريق اللغة ولا من طريق البلاغة ، لأن الحلقة الملبوسة للزينة وإن كانت من جملة ما يطلق عليه الخاتم في اللغة ، إلا أن ذلك إطلاق مجازى مبنى على أنهم كانوا يكتبون أسماءهم على تلك الحلقة الملبوسة ويستعملونها في الطبع والتوقيع .

[١] ينى وبين فضيلة الشيخ شلتوت عضو كبار العلماء أخذ ورد في كون هذه الشبهة أثبتت في الحياة عند درس مسألة الطالبين الألبانيين القاديانيين ، يأتي تحقيقهما بمكان آخر من هذا الكتاب إن شاء الله .

وقد صرح الرغشري في «أساس البلاغة» بكون هذا الاطلاق مجازا مبنيا على هذه المناسبة، فسبب إطلاق الخاتم على الحلقة اللبوسة كونها أداة الختم بمعنى الطبع لا كونها أداة الزينة . فلا يصح استعمال لفظ الخاتم الذي معناه المدلول عليه بصيغته هو أداة الطبع ، ك مجرد واسطة للانتقال منه إلى معنى الزينة ، فلا يجوز أن يقال عنه صلى الله عليه وسلم «خاتم النبيين» ويراد به أنه زينتهم المجردة عما يدل عليه لفظ الخاتم من الختم بأحد معنييه أى الإنهاء والطبع ، لأن الخاتم هو ما يختم به بأحد المعنيين المذكورين لا ما يزين به وإن وجد عرضا في بعض ما يطلق عليه الخاتم أنه يستعمل أيضا للزينة . ووزان الخاتم في هذا الشأن مثلا وزان ساعة اليد التى يتسورها بعض الناس فى الأزمنة الأخيرة لمعرفة أوقاتهم بسهولة ودون غفلة ، بل ساعة الجيب أيضا وربما يزين بهذه أو بتلك من يزين ويتأنق فى التزين فيغالى فى اختيارها ماشاء .. لكن المقصود الأصلى منهما معرفة الوقت كما أنه المفهوم من لفظهما ، وإن حصل بهما التزين أيضا لمن يتخذ منها وسيلة إليه . فكل منهما بالنظر إلى لفظها أداة معرفة الوقت قبل أن تكون وأكثر من أن تكون أداة الزينة ، مع أن إمكان أن يكون كل منهما مستعملة أيضا للتزين وهما من ناحية القابلية للاستعمالين كلفظ الخاتم . فهل يطلق على نبينا صلى الله عليه وسلم أنه ساعة اليد أو ساعة الجيب للأنبياء ؟ وهل يكون لهذا الاطلاق مساغ فى الكلام الفصيح ؟ مع أنه صلى الله عليه وسلم زين الأنبياء وأن كلا من الساعتين قد يُزين بهما . والسبب فى عدم جواز هذا الاطلاق مع جواز إطلاق «خاتم الأنبياء» ووروده فى الفصيح المعجز أن المعنى الذى يجب أن يراد من ساعة اليد أو ساعة الجيب للأنبياء أو خاتم الأنبياء هو المعنى الذى يدل عليه اللفظ مباشرة وهو ما يعرفون به أوقاتهم فى الأوليين وخاتمهم بمعنى خاتمهم أو طابع الختم لهم فى الأخير ، أو لازم هذه المعانى المباشرة ؛ وأن هذا المعنى المباشر أو لازمه الذى لا يفارقه صادق وواقع فى الخاتم دون الساعتين ، أعنى أنه

صلى الله عليه وسلم خاتمة الأنبياء أو طابع الختام لهم ، وليس صلى الله عليه وسلم ساعة لهم يعرفون به أوقاتهم ولا أن الزينة التي قد توجد في بعض ساعات اليد أو الجيب مطردة في كل منهما يصح انتقال الذهن منه إليها انتقاله من المزوم إلى اللازم ولا أن هذه الزينة محترمة جدية بأن يوصف بها أشرف المرسلين .. ويمائل الساعتين الخاتم في عدم كون الزينة لازما له مطردا ولا زينة محترمة تمام الاحترام ، ولهذين المانعين لا يقال عن نبينا أنه خاتم الأنبياء مراداً به زينهم كما لا يقال عنه أنه ساعة اليد لهم أو ساعة الجيب المانعين المذكورين ، وكذا لا يقال إنه قرط الأنبياء ولا خلخالهم وإن كان قصد الزينة مطردا فيهما فيصح الانتقال منهما إلى معنى الزينة ، لكون الأول زينة خاصة بالنساء وكون الثاني مع هذا الاختصاص زينة غير محترمة . وليس في « تاج الأنبياء » شيء من الموانع . هكذا ينبغي أن تميز زينة عن زينة ويوقى لتحقيق المسألة حقها ويراعى مقامه صلى الله عليه وسلم في الوصف ومقام القرآن في الإعجاز ، ومنه يفهم حق الفهم مبلغ قوة السند الذي يستند إليه إجماع المسلمين على أنه صلى الله عليه وسلم خاتمة الأنبياء لا نبى بعده .

وأما ثالثا وفيه تلخيص القول ، فلأن الخاتم معناه الحقيقي ما يختم به من الختم بمعنى الإنهاء أو بمعنى الطبع . وليس معناه ما يترين به لأن الختم لا يمحى بمعنى التزين قطعا .. إلا أن بعض ما يختم به من الختم بمعنى الطبع يترين به أيضا كما في الحلقة الذهبية أو الفضية التي يحك عليها أو على فصها الثمين اسم الرجل ويتخذ منها أداة الختم والتوقيع فيجتمع فيها معنى الطبع ومعنى الزينة .. وقد تكون أداة الطبع مما لا يلازم أن يتخذ زينة سواء كانت على غير شكل الحلقة اللبوسة أو كانت على شكلها من المعدن الرخيص ، فيتحقق فيها الخاتم أعني ما يختم به من الختم بمعنى الطبع ولا يتحقق فيها الزينة . وهناك أدوات الزينة لا يختم بها ولا يوقع . فالزينة لا تلازم الخاتم وإنما توجد في بعض

ما يطلق عليه الخاتم بل في بعض ذلك البعض كما عرفت . فبين ما يحتم به وما يتبين به عموم من وجه ، فقد يجتمعان في مادة ويفترق كل منهما عن الآخر في مواد كما بينا ، فيبينها مغايرة وبينهما مناسبة ، ومع هذا لا تبلغ هذه المناسبة مبلغ أن يصح ذكر أحدهما مراداً به الآخر ، فلا يصح أن يقال خاتم النبيين ويراد به زينهم ، إذ لو صح ذلك لصح أيضاً أن يعكس فيقال زين الأنبياء مراداً به طابعهم .

وليت شعري أن من لا يرى القطع في دلالة « خاتم النبيين » على كونه صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء ، مستنداً إلى احتمال تأويل الخاتم بالزينة لا لكونها مدلول اللفظ ولا لازم مدلوله وإنما لاستعمال بعض الناس بعض مسمى هذا اللفظ لمجرد الزينة إخراجاً له من وضعه الأصلي .. ليت شعري كيف يقطع بدلالة خاتم النبيين على نبوته صلى الله عليه وسلم قبل دلالاته على أنه خاتمهم؟ وكذا دلالة قوله تعالى « ولكن رسول الله » على رسالته بالمعنى المعروف ، مع أن للنبي معنى غير معناه المعروف في اصطلاح الشرع وكذا الرسول ، لاسيما وأن الكتاب العصريين ابتدعوا للرسالة معنى عاماً اختلسوه من معناه الخاص بعدد ممتاز من البشر فحملوا لكل فرد أو جنس منهم رسالة من الله بمعنى أنه خلق لأدائها . فلماذا لا يفكر ذلك العضو من جماعة كبار العلماء - الذي تعلق ذهنه باحتمال معنى الزينة في الخاتم ولو احتمالاً ضعيفاً - في احتمال أن يكون رسالة الرسل المذكورين في كتاب الله من هذا القبيل ، فيشك في كفر من ينكر رسالته بذلك المعنى كما شك في كفر من ينكر كونه خاتمة الرسل ؟

هذا ، ومع القيام بواجب الذود عن خاتم النبيين انتهت من الكلام في موقف مصر من الإسلام وانتهت عند ذلك مقدمة الكتاب التي شرحت فيها أسباب تأليفه . والتي انتهى معها الجزء الأول من الكتاب وكان الذي دفعني إلى هذا الشرح الطويل عن موقف مصر بيان تأكيد الحاجة إلى تثبيت عقيدة الدين بها الذي يخدمه هذا الكتاب

إن شاء الله . وليس المقصود تمييز شخص ولا تشهير أمة^(١) إن أريد إلا الإصلاح
ما استطعت وما توفيق إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

[١] وكيف يكون لي تمييز مصر باعتبار أني أجنبي عنها مع أن بلادى اليوم أشد استحقاقا
للتمييز من أى بلد إسلامى ؟

الهوامش أو بقاياها التي لم تنشر في محالّها من صفحات هذا الجزء
من الكتاب لطولها فنشرها في ذيله مرتبة ومقيدة بأرقام
تلك الصفحات .



« بقية الهامش من الصفحة ١٥٤ »

فهذا أمير الشعراء شوقي بك الذى أنفق عمرا فى مدح السلطان عبد الحميد وآل عثمان تراه يمدح مصطفى كمال ولا يعرفه ويذم السلطان وحيد الدين بل يشتمه ولا يعرفه فيقول : ولّى الطواغيت يدعى بأمير المؤمنين . حتى قلت له : فى خطاب مفتوح : إني أعرف الشعراء على ما وصفهم الله فى كتابه الكريم بأنهم يقولون ما لا يفعلون لكنى وجدتكم - والحق يقال - من الذين يقولون ما لا يفعلون . ثم إنه على الرغم مما وجهت إليه من التنبيه والتحذير ، يقول - وبأسيا يقول - فى قصيدة هنا بها الجمهورية التركية اللادينية عند إعلانها وإلغاء الدولة العثمانية الإسلامية به ، والخطاب لأنقرة عاصمة تلك الجمهورية اللادينية :

إن الذين بنوك أشبه نية بشباب خير أو شباب تبوك

ويقول فى القصيدة تعريضا وبقولى المذكور عن الشاعر :

قد ظننى اللاحى نطقت عن الهوى وركنت متن الجهل إذ أطريك
زاعما أن تلك الجمهورية التى لا يعرف أنها جمهورية لادينية ولا يعرف أنه لا يعرف ،
تؤيد الخلافة . وبعد بضعة أشهر يلغى مصطفى كمال الخلافة وينفى عبد الحميد الذى ولاه
الخلافة قبل سنة ونصف سنة من تركيا تصديقا لى وتكذيبا بمدّاحه فى عالم الإسلام
الذين لا يعرفون حقائق الأحوال ولا يريدون أن يتعلموها من العارفين ، فيقول الشاعر
فى قصيدة جديدة :

الهند والهبة ومصر حزينة تبكى عليك بمدمع سحاح

والشام تسأل والعراق وفارس أمحا من الأرض الخلافة ماح ؟

وجواب هذا السؤال من الشاعر : نعم ، محّا ، وأنف الغافلين غير سامى التنبيه
فى أوانه راغم ! فكان الشاعر يستدرك ما فاتة فى هذه القصيدة التى عنوانها « خلافة
الإسلام » وبكى فيها على الخلافة الملقاة ، ويرجع عما فرط منه أولا فى مدائح المنفى .

وهل نفع استدراكه هذا الخلافة المهدومة كما نفعت مدائح المادحين الهادم وشجسته
على الهدم؟ بل هل نفعها وهي مهدومة قوله في ذم الهادم بعد خراب البصرة :

بكت الصلاة وتلك فتنة عابث بالشرع عرييد القضاء وقاح
أفتى خزعبله وقال ضلالة وأنى بكفر في البلاد براح
ثم رجع الشاعر عن رجوعه قائلا :

استغفر الأخلاق لست بمجاهد من كنت أدفع دونه وألأحي
مالى أطوقه السلام وطالما قلده المأثور من أمداحي
هو ركن مملكة وحائط دولة وقرين شهباء وكبش نطاح
أأقول من أحيا الجماعة ملحد وأقول من راعى الحقوق إباحي

وأنا أقول : سواء قال أو لم يقل فهو كذلك وسواء قوله هذا وعدمه بخلافه
الإسلام والإسلام مقضى عليهما في تركيا بيد ممدوحه بإصرار ومذمومه بتردد ،
ولات حين ينفع الذم والندم ، وإثم القضاء يشاركه فيه الخائضون في مدحه من غير
إصغاء إلى نصيح ناصح . وكان واجب الهانفين له المستمرين في نصره بالفعل والقول
إلى أن يقضى على الخلافة والإسلام ، أن يستمروا في الهجوم عليه بعد تبين أمره إلى
أن يقضوا عليه وتعود الخلافة والإسلام إلى تركيا أو الإسلام فقط على الأقل . فهكذا
كانوا يقومون بواجب تصحيح أخطائهم حق التصحيح ، لكن الشاعر يقول بدلا
من هذا :

أدوا إلى النازي النصيحة ينتصح إن الجواد يثوب بعد جحاح
وقصيدة البكاء على الخلافة مصدرة في « الشوقيات » بكلمة مثورة يقال فيها :
« ما كاد العالم الإسلامي يفرح بانتصار الأتراك على أعدائهم في ميدان الحرب والسياسة

ذلك النصر الحاسم الذى كان حديث الدنيا والذى تم على يد مصطفى كمال فى سنة ١٩٢٣ حتى أعلن هذا إلغاء الخلافة ونفى الخليفة من بلاد الترك ... »

أقول : قاتل الله الجهل الذى أشرت إليه فى قولى المنقول آنفا « إن الله تعالى قد وصف الشعراء بأنهم يقولون مالا يفعلون ولكنى وجدت هذا الشاعر من الذين يقولون مالا يفعلون » حتى إن هذه الكلمة التى صُدّرت بها قصيدة القندم تستشف ظلمات من الجهل بعضها فوق بعض ، فلم تكن الخلافة التى ألغيت ليلة نفى الأمير عبد المجيد من بلاد الترك ، بخلافة ولا الأمير المرحوم بخليفة ، وإنما كان موظفا من غير وظيفة ، عينته حكومة الجمهورية اللادينية القائمة بأنقرة ليقم فى قصر من قصور السلاطين بالآستانة مدة سنة ونصف سنة وبأخذ مرتبا ثم يخرج من البلاد فى منتصف ليلة من الليالى على أثر أمر أتى من مدير البوليس بأنقرة إلى مدير البوليس بالآستانة .

وأقول أيضا إن أساس جهل الجاهلين عدم تفكيرهم فى كيف يتم ذلك النصر الحاسم على يد مصطفى كمال ؟ فهل هو غلب باسترداد أزمير من يد اليونان على الإنجليز والفرنسيين والطلليان والأمريكان جميعا الذين كانوا حلفاء اليونان فى الحرب الكبرى الأولى ؟ وانتهت الحرب بفلبتهم على الترك والبلغار والنمسا والألمان وكان احتلال أزمير من جيش اليونان بقرار من حلفائها الغالبين بلسخوة الترك . فهل هزم الرجل أعنى مصطفى كمال بعفره جيوش هؤلاء الغالبين وأساطيلهم المحتلة للآستانة فأكرههم على الانسحاب منها مع التنازل عن الامتيازات القديمة ؟ بل كيف استرد أزمير من اليونان ولم يحرك هذا الاسترداد ساكنا من حلفائها الغالبين الأمريبا باحتلال أزمير ؟ بل اعتبرت غلبة الترك على اليونان غلبة فى ميدان الحرب والسياسة على الجميع ، وكيف قامت الترك فى غد الحرب بهذا الانتصار العظيم ، وقد عمل الألمان خليفة الترك فى الحرب الأولى بمثل قيام الترك ، بعد إحدى وعشرين سنة تحت قيادة هتلر وأقامت القيامة على الدنيا فلم تنجح فى عملها ، فهل كانت الترك تحت قيادة مصطفى كمال أقوى من الألمان تحت قيادة هتلر ؟

فهذه أسئلة لا يمكن الجواب عليها ، وكل من عنده قليل من المنطق يوردها على نفسه قبل أن يعتبر مصطفى كمال ، بطل نصر الترك الحاسم في ميدان الحرب والسياسة .

والحقيقة أن الشاعر لم يكن عارفاً بأن أكبر الدول الغالبة وأمكرها كانت تعمل من وراء الستار مع مصطفى كمال لينتصر على المنتصرين ثم يقضى بفضل هذا النصر المبين السحرى على دولة الخلافة ونعمة الترك الإسلامية اللتين كانتا منذ قرون طويلة قذى فى عين الدولة المختفية وراء مصطفى كمال وشوكة فى جنبها . فكيف يقبل الرجل إذن النصيحة ضد القضاء عليهما وهو الثمن الموعود لا انتصاره السحرى فى الميدانين .. ذلك الثمن الذى لا تقدّر له تلك الدولة مثل قيمته الغالية من أى دولة إسلامية غير دولة تركيا وأمة إسلامية غير أمة الترك ، اللتين قامتتا بأكبر جهاد وأطول فى سبيل الإسلام لا يزال يطن صدهاء فى آذان تاريخ العالم رغم أنف الأستاذ محمد عبد الله عنان .

ولا بد قبل انتهاء هذا البحث أن أسجل أسنى على بساطة فى النظر وشطط فى التقدير لسعادة حافظ رمضان باشا اطلعت عليهما من مقالة الأستاذ يوسف كمال حقاثة سكرتير جماعة الأنصار، المنشورة فى « منبر الشرق » الأغر عدد ٤٢٤ بمنوان الخليفة الشهيد وحيد الدين ، وقد كتبها الأستاذ جزاء الله عن الحقيقة خيرا لتبرئة الخليفة المغفور له مما رمى بها رئيس حزب مصر الوطنى فى مقال له فى مجلة آخر ساعة ونصه :
« ماقولك فى مصطفى كمال الذى كان فاراً فى الأناضول ؟ ألم ينشئ جيشه تحت سيل من قنابل الأعداء ؟ فى وقت كان خليفة المسلمين يطالب فيه برأسه لقاء جنهات معدودات . »

أقول : ليعلم سعادة حافظ رمضان باشا وغيره من المجازفين وليتقوا الله فى القول

عن موقف وحيد الدين من مصطفى كمال في نشأته شخصية بارزة رفعت إلى رئاسة دولة تركيا وجملته يظنه الرأي العام العالمى - الذى هو أشبه شىء فى نفسه بالرأى العالمى مهما وُجد كثيرون من خاصة الرجال أمثال رمضان باشا بين أصحاب ذلك الرأى العالمى العالمى - بطلا من أبطال الدنيا بل وربما بطلا من أبطال الإسلام ، وقلما يوجد أحد فى الدنيا ائتمن أحداً وأولاه ثقته كما ائتمن وحيد الدين مصطفى كمال ، ولا أحد خان أحداً وغدره كما خان مصطفى كمال وحيد الدين .

يقول رمضان باشا : « إن مصطفى كمال الذى كان قاراً فى الأناضول أنشأ جيشاً تحت سيل من قنابل الأعداء فى وقت كان خليفة المسلمين يطالب برأسه لقاء جنهات معدودات » وفيما قاله تغيير فاحش للواقع ، لأن مصطفى كمال لم يكن قاراً فى الأناضول بل مرسلًا إليها من حكومة الخليفة التى كنت أنا عضواً من أعضاء وزارتها ، مرسلًا بصفة رسمية مهمة أعنى مقتش الجيش العام الذى يندرج تحت أمره جيوش ، كما نص عليه مصطفى كمال نفسه فى الخطبة التى ألقاها بعد أن تولى رئاسة الجمهورية وألقى الخلافة والتى استغرق إلقاؤها شهوراً وكون طبعها مجلداً ضخماً^(١) وكان بعثه إلى الأناضول بهذه الصفة الممتازة الرسمية والسلطة الواسعة ، بإيعاز من الخليفة وحيد الدين إلى الوزارة يصادف عقب انتهاء الحرب العامة الأولى بمغلوية تركيا مع ألمانيا واضطرارها إلى فتح الدردنيل لأساطيل الحلفاء واستسلام عاصمة الخلافة لهم .. تلك الحرب التى

[١] أما قوله فى تلك الخطبة عن بعثه إلى الأناضول بهذه الوظيفة الكبرى ذات السلطة الواسعة : « لأنه كان المقصود منه إبادته عن العاصمة » فادعاء مضحك ينقض نفسه بنفسه ، فكأن الخليفة ووزلته خافوا الرجل مجرداً عن القوة وهو فى قبضة أيديهم فأجلوه إلى الأناضول وخولوا له قيادة الجيش العامة ليجملوه جديراً بأن يخافوه !

وكفت هذه المهزلة مسقطه لخطبته التى تؤلف من طولها كتاباً ضخماً ، عن حيز الاعتداد عند أولى الأبصار والتى كتبها لتبرير حركاته ضد ولي نعمته ، وذكره فيها بأخس الألقاب البذيئة.

دخلتها تركيا متورطة في دخولها ، قبل عهد وحيد الدين في زمن السلطان محمد رشاد ووزارة الأمير المصرى المرحوم محمد سعيد حليم باشا . فلما توفى السلطان رشاد في أواخر الحرب وجاء وحيد الدين وارثاً لشؤم عواقبها تذكر مصطفى كمال الذى وُجد في مميته أثناء سفره بصفة ولى العهد المرسل إلى ألمانيا من جانب السلطان لإهداء السيف إلى الأمبراطور ويلهم . وكان مصطفى كمال قد كسب تقدير وحيد الدين في ذلك التعارف وحبب نفسه إليه فاتخذته لما تولى العرش ياوراً خاصاً له ثم بعث إلى الأناضول بعد انتهاء الحرب وسقوط العاصمة إلى أيدي الحلفاء ، مزوداً بصفة رسمية كبيرة كما ذكرنا وبامتيازات أخرى من المساعدات المالية والنشورات السرية ... بعثه ليجمع قوة من فلول الجيش المغلوب ويستخدمها فيما تعجز عنه حكومة الخليفة المكتوفة تحت احتلال الأعداء وحجر أحكام الهدنة الموقع عليها في عهد الوزارة المتقدمة على الوزارة التى بعثت مصطفى كمال إلى الأناضول والتي كنت أنا عضواً فيها بصفة شيخ الإسلام .

دخل مصطفى كمال الأناضول من طريق البحر الأسود ونزل إلى صمسون في ١٩ مايو مع حواشيه الذين اختارهم من الرجال المسكرين والإداريين كما نص عليه في خطبته وجمع ما جمع من عناصر المقاومة ، وليس في أثناء هذا الجمع شيء مما ذكره رمضان باشا من سيل القنابل الملقى عليه .

يقول مصطفى كمال إنه دخل مدينة صمسون في ١٩ مايو ١٩١٩ فيلزم من هذا أنه خرج من عاصمة الخلافة قبل ذلك التاريخ بيومين أعني ١٧ مايو ، وهو يصادف احتلال جيش اليونان بميناء أزمير قبل يومين أي ١٥ مايو بقرار من لجنة الحلفاء العليا المقيمة في باريس المؤلفة من رؤوس وزرائها ... وقد بلغونا هذا القرار مساء ١٤ مايو وحذرونا من مقاومة اليونان أي تحذير معتبرين ذلك مقاومة جميع الحلفاء أى نقض الهدنة .

وفي مصادفة احتلال أزمير لما قبل سفر مصطفى كمال إلى الأناضول بيومين ، عبرة عظيمة لأولى الأبصار الذين يعرفون أن إحداث مسألة أزمير من الحلفاء بزعمها من حكومة الخليفة ومنحها لليونان ثم زعمها من اليونان وإعطائها لمصطفى كمال ، ما هو إلا بداية مؤامرة الإنجليز على الخلافة وبداية مؤامرة تهدف إلى خروج تركيا من الجامعة الإسلامية .. أما حرب مصطفى كمال لاسترداد أزمير من اليونان ونجاحه فيها بعد أكثر من ثلاث سنين وبعد توسع دائرة الاستيلاء من اليونان في هذه المدة حتى استغرقت نصف بلاد الأناضول ووصلت إلى أبواب أنقرة^(١) ، فمكل ذلك وسائل ومناورات من الإنجليز لتهيئة أذهان العالم وفيها أذهان الحلفاء غير الإنجليز ، إلى خذلان الطرفين المتنازعين من الخليفة الذي يمت مصطفى كمال لتأسيس قوة تقاوم الأحداث المحتملة واليونان المأذونة لاحتلال أزمير بل المأمورة به .. والنتيجة المقصودة من المناورة خسران الخليفة وخسران اليونان رغم كونها من أعضاء الحلفاء الغالبين في الحرب التي لم تجف دماؤهم فيها ممزوجة بدماء اليونان . وهذا الخسران الأخير الخاص باليونان من بين الحلفاء تضحية منهم ، أو بالأصح تضحية من الإنجليز بإحدى حلفائها - وهي التي لا تصادق ولا تحالف غير نفسها - في سبيل خذلان الخليفة بأي ثمن .

فالمطلوب خسران الخليفة وخسران اليونان في سبيل خسرانه وكسب مصطفى كمال لحساب نفسه وبقطع النظر عن كونه مندوب الخليفة ومبعوثه إلى الأناضول .. كسبه قوة وسمعة بها يقتدر على إلغاء الخلافة وخيانة شخص الخليفة . ولا بدري

[١] ولو شاء الإنجليز ما استطاع مصطفى كمال أن يقبض جيش اليونان ويسترد أزمير ، وكانت هذه المشيئة واجب محالفة اليونان وواجب القرار الصادر من الحلفاء على إمتزال جيش اليونان إلى أزمير .. ولم يكن مصطفى كمال الغالب على اليونان غير مصطفى كمال المغلوب بالأمس في جبهة غزة والمنظور حديثا من صفح تركيا في كونه هو بطل موقعة آناطلة بالدردينيل .

سماعة رمضان باشا مساعى الإنجليز المدبرة لإفساد ما بين الخليفة ومصطفى كمال بتضييق حكومة الخليفة واضطرارها إلى استعادة الرجل من الأناضول. حتى إنهم كانوا يشددون التضييق على وزارة ويخففونه على وزارات حسب اختلاف الوزارات فى الإنحياز إلى الخليفة أو إلى مصطفى كمال الذى كان من رجال حزب الاتحاد والترقى وكان هذا الحزب قد قسم الترك إلى قسمين متعاديين كأنهما أمتان مختلفتان .

ولا يصعب بمد كل ما ذكرنا آنفا وتلخيصا من وقائع الماضى القريب لاسيما مصادفة بعث مصطفى كمال إلى الأناضول لقرار احتلال اليونان من الحلفاء ومقاربة زمان الأمرين بعضهما من بعض ، إلى حد أن أحدهما كان مدبرا من جانب الخليفة والآخر مدبرا من جانب الحلفاء متقابلين ومتعاقبين بعضهما إثر بعض ، فإن سبق قرار الحلفاء على احتلال اليونان خروج مصطفى كمال من الآستانة بيومين ، فقد سبق قرارهم قرار حكومة الخليفة على تعيينه مفتشا عاما للجيش ... لا يصعب بعد هذا وبعد إجابة النظر الدقيق إلى ما اشتملت عليه أقوال مصطفى كمال فى خطبته المطبوعة من التهويش والمجازفة التى تم على استيقانه من أول الأمر بالفوز والنجاح فى مشروعه . فقد كان الرجل - على تصريحه فى ص ١٠ من خطبته المدونة - يستخر من أعوانه ومستشاريه الذين يخالج أذهانهم كيف تكون تركيا المغلوبة فى الحرب حين كانت معها زميلاتها الألمان والنمسا والبلغار ، غالبية على الغالبين بمفردها .. وانظر إلى قوله ص ١٠ (وقوله هذا قبل إنفائه الخلافة ببضع سنين وقبل اكتساب الشهرة والسمعة فضلا عن السلطة التى جرأت على الإلغاء ... أيام كان مندوب الخليفة) : « أما الخلافة فلم تعد مسألة ذات موضوع عند عالم المدنية بمد أن جعل العلم ذلك العالم ، غريقا فى نوره ، إلا موضوع الضحك » .. لا يصعب بعد هذا وذاك لمن عنده الفهم أن يفهم أن الرجل كان لما كان فى الآستانة يفاوض الخليفة فى بعثه إلى الأناضول للقيام بوظيفة هامة جدا

مستحقة لتقدير الخليفة والوطن - كان يفاوض الإنجليز أيضاً في الوقت نفسه لمهمة أخرى
تهم الإنجليز وتهم الرجل خاصة ، على حين غفلة من الخليفة والوطن ، أعنى به وطن
الإسلام في تركيا .. الله يرحمه .

ومما يدل على ما ذكرنا قول مصطفى كمال الذي نقلناه في الهامش المتقدم أنه يفسر
بعثه إلى الأناضول من طرف الخليفة وحكومته ، بخوفهم منه .. وقد أبطلنا هذا
التفسير الذي إن كان له معنى معقول فإنما هو كون الرجل عند ما اتخذ الخليفة بطانة
له فزم على بعثه إلى بلاده التي لا تمتد يده إليه بسبب وقوعه مع عاصمة ملكه تحت
استيلاء الأعداء ... عندما اتخذ بطانة له معتمداً على ذمته وأمانته ومتوقفاً منه خيراً
وحاسة في الخير - يسمى هو الآخر ظناً بالخليفة وحكومة الخليفة ويكنّ نحوهم
في قلبه شراً وعداوة فهم ياتعنونه وهو لا يأمنهم فهم يتصورونه لأ كبر وظيفة وهو
يتوجس منهم خيفة .. فإذا ساء فعل المرء ساءت ظفونه من غير سبب سوى ما في
قلبه من سوء .. وذلك قبل اللتيا والتي حدثت فيما بينه وبين الخليفة من المبادعة
والغاواة ، بكثير .

عود على بدء .. اطلع الحلفاء المحتلون على ما يهدف إليه بعث مصطفى كمال
إلى الأناضول فاحتجوا على الوزارة القائمة في استانبول المحتلة مستندين إلى أحكام
الهدنة الموقعة في عهد الوزارة السابقة وطالبوها باستمادة الرجل . وفضلاً عن هذا
فقد حدث اختلافات وارتباكات بين الولاة في الأناضول وبين قواد مصطفى كمال
- كما توقعه توفيق بك وزير المالية في الوزارة التي أولته وظيفة التفتيش العام واعترض
على سعة سلطته قائلاً إنه يتحكم بها على الولاة - فدعواؤه إلى استانبول بلسان وزير
الحرية فلم يجب الدعوة .. ثم تكرر الاحتجاج من قيادة الاحتلال وتمادت أصوات
الشكاية من الولاة إلى وزارة الداخلية حتى أعدى الخلاف الذي قام بينهم وبين قواد

مصطفى كمال ما بين وزير الداخلية الشهيد على كمال بك ووزير الحربية شوكت طورغود باشا وتكررت منا دعوة مصطفى كمال إلى العاصمة واستمر هو في عدم الإجابة ... إلى أن اضطرت الوزارة المهدة من جانب الحلفاء بانتهاء الاحتجاجات إلى إعادة حالة الحرب حتى قررت الوزارة على إقالته من منصبه وهي مؤلفة يومئذ من أكثر من عشرين وزيراً بزيادة وزراء بلا وزارة من الأحزاب والمستقلين ، بينهم من تولوا الصدارة العظمى سابقاً ، وأنا يومئذ بصفتي شيخ الإسلام الذي يتعين للنيابة عن الصدر الأعظم عند غيبوبته ، رئيس مجلس الوزراء بالنيابة عن الصدر الأعظم فريد باشا المسافر إلى أوروبا لحضور مؤتمر الصلح .

قررت الوزارة إقالة مصطفى كمال من منصبه وعرضت القرار على السلطان وحيد الدين لكنه لم يوافق عليه موصياً الاكتفاء بدعوته إلى العاصمة والاستمرار في الدعوة ففعلنا وتمادى التمثل والمطال منه في الأجابة ومن السلطان في التوقيع على قرار إقالة المدعو غير المجيب ، وتمادى الاحتجاج على الوزارة من الحلفاء لعدم البت في أمر مصطفى كمال .. حتى قررت الوزارة قرارها الأخير يوم ٨ يولييه : فذهبت إلى القصر وقابلت السلطان ومكثت عنده من أول المساء إلى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل وهو يعاطاني منتظراً لإجابة الرجل إلى دعوة رئيس الديوان الذي يشكلم معه تلفرافياً باسم السلطان في الغرفة المتصلة بمجلسنا ، حتى انقطع الأمل من إجابته . واضطر السلطان إلى قبول قرار الوزارة على إقالته ، فكان جوابه على بلاغ الإقالة استقالته عن السلك العسكري بالمرّة في عبارة تم على التردد والعصيان . وتاريخ الإقالة هكذا مسجل عليه في خطبة مصطفى كمال مع الفرق في بعض ساعات من الليل .

فظهر من هذا أن وحيد الدين وافق بكثير من الكراهة على إقالة مصطفى كمال بعد شهرين وعدة أيام من نصبه . ومع هذا لم يُصدر ضده أى أمر بعد الإقالة بل غير الوزارة في ٢ أكتوبر التي طلبت من السلطان إقالته ، وأنا معهم وفي رئاستهم حين الطلب ، وأتى بوزارتين ملائمتين

لحركات مصطفى كمال في الأناضول أكتسبته بعد ما يقرب من ثلاثة أشهر مضت في زمان وزارتفا، مدة قضاها في التردد تقرب من سنة، ولم يحصل من مهاجماته على اليونان غير توسع اليونان في الاستيلاء على الأناضول كما ذكرنا من قبل حتى تولت وزارة فريد باشا التي بعثت الرجل إلى الأناضول، الحكم مرة ثانية فأصدرت هذه الوزارة أمرها ضد مصطفى كمال مع الفتوى القائلة ببغيه وخروجه على السلطان. وكان شيخ الإسلام صاحب الفتوى في هذه الوزارة عبد الله بك دري زاده الذي توفي في مكة المكرمة. ثم مال بث وحيد الدين كثيراً حتى استبدل بها وزارة توفيق باشا وأبقاها في الحكم سنتين خدمت فيهما هذه الوزارة آمال مصطفى كمال ومساعدة المدبرة ضد السلطنة والخلافة^(١) إلى أن عين وحيد الدين الخطر على حياته من جانب مصطفى كمال ففر من مقر عرشه بعد أن دام على ثقته وحسن ظنه به غير مصنع إلى كلمة قيلت عن مكره وسوء نيته نحوه ولا مُصدر أمراً ضده إلا كارهها ومستعداً كل الاستعداد للمدول عنه. تشهد به الوزارات التي أقامها السلطان غير وزارتي دماذ فريد باشا، تُفضّل ترك الحبل على غارب الرجل بل تؤيده سراً وجهاً تحت سمع السلطان وبصره.

فهذا السلطان الذي فقد عرشه ومات غريباً وفقيراً^(٢) والذي طالت ضده السنة الدعاة المتمردين من أنصار الجمهورية اللادينية في الشرق وأعداء الخلافة الإسلامية في الغرب، قد غلبه مصطفى كمال مستغلاً لوطنيته الباقية في التحمس مبلغاً لم يُبق لنفسه شيئاً من التحوط والتردد في الثقة بذمة الرجل وأمانته، حتى قال له بعض رجال الترك القدماء بعد أن قابل بلاغ السلطان في إقالاته بكلمات تم على التردد في ضمن

[١] وفي تلك الأثناء اقترح مصطفى كمال على السلطان وحيد الدين أن يتنازل عن الحكم ويكتفى بالخلافة المجردة عن السطة لينقل الحكم والسلطة إلى أقرة ويقيم الخليفة في الاستانبول مقاضياً مرتبه.. فلم يقبل وحيد الدين هذا الاقتراح الذي قبله عبد المجيد بعده.

[٢] أما طلبة برأس مصطفى كمال لقاء جنبيات معدودات وهو يجمع جيشه تحت سيل من قتابل الأعناء فمن أفرى القرى والحق منه في بعد التريا من الترى.

استقالته عن السلك العسكرى بالمرّة ثم استمر فيه وتوسع ، « هذا الرجل لا يُستبعد أن ينتصب عرشك » فكان جواب السلطان ملحا على ثقته به : « ليخدم الوطن وليقتصب عرشى . » وشاعت كلمة فى الأوساط السياسية سمعتها لما كنت ، فى بلادى منسوبة إلى أحد الإنجليز مؤداها أن السلطان وحيد الدين حاول أن يكيد الإنجليز بمصطفى كمال فكاد الإنجليز به السلطان نفسه . فالحاصل أن غلبة مصطفى كمال للسلطان حصلت من غير مغالبتها من السلطان وكان سلاحه فى الغلبة وطنية السلطان وكيد الإنجليز الذين وجدوا فى شخص مصطفى كمال استعدادا لخيانة من ائتمنه وعززه بأكبر منصب وأنواع أسلحة كما سبق ذكره .. واستعدادا للمساومة على خلافة الإسلام ومقومات تركيا الروحية من الدين والأخلاق والآداب ، بثمن بخس هو احتفاظ الدولة باستقلالها بعد تجريدتها عن مزاياها بأن تنافزل عن الخلافة وعن البلاد التى تولت الخلافة لما تولتها وتتجرد الأمة من هويتها الممتازة بين أمم المسلمين ودولتهم بنعرتها الدينية التى عانت الدول المسيحية منها ما عانت ... حتى تصبح الترك غير الترك التى تمتاز بدورها المختلف عن دين تلك الدول وقوانينها الشرعية السماوية المختلفة عن قوانينها الوضعية وزى رجالها عن زى رجالها تحت القبعات والبرانيط وتستمر نساءها عن تمرى نساءها ومنازلها المنقسمة إلى الحرم والسلامق عن منازلها المختلطة وحروفها المكتوبة من اليمين إلى اليسار عن حروفها المنعكسة ... وبالاختصار حتى تصبح الترك غير الترك المعتزة بنفسها وعقيدتها الإسلامية على مصداق قوله تعالى الصادق المنطبق على كل زمان : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » - المختلفة عن أمم الدول المسيحية مهما كانت راقية ، فلا تعدها أكفاء لأمتها ، ولهذا كانت لا تبسح زواج نساءها برجال تلك الأمم حتى أباحه مصطفى كمال . غير مصطفى كمال هذه الترك القديمة المعتزة بنفسها وعقيدتها الإسلامية وجعلها داعية الأفرنج وأذنانهم فى الشرق^(١) وفى مقابل ذلك أعفاها الحلفاء الغالبون فى الحرب التى

[١] ولانى متعجب من إخوانى المصريين الذين عانوا وعابنوا من مكر الإنجليز منذ عهد طالع

دخلتها ضدّهم ثم انهزمت مع زميلاتها الألمان والنمسا والبلغار . . أعفوها وعاملوها بين المغلوبين معاملة الغالب ، فكانت مسئوليّة الحرب المترتبة على الترك المحاربة ثم المغلوبة ، زالت مع زوال تركيا الكبيرة المسلمة واستحالتهّا إلى تركيا الصغيرة اللادينية المقطوعة الصلة بولاياتها العربية مثل الحجاز واليمن والعراق وسوريا والمقطوعة الصلة بماضيها المجيد المجاهد في سبيل الإسلام وإعلاء كلمة الله ، حتى إنها لا تعرف اليوم ذلك الماضي بسبب استبدال الحروف اللاتينية بحروفها العربية والمقطوعة الطريق إلى حج بيت الله الحرام .

والآن تسعى حكومة تركيا الوارثة للعباديّة المستبدلة بالترك غير الترك ، إلى القضاء على لغتها بإخلائها عن الألفاظ العربية والفارسية لاسيما العربية المستوليّة عليها بتمزجة بلحمها ودمها منذ أعصار بعيدة تمتد إلى بداية إسلام الترك . . تسعى إليه فلا تستطيعه ، وليس يبعد أن ينتهي الأمر إلى اختيار لغة من لغات الغرب فيختصروا الطريق إلى

= وكفى المعمرين التذكّر من أن يتذكروا وجاءهم النذير . . كيف خفى عليهم مكر الإنجليز بتركيا في نهاية الحرب العظمى الأولى حيث استخرجوا بواسطة مصطفى كمال من الدولة المغلوبة مع زملائها في الحرب ، دولة جديدة غالبية ومن الدولة المتدنية للملكية ، دولة جمهورية لادينية .

فصطفى كمال الغازي هذا الذي سماه المسلمون الغافلون في فترة من الزمان « بطل الإسلام » ثم لا يزال يعتقد كثير منهم منقذ تركيا . . . رجل لعب دوراً في خدمة الإنجليز وإهانة وطنه ثم مات حتف أنفه وأوصى بأن لا يصل على جثته - ثم صُلي برجاء من أخيه - وجعل دين تركيا وعرضها وكرامتها وجميع تقاليدها ملعبة لهواه كان يدوسها ويرقص عليها مع من يشاء من بناتها ونسائها . فخلق من قوم شم الأنوف بدينهم وبتاريخ مجدهم ومجاهدتهم في سبيل الإسلام أذناً بالإنجليز ، وقد دعيت تركيا للجمهورية إلى مؤتمر الإسلام الذي عقد قبل أعوام في القدس - ومصطفى كمال يومئذ حى - فلم تحب لأنها لا تعد نفسها دولة إسلامية ، حتى إنها أمرت القنصلية التركية في القدس بإزالة لوائها المرفوع فوق بناء المؤتمر على ظن أنها من الدول الإسلامية . ودعيت تركيا هذه أخيراً إلى مؤتمر آسيا المعقود في دلهي الجديدة عاصمة حكومة الهند فلم تحب أيضاً لأن تركيا التي أنشأها مصطفى كمال بطل الإسلام عند المسلمين الغافلين وجعلها دعية من أدعياء الدول الغربية لا تقبل أن تبقى دولة إسلامية ولا أسبوية .

التخلص والابتعاد من التركي القديم المسلم الذى بلغ اتصاله بالإسلام إلى حد أنه قد ظل لفظ الترك يستعمل أجيالاً طويلة على لسان الغربيين كمرادف المسلمين كما صرح به المحرم الدكتور على زيني عميد كلية التجارة بجامعة فؤاد في كتابه «أصول القانون التجارى». انتهت حالة تركيا بسبب هذه التقلبات القاضية على كيانها الإسلامى إلى أن أصبحت أندلساً ثانية.. وزادت على أولاهها بأن القضاء عليها أتاها من نفسها بأيدي أعداء الإسلام من أبناء أهلها ، بل أعداء الترك أيضاً المتعلمين على الغرب الآخذين منه عداوة الإسلام وعداوة الترك القدماء المجاهدين في سبيل الإسلام ، في حين أن القضاء على الأندلس الأولى أتاها بأيدي الأجانب عن الإسلام .^(١)

[١] ولقد شق على أن أرى سعادة رمضات باشا خليفة المنفور لها مصطفى كامل باشا ومحمد فريد بك العارفين قدر الدولة العثمانية والخلافة الإسلامية .. أن أرى سعادته يكبر عدو الإسلام والخلافة والعرب جهراً وعدو الترك السرى المنتدب من الدولة الغربية العريقة في عداوة الإسلام ، لهدم تركيا المسلمة المجاهدة في سبيل الإسلام وبناء تركيا الجديدة اللادينية ، ويذكر الحليفة المظلوم وحيد الدين بسوء .

وقد يعترض على بأن سعادة رمضان باشا ليس من طراز أسلافه في زعامة الحزب الوطنى ، بل من رجال الوطنية المجددين ، فلا يهيمه دين تركيا عند ما يتبنى لها الخير لتكون الصلة بينها وبين مصر ولو فيا سبق تجملها شقيقتين ... لا يهيمه دين تركيا بقدر ما يهيمه مركزها الدولى المستقل لعدم كونه مشايخاً للمذهب القديم الذى يبنى الدولة على أساس الدين والعنصرية ... ولهذا قرأنا عن سعادته في الأهرام بتاريخ ٥ يوليو سنة ١٩٤٨ أنه يعيب الدول المترفة بدولة إسرائيل المزعومة على أساس الدين اليهودى .

ونحن في جوابنا عن هذا الاعتراض ننعى على سعادته انخداعه برجوع الدول غير الإسلامية من بناء الدولة على أساس الدين ، في حين أن ذلك تظاهر من تلك الدول حثاً للدول الإسلامية على الابتعاد عن هذا الأساس ... والدليل عليه احتفاظ تلك الدول بمناوأة الدول الإسلامية وأهمها البارز مثلها في ميولهم إلى الإجحاف بحق العرب في مسألة فلسطين ، سعيّاً لإضعافهم في مقاومة اليهود المعتدين على بلادهم ، لأن الدول الكبيرة الحاضرة صاحبات النفوذ في الأرض يرين في قوة الإسلام بنفسه مع كثرة عدد المنتمين إليه، مزاحمة لقوتهم فيضغظن على المسلمين في كل قصة ويسعين ضدهم ... أما اليهود فلا يخفون من قوة دينهم ولا من كثرة نفوسهم وثروتهم التى يسدونها عند الحاجة في أغراضهم الخاصة . =

أنا الذى ينشرح صدرى بسماع كلام الله تعالى كل صباح من راديو قبل مفادرة
سريرى وأشكر مصر من أجل ذلك .. أسأل سمادة رمضان باشا المصر على اهتمام
وحيد الدين وإكبار مصطفى كمال بوصفه منقذ تركيا وبانيها من جديد .. هل يسمع
صوت القرآن من راديو تركيا الجديدة مع وجود آلاف من حملة القرآن بين بقية
المسلمين من أهلها المشرفين على الانقراض ؟ وما المانع من انتشار هذا الصوت فى عهد
المنقذ وخليفته ؟

ومما زادت به الأندلس الثانية أعنى تركيا المسلمة على أولائها فى فظاعة المصيبة ،
أنها ذهبت فى خذلان تام وحرمان حتى من الباكين عليها المأمول وجودهم بين المسلمين
الأباعد ، لكونهم زاعمين ولا يزالون خروجها على تقاليدھا الدينية والقومية ، تقديما
ورقيا ... فى حين أن الأندلس الأولى لم تعدم ما استحقته من بكاء المسلمين عليها ، وقد
قال شاعرهم :

حتى المحارب تبسكى وهى جامدة حتى المنابر ترثى وهى عيدان
لثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان فى القلب إسلام وإيمان
أما الأندلس الثانية فقد مات شاعرنا الأعظم عاكف بك - مع كونه حاملا
لللقب شاعر الإسلام - ولم يهرق قطرة دمع على تركيا الخارجة من الجامعة الإسلامية

== ثم أقول : وعلى كل حال فليس الحزب الوطنى المصرى اليوم على متانة رأيه وبعد نظره فى عهد
مصطفى كامل ومحمد فريد ، وقد رأيت مقالة فى الأهرام عدد ٢٢٨٧٤ بعنوان « بين بطلين »
للأستاذ الوطنى فتحى رضوان المحامى بمناسبة ذكرى من ذكريات قاسم أمين الذى لا تنسية عند
مكبريه عقبرات السنين الماضية على موته ، وقد جمعه الأستاذ كاتب المقالة مع المرحوم مصطفى
كامل باشا تحت كلمة « بطلين » وجمعه ثانى اثنين ثم ذكر معتذراً عن جانب البطل الأول مامتهام
انه شغلته الناحية السياسية لخدمة الوطن عن السعى لتحرير النساء المسلمات مع قاسم أمين الذى هو
البطل الثانى ، ولكنه كان قلبه معه .

وأنا أقول لم أر مثل الأستاذ الكاتب فضوليا جمع بين البطل والباطل ولم يخطئ النابل بالخابل
بل خلطه بالخابل وجمال لمصطفى كامل بعد موته نصيبا من لثم رجل لم يشاركه فى حياته .

ولم ينبس بكلمة لوم على مخرجها كمال آتاتورك لما أعوزته الشجاعة المدنية.. ومحارب المساجد هناك ومنابرها يشغلها عن البكاء المصلون الترك من الجيل القديم المسلم الذين لا يمر وقت طويل عليهم إلا وهم ينفقون ويدرجون .

وكان تغيير الحروف العربية وحده - الذى قطع صلة الترك بماضيها فى الإسلام الى حد أنه لاتعرف عنه شيئا ولاتقرأ كتابا ألف فيه، كما قطع صلتها الثقافية بالأهم الكاتبة بالحروف العربية - كافيا فى تنبيه الغافلين من الترك والعرب عما كان مصطفى كمال يهدف إليه فى ذلك التغيير .. فلم يكف ... فأين رجل من الترك كاتب فى الصحف أو نائب فى البرلمان ولو من المعارضين يصيح قائلا : إلى متى تعيش مهزلة كوننا نحن الترك ممنوعين من أن نكتب بالحروف التى كتب بها آباؤنا منذ ألف سنة ؟ أليس للترك تاريخ ولثقافتها نسب، وإنما هى لقيطة مصطفى كمال وتاريخها يبتدىء من ظهوره فى تركيا؟؟ ثم أين رجل من العرب يعز عليه كون الإسلام واللغة العربية والحروف العربية منبوذة نبذا رسميا من تركيا التى أنشأها مصطفى كمال ... يميز عليه ذلك فيكف من إكبار الرجل مع المكبرين من أعداء الإسلام؟ لكن الملاحدة الذين لاتعدهم العرب أيضا يقومون بواجب الاتصال بينها وبين تركيا الجديدة اللادينية ولا ينسون فضل زعيمها العظيم على ملاحدة كل من الأمتين .. ألا يرى إلى قول الأستاذ فريد وجدى بك عن الانقلاب التركى ، وقد نقلناه فى كتابنا « مسألة ترجمة القرآن فى ص ١٠٢ : « فنحن الذين شهدنا هذه الآية الاجتماعية يحرم علينا أن نصغر من شأنها وأن نغربها غير مكترئين ، فإننا سنمر فى كل الأدوار التى مر بها الاتراك متى جاء دورنا فى نهوض حقيقى صحيح . فإن لم نتعلم مما دخل فيه الاتراك درساً فلا أقل من أن نعتجب به مع المعجبين » .

والتحول العظيم فى نفسية الترك الذى ذكرنا هنا شيئا كثيرا منها ، قد وقع تحقيقاً لما وعد به مصطفى كمال صرياً على لسان مندوبه فى مؤتمر لوزان وخليفته اليوم فى رئاسة

الجمهورية الأنقروية .. وتفسيراً لانسحاب الإنجليز الاختياري مع زملائهم من الاستانبول التي احتلوها وأحاطوها بأساطيلهم ، تبعا لانسحاب زميلهم الصغير أي اليونان من الأزميز مضطرين إليه أمام الترك الأناضوليين الذين أثارهم مصطفى كمال مقنعا بقناع الحماسة الإسلامية ، وإن كان هو نفسه الذي دعاهم إلى نبذ الإسلام بعد أن قضى حاجته منهم .

ولم يشقّ على الإنجليز الذين تراءى في نهاية الحرب العالمية الثانية كيف يحمون اليونان ويساعدونها حتى ضد حليفهم الروس .. لم يشقّ على الإنجليز أن يخذلوا اليونان في حرب أزمير على الرغم من أنها حليفهم ومن أن احتلالها من اليونان قد كان واقعا بقرار بلغوه لنا من باريس باسم اللجنة المالية المؤلفة من رؤساء الحكومات الإنجليزية والفرنسية واليطالية واليونانية .. بلغوه وحذروا من مخالفته بإلغاء الهدنة...

لم يشقّ على الإنجليز خذلان حليفها اليونان ومساعدة عدوتها الترك في سبيل المنافع التي اكتسبتها في تلك المناورة السياسية. ومن يومها دخلت تركيا المغيرة نفسها تحت محالفة الإنجليز وفي حمايتها الخفية، وليست هذه المحالفة أو الحماية التي تريد مصر التخلي عنها وتدخل فيها الترك الجدد ، وليدة الحرب العالمية الثانية .

فهل أتى على الذين أطروا تركيا الجديدة التي خلقها مصطفى كمال آتاتورك قبل مضي وقت طويل على خروجها من الحرب العالمية الأولى التي انهزمت فيها مع زميلاتها الألمان وغيرها وانكسرت أمام الحلفاء شرانهمزام وانكسار .. خلقها ونفخ فيها حياة جديدة وقوة قادرة على تحدى الغالبين وطردهم مع أساطيلهم المحشودة أمام الاستانبول، من بلاد الترك ؟ .. فهل أتى على الذين أطاروا تركيا الجديدة هذه في سماء النهضة والمظمة بأجفحة خلقها لها مصطفى كمال مع خلقها الجديدة ؟ . هل أتى عليهم زمان ينتهون من نومهم فيرون تركيا الجديدة مخلوقة مصطفى كمال - على الرغم من أنها ما دخلت الحرب العالمية الثانية ، غير أنها استعدت للدخول واستراحت طول امتداد

الحرب - كيف ترتمش أمام خطر الروس ، وكيف تؤمل النجدة والمونة إزاء هذا الخطر المحدق بها ، من الإنجليز ؟ مع أن كلاما من الدولتين اللتين ترتعد تركيا الكجالية وتأرق الليالي قلقاً أمام إحداها وتعتمد على الأخرى ، قد أنهكتها الحرب الأخيرة واستنفدت قواها .

وربما يوجد الآن من المسلمين السذج الموجودين في خارج تركيا ، من يدفعه إيمانه القوى ببطولة كمال أتاتورك إلى القول بأنه لو كان حيا لما خشي الترك بأس الروس ، وكيف تخشاه وهي التي اضطرت تحت قيادة البطل الراحل حلفاء الحرب العالمية الأولى المتغلبين على الألمان في الأولى والثانية ، إلى الانسحاب بيجوشهم وأساطيلهم عن عاصمة تركيا التي هي الاستانبول ، لانسحاب اليونان من الأزمير فقط والفرنسيس من كليشيا ... والجنون فنون ، ولله في خلقه شؤون .

إن تركيا العثمانية التي كان الغربيون من أعداء الإسلام أسموها الرجل المريض ، كانت في الواقع تمثل الحق المريض بعد أن مثلت الحق القوي قرونا ، ثم أجهز عليها مندوب هؤلاء الأعداء الذي اختاروه من داخل تركيا أعنى مصطفى كمال وخلق هذا المندوب باطلا مريضا مكان الحق المريض .

وليسأل إخواني العرب قدر ذلك الرجل المريض المكنى به عن تركيا القديمة - إن لم يعرفوه إلى الآن - عن إخوانهم الفلسطينيين .

« الهامش [١] من الصفحة ٢٣٢ »

ومن عجائب النكران للجميل ما يروى من علماء مصر المتعلمين على الشيخ محمد عبده مثل الطنطاوى والجوهري والأستاذ الأكبر المراغى أنهم كانوا يشكون علمي الكلام والفقه لحيلولتهما بين المسلمين وصلتهم بالكتاب والسنة حيث يأخذون دينهم بأصوله وفروعه منهما ، فهم اليوم يراجعون علم الكلام فيما يمتقدون والفقه فيما يعملون ويهجرون الكتاب والسنة .

والجواب أن السلف من علماء الإسلام الذين دونوا الفقه والكلام لم يرفعوا الكتاب والسنة من متناول المسلمين المحاولين أن يستنبطوا أصول دينهم وفروعه منهما إن استطاعوا الاستنباط واستجمعوا ما يجعلهم أهله . فإن كانوا يراجعون الفقه والكلام دون الكتاب والسنة يراجعونها بسهولة الأخذ عليهم منها وعدم سهولة الأخذ من الكتاب والسنة الذى هو شأن العلماء الراسخين . وماذا كان يعمل هؤلاء الذين لايسهل عليهم الأخذ والاستنباط من الكتاب والسنة لو لم يجدوا الفقه والكلام فى متناولهم ؟ لاجرم أنهم كانوا يحاولون الأخذ من الكتاب والسنة غير مستأهلين لذلك فيضلون ويضلون .

ثم إن أصول الدين معظم ما تستند إليه الأدلة العقلية التى تكون حجة على المعترفين بالأديان والملاحدة المنكرين جميعاً والتى يحتويها علم الكلام أكثر من الكتاب والسنة ، حتى أن كون الكتاب والسنة نفسيهما حجة يصح الاستناد إليهما وتصلح لاستنباط الأحكام عنها . يتوقف على تلك الأدلة العقلية . ومن هذا تعلق حاجة علماء الكلام إلى إيراد أدلة من الكتاب والسنة ويجدر علم أصول الدين أن يعد من العلوم العقلية .

أما الفقهاء فرؤوسهم مربوطة بالكتاب والسنة وكل مسألة استنبطوها فلها مستند من أحد هذين الأساسين ، وهم رضى الله عنهم لم يألوا جهداً فى إيراد تلك المستندات

في أمهات كتبهم ، انظر مثلا إلى مبسوط الإمام «السرخسي» في الفقه الحنفي السكون من ثلاثين مجلدا، تجد كل مسألة ذكرها قائمة على دليلها من الكتاب أو السنة . وقد عدت أنا في الباب الثالث من هذا الكتاب علم الفقه الإسلامي من معجزات هذا الدين الباقية كما يأتي إيضاحه وفضلت هذه المعجزة على ما يدور في السنة الكتاب المعصريين من معجزة الانقلابات الأدبية والاجتماعية التي تمت على يد محمد صلى الله عليه وسلم في أقل من ربع قرن ومعجزة « غلبة القلة على الكثرة »

فإن كان من الفقهاء المتأخرين من ألفوا كتباً وقصروها على ذكر الأحكام الشرعية مجردة عن أدلتها من الكتاب والسنة فقد وقع ذلك منهم تسهيلا للأخذ بأحكام الشرع الإسلامي على العاملين بها المتعمين إلى أحد المذاهب الفقهية المعتبرة واعتمادا على وجود الأدلة في مطولات كتب المذهب ، لقطعاً لصلة المسلمين بالكتاب والسنة وتعلما لهم بأحكام دينهم مستغنيين عن ربطها بهما . وكيف يُظن بالفقهاء أئمة الدين أن يكونوا عاملين في تدوين علمهم على قطع صلة المسلمين بالكتاب والسنة ليتعاملوا دينهم من كتبهم ويهجروا كتاب الله وسنة رسوله . كيف يظن بهم ذلك وهم دونوا بعد الفقه علما ثانيا من أدق العلوم باسم أصول الفقه ووضعوا فيها قوانين استنباط الأحكام المسماة بالفقه من أدلتها المنصوص عليها في الكتاب والسنة ، حتى إن ساوا باشا الرومي من علماء الحقوق ومن رجال الدولة العثمانية في زمن السلطان عبد الحميد الثاني، ألف كتابا باللغة الفرنسية فند فيه الزعم الذي يلوكة بعض الأفواه المصرية من أن قسم المعاملات من الفقه الإسلامي مأخوذ من قانون الرومان وقال: «انه كان هو أيضا يمتد هذا الاعتقاد نظير غيره (بناء على ما ذكره ونقلناه نحن بنصه الطويل عن ترجمة الأمير شكيب أرسلان في الباب الرابع من هذا الكتاب) ثم أخذ يدرس هذا الموضوع درسا دقيقا ويتعرف كيفية نشوء التشريع في الإسلام فاستنجد بعض علماء أصول الفقه من الأتراك وقرأ الفقه الحنفي جيدا وذكر الكتب التي طالعها أو راجعها

ونجرد لمعرفة هذا الأمر مدة طويلة، فوجد هذا الرأي الذي معناه أن التشريع الإسلامي مأخوذ من القانون الروماني رأيا ضميما أشبه بأن يكون خيالا من أن يكون حقيقة .
وقال أيضا « لاشك أن لكل تشريع منبعين مختلفين عن الآخر : ففقه روستنيانوس الامبراطور الذي أسس مدرسة في بيروت لتدريس الحقوق الرومانية ، عمل مبني على العقل السليم البشري وقد اصطبغ بالصبغة المسيحية . أما فقه الإمام الأعظم فهو مبني على كتاب الله « القرآن » وسنة الرسول ، ولن ترى في الفقه الإسلامي حكما واحدا غير مدعم على هذا أو هذه . فاختلفا الفقهين لاربع فيه يظهر لكل من درس فقه روستنيانوس وفقه أبي حنيفة »

هذه قيمة علم الفقه الإسلامي بشهادة شاهد من غير أهله (فضلا عن أهله) الذي قال في آخر كلامه « أنا مسيحي معتقد بديني ولكن المسيحي الحقيقي هو الذي يعامل جميع الناس بالحق ولهذا أنا أفحص الشريعة الإسلامية وأقدر قدرها بدون ضلع ولا ميل فأجدها لذلك جديرة بأعظم الاحترام » .

لكن المصريين من أشباه العلماء رأوا كتب الفقه الخاصة بتدوين المسائل وقصرت أنظارهم عن أمهات الكتب المشحونة بأدلة تلك المسائل من الكتاب والسنة فلم يتتبعوا آثار السلف الصالحين ولو بقدر ذلك الباشا المسيحي وغفلوا بالمرّة عن علم أصول الفقه وموضوعه في حين أن هذا الباشا المسيحي لفت إليه الأنظار فكانه لفت أشباه العلماء المصريين الغامطين لعلم الفقه وخدمة الفقهاء للشريعة الإسلامية مع الغامطين الأجانب عن الإسلام ، فمن كانوا يدنون علم الفقه ويستنبطون من الكتاب والسنة لو لم يكن الفقهاء تغمدهم الله برحمته وأسبغ عليهم رضوانه ، قاموا بتدوين علم الفقه واستنبطوا من الكتاب والسنة ؟ أهؤلاء الذين ينفلون عن المدون وارتباطه بالكتاب والسنة ؟ .

تنمة الهامش من ص (٤٤٥)

قرأت كتاب قاسم أمين « تحرير المرأة » فرأيت يشن الحرب على حجاب المرأة المسلمة وابتعادها من الرجال، مع الاجتهاد الماكر في توفيق هذه الحرب بقواعد الشرع الشريف. فهو يظهر في مظهر المدافع عن السفور بمعنى كشف الوجه ونبد النقاب الذي لم يوجبه فقهاؤنا إلا لخوف الفتنة ، وهذا مع علمه بأن السفور في عرف عصرنا خلاصته أوتيجته التزيي بزى الغريبات إلى أن تصبح نساؤنا مثلهن كاسيات عاريات، كما أصبحن كذلك في الحالة الحاضرة التي تسع حتى مخاصرة الرجال النساء في الحفلات الساهرة .

وقد يُسمع من بعض الأفواه أن قاسماً لم يرد هذه الحالة . وهى أفواه الغافلين عن أن دعوى السفور حدثت فينا مترجمة عن اقتراح جديد يدار تحت خطة منتظمة وضعتها طائفة من الرجال تقليدا للغرب، وهم كانوا على معرفة تامة بمقدمات الاقتراح وما تصل إليه تلك المقدمات من النتائج .. وكان قاسم ومكبروه من هؤلاء العارفين لا الغافلين ، ألا يرى أن الذين احتفلوا بذكراه الثلاثين لا يرون أى خلاف بين ماسى له الرجل وبين حالة نساؤنا الحاضرة ، حتى إن ابن المحتفل بذكراه يطلب ثوابا من الله لأبيه على سنه هذه السنة الحسنة و ثوابا جاريا لا انقطاع له مشتقا من ثواب العاملين والعاملات بها إلى يوم القيامة !

ثم لا يخلو الكتاب نفسه من تعمد القضاء على الخواص المميزة للمرأة المسلمة وافساد حالتها تحت ستار السعى لمصلحتها في حدود الشرع الإسلامى، فيروج لها المعاشرة المختلطة بالرجال له .. وربما يعد اختلاط الفتيات بالفتيان لزاما ، ليحصل التعارف بين الفريقين ، فلا يكون الزواج مجازفة عمياء ولا مبنية على معرفة الوسطاء الأجانب، وان كان هؤلاء الأجانب من آباء الطرفين أو أمهاتهما .

أما الحجاب المعروف في الإسلام فيراه قاسم مختصا بنساء النبي صلى الله عليه وسلم، ويستدل

على هذا الاختصاص بقوله تعالى في سورة الأحزاب (يأنساء النبي لستن كأحد من النساء) وقوله (وإذا سألتهم من متاعا فاسألوهن من وراء حجاب) بناء على أن ضمير الجمع المؤنث راجع إلى أزواج النبي فتكون الأوامر والنواهي المذكورة الواردة بشأن أزواجه صلى الله عليه وسلم لا تتجاوز بطبيعة الحال غيرهن .

هذا ما يحاول أن يقوله مؤلف « تحرير المرأة » . ونحن نقول : إن المراد من قوله تعالى (يأنساء النبي لستن كأحد من النساء) امتيازهن المذكور قبله في قوله : (من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين) وقوله : (ومن يفت منكن الله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين) وإلا فليس المراد من الأوامر والنواهي المذكورة بمد قوله (لستن كأحد من النساء) وهي (فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله) . أنها خاصة بأزواج النبي لا تتجاوز غيرهن من النساء المسلمات فيباح للغير أن يخضعن بالقول ليطمع الذي في قلبه مرض وأن لا يقلن قولا معروفا وأن لا يقرن في بيوتهن ويتبرجن تبرج الجاهلية الأولى ولا يقمن الصلاة ولا يؤتين الزكاة ولا يطعن الله ورسوله .

وقياسا على هذا ليس المراد من قوله تعالى في آية أخرى من آيات سورة الأحزاب خطابا للمؤمنين في معاملة أزواج النبي (وإذا سألتهم من متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن) أن السؤال من وراء الحجاب خاص لأصحاب النسي صلى الله عليه وسلم مع أزواجه وأن المحافظة على طهارة القلوب ليست ضرورية لعامة المسلمين والمسلمات .

فظهر من هذا البيان أن الأحكام المذكورة في سورة الأحزاب المتعلقة بحجاب أزواج النبي لم تكن خاصة بهن بناء على أن علل الأحكام المذكورة في تلك الآيات كلها تجري في غيرهن أيضا . لكن صاحب « تحرير المرأة » يغالط الأفهام والمقول لترويج

هواء ويحرّف الكلام عن مواضعه في تفسير آيات الله .

وهناك آية أخرى في سورة الأحزاب أيضا تنقض مادعاء قاسم أمين من اختصاص نساء النبي بواجب الاحتجاب وتنص على أن هذا الواجب عام لجميع نساء المؤمنين لافرق بين نسائه ونسائهم في ذلك، وهي قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَنِسَاءُ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ) والجملة الأخيرة من الآية المبينة لفائدة الحجاب تبين أيضا عدم الفرق المذكور، وهي أن يعرف كونهن عفيفات غير مائلات وغير مميلات فيسلمن عن مراودة الفساق ويكون احتجابهن علامة لعدم رغبتهم في تلك المراودة التي يعبر عنها القرآن بالأذى والتي تكون أذى في حق نساء وبنات المؤمنين كما كانت أذى في حق نساء النبي وبناته. وفي نصب حجاب المرأة في هذه الآية - علامة لعدم رغبتها في مراودة الفساق من الرجال ، إشارة بالغة على رغم قاسم أمين - إلى شدة لزوم هذه العلامة للمحصنات من النساء .

وفي كتاب قاسم كثير من الكلمات الحقّة التي أريد بها الباطل: انظر قوله ص ٥٦ :

« لو أن في الشريعة الإسلامية نصوصاً تقضي بالحجاب على ما هو معروف الآن عند بعض المسلمين لوجب على اجتنب البحث ولما كتبت حرفاً يخالف تلك النصوص مهما كانت مصفرة في ظاهر الأمر (!) لأن الأوامر الإلهية يجب الإذعان لها بدون بحث ولا مناقشة لسكنا لا نجد نصّاً في الشريعة يوجب الحجاب على هذه الطريقة الممهودة وإنما هي عادة عرضت عليهم من مخالطة بعض الأمم (!) فاستحسنوها وأخذوا بها وبالفعل فيها وألبسوها لباس الدين كسائر المادّات الضارة التي تمكّنت في الناس باسم الدين والدين براء منها . ولذلك لا نرى مانعاً من البحث فيها بل نرى من الواجب أن نلم بها ونبين حكم الشريعة في شأنها وحاجة الناس إلى تغييرها » .

أقول: كل باحثٍ حادثٍ في الإسلام يعرف أن فيه حجاباً للمرأة يحبذه من يحبذه من المحافظين على تقاليد دينه ويكرهه من يكرهه من هواة الغرب السافر ، أعني أن

المعروف كون السفور حدثاً حدث في بعض المسلمين تقليداً للأجانب عنهم ثم أخذ
يفتشر انتشاراً يعلم الله منتهى مداه ؛ ولم يقل أحد قبل قاسم إن الحجاب حادث
في المسلمين على أى شكل من أشكاله أخذه من عادات أمم أخرى وتمودوه وبالفوا
فيه ثم نسبوه إلى دينهم والإسلام براء عن الحجاب ! فهذا قلب للأمر ومضادة للواقع .
وكان له على الأقل من منطق الإنصاف أن يقول أخذه من نساء نبيهم اللاتي اعترف
فيما سبق بوجوده فيهن ووجوبه عليهن نصاً في القرآن - ولو مع دعوى اختصاصهن
به - ثم تمودوه وبالفوا فيه ونسبوه إلى الدين ؛ فهل كتاب الإسلام أخذه ولو لنساء
النبي من الأجانب والإسلام براء من الحجاب ؟

ثم قال قاسم أمين : « جاء في الكتاب العزيز : (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم
ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضن
من أبصارهم ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن
على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو أبناءهن أو بناتهن أو
أبنائهن أو أخواتهن أو بنى إخوانهن أو بنى إخوانهن أو نسائهن أو مملكت
أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات
النساء ولا يضرين بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن) .

« أباحت الشريعة في هذه الآية أن يظهر بعض أعضاء المرأة من جسمها أمام
الأجنبي عنها غير أنها لم تسم تلك المواضع » .

أقول : هذه آية الحجاب للنساء الذي يسمى مؤلف « تحرير المرأة » أن يفكر
وجوده في الإسلام ، مهما كانت الآية مجملة في تعيين محل الكشف المستثنى من
الاحتجاب . فالقرآن صريح في فرض الحجاب على النساء عامة والتفريق بين الجنسين
في اللبس على أن تكون أعضاء المرأة أكثر تستراً أمام الأجنبي عنها من أعضاء الرجل

لا أكثر انكشافاً منها كما هو الواقع الآن في الأمة الإسلامية وخاصة في مصر بعد النهضة التي أدى إليها تحرير المرأة ملهماً من كتاب قاسم أمين المسمى باسمه نفسه .
وفي الآية كلمة هي قوله تعالى (أو نسائهن) الدال على مبلغ لزوم الحجاب للمسلمات إلى حد كونهن ممنوعات من إبداء زينتهن لنساء الأجانب عن الإسلام ..
كلمة لو كان قاسم أمين أصغى إليها لوجد فيها عظة بالغة تُعارض كلمته وتناهض نهضته ،
كلمة تسكني في إثبات أن كتابه وما يرى إليه في واد ومرعى كتاب الله في واد بعيد عنه كل البعد ، وهو أي قاسم نفسه يثبت في كتابه هذه الكلمة من كتاب الله التي تسكني وحدها للقضاء على كتابه .

ولم يفت مؤلف « تحرير المرأة » ما يقع فيه كثير من الكتاب المصريين ولا يسلم منه علماءهم أيضاً ، من غلط الفهم لمعنى القرآن الكريم في مسألة تعدد الزوجات ، حيث يرتّبون قياساً منطقياً مؤلفاً من مقدمتين كلتاها مأخوذة من كتاب الله أعنى قوله تعالى : (وإن خفتم أن لا تمدلوا فواحدة) ، وقوله : (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم) وكلا القولين في سورة النساء ، فيُلفون بهذا القياس الجواز الشرعى المعروف في تلك المسألة المأخوذة هو الآخر أيضاً من كتاب الله متصلاً بالقول الأول مما قبله أعنى قوله تعالى : (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة) ومعمولاً به من صدر الإسلام إلى يومنا هذا .
ونحن نحاشى السابقين من المسلمين أن يفعلوا عما تنبه له كتاب هذا الزمان من معنى كتاب الله المؤدى إلى الهدم بعد البناء من حيث لا يشعر . فليبحث هؤلاء الكتاب عن عدم الشعور في أنفسهم وليقرأوا ما بعد الآية الثانية الهادمة أو بالأصح التي يزعمونها الهادمة ، وهو (فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة) .

أما المحاذير الاجتماعية التي قلما يخلو عنها تعدد الزوجات والتي أحصاها قاسم

في كتابه فنحن نعرفها أيضاً ونعرف مع هذا انتشار الزنا في البلاد المعرضة عن هذا المبدأ الإسلامي تفادياً من تلك المحاذير . فبدأ تعدد الزوجات الذي أباحه الإسلام لا بد أن يسد فراغه الزنا ، لأن من يرى نفسه من الرجال في حاجة إلى امرأة ثانية فهو يحصل عليها خلية إن لم يحصل عليها حليلة . ومن درس مسألة تعدد الزوجات لينتهي إلى منعه فليدرسها في المقارنة بين النكاح والسفاح ، ثم ليختار أهون الشرين .

هذا كلام وجيز قاس ولكنه كلام صادق ، ولى كلام هنا غير هذا الكلام القاسى وهو أن حقيقة المسألة أعنى مسألة تعدد الزوجات تقسيم النساء اللاتي فضّلن من ذوات الأزواج إما لكثرة المرأة بالنسبة إلى الرجل أو لعدم رغبة طائفة من الرجال في الزواج .. فضلن واحتجن إلى الاتصال بالرجال بدافع الغريزة الجنسية أو لكسب النفقة . حقيقة المسألة تقسيم هؤلاء النساء بين الرجال المتزوجين أزواجاً ثانية للمحافظة على عفتهم وعفة الراغبين فيهن بغير واسطة الزواج . فبالنظر إلى هذه الحقيقة يعود مبدأ تعدد الزوجات إلى مصلحة المرأة ويخدم المحافظة على كرامة الجنس ، والذين يعتبرون تعدد الزوجات ضربة قاسية على شعور المرأة وكرامتها يقصدون بالمرأة الزوجة الأولى التي هي بعض النساء فيحتسرون كل المحافظة على الشعور والكرامة لهذه البعض على حساب البعض الأخرى التي هي عرضة لضياح عفتها قبل المحافظة على شعورها وكرامتها .. بل إن اجتماع الرجل بالمرأة الثانية من طريق الاستنكاح أدنى إلى الاحتفاظ بكرامة الزوجة الأولى أيضاً من اجتماعه بالمرأة الثانية من غير ذلك الطريق ؛ وقد كنت أنا عبرت في شعر نظمته في قديم الزمان باللغة التركية في موضوع تعدد الزوجات عن المرأة التي تحتمل أن تشاركها في زوجها خلية ولا تحتمل أن تشاركها فيه زوجته الثانية .. عبرت عن هذه المرأة بامرأة ذات قرنين .

أما القول بالتسوية بين الرجل والمرأة في اختصاص كل منهما بالآخر بعد أن كانا

زوجاً وزوجة ، والاعتراضُ على مبدأ تعدد الزوجات بلزوم أن يكون من حق المرأة أن تجمع بين زوجين إذا كان من حق الرجل أن يجمع بين الزوجتين كما أشار إليه مؤلف « تحرير المرأة » فنشأ عدم إدراك الفروق الكبيرة بين فطرة الرجل وفطرة المرأة ، وقد بينت تلك الفروق في « قولي في المرأة » المنشور قبل سنين .

ولو لم يكن فرق ما بين الجنسين إلا أن الإلحاق الذي هو أهم مقاصد الزواج يقيد الزوجة على طول مدة الحمل والوضع والإرضاع ولا يقيد الزوج أصلاً ، وإن شئت فقل إن الرجل الواحد يستطيع أن ينتج من الأولاد ما لا تستطيمه مائة امرأة ، فهو يعادل في القيام بوظيفة الإنتاج أكثر من مائة امرأة ... لو لم يكن غير هذا لسكى فارقاً بين الجنسين . فإن كانت كثرة التناسل مما يرغب فيه لتقوية أمة بإكثار أفرادها من أبناء الحلال - ولا بد أن تكون - فلا طريق لها سوى تعدد الزوجات^(١) .

[١] أما ما قرأته في مقالة نشرته بمجلة « الإثنين » عدد ٥٤٤ بعنوان « السيدات أولاً » للأستاذ الكبير محمد فريد بك أبو حديد الذي أقرأ مقالاته في المجلات بلدة ، وهو قوله : « ومهما يكن من الأمر فإني أطلب التفكير في المرأة ، وجعلت أتأمل مكانها من الإنسانية ، فتبين لي في وضوح لا غموض فيه أن المرأة هي لب الحياة وهي نواة الإنسانية وسرها .

« فلو هلك نصف الرجال في هذا العالم - كما يحدث في الحروب الطاحنة التي يمرض الرجال عليها منذ القدم - لو هلك هؤلاء لأمكن التعويض عنهم بعد قليل ، ولكن لو هلك نصف النساء - لا قدر الله - لا أمكن هذا العالم أن يعوض صفوف الإنسانية إلا بعد حقب وأجيال » .

فلا يكفى في إثبات ما يتضمنه عنوان المقالة ولا يدل على نقصان أهمية الرجل بالنسبة إلى المرأة وإنما يدل على تقابل عدد قليل من الرجال بالكثير من النساء ، والتعويض الذي ذكره في صفوف الإنسانية عند هلاك نصف الرجال يكون طريقه بتفريق عدة من النساء سهماً لكل واحد من الرجال ، أي بإحياء المبدأ الإسلامي الذي هو تعدد الزوجات .

ويدل قوله في عدم إمكان التعويض عن النساء إذا هلك نصفهن إلا بعد حقب وأجيال على حكمة من حكم كون الرجال مكلفين بالحروب دون النساء ، ومثلها الأعمال الشاقة التي تضى مزاولها وتفى وتكون على الأكثر في خارج البيوت وقد خصتها التقاليد الإسلامية بالرجال مثل الحروب ، خلافاً للمصريين الذين يدعون كون المرأة صالحة لكل ما يصلح له الرجل من الأعمال والوظائف .

كتاب قاسم أمين يحتاج إلى تأليف مستقل للرد على سخافاته وإن كان « قولي في المرأة » الذي ما كنت مطلعاً عند تحريره على « تحرير » قاسم - يسد كثيراً من الحاجة ، وإنما أشرت هنا إلى مواضع خروجه على الأحكام المنصوص عليها في القرآن ردّاً للدعوى مسأيرته في كتابه مع كتاب الله . وكـم فيه مع الخروج الصريح على الأحكام الشرعية من خروج على بدائه العقول السليمة في سبيل استفزاز السذج .. انظر مادعاؤه من أن المرأة ليست بأولى من الرجل بتغطية وجهه ، ثم قال :

« عجباً لم لم تؤمر الرجال بالتبرقع وستر وجوههم عن النساء إذا خافوا الفتنة عليهن ؟ هل اعتبرت عزيمة الرجل أضعف من عزيمة المرأة واعتبر الرجل أعجز من المرأة عن ضبط نفسه واعتبرت المرأة أقوى منه في كل ذلك حتى أبيع للرجال أن يكشفوا وجوههم لأعين النساء مهما كان لهم من الحسن والجمال ومُنِع النساء من كشف وجوههن لأعين الرجال منعاً مطلقاً خوف أن ينفلت زمام هوى النفس من سلطة عقل الرجل فيسقط في الفتنة بأية امرأة تعرضت له مهما بلغت من قبح الصورة وبشاعة الخلق ؟ إن زعم زاعم صحة هذا الاعتبار رأينا هذا اعترافاً منه بأن المرأة أكل استعداداً من الرجل - فلم توضع حينئذ تحت رقبته في كل حال ؟ فإن لم يكن هذا الاعتبار صحيحاً فلم هذا التحكم المعروف ؟ »

يفهم من هذه الأقوال أن مؤلف « تحرير المرأة » غافل أو متغافل حتى عن أبسط ما بين الرجال والنساء من فروق الفطرة ، فهو بنى كتابه على أساس المساواة بين الجنسين - فعلى رأيه يلزم أن يُخاف على الرجال أيضاً من اعتداء النساء على عقبتهم إن صنع الخوف على النساء من اعتداء الرجال على عقبتهم ، وهذه المساواة تقتضى كونه منكراً حتى لصحة ما هو المعروف من اعتبار الرجل فاعلاً والمرأة قابلة في الفعل الجنسي الحاصل باشتراكهما . فعند وقوع الشكوى من أى رجل بأنه اعتدى على

امرأة ، يكون من حق ذلك الرجل على رأى قاسم أمين أن يدعى كون الاعتداء عليه من جانب المرأة ويصح شك القاضى فى تعيين المكروه والمكروه منهما ، بناء على أنه كما يخاف الفتنة على النساء من الرجال تخاف عليهم منهن ، فلماذا تحذر المرأة الرجل وتستخفى منه ولا يحذر الرجل المرأة ويستخفى منها ؟ فالمؤلف لم يلتفت فى تمشية مغالطاته فى الجمل المذكورة آنفا إلى موقف الذكر والأنثى فى أى نوع من الحيوان ، وتضمن اعتراضه على تخصيص الحجاب بالمرأة دون الرجل من غير تفريق بين حسناتها وقبحاتها ، اعتراضا على القرآن فى قوله (ولا يبدن زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو بناتهن أو أبناءهن أو بناتهن) ... الآية التى أوردها المؤلف أيضا وسمى فى إلغاء أحكامها .. ولا أدرى لماذا لم يعترض على اختصاص المرأة بالزينة الذى يخل بالمساواة المدعاة والذى لم تنج منه أوربا الواصلة إلى شوط يجبذه المؤلف فى التسوية بين الرجال والنساء والذى كان ينبغى أن يوقظه من غفلته فى دعوى المساواة بين الرجل والمرأة ، إن لم يوقظه ماهو الواقع من تحكم الرجال على النساء بحق أو بغير حق ؟ بل حسب أنهمالك المرأة فى الزينة واختصاصها به فى الشرق والغرب من غير فرق بين حسناتها وقبحاتها ، مبطلالما احتشده قاسم أمين فى كتابه من المغالطات لإبطال حجاب المرأة المسلمة . فعنى ترين النساء وترجها فى رأى الرجال سواء كانوا بعولتهن أو غيرهم ، أن فيهن الميل الطبيعى إلى استمالة قلوب الرجال وأنظارهم ، وهذا الميل إلى الاستمالة هو جُل ما عندهن من السعى إلى الفتنة المتوقعة الحصول بين الجنسين ؛ أما الحركة الفعلية لحصولها فإتاما يقوم بها الرجال . فلهذا وضعت الشريعة الإسلامية الحجاب حاجزا دون استمالة المرأة التى يقع منها التحريك ثم تقع الحركة من الرجل ، وكان منع الفتنة فى أولى المراحل المؤدية إليها أسلم وأسهل من منعها فى المرحلة الثانية .

وانظر قوله ص ٨٩ - ٩٠ : « لعل يظن المصريون أن رجال أوربا مع أنهم يلفوا

من كمال العقل والشعور مبلغاً مكنهم من اكتشاف قوة البخار والكهرباء واستخدامها على ما نشاهده بأعيننا وأن تلك النفوس تخاطر كل يوم بحياتها في طلب العلم والمال وتفضل الشرف على هذه الحياة . هل يظنون أن تلك العقول وتلك النفوس التي تُعجب بآثارها يمكن أن يغيب عنها معرفة الوسائل لصيانة وحفظ عفتها ؟ هل يظنون أن أولئك القوم يتركون الحجاب بعد تمكنه عندهم لو رأوا خيراً فيه ؟ كلا . وإنما الإفراط في الحجاب من الوسائل التي تبادر عقولُ السذج وتركن إليها نفوسهم ولكنها يعجزها كل عقل مهذب وكل شعور رقيق .»

وقوله ص ٩١ : « وقبل أن أختم الكلام في هذا الباب أرى من الواجب على أن أتبه القارىء إلى أنى لأقصد رفع الحجاب الآن دفعة والنساء على ما هن عليه اليوم : فإن هذا الانقلاب ربما ينشأ عنه مفسدات لا يتأتى معها الوصول إلى الغرض المطلوب كما هو الشأن في كل انقلاب فجأى . وإنما الذى أميل إليه هو إعداد البنات في زمن الصبا إلى هذا التغيير ، فيعودن بالتدريج على الاستقلال ويودعن فيهن الاعتقاد بأن العفة ملكة في النفس لا ثوب يختفى دونه الجسم . »

وأنا أقول إن المؤلف وإن كان يتظاهر في كلامه بالنظر إلى بعض القيود الاحترازية التي اكتمن وراءها أنه يشكو من الإفراط في الحجاب لامن الحجاب مطلقاً . ولكن المفهوم واضحاً من مدح الأوربيين الذين تركوا الحجاب ، بكمال العقل والتهالك في اقتناص الشرف ، أن مقصوده رفع الحجاب بالمرّة كما رفعه الأوربيون وبلغوا منه مبلغ الإفراط في الكشف بدلاً من الإفراط في الحجاب ، وإن كان يريد الوصول إلى مبلغهم بالتدريج والتبكير في اختلاط الجنسين الذى هو من جملة ما عنى به وحث عليه في كتابه . فهذه الأسطر المنقولة من كلامه تهدم كل ما فى كتابه من تظاهر الاحتياط في رفع الحجاب والارتباط بنصوص الشرع الإسلامى في تقديره ، فهو يبتغى اتخاذ الأوربيين

فما اختاروا لنسائهم قدوة للمسلمين . وإذا كان القارىء يقتدى بمؤلف « تحرير المرأة » المقتدى بالأوربيين ويصدق رأيه في هذه المقدمات التمهيدية فلا بد أن يقول تعقيبا لقوله « هل يظن المصريون أن الأوربيين يتركون الحجاب لو رأوا خيرا فيه : وهل يكشفون أظهن نسائهم إلى أردافهن علاوة على مناكبهن ونحورهن وسجورهن وسيقاتهن إلى أفخاذهن ثم يخاصرونهن ويراقصوهن أزواجا أزواجا في الحفلات الساهرة لولم يروا خيرا في تلك الكشوف والمخاصرة والمراقبة ؟ .. بل يقول : لو كان في الاسلام خير لراه الأوربيون الممتازون علينا بكال العقل واكتشاف الحقائق واختاروه ديناً لهم .

وهذا دين قاسم أمين الذى ادعى التمسك به والتمشى معه في تحرير المرأة . وما أغلظ غشاوة الغفلة في أعين الذين قالوا تعقيبا لما وصلت إليه حالة نساينا الحاضرة من الاستهتار وخلع العذار مع الإزار : « لم يكن هذا ما قصد إليه قاسم أمين » إن لم يتكذبوا في قولهم هذا .

أما ما أوصى به الرجل من التدريج في رفع الحجاب وتمويد المرأة السفور بإعداد البنات في زمن الصبا إلى هذا التنير وتمويدهن على الاستقلال ، حتى يتأسس فيهن الاعتقاد بأن العفة ملكة في النفس ، لا ثوب يخفى دونه الجسم .. فهذه الوصايا الواقية إذا تجمعت مع اتخاذ الأوربيين الذين اعترف لهم بأنهم أعقل منا وأرشد ، قدوتنا وأسائدتنا في معاشررة الرجال والنساء ومجالستهما ثم نظر إلى احتواء مجالس المعاشررة الأوربية التى تكون فى النتيجة نماذج امتثال لنا بلا مرأ ولا جدال ، مفاصرة النساء الأجانب ومراقصتهن نصف عاريات أو أكثر من النصف ... كما بدرت بوادرها اليوم ، فدعوى العفة والزاهة فى هذه المعاشررة تذوب وتتبخر مع ماء الحياء فى وجوه الأزواج الراقصة ووجوه الحضار المشاهدين الذين لا يبقصهم بمولة تلك النساء أو أقاربهن .

فتلك المجالس والمحافل وضعتها أوربا المدنية الفاجرة على أن تكون محافل تمهيد

وتعميد للإباحة الفرزية البشرية التي يمزجها ومُغرياتها وطريقها المعبدة الشيطانية ،
تتقدم الإباحة البهيمية وتجهل ما يتظاهر به المتظاهرون من أحاديث المحافظة على العفة
وطهارة الأخلاق في طيات تلك المحافل ، أكذب من حديث خرافة .

وقد انجلي من هذا البيان المستند إلى تصريحات قاسم أمين أمور : الأول أنا مقلدو
أوروبا في السفور وما كنا مقلدى أمة في الحجاب كما ادعى قاسم . والثاني أن ما يظنه
النافلون من أن قاسما لم يرد هذا السفور الخليع ، لا أساس له من الصحة . والثالث
أن قاسما والأوربيين الذين قدمهم لنا قدوة ، ليسوا بموافلين عن أن السفور وما يلبسه
من الملامسات بين الجنسين لا مناص من تطوره وتأديبه إلى هدم صرح العفة والزاهرة ..
بل إنهم يهدفون بتأسيس هذه الحياة المختلطة إلى التخلص من تلك المبادئ القديمة
التي باعدت بين الجنسين وحالت دون استفادة كل منهما بالآخر باسم الديانة والدين براء من
هذه الحيلولة كأنص قاسم فيما سبق على كون الدين براء من وضع الحجاب ورفض السفور ،
وقد حكيناه فيما سبق .. وكان معنى كون الدين براء من وضع الحاجز بين الجنسين أنه براء
من التزام العفة والزاهرة لما عرقت من وضوح الطريق بين السفور الخليع والحياة المختلطة
وبين نهيار صرح العفة والزاهرة . ومعنى المعاني التي يعنها أعداء الحجاب والعفة
والزاهرة من براءة الدين عن التزامها مع وضوح هذا الالتزام للبصائر والأبصار ، أن
الدين لا يقام له ولعقائده القديمة وزن عند أصحاب العقول الجديدة . فلماذا يرانى القارئ
على طول هذا الكتاب الذى انتهيت هنا من أول أجزائه بعون الله وتوفيقه ، أبذل كل
جهد فى تثبيت عقائد الإسلام وأعدؤه أهم أسس الإصلاح وأقدمها والله الأمر والمجد
من قبل ومن بعد .

تصحيح الأغلاط التي غابت عنا عند الطبع ثم اطلعنا عليها

الصفحة ٨ س ١٦ رمتني بدائها ص ١٢ السطر ٨ وعز مكاني فلا أظلم ص ٣١
س ٢١ إن برهانك ص ٤٥ س ١٤ المصريين إن ص ٤٥ س ١٦ المرائي بين العلم والدين
ص ٤٧ س ١١ لتتمشى ص ٥٣ س ٧ لم تُصنَّ ص ٦٦ س ١٥ من زمان ص ٦٧
س ٣ تضمنته الكلمة المنقولة ص ٦٩ س ٩ وهذه كلمة من كتابي ص ٧٨ س ١٥
من الصفات الحسنة حسنة س ١٩ متبراً لبيت ص ٨٢ س ١٧ العثمانية الإسلامية
ص ٨٣ س ١٦ بماضيها الإسلامي ومؤلفاتها فيه ص ٨٧ س ٢١ الحشف ص ٩٣
س ٢٦ بالنصب ص ١٣٥ س ٩ من يجادل ص ١٤٥ س ٢١ ده يُزيم ٢٢ أنه يُزيم
ص ١٤٨ س ١ بأنم ص ١٦٣ س ١٥ من عداد ٢٢ ومغزى قول ص ١٧٨
س ٢٢ غاية ما يكون ص ١٩٠ س ٤ بما سوى الله ص ٢٢٩ س ١١ لا يعترف،
ص ٢٣٦ س ١٨ الازدياد، ص ٢٤٠ س ١٥ موجود « ما كان أبلغ وأقوى من قوله
الأول ص ٢٤٥ س ١٦ على خطأه . » ١٧ ثم قلت : « ص ٢٦٦ س ١٥ يقينا ؟ »
ص ٢٦٩ س ١٠ لا تعترف ص ٢٨٨ س ٢ من زيرة النساء ص ٢٩٥ س ١ وأن السبب
ص ٣٠٢ س ٩ والحق أنه ص ٣١١ س ٢٧ فتشبيه غاندي به ص ٣٤١ س ٣
سمعتنا منه ص ٣٥١ س ٨ فريقاً من الذين أوتوا الكتاب ص ٢٩٦ س ١١ نقلاً
عن كتاب ص ٤١٤ س ١٦ أن لا يكون ص ٤١٥ س ٦ الباحثون في الغرب ص
٤٢٣ س ٢١ الرقم ٤ ص ٤٢٧ س ١٤ وإن الحصول ص ٤٢٨ س ١ للمعاصرين الذين
ص ٤٣٧ س ١ وهما وإن كانا ١٤ الملاذ البدنية المكانية العليا ص ٤٤٢ س ٦ كما
قال الشاعر ص ٤٤٧ س ١ بفتوى قاسم قاسم أمين ص ٤٥١ س ١٨ يجعلها لقمة
ص ٤٥٥ س ١٣ ورومانيا واليونان ١٨ إن للمسلمين ص ٤٥٩ س ١٣ مع إمكان أن
يكون ص ٤٦٠ س ١٠ ويوفى ص ٤٧١ س ١٤ في ص ٨ ص ٤٨٢ س ١٧
حتى إن ص ٤٨٨ س ١ في بعض بلاد المسلمين .

الرجال المذكورة أسماؤهم في الكتاب

بمناسبات الأبحاث

إبراهيم صبرى ٩٣ إبراهيم المصرى ٢٧٥ ابن الأثير ٧٨ ابن تيمية ٢٢٣ ابن الحاجب
٣٦٦ ابن حجر العسقلانى ٣٦٦ ابن خلدون ٤٧ ، ٣٣٠ ابن دقيق العيد ٣٦٦
ابن رشد ٢١٨ ٢١٩ - ٢٢٣ ابن قيم الجوزية ٢٢٣ ابن ماجه ١٥٤ ابن الهمام
٣٦٦ سيدنا أبو بكر ٨٦ ٩٣ ١٠٧ - ١٠٨ ٣٢١ ٤٥٧ أبو بكر يحيى باشا ٤٤٤
أبو تمام ٩٧ أبو الحقيق ٩٤ الإمام أبو حنيفة ٣٢ ١٤٤ ١٥٥ ٢٤٤ ٤٨٤ أبو داود
٣٦٦ ٧٤ أبو سفیان ٩٤ أبو لهب ٣٢١ الإتقانى ٣٦٦ أحمد أمين ٣١ ٢٤١ - ٢٤٣
٢٥٢ ٢٥٧ ٢٦٦ ٢٦٩ ٢٧٢ ٢٧٦ ٢٧٨ ٣٠٩ ٣٢٢ ٣٢٤ الإمام أحمد بن حنبل ٣٢
١٥٤ أحمد بن زبى دحلان ٧٨ أحمد بن عبد الله السرهندى مجدد الألف الثانى ٢٦٥
أحمد بن محمد القازابادى ١٠١ أحمد حزة ٣٣٣ - ٣٣٧ أحمد افندى زولبييه زاده ١
أحمد الشائب ٣٠٩ ٣١٤ ٣٢١ أحمد عاصم ١ د. انكلهارد ٨٠ - ٨١ أغا أوغلى
أحمد ٣٦٩ ١. رابو ٤١٧ أرسطو ١٠٤ ٢٠٥ ٢١٤ ٢٢٤ ٢٣٠ ٣٠٠ - ٣٠١
٣٠٣ - ٣٠٤ ٣٠٦ ٣٨٧ اسپنسر ١٤٦ ٢٦٤ ٤٢٠ اسپينوزا ٣٠٢ استوارت ميل
٤٨ ٢٣٨ اسماعيل آدم ١٢٢ ٢٠٥ اسماعيل الصفوى ٨٥ اسماعيل فى ٤١٢ أشعرى
٣٠٤ أفلاطون ٢٠٥ ٢١٤ ٢١٩ إقبال الشاعر الهندى ٢٧٧ ٢٧٩ أكل الدين ٣٦٦
إمام الحرمين ٢٠٨ ٢٤٤ ٢٤٧ - ٢٥٠ أمين الخولى ٣١٩ ٣٢٢ ٣٢٤ ٣٢٩ ٣٣٤
٣٤٥ ٣٤٩ ٣٥٢ أنطون جيل ٥١ ١٥٩ أوجوست كونت ١٤٨ - ١٤٩ ٤٠٦ - ٤٠٧
٤٣٣ بارتر ٣١٠ باستور ١٤٩ - ١٥٠ باكون ١٤٨ - ١٥٠ بابل ٢٤٨ البحترى ٤٤١
بحيرا ١٥٥ البخارى ١٥٤ بجيت ١٣٤ ١٨٩ البدر العيى ٢٦٦ بطليموس ٢٢٤
بلقيس ١٧٤ بوختر ١٢٦ ١٤٦ - ١٤٧ ١٨٩ ٣٦٤ بول رانه ١٤٥ ١٤٩ ٤١٦

بهجت الأثري ٢٩٦ بيتان ٢٥٨ التاج السبكي ١٠٤ ٣٦٦ الترمذى ٣٣٦ رومان ٧
 التفتازانى ٢٣ ٢٠٢ ٣٢٨ توفيق باشا ٤٧٤ توفيق بك الوزير التركى ٤٧٢ توفيق
 الحكيم ٢٨٨ ٣٠٦ ٣٠٩ — ٣٢٠ ٣٢٤ ٣٤٥ توفيق الطويل ٢٥ ٣٧ ٣٩ ٤١ ٤٧ —
 ٣٣٠ ٥٠ توفيق نسيم باشا ١٧٣ الهانوى ٤٠ جالينوس ٢١٩ ٢٢٤ جبريل ٣٣٣
 الجصاص ٣٦٦ جلال الدين الدوانى ٢٣٠ ٣٠٣ جلال الدين السيوطى ٣٦٦ جمال
 الدين الأفغانى ١٣٤ ١٤٤ ١٥٦ ٢٨١ — ٢٨٢ ٢٤٢ جميل صدق الزهاوى ٣٨ ١٢١
 ٢٨٩ — ٢٩٠ ٣٩١ جناب شهاب الدين ٢٣٦ جوستاف لوبون ١٤٧ الحاج طرون
 افندى ١ حافظ إبراهيم ٢٩٠ حافظ رمضان باشا ٤٦٧ — ٤٨١ حسن حبشى ٧٧
 حسن زيات ٣٢٤ ٣٢٧ سيدنا حسين ٩٢ حطيئة ١٠١ خضر بك ٢٧٢ ٣٢٨ خضر
 حسين ١٢٤ خلاد بن سويد ٩٦ خلف الله ٣٠٧ ٣١٥ — ٣١٦ ٣٢١ ٣٢٩ ٣٣٤
 ٣٥١ — ٣٥٢ خيالى ٢٧٢ ٣٢٨ داروين ١٢٦ ١٤٧ ١٩٦ داود بركت ٥٢ داويدهيوم
 ٤٩ ٤١٩ — ٤٢١ دجوفارا ٨٧ — ٨٩ درابر ٢٢٤ ديكرت ٤٠ ١٦٠ ٢٤٧ ٤١٢ ٤٢١
 رتشارد لوج ٨٩ رشيد رضا ٢٥ ٤٩ — ٥٠ ٣٤٧ ٩٩ ٣١٠ زكى الدين ٢٩٤ ٢٩٩
 زكى مبارك ٥٣ ٥٧ ١٢٤ ٣٤٢ زكى نجيب محمود ٢٥٣ روستنيانوس ٤٨٤ زياد ابن أبيه ٩٢
 زيور باشا ٣٠٧ سباتيه ٤٣٤ سعد بن أبى وقاص ٩٣ سعد بن عبادة ٩٦ سعد بن معاذ
 ٩٦ سلامة الغزائى ٢٦٥ سلمان ٩٥ السليم الأول العثمانى ٨٤ — ٨٥ السيد الشريف الجرجانى
 ٢٠٢ ٤ ٢٦٦ ٢ سيد قطب ١٢ ٦٢ ١٥٧ ٣٢٢ ٣٢٤ — ٣٢٩ شانوبريان ١٦١
 الإمام الشافعى ١٥٦ ٢٤٤ ٣٦٦ شبلى شميل ١٢٦ شكسبير ٣١٠ شكيب أرسلان
 ٨٧ — ٨٩ ٣٧٠ ٤٨٣ شونبهاور ١٤٦ شوقى الشاعر ٢٩٠ ٤٦٤ — ٤٦٧ صاوا باشا
 ٤٨٣ صدر الدين الشيرازى صاحب الأسفار الأربعة ٢٢١ — ٢٢٤ صلاح
 الدين الأيوبى ٧٨ الطحاوى ٣٦٦ الطنطاوى الجوهري ٤٨٢ طه حسين ٣٠٧
 ٣٢٥ — ٣٢٦ ٤٤٩ — ٤٥٢ الطواهرى ١٧٤ ٤٢٤ سيدتنا عائشة ٨٦ ٢٩٣

عباس خضر ٣٢٤ عبد الحلیم محمود ٢٦٦ عبد الحمید الثاني العثماني ٢٢ ٤٦٤ عبد الحمید عبد الحق
عبد الرحمن عزام باشا ٨٦ ٣٢١ عبد العزيز اسماعيل باشا ٣٥٥-٣٥٦ عبد العزيز فهمي
١٢٨ باشا ٣٧ عبد العزيز محمد باشا ١٧٣-١٧٤ عبد القادر المغربي ٢٨١ عبد الله بك درتي
زاده ٤٧٤ عبد الله بن أبي ٤٤ عبد الله جودت ٩٥ عبد الله عفيفي ١٧٢ عبد الله
القصيبي ٩٣ ١٠١ عبد المتعال الصمیدی ٢٩٤-٣٠٠ عبد الحمید سليم ٣٢ ٣٠١ ٣١٣
عبد الحمید عبد العزيز الأمير العثماني ١٦٣ ٤٦٤ عبد الحمید اللبان ٣٢ ٤٤٨ ٤٥٧
عبد المنعم خلاف ١٥٨ عبد الوهاب خلاف ٣٢١ عبد الوهاب عزام ٣٢١ عبيد الله
ابن زياد بن أبيه ٩٣ عثمان أمين ١٦٠ عدلي يكن باشا ٣٠٨ عز الدين بن عبد السلام ٣٦٦
عزيز خانكي ٨٠ سيدنا علي بن أبي طالب ٩٥ علي الجارم ٣٦ ٤٤٥ علي حسين يعقوب
٧٩ علي رشاد ٨١ علي الزيني ٧٩ علي الطنطاوي ٣٢١ ٣٢٤ ٣٢٩ علي عبد الرازي
بك ٣٢٥-٣٢٦ علي علوبة باشا ٣٢ الهاري ٣١٩ سيدنا عمر بن الخطاب ٨٦ ٧٨
٩٢-٩٣ ٢٨٩ ٣٢١ ٣٣٦ ٣٦٥ عمر بن عبد العزيز ٧٨، ٩٩ عمرو بن العاص ٧٨ ٣٦٥
عمرو بن عبدود ٩٥ غالياني ٢٤١ الغزالي ١٣٩-١٤٠ ٢١٤ ٢٦٦ ٢٧٠ غلاب ٣٤
غلاستون ٣١٧ فتحى رضوان ٤٧٨ نحر الدين الرازي ٤٠ ١١١ ٢٠٩ ٢١٩ ٢٤٤
٢٤٧-٢٤٩ فرح أنطون ٣٤ ٧٦ ١٢٨ ١٣٠ ١٣٣ ١٤٢ ١٤٤ ١٦٢ ١٦٩ ١٧٤
١٧٨ ١٨٨ ٢٠١ ٢٢٥-٢٢٦ ٢٧٦ ٣٢٤ ٣٤٩ ٣٥٨ ٣٦٧ ٤٠٨ فرعون ١٥٦
٤٤٨ فريد باشا داماد ٤٧٤ فيخته ١٢٦ قاسم أمين ٣٥-٣٦ ١٣٤ ٢٨٥-٢٩٣ ٢٩١-
٢٩٤ ٢٩٤-٤٤٨ ٤٨٥-٤٩٦ القاضي عضد الدين الایجي ٢٠٢-٢٠٤ قره صو ٢٢
القشيري ٢٠٤ قطب الدين الرازي ١ كافي كنج ٤١٣ كارو ٣٩٧ كافور ١٧٢
كانت ١٢٩ ١٥٣ ١٧٠ ١٨٦ ١٩٣ ٢٠٥ ٢٣٣ ٢٥٣ ٣٠٤ ٤١٥ كعب بن الأشرف
٩٤ كلين ١٢٦ ١٤٤ الكلبوي ٣٠٣ كوزين ٤٢٢ لامارك ١٩٦ لؤي النوري
١٢١ لوتر ١٢٧ ١٤٤-١٤٥ ليننتر ٢٣٥ ٢٤٨ ٤١٢ لیتره ١٤٩ لين بول ٧٧

الليث ٣٢٢ الإمام مالك ١٥٤ ٢٧٤ مأمون الخليفة ١٠٤ مأمون الشناوى ٤٢٤
المتنبى ١٧٢ ٤٠٤ محب الدين الخطيب ٢٨٩ ٣٧٠ محمد إحسان ٣٥١ ٣٥٣ - ٣٥٨
محمد أحمد النمراوى ١٩٨ - ٢٠٢ ٢٠٨ ٢١١ ٢١٥ ٢١٧ ٢١٩ ٢٢١ ٢٢٣ - ٢٢٧
٢٣٢ - ٢٣٣ ٢٤٠ محمد أمين ١ محمد بن مسلمة ٩٤ محمد التابعى ١٨ محمد الثانى العثمانى
الفتاح ١ ٨٠ ٣٢٨ محمد حسين هيكل باشا ٢٥ - ٢٦ ٢٩ ٩٦ ٩٨ ١٠٤ ١١٠ ١١٢
١١٨ ١٢٠ ١٢٦ ١٣٨ ١٤٠ - ١٤١ ١٤٣ ١٤٨ ١٥١ ١٥٣ ١٥٥ ١٥٩ ٢٤٧ ٣٤٢
٣٤٧ ٤٧٢ محمد حلى عيسى باشا ٤٤٩ محمد الحناوى ٤٢ محمد جرب البيوى ٢٨٨ - ٢٩٢
محمد زاهد ٣٠٠ محمد زكى عبد القادر ٣٥٢ - ٤٥٥ محمد سعيد حليم باشا الأمير
الصرى ٤٦٩ محمد سليمان ٤٢ ١٥٨ محمد صبيح ٢٣ ١٣٤ - ١٣٥ ٣٤١ محمد عاطف ١
محمد عاكف ٤٧٨ محمد عبد الله عنان ٧٢ - ٧٩ ٨٢ - ٨٣ ٨٥ - ٩٣ محمد عبده
٢٣ ٢٥ - ٢٦ ٢٩ ٣٣ - ٣٥ ٤٧ ٥٠ ٥٦ - ٥٧ ٧٦ ١٢٧ - ١٢٨ ١٣٠ ١٣٣
١٣٥ - ١٤١ ١٤٤ ١٥٠ - ١٥٣ ١٦٢ ١٧٣ ١٧٨ ١٩٣ ٢٠١ ٢٠٨ ٢٢٥ - ٢٣٠
٢٣١ ٢٧٣ - ٢٧٦ ٢٨٢ ٣٠٤ - ٣٠٦ ٣١٦ ٣١٩ ٣٢٣ ٣٣٠ - ٣٣٥ ٣٤٢ ٣٤٥
٣٤٩ - ٣٥٨ ٣٦٠ ٣٦٨ ٣٧٠ ٣٩٦ ٤٠٨ ٤٤١ - ٤٤٢ ٤٤٦ ٤٤٧ ٤٨٢
محمد فريد بك ٧٩ ٧٤ - ٨٠ محمد فريد وجدى ٢٣٣ - ٢٩ ٣١ - ٣٢ ٣٤ ٣٨
٣٩ ٤٢ - ٤٣ ٤٦ ٥٢ - ٥٧ ٦٠ ٦٣ ٩٨ - ٩٩ ١١٠ ١١٧ ١١٩ - ١٢٠ ١٢٢
١٢٥ - ١٢٦ ١٣٣ ١٤٠ - ١٤١ ١٤٨ ١٤٩ ١٥٢ ١٥٦ ١٥٨ ١٦٥ ١٦٧ - ١٧٠
١٧٦ ١٨٠ - ١٨٦ ١٩٠ ٢٠٠ ٢٠٥ ٢٠٨ - ٢١٠ ٢١٥ ٢٢٦ ٢٤١ ٢٤٤ ٢٤٦ -
٢٤٧ ٢٥٤ ٢٦٩ ٢٧٣ - ٢٧٤ ٢٧٦ ٢٨٠ ٢٩٦ ٣٢٤ ٣٣٩ - ٣٤٢ ٣٥١
٣٦٠ ٣٦٨ ٣٩٨ ٤٠١ ٤٠٢ ٤٠٥ - ٤٠٨ ٤١٣ - ٤١٥ ٤١٨ ٤١٩ -
٤٢١ ٤٤٣ محمد مصطفى الراغى ٢٥ ٢٧ ٣١ ٣٢ ٣٤ ٤١ ٤٥ ٥٣ ٩٨ ١٠٨
١٣٩ ١٥٥ - ١٥٦ ١٥٨ - ١٥٩ ١٧٢ ١٧٤ ٢٠٨ ٢١٧ ٢٧٨ ٢٩٧ ٣٤٢ ٣٦٨

۴۲۴ ۴۸۲ محمد السادس العثماني وحيد الدين ۹۷ ۴۶۴ ۴۶۷ - ۴۶۹ ۴۷۳ -
 ۴۷۵ محمد الهمياني ۴۲ ۱۵۸ محمد يوسف ۲۷۷ - ۲۷۹ محمود الثاني العثماني ۸۱
 محمود شلتوت ۳۳ ۴۶ ۳۰۸ ۳۱۳ ۳۴۳۳۱ ۳۶۰ - ۳۶۳ محمود عباس العقاد ۳۳ ۶۹
 ۱۲۱ ۲۵۴ محمود فهمي النقراشي باشا ۳۱۴ - ۳۱۵ محي الدين ابن عربي ۲۶۷
 ۳۶۶ سيدتنا مريم ۱۷۶ الزني ۳۶۶ مسلم ۱۵۴ ۳۳۶ مصطفى صبري ۳۷ ۳۹ ۴۷
 ۵۰ ۷۱ ۱۸۴ مصطفى عبد الرازق ۵۳ ۴۲۴ مصطفى كامل باشا ۴۷۷ ۴۷۸ -
 مصطفى كمال ۳۰ ۵۲ ۸۵ ۱۰۱ ۱۶۳ ۳۱۶ ۳۷۶ ۳۷۷ - ۴۶۴ ۴۷۶ ۴۷۸ - ۴۹۱
 معتق بن قشيب ۹۵ معروف الرصافي ۲۸۸ - ۲۹۲ منصور فهمي باشا ۱۲۹ سيدنا
 موسى ۱۵۶ موتسكيو ۱۴۷ نابليون ۱۵۴ ۲۵۷ نسائي ۱۵۴ ۳۳۶ نصيف النقبادي
 ۳۷۵ ۳۸۲ ۳۸۳ ۴۰۱ ۴۰۳ ۴۰۸ ۴۱۴ ۴۱۵ ۴۱۸ - ۴۱۹ ۴۲۲ ۴۲۳ -
 ۴۲۵ نور الدين ابن زكي ۷۸ و. ميرس ۵۹ ویرشو ۱۴۶ ويلملم ۴۶۹ هاكسلي
 ۱۴۹ هيغل ۳۰۵ يوسف كمال حتاته ۴۶۷ .

فهرس

الإشارة إلى بعض المباحث المهمة التي ينطوى عليها

هذا الجزء من الكتاب

إلى روح والدى ١ أسانذتى ١ إلى قراء كتابى ٣ مسألة العلم بين الدين والدنيا ٣
أضعنا الدنيا وأضعنا الفرصة ٥ فتنة اليهود على المسلمين وفقتهم على النصارى ٦
من الحكمة القيّمة قول عمر بن عبد العزيز ٩ ربما يشق على المسلمين التسليم بضياع
الدنيا ٩ يمكننا أن نستفيد القوة من ديننا الذى هو أقوى الأديان ١٠ تصادم الدين مع
العقل- كفى المسيحية- يؤدى إلى ضعفهما مما ١٠ فصل الدين عن السياسة ١١ مايقال
من أن الإنجليز مخلصون فى صداقة من يتصادقون معهم شعباً لا حكومة ١١

يجب أن تكون خطة المسلم الجديد ترك التقليد للغرب اللادبنى والغرب المسيحى،
الذى كان قبل نشر هذا الكتاب خطة المسلم الجديد ١٣ الاستقلال فى العقيدة الدينية
يتقدم على الاستقلال السياسى للأمم الإسلامية ١٣

المسلمون فى زماننا كثيراً مايتلاومون فيما بينهم بالتقصير فى العمل مع أن تقصيرهم
فى العقيدة التى لا تقبل التقصير أصلاً أشد ١٤ دار الإسلام فى عرف علمائنا ١٤
الخارجون على الجود فى الإسلام طلباً للسهولة والمصلحة والمحاولون رد النبوة إلى
المبقرية ١٥ الإسلام جنسية تكفل للمتجنسين به تضامناً أصدق وأزهر وأسمى مما
فى شركة الشيوعية الجديدة والماسونية القديمة ١٦

مما يدل على عظم خطورة الناحية الاعتقادية فى الإسلام ١٦ الديمقراطية الإسلامية

التي هي وضع إلهي لا بد أن تفوق الديمقراطية الموضوعية بأيدي رجال سياسيين ١٧
أصدق ناحية القول عن البلشفية التي ينساق إليها الفقراء وأصحاب القلوب المتألمة بالأمم ١٧
كيف يكون الروس البلاشفة أقوى الأمم الحاضرة ولا نكون نحن المسلمين أقوى
منهم؟ ١٨ من أدلة كون الروس السوفييت لا يتفق ظاهرهم مع باطنهم وقوفهم في
مسألة فلسطين بجانب اليهود ١٨ - ١٩

دعوة علماء الدين إلى أن يكونوا رسل الديمقراطية الإسلامية بالسمى لتعديل ما بين
طبقات الناس من الفروق الشاسعة التي يمكن أن يعد بقاؤها تهمة على الإسلام ٢٠-٢١
تلخيص ما بمعنى على تأليف هذا الكتاب من الأسباب مما رأيته في مصر التي
أوتني بعد مغادرة بلادي فأصبحت بدلا منها ، بمعنى ما يعنيها من خير أو شر ٢٢
دولة الترك المسلمة التي دفاعها بسيفها عن حياض الإسلام يستغرق الثلاثين من
تاريخه ، كان آخر سلاح حاربها به الدول الوارثة لضغائن تلك القرون الطويلة ، نشر
الإلحاد بين أبناء البلاد الإسلامية ونشر المبادئ القومية بين العناصر المندرجة تحت
لواء هذه الدولة ٢٢

وكنفت لما كنت في بلادي كالحث ذنبك السلاحين على طول فترة انتقال الحكم
فيها إلى أيدي الملاحدة .. وكان ظني عند مغادرة تركيا مهاجراً إلى بلاد العرب أني
أستريح من مجاهدة الملاحدة ٢٣

نائب سلايك قره صو اليهودي يتولى تبليغ السلطان عبد الحميد قرار خلع في
ضمن بعثة اختارها البرلمان العثماني لهذه المهمة ٢٢ - ٢٣

مؤلف كتاب باسم « محمد عبده » يضع في غلاف الكتاب لوحة تصور إيفل
الباريسية مع مآذن الجامع الأزهر تقف برؤوس الثانية ضياء من الأولى ٢٣
قول الأستاذ فرح أنطون عند مناقشة الشيخ محمد عبده وقول الأستاذ فريد وجدي

عند مناقشة الشيخ التفقازانى وقوله عند مناقشتى ٢٤ نوابغ البلاد الإسلامية من الكتاب والشعراء يستبطنون الإلحاد على قول الأستاذ فريد وجدى ٢٤

إن الدين بمصر لى حالة عجيبة ، فمعجزات الأنبياء الحارقة غير معترف بها عند المبرزين من علماء الدين مثل الشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا صاحب المنار والأستاذ الأكبر المراغى ٢٥

قول الدكتور توفيق الطويل فى كتابه « القنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام » :
« إن ابن خلدون يخالف الاتجاه الحديث الذى ينكر المعجزات وخوارق العادات من غير تأويلها بما يبدو متفقة مع منطق العقل وسنة السكون ٢٥

نبوات الأنبياء تنهار بانتهيار المعجزات .. وعدم الاعتراف بوجود الله له علامات أبرزها تصريح الأستاذ فريد وجدى بأن جميع الأديان قذف بها العلم الحديث الذى دالت إليه الدولة فى الأرض ، إلى عالم الأساطير ٢٥ - ٢٦ وحسبك ما يفادى به الأستاذ المتولى رئاسة تحرير مجلة الأزهر من أن العلم لا يعتمد بمقول لا يؤيده محسوس .. وقوله فى مقالة افتتاحية لمجلة « الرسالة » : « إن الدين إن كان يعيش الآن فإنما يعيش فى قلوب السذج من العامة » ٢٦

عقلية إنكار المعجزات غير معجزة القرآن على أن يكون إعجازه أيضا غير مفهوم منذ أزمنة طويلة خلت كما صرح به الأستاذ الأكبر المراغى ٢٧ ومعنى إعجازه على قول هيكىل باشا .. وعلى قول الأستاذ فريد وجدى بك ٢٧ - ٢٩

فالدين بكلاركنيه الأساسيين مقذوف به بيد العلم إلى عالم الأساطير ٣٠ قول الأستاذ الأكبر المراغى عند توديع بعثة الأزهر فى محطة مصر : إن العقول تنظر إلى الأديان نظرها إلى شئ تاريخى خال عن الحياة ٣١

قول الأستاذ أحمد أمين بك فى مجلة الثقافة إن علماء التوحيد لم ينجحوا فى مهمتهم

وقول الأستاذ الأكبر المراغى ليس علم الفقه علم الدين وتصديق مفتى الديار المصرية سابقا
أقول على علوية باشا رئيس لجنة التقريب بين المذاهب : « إن مذاهب الأئمة المجتهدين
مبنية على السياسة .. وتفسير الأستاذ فريد وجدى الإيمان بالغيب بالإيمان بغير
الواقع ٣١ - ٣٢

مقالة كاتب مصرى مرسلة من باريس إلى لجنة المباراة الصحفية بالقاهرة تُنحى
بالأئمة على علماء أصول الدين القائلين بأن العالم يسير على نظام وضمه الله ، فيكسب
الجائزة الأولى ٣٣

شغل الفلسفة الوضعية الإلحادية مكانا هاما في قلوب كتاب كبار مع فكرة فصل
الدين عن السياسة اكتفاء بدين الأمة واستغناء به عن دين الحكومة ٣٣

منشأ الحركات الساعية لهيئة الأذهان إلى الإلحاد ٣٤ الكتاب يبدد هذه الشبهة
ويجدد كل ما طرأ عليه الخراب في الشرق الإسلامى من نواحي الإيمان الدينى ٣٥
ما تتضمنه ذكريات قاسم أمين صاحب الحملة على حجاب النساء من المفاصد والمهازل ٣٥

التعريف بمنهج الكتاب في نقد الأقوال ٣٧ عيوب نقد القول بالنقل عن نصه
في اقتضاب وغير كفاية ٣٧ حملة مدرّس الفلسفة بجامعة فاروق على تعريفى للغيب
وتعريف الأستاذ فريد وجدى وجوابها ٣٧ - ٤١

من الناس من يتخذ من المناصب الحكومية طبقات في العلم يوشك من ارتقاها
أن لا يصعد إليه صوت ناقد ٤١ مقالة الأستاذ الأكبر المراغى المرحّجة لقراء القرآن
من الأعاجم أن يقرأوها في الصلاة من تراجمه على لغاتهم وتجاهله عند نشر المقالة بعينها
مرة ثانية بعد سنين عما لفت إليه في كتابى « مسألة ترجمة القرآن » من الأخطاء التى
تشتعل عليها تلك المقالة ٤٢

مسألة التصريح بأسماء الذين ناقشتهم في الكتاب ، وقد أشار إلى بعض الأصدقاء

بالكف عن ذكر الأسماء في المعاصرين ، تحتاج إلى شيء من الإيضاح والتمهيد
٤٢ - ٤٦ وليس من حق القارئ النصف أن يتوقع منى عند نقل الأقوال وضع
توطئة لعملية النقد تتضمن مدح أصحاب تلك الأقوال وإكبارهم ٤٤

وأمر ثان وهو أن البعض الآخر ممن قرأت عليهم من أصدقائي بعض أبحاث
الكتاب وجد في أسلوب نقاشه شيئاً من الشدة والقسوة . وجوابي عليه ٤٦ وما قسوت
في القول إلا على الذين قست أقوالهم على أساس من أسس الدين أو علم من علومه
أو طائفة من علمائه ، وما فرطت في جنوب من ناقشتهم وفيهم المفرطون في جنب
الله والمستهينون بالعقل والمنطق ٤٦

القول بأن المعجزات من غير تأويل لا تتفق مع منطق العقل فتخرق العقل
والعادة مما ، ناشئ من عدم التمييز بين خارق المادة الممكن وبين خارق العقل
المستحيل ٤٨

نقول عن « القول الفصل » منبهة على الفرق بينهما أغمض عنها الدكتور الطويل .
ولو كان الدكتور وغيره ممن يصرون على إنكار المعجزات واعتبارها شبهة لا حجة
مثل صاحب المنار ، مصارحين بأنهم لا يأبهون بنصوص القرآن التي أحصيتها في القول
الفصل ، لكونهم غير مخلصين أيضاً في الإيمان بحجية القرآن - لهان الأمر وانتهى
الكلام

موقفي في الكتاب ليس موقف الواعظ ، ولو كان كذلك لكان الرفق واللين
أوقع في النفوس وأنجم ، وكان للوعظ أهل غيري من أهل اللسان العربي ٥١ - ٥٢
وقد يحظر بيال بعض القراء أن كثيراً من المناقشات التي عُنت بها كان المحل
الأولى به الصحف والمجلات ٥١ ولقد رأيت كثيراً من كبريات الصحف والمجلات
الواسعة الانتشار ، واقعة تحت سيطرة كتّاب متأزمين في السعي لإضعاف نفوذ الدين

في المجتمع متلاعبين بأحكامه وقواعده ، ولهذا لا تتسع صدور تلك الصحف والمجلات
ل مقالات الذود عن الدين ٥٢ - ٥٦

مقالتي التي أبت الرسالة نشرها في الرد على ما انتشر فيها من مقالة الأستاذ فريد
وجدي بك المعنونة « الدين في معتزك الشكوك » ٥٧ - ٧٠ المنطق الذي يستهين به
من يستهين من المصريين كالأستاذ رئيس تحرير مجلة الأزهر ومعالى هيكل باشا معلنين
استهانتهم بأن يسموه المنطق الصوري أو التجريدي ، وهو المنطق العظيم الذي يجد
القارى أمثلة ونماذج هامة من عظمته وبراعته في أماكن مختلفة من كتابنا هذا ٦٩

إن لهذا الكتاب المروض على نظر القارى قصة تستحق الذكر ٧١ قول الأستاذ
محمد عبدالله عنان : « وإذا كان الإسلام لم يعتز قط بتركيا يوم كانت دولة قوية شائعة ،
فكيف يحاول اليوم أن يعتز بهذه البقية الضئيلة من تركيا القديمة » والرد عليه
بشهادات شهود من أهل الأستاذ وغيرهم ٧٢ - ٩٠

انظر قول المرحوم محمد فريد بك زعيم الحزب الوطنى المصرى وخليفة مصطفى
كامل باشا : « وقد مضى على الشرق أجيال طوال رأى أهله من أهوال الأحوال
ما تندك به الجبال فانفرط عقد بنييه وتشاغل كل بنفسه عن أخيه وذويه ، فأغار الدهر
بخيئه ورَجَله على الشرق ودوله فتفاسوا ما كان لهم من نخامة الاقتدار وأسكانوا
إلى الذلة والهوان صاغرين وقد أوشكوا أن يقضى عليهم الدمار ويكونوا عبرة لأولى
الأبصار .. لكن العناية الصمدانية تداركتهم فأضاءت الأفق الإسلامى بظهور النور
العثمانى وأمدته بالنصر الدنى والعون الربانى فقامت الدولة العلية بحياطة الدين وحماية
الشرقيين ٧٤ - ٧٥

كان الحاكم فوق الحكومة في الدولة العثمانية هو الإسلام .. فإن كنت في ريب
من هذا فانظر قول (ا د . آنكلهارد) من سفراء فرنسا بتركيا في مقدمة كتابه عن

تاريخ إصلاحات الدولة العثمانية : « إن الإسلام الذى قد كان مؤسس الحكومة فى الدولة العثمانية بقى حاكما مطلقا فوق الحكومة ناظما » ٨١

وقال الأستاذ فرح أنطون صاحب مجلة « الجامعة » الذى ناقشه الشيخ محمد عبده ونجامل فى نقاشه على المسلمين من غير العرب : « إن الأتراك قد حفظوا حياة الإسلام بقوة السيف » وقال أيضا إن ميراث العرب لولا الدولة العثمانية لم يبلغ هذا المقام ، بل ربما لم يثبت بعد أحماجه بضعة أعوام ٧٧

كان صلة الأتراك بالإسلام رغم الأستاذ عنان إلى حد أن لفظ الترك ظل يستعمل أجيالا طويلة على لسان الغربيين كمرادف المسلمين .. صرح به المرحوم على الزينى بك عميد كلية التجارة بجامعة مصر فى كتابه أصول القانون التجارى ٧٩

وانظر قول الأستاذ عنان أيضا إن مصر الإسلامية لم تعرف رغم ما توالى عليها فى عصور الاضطراب والفتنة من الخطوب والمحن نكبة أعظم من الفتح العثمانى ولم تعرف حكما أقسى وأمر من حكم الدولة العثمانية الذاهبة ٨٣

ثم اقرأ قول عبد الرحمن عزام باشا أمين الجامعة العربية : « لما وصل العثمانيون إلى شرق أوروبا وكلها سجون أبدية يتوالد فيها الفلاحون للعبودية ، فكسروا أغلال السجون وأقاموا مقامها صرح الحرية الفردية وتعلمت أوروبا الشرقية على يد محرريها سيادة القانون على الأحساب والأنساب ولم يكن فوز آل عثمان مستمدة من سيف وشجاعة ، بل ما هو أعظم منهما : احترام الحق والخضوع لسلطان القانون والشرع ٨٦

وقول صديق المرحوم شكيب أرسلان فى « حاضر العالم الإسلامى » : احترام المعاهدات والعمل بموجب الحكمة المعطاة الذى يدور تاريخ العثمانيين كله عليه ناشئ من كونهم مسلمين حقيقيين ٨٨ وقوله فى ديوانه يخاطب الأتراك العثمانيين ٨٧ :

أحبكم حب من يدرى مواقفكم في خدمة الدين والإسلام من حقب
وكل غر يمارى في فضائلكم لا يعرف الحشف البالى من الرطب
مجدى بعمان حامى ملتى وأنا لم أنس قحطان أصلى فى الورى وأبى

وأخر رد على الأستاذ عنان تولاہ کتاب «تاريخ أوروبا الحديثة» تأليف رتشارد لوج
وتمريب محمد عبد الله عنان ، حيث قال : « و سر نجاح الترك يرجع إلى استبسالهم في
تضحية نفوسهم وهى عاطفة الجهاد التى غرسها الإسلام فى قلوبهم ، وكذا يرجع بالأخص
إلى حسن إدارتهم الدينية والحربية ٩٠

دامت عزة الإسلام إلى أن أخذ يطرأ الضعف على صمصام الدولة العثمانية ، فبعد
ذلك بدأ الإسلام يضعف يوماً بعد يوم ويسير جنباً لجنب مع ضعف شوكتها ٩٠ تجريد
الإسلام من قوة السيف - كما يسمى إليه كثير من حملة العلم والقلم بعصر - يصير
كتجريد الإسلام من غزوة بدر الكبرى ٩٠

ومن غريب المصادفات الهامة أن اكتشاف الآلات الجديدة الحربية الذى كان
مبدأ قوة الدول الغربية وضعف دولة الإسلام المجاهدة فى سبيله ، لا يختلف زمانهما
عن زمان رواج العلم الحديث فى الغرب ، ذلك العلم الذى يدور مع الحس والتجربة ولا يعتمد
بحجة العقل ، على الرغم من أنها كانت مستند أساس الدين طيلة قرون الإسلام التى
راج علم الكلام فيها واحتفظ برواجه مدة احتفاظ الأمم الإسلامية برواج الدين فيما
بينهم ٩٠ - ٩١

وزادت فى إضعاف المسلمين وإضعاف الرابطة الدينية فيما بينهم بل وفى ضعف
الإسلام فى قلوبهم ، بقدر ما أضعف السلاح الحديث والعلم الحديث من كل ذلك -
فتنة النزعات القومية الداخلة فيما بين الأمم الإسلامية تقليداً منهم لأنهم الغرب وإغراء
من تلك الأمم بينهم بواسطة تلك النزعات .. فقد قرأت كتاب «حاضر العالم الإسلامى»

من ترجمته العربية ، فأحسست منه أن مؤلفه الأمريكي كتبه لتنفير المسلمين العرب من المسلمين الترك . وقد أدخل الإنجليز في برامج المدارس المصرية ، الدعاية ضد عهد الدولة العثمانية بمصر ٩١

المسلمون اليوم أقوام مختلفة أكثر من أنهم مسلمون ، فلا يمنع إسلام قوم أن يناوئهم ويتجرأ عليهم مسلمون من قوم آخر .. فهذا محمد عبد الله عنان العربي الذي ينكر إفادة الإسلام من تركيا يوم كانت دولة شاخنة ويرميها بأشد أنواع الحمجية والتخريب ٩١

ويقوم شيخ عربي نجدى قصيمى فينكر إفادة الدنيا من المسلمين أجمعين في جميع القرون ويرميهم بما رمى الأستاذ عنان به الترك ، حتى قال الأستاذ سيد قطب : «وليس المسلمون هم الأتراك فأجد عذرا ولكنهم أصحاب محمد بن عبدالله وعمر بن الخطاب .. بل القرآن الذي أباح التخريب والتمثيل ٩١

ويقوم شاعر عربي فيقول : ٩١

أليس قريشكم قتلت حسيناً وقام على خلافتكم يزيد
أصبحت لغة العرب بفضل القرآن واعتناء علماء الإسلام بشأنها من كل أمة، بذلك الفضل ، وقد وضعوا علم النحو الذي لا مثيل له في أي لغة الدنيا - أفصح جميع اللغات وأفضلها ٩٢ وفي الأيام الأخيرة أخذت نفمة جنونية تسمع في مصر من الكتاب المستصعبين لعلم النحو العربي ، داعية إلى إلغاء هذا العلم أو تعديله على وفق أهواء الجاهلين بالنحو ٩٢

ومن عجائب مصر المضحكات المبكيات أن واحداً من أكبر أعضاء المجمع اللغوى اقترح استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية وحاول سد الفراغ الحاصل من وجود حروف في لغة العرب لا مقابل لها في الحروف اللاتينية ، بوضع حروف جديدة تُضحك

الشكلى ، نصفها لاتينى ونصفها عربى فأفسد الحروف العربية واللاتينية مما ٩٣

قتله سيدنا حسين من المسلمين العرب وفيهم عمرو بن سمعد بن أبى وقاص من
المشركة البشرين بالجنة .. رضى قتله ووضع جسيده من البطن والظهر تحت أقدام الخيل ،
فى مساومة بينه وبين عبيد الله بن زياد ابن أبيه والى الكوفة يؤليه قيادة جيش القتلة
وبعده أمانة رقة فيقبله الرجل لا يفضا لحمين ولكن حباً بالنصب ٩٣

والجواب على الشيخ القصيمى الطاعن فى المسلمين وكتبتهم أن الآبة زلت فى
رهنط من اليهود نقضوا العهد وكان رسول الله صالهم على أن لا يكونوا له ولا عليه ..
وقد سبق فى تركيا وأنا لم أغادر البلاد أن كتب الدكتور عبد الله جودت صاحب
جريدة الاجتهاد المعروف بزمته اللادينية مقالة عاب فيها على النبي صلى الله عليه وسلم
ما فعله يهود بنى قريظة .. وكتبت أنا فى مقالة الرد عليه أنهم نقضوا العهد فى أخرج
وقت على المسلمين وانضموا إلى أعدائهم .. ونالت مقالتي شكراً من السلطان المغفور له
وحيد الدين ٩٥ - ٩٧

ما وقع فيه معالى مؤلف « حياة محمد » من خطأ التوجيه لانهاء حرب الأحزاب
بسلام على المسلمين ٩٦ - ٩٧

استمر تقهر الدولة التى تولت الجهاد فى سبيل الإسلام من استمرار تألب أعدائه
عليها واستمر معه تقهر مكان العلم القديم الذى تولى قرونا طويلة الحاجة لاتصار عقائد
الإسلام ، أمام العلم الحديث المبني على الحس والتجربة .. استمر تقهر المسلمين من
الناحيتين ، حتى إنه لما ختمت الدولة العثمانية أنفاسها وانسلخت الدولة المحتلة مكانها
من صيفتها الإسلامية ، استتبع هذا الانقلاب الخاص بتركيا انقلابات كثيرة فى البلاد
الإسلامية الأخرى أيضا ٩٧ - ٩٨

وما زاد فى طين الضلال بلة انهصار لقب العلم عند المتسامين المعصريين فى العلم

الحديث الذى يتمرد على الأديان فيقذف بها جميعا إلى عالم الأساطير أو على الأقل لا يثبتها ولا ينفىها .. فهم لا يرضون بغيره من العلوم الدينية المعروفة عندنا علما .. وعلى هذا يكون إسلام خارجا عن ساحة العلم كالفكرانية وقد ادعاه الأستاذ فرح أنطون عند مناقشته الشيخ محمد عبده ٩٩

وهناك مسألة أخرى وهى أن هذا الشيخ الذائع الصيت بكافح الأستاذ الذى ضرب أساس الأديان بمعول التشكيك .. ثم نراه ومن تتلمذوا عليه ينكرون معجزات الأنبياء ويسمعون لتأويلها، مع أن إنكار المعجزات ليس إلا رمزا لإنكار النبوات وأن أساس الدافع إلى هذه الإنكارات هو العلم الحديث الذى لا يقبل الخوارق ٩٩

إن مصر فى حاجة إلى نصر دينها الذى يوشك أن يتغلب عليه الإلحاد لقوة دعائه وانقسام العلماء المكلفين بمحاربة الدين على أنفسهم ١٠٠ فهل لى أن أكون القائم بهذه المهمة على الرغم من شتات شملى وضعف صحى ؟ . هل لى أن أجذب بين مفارقة الشباب ومفارقة البلاد والأحباب ما يعوضنى عن كل ذلك بما هو أعز من الكل وهو خدمة الإسلام ؟ ١٠٠

على أن بى ضعفا آخر كدنت أنساه وهو ضعف اللغة مع ما كان فى طبيعتى من شدة الحرص على التعمق فى بحث المسائل، فكيف يكون لى الجمع والتأليف بين ضعف اللغة والتعمق فى معضلات الأبحاث ؟ . أضف إلى ذلك أن القارىء المصرى ينجذب فى الغالب إلى قوة اللغة وجمال الأسلوب . لكننى أرجو الله تعالى أن يجعل ضعفى فى اللغة وما يؤدى إليه من معاناة الصعوبة عند الكتابة ، ثقلة للكتاب فى ميزانى يوم عرض الأعمال ، لا ثقلة على قارئه فى الدنيا . والله تعالى قادر على أن لا يخيب سائله ١٠١ - ١٠٢ انتهىنا من قصة الكتاب ، وقد فهم منها سبب تأليفه إجمالا .. لكننا لا نكتفى بذلك ١٠٢ أصحاب الشكاية عن جمود الدين غير مخلصين فى نواياهم .. يبتغون الهدم لا التيسير ١٠٣

معالي هيكل باشا مستيئس من إحياء الفكرة الدينية في قلوب الناس مبتدئاً من إثبات وجود الله على الطريقة العلمية ١٠٥ مؤلف حياة محمد التجأ إلى سيرة نبينا ودل الناس عليها لعلهم يجدون فيها ما لا يجدون في العلم والعقل من طريق الوصول إلى الدين وواضعه جل شأنه ١٠٦ وقد يلاحظ في أسلوب معاليه بعض الشبه بإيمان المسلمين في عصر النبي ١٠٧

معالي المؤلف معلول العقلية بداء إنكار المعجزات غير معجزة القرآن ١٠٨ قوله لم يذكر التاريخ أن المعجزات حملت أحداً على أن يؤمن .. وجوابه ١٠٩ - ١١١ وانظر قول الإمام الرازي إن النبوة تنطوي على ثلاث معجزات ولا تكون النبوة بدونها نبوة ١١١

يجب على من يريد إثبات الدين أن يتشجع ويبدأ الأمر من إثبات وجود الله إن لم يكن بالعلم الحديث فبالعلم القديم ١١٢ أمامنا ثلاث مسائل .. إثبات وجود الله ووجود منصب النبوة ووجود معجزة النبي ١١٣ كتاب الأستاذ العقاد الحديث (الله) ١١٣ إثبات وجود الله أهم وأقدم من إثبات وجود رسل الله ، ودليل وجوده أقوى وأظهر من دليل وجودهم . وأنت تجد الكثرة الساحقة من الفلاسفة مؤمنين بالله والقليل منهم مؤمنين بالأنبياء ١١٤ والمذهب السائد اليوم في الأوساط المثقفة هو الاعتراف بوجود الله دون وجود الأنبياء ١١٦

أستاذ مجلة الأزهر يحاول إثبات وجود النبوة بوجود العبقرية ١١٧ - ١١٨ هذا الأستاذ له في مراحل خضوعه للعلم ، كلام يحاول ترويقه في سوق المساومة على وجود الله أسخف من كلامه في سوق المساومة على نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .. مسألة وجود الأثير ١١٩ - ١٢٠

استهانة الأستاذ بالأدلة العقائية المنطقية ١٢١ وإذا كان داء الرء في عقله ومنطقه فلا دواء له ١٢٤ مؤلف «حياة محمد» وضع جميع كتب السيرة والحديث تحت شبهة

الكذب لثلاثي يصدّق الروايات الواردة فيها عن معجزات نبينا الكونية ١٢٥
الدكتور شبلي شميل معرّب كتاب بوختر في شرح مذهب داروين ، يسمّى
الإيمان بالدين إيماناً بالمعجزة المستحيلة . ومن أخطاء الرجل الفاضحة أنه يرى في الإلحاد
سعادة الدنيا ١٢٦

النقاش بين الشيخ محمد عبده والأستاذ فرح أنطون وقوله جواباً لنقد الشيخ
المسيحية بأنها لا تتفق مع العقل : « إن كل دين كذلك لا فرق فيه بين المسيحية
والإسلام لأن الدين هو الإيمان بخالق غير منظور ووحى ونبوة ومعجزة وآخرة وبعث
وحشر الخ وكلها غير محسوسة ولا معقولة » ١٢٧ ثم قال الأستاذ إن المدو الحقيق للأديان
في هذا الزمان لم يعد منها بل صار خارجاً عنها وهو المبادئ المادية المبنية على البحث بالعقل .
وهذا الكلام يستهدف انتقادات واسعة في أمكنة مختلفة من هذا الكتاب ..
حتى أني قلت في أحدها إن الكتاب استئناف المناظرة التي جرت بين الشيخ محمد عبده
والأستاذ فرح أنطون . وسلفاً أقول هنا وأزيد على قول الأستاذ الذي تعزّى بمعاداة
العلم الحديث المادى للإسلام كمعاداته للمسيحية : إن ذلك العلم أضرّ بالإسلام أكثر
من المسيحية وإن كان الإسلام المتضرر إسلام المتعلمين المحدثين .. وتوضيحاً لهذا رأيت
أن أنقل القسم الأول مما كتبت في التقرير المتقدم إلى وزارة الأوقاف ١٢٨ - ١٣٢

وكانت فيما ادعى الأستاذ فرح في مقالته حاجة الأمم إلى فصل الدين عن الدنيا
وعن سياسة الحكومات وقد عازا رقي أوروبا إلى العمل بهذا الفصل كما رأى سبب
تأخر المسلمين في إهمال العمل به .. وخصمه الشيخ حمل تأخر المسلمين على جمود
علماء الدين ١٣٣

وبالنظر إلى اشتها اسم الشيخ وإكباره يُظن أنه الغالب في النقاش المذكور ،
لكن ما نراه اليوم في جو مصر الثقافي من غلبة فكرة الإلحاد على الإيمان يثبت
عكس ذلك .. فلو كان الفوز والغلبة في جانب الشيخ لما ارتكزت في نفوس الجيل التعلم

القريب العهد بزمان الشيخ ، عقلية اعتبار الدين في جانب والعقل والعلم في جانب آخر كما هو رأى الأستاذ معارض الشيخ ١٣٣

أما النهضة الإصلاحية المنسوبة إلى الشيخ نخلصه أنه زرع الأزهر عن جموده على الدين فقرب كثيراً من الأزهريين إلى اللادنيين خطوات ولم يقرب اللادنيين إلى الدين خطوة ١٣٣-١٣٤ حكاية تحديه مشايخ الأزهر في إثبات وحدانية الله تعالى نقلا عن كتاب الأستاذ محمد صبيح المسمى باسم الشيخ ١٣٤ - ١٣٨

ويقول هيكل باشا إن الشيخ محمد عبده وزملاءه لم ينجحوا في إحداث مزارع المتعصبين على الإسلام من أبناء الغرب لكونهم لم يسلكوا الطريقة العلمية في دفاعهم ولكونهم قد اتهموا بالكفر والزندقة ١٣٨

الطريقة العلمية التي عاب معاليه الشيخ وزملاءه بأنهم لم يسلكوها يلزم أن تكون الطريقة العلمية التي يفضلها الأستاذ فريد وجدي على الطريقة المنطقية ١٤٠ والشيخ ومن معه إما لم يفتنوا المحال الضعف في دفاعهم عند الغربيين أو فطنوا لها ولم يقدروا على مجابهة الخصوم بإثبات القوة لما يستضعفونه وتبيين الخطأ فيما يدعونه ويتمسكون به من الانقلاب في نظام الاستدلال ، كما نفعله نحن إن شاء الله ١٤١ ما هو حقيقة موقف الشيخ من الدين ؟ هل هو صديقه الساهر أو عدوه الماكر ؟ وماذا سر أصرار الأقلام المصرية على إكباره ؟ مع عجزه عن إثبات وجود الله ووحدانيته رغم تبججه بأنه المثبت الوحيد ١٤٢ الشيخ يغلب علماء الأزهر والأستاذ فرح أنطون يغلب الشيخ ١٤٤

الشيخ جمال الدين الأفغانى لم يستطع أن يسحر علماء استانبول برسائله التي أنجحها في مصر فلعب دورا هاما في هدم الأزهر القديم ١٤٤ من أسباب شيوع الإلحاد بمصر عدم كون الكتب الفلسفية الهامة سهلة الدرس والمطالعة وكون الاهتمام بتدقيق المسائل وقتلها بحثا غير معتاد في الأوساط العلمية ١٤٥ وقد كان لإهراع من استطاع سبيلا من الناشئين إلى الغرب أثره غلثم من مناهله

غير مكثرين بالمحافظة على كيانهم الإسلامى ، أثرٌ فى تكون الجو اللادبنى بمصر ١٤٥
عصر الإلحاد فى فرانسة ، قال بول ثرانه مؤلف تاريخ الفلسفة : « لم يؤلف فى
أى قرن ما أُلّف فيه من الكتب الكثيرة لإثبات وجود الله » ١٤٥ قول الماديين :
الإنسان آلة ميكانيكية وجسم متحرك من غير إرادة . . . ورد مونتسكيو عليهم قائلا :
ما أبعد أن تكون قدرة عمياء خلقت ذوى العقول ١٤٦ - ١٤٧

أصحاب الفلسفة الإلحادية وبالتعبير المصرى الوضعية كانوا عاملين فى زيغ فرنسا إلى
الحكومة اللادينية ولم تخلُ أقوال معالى هيكىل باشا وأستاذ مجلة الأزهر عن التنويه بفلسفتهم
حتى قال الثانى إنها أدق وأصدق الفلسفات المصرية فى أصولها الأولية ١٤٧ - ١٤٨
قول هيكىل باشا عن اتهام الشيخ محمد عبده وغيره من العلماء بالسكفر والزندقة :
« إنه كان عميق الأثر فى نفوس الشباب المتعلمين حيث شعروا بأن الزندقة فى نظر جماعة
من علماء المسلمين تُقابل حكم العقل ونظام المنطق وأن الإلحاد قرين الاجتهاد كما أن
الإيمان قرين الجود ١٥١ لذلك انصرفت نفوسهم عن التفكير فى الأديان وأخذوا يقرأون
كتب الغرب يلتمسون فيها الحقيقة ، اقتناعاً منهم بأنهم لن يجدوها فى كتب المسلمين » ١٥١
ولم يكن معالى الباشا منصفاً فى اتهام العلماء بمعاوأة حكم العقل ونظام المنطق ١٥٢
ذلك المنطق الذى يحمله معاليه تارة ويحتقره أخرى محترماً مطلقاً إذا كان منطق الغربيين .
وكان أبشع أقواله وأمسها بكرامة مؤلفى الإسلام وكتبهم وصفه لمؤلفى الغرب بصدق القصد
وخالص التوجه إلى المعرفة ابتغاء الحق ، مما لم يجدوه حتى فى كتب أئمة الإسلام الأقدمين ١٥٣
وقد أخذنى العجب كل الأخذ من قوله بعد المقارنة الظالمة بين مؤلفى الإسلام ومؤلفى
الغرب : « انصرفت نفوس الشباب المتعلمين عن التفكير فى الأديان وفى الرسالة الإسلامية
كيلا يشور بينهم وبين الجود حرب لائقة لهم بالانتماء فيها » والدكتور المؤلف المحارب
نفسه صعد إلى كرسى الوزارة وكذا مؤلف كتاب « الإسلام وأصول الحكم »
الفصول بسببه عن الأزهر ١٥٦

ولأن يكون معالى مؤلف حياة محمد قد جمع أخطاء جمّة في صفحة واحدة من مقدمة كتابه ، أثنى في مختتم كلامه على المبدأ الغربى المتعلق بفصل الدين عن الدولة ١٦٢ مناقشتى الأستاذ فريد وجدى على صفحات الأهرام لكونه ينكر معجزات الأنبياء ويحمل الآيات الواردة عنها في كتاب الله على التشابهات ١٦٥ - ١٨٦

قد أدهشتنى عقلية الأستاذ في زعم أن معجزات الأنبياء مستحيلة عند العقل وزعم أن الحكم باستحالتها مقتضى العلم كما أنه مقتضى العقل .. يملأها على صفحات الأهرام ، ولا يقابلها رأى العام الإسلامى بالاستنكار حتى ولا إفشائه عن نوايغ البلاد الإسلامية من الكتاب والشعراء في استبطانهم الإلحاد تماشياً مع العقل والعلم ، ولا يكون بين إعلان هذه العقلية عن نفسه وبين تعيينه مديراً ورئيس تحرير لمجلة « نور الإسلام » الأزهرية إلا بضعة أيام ١٧٣

مناقشة استاذ يكتب مقالة من باريس إلى لجنة المباراة الصحفية بالقاهرة ويكسب الجائزة الأولى ١٨٦ - ١٩٨ من مناقضات كاتب المقالة لنفسه الدالة على عدم إلمامه بالباحث العلمية التى يتكلف التكلم فيها ، أنه قال بعد رى علماء الكلام بعدم الفهم لقدرة الله أو تفهيمها للناس : إن النظام المطرد فى العالم وتسلسل الملل والمملولات أدل على قدرة الله اللامتناهية من ذلك التصور الركيك الذى يحمل من قدرته وسيلة لتغيير النظام الذى فطرته وأبدعته ١٩١

الأستاذ يحمل من قدرة الله اللامتناهية وسيلة لإغناء الكائنات عن وجود الله ولا يرى ما فيه من الركافة البالغة حد الاستحالة وهى قدرة الله على أن تجعل سلسلة الكائنات مستغنية عن الله ، فتجعلها أى الكائنات موجودة من غير حاجة منها إلى وجود الله ، فبالنظر إلى أن هذا الجمل من الله فالله موجود وبالنظر إلى وجود الكائنات من غير حاجة إلى وجود الله فالله غير موجود . فهذا تناقض ناتج من كلام الأستاذ فى مقالته ١٩٢

مناقشتي الأستاذة محمد أحمد الغمراوي ومحمد فريد وجدى وأحمد أمين بك ومحمد يوسف والشاعر إقبال ، دفاعاً عن علم الكلام والأدلة العقلية اللذين استهان بهما أولئك الأستاذة ١٨٦ - ٢٨٢

قول علماء الإسلام الأعلام مثل القاضي عضد الدين الإيجي صاحب المواقف والسيد الشريف الجرجاني شارحه والإمام القشيري صاحب الرسالة المشهورة ، في إكبار علم الكلام وسمة دائرته ٢٠٣ - ٢٠٥

أستاذ مجلة الأزهر لا يعرف - لعدم معرفته بعلم الكلام - أن الحصول على الدليل الملموس لإثبات وجود الله محال. وما ذنب علم الكلام الذي يكرهه الأستاذ؟ ٢١٢-٢١٣ علماء الكلام المساكين وعلمهم المغموط يطمئن فيهم ابن رشد الأندلسي وصدر الدين الشيرازي صاحب الأسفار الأربعة بمخالفتهم الفلاسفة اليونانيين والأستاذ الغمراوي بموافقهم ، وكذا ابن تيمية وابن قيم الجوزية ومن تابعهما ، ويعاديهم المتصوفة أصحاب مذهب وحدة الوجود ٢٢٤

مقارنة الأستاذ أحمد أمين بين قوة العقل والمنطق وبين قوة القلب في تأييد الإيمان بعد مقارنة بالثجربة وتفضيلها عليهما وتبيين خطأ في المقارنتين وتمييز الفاضل والمفضول ٢٥٨ - ٢٦٠ هاجم رئيس تحرير مجلة الأزهر علم الكلام ، وكان صنيعة هذا اقتراحاً ضمناً لإلغاء تدريس هذا العلم في الأزهر من غير إقامة علم من العلوم الإسلامية مقامه ، لكن الأستاذ أحمد أمين بك على الرغم من تسليمه يرجحان براهين العلوم التجريبية لم يقع في سذاجة الاستجارة من التجارب الحسية لاكتشاف وجود الله .. وامتاز عن الأستاذ الأول أيضاً ، فذكر خلفاً لعلم الكلام وهو التصوف ٢٦١

قول الإمام الرباني مجدد الألف الثاني في تفضيل أقوال العلماء على كشف وإلهام الصوفية ، لأن سندهم تقليد الأنبياء عليهم السلام المؤيدين بالوحي المعصومين عن الخطأ والغلط ٢٦٥ أما الإمام الغزالي فقد أتى فيما نقل عنه أحمد أمين بك بالعجيب المغيب

حيث يرفع الأمان عن شهادة العقل والحس وعالم اليقظة.. وفي تصوفه القائل بوحدة الوجود خطر كبير ٢٦٦ - ٢٦٧

إن تيار الإلحاد الغربي وجد السبيل إلى الشرق الإسلامى من أحد البايين : المادية والريبية ٢٦٩ ريبية الأستاذ أحمد أمين بك أشد من ريبية الغزالى ٢٧٠

وهناك أستاذ آخر من المدرسين فى الأزهر كتب مقالات فى « منبر الشرق » ودخل فى مسائل مهمة ثم خرج غير مؤت شيئاً منها حقه فى البحث.. وهو أيضاً يتهم علم الكلام بعدم إزالة الشكوك ويرى الخلاص منها فى الالتجاء إلى التصوف وتراه لا يلبت فى أن الدين يسع حرية التفكير أو يحظرها ٢٧٠ قصة فى المقارنة بين العقل والقلب يخطئ فيها كاتبها ٢٧٤ - ٢٧٧ وخطأ المقارنة بين العلم والعمل ٢٧٧ - ٢٨٢ نحن ملتزمى الدفاع عن علم الكلام اهتماماً بعقائد الإسلام وصيانتها من اعتداء المعتدين ، لا نضيّق علينا موضوع الدفاع بأن نقصره على المسائل التى اعتاد المؤلفون فى علم الكلام أن يشتغلوا بتدقيقها ، بل نتوسع فندخل فى ساحة الاهتمام الناحية الاعتقادية الموجودة فى الأعمال الدينية ٢٨٢ - ٢٨٣

وباء السفور ٢٨٢ - ٢٩٤ هل يملك أولو الأمر تحريم تعدد الزوجات ؟ ٢٩٤ مسألة إهمال النص وترجيح العمل بالمصلحة ٢٩٤ - ٣٠٠

كاتب مقالتين فى مجلة الأزهر يطعن على منطق أرسطو مع الطاعنين فى زعمه من المتكلمين ، أو يطعن على المتكلمين لعدم اعترافهم بمبدأ التناقض من منطق أرسطو ٣٠٠ - ٣٠٦

فتنة الفن القصصى فى القرآن ومكافحة أبطالها الأساتذة خلف الله صاحب الرسالة المقدمة إلى كلية الآداب بجامعة فؤاد لينال الدكتوراه وأمين الخولى المشرف على الرسالة وتوفيق الحكيم المدافع عنهما بحرص وحماسة بالفتن مبلغ دعوة المرحوم النقراشى باشا رئيس الوزراء إلى الاستقالة إن لم يطفى ثورة الثائرين على الرسالة بدافع الغيرة على الاحتفاظ بكرامة القرآن ٣٠٦ - ٣٣٢

الأستاذ توفيق الحكيم يغضب على مطران أنجليزى طعن في صدق العقائد المسيحية المتعلقة بحياة سيدنا المسيح بعد موته وفي عذرة أمه، ويحامي عن الطاعنين في صدق القرآن بجميع ما فيه ٣١٠ ويخطئ في قوله عن غاندى « إنه عاش كما عاش المسيح ومات مقتولا بيد عشيرته كما قتل المسيح » ثم يحقن على كاتب يرشده إلى الحق والصواب ٣١١ ومن عجائب المحاباة من الأستاذ الحكيم أنه يحكى شكوى أستاذ الأدب في الجامعة الفاحص للرسالة ثم القائل برفضها ، من كون الجهات الرسمية منعت عن الكلام .. يحكيها ثم يعلق عليها بما يخيل للقارى أن الجهات الرسمية منعت صاحب الرسالة من الكلام لا الأستاذ الفاحص ٣١٤

ثم من أعجب المجائب أن التهمين لصاحب الرسالة من الجامعيين وغير الجامعيين يقطعون التهمة في الرسالة والمشرّف عليها ولا يمدونها إلى الأستاذ الإمام ، على الرغم من أن المدافعين عن الرسالة يستندون إلى أقوال الأستاذ الإمام المتفقة مع ما وزد في الرسالة وهاج الثائرين عليها ٣٢٠ وممن كتبوا في بحث رسالة الفن القصصى في القرآن الأستاذ سيد قطب وهو يمتاز عن غيره بحملاته على الطرفين من أصحاب الرسالة والثائرين عليها ٣٢٤ - ٣٣٠

نصوص كتاب الله على وجود طائفة من عباده تسمى ملائكة ٣٣٢ - ٣٣٦ المقالة التي كتبها جوابا على خطاب الأستاذ أحمد حمزة بك صاحب مجلة لواء الإسلام، ثم عدلت عن إرسالها ٣٣٧ - ٣٤٤ الأستاذ الإمام وكتاب الله في كفتى الميزان ٣٤٥ - ٣٥٢ الرد على الشعر المنشور في الأهرام بعنوان « النبي الجديد » ٣٥٣ - ٣٥٨ رأى العام العلمى السائد في مصر مسموم منذ نشوب النقاش بين الشيخ محمد عبده والأستاذ فرح أنطون ٣٥٨ لم يبق مما أنكره ملاحدة الغرب الماديون إلا وأنكره هواة العلم الحديث بمصر ولو كان من علماء الدين .. فضيلة الشيخ شلتوت يفكر وجود الشيطان ٣٦٠ - ٣٦٤

لما لم تنتج المناقشة الجارية بين الشيخ محمد عبده والأستاذ فرح أنطون غلبة الحق على الباطل وجب استئناف تلك المناظرة ٣٦٤ وإنى أردت أن أكون القائم بهذا الواجب الكبير مع عجزى وغربى بمصر وباللغة العربية ، وهو شكرى وخدمتى لمصر التى آوتنى وأسرتى والتى كانت لها سمعة قديمة فى الإسلام ومكانة معروفة فى علومه ٣٦٦ فهذه وهناك مسألة وحيدة الوجود ومسألة فصل الدين عن الدولة ٣٦٦ - ٣٦٧ فهذه أربع مسائل يتكون منها موضوع الكتاب ، كما أن مسألة الإيمان بالقدر الذى يؤول إلى عقيدة الجبر عُثِيت بتحقيقه مرة ثانية ٣٦٧

قول الأستاذ فريد وحدى «إن الشعب التركى الذى أشبهه الشعوب الحية فى دخوله أدوار الانقلابات الاجتماعية ليستحق منا كل الإعجاب وكل التشجيع ، فإننا سنمر فى كل الأدوار التى مرّ بها الترك متى جاء دورنا فى نهوض حقيقى صحيح» ٣٦٨ - ٣٧٠ سؤال مفروض أورده على دفاعاً عن الأستاذ فريد وحدى ، ثم أجيب عنه ٣٧١ - ٣٧٨ انقلاب الأستاذ إلى مضادة العلم الحديث المادى بعد أن اتخذ سلاحاً هائلاً لهدم الدين ٣٧٩ - ٣٨٦ يكاد لا يوجد فى الدنيا مثال لمناقضة النفس أبلغ وأظهر مما ناقض الأستاذ بعد توليه الوظيفة الأزهرية ، نفسه قبل توليها ٣٨٣ بل لا يكاد يوجد مثل مشيخة الأزهر انتدبت لبناء الدين من سعى لهدمه .. ولا أدرى أى الموقفين أعجب وأمس بكرامة الواقف ، أموقف الذى احتاج إلى شخص الهادم لأمر البناء ، أم موقف الهادم المتولى بناء ما هدم ؟ ٣٨٤

وجد عجيب من الأستاذ تحوله ضد الفلسفة المادية ، لا من قبيل تصحيح الخطأ ولا من حيث لا يشعر .. بل من حيث لا يشعر ٣٨٥ الأستاذ عند التكلم عن الفلسفة وعلوم الغرب لا يتكلم بيزان يميز النافع للدين من الضار بل الحق من الباطل ٣٨٧ - ٣٩١ الأستاذ يضع الإيمان بالغيب فى مقابل الإيمان بالواقع ، كأن الإيمان بالغيب المُشْتَمَل على أصحابه فى كتاب الله إيمانٌ بخلاف الواقع ٣٩٢ الحاصل أن الناظر المدقق يرى

الأستاذ في دورة دفاعه عن الدين أى في دورة البناء أيضا لا يُقْلَع ولا يتخلى عن الهدم..
كما أن دورته المتقدمة المتحاملة على الدين كلها هدم ٣٩٣

ومحور تجميع البحث الذى تدور عليه أفكار الأستاذ وأقواله أن الدليل العقلى
المنطقى الذى أقنع علماء القرون الماضية لا تُقنع المصريين .. ولكن المهم أن نعرف
هل عدم اقتناعهم اليوم به من عيب فى الدليل العقلى نفسه أم العيب والتقصير فى الذين
لا يقتنعون به ؟ ٣٩٤ - ٣٩٦

نعم ، يمكن أن يقال لا يستطيع كل أحد تمييز صحيح الدليل العقلى من سقيمه كما
قال الأستاذ فعلا عند الطمن فى هذا الدليل .. فالدليل التجربى إذن - الذى يسميه
المصريون الدليل العلمى - يكون دليل العامة ، والدليل العقلى المنطقى - الذى يعد
منطقيا عند استجاءه لشروط الصحة - يكون دليل الخاصة .. والمولون عليه كالأخصائيين
القادرين على تمييز الأحجار الكريمة الثمينة من زيفها ورخيصها ٣٩٦ - ٣٩٦

أذكر مثالا للدليل العقلى داخلا فى موضوع الكتاب ، وأتحدى به الذين لا يعمون
على الأدلة العقلية لاحتمال الخطأ فيها .. فإن كان فى استطاعتهم نقضه فليناقضوه ٣٩٦
وإذا لم يبن الأستاذ مسألة إثبات وجود الله على الدليل العقلى المنطقى فإن كان ينتظر
إثباته تجريبيا من مستقبل البحوث النفسية فإنى أقول من غير انتظار لنتيجة تلك
البحوث إن البحث النفسى ولا أى علم تجربى لا يعطينا بوسائله التجريبية دليلا على
وجود الله ، وأعنى بذلك أنه لا يستطيع أن يعطيناه وهو أقل من أن يعطيه .. نعم
إن دليل العلم التجربى لا يكفى إزاء عظمة المسألة ٣٩٧

مقالة كتبها بمناسبة نقاش بين أستاذين ردا على تصور علاقة الدين بالبحوث
النفسية ٤٠١ - ٤٢٢ الأستاذ المنقبادى ينتظر من مستقبل البشر أن يكشف لكل
داء دواء ويتغلب على الموت ٤٠٤ أنا لا أرضى أن يكون ديننا مترجما من الغرب مع كل
نبي مترجم عنه بمصر ٤٠٦

لا أقبل خصيصا قول الأستاذ اتباعا لما قررته الفلسفة الوضعية من أن كل معقول

لا يؤيده محسوس فلا اعتداد به .. بل أعده أكبر خطأ إن جاز صدوره عن قلم أحد فلا يجوز عن قلم رئيس تحرير مجلة الأزهر.. والمعجب أن الأستاذ يتمسك بذلك القول الذى هو دستور الماديين ، فى الرد على الأستاذ المنقبادى المادى ٤٠٧

إن التمسك بهذا القول يتنافى مع مصلحة من يدافع عن الدين لحد أن إثبات وجود الله الذى هو رأس الدين لا يمكن إلا بعد إبطال ذلك القول ٣٠٨ ماذا يتصور أن تكون نتيجة البحوث النفسية ؟ فلنفرض أنهم وجدوا الروح على الرغم من عدم اعتراف الأستاذ المنقبادى بذلك ، لكن أساس الدين لا يقوم على وجود الروح بل على وجود الله، ولا يلزم وجود الله من وجود الروح إلا بقدر ما يلزم من وجود أى موجود ممكن وجود موجود واجب ، ومنه الرجوع فى إثبات وجود الله إلى الدليل القديم العقل ٤٠٨ - ٤٠٩ .

فإذا لم يبق للماديين بعد تلك البحوث النفسية التجريبية مجال لإنكار وجود الروح يُفتح لهم باب لإنكار وجود الله أوسع مما كان قبلها ٤٠٧ . إن وجود الله لن يكون موضوع التجربة ، فإذا أمكن إثبات وجود كل شيء بالتجربة فلا يمكن إثبات وجود الله بها ٤١٠

وكما لا تُثبت البحوث النفسية وجود الله لعدم كونه روحاً .. لا تُثبت حتى وجود الروح، لثبوت وجودها قبل وجود الباحثين النفسيين وبحوثهم، والثابت لا يحتاج إلى إثبات ، بل يستحيل إثبات الثابت كتحصيل الحاصل . وقد نص الفيلسوفان الكبيران ديكارت وليبنتر على أن وجود الروح قطعى أكثر من وجود الأجسام ٤١١ - ٤١٢ ومع عدم كون المذهب المادى مذهب التدريب الخالص لأن العلم حتى بوجود المادة لم يكن مؤيداً بالتجربة ، إذ المادة لا ترى ولا تلمس - فعدم الاعتداد بغير التجربة فى استيقان وجود أى شيء، يدفع الإنسان إلى إنكار البديهيات ٤١٦ إن لم يكن وراء هذا الجسم المتغير شيء يستمر ولا يتغير طول عمره يعبر عنه بالروح أو النفس لم يوجد

هناك ما يصح أن يقال عنه (أنا) ضميراً للمتكلم ٤١٧

وليس لمنكرى الروح ما يقولون جواباً عنه غير ما ادعاه الفيلسوف الحسبانى داويدهيوم الذى يصوّر مانسميه الروح ونعمة وجوده، كالحركة بمعنى القطع المعروفة فى كتب المتكلمين والتي لا وجود لها فى الخارج ٤١٩ - ٤٢٠

من الواجب التصريح بتمعّجى من تخصيص الغربيين اسم « العلم » فى الأعصر الأخيرة بما ثبت بالدليل التجريبي دون ما ثبت بالدليل العقلى وتقليد الشرقيين الجدد إياهم من غير تدقيق كما هو دأبهم ، حتى ملأ المصريون كتبهم ومقالاتهم بحديث الطريقة العلمية والأسلوب العلمى إلى حد ممل ٤٢١

إن مناسبة العلم بالعقل أقوى وأشد من مناسبة بالحواس لأن العقل والعلم كلاهما من جنس واحد غير محسوس. قال كوزين « إن العلم إلى بالطبع » فكيف يكون إذن هذا العلم مهنة ملاحظة الماديين والإبتائيين أو الوضعيين دون الحكماء الإلهيين ٤٢٢ ثلاث نظريات للأستاذين فريدوجدى وفرح أنطون وأصراهما من مقلدى الغرب المادى تدل على ما هم فيه من عقيدة مضطربة فى موقف العقل والدين بعضهما من بعض وفى موقف العقل من الحقيقة ٤٣٥ - ٤٤١

إثبات ما قلنا من أن الأستاذين يمتنعان ففكرة إبعاد العقل من الدين الذى يستند إلى القلب مع تأييد القلب ضد العقل .. تلك الفكرة المادية والمسيحية معا ... ٤٣٦ ما أعظم خطأ الأستاذ فريد وجدى الذى حمل سقوط الجيل الحديث من الأمم المتقدمة فى الأخلاق والآداب إلى دركة الإباحة البهيمية ، على طغيان العقل بما بُذلت الجهود الجبارة فى تربيته وتنميته وأهمل الاهتمام بالقلب ٤٣٨ - ٤٤١

المفسرون فسرُوا القلب فى قوله تعالى « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب » بالعقل، على الرغم من قول الأستاذ : « ولم يقل لمن كان عقل » ومنشأ الغلط أن الأستاذ كما التبس عليه الأمر فظن العلم عقلاً، فهو ظن طغيان الهوى طغيان العقل ٤٤١

نعود إلى مناقشة الشيخ محمد عبده والأستاذ فرح أنطون: كان الشيخ قد حمل على النصرانية بعدم ائتمانها مع العقل ، وخصمه لما لم يستطع الدفاع عن دينه ولم يجد ثمة للنيل من الإسلام، صوّب حملاته على جميع الأديان مدعياً عدم ائتمان كلها بالعقل .. وهناك لم يوفّ الشيخ حق الدفاع عن الدين لاسيما الإسلام الذي لا تعارض مع العقل أصلاً في أصول عقائده، فافتتنت عقول الخاصة بدعاية خصمه ضد الأديان وإن كان الرجل قد غلط في وضع المحسوس مكان العقول واعتبار عدم الائتمان بالعلم الحديث المبني على التجربة الحسية، عدم الائتمان بالعقل .. وكان واجب الشيخ الذي عجز عن القيام به مكافأة هذا العلم ووقفه عند حده ٤٤١ - ٤٤٢

افتتن المثقفون المصريون في الشرق الإسلامي بالعلم الحديث وأتبعوه العقل بغير حق فلم يبق من انتسب إلى العقل والعلم إلا واستبطن الإلحاد كما ذكره الأستاذ فريد وجدي وتذهبوا بمذهب الإلثباتيين الذين نوه به هيكل باشا والأستاذ فريد وجدي باسم الفلسفة الوضعية، وجاء قاسم أمين فأعلن شعار المذهب وهو عبادة المرأة ٤٤٢

كان العربي الجاهل القديم إذا بشر بالأنثى يتوارى من القوم من سوء ما يشر به والعربي الحديث العلماني يبدأ خطبته بقوله سيداتي سادتي ولا يتوارى من القوم عندنا خاصر قرينته رجل غيره وراقضها بين ظهرانيهم ، وهذا العربي أيضاً جاهل ولكن من طراز آخر ٤٤٢ - ٤٤٣ قصة أستاذ أزهرى في حفلة جامعة بين الجنسين ٤٤٣

ذكرى قاسم أمين الثلاثين وادعاء ولده قاسم قاسم أمين بأن والده قد سن سنة حسنة له أجزها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ٤٤٤ تأميل الثواب من الله لقاسم أمين من سفور النساء المسلمات كرر في قصيدة الشاعر على الجارم بك .. والقصيدة تتضمن الإشارة إلى أن للأستاذ الإمام أصعباً في تشجيع قاسم ، ومثلها خطبة السيدة هدى الشعراوى بمناسبة الذكرى ٤٤٥ - ٤٤٦

أمل عظيم في تأخير كتابي هذا في عقول الشباب الطرية غير الجامدة على الضلال

الحديث لا سيما جماعة المجاهدين المتسمين شباب محمد صلى الله عليه وسلم ٤٤٧
وقد وقع قبل بضع سنين أن قررت الجامعة المصرية على جعل شارات حراسها
رموزاً من صور آلهة المصريين القدماء ، فكتب المرحوم الشيخ عبد المجيد اللبان عميد
كلية أصول الدين في الجرائد يستنكر هذا القرار فلم تسمع له الجامعة والوزارة
وسكتت مشيخة الأزهر عن تأييد شيخ الكلية ، فاستقرت شارات الآلهة وشكر الله
وحده سمي الشيخ اللبان ٤٤٨

ومما هو جدير بالذكر هنا أنه كتب الدكتور طه حسين بك مقالة في الأهرام تدل
على أن وزارة المعارف بعصره إن صادفت وزيراً يحترم شعائر الإسلام وآدابه استهدف
حملات ساعية لأن تجعله غريباً كالإسلام نفسه فقد سخر الكاتب في مقالته من مرسى
بدر بك لإلقائه الرقص التوقيعى فى مدارس البنات والبعثات منهن إلى البلاد الغربية
وشبه هذا الوزير بوزير المعارف الأسبق محمد حلمى عيسى باشا ٤٤٩ - ٤٥٢ وكتب
ضد قرار الوزير مرسى بدر بك أيضاً كاتب نحو النور فى الأهرام ٤٥٢ - ٤٥٥

وهناك مسألة عدم تدريس الدين فى مدارس المعارف أو عدم اعتبار دروسه من
المواد الأصلية ٤٥٥-٤٥٦ أما الأزهر فالباحث الحازم يتردد فى القول بأنه أحسن حالا ٤٥٦
هل يجوز الشك فى أن نبينا صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء وفى أن قوله تعالى
« ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبیین » يدل عليه دلالة
قطعية لا يمكن تفسيره بغير هذا المعنى ٤٥٦ - ٤٦٢

قصيدة الشاعر المرحوم شوقى بك التى مدح فيها مصطفى كمال وهجا السلطان
وجيد الدين قائلاً إنه أمير الطواغيت يدعى بأمر المؤمنين والتى قلت عنها فى زمن
انتشارها على رأس الأهرام : إن الله تعالى وصف الشعراء فى كتابه بأنهم يقولون
مالا يفعلون لكننى وجدت أولى صفة لهذا الشاعر أنه من الذين يقولون ما لا يفعلون..
وكان معنى قولى ذلك أن ابتعاد الشاعر فى شعره من أفعاله نفسه لا يكون أفضع من

ابتماده عن العلم والشعور . ثم زاد الشاعر في طين الاعتماد عن الحقيقة، بلة لما قال في
تهنئة أنقرة عاصمة الجمهورية التركية اللادينية :

إن الدين بنوك أشبه نية بشباب خير أو شباب تبوك ٤٦٤
وبعد خراب البصرة يقول الشاعر مخاطباً للخلافة :

الهند والهة ومصر حزينة تبكي عليك بدمع سحاح
والشام تسأل والعراق وفارس أحما من الأرض الخلافة ماح؟
نظرة في كون مصطفى كمال بطل نصر الترك الحام في نهاية الحرب العالمية الأولى
٤٦٥ - ٤٦٧

وما قولك في حديث منشور لسعادة حافظ رمضان باشا في مجلة آخر ساعة :
« ما قولك في مصطفى كمال الذي كان فارا في الأناضول ؟ ألم ينشئ جيشاً تحت سيل
من قنابل الأعداء في وقت كان خليفة المسلمين يطالب فيه برأسه لقاء جنهات
ممدودات » ٤٦٧ - ٤٨١

ومن عجائب النكران للجميل ما يروى من بعض العلماء المتعلمين على الشيخ
محمد عبده أنهم كانوا يشكون على الكلام والفقة لحيلولتهما بين المسلمين وصلتهم
بالكتاب والسنة حيث يأخذون دينهم من الكتب الكلامية والفقهية ويهجرون
كتاب الله وسنة رسوله ٤٨٢ - ٤٨٤

نقض كتاب « تحرير المرأة » لقاسم أمين ٤٨٥ - ٤٨٦